الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الثالث



المكتب الإسلامي

الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الثالث

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول تعالى:

﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

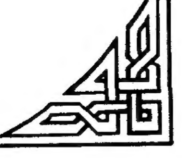
(يوسف: ١٠٨)



فهرس المحتويات

□□□□□□


تأملات
في الواقع الإسلامي



المقدّمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنزل القرآن مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، والصلاة والسلام على الرسول الخاتم الذي انتهت إليه أصول الرسالات السماوية جميعاً، من لدن آدم عليه السلام، وقضّ الله عليه رحلة النبوة التاريخية، ليمتلك البصيرة ويغنىٰ بالعبرة، وتكفل لرسالته بالحفظ من التحريف والتبديل لأن صحة النص الديني من لوازم التكليف ومقتضيات الرسالة الخاتمة، فكانت سلامة الخطاب القرآني: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (الحجر: ٩)، وكانت عصمة عموم الأمة التي آمنت به: «لا تجتمع أمتي على خطأ» ـ وفي رواية: «على ضلالة»، هما خميرة النهوض والإمكان الحضاري في كل زمان ومكان. وبعد:

فلا شك أن الواقع الإسلامي اليوم، لا يزال مؤرقًا على الرغم من بعض البشائر والبصائر التي تحمينا من الانكسار، وتبعث فينا الأمل، وتجدد اليقين بقدرة الأمة على الصمود والنهوض والتواصل الحضاري إذ من غير المقبول شرعاً وعقلاً وواقعاً أن الأمة التي نيطت بها الرسالة الخاتمة، يمكن أن تُلغىٰ من الحياة الإنسانية أو يُسلط عليها أعداؤها تسليط استئصال، وإنما هي توعكات وإصابات وأمراض وعقوبات توقع عليها بسبب تقصيرها وتفريطها، فتشعرها بالتحدي والاستفزاز، ليتجدد شبابها، وتقضي على العناصر الرخوة والشائخة في شخصيتها فتستأنف النهوض من جديد.. والتاريخ هو المعلم والشاهد.

فالأمة المسلمة، استعصت على الذوبان، ولم تخضع لسنّة الموت الحضاري ـ إن صح التعبير ـ وإن خضعت للدورات الحضارية من بعض

الوجوه.. لكن، في أشد حالات سقوطها، لم تفتقد خميرة النهوض والإمكان الحضاري.. ولعل من أهم عواصمها من ذلك، كان دائماً سلامة الخطاب الديني من التحريف الذي يمثل ميثاق الخلاص، وعصمة عموم الأمة التي تشكل الحماية والوقاية من الانحراف.

ولعل القلق الذي يبعثه الواقع الإسلامي في النفس هو من البشائر ومؤشرات الصحة، ذلك أننا لم نفتقد الإحساس بإصاباتنا، ونستسلم لهذا الواقع.. ومن هنا، نسارع إلى القول:

إن أيّ محاولة لتغييب الإحساس بهذا الواقع، وحمل الأمة على الاطمئنان الخادع، وإيهامها بالفجر الكاذب، وتضليلها بفلسفة الهزائم والانكسارات، يعتبر مساهمة في دفنها.

إن القلق من الواقع، وعلى الواقع، هو المهماز الحضاري، أو المنبِّه والمحرض الحضاري الذي لا بد منه باستمرار لاستعادة القابلية، وشحذ الفاعلية، ومعاودة النهوض.. إنه القلق الحضاري، والهاجس السوي الذي يدل على أن الموت لَمّا يصل بعد إلى روح الأمة، وعالم أفكارها، وقيمها، وأن الإصابة اقتصرت على أشيائها وأعضائها.

وعلى الرغم من أن هذا الإحساس السوي، أو القلق السوي الذي أشرنا إليه، هو مؤشر الصحة والسلامة، إلاّ أن هذا الإحساس إذا لم يتحول إلى إدراك يبحث العلّة، ويستقصي السبب، ويكتشف موطن الخلل والتقصير، ويقدم العلاج بجرأة وشجاعة وحكمة، أي إذا لم يتجاوز مرحلة الإحساس إلى الإدراك والتفسير الصحيح للأمور، يُصبح أماني وآهات، وتلاوماً، ومتنفساً، وعلاجاً بالشكوىٰ يكرِّس الواقع ولا يغيره، ويوظف لاستنزاف طاقات الأمة وزيادة استنقاعها وعجزها، بعيداً عن الموقع المجدي والفاعل.

ويمكن أن نقول: بأن أول طريق النهوض هو هذا الإحساس، الذي يعني اكتشاف التناقض بين الواقع وما صار إليه، وبين القيم أو العقيدة وما

تقتضيه.. وإن هذا القلق لا يجوز أن يتوقف حتى يتم تغيير الواقع وفق المراد الإلهي، وعندئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله.

وليست رحلة الإيمان في حقيقتها، إلاَّ ذلكَ الحس والإدراك المناقض لواقع الكفر والوثنية.. فالمحرك للإنجاز الإيماني هو التحدي الوثني الشركي، وإطفاء هذا الحس، يعني انطفاء شعلة الإيمان في النفوس، والركود والقعود عن التغيير.

وقد تكون المشكلة التي تكرِّس واقع المسلمين السيء اليوم، المحاولات المستمرة لإلغاء هذا الهاجس، والتطبيع بين الوثنية والإيمان، وتغييب التناقض والقلق، تحت مقولات يُزعم أنها من الدين! وهنا مكمن الخطورة لأنها إن صدقت، تكسب الرضى والاطمئنان الخادع.. والدين من ذلك براء.. وواقع الصحابة، خير القرون، منها براء.. وفترات الإنجاز الحضاري في تاريخ الأمة الطويل، منها براء أيضاً. ولسوف تساهم بتكريس تخلف الأمة، وعجزها وسقوطها ما لم تُلغ هذه المقولات من أذهان الجيل، ويصوَّب المسار العقلي للأمة.

فالاعتقاد بأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، يعني في حقيقته الموت الحضاري، والقضاء على أي أمل بالنهوض والإفادة من العثرات، ومحاصرة وتحنيط لأفكار الإصلاح وحركات التغيير، واستسلام للواقع، وإلغاء لحرية الإنسان وإرادته، وإلغاء لكل محاولة مراجعة ونقد وتصويب.. وبهذا الاعتقاد، يصبح الركود، والتوقف، والجمود، والتقليد الجماعي، ضربة لازب لا يمكن الفكاك منها.

وما لم نعتقد أنه بالإمكان دائماً أفضل مما كان، بحيث نترجم هذا الاعتقاد إلى ممارسة تحملنا إلى عمليات المراجعة والتقويم، واكتشاف مواطن القصور وأسباب التقصير بدقة وجرأة، فسوف نبقى نراوح مكاننا، وإن توهمنا أننا نقطع المسافات.. والحقيقة، أننا نقطّع الأحذية في المكان نفسه، ونخسر الطاقات في غير الموقع الفاعل.

وليس أقل خطراً من مقولة: (ليس بالإمكان أفضل مما كان)، ما نروِّج له أيضاً في حياتنا الفكرية من أن علينا أن نعمل وليس علينا إدراك النتائج، ذلك لأن النتائج بيد الله.. وكأنَّ هناك تناقضاً بين حرصنا على إدراك النتائج (إحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز)، وبين أن تكون النتائج من مراد الله وتكليفه، وأن ما بثه من سنن وقوانين وكلف به خلقه، إن هي إلاَّ المقدمات المطلوبة للوصول إلى النتائج والحصول عليها، وإن أي تخلف للنتائج، يعني وجود خلل في المقدمات لا بد من تداركه واستدراكه في مستقبل الحياة.

ولو سلمنا جدلاً بأن علينا أن نعمل أي عمل دون ربط ذلك بالنتائج، فنكون بذلك قضينا على دوافع العمل في النفس، وألغينا السنن التي شرعها الله لبلوغ الأهداف، وسلبنا الذات الإلهية العدل الذي يعتبر من أخص خصائصها.. وهل العدل، إلاّ أن يكون الجزاء من جنس العمل، وأن تترتب النتيجة على العمل الصحيح؟ وإلاَّ فما قيمة التكليف والثواب والعقاب على العمل؟

وعلى الرغم من أن العمل بلا نتائج، إبحار في الضياع، وسير في الظلمات، وإسقاط للعقل والعدل، والمنطق، فإن أخطر المخاطر المترتبة عليه:

إلغاء أي تقويم، أو مراجعة، أو اعتبار، أو قياس، أو برمجة.. وهذا يعني تسوية الخطأ بالصواب، والسكوت عن الخطأ، والتخويف من تحديده، ومراجعته، ومعالجته.. بل قد يشتط بعضهم فيرى أن أية مراجعة هي مروق من الدين، وخروج من قدر الله المكتوب، وفي هذا إلغاء للنبوات والرسالات، وإحباط لحركات الإصلاح والتغيير، وإهدار لقيمة العقل في التمييز بين الخير والشر، وإلغاء لإرادة الإنسان التي هي في الحقيقة، مناط التكليف.. ولو أنعمنا النظر بدقة، لعلمنا أننا بذلك وقعنا في حفر غير المؤمنين الذين قالوا مسوغين عدم إيمانهم: ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء﴾ (الأنعام: ١٤٨).

أمـا مُغالبـة القدر بقـدر، والفرار من القـدر إلى القدر، وفهم أبعـاد التكليف الذي نيط بالإرادة الحرّة، فهي أمور مسكوت عنها، لأنها تؤثر على إيقـاع النـوم العـام، وتستفـز العقـل، وتـطلق الملكـات، وتحسن تـوظيف الإمكانات.

ولعل من أخطر النتائج لتلك التصورات البئيسة، والعقـول الكليلة: إلغاء قانون السببية، والقعود عن اكتشاف السنن والقوانين المطردة التي تحكم الكون، والقعود عن التفتيش عن علل الأشياء، والقوانين الاجتماعية، وسنن التداول الحضاري التي تحكم سقوط ونهوض الأمم، والتي كلفنا الله استقراءها من السير في الأرض، والتبصر بالعواقب: ﴿قل سيروا في الأرض فـانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل...﴾ (الروم: ٤٢) وعدم الاقتصار في ذلك على التاريخ الخاص، تاريخ الجماعة المؤمنة، وإنما الامتداد صوب التاريـخ العام لفهم آليات التغيير ومقومات السقوط والصعود.

لقد توقفنا عن السير في الأرض، وتوقفنا عن رؤية السنن في الأنفس والآفـاق، فغابت عنـا علل الأشياء وأسبـابها، وعجـزنا عن إصـابة الهـدف والوصول إلى الصواب: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت: ٥٣).. فالقيم من السماء، والبراهين ودليل الصدق في الأرض ﴿حتى يتبـين لهم أنه الحق﴾ لكن المشكلة اليـوم، بعـدم القـدرة عـلى التبيّن.. فإذا كـان لا يجوز لنـا أن ننظر في العـواقب، فكيف يمكن لنا أن نتبين؟!

إن قعود المسلمين في عصور التخلف والانحطاط، عن البحث في علل الأشيـاء وأسبـابهـا، والتبصر بعـواقبهـا، كـان السبب الحقيقي في التـوقف الحضاري، أو الغياب الحضاري.. ولعل هذا التصور، غـريب عن العقل المسلم، وإنما تسرب إليـه من الخارج الإسـلامي، من علل الأمم السـابقـة الساقطة حضارياً.. ويمكن أن نقول:

إن أوربا لم تستطع النهوض والشهود الحضاري إلاّ بعد أن أقصت رجال

الكنيسة، عن مسيرة الحضارة لأنهم كانوا يحرمون النظر في علل الأشياء وأسبابها، وإدراك سنن التغيير التي أوجدها الله في الكون.. وكان لا بد لنهوضهم، من الإفادة من رصيد العقل الإسلامي، وما منح من الحرية.. وكان لا بد لتخلفنا، من أن نسقط في الغزو العقلي والديني لمفهومات رجال الكنيسة، ونروِّج لمقولات وندافع عنها باسم الدِّين، فينقلب الدين على يد بعض دعاته من دافع إلى النهوض الحضاري، إلى مانع ومعوق لمسيرة الحياة، ويصبح سبباً في الغياب والركود الحضاري، ويكرس التخلف باسم التدين.

ومن الحقائق الحضارية: أن نهوض أي مجتمع، مرهون إلى حدٍ بعيد بظروف وشروط ميلاده.. ويمكن لنا أن ندرك في ضوء ذلك مقولة الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: لا يصلح آخر هذه الأمة، إلاّ بما صلح به أولها.

فأية محاولة نهوض وإصلاح للمسلمين اليوم، مرهونة إلى حدٍ بعيد باستلهام فترة القدوة، والارتكاز إليها، لأنها تمثل فترة ميلاد مجتمع خير القرون، ولأنها الفترة المعصومة، والتجربة العملية المأمونة لتنزيل الوحي على واقع الناس.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر لا بد من الارتكاز على مواثيق الله التي بشر بها الرسول ﷺ من العصمة الممتدة لعموم الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة: (لا تجتمع أمتي على خطأ أو ضلالة).. لكن، يبقى المطروح اليوم: كيف يتحقق الوصول إلى عصمة عموم الأمة؟ ولا نتردد في الجواب: إن ذلك إنما يتحقق بتأمين الحرية، وإتاحة فرص التعبير والتفكير، ومحاربة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، لأنهما يقضيان على عصمة عموم الأمة، ويغلقان قنواتها.

ولعل إشاعة مناخ الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي في الواقع الاسلامي، كان هو السبب الحقيقي والأهم في المعادلة الصعبة، والمأزق الحرج، والنفق المظلم الذي حال دون عملية النهوض والشهود الحضاري.

ولم يقتصر مناخ الاستبداد السياسي، والإرهاب الفكري، ومحاصرة فرص الحرية التي تغني المسيرة، وتسهم في بناء عصمة عموم الأمة، على

المؤسسات الخارجة عن الإسلام، بل لعل الإصابة نفسها لحقت بكثير من المؤسسات والمنظمات والجمعيات التي ترفع الشعارات الإسلامية، بل أصبحت ـ اليوم ـ المضامين تكاد تكون واحدة، وإنّ اختلفت العناوين.

فكثيراً ما نرى الأسوار الحزبية، والمصالح الشخصية تحول دون حرية النقد والمراجعة والتقويم، وتحمي الخطأ والضعف إلى درجة الافتتان بالنفس، والإبحار في التاريخ الخاص والواقع التي هي عليه، وإن ادعت غير ذلك، وخطبت وكتبت فيه.. لكن، تبقى الحقيقة: إقرأ تفرح، جرِّب تحزن.. والواقع الذي نحن عليه، دليل ذلك، وشاهد إدانته.. لقد غاب مفهوم الأخوة الشاملة الذي هو الأصل الموصل إلى عصمة عموم الأمة، عن تجمعاتنا الإسلامية، بسبب الروح الحزبية، وإن ادعينا الدعوة إلى الوحدة.

فعندنا اليوم، أعداد من الجماعات والتجمعات، التي أصبحت ـ بطبيعتها ـ أقرب إلى الطوائف، أكثر من الواقع السياسي الذي ندينه ونرفض بعثرته، وتمزقه، ونزعاته الإقليمية! حتى أصبحت الروح الحزبية تأبى أية مراجعة أو تقويم، وتعيش حالة من التطفيف لا تحسد عليها.. فالكبائر تصبح صغائر، إذا جاءت من داخل الجماعة، والصغائر تصبح كبائر إذا مورست من خارج الجماعة أو التنظيم والله تعالىٰ يقول: ﴿ويل للمطففين﴾ (المطففين: ١).

ولا بد من الاعتراف: أن أدب النقد، والتقويم، والمراجعة والمناصحة، لم يأخذ بعده المطلوب من أدبيات العمل والواقع الإسلامي، وأن كسْبَنا في هذا، لا يكاد يُذكر، على ضرورته وأهميته لتسديد المسيرة، وإن كانت بعض البشائر بدأت في السنوات الأخيرة تظهر كمحاولات تتقدم حيناً، وتتعثر أحياناً.

وقضية النقد، والتقويم، والمراجعة، كأمرٍ لازم لكل عمل جلّ أو دقّ لتسديد المسيرة، والإفادة من التجربة، واكتشاف الخلل والتقصير، ومعرفة أسباب القصور، وتحقيق العبرة، والارتقاء بالعمل إلى الأفضل، وبيان دور الإنسان الفاعل في صناعة الحدث، ومسؤوليته عنه؛ منهج قرآني معلم.

ولا يتسع المجال لإيراد أمثلة ونماذج قرآنية مستقصية لجوانب الكسب البشري المتعددة في فترة النبوة وكيف أن النقد والتقويم والمراجعة لم يتوقف لحظة واحدة، حيث لا بد من العودة والاستقراء لذلك مستقبلاً.. وإنما هي نوافذ بسيطة للاهتداء بها، والتأصيل لها:

● ففي غزوة بدر مثلاً، حيث النصر الفرقاني الكبير، لم يخل الأمر من نظرة تقويمية، ابتداءً من الخروج إلى بدر وانتهاء بالنصر: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ (الأنفال: ٥-٦).

- وعندما تراءى لبعض المسلمين أن النصر كان بقوتهم، جاء النص: ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال: ١٧) ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾ (آل عمران: ١٢٦).

- وعندما اختلف البدريون على قسمة الغنائم، وهم من هم، اعتبر القرآن خلافهم وفساد ذات بينهم - الذي عبر عنه عبادة رضي الله عنه بقوله: اختلفنا حتى كادت تسوء أخلاقنا - من المخاطر التي لا بد من التنبه لها.. وقال تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال، قل: الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ (الأنفال: ١).

- وعندما تصرف الرسول ﷺ في الأسرى بالفداء، جاء التنبيه لقابلات الأيام: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾ (الأنفال: ٦٧).. هذا في مجال النصر.

● وفي أحد، حيث النقد في مجال الهزيمة، كان قوله تعالى: ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥) شعار المسؤولية عن الهزيمة الكبرى في حياة المسلمين.. ووصل الأمر بالنقد والمراجعة إلى الكشف عما تكنه النفوس: ﴿منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة﴾ (آل عمران: ١٥٢)، وهم الصحابة المجاهدون.

● وفي غزوة حنين، يطالعنا قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم

كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً..﴾ (التوبة: ٢٥).

● وفي تبوك، حيث قعد بعض الناس عن الجهاد، جاء قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل. إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم﴾ (التوبة: ٣٨ـ٣٩).

● وفي مجال الدعوة: عندما فكر الرسول ﷺ أن يُفرد مجلساً لكبراء قريش، جاء قوله تعالى: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء﴾ (الأنعام: ٥٢).. وقوله تعالى: ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾ (عبس: ١) عندما أعرض عن عبدالله ابن أم مكتوم... إلخ.

وهكذا نرى أن التقويم القرآني والنبوي، كان مرافقاً لكل خطوة من خطوات جيل القدوة.. فالتقويم هو الضابط الدقيق لكل عملية نهوض وتقدم.

وأخشى ما نخشاه اليوم، أن يركب الموجة من لا يطيقون النقد، والمراجعة، والتقويم ممن يشهد تاريخهم بذلك، كما ركب موجة الديموقراطية سدنة الاستبداد السياسي ورفعوا شعاراتها ليجهضوها من الداخل.

والأمر الذي لا بد أن نعرض له في هذه المقدمة: أن الإحساس بالواقع، والحال الذي صار إليه، لم يتوقف لحظة واحدة في تاريخ الأمة الطويل.. ولعل الإحساس المستمر بتناقض الواقع مع المثال، يجيء ثمرة لعدم إمكانية اجتماع الأمة على ضلالة، وتواطئها على الخطأ. وإذا رجعنا إلى أدبيات زعماء الإصلاح، ودعاة التجديد، لوجدنا ذلك واضحاً.. بل لعل الكثير مما نراه وندعو إليه اليوم، لا يعتبر جديداً، بل قد يعتبر تكراراً لما أحس به من سبقونا من دعاة الإسلام وزعماء الدعوات الإصلاحية فيه.

لكن، المشكلة أو المصيبة دائماً، في عدم تقويم التجارب التي قامت عليها دعوات الإصلاح والتجديد، واكتشاف الإصابات التي لحقت بها، والمعوقات التي حالت دون بلوغ أهدافها، لنفيد منها، ونضيف أعماراً إلى عمرنا، وعقولاً إلى عقلنا. فغياب النقد، والمراجعة، والتصويب، والتقويم، هو السبب الذي يحرمنا دائماً من الإفادة من تجاربنا، ويجعلنا نقع في الحفر نفسها. وقد نجهد أنفسنا في تجارب ومحاولات، ثم نكتشف أنّا سُبقنا إليها، ولم نعتبر بها، وإنما كررنا أخطاءها نفسها.

والتاريخ، هو المعلم الحقيقي للشعوب؛ والرحلة إليه هي التي تحقق القصد، وتمنح العبرة، وتقيل العثرة..

والواقع، هو المختبر الحقيقي لدعاوىٰ الإصلاح.

والنقد، والمراجعة، والتقويم أمور لا بد منها لتسديد المسيرة وتحقيق الصواب.

وتحديد مواطن الخلل، هو السبيل إلى النهوض والارتقاء، وكسب رصيد التجارب السابقة، والوقوف على قمتها، والإبصار للمكان البعيد، واستشراف للمستقبل المأمول.

وفي اعتقادنا أن أية عملية بعث وإحياء، لا بد أن تأخذ في اعتبارها: استقراء التاريخ، وقراءة الواقع، وتحديد موقع الأمة الآن من المسيرة الحضارية، والتاريخية لها، وأخذ العبرة التاريخية في الخطأ والصواب.

كما لا بد لها من:

- وضوح الأهداف المراد تحقيقها، واختبار واقعيتها، وما يعتبر من الثوابت والمتغيرات، (أي مجموعة الأفكار التي توضح العمل).

- جدولة الأهداف، بحسب الأولوية والإمكان.

- تحديد الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الأهداف، من خلال الظروف

المحيطة، والإمكانات المتاحة في ضوء التعرف على السنن التي تحكمها.

- الإمكانات البشرية والمادية المطلوبة لعملية التنفيذ.

- إدخال عنصر الزمن، وتحديده، وتحويله إلى قيمة عملية في ضوء الفعل المطلوب.

- اصطحاب عنصر النقد، والمراجعة، والتقويم لكل مرحلة من مراحل العمل، والإنجاز، وبيان سبب الخلل والقصور، إن حصل، وكيفية استدراكه، وتحديد مواطن الخطأ في التقدير.

ولا بد أن يسبق هذا كله، مرحلة التعرف الدقيق على عقيدة الأمة التي تصوغ معادلتها النفسية والاجتماعية، والتاريخ الحضاري والثقافي والسياسي، ونصيبه من العقيدة، والواقع المعاصر، وموقعه من التاريخ والعقيدة معاً.

إن هذه العناصر هي المعايير التي تمكننا من التقويم والمراجعة الضرورية لأي فعل، أو محاولة نهوض، وإلاّ بقينا نحرث في البحر أو نسبح بدون شواطىء، فنهلك أنفسنا، ونبُت مقصدنا، والمنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.. ونستمر في الانتكاس كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

ولا ندّعي أننا بهذه التأملات للواقع الإسلامي، التي أملتها ظروف ومناسبات متباعدة، استقرأنا هذا الواقع من جوانبه المتعددة، والمختلفة، وتتبعنا التاريخ الذي أثمره، وإنما هي تأملات، وملحوظات، وإثارات، ونوافذ للإطلالة على هذا الواقع، علها تثير التوجه صوبه ودراسته، وتسهم بخطوة في طريق الدراسات التقويمية المطلوبة لانتشال هذا الواقع، والارتقاء به في ضوء الآيات البينات في الأنفس والآفاق، والسير في الأرض، والنظر في العواقب والنتائج، ومحاكمتها إلى المقدمات، في استشراف للماضي والمستقبل معاً.

وهي في النهاية: اجتهادات، إن فاتها الأجران، فنسأل الله أن لا نحرم من الأجر الواحد الذي هو جزاء المخطىء على جهده، وبذل وسعه.. ويبقى

١٢٩٥ /٧

الصواب صواباً، والخطأ خطأ، والحق أحق أن يُتبع، والرجال يوزنون بالحق.. ولا بد لنا أن نعرف الحق لنعرف أهله.. وهذا بدء التقويم الصحيح، والمراجعة المطلوبة، والله من وراء القصد.

قطر - الدوحة

في ٢٧ رمضان ١٤١٠هـ

الموافق لـ ٢٢ نيسان (أبريل) ١٩٩٠

عمر عبيد حسنة

الدين والتدين

لعل خطورة توقف العلوم الاجتماعية والإنسانية، في أنه حرم المفكر والمجتهد من التعرف إلى ساحة عمله، وأضاع عليه خارطة الطريق، التي يحاول أن يسلكها، لتنزيل المراد الإلهي على واقع الناس، وتحقيق تقويم سلوكهم بدين الله، وامتلاك شروط التغيير السليمة؛ ولا مناص من الاعتراف اليوم بأن آليات العلوم الاجتماعية تطورت تطوراً كبيراً على أيدي غير المسلمين، وبلغت شأواً واسعاً، في معرفة الإنسان، الأمر الذي لا مندوحة منه لبسط الإسلام على حياة الناس، وإلا كان التعامل مع مجهول. لقد توقف العقل المسلم عن السير في الأرض، والتعرف على تاريخ الأمم في النهوض والسقوط، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق، وآليات التغيير الاجتماعي، التي وردت في القرآن بشكل لافت للنظر، وهي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية بعد أن أصبح القرآن مجرد تراتيل للتبرك.. فظن كثير من المجتهدين، أن العملية الاجتهادية، تكفي لها الرؤية النصفية، وهي الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي، أما دراسة محل الحكم، والكيفية التي يتم بها بسطه على الواقع، وطبيعة هذا الواقع، بتركيبه المعقد، وأسبابه القريبة والبعيدة، فلم تأخذ الاهتمام المطلوب، فانفصل الدين عن الحياة، وانتهى الفقه إلى تجريدات ذهنية وأراجيز حفظية لا نصيب لها من الواقع.

* * *

الغياب الحضاري، الذي نحن بصدده، قد لا يكون بسبب نضوب منابع الدين في حياة الأمة، بقدر ما هو خطأ في منهج ووسائل الوصول إلى هذه المنابع

وحسن التعامل معها وترجمتها إلى لغة الواقع، وإثارة الاقتداء بها عند الناس.

فإصابة الأمة اليوم، تكاد تنحصر في منهج ووسائل التدين، خاصة بعد أن تكفل الله بحفظ الدين، الذي يعني فيما يعني: خاتميته وخلوده. ويبقى الأمر المطروح بإلحاح، في كل زمان ومكان: الكيفية التي بها تكون إثارة النزوع إلى التدين، وتفجير ينابيعه، في النفس البشرية، ومن ثم تقويم السلوك الفردي والاجتماعي بنهج الدين القويم.

ذلك أن قضية التدين، أو تقويم الحياة بنهج الدين، هي قضية ملازمة لوجود الإنسان؛ فطالما أن هناك إنساناً، يمتلك أهلية الاختيار، فلا بد له من منظومة قيم، يؤمن بها، ويصدر عنها في القبول والرفض، والإقدام والإحجام، هذه المنظومة هي مجموعة معارف وقناعات، إما أن يختارها بنفسه، أو يرثها عن مجتمعه، أو ينقلها عن مجتمعات أخرى، وقد يتجاوز عالم حواسه، ويترقى في النظر العقلي، إلى آفاق واستفهامات لا يمتلك الإجابة الشافية عليها، فينتهي إلى ضرورة التلقي عن النبوة، فتكون ضميمة الوحي، التي لا تخرج في الاهتداء إليها عن العقل.

فالإنسان مخلوق متدين، والتدين نزعة فطرية، لا يمكن تصور إنسان بدونها، مهما كانت صورة ذلك التدين، والاستقراء يؤكد أنه وجدت في التاريخ مدن ليس فيها مصانع، ولا معامل، ولا مدارس، ولا نواد، لكن لم توجد في تاريخ الإنسان الطويل مدينة بلا معابد، وكثير من المفكرين وفلاسفة المادة الذين يقولون: على الرغم من انشغالنا طيلة النهار بضجيج الآلات، وزيادة الإنتاج، وتحسينه، إلا أننا عندما نأوي إلى مضاجعنا تؤرقنا مجموعة أسئلة، لا نجد لها جواباً شافياً، كيف بدأ الخلق؟ وكيف سينتهي؟ وهل الموت يعني الانطفاء النهائي؟!

فالنزوع إلى التدين ملازم للإنسان كما أسلفنا، لكنه قد يلتقي بهداية السماء، ويستقيم بشرع الله، وقد يضل طريقه، متخذاً أرباباً من دون الله، ومن لم يكن عبداً لله فهو عبد لسواه، والذين يظنون أنهم تمردوا على دين الله،

وخرجوا عليه لم يدركوا أنهم سقطوا في عبودية الأشخاص والأهواء والشهوات قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَاهُ﴾؟.

وقد لا يكون المجال هنا مجال مناقشة وموازنة، بين هدي الله وما يمنحه للإنسان من الحرية والعدالة والكرامة والمساواة؛ وألوان التدين الأخرى، لكن لا بد لنا من التأكيد أن الذين حاربوا هداية الله إنما حاربوها لأنها تسويهم بغيرهم من الخلق، وهم يريدون لأنفسهم أن يكونوا آلهة وأرباباً، لهم حق السيادة والأمر والنهي، وأن الصراع، والحوار، والمواجهة.. إنما هو في الحقيقة صراع بين ألوان من التدين، أو من الدين ـ إن صح التعبير ـ.

هذا النزوع المفطور في الإنسان، هو الذي يشكل القابلية والتهيؤ لاستقبال الهدي الإلهي، وبقدر ما يكون جهاز التوصيل سليماً، والإرسال صحيحاً، ويكون المرسل بصيراً وفقيهاً بأساليب الخطاب، وأحوال المخاطبين، وكيفية إثارة كوامن هذا النزوع بالاتجاه الصحيح، بقدر ما يكون الكسب الديني متعاظماً وممتداً، وبقدر ما تصاب أجهزة الدعوة إلى الدين، بقدر ما يكون التأثير محدوداً، فالعلّة ليست دائماً في المخاطَب، فقد تكون العلّة كلها في المخاطِب الذي يريد توصيل الدين إلى الآخرين.

لذلك نرى أكثر الفترات تألقاً وامتداداً فترة النبوة والصحبة، والمراحل التاريخية التي استطاعت استصحاب روح تلك الفترة.

لقد استطاعت تلك المراحل التاريخية إثارة كوامن التدين، وأحسنت في إيصال الإسلام إلى الناس، وتقويم واقعهم بهديه، فالقرآن هو القرآن كما أنزل، والسنة بيانه، محفوظان بحفظ الله الذي أثمر جهود العلماء، أوعية الحفظ وأدواته، لكن المشكلة اليوم ليست فقط في إتقان وإدراك الخطاب الديني المحفوظ، أي ليست في معرفة نصوص الدين، وإنما بإصابة أجهزة الدعوة بالعطب، ولا نعني بأجهزة الدعوة الوعظ والإرشاد، بقدر ما نعني امتلاك القدرة على فقه الإنسان، وفقه المجتمعات، والتبصر بكيفية خطابها، وطرائق بسط الدين على حياتها لتستقيم بنهجه.

وسائل وآليات الفهم

ومن الأمور التي تدعو للاعتزاز والإعجاب ـ والتي جاءت ثمرة حفظ الله لهذا الدين ـ الجهود العلمية التي بذلت لحماية نصوصه وتنقيتها؛ ومن ثم وضع الأصول والقواعد لمعرفة المراد الإلهي. فلقد تطورت العلوم التي تخدم هذا المقصد في مجال مناهج التفسير، وعلوم القرآن، ومصطلح الحديث، وأصول الفقه، ومناهج الاستنباط، وعلوم اللغة، ودلالات الألفاظ، وهو ما يسمى علوم الآلة، تطوراً كبيراً، وكلها تشكل في نهاية المطاف وسيلة لفهم الدين، لكنها انقلبت في عصور التقليد والركود والتخلف إلى غاية بحد ذاتها، معطلة بيد أصحابها يصعب إعمالها، وتعديتها إلى مجرد مثال آخر، غير مثال الأقدمين، وغاية ما استطاعت فعله، هو المحافظة على الصورة واستبقائها، ونقلها إلى الجيل التالي، أما تشغيل هذه الآليات، وتطويرها لتحقيق المقاصد منها، والإفادة مما قدمه العصر من تقنيات للحفظ والتيسير فلم يحظ بالحد الأدنى، كما أن التعامل مع الصورة الجديدة للواقع بظروفه وشروطه، من وجهة نظر إسلامية يكاد يكون توقف تماماً من خلال تلك الآليات التي تعطلت منذ زمن.

ونستطيع القول: إن هذه الآليات (آليات الفهم) للمراد الإلهي في المراحل المتأخرة ـ حيث أصبحت تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع ـ بدل أن تكون أداة تيسير وفهم، انقلبت إلى حواجز ومعوقات تحول دون القدرة على الاغتراف من مصادر المراد الإلهي ـ الكتاب والسنة ـ للتعامل مع العصر، وأصبح التدين مقتصراً على مجرد حفظها وترديدها، وليس القدرة على إعمالها، ولو أحسنًا إدراكها ـ إلى جانب حفظها ـ لتمت النقلة المطلوبة في بيان المراد الإلهي لمشكلات الأمة وقضايا الواقع، وبسط الدين سلطانه على الفعاليات المختلفة.

لقد دوِّن الوحي ليحفظ، وجُمع لئلا يضيع، ودوّن الحديث، وصُنِّف لتنقيته من الدخيل على الوحي، ونشأت دواعي علم النحو والصرف ودلالات الألفاظ لحماية النص وعدم الخروج بالمعنى عما وضع له اللفظ، لكن إلى أي مدى

وخاصة في عصور الركود والتقليد استطعنا تجاوز أسوار الحماية هذه إلى الانتفاع بما في داخلها، لحاضرنا ومستقبلنا؟!

المجتهد ومعطيات العصر

لقد بدأت القدسية للنص القرآني والحديث النبوي وهما مقدسان بلا شك لأنهما وحي يوحى، وكان لهذه القدسية معنى حياتي، وبعد حضاري، ثم انتهى القرآن إلى لون من التراتيل، يتلى للتبرك، بعيداً عن دوره في بناء العقل، وتعمير الأرض، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، وأصبح صحيح البخاري، وموطأ مالك، وكتب السنة الشهيرة، تقرأ في النوازل، ثم انتقلت القدسية إلى فهوم البشر واجتهاداتهم في عصر معين، وأصبح المراد الإلهي وقفاً على فهمهم وعصرهم ومشكلاتهم وكادت هذه الفهوم تحل محل الكتاب والسنة، وبذلك افتقدا بهذه الصورة التي صارا إليها صفة الخلود والقدرة على العطاء المتجدد.

صحيح أن أصول المشكلات الإنسانية وثوابتها، يمكن أن تكون واحدة في العصور كلها، وأن مظاهرها وأشكالها، هي التي تتعدد، وتتنوع، وتختلف، ولولا هذا التجدد لاكتفت البشرية بالنبوة الأولى، ولما جُعلَ الاجتهاد المستمر مصدراً للتشريع في النبوة الآخرة، ولما جاءت معظم نصوص المراد الإلهي، عامة ومرنة، لتكون قادرة على استيعاب العصر وتصريف شؤون الناس وفق الهدي الديني، فيما وراء الثوابت، الأمر الذي لا بد له من الاجتهاد لكل عصر.

وإذا سلّمنا بأن المجتهد هو ابن عصره وبيئته، وأن الاجتهاد لبسط الدين على واقع الناس، وتقويم مسالكهم بنهجه يجب أن يأخذ بعين الاعتبار معطيات العصر، ومشكلات الناس، الذين هم محل الحكم الشرعي، فلا بد لنا من القول: بأن هذه المسلمة لحقت بها إصابات بالغة وقد نقول: قاتلة، من خلال ما نلاحظه من انفصال المجتهدين والمفكرين عن همّ أمتهم وقضايا عصرهم

ومشكلاته، والدوران في فلك الاجتهاد والأفكار البشرية السابقة، التي على الرغم من دقتها وتميزها وإبداعها، إلا أنها إنما جاءت ثمرة لعصر معين، بقضاياه ومشكلاته، وأقل ما يقال فيها: إنها لم تكن محصلة لهذا العصر، وإن الالتجاء إليها، والاحتماء بها، قد يحافظ عليها حفاظاً تاريخيًّا، لكن الاقتصار على ذلك، دون القدرة على الإفادة منها، كمعين للفهم والنقل الثقافي، والشهود الحضاري، يفقدها قيمتها، ويبعد بها عن إغناء حياة المسلمين، فتنقلب معوقاً، ومانعاً حضاريًّا، بدل أن تكون دافعاً ومشروع نهوض.

العلوم الاجتماعية آليات ضرورية للفهم

ولعل الأخطر من ذلك ـ وارتباط الأمرين ببعضهما ارتباط سبب ونتيجة ـ التوقف المذهل في إطار العلوم الاجتماعية والإنسانية، وهي الأدوات والآليات الضرورية لفهم الواقع، وإدراك أبعاد الإنسان، والتعرف على مفاتيح شخصيته، وطرائق تفكيره، والأسباب الحقيقية الكامنة وراء مشكلاته، وهو محل الحكم الشرعي.

إن هذه المعرفة بما تقدمه من نتائج تصبح ضرورة شرعية، وأعتقد أنها تقع ضمن إطار الفروض العينية للذي يتصدى لعملية الاجتهاد وبيان المراد الإلهي، وبسطه على واقع الناس، والحكم على مسالكهم، لتتم عملية الموافقة والتكيّف بين الحكم ومحله بدقة، ولا بد أن نذكر هنا تنبه بعض المؤسسات العلمية الإسلامية ـ كلية الشريعة بجامعة دمشق ـ إلى أهمية العلوم الاجتماعية والإنسانية بقدر أهمية العلوم الشرعية نفسها، فكانت لها أسبقية في هذا المجال، حيث اعتمدت دراسة علم النفس، وعلم الاجتماع، وحاضر العالم الإسلامي مواد أساسية في منهجها.

ولعل خطورة توقف العلوم الاجتماعية والإنسانية، في أنه حرم المفكر والمجتهد من التعرف إلى ساحة عمله، وأضاع عليه خارطة الطريق، التي يحاول أن يسلكها، لتنزيل المراد الإلهي على واقع الناس، وتحقيق تقويم سلوكهم بدين

الله، وامتلاك شروط التغيير السليمة؛ ولا مناص من الاعتراف اليوم بأن آليات العلوم الاجتماعية تطورت تطوراً كبيراً على أيدي غير المسلمين، وبلغت شأواً واسعاً، في معرفة الإنسان، الأمر الذي لا مندوحة منه لبسط الإسلام على حياة الناس، وإلا كان التعامل مع مجهول. لقد توقف العقل المسلم عن السير في الأرض، والتعرف على تاريخ الأمم في النهوض والسقوط، واكتشاف آيات الله في الأنفس والآفاق، وآليات التغيير الاجتماعي، التي وردت في القرآن بشكل لافت للنظر، وهي أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية بعد أن أصبح القرآن مجرد تراتيل للتبرك.. فظن كثير من المجتهدين، أن العملية الاجتهادية، تكفي لها الرؤية النصفية، وهي الوصول إلى معرفة الحكم الشرعي، أما دراسة محل الحكم، والكيفية التي يتم بها بسطه على الواقع، وطبيعة هذا الواقع، بتركيبه المعقد، وأسبابه القريبة والبعيدة، فلم تأخذ الاهتمام المطلوب، فانفصل الدين عن الحياة، وانتهى الفقه إلى تجريدات ذهنية وأراجيز حفظية لا نصيب لها من الواقع.

البعد الغائب في شروط الاجتهاد

والذي يحاول التعرف على شروط الاجتهاد التي وضعها العلماء يجد أن من جملة هذه الشروط معرفة أعراف الناس ومألوفهم، إلا أن هذا الشرط لم يحظ بشيء من الدراسة الجادة، والبيان الشافي والتأصيل العلمي، على عكس الشروط الأخرى كلها التي يمكن أن نقول: إنها درست وأنضجت حتى كادت تحترق، لأنها أدخلت في طور استحالة التحقق، أما هذا الشرط، وهو معرفة الواقع، فاكتفي فيه بإشارات بسيطة وساذجة في كثير من الأحيان، هي أقرب للملاحظات والمشاهدات، منها للمناهج والدراسات، اللهم إلا الجانب القليل من مباحث الاستحسان والمصالح المرسلة، وسد الذرائع، والعرف، أو ما يمكن أن نسميه بالمصادرالتبعية، ذلك أن النظر الاجتهادي في هذه المصادر اعتبره بعضهم ملحقاً إلى حد بعيد بالقياس ـ القياس الخفي ـ لبيان المراد الإلهي، أكثر منه تعلقاً في معرفة واقع الناس محل التنزيل؛ أما مكونات الإنسان، وعوامل

تشكيل شخصيته، وبناء علاقاته الاجتماعية، والقوانين التي تحكمها فلم يكن له النصيب المطلوب، إلا من بعض البوارق التي لم يكتب لها الاستمرار.

لقد كان المجتهد جزءاً من الحياة يتعامل معها ويحترف بحرفها ويخوض معاركها ويكون لمشاهداته ومعاناته الميدانية نصيب كبير من فقهه، أما عندما انفصل المجتهد عن مجتمعه، وابتعد عن همومه فقد فاته الإدراك الواعي لمشكلاته، فجاءت اجتهاداته اجتهادات نظرية مجردة، تنطلق من فراغ، وتسير في فراغ، مما جعل بعض المفكرين يطلقون عليها مصطلح «فقه الأوراق» لأنها تكونت بعيداً عن واقع الناس وميدان نشاطهم. فأية قيمة للحكم تبقى إذا لم ينزل على محله وكيف يعرف محله دون دراسة وعلم؟! لذلك نرى من لوازم الاجتهاد اليوم، الاستيعاب المعرفي الشامل للواقع الإنساني، وهذا لا يتأتى كله من مجرد المعايشة، والنزول إلى الساحة ـ الأمر الذي لا بد منه ـ وإنما النزول، والتزود قبله، بآليات فهم هذا الواقع، من العلوم الاجتماعية التي توقفت في حياة المسلمين منذ زمن، ذلك أن عدم الاستيعاب والتحقق بهذه الشروط اللازمة لعملية الاجتهاد، أدى إلى انفصال أصحاب المشروع الإسلامي، عن واقع الحياة، وإن لم ينفصلوا عن ضمير الأمة، التي لا تزال ترى في المشروع الإسلامي بوارق الأمل للإنقاذ والتغيير.

والتغيير لا بد له من إدراك المراد الإلهي أولاً ومن ثم آليات فهم المجتمع بالمستوى نفسه، حتى يتم الإنجاز، وقد تكون مشكلة الحضارة اليوم أن الذين أدركوا آليات فهم الواقع لم يؤمنوا بالخطاب الإلهي، وكثير من الذين آمنوا بالخطاب الإلهي لم يدركوا آليات فهم الواقع.

فالاجتهاد الفردي في هذا العصر يكاد يكون مستحيلاً، بعد هذا التوسع، والتبحر في الاختصاص، والتعقيد في تركيب المجتمعات، والتشابك في العلاقات الاجتماعية، والتأثر والتأثير بين الأمم من جهة، وبين جوانب الحياة المتعددة، لذلك لا يتسع عمر الفرد ولا علمه ـ مهما بلغ من النبوغ ـ لهذا النوع المطلوب من الاجتهاد، فلا مندوحة والحالة هذه من التقدم باتجاه المؤسسات

ومراكز البحوث والدراسات، وبناء العقل الجماعي المؤسسي، الذي يمتلك نوافذ الرؤية من الجهات كلها وفي العلوم كلها.

لقد حفل العصر السابق بإنجازات فردية هامة جاءت ثمرة لمقتضيات العصر نفسه، أما بعد أن توسعت الأمور وأصبحت الدنيا كلها محل رؤية الإنسان وخطابه، فلا بد من إعادة النظر في عملية الاجتهاد. حتى يمكن تحويل الإسلام من قيم ومبادىء ومواثيق أخلاقية وإرشادات عامة توجه مسيرة الحياة إلى برامج وأحكام تصوغ الواقع وتضع الأوعية الشرعية الصحيحة لحركته.

فالإيمان بخلود هذا الدين، وصلاحيته لكل زمان ومكان وقدرته على النهوض بالأمة إلى مرتبة الشهود الحضاري، أصبح مسلمة لا تحتمل شكًّا، ولا استزادة لمستزيد، وتعاظم المد الإسلامي إلى آفاق لم تكن بالحسبان، لكن لا بد من الاعتراف بأن حركة الاجتهاد لترشيد تدين هذا المد، ووضع البرامج والأوعية الشرعية لحركته، لم تكن بالمستوى المطلوب، ولا الموازي لحركة المد الإسلامي، ذلك أن الجماهير المسلمة آمنت بالإسلام، لكنها لم تبصّر بالواقع وكيفية التعامل معه، وتقويمه بنهج الدين، لقد امتلكت القاعدة الإسلامية العريضة وافتقدت القيادة الواعية الرشيدة الفقهية، فلحقت بها إصابات بالغة ليست كلها بسبب أعدائها، وهذا يقتضي ديمومة النظر وبذل الجهد والاجتهاد في كل وقت وعصر للإفادة من الخطاب الإلهي في تقويم مسالك الناس ومعالجة مشكلاتهم وفق الهدي الديني، ذلك الاجتهاد (الفقه) الذي يمكن أن نمثل له بدور الطبيب، الذي يدرس حالة المريض، ويحدد أسباب المرض وآثاره، ويختار له من مجموعة الأدوية المحفوظة في الصيدلية، ما يناسبه ويعالج حالته، دون أن يكون لذلك آثار جانبية قد تعيق شفاء المريض، أو تضاعف مرضه، أو تفضي إلى الإصابة بمرض آخر، فالصيدلي الذي يحفظ الدواء ويعرف مركباته يبقى عاجزاً عن المعالجة لأن المعالجة لا تكفي فيها معرفة الدواء، وإنما تتطلب المعرفة الدقيقة بحالة المريض وما يناسبه وما لا يناسبه من الدواء، والمقادير المطلوبة، والزمن المقدر، والتوازن بين أكثر من دواء إلخ. فمنهج النقل والحفظ للخطاب الإلهي أقرب ما يكون إلى عمل الصيدلي، ومنهج الفهم والفقه من هذا المنقول

أقرب ما يكون شبهاً بعمل الطبيب، وقد لا تفيد كثيراً كثرة الصيادلة، ومعامل الدواء، إذا انعدم وجود الأطباء، لأن ذلك قد يؤدي إلى وضع الدواء في غير محله، فيهلك المريض من حيث يراد له الشفاء والنجاة.

وجود العلاج لا يعني وجود المعالج

فالمشكلة اليوم ليست في عدم وجود العلاج، وإنما هي في عدم وجود المعالج، فالإسلام هو الدواء، والشفاء، ولكن كيف نستعمل هذا الدواء ولمن نستعمله؟ ومتى؟ هذه هي المشكلة اليوم التي يعاني منها الواقع الإسلامي، وهي مؤشر مؤرق بسبب غياب فقهاء المجتمعات، وفقهاء التربية، وفقهاء التخطيط، وفقهاء استشراف آفاق المستقبل، وفقهاء علوم الإنسان، فقهاء الحضارة عامة، الذين يشكلون عقل الأمة، ويعرفون كيف يغترفون من هذا الإسلام، لمصلحة الأمة في واقعها المعاصر، وكيف يتعاملون مع هذا الإسلام، ويعودون بالأمة إليه.

ويصير الأمر أكثر لزوماً بعد الإحباطات الكثيرة التي تعرض لها العمل للإسلام، بسبب العجز الواضح في فقه الحركة والميدان، وإبداع البرامج العملية التي تترجم القيم والمبادىء الإسلامية وتنزلها على واقع الناس المعاصر، في ضوء رؤية ذات دراية وفقه، وتتأكد وتتعاظم مسؤولية المشتغلين بالقضية الإسلامية في أن يطرحوا الأمر بجدية وموضوعية، بعيداً عن الحماس والتوثب، وخروجاً على الأسوار الحزبية وممالأة الجماهير، وردود الأفعال، والأساليب التعبوية، التي أدت دورها كاملاً في مرحلة إعادة الانتماء للإسلام والتي باتت لا تفيد كثيراً في مرحلة الانطلاق إلى الأمام.

لقد بقي شعار ترشيد الصحوة نظريًا، ونستطيع أن نقول: إن أعداء الإسلام أفادوا من رصد حركة الصحوة، ووضع استراتيجيات المواجهة، على المستوى السياسي، والثقافي، والأمني، أكثر من أصحاب الصحوة أنفسهم، الذين عجزوا حتى الآن عن اغتنام الفرصة وحسن الإفادة منها.

لقد كانت الصحوة من بعض الوجوه فرصة لانكشاف مواقع العجز، أكثر من أن تكون زخماً عاقلاً لعملية النهوض، من هنا نرى أنه لا بد من العمليات الجراحية الجذرية لاستئصال العجز، والعدول عن المهدئات والمسكنات، التي توهم العافية ولا تقدم العلاج، والعلاج إنما يكون بالاستيعاب المعرفي للعلوم الاجتماعية والإنسانية كما أسلفنا لأن استيعابها أصبح ضرورة شرعية لازمة، لتحقيق المناط، كما يقول علماء الأصول، ولامتلاك صفة الاجتهاد، في تنزيل شرع الله على الواقع البشري، فالاجتهاد اليوم يقتضي فقهاء في الاختصاصات كلها، وإن الاقتصار على فقهاء معرفة الحكم الشرعي، دون فقهاء معرفة محل الحكم، سوف لا يحقق إلا نصف المطلوب.

إن فتح أبواب الاجتهاد، على مصراعيها، لا شك أنه سوف يأتي بالغث والسمين، لكن عصمة الأمة بعمومها عن الخطأ، وتواتر الوحي في الثوابت، التي تحمي كيان المجتمع من العبث. وطبيعة التعدد والتباين بوجهات النظر، والتدافع، يبدد الخوف، ويبقي الأصلح، وقد يكون من أهم عوامل تبديد الخوف الإدراك بأن الاجتهاد الفكري أو الفقهي هو كسب بشري، قابل للفحص والاختبار، والتصويب والتخطيء، والحوار والجدل، وليس له صفة القدسية، أو على الأقل ليس هو الدين، وإنما هو فهم الإنسان للدين، وخطأ هذا الفهم لا يعني بحال من الأحوال خطأ الدين المعصوم، لذلك قد يكون لنا بعض التحفظ على كثير من المصطلحات الموهمة أن اجتهاد فلان هو الدين، فلا قدسية لرأي ولا اجتهاد، ولا كهانة في الإسلام، ولا حملة كتاب مقدس، ينطقون باسم الله. وإنما هي فهوم بشرية لتنزيل الإسلام على واقع الناس، معرضة للخطأ كما هي معرضة للصواب. وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر، كما يقول الإمام مالك رحمه الله، لأنه مسدد بالوحي ومؤيد به، ولا شك أن كثرة الحوار حول الأمور الفكرية والفقهية المطروحة، يبلور الصواب، ويسدد الوجهة.

العقلية الذرائعية

وبما أنّا اخترنا أن يكون اهتمامنا بالأسباب الذاتية التي هيأت القابلية

للإصابة، التي لحقت بالعقل المسلم، ولم نرتض منهج الإلقاء بالتبعة على العوامل الخارجية لإعفاء النفس من مسؤولية التقصير، والتستر على الأخطاء، وتكريس حالات العجز والغياب الحضاري، فإنّنا نرى أن القضية التي عبرنا عنها بالغياب الحضاري، ليست بسبب افتقاد القيم، أو فقر الميراث الثقافي، أو عجز وقصور التجربة الحضارية التاريخية، وإنما هي بسبب خمود الفاعلية، وانطفاء شعلة الإيمان، وضلال منهج الفهم، وعدم القدرة على التعامل مع القيم الثابتة، والإفادة من الميراث الثقافي، والتجربة الحضارية التاريخية، والتحقق بـ (الشهود التاريخي) الذي يقود حكماً إلى الشهود الحضاري لتنزيل الإسلام على واقع الناس، وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المجتمع، من خلال فقه الدين وبصارة الواقع (فقه التدين).

من لوازم الرسالة الخاتمة

فالقرآن والسنة مصدرا القيم الثابتة للحياة الإسلامية، محفوظان بعهد الله ومواثيقه، وقد بذل المسلمون من الجهود في وسائل الحفظ ما لا يدع استزادة لمستزيد، حتى وصلنا النص القرآني، والبيان النبوي كما هو، وكأننا نعيش عصر النبوة، ونشهد نزول الوحي. ولعل من لوازم وشروط الرسالة الخاتمة: أن يكون الخطاب الإلهي والبيان النبوي سليماً، وإلا لما صح تكليف، ولما ترتبت مسؤولية.

فالمشكلة إذن بالنسبة لمسلم اليوم ليست في نص الدين، أو في عدم وجود المنهج، وإنما المشكلة هي في عدم فقه الخطاب، وتأصيل منهج التعامل معه، وكيفية تنزيله على الواقع البشري، الأمر الذي يقتضي فقه الخطاب وفقه الواقع في آن واحد، كما أسلفنا لأن الرؤية النصيفية بفهم الخطاب الإلهي دون فهم الواقع، وعدم حل المعادلة الغائبة، بين الخطاب الإلهي، والواقع البشري، سوف يبقي المسلمين في حالة الغياب الحضاري المؤرق.

ومهما كان الإسلام عظيماً ونفيساً إذا لم يتقدم به أهله لمعالجة المشكلات البشرية الواقعية، وتقديم الحل الأفضل، الذي يغري به الناس، وينقذ حياتهم، فسوف لا يكون أدى رسالته وحقق مقصده؛ فإلى أي مدىً يحسن المسلمون اليوم التعامل مع الإسلام بمصدريه، ويعيدون صياغته من خلال لغة العصر؟، وإلى أي مدى يأخذون بالاعتبار إدراك الواقع المتغير والمعقد بآلات فهم علمية ليكونوا قادرين على بسط الإسلام على حياة الناس، وتقويم سلوكهم بشرع الله؟ تلك هي المعادلة المطلوبة والمفقودة في الوقت نفسه عند مسلمي اليوم، وبدونها لا تتحقق القيادة للناس والشهادة عليهم، التي هي من وظائف وخصائص الأمة الوسط ﴿وكذلك جَعَلْنَاكُم أمَّةً وسطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى آلنَّاس﴾ (البقرة: ١٤٣).

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى بعض الأبعاد التي يمكن أن تسهم بإلقاء أضواء ولو بسيطة على طَريق حل المعادلة (فقه التدين)؛ وفي كل الأحوال يبقىٰ الأمر مطروحاً، والحوار مفتوحاً ومباحاً لكل القادرين عليه، لا يجوز إغلاقه، لأنه مرهون بتجدد الزمن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

افتقاد خاصية التوازن

ولعل من القضايا التي تستحق النظر، وإعادة الطرح والتفاكر والتي لا يزال العقل المسلم يخضع فيها لعملية رد الفعل والضغط الخارجي: أن كثيراً من الحلول والطروحات الفكرية، التي نشأت في تاريخ الفكر الإسلامي، من خلال موقف الدفاع عن الإسلام، وما تعرض له من تحديات، لم تستطع أن تحتفظ بخاصيّة التوازن، وضبط النسب إن صح التعبير، وإنما تجاوزت ذلك - وهذا من طبيعة رد الفعل وإصابات الفكر الدفاعي - إلى جعل العدو في كثير من الأحيان متحكماً بالنشاط الفكري للعقل المسلم ومحدداً لأبعاده، بما يلقي إليه من مشكلات، قد تحوّله عن رسالته الأصلية ومساره السليم، أو أولوياته المطلوبة؛ بل قد تضغط عليه فتخرجه عن منطقه ومنطلقه. ففي سبيل تأكيد

دور العقل في الإسلام كاد بعضنا أن يلغي الوحي، أو يحاصره بشتى السبل، ويعطل منهج النقل كليًّا، وإن لم يجاهر بذلك؛ وفي سبيل تأكيد حرية الإرادة والمسؤولية، أوشكنا على إلغاء القدر؛ وحتى نرد على موجة تأليه العقل انتهينا إلى فكر الجبر، وإسقاط العقل نهائيًّا، والانتهاء إلى لون من الانتحار الروحي، والخروج من الحياة وتكاليفها إلى مذهب التصوف السلبي، والقول بالإرجاء؛ وفي سبيل ردّ شبه اليهود في التجسيم، والنصارى في التثليث، تعسفنا في تفسير الآيات حتى انتهت فرقة إلى القول: بخلق القرآن، وهذا قد يصدق إلى حدٍ بعيد على علم الكلام الذي امتد وتجاوز حتى كاد يغادر أصوله ومنطلقاته الإسلامية. وهكذا نرى أنه لا بد ونحن بسبيل تنزيل الإسلام على الواقع، ومواجهة التحديات، أن يبقى العقل المسلم متوازناً ومراعياً لعملية ضبط النسب واعتماد أساليب المواجهة المشروعة المتسقة مع العقيدة كما وردت في الكتاب والسنة كضمانات لعدم الخروج باسم التعامل مع الواقع.

بين المبادئ والبرامج

صحيح أن القرآن إنما جاء بإرساء القيم الأساسية، والمبادىء العامة للحياة الإسلامية، وترك أمر الخطط والبرامج، والصياغة والتنزيل، للفكر البشري (الاجتهاد) لكن لا بد أيضاً لهذا الاجتهاد أن يبقى محكوماً بأبعاد العقيدة والقيم الضابطة لمسيرة العقل، والحياة الإسلامية كما وردت في الكتاب والسنة، لا يخرج عنها، فالقيم والمبادىء وحي من الله، من هنا فهي ثوابت وأسس، أما البرامج فهي اجتهادات بشرية ومتغيرات في ضوء الواقع وحاجاته، لكن الحركة الاجتهادية يجب أن تبقىٰ ضمن إطار القيم الثابتة.

وقد تكون المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم في اختلاط بعض الأمور أثناء التعامل مع الإسلام، وبسطه على واقع الناس؛ فآيات القرآن، ونصوص السنة الصحيحة لا شك أن لها ثباتها وقدسيتها لأنها وحي معصوم ـ كما أسلفنا ـ وبالتالي فدور العقل يتحدد في إدراك أبعادها، والاجتهاد في تحديد

مدلولاتها، ومقاصدها، أما إخضاعها لوسائل الفحص والاختبار التي تخضع لها المعارف العقلية القابلة للخطأ والصواب، فقضية خطيرة؛ ومن جانب آخر فإننا نرى المشكلة تتمثل في أن العقل المسلم في عصوره المتخلفة لم يقتصر في إعطاء صفة القدسية لنصوص الكتاب والسنة، وهما مصدرا القيم، وإنما تجاوز ذلك إلى إعطاء صفة القدسية للاجتهاد البشري غير المعصوم (الخطط والبرامج التي وضعت لنوازل المشكلات في عصور تاريخية في ضوء الكتاب والسنة) فوقع في خطأ التقليد والتجمد، وعدم القدرة على الامتداد الإسلامي، وتعدية الرؤية والاعتبار.

أما الوجه الآخر للمشكلة فهو في أن بعض أبناء المسلمين ممن فتنوا بالمذاهب العلمانية، كردّ فعل على الواقع الإسلامي البئيس وضعوا الكتاب والسنة وهما وحي معصوم في خانة التراث، والإنتاج العقلي، القابل للفحص والاختبار، ومن ثم الانتقاء والإلغاء باسم المعاصرة، لذا نرى أنه لا بد من إصلاح الخلل في هذه القضية، ونحن نحاول التفقه والتأصيل لمنهج التدين، وتصويب الخطأ الذي لحق بالعقل المسلم سواء بالنسبة لبعض من رغبوا في الإسلام أو من رغبوا عنه.

التدرج في التطبيق

وقضية أخرى: لعل من أهم مرتكزات فقه التدين، الذي يعني فيما يعني التخطيط والبرمجة لبسط الدين على واقع الحياة، وتقويم سلوك الناس بنهج الدين بعد رحلة الانسلاخ التي لا نزال نعاني من آثارها: أن العودة إلى الالتزام بالإسلام وتكييف سلوك الناس بنهجه لا يمكن أن يتم دفعة واحدة، خاصة وأن عملية الانسلاخ استغرقت زمناً طويلاً فلا بد من اعتماد سنة التدرج؛ وعملية التدرج التي تقتضي التحقق بالرؤية الإسلامية الشاملة، وهي فهم الدين، كما تقضي أيضاً التحقق برؤية عصرية للواقع وفهمه من خلال وسائل علمية، وتجاوز الأبنية الفكرية الجاهزة من عصر سابق، ثم تحديد الموقع بدقة، والقدر

الذي يجب تنزيله في هذه المرحلة ومن ثم يكون تنزيله في هذه المرحلة مقدمة وتمهيداً لتنزيل القدر التالي في مرحلة أخرى، وهكذا.

وهنا نقطة قد يكون من المفيد إيضاحها:

ونحن نتدرج بالتنزيل لا بد لنا أن نستصحب الرؤية الشاملة والأبعاد الكاملة والشاملة التي يجب أن نبلغها، ونستشعر المسؤولية عن عدم بلوغها، وأن التدرج المطروح هو التدرج في التطبيق، والتنزيل على الواقع، وليس التدرج في التشريع، لأن التشريع اكتمل، إلا إذا أردنا بالتشريع وضع النظم والقوانين والبرامج فذلك أمر من طبيعته عدم الثبات وإنما محاكاة العصر.

وفي ظننا أن التدرج في التطبيق ليس أمراً خارجاً عن الدين، كما يتوهم بعضهم، ذلك أن أمر الشارع منوط بالاستطاعة، والتكليف منوط بالطاقة قال تعالى: **﴿لاَ يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾** (البقرة: ٢٨٦) **﴿فَاتَّقُوا ٱللهَ مَا اسْتَطَعْتُم﴾** (التغابن: ١٦)؛ فإلى جانب الفوائد التربوية لعملية التدرج المطلوب استحضارها، لا بد أن ندرك أن التدرج هو من الدين، فالعدول عن العزيمة إلى الرخصة في حالات قد تؤدي العزيمة فيها إلى تفويت مقصد الدين، وإيقاع المكلَّف في الحرج، هو الحكم الشرعي، الذي يلائم المكلَّف في حالته التي هو عليها، «فالمشقة تجلب التيسير» «وإذا ضاق الأمر اتسع».

لذلك فليس من فقه التدين وليس من فقه الدين أيضاً مطالبة المكلَّف بالحد الأقصى للتكليف، وهو لا يطيق إلا الحد الأدنى. والمدى المطروح للتدين يتلاءم بحسب الواقع، والحال التي عليها المكلف ابتداءً من قوله تعالى: **﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾** (النحل: ١٠٦) إلى قوله تعالى: **﴿وَقَاتِلُوهُم حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ للهِ﴾** (البقرة: ١٩٣)، تخليصاً للناس من العبودية وإزالة العوائق، وتحقيق حرية الاعتقاد، والارتقاء بالإنسان إلى مستلزمات الحد الأعلى للتكليف.

التدين منوط بالوسع

وهذا الأمر يطرح قضية أخرى لا بد أن نعرّض لها: وهي أن الإسلام دين واقعي، إذ لا يمكن عقلاً وبداهة إلا أن يكون واقعيًا، ذلك أن الله الذي خلق الإنسان أعلم بظروفه وطاقاته التكليفية، وقدرته على الاحتمال في كل ظرف وحال، لذلك فمن العبث الاعتقاد بأن الله يكلفه بما لا يطيق، أو يشرع ما لم يكن قابلاً للتطبيق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك: ١٣)، وأن الحد الأعلى للتكليف لا يصنف في إطار المثالية واستحالة التطبيق وإنما هو بمقدور المكلَّف في أحسن حالات الترقي التي يمكن الانتهاء إليها؛ واستقراء التجربة التاريخية الإسلامية يؤكد أن الإسلام، دين واقعي جسّد في حياة بشر، وأثرى حضارة، وأقام أمة بمؤسساتها ووظائفها، وأن من واقعيته مراعاة حالة المكلَّف وظرفه وطاقته. وما يلاحظ من نزعات مثالية تبدو مستحيلة التطبيق عند بعض المفكرين المسلمين يمكن تصنيفه ضمن إطار الأغراض التربوية، وذلك لحماية الناس من السقوط في فساد النظام الحاكم أو فساد الزمان، أما فترة النبوة مرحلة التطبيق الأمثل، ففيها الرخصة والعزيمة، والخطأ والصواب، والتدرج والتأجيل والاستثناء إلخ؛ والأمة لا يزال فيها السابق في الخيرات والمقتصد والظالم لنفسه.

وقد يؤدي عدم فقه التدين إلى لون من العبث في التعامل مع الأحكام الشرعية، وذلك بتنزيلها على غير محالِّها فيلحق العنت بالفرد والأمة على حد سواء، فمن المعلوم أن من أحكام التكليف ما يقع ضمن استطاعة الفرد وفي حدود مسؤوليته، ومنها ما يناط بوجود الجماعة، ويقع ضمن إطار مسؤوليتها، كما أن هناك بعض الأحكام التكليفية محل إنفاذها وجود الحكم والقضاء الإسلامي، والحاكم المسلم، كقضايا العقوبات من حدود وتعزيرات، وعقد المعاهدات، وقضايا السلم والحرب، وسائر السياسات العامة، التي ترتبط بوجود السلطة. والأمر المطروح بإلحاح ولا بد من تحرير القول فيه ونحن بسبيل إنضاج منهج لفقه التدين: هل يصير الفرد المسلم محلاً لبعض الأحكام المنوطة

بالجماعة والسلطان في حال غيابهما، يمارس المسؤولية دون أن يمتلك السلطة، وما يمكن أن يترتب على ذلك من المخاطر والفوضى؟ أو هل يعفي نفسه كليًّا من خطاب التكليف، ويدخل غرفة الانتظار حتى تتشكل السلطة المسلمة من تلقاء نفسها؟ الأمر الذي يستحيل معه أن يكون ذلك مقصد الدين وهدفه.

لذلك نرىٰ أن المشكلة قد تكون كلها في عدم فهم أبعاد الخطاب، وفهم محله معاً ذلك أن التكليف يتحدد أصلاً ضمن ما يقع تحت مقدور المكلَّف، ومقدور المكلَّف هنا ليس القيام بإنفاذ الأحكام المرتبطة بوجود السلطان والجماعة، وإنما بالقيام بالمسؤولية المنوطة به كفرد، ومن مسؤوليته الفردية أيضاً العمل على وجود السلطان الذي يناط به إنفاذ الأحكام المرتبطة به، وبذلك يكون الفرد مشمولاً بخطاب التكليف فلا يعفي نفسه من المسؤولية ويدخل ملاجىء المرجئة أو يخرج بلا فهم ولا فقه لدينه وعصره فيسيء من حيث أراد أن يحسن.

[المحرم ـ جمادى الأولى ١٤١٠هـ
آب (أغسطس) ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٩]

البناء الحضاري

نحب أن نعلن أنه على الرغم من الواقع كله الذي نعاني منه، والذي أسميناه بالوهن الحضاري، الذي يحكم مرحلة القصعة التي نحن عليها، فإننا لسنا مع أصحاب النظرة التشاؤمية الذين وصلوا إلى مرحلة الإعياء. الذين يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة، لبعد الشقة وطول المسافة، وعمق الفجوة، فقعدوا عن إعداد العدة ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾.

كما أننا ـ في الوقت نفسه ـ لسنا مع أصحاب الأماني، وأحلام اليقظة ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به﴾، الذين يقضون حياتهم في غرفة الانتظار، ينتظرون سقوط الحضارة لمصلحتهم من خلال بعض ما يقرأون عن أمراضها دون مكابدة، ومجاهدة، وتهيؤ.

ولا مع أولئك الذين يظنون أن الموضوع كله، يمكن أن يحسم بمجرد رفع درجات التوتر الروحي، والتوثب الإيماني السلبي، بعيداً عن ساحة المجاهدة والابتلاء، ويؤثرون الانسحاب من معركة الحضارة، على الرغم من اعتقادنا أن التوثب الروحي والوتر الإيماني، هو الشرط الضروري للتحصين، حتى لا يكون السقوط في زخرف الحضارة وزينتها أثناء المعركة والمواجهة، لكننا نرى أنه لا بد من النزول إلى الساحة والمواجهة، بالصبر والمصابرة والتعرف على الأسباب الموصلة، وتحري الصواب، مع الإخلاص وطلب التوفيق من الله.

ولا مع أولئك الذين يستغنون بالتنظير والفلسفة الباردة، عن الممارسة والتدريب، واكتساب الخبرة الميدانية، وتحديد مواطن القصور، ودراسة أسباب التقصير.

* * *

لعلنا لا نتجاوز الحقيقة كثيراً إذا قلنا: إن الأمة المسلمة اليوم، تعيش مرحلة (القصعة) ـ وهي مرحلة الوهن الحضاري بأبعادها كلها ـ التي أخبر عنها الصادق المصدوق بقوله: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.. قالوا: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: لا، بل أنتم كثير ولكن غثاءٌ كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت».

فمؤشرات الوهن الحضاري، ومسبباته، كما أشار إليها الحديث: حب الدنيا الذي يعني العب من متعها واللهاث وراء زينتها، واستهلاك أشيائها، والتزاحم على الحقوق. ويمكن تلخيص ذلك كله بالانتهاء إلى مرحلة الاستهلاك، وظهور الإنسان الاستهلاكي، الذي يتجاوز حقه في الأخذ، ولا يحسّ بواجبه. أما كراهية الموت الذي هو العنصر الآخر للوهن الحضاري، فيعني: انكماش فكرة الاحتساب، وغياب روح الإيثار والتضحية، وعدم استشعار الواجب، والقعود عن العمل والإنتاج، والاقتصار على الاستهلاك.

فالوهن الحضاري، في حديث الرسول ﷺ يتلخص ببروز الإنسان المستهلك الذي لا يهمه إلا حقه، وغياب الإنسان المنتج الذي لا يرى إلا واجبه.

وسوف لا يكون أي نهوض أو بناء، إلا بتصويب تلك المعادلة، والخروج من مرحلة (القصعة)، ومعالجة الإصابة بالوهن، وذلك إنما يكون بإعادة صياغة الشخصية المسلمة اليوم، والارتفاع بها إلى سوية الإنسان المنتج، وتغييب صورة الإنسان المستهلك عن ضميرها، ومناخها الثقافي، والتركيز على إنسان الواجبات، لا إنسان الحقوق.. إنسان البقاء والخلود بالعمل والإنتاج، لا إنسان الزوال والاستمتاع والاستهلاك، الذي يدرك مدلول قوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ (التوبة: ٣٨).

ونرى أنه لا بد لنا بداية من التفريق بين الموت الحضاري، الذي يعني انقراض الأمم وهلاكها، وبين الوهن الحضاري الذي يعني المرض، أو الوباء الاجتماعي الذي يعتري روح الأمة، فيطفىء فعاليّتها، ويقعد بها عن بلوغ أهدافها، وحمل رسالتها. فالمؤشرات الواردة في حديث الرسول ﷺ، تدل على حلول المرض وليس نزول الموت، لذلك تبقى إمكانية النهوض كامنة ومستمرة، لكن لا بد لها من معالجة صحيحة، كما لا بد للأمة - في مرحلة الوهن - من محرضات، ومنبهات حضارية، تنبعث من داخلها على يد النخبة من أبنائها الشرعيين الذين أخبر الرسول الخاتم عنهم بأنهم الطائفة القائمة على الحق التي لا يضرها من خالفها حتى يأتي أمر الله.

إنها الطائفة المعافاة، التي تشكل خميرة النهوض، ووسيلة التواصل الحضاري، والتي لم تلحقها إصابة الوهن، وليست جزءاً من الاستنقاع والركود الذي لحق عموم الأمة، لكنها النخبة التي تستشعر مرحلة القصعة بآكليها، وموكليها، وتفكر في سبل الخروج..

وما أشرنا إليه، من أن الوهن الحضاري، مرض قابل للشفاء، وأنه لا يعني بحال من الأحوال الموت الميئوس منه، يؤكده استقراء التاريخ، وما فيه من أخبار الأمم السائدة والبائدة، وقراءة الواقع الذي نحن عليه، ذلك أن مواثيق الله تعالى لهذه الأمة، صاحبة الرسالة الخالدة، ومبشرات المعصوم ﷺ، يؤكدان أن قابلية النهوض كامنة، ودائمة، ومستمرة، إذا أبصرنا شروطه ومقوماته، وتحققنا بأسباب التمكين في الأرض، وأحسنّا التعامل مع السنن الجارية. فغلبة الأعداء موقوتة، وتسلطهم علينا ليس تسلط استئصال، وإنما هي عقوبات يوقعها الله علينا بسبب معاصينا السياسية، والثقافية، والفكرية والحضارية، ويبقى لهذه العقوبات دور المنبه الحضاري، والتحدي المستفز، ذلك أن الصعوبات هي في الحقيقة تحد خلاّق، لأنه يستحث الأمة ويستنفرها للرد عليه.

ولعل في حديث الرسول ﷺ، الذي يرويه (ثوبان) كبير مغزى في هذا

المجال: يقول الرسول ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها، ومغاربها، (انظر ما تمتلك الرسالة الخاتمة من رصيد حضاري وتجربة وعبرة، من لدن آدم عليه السلام إلى الرسول الخاتم ﷺ) وإن أمتي سيبلغ ملكها مازوي - جمع - لي منها. وأعطيت الكنزين، الأحمر والأبيض - معادن الأرض وثرواتها - (وهذا يفسر ما يعج به العالم الإسلامي من الثروات والمعادن والخامات) وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة - قحط شامل ومجاعة مهلكة - وألا يسلط عليهم عدواناً من سوى أنفسهم، ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥) فيستبيح بيضتهم.

وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاءً، فإنه لا يرد! إني أعطيتك لأمتك، ألا أهلكهم بسنة عامة! وألا أسلطِ عليهم عدواناً من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من أقطارها، أو من بين أقطارها - يعني: أهل المعمورة - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً».

مكمن الداء

والحديث ظاهر في أن مصائبنا من عند أنفسنا، وأن تسلط العدو علينا ليس تسلط استئصال، وأن أخطر الإصابات الحضارية، هي التي تلحق بأنفسنا، وأرواحنا، وأخلاقنا، وبنائنا الداخلي. ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإن علاج الوهن الحضاري إنما يبحث عنه في الداخل الإسلامي، ومن المستحيل في ضوء هدي النبوة، واستقراء التاريخ، وقراءة الواقع، استيراد علاج الوهن من الخارج الإسلامي، فالاستيراد، والاستدعاء الحضاري، إنما هو معالجة للعرض، وليس لسبب المرض، وما نظنه ونتظاهر به من وهم العافية، بسبب الاستيراد، إنما هو إخفاء وتمهيد للمرض، وليس علاجاً له.

ونحب أن نعلن أنه على الرغم من الواقع كله الذي نعاني منه، والذي أسميناه بالوهن الحضاري، الذي يحكم مرحلة القصعة التي أشرنا إليها، فإننا لسنا مع أصحاب النظرة التشاؤمية الذين وصلوا إلى مرحلة الإعياء. الذين

يرون استحالة اللحاق بقافلة الحضارة، لبعد الشقة وطول المسافة، وعمق الفجوة، فقعدوا عن إعداد العدة ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ (التوبة: ٤٦). كما أننا ـ في الوقت نفسه ـ لسنا مع أصحاب الأماني، وأحلام اليقظة ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به﴾ (النساء:١٢٣)، الذين يقضون حياتهم في غرفة الانتظار، ينتظرون سقوط الحضارة لمصلحتهم من خلال بعض ما يقرأون عن أمراضها دون مكابدة، ومجاهدة، وتهيؤ.

ولا مع أولئك الذين يظنون أن الموضوع كله، يمكن أن يحسم بمجرد رفع درجات التوتر الروحي، والتوثب الإيماني السلبي، بعيداً عن ساحة المجاهدة والابتلاء، ويؤثرون الانسحاب من معركة الحضارة، على الرغم من اعتقادنا أن التوثب الروحي والوتر الإيماني، هو الشرط الضروري للتحصين، حتى لا يكون السقوط في زخرف الحضارة وزينتها أثناء المعركة والمواجهة، لكننا نرى أنه لا بد من النزول إلى الساحة والمواجهة، بالصبر والمصابرة والتعرف على الأسباب الموصلة، وتحري الصواب، مع الإخلاص وطلب التوفيق من الله.

ولا مع أولئك الذين يستغنون بالتنظير والفلسفة الباردة، عن الممارسة والتدريب، واكتساب الخبرة الميدانية، وتحديد مواطن القصور، ودراسة أسباب التقصير.

ولا مع الذين، ينظرون إلى التواصل الحضاري الوارد في حديث رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» برؤية نصفية: من أن القيام على الحق مقتصر على الجانب العبادي الروحي السلبي، دون إدراك أن من مقتضى القيام على الحق، إدراك سنن التسخير، ومعرفة الأسباب التي تنتظم الحياة، وحسن التعامل معها. بل إننا نرى أن التفكير والملاحظة، والاختبار، والتجريب، واكتشاف قوانين التسخير، ومعرفة أسباب التمكين في الأرض، من لوازم العبادة ومقومات العبودية، والارتفاع إلى مستوى الخطاب الإسلامي الذي نلمحه في آيات القرآن الكريم التي تدعو إلى التفكير، وتؤكد على التسخير.

ولا مع الذين يتقنون فن الجلد، والتوهين لهذه الأمة؛ ولا يميزون بين الجلد والنقد البناء، والمناصحة، ويعجزون عن إثارة دوافع الخير، وعوامل النمو فيها، ويعنيهم البحث في أسباب الفرقة أكثر مما يعنيهم التأكيد على عوامل التوحد، لأنهم ومهما كانت دعاواهم عريضة، يبقون العقبة الحضارية التي لا بد من اقتحامها، حسبهم أنهم يعيشون في الخارج الإسلامي بأفكارهم، ومسالكهم ورؤيتهم في النهوض والإصلاح فأنى لهم أن تقبل شهادتهم الحضارية على هذه الأمة! خاصة والمتأمل في تاريخ هذه الأمة الطويل، يرى أن حركات الانبعاث، والتجديد كلها، إنما جاءت من الداخل الإسلامي.

إن تفاؤلنا بقدرة هذه الأمة على النهوض، والبناء الحضاري، وتجاوز حالة الوهن، والهوان، التي هي عليها اليوم، لا يمثل بالنسبة لنا خياراً، بقدر ما هو دين وعقيدة، مستمدة من مواثيق الله، ومبشرات الرسول ﷺ، واستقراء التواصل الحضاري التاريخي لهذه الأمة، واستعصائها على التذويب، والتمويت والإبادة، لأنها تمتلك خميرة البقاء والنهوض، لكن ذلك لم يمنع من وقوعها في الوهن الحضاري، الذي نلمح مظاهره اليوم على أكثر من صعيد.

العجز عن استيعاب الماضي

والادعاء بأن سبب التخلف هو التشبث بالماضي، والافتخار به، يحمل في طياته الكثير من التجني. وفي اعتقادنا أن الأمة المسلمة اليوم، لو استطاعت أن تتمثل شخصيتها الحضارية التاريخية، وتستوعب إنجاز السلف على مختلف الأصعدة، لأدركت رسالتها، واستشعرت مسؤولياتها، وكان حالها على غير ما هي عليه اليوم، لكننا نرى أن انتسابنا إلى الماضي، دعوى بلا دليل، بل نستطيع أن نقول: إن الافتخار بإنجاز الأجداد، والهروب إلى ملاجئهم والاحتماء بها، دون القدرة على تعدية الرؤية وصناعة الحضارة، ضرب من التوبيخ لأنفسنا، ولون من الإصابة التي تعني أول ما تعني، أن هذه الأمة أحالت نفسها على التقاعد، وأصبحت تستهويها قصص الماضي، والذكريات

التي تستردها لتزجية الوقت وشغل أوقات الفراغ، وهي بذلك تقع خارج الزمن بأبعاده الثلاثة: الماضي والحاضر والمستقبل، وإنها لو أدركت ماضيها، واستوعبته، وكانت ابناً شرعياً له، لصنعت الحاضر، واستشرفت آفاق المستقبل.

من هنا نقول: بأن انتسابنا للماضي مشكوك فيه، إنه لون من الانحياز العاطفي الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. فما الفرق بين من يجانب الماضي ومن ينتصر له، إذا كان الإثنان يعيشان خارج الماضي والحاضر والمستقبل؟ ولعل الكثير من معاركنا وصراعاتنا التي نعنون لها بالتراث والمعاصرة، تدور في الحقيقة خارج الماضي، وخارج الحاضر معاً، فلا التراثي استفاد من زاد التراث واستطاع توظيفه بشكل صحيح، ولا المعاصر أدرك مقتضيات العصر وأحسن التعامل معها، إنها معارك (حضارية) بغير خصومة حقيقية.

ولعل من مظاهر الوهن الحضاري أيضاً الذي تعيشه الأمة: هذا الاضطراب في الموازين، والخلط في الأوراق. فمن أبجديات المنطق الأولى، أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، وأن من أبرز سمات العصر الذي نعيشه، تقسيم العمل والتخصص، بل التخصص الدقيق في فروع المعرفة الواحدة، ليكون بعد ذلك الإنجاز والإتقان، ومن ثم الوصول إلى فجائيات الإبداع. أما في أمة الوهن الحضاري، فلا يزال الرجل الملحمة الذي يدعي أنه يفهم بكل شيء هو الشخص المميز. ولا نخشى أن نقول هنا: بأن مثل هذا الادعاء في هذا العصر يعني أن صاحبه لا يفهم في شيء، فكثير من المشتغلين بالقضية العلمية التجريبية يتقحمون ساحة التخصص الشرعي الدقيق، التي لا يبلغها إلا من أفنى عمره في بحثها. وعلى الجانب الآخر نرى بعض المشتغلين بالأمور الشرعية والفقهية يصرون على اقتحام ساحات العلوم التجريبية الدقيقة، التي يقتضي إدراك بعضها، عمر فرد وعمل أفراد، ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون أداء رسالتهم، أو الارتقاء بوسائل دعوتهم، وتحضير الأمة لممارسة دورها الحضاري المفقود. والحقيقة أن هذا الخلط، لون من الثقافة المغشوشة، والعجز عن تجاوز النزعة الفردية إلى روح الفريق والجماعة والعمل المؤسسي، والإنجاز المشترك،

لكل في ميدانه، وبذلك لا تقتصر الإصابة الحضارية على مجال دون سواه، كما أن الارتقاء الحضاري، لا يأتي إلا متكاملاً في الاجتهاد الشرعي والإنجاز العلمي على حد سواء.

غياب المثقفين

وقد يكون من مظاهر الوهن الحضاري، على مستوى الإبداع العلمي والتقني: انعدام دور المثقفين والمفكرين والأدباء، في تصميم الذهنية ورعاية القابلية، وتحضير المناخ، وتشكيل العقلية القادرة على حسن التفكير والارتقاء بالتخصص، واكتشاف قوانين التسخير، والتعرف على الأسباب الموصلة إلى التمكين في الأرض وبناء الحضارة. ونستطيع أن نقول: بأننا نعاني من غياب كامل لما يمكن أن نسميه الأدب العلمي أو الثقافة العلمية، أو الثقافة التقنية، وتكاد تكون المكتبة الإسلامية اليوم، شبه خالية من الدراسات العلمية المتخصصة التي تغري بالبحوث وتسهم بعملية النهوض الحضاري وتشكل دليلاً لها، وقد أصبحت هذه الدراسات اليوم لازمة، بعد أن تجاوزنا إلى حد ما مرحلة مواجهة التبعية وضرورة الفكر التعبوي الذي مرت بها أدبيات الحركة الإسلامية الحديثة.

خطأ التقدير

ومن مظاهر الوهن الحضاري: ما نشاهده اليوم عند الذين يحاولون تحديث مجتمعاتهم، والإفادة من تجارب الأمم الأخرى، من التوهم بأن الحضارة إنما تكون بتكديس المنتجات؛ وكيف انقلبت النتائج عندهم مقدمات، وصارت المقدمات نتائج، فلم يدركوا أن الحضارة هي التي تصنع المنتجات، وليست المنتجات هي التي تصنع حضارة، وأن الإكثار من استيراد المنتجات الحضارية، والعبّ والاستهلاك منها بدون ضوابط، يساهم بتكريس الوهن، ويقتل الفاعلية ويؤدي إلى الركود والاستنقاع الحضاري. فكثير من المنتجات الحضارية في العالم

الآخر، إنما اقتضتها الحاجة والضرورة، وانعدام اليد العاملة، وأهمية اختزال الوقت والجهد، وتوفيرهما ووضعهما في آفاق أخرى، أكثر جدوى في نظرهم؛ بينما نجد تلك المنتجات تزيد عند أمم الوهن الحضاري من مساحة وقت الفراغ، وتفتح على الإنسان سبل غواية الشيطان، وتلحق بالفرد العطالة التي تأتي بالطاقات الفائضة الكثيرة، فيكون وقته عبئاً عليه، يورثه الكآبة، والملل، والضياع، والعبث، وما إلى ذلك بحيث نعيش أمراض الحضارة، مضافة إلى أمراضنا، في الوقت الذي لا يمكننا التحقق بمنجزاتها.

وأكبر مثال على ذلك، ما نراه اليوم في بعض بلاد المسلمين، التي استطاعت من خلال إمكاناتها، إحضار منتجات الحضارة كلها، ومع ذلك لم يغن الاستيراد عن إنسانها شيئاً، بل لعل هذه المنتجات دفعته إلى لون من العطالة، والاستزادة من الاستهلاك.

ولئن أمكننا استيراد الآلات، والمصانع، والأدوات، لكن لا يمكننا أبداً استيراد البشر. من هنا نرى أنه لا بد من التفكير السليم في حل هذه المعادلة.

إن عملية الاستيراد للآلة، والفني، والعامل، سوف يُبقي إنساننا في موقعه، مهما كان التظاهر بغير ذلك. وقد لا نستغرب كثيراً عندما نرى الإنسان في عالمنا الإسلامي اليوم يجوب محلات بيع الساعات المتعددة، ويدفع الأثمان الباهظة للحصول على ساعة منضبطة، ودقيقة جداً، وبعد ذلك نجد وقته كله يمضغه الضياع، فلا قيمة له، ولا إنجاز فيه، إنه اكتفى بالساعة الضابطة، عن إدراك قيمة الوقت المنتج، ونسي أنه وضعها في اليد العاطلة! وقد يكون هذا وأمثاله، من المناظر المألوفة كثيراً في حياتنا. إن السبب كله يكمن في أننا نواجه مشاكلنا بمنطق الأشياء، لا بمنطق الأفكار، ونظن أنها تحل بالاستزادة منها، لذلك نبقى عاجزين عن التصرف في الإمكانات التي نمتلكها، وعن التبصر بها.

يضاف إلى ذلك أن لكل أمة معادلتها الاجتماعية، وعمرها الحضاري، وأولوياتها المطلوبة، الأمر الذي لا بد أن يؤخذ بالحسبان أثناء عملية الاستيراد لمنتجات الحضارة. ونحن في هذا لا ندعو إلى إلغاء الإفادة من المنتجات

الحضارية للأمم الأخرى، لأن ذلك أقرب إلى الاستحالة، وإنما ندعو إلى ترشيد الاستيراد، وتجسير العلاقة بين منتجات الحضارة، ومعادلة الأمة الاجتماعية، ذلك أن مخاطر المنتجات في عالم الاستهلاك، تختلف عن مخاطرها في عالم الإنتاج.

ومن مظاهر الوهن الحضاري، الذي تعاني منه الأمة المسلمة: غياب الحس الديني، أي غياب فكرة الثواب والعقاب، عن أجواء البحث العلمي، حتى وصل الأمر ببعض العقول الكليلة من المسلمين إلى اعتبار هذه البحوث والتخصصات، من علوم الكفار التي تصرف الإنسان عن التعبد إلى الله بطلب العلم الشرعي. لقد سيطر هذا المناخ الثقافي المغشوش على العقل الإسلامي ردحاً من الزمن، حتى فاتنا الركب، ولا تزال رواسب هذا المناخ حاضرة، في نفوس الكثير منا حتى اليوم، على الرغم من المعاناة الشديدة، والمحنة الحضارية التي نعيشها بسبب ذلك. وليس غريباً أن نرى كثيراً ممن اختاروا طريق العلوم التجريبية من المتدينين أو من الذين استدركوا أمر دينهم بعد الولوج في التخصص، يشعرون بعقدة الذنب الداخلي بسبب اختيارهم، لتوهمهم أن هذا اللون من الاختصاص، لا يقع في دائرة العبادة والفرضية، أو على الأقل هو في نظرهم خارج منطقة الكسب الديني، لذلك نجد بعضهم يتحول عن ممارسة تخصصه، أو ينقطع عنه، ويخلي مكانه للعمل في مجال الدعوة إلى الله، وكأن الكسب العلمي، الذي يؤدي إلى تمكين الأمة، والوصول بها إلى مرحلة الشهادة على الناس وقيادتهم وفق منهج الله، ليس من الدعوة!!

ولعل الأغرب من ذلك، أن يعتقد بعضنا، بأن الله جعل الكفار في خدمتنا، لذلك فهم يتولون الصناعة لاستهلاكنا! أما نحن فنتفرغ للعلوم الشرعية، وكأن معرفة الحرفة والصنعة والإنتاج، ليس من العلوم الإسلامية، والتكاليف الشرعية! وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة، وهم في موقع الأسوة والقدوة ـ ولا ندري كيف يفهمون قوله تعالى في بيان نعمه على سيدنا داود: ﴿وألنا له الحديد﴾، ﴿أن اعمل سابغات﴾، ﴿وقدر في السرد﴾، ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾. وكيف يقرأون قصة ذي القرنين في القرآن

الذي مكن الله له في الأرض باتباعه للأسباب: ﴿آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾ (الكهف: ٩٦).

الوهن.. إصابة شاملة

ومن مظاهر الوهن الحضاري أيضاً: أن الإصابة لم تقتصر على العلوم التجريبية كما يتوهم بعضهم، وإنما نعتقد أن الإصابة في العلوم التجريبية كانت ثمرة للإصابة في العلوم الشرعية نفسها، التي انتهت إلى لون من التقليد والمحاكاة والشرح تارة والاختصار أخرى، مما عزل هذه العلوم عن حياة الناس، وجعل منها تجريدات ذهنية بعيدة عن الواقع، وأفقدها الكثير من أبعادها الرحبة التي لو وجدت، فلا بد أن تثمر في مجال العلوم الأخرى، كما كان الحال في فترات التألق الحضاري والثقافي الإسلامي، حيث جاء الإبداع في مختلف المجالات، كما أن التخلف اليوم يعم مختلف المجالات.

ولم يكن نصيب العلوم الاجتماعية بأحسن حالاً من العلوم التجريبية وهي ميدان هام وهام جداً في عملية الانبعاث الحضاري، فعلوم التاريخ والاجتماع والتربية والنفس والسياسة إلخ، هي من لوازم عملية الدعوة والبلاغ المبين وإعادة صياغة الإنسان وتشكيله، وإلا فكيف ندعو إلى الله ونرقى بالناس ونحن نعيش في عالم نجهل إنسانه ولا نمتلك الوسائل المدروسة لخطابه، والمعرفة الدقيقة لتاريخه ومعتقداته ولا ندرك خصائصه وكينونته البشرية؟! وإذا كان محل التكنولوجيا التي نتكلم عن ضرورة استنباتها، أو استيعابها، والإبداع فيها، هو وسائل الإنسان، فإن محل العلوم الاجتماعية هو الإنسان نفسه، الذي لا بد من إعادة بنائه وتشكيله أولاً، حيث لا فائدة لوجود العربة بدون الحصان. وإذا وجد الإنسان السوي، وجدت الحضارة. فالإنسان لا يُستورد. وما الفائدة إذا استوردنا أشياء الإنسان ووسائله، وخسرنا الإنسان نفسه، لذلك نرى أنه لا بد من إعادة النسغ الإسلامي للعلوم الاجتماعية، ووصل ما انقطع وتوقف،

واستشعار أهمية ذلك ودوره بالقدر نفسه الذي نبحث فيه قضية العلوم التقنية أو يزيد.

وقد تكون المشكلة أن إنسان التخلف لا يبصر إلا أشياء الحضارة، ويصعب عليه إبصار أفكارها.

ونعتقد أن تخلفنا في العلوم الإجتماعية اليوم لا يقل عن تخلفنا في العلوم التقنية، إن لم يكن أخطر، لذلك نرىٰ أنه لا بد أن نعود لاستئناف البحث في العلوم الاجتماعية برؤية إسلامية، أو أن نعيد العلوم الاجتماعية إلى إطارها الإسلامي، أي لا بد أن تمتد المدرسة الخلدونية وتستمر، وبذلك وحده نكون قادرين على إدراك قوانين التسخير، وميكانيكية عملها، والتفسير الحضاري لها، وخطورة أهداف ومنطلقات وحكمة تلك العلوم، ودورها الهام في تشكيل ثقافة الإنسان، وتأهيله للنهوض الحضاري من خلال رؤية إسلامية.

قضية لا بد من حسمها

ومن مظاهر الوهن الحضاري: الخلط العجيب بين المبادىء والقيم الثابتة التي وردت في الكتاب والسنة وبين البرامج والأوعية الفكرية التي تعني الاجتهاد والنظر البشري في إنزال تلك المبادىء على حياة الناس بما يتوافق مع ظروف كل عصر وبيئة والظن بأن التأثم هو في الخروج على برامج واجتهادات السابقين لما لاءم عصرهم.

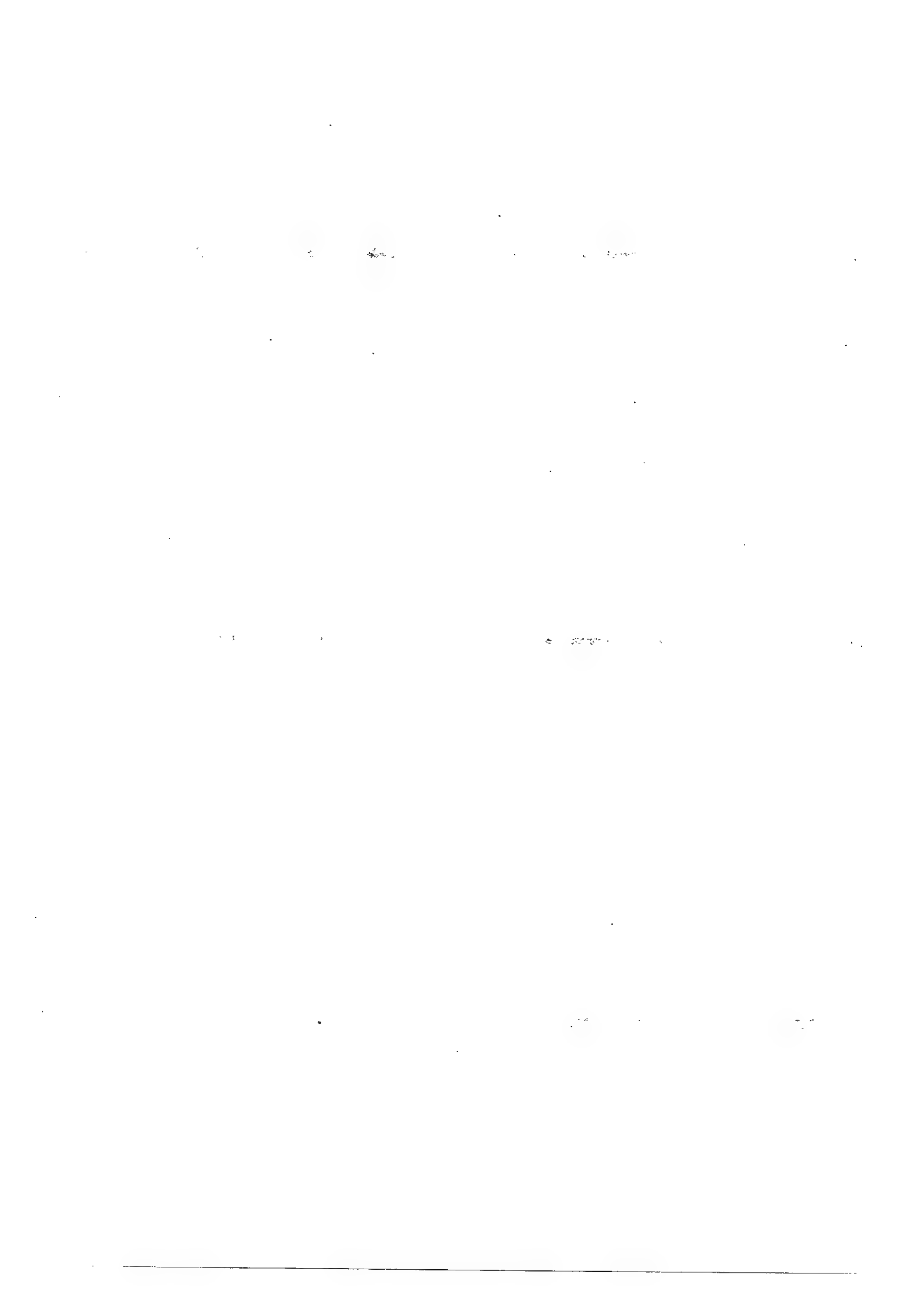
إن هذا الخلط العجيب أدى إلى الانغلاق والركود، ووضع حاجزاً نفسياً أمام العقل المسلم، أقعده عن الإبداع والاجتهاد، لما يوافق عصره، كما حال بينه وبين الإفادة من تجارب الآخرين، في مجال النظم والبرامج. ونعتقد أن الإسلام أرسى القيم والمبادىء والموجهات الأساسية، التي لا بد أن تضبط السير، وتحذر من الانحراف والانزلاق. أما إبداع النظم والبرامج، فهو من اختصاص العقل الإنساني، ونعتقد أن من أهم عوامل التخلف، إن لم يكن أهمها، هو هذا الحجر وتلك المحاصرة التي أوقعناها على أنفسنا فحالت بيننا وبين

الكسب والتصرف والحركة بما يلائم عصرنا.

ونحب أن نؤكد أننا باستعراضنا لبعض مظاهر الوهن الحضاري، الذي تعيشه أمتنا، إنما أردنا لفت النظر إلى بعض جوانب المحنة التي نعاني منها في الداخل الإسلامي، لأننا نعتقد أن الحس بالمعاناة هو سبب للتأمل في الدواء، والوقوف على عتبة النهوض وأن تحسيس الأمة بالأزمة هو إدخال لها في مرحلة القلق السوي على مصيرها.

فالصعوبات التي تواجه الأمة هي في الحقيقة مبشرات، والحس بالصعوبة واستشعار أبعادها مؤشر على الدخول في همّ الكفاح، والمواجهة الحضارية، واكتشاف مواطن الخلل، لأن الصعوبات والمحن، دليل الخلل في البناء الاجتماعي، ومن شروط الاستجابة التحدي. والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح**﴾.

[رجب ١٤٠٩هـ - شباط (فبراير) ١٩٨٩]



قيادة البشرية والشهادة عليها.. تكليف وتشريف

لعل الملمح الأساسي الذي يحتل الموقع المتقدم، والمتحكم في الوقت نفسه في العلاقات الدولية اليوم، ويشكل السلاح الأكثر فاعلية على ساحة البشرية هو سلاح الغذاء والرعب الذي تثيره الدول المنتجة والمصدِّرة للقمح والمواد الغذائية الأخرى بشكل عام في نفوس الدول الفقيرة، وتجرها بسبب ذلك إلى سياساتها وعقائدها من أفواهها وبطونها وشهواتها، وتؤد بها اقتصاديًا بين الحين والآخر لتزيد من تبعيتها وعمالتها، وتدفع من كرامتها ثمناً لتحقيق ما يسمى «الأمن الغذائي» ولا نزال نذكر سلاح القمح الفعَّال الذي استخدمته الولايات المتحدة ـ ولا تزال ـ ضد بعض بلدان العالم في السبعينيات، وجعلته ثمناً لهجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين ليساهموا بالاستعمار الاستيطاني.. وكيف أن تقديم المساعدات الغذائية والعسكرية إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي مشروط ومرتبط بانتهاج السياسة التي ترسمها الولايات المتحدة.. وكيف أن التهديد بالجوع اليوم يفوق تهديدات السلاح.. وكيف يتم إتلاف جبال من الزبد والقمح في الدول المتخمة والغنية ليستمر الحفاظ على السعر والتحكم بعالم الفقراء... ناهيك عن التأديب الاقتصادي ـ بشكل عام ـ الذي لا يقتصر على منع تصدير الغذاء إلى عالم الفقراء، وإنما يتجاوز ذلك إلى التحكم بإنتاج دوله وفي مقدمتهم دول العالم الإسلامي النفطية وغير النفطية، والتحكم بأسعاره وفقاً لمصالح الدول الكبرى...

* * *

تشرف الأمم بشرف رسالتها، وتسمو بسموّ أهدافها وقدرتها على العطاء العالمي، وإنقاذ البشري من معاناتها، وتخليصها من شقوتها، وإلحاق الرحمة بها، ولا بد للأمة التي نيطت بها قيادة الناس والشهادة عليهم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: ١٤٣)، وورثت النبوة، وأخذت على عاتقها مسؤولية البلاغ المبين، وجُعِلت أوعية النقل العلمي والثقافي لميراث النبوة ورسالتها الخاتمة الخالدة، من أن تُربَى تربية خاصة تؤهلها للقيادة والشهادة، وأن تتمتع بخصائص وصفات تجعلها متميزة بسلوكها وعقيدتها إلى درجة تثير الاقتداء في النفوس، وتغري بالتزام الصراط المستقيم، وأن تتمتع بوضوح الرؤية، وسلامة الوسيلة، وإنسانية الهدف، وتمتلك المقياس والميزان الدقيق الذي يمكّنها من الشهادة للناس وعليهم، والقدرة على تحديد الحق والانحياز إليه ومناصرته، وتعرية الباطل وفضحه ومواجهته، لأنها بعقيدتها وعبادتها «الأمة المعيار».

ولا شك أنّ هذه الخصائص والصفات التي تؤهل للقيادة والشهادة ليست منحة تتحصل من فراغ وإنما هي مكابدة واكتساب، جاء ثمرة أعباء، وتكاليف، وعبادات، وتمرس على الظروف الصعبة، ومجاهدة واحتمال وتواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر، تؤدي في المحصلة النهائية إلى تربية الإرادة على الالتزام، وتنمية القدرة على الاستمرار. . . ولعلّ في بناء الإسلام ـ والرسول ﷺ يقول: «بُني الإسلام على خمس: شهادة ألاَّ إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» ـ الذي يبتدىء بتصويب الإنسان من الداخل، وتصحيح الوجهة، وإخلاص النية، وتحديد جهة التلقي والولاء، وتحقيق العبودية لله عز وجل: بشهادة ألاَّ إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله؛ ومن ثم تنمية واستكمال الخصائص والصفات المؤهلة للقيادة والشهادة عن طريق العبادة وعمادها الصلاة، الحارس اليومي الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر؛ والزكاة التي تضمن الوقاية من الشحّ ونوازع الأثرة في النفس، وتدرب على الخير؛ وصوم رمضان، حيث استشعار البشرية والحاجة، وتحقيق العبودية لله تعالى، والإحساس

بالآخرين، والارتفاع عن شهوتي البطن والفرج، اللتين أذلتا العالم ولا تزالان؛ وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً...

ذلك أن لكل عبادة دورها وأداءها، بما لا تغني في ذلك عبادة عن عبادة أخرى؛ وأن البناء الإسلامي لأمة القيادة والشهادة لا بد من أن تتوفر له هذه العبادات جميعاً: كما توقفنا ـ ونحن على أبواب شهر القرآن عند مجموعة من المعالم الرئيسة التي حملتها إلينا فريضة الصيام، والمعاني الكبيرة التي كان شهر الصيام وعاءً لها، وفي مقدمتها: نزول القرآن الذي جاء هدىً للناس وبينات من الهدى والفرقان، وكيف أنه كان ولا يزال ملاذ هذه الأمة، وحصنها، ومناط عزتها وقوتها، وسلاح جهادها ومصدر انتصارها ﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾ (الفرقان: ٥٢) ولأمر يريده الله تعالى جاءت الانتصارات الكبيرة التي شكلت منعطفات أساسية في مسيرة الأمة صوب الخير كلها في رمضان، سواء في حاضر هذه الأمة أو ماضيها...

وسوف تكون لنا ـ ونحن على مطالع هذا الشهر الكريم ـ محاولة ـ نرجو أن نوفق لها ـ لرؤية بعض الأبعاد التي يمنحنا إيَّاها شهر الصيام، والاهتداء إلى شيء من البينات، التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِن الهُدى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) من خلال معاناتنا المعاصرة التي تنوء بمجموعة من الإصابات بسبب من تفريغ القيم من مضمونها، وتعطيل أثر العبادة في النفس والسلوك، وانقلابها في حياة كثير إلى عادة تحكمها الآلية والتكرار، وتغيب عنها الدروس والحكم، وتتعطل ملكة الفرقان والاعتبار... والأمر الذي نعرض له هنا هو ملامح على مستوى الفرد والجماعة والأمة أوحى بها شهر الصيام الكريم.

السقوط أمام الأزمات

ولعلَّ الملمح الأساسي الذي يحتل الموقع المتقدم، والمتحكم في الوقت نفسه في العلاقات الدولية اليوم، ويشكل السلاح الأكثر فاعلية على ساحة

البشرية، هو سلاح الغذاء، والرعب الذي تثيره الدول المنتجة والمصدِّرة للقمح والمواد الغذائية الأخرى بشكل عام في نفوس الدول الفقيرة، وتجرها بسبب ذلك إلى سياساتها وعقائدها من أفواهها وبطونها وشهواتها، وتؤدبها اقتصاديًا بين الحين والآخر لتزيد من تبعيتها وعمالتها، وتدفع من كرامتها ثمناً لتحقيق ما يسمى «الأمن الغذائي». ولا نزال نذكر سلاح القمح الفعَّال الذي استخدمته الولايات المتحدة ـ ولا تزال ـ ضد بعض بلدان العالم في السبعينيات، وجعلته ثمناً لهجرة اليهود السوفييت إلى فلسطين، ليساهموا بالاستعمار الاستيطاني، وكيف أن تقديم المساعدات الغذائية والعسكرية إلى الكثير من بلدان العالم الإسلامي مشروط ومرتبط بانتهاج السياسة التي ترسمها الولايات المتحدة، وكيف أن التهديد بالجوع اليوم يفوق تهديدات السلاح، وكيف يتم إتلاف جبال من الزبد والقمح في الدول المتخمة والغنية، ليستمر الحفاظ على السعر والتحكم بعالم الفقراء... ناهيك عن التأديب الاقتصادي ـ بشكل عام ـ الذي لا يقتصر على منع تصدير الغذاء إلى عالم الفقراء، وإنما يتجاوز ذلك إلى التحكم بإنتاج دوله وفي مقدمتهم دول العالم الإسلامي النفطية وغير النفطية، والتحكم بأسعاره وفقاً لمصالح الدول الكبرى...

ولا شك أن لقمة العيش سلاح فعَّال

والأمة التي تعجز عن إنتاج طعامها وتحقيق اكتفائها ذاتيًا تظل مفتقرة لأبسط مقومات الاستقلال والحياة الحرة؛ ولقد واجه الإسلام المشكلة من أوّل الطريق، وأوجد لها من الأسس النفسية ـ الأمن النفسي ـ والتشريعات العملية، والتربية الجهادية على الظروف الصعبة، ما يحول دون الهشاشة التي يمكن أن تُسقط المجتمعات عند الصدمة الأولى، ذلك أن الحياة عسر ويسر، وسنوات عجاف وسنوات سمان، وسنابل خضر وأخر يابسات، فعلى مستوى كفالة الرزق وهب الإسلام للإنسان الأمن النفسي، حيث ضمن الله تعالى له الرزق، وحدّد له الأجل بشكل محسوم مبتوت فيه، فلا مجال لمناقشته، وهذا لا يعني، ولا يُفهم منه بحالٍ من الأحوال، ضروب التواكل والتفسيرات الذاتية للآيات التي سادت عالم المسلمين في عصور الانحطاط والتقهقر، وإنما السبيل إلى الفهم

والتفسير السليم هو حياة المجتمع الأول المملوءة بالفاعلية.

والحقيقة أن التربية النفسية والتشريع الملزم انصبا على وسائل الكسب ووسائل الإنفاق، وتحديد المشروع منها وغير المشروع، أي: على الوسائل؛ وسلوك السنن التي يتحصل عندها الرزق، وعوامل البركة، ومسببات الضنك والقحط، وأسباب الابتلاء بالجوع والخوف والنقص في الثمرات...

والأمر الذي لا يحتاج إلى جدل أن عبادة الصوم تأتي في مقدمة التشريعات والعبادات التي تواجه عبودية الإنسان لشهوة البطن، وتمرسه على الظروف الصعبة، لتلغي الهشاشة والرخاوة من مجتمع المسلمين وتحول بينهم وبين الانكسار والسقوط عند الصدمة الأولى، وفي مسيرة النبي ﷺ ومجتمع الصحابة رضوان الله عليهم نماذج هادية لمواجهة الشدائد والأزمات المالية والاقتصادية والنفسية، حيث كان شعارهم دائماً: إن مع العسر يسراً...

وكأننا بسلوكنا اليوم ـ البعيد عن تدريبات الإسلام وتشريعاته ـ وسقوطنا أمام الأزمات، نحكم على أنفسنا بأننا لا نمت إلى أمة الشهادة والقيادة بنسب أو انتماء، ونحكم على السيرة النبوية عمليًّا بأنها فترة تاريخية توقفت في حدود زمن معين، لأننا افتقدنا عملياً القدرة على تعدية الرؤية والاعتبار وتحقيق الاقتداء في مختلف الظروف والأحوال وإن رفضنا ذلك نظريًّا، ذلك أن سيرة خاتم النبيين ﷺ خالدة خلود الرسالة، وأن أحداثها ستبقى معالم للاهتداء لمواجهة الحالات المشابهة والمستمرة التي لا تتوقف، ولو توقفت المشابهة وانقطعت المشاركة في العلل لما كان لخلود السيرة أي معنى وأثر في حياة اليوم؛ ولكنًّا حقيقة عجزنا عن تجاوز جدار الزمان والمكان لتحقيق سمة الخلود للرسالة الإسلامية والاهتداء بها بشكل كامل وسليم، وحالنا التي نحن عليها دليل على ذلك.

من هنا يمكننا أن نؤكد ما كنَّا أشرنا إليه سابقاً من أن أسس الحياة وقضاياها الأصلية، وأزماتها البارزة والمتكررة على مدى الحياة الإنسانية لا بد أن تكون أصولها موجودة في مرحلة السيرة، ويبقى المطلوب: تحقيق القدرة على الاقتداء والاهتداء؛ وتعدية الرؤية، واستكناه قوانين الخلود حيث لا تتكرر

المشكلات بذاتها وحجمها وإنما بأساسياتها ومعالمها؛ هذا إلى جانب الاعتبار بأحوال الأمم الماضية والتبصر بعواقبها على مدار تاريخ النبوة ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيهِم وَلِلْكَافِرِينَ أمثَالُهَا﴾ (محمد: ١٠).

الحصانة ضد الترف..

نعود إلى التأكيد بأنَّ الإسلام ضمن لمجتمع المسلمين ـ لو استقاموا على نهجه وهديه من خلال تربيته النفسية وتشريعاته الملزمة، وعبادته المتعددة ـ الأمن النفسي، والأمن الغذائي؛ وحصَّنه ضد السقوط، ودرَّبه على مواجهة الأزمات، ومرَّسه على الظروف القاسية، ودعاه إلى الاخشيشان حتى لا يتحكَّم به الأعداء نتيجة استسلامه للرخاوة والدعة والرفاهية، وجعل ذلك تربية مستمرة لا تقتصر على أيَّام الأزمات، وإنما عبادة مفروضة شهراً من السنة، يتحول على مدار العام ـ صيفه وشتائه وربيعه وخريفه ـ ليكون المسلم قادراً على تحمل كل مناخ، ولا يتأثر لفوت طعام أو فاكهة أو خضروات مرتبطة بفصل معين؛ ذلك أنَّ الإعسار والمواجهات الاقتصادية، وحصار الأعداء لن يتوقف عند حدود زمان أو مكان، ولعلَّ ظروف النشأة الأولى لمجتمع المسلمين ـ وأي نهوض لمجتمع مرهون بتوفر ظروف ميلاده ـ الذي بدأ من الصحراء، وجاءت ولادته من خلال ظروفها القاسية؛ وجاءت حوادث التاريخ الإسلامي وأخبار الفتوح مصداق ذلك كانت مؤشراً وإعداداً للمسلم ليكون قادراً على العيش والمواجهة في كل الظروف: ولنا في مسيرة ذلك المجتمع الأول درس وعبرة. في مراحل الدعوة الأولى حوصر المسلمون في شعب أبي طالب ثلاث سنوات تقريباً حصاراً كاملاً لتحويلهم عن دينهم، وبلغت بهم الشدّة كل مبلغ حتى تقرحت شفاههم من أكل ورق الشجر، وأصابهم ما أصابهم، فتواصوا بالصبر على الحق، وتجاوزوا المشكلة، وانقلبت النقمة نعمة ـ بصبرهم وتحملهم ـ زادت في صلابتهم وصمودهم وعمق إيمانهم؛ وسقط أعداؤهم، وقد سبق هذه المحاصرة الاقتصادية الجماعية محاصرات على المستوى الفردي، وطورد المسلمون في أعمالهم

وأرزاقهم، كما هو واقع اليوم في أكثر من موقع على خارطة العالم الإسلامي، وكان شعار الكافرين وممارساتهم المستمرة ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ لكن مواجهة المؤمنين لذلك تمثلت في أن الرزق بيد الله تعالى، الأمر الذي أكدته نهاية الآية نفسها: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (المنافقون: ٧).

بهذه التربية حققوا الارتفاع فوق الخوف الغذائي الذي أذلَّ البشرية، وواجهوا ذلك بالمجتمع الحصين المتكافل الذي كان من أبرز خصائصه: الانصهار في بوتقة الشدائد الواحدة لمواجهة الأزمات، أما مجتمعات الأثرة فلن تستطيع الصمود في وجه الشدائد وإن تظاهرت بمظاهر الإسلام، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الأشعريين إذا أرملوا في الغزوة، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسَّويَّة، فهم منّي وأنا منهم» بل لقد حرم بعض الصحابة على نفسه الادخار لغده في أوقات الشدة، واعتبر ذلك من الكَنْز الحرام الذي يُحمى عليه في نار جهنم، فتكوى به الجباه والجنوب إذ احتاج المسلمون إليه، وجاء التكافل وقت الشدة على مستوى التحدي والمحاصرة، يقول أبو سعيد الخدريّ رضي الله عنه فيما يرويه عن رسول الله ﷺ: «من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له...» ويقول أبو سعيد رضي الله عنه: فذكر رسول الله ﷺ أصنافاً من المال - غير الزاد والظهر - حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحدنا في فضل... مجتمع لا حقَّ فيه لأحد في زيادة، يحرِّم الادخار عند الحاجة، ويفرض المشاركة الجماعية وقت الشدة، ويتطلب الارتفاع فوق نزعة التملك واستئثارها بالنفس... بهذه الخصائص استجاب المجتمع الإسلامي للأزمة، وأحسن مواجهتها حتى حرّم الفرد المسلم على نفسه الادخار لغده وقت الأزمات والشدائد، اعتبر نفسه بذلك معتدياً على حقوق المسلمين الآخرين؛ إنه المجتمع الذي اشترك فيه العشرة - من جيش العسرة في الطريق إلى تبوك - في امتصاص التمرة الواحدة بعد أن نفد زاده وقلَّ طعامه: المجتمع الذي تخرَّج في مدرسة



رمضان، وأدرك أبعادها كلّها، وأمن الخوف على طعامه بما وعده الله تعالى فأسقط بذلك سلاح عدوه، وحاصر آثاره المدمرة في النفس والمجتمع. . .

مطاردة الشباب المسلم..

ونحن لا نريد بما أتينا على ذكره من سمات المجتمع المسلم، وخصائصه التي أهَّلته للقيادة والشهادة على النَّاس التي أوحى بها شهر رمضان أن نزيد أو نستزيد من دفقات الحماس والاندفاع العاطفي، والتوثب الروحي ـ على أهمية ذلك وضرورته كشرط لازم لإذكاء الفاعلية والارتقاء الحضاري ـ فالذي ينقصنا اليوم هو مزيد من التعقل، والتفكر، والروية، والتبصر بعواقب الأمور ومعرفة سنن انقراض الأمم، ووسائل ومقومات نهوضها، واستعادة عافيتها، وإنما الذي أردنا التأكيد عليه أن المجتمع الإسلامي الأول الذي كان لشهر رمضان مدلولاته في حياته، وللقرآن هداه وبيناته وفرقانه في سلوكه، كان مجتمعاً صلباً متماسكاً بفضل رمضان، وكانت حصانته ضد الترف والمترفين، والأثرة والمستأثرين والمستكثرين هي العامل الأقوى في صموده واستمراره، لأنه طارد الترف والمترفين، وحارب أساليبهم، واعتبرهم بذور الفناء والدمار والهلاك للبنيان والعمران، والجسور التي يمر من خلالها الأعداء لإحكام السيطرة على الأمة من خلال خضوعها لشهواتها، قال تعالى: **﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾** (الإسراء: ١٦) ولا تخفى على أحد اليوم آثار الإصابات التي لحقت بمجتمع المسلمين عقوبةً لفسق المترفين وأمراضهم النفسية والعضوية، وكيف عمَّ بسببها البلاء بعد أن كَثُر الخبث. . .

وقد يكون الأمر الأخطر في هذه القضية ـ عموم البلوى ـ تسلل الترف وأدواته، وحالة الرخاوة والدعة والهشاشة إلى شباب الأمة وجماهيرها بشكل عام حيث نرى كيف أسقط أعداء الأمة شبابها في أسر الرفاهية والترف، وأوصلوه إلى المسكرات والمخدرات، وأهدروا طاقاته، وألغوا اهتماماته؛ وعملوا على

إقصائه عن عقيدته وعبادته، وإرعابه ومطاردته تحت اسم التطرف والتعصب، فأخرجوه عن خلقه الإسلامي، إنهم يعلمون ماذا يفعلون، لكن الذي لما يدرك بعد ما يراد له تماماً بإقصائه عن عقيدته وعبادته، وعن حصانته ضد التحكم هو نحن - للأسف، ومن هنا يتبين لنا عظم جرائم الذين يحاربون التوجهات الإسلامية في الأمة، ويطاردون الشباب المسلم، درع هذه الأمة وعدّة صمودها...

الحصانة ضد الأزمات..

إن النزوع إلى الترف والرفاهية والكماليات في غيبة من التربية الإسلامية، دفع بالكثيرين من سكان العالم العربي والإسلامي إلى هجر الأرض وترك العمل فيها، والنزوح إلى المدن والعيش على هوامشها، حيث انقلبوا من منتجين إلى مجرد مستهلكين، يستهلكون أنفسهم وطاقاتهم وكراماتهم بعيداً عن مواقعهم الأصلية، وعن مراكز الإنتاج في حقولهم ومزارعهم؛ وقد لا يكون الذنب كله ذنبهم، وإنما ذنب الذين شجعوهم على ترك الإنتاج باسم الانتصار لحقوق العمال والفلاحين ووعدهم بامتلاك وسائل الإنتاج، والنزول إلى هوامش المدينة لتوظيفهم في أغراض سياسية موقوتة، ومدفوعة الأجر؛ دون القدرة على استيعاب مدى التخريب الذي يمكن أن يصيب الأمة في سواعدها واقتصادها على المدى البعيد.

ولو صدقوا في دعواهم لعملوا على إبقاء الفلاح في أرضه وضمنوا له حقوقه وكرامته ليستمر في إنتاجه. إنَّ حالة العجز في مجال الزراعة في العالم العربي - نواة العالم الإسلامي - تزداد سنويًّا، وتتراوح نسبة الاعتماد على الخارج في مجال الغذاء ما بين خمسة وخمسين بالمائة إلى تسعين بالمائة من إجمالي الحاجة، والوطن العربي كلّه تقريباً يستورد القمح بعد أن كان مخزن العالم في الغذاء، فقد بلغت واردات البلاد العربية من القمح عام ١٩٦٠م حوالي ثلاثة ملايين طن تضاعفت إلى أحَدَ عشر مليوناً عام ١٩٧٦م ثم قفزت إلى حوالي أربعة عشر

مليوناً عام ١٩٧٩م وستصبح تسعة عشر مليون طن عام (٢٠٠٠م) والمساحة الصالحة للزراعة تعادل اثنين وعشرين بالمائة من مساحة العالم العربي بينما الأرض المستثمرة فعلاً لا تزيد على أربع بالمائة في الوقت الذي يستوعب قطاع الزراعة حوالي تسعين بالمائة من الأيدي العاملة، هذا إلى جانب تعدد وتنوع التربة والمناخ والإنتاج الذي يضمن له التكامل والاكتفاء الذاتي، فكيف لا يتحكم الأعداء بلقمة طعامنا ونحن على هذه الحال؟! لقد قال أحد الدبلوماسيين الأمريكيين: إذا كان عند العرب المواد الخام فلدينا الطعام، والمأساة اليوم حتى داخل عالم المسلمين أن يتحكم في طعامهم ـ إنتاجاً واستيراداً وتصديراً ـ أعداؤهم، ولقد وصلت هذه السيطرة في بعض بلدان العالم الإسلامي في جنوب شرقي آسيا إلى درجة يمكن معها لأعداء الإسلام المتحكمين بالطعام أن يميتوا المسلمين جوعاً إن أرادوا...

لقد سيق الفلاحون من أراضيهم لأغراض سياسية موقوتة دمرت إنتاج الأمة واقتصادها واستقلالها، ولم تعوضها عن ذلك وفرةُ الشعارات وضجيج الأصوات. كما أنَّ احتقار العامل والفلاح، وإسقاط قيمتهما الاجتماعية كانا سبباً في هربهما من الإنتاج، والرسول ﷺ يقول: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة من الحطب، فيبيعها، خير له من أن يسأل النَّاس أعطوه أو منعوه» وأرى أنه لا بد من إدراك الأبعاد الكاملة لسؤال النَّاس، حيث تطور التسوّل والنصب والاستهلاك في بعض بلدان العالم الإسلامي حتى أصبح ثمناً لخدمات لا وجود لها!! ولا شك أنَّ الإسلام اعتبر العمل هو الدعامة الاقتصادية الأولى، وقد يعجب الإنسان في هذا العصر عندما يطلع على المقارنة والمفاضلة التي حاول فقهاؤنا إجراءها بين الأعمال، وأيها أفضل عند الله تعالى: فاختار بعضهم الزراعة، لأنها أكثر جهداً وأعظم توكلاً على الله تعالى: بينما رأى بعضهم التجارة أو الصناعة: لكنهم جميعاً حرموا المسألة، وأن يعيش الإنسان عالة لا يأكل من كسب يده...

والمشكلة في عالم المسلمين اليوم تحوّل مجتمعهم من مجتمع واجبات وأعمال وإنتاج إلى مجتمع حقوق وعطالة واستهلاك، إنها المرحلة الغثائية التي تعني أول

ما تعني حب الدنيا (استهلاك متعها) وكراهية الموت: الأمر الذي يمكّن الأعداء من التسلط باستخدام سلاح الاستهلاك هذا.

وقد يكون من الأمور التي تلفت النظر فعلاً، أنه على الرغم من الارتفاع بمستوى العبادة والاحتساب والانتصار على الشهوات في رمضان، مع ذلك كان وعاء لجلائل الأعمال وعظائم المهام وكبرى الانتصارات، ولم يؤد رمضان إلى العطالة وضعف الإنتاج والتوجه نحو السلبية والتواكل، لذلك كان لا بد للأمة التي كُلِّفت بقيادة البشرية والشهادة عليها أن تُكلَّف بالصيام ليتم الإعداد للمهمة المنوطة بها؛ ومن هنا كان لموقع رمضان من تربيتنا النفسية ما يحقق الحصانة لمجتمعاتنا الإسلامية ضد الأزمات، ويرتفع بها عن الإذلال والخضوع لشهوتي البطن والفرج، ويمنحها القدرة على الإنتاج الذي يعتبر خير عاصم لها من السقوط لنكون شهداء على الناس، فهل نسترد دور رمضان العظيم في حياتنا لنستأنف دورنا في القيادة والشهادة؟!.

[رمضان ١٤٠٦هـ - أيار (مايو) ١٩٨٦م]

حتى لا تعود الشعوبية من جديد

إن القومية ـ أية قومية ـ هي واقع وفطرة، خلق من خلق الله تعالى وآياته. وإنه لا بد لكل قومية من عقيدة تحدد نظرتها إلى الحياة، وتنظم العلاقات بين أفرادها، وتنتظم سلوكهم، وتمنحهم المقياس الذي يعتمدونه ويتعاملون به. من هنا لم نر تعارضاً بين الإسلام والعروبة، ذلك أن الإسلام، هو العقيدة التي حملها العرب ابتداء وغير العرب إلى العالم، ووسع العرب وغير العرب من الأجناس والعروق البشرية الأخرى، وقد تكون المشكلة اليوم عند الشعوبيين الجدد في توظيف القومية واستغلال شعور العرب القومي للخروج بها عن كونها جنساً وانتساباً ولغة لكتلة بشرية ومنطقة جغرافية، لتصبح فلسفة واتجاهاً عقيدياً، وبذلك يراد لها أن تكون بديلاً عن الإسلام، فلسفة إلحادية تعتبر الإسلام حلقة تاريخية انتهى دورها، بل قد يصل التطرف وتلك الشعوبية والحقد على الإسلام باسم الانتصار للقومية إلى درجة لم يقل بها أعداء الأمة من الكفار والمستعمرين، بأن العصر الذهبي للأمة العربية هو فترة ما قبل الإسلام ـ الجاهلية ـ وإدانة الإسلام لأنه كان السبب في خروج الأمة العربية من جزيرتها، واختلاطها بالأمم الأخرى مما ألحق الأذى بصفاء عرقها ونقاء دمها.

* * *

لعلّنا لا نضيف جديداً إذا قلنا: إنَّ الإسلام دعا إلى العالمية منذ خطواته الأولى على الأرض، وجاء خطابه عالمياً كذلك ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿ومَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨) على الرغم من أنَّ مادته

الأولى كانت من العرب، وأن مسؤوليتهم في حمله أكبر ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، وأنَّ كتابه نزل بلغتهم: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢) وأنَّ الإنذار توجه أول ما توجه إليهم بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ القُرىٰ وَمَنْ حَوْلَها﴾ (الأنعام: ٩٢) وأنَّ دولة المدينة ـ ومن ثم دولة الجزيرة بعد الفتح ـ كان معظم عناصرها من العرب، فهم قاعدة الإسلام البشرية، وهم مادته، وبلادهم مهبط وحيه ومنطلقه الأرضي إلى العالم لتكوين الدولة العالمية، ومن نافلة القول: الإشارة إلى أن الإنسان حيثما كان هو محل دعوة الله تعالى، وأن البلاغ المبين ـ للنَّاس كافة ـ هو وسيلة الدعوة المستمرة «ليبلغ الشاهد الغائب، فربَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع».

عالمية الخطاب والاستجابة

ولقد كانت الاستجابة للدعوة الإسلامية موافقة طبيعتها، فجاءت من أول الطريق ـ وعلى مدى الزمن ـ عالمية: وليس مصادفة ولا عبثاً أن يكون من المستجيبين الأوائل لنداء الحق «بلالُ الحبشي» رضي الله عنه الذي قدَّم من التضحيات، وتحمل من المحن الشيء الكثير، حيث لا يزال صوته بإعلان التوحيد والاستمساك به يخترق جدار الزمن ليصل صداه ورنينه إلى آذان المسلمين في كل مكان، وليكون أنموذجاً يُقتدى في التحمل والصبر على إيذاء أعداء الله. . وليس مصادفة أيضاً أن يرقى أعلى مكان في مجتمع المسلمين الأول ليؤذن في النَّاس، ويشهر عقيدة التوحيد، على الرغم من طلب المشركين إنزاله والاستهانة به، بقولهم: الغراب الأسود. . .

ويأتي سلمان رضي الله عنه من فارس، ومن الروم يأتي صهيب رضي الله عنه: ليكونوا جميعاً شواهد من أول الطريق على أن الإسلام للناس جميعاً، وليس لجنس أو عرق أو لون، وأن الحضارة الإسلامية ـ وروحها المساواة ـ كانت وعاءً للأجناس والألوان، ذلك أنَّ الأقوام والأجناس والألوان فوارق قسرية خَلْقِيَّة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون مجالاً للتمايز والعلو، وإنما هي من خَلْقِ الله عزَّ وجلّ، ومن آياته: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ

وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم من ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُم عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣) ﴿لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ﴾ (الحجرات: ١٣).

جاء هذا في الوقت الذي لّما يعرف النّاس فيه بعد البعد العالمي للثقافة والحضارة والدولة، في مجتمعات تحكمها السدود والحدود والألوان... وجاء نسيج هذه الحضارة متشابكاً، حيث كان لكل عرق ولون وقوم عبر التاريخ إسهاماته وعطاؤه الحضاري على مختلف الأصعدة: على صعيد اللغة والتفسير والحديث والتأليف والحفظ والتدوين والتاريخ السياسي والاجتماعي، بل على مستوى الميراث العلمي والثقافي بشكل عام: وكانت إسهامات غير العرب ـ ولأمر يريده الله تعالى ـ في بعض الأحيان تفوق إسهامات العرب، حتى على مستوى اللغة وعلومها. لذلك كان من التعسف والصعوبة بمكان صبغ هذه الحضارة بأيَّة صبغة غير الصبغة الإسلامية، وشدّها لتصبح عطاء قومية عربية أو فارسية أو هندية أو فرعونية أو فينيقية... ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنَ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨) ومع ذلك فلا بد من الاعتراف هنا بأنه وجدت بعض المحاولات اليائسة على مدار التاريخ الإسلامي للخروج بهذه الحضارة عن مسارها، وحدثت فجوات من الرفض والخروج، والمروق والعقوق، والنزوع إلى العصبية الجاهلية على مستوى العرب وغيرهم من الشعوبيين، إلاَّ أنَّ المشروعية العليا في حياة الأمة كانت ـ ولا تزال ـ للعقيدة وندائها الخالد في كتاب الله تعالى وسنَّة نبيه ﷺ على الرغم من هذه الفتوق والخروق التي لا تزال تُقصد وتُعتمد لتُشكل المدخل الأساسي لمن تخصصوا بالنقاط السود تاريخيًا، ولم يتملك إعجابهم من التاريخ الإسلامي سوى ثورة القرامطة والزنج، ذلك أنَّ الغاية الحقيقية من وراء ذلك كلّه كما تبدو في المحصلة النهائية: إسقاط الحضارة الإسلامية، وإلغاء ميراثها الثقافي، كما دلَّت على ذلك شواهد التَّاريخ وانتماءات دعاتها والقائمين على أمرها.

ومن السنن الاجتماعية: أنَّ الأمم كالأفراد، تمر بحالات ضعف ومرض وركود وتخلف، كما تمر بفترات قوة وعافية ونهوض وعطاء ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠) وتكون فترات التخلف والركود باستمرار

فرصة ليقظة كل الجراثيم والطفيليات المهيَّأة للفتك بالجسم الواهن، ومحاولة القضاء عليه، الأمر الذي يدفع بالأمة من جديد لاستشعار التحدي وتجميع الطاقة والنهوض، لتبدأ على الجانب الآخر فترة الركود والكمون لأعداء الأمة المتربصين بها الدوائر بانتظار الفرص المناسبة، ذلك أن الصراع والمواجهة بين الخير والشر سنَّة هذه الحياة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الفرقان: ٣١) والخير من لوازم الشر على كل حال، ويمكننا أن نلمح - وإلى حدٍّ بعيد - أنَّ الأصول الكاملة للمواجهات التاريخية بين الإسلام وخصومه قد غُرست في تربة المجتمع الأول، وعرض لها القرآن الكريم - كتاب الله الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان - لتكونَ رصيدَ المسلم في التجربة والبصارة، ودليله في المواجهة، ولعلَّ أسباب نزول الآيات القرآنية في هذا إنَّما تشكل وسيلة إيضاح ودليل عمل في تكوين الرؤية الإسلامية لحقيقة العداوة التاريخية، وإزالة كل غبش يمكن أن يصيبها، والتحذير من كل تهاون في مواجهتها، يُضاف إلى هذا الطريقة التي قدمتها السيرة النبوية: حيثُ إنها قدمت الأنموذج الميداني للتعامل، ليرث المسلم رصيد التجربة، ويكون على بيِّنة من أمره. ولا غرابة في ذلك، فالمجتمع الأول هو مجتمع القدوة، ومن الطبيعي أن يكون غنيًّا بالدروس الأساسية، ذات العبر الخالدة التي تشكل معالم هَدْي للحياة الإسلامية بشكل عام، وتبصّر بمواقع العداوة ومرتكزات الأعداء، ولا نضيف جديداً أيضاً إذا قررنا أن الدعوة الإسلامية قُرنت منذ اللحظات الأولى بأبجدية خاطئة، بعيدة عن روح الإسلام وطبيعته ووحيه، وقد لا نرى في القراءات المحدثة سوى أصداء وترجيعات لذلك، لكن بلغات معاصرة ومداخل أشد خبثاً ومكراً.

أزمة المثقفين

ولسنا هنا بصدد استيفاء ومناقشة التوهم الذي سيطر على العقول بادىء الأمر، والذي لا يزال يتكرر بصورة أو بأخرى: أن الهدف من الدعوة الإسلامية الوصول إلى الزعامة، أو إشباع غريزة الجنس؛ والنزوع إلى المال أو وسيلة لسيطرة الأغنياء على الفقراء، أو ثورة الفقراء على الأغنياء... وكيف قُدِّمت العروض والإغراءات للحيلولة دون الاستمرار فيها، وكان الترهيب

بعد الترغيب، والمقاطعة بعد المواصلة، والتهم الباطلة بعد الشهادة بالأمانة والعقل الراجح . . . فقد لا يكون ذلك غريباً عن الطروحات الفكرية الموجودة على الساحة اليوم، إنها الأوهام ذاتها تقريباً، بدأت مع الخطوات الإسلامية الأولى، حيث كانت باكورة التهم من المجتمع الجاهلي ـ وقد بدأ الإسلام غريباً محارباً ـ أن الذين استجابوا للدعوة هم الرعاع والأراذل وأصحاب الأزمات من غير الأسوياء ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ (هود: ٢٧) وأنَّ تركيب التجمع الإسلامي الذي ضمَّ أشتات الناس وألوانهم وأجناسهم كان سبباً في أنفة أصحاب الجاه والمكانة الاجتماعية: حتى وصل الأمر بهم إلى درجة الطلب إلى رسول الله ﷺ في مرحلة من مراحل الدعوة طرد الفقراء والملونين من مجلسه كشرط لا بد منه حتى يأتوه ويستمعوا إليه، ولعلَّ الرسول ﷺ اجتهد في أن يفرد للكبراء مجلساً لإيصال الإسلام إليهم، كما اجتهد في حادثة عبدالله ابن أم مكتوم رضي الله عنه عندما أعرض عنه ليستقبل الكبراء أملاً منه في أن يتحقق بإيمانهم إيمان قبائلهم وقومهم، فجاء النص القرآني ليصوِّب الأمر، ويصحح القراءة، ويحسم الموضوع، قال تعالى:

﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم من شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مَن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ. وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ. وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٥٢ ـ ٥٤) فالمقياس الحاسم كان منذ اللحظة الأولى في القبول والردّ: الإيمان والكفر، وليس الغنى والفقر، والبياض والسواد، والعروبة والأعجميّة.

من هنا يمكننا أن نقول بأنَّ أيَّة قراءة تحيد عن التزام هذا المقياس، وتحاول أن تجعل الإسلام دعوة الفقراء ضد الأغنياء، أو دعوة الأغنياء ضد الفقراء سببها سوء النية، أو أزمة الفهم لدى بعض مثقفي اليوم (!!)

ولا ننكر هنا، والمجتمع الإسلامي في طور البناء والاكتمال، أن يقع مثل

هذا التمايز فيه، والناس ينزعون في فترات الضعف إلى العدول عن المقياس الإسلامي لقرب عهدهم بالجاهلية، لكن يبقى التصويب وردّ الأمور إلى نصابها الصحيح هو الأمر الحاكم، والحكم الحاسم: فعندما تلاحى بلال مع أبي ذرَ رضي الله عنهما، وقال أبو ذر: مه يا بن السوداء. . . وعيَّره بلون بشرته، فما كان من الرسول ﷺ إلاَّ أن قال لأبي ذرَ:

«إنَّك امرؤ فيك جاهليَّة: لا فضل لابن السوداء على ابن البيضاء إلاَّ بالتَّقوى. . .» ذلك أنَّ التمييز الذي مارسه أبو ذرَ رضي الله عنه كان من رواسب الجاهلية التي يجب أن تنقطع صورتها بالإسلام. . .

وحادثة أخرى قد يكون من الفائدة الإتيان على ذكرها: لأنها تلقي ضوءاً على الكثير مما نعاني من دعاوىٰ: ففي غزوة المريسيع تزاحم غلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه مع رجل من الأنصار على الوصول إلى الماء، واختلفا، فما كان إلاَّ أن دعا الأنصاريُّ قومه الأنصار، وغلامُ عمر المهاجرين، وكادت أن تقع فتنة عصبية لولا أن تداركها الرسول ﷺ، وقال:

«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها منتنة» والمعروف أنَّ يهود كانوا دائماً يذكِّرون العرب بأيامهم الغابرة، ويثيرون جاهلياتهم كحالنا اليوم!!

لكن يبقى الفرق بيننا وبينهم أن استجابتهم للعقيدة كانت تعصمهم من الاستمرار بالجري وراء نزواتهم، فإذا ذُكِّروا ذَكَروا.

المعارك الخاطئة

وباعتقادنا أن النزوع القومي: بمعنى الانتساب إلى قوم، أمر فطري طبيعي واقعي لا مجال لإنكاره، فالله تعالى قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ لأنَّ الأقوام من خلق الله عزّ وجلّ، ومن آياته اختلاف الألسن والألوان والأقوام، فالأقوام هم المواد الخام الذين تُصنع بواسطتهم الحضارات، وتعمر بهم الأرض إذا اهتدوا إلى عقيدة تنظم لهم التعارف والتعاون، ونبذوا التعصب والتمايز بسبب الجنس أو العرق: وكأنَّ تنوع العروق والأقوام جاء فرصة

للتكامل والتعاون وليس سبيلاً للتناحر والمواجهة والتعصب، وتكاد تتلخص نظرة الإسلام إلى قضية القومية ـ التي يحاول بعض الناس إحياءها وإعادة الحياة إليها اليوم ـ بأنها أمر واقع تنحدر منه الأمم والشعوب والقبائل، لكن ميزان الكرامة في الإسلام ليس مجرد الانتساب إلى العروق والأجناس وإنما هو التقوى والعمل الصالح: وتشرف الأقوام والشعوب والقبائل بمقدار ما تقدم من خير وعطاء. .

ولا بد أن نعترف هنا بأنَّ الصراع بين العروبة والإسلام الذي افتعل لأكثر من نصف قرن، كان قتالاً في غير معركة، وتحويلاً للأمة عن أعدائها الحقيقيين، ذلك أنَّ العروبة جنس بشري، والإسلام عقيدة ونظام حياة، والسؤال الذي يحاول بعض الناس إعادة طرحه على ساحة الانتماء اليوم، في عقد مفاضلة بين العزوبة والإسلام هو مغلوط أساساً، بدليل أن معظم سكان العالم العربي هم عرب ومسلمون في الوقت نفسه دون أن يشعروا بأي تناقض، كما أن كلمة العرب مرادفة لكلمة الإسلام في معظم البلاد الإسلامية، وحتى عند أهل الثقافات الأخرى: في نظرتهم إلينا، وتعاملهم معنا، ذلك أنَّ العروبة جنس والإسلام دين، والمفاضلة إنما تكون بين جنس وجنس، وبين دين ودين، وإن كنّا لا نرى أي معنى للمفاضلة في إطار الأمور القسرية ـ الأجناس البشرية ـ لأنَّ ذلك يدعو إلى التمييز والتعصب الذي يأباه العقلاء، ويناقض مسألة العدل ابتداءً، وإنما تَكون المفاضلة فيما يقع في دائرة كسب الإنسان واختياره. . .

والذي دعانا إلى طرح مثل هذا الأمر من جديد هو محاولة بعضهم إحياء الشعوبية من جديد واسترداد المعارك الموهومة وبعث النزعات الإقليمية العنصرية من مرقدها بعد أن فقدت قيمتها التاريخية ـ إن كان لها قيمة أصلاً ـ وكُشفت أستارها، وظهرت عوراتها، ويكفي ما نعيشه اليوم من حصيلتها ومردودها من التمزق السياسي، والصراع الفكري، والتحكم الطائفي الذي تقنَّع بالقومية، والإمعان في تكريس الإقليميات على أكثر من موقع من خارطة العالم الإسلامي الأمر الذي لم يدع استزادة لمستزيد. . .

نعود إلى القول بأنَّ القومية ـ أي قومية ـ هي واقع وفطرة، خلق من خلق الله تعالى وآياته، وإنه لا بد لكل قومية من عقيدة تحدد نظرتها إلى الحياة، وتنظم العلاقات بين أفرادها، وتنتظم سلوكهم، وتمنحهم المقياس الذي يعتمدونه ويتعاملون به.

من هنا لم نر تعارضاً بين الإسلام والعروبة، ذلك أن الإسلام هو العقيدة التي حملها العرب ابتداءً وغير العرب إلى العالم، ووسع العرب وغيرهم من الأجناس والعروق البشرية الأخرى: وقد تكون المشكلة اليوم عند الشعوبيين الجدد في توظيف القومية واستغلال شعور العرب القومي للخروج بها عن كونها جنساً وانتساباً ولغةً لكتلة بشرية ومنطقة جغرافية لتصبح فلسفة واتجاهاً عقيدياً، وبذلك يراد لها أن تكون بديلاً عن الإسلام: فلسفة إلحادية تعتبر الإسلام حلقة تاريخية انتهى دورها، بل قد يصل هذا التطرف وتلك الشعوبية والحقد على الإسلام باسم الانتصار للقومية إلى درجة لم يقل بها أعداء الأمة من الكفار والمستعمرين، بأنَّ العصر الذهبي للأمة العربية هو فترة ما قبل الإسلام ـ الجاهلية ـ وإدانة الإسلام لأنَّه كان السبب في خروج الأمة العربية من جزيرتها واختلاطها بالأمم الأخرى مما ألحق الأذى بصفاء عرقها ونقاء دمها، أو أن الدين هو علاقة بين الإنسان وربه سبحانه حسب الطريقة التي يختارها الإنسان لنفسه(!!) أو اعتبار الإسلام تراثاً ـ بما في ذلك الكتاب والسنة ـ يخضع للمعايير والمناهج نفسها التي استعيرت من الثقافة الغربية، والتي يُعرض عليها التراث في عملية فحص واختبار، أو هو طور طبيعي مرحلي من تطور الأمة العربية، وذلك بالطبع إلغاء ضمني للوحي، وترديد لقولة اليهود والنصارى الذين أنكروا الدين الجديد واعتبروه وليد العبقرية العربية، وعلى أحسن الأحوال ثمرة لعبقرية محمد ﷺ الذي أنتجته الأمة العربية (!!).

تسلل أعداء الإسلام من خلال الطرح القومي

ولسوء حظ دعاة القومية الذين اعتمدوها اتجاهاً فلسفياً عقيديًا في مواجهة الإسلام أن روّادها الأوائل كانوا جميعهم من غير المسلمين، ومن المتأثرين بالثقافة والحضارة الغربية بشكل خاص، وأنَّ ضحاياهم الأوائل من المسلمين لم

يكن لـديهم أدنى نصيب من الثقافـة الشرعيـة والسلوك الإسـلامي والخُلق القويم. . .

أما تعريفهم للقومية التي يدعون إليها، فنستطيع القول بأنه حتى اليوم لم يستقر على قدرٍ مشترك يرضى به الجميع: ما هي البلاد التي ينتظمها التعريف؟ ومن هو الإنسان الذي يشمله؟ ولا نزال نذكر ـ تاريخيًا ـ المجـادلات العقيمة حول إدخال مصر وشمالي إفريقيا وحتى بلاد الشام في التعريف (!!) لأنها بلاد تعرّبت بالإسلام، أما الذين كانوا أشدّ إغراقاً في النزوع القومي الذي لا ينتهي عند حدّ، فلم يروا إلاَّ القومية الفينيقية في بلاد الشام، أو الفرعونية في مصر، والبربرية في شمالي افـريقيا، وأخـرجوا مـا عدا ذلـك كلّه إمعانـاً في التمزيق والتفتيت. . . ولم تكن مأساة دعاة القومية كفلسفةٍ واتجـاه عقيدي بـديل عن الإسلام في التعريف والمعرفة بل في تحديد تلك الفلسفة أيضاً، وتقديم مضمون يتحاكمون إليه بعد تحقيق النزوع القومي، فكان لا بد لهم إما من الرجوع إلى الإسلام ومحاولة التعسف في تفسيره وتجريده من الإسهامات الإنسانية جميعها: بتفسيره تفسيراً قوميًا بعيداً عن الحقيقة الموضوعية والتاريخية، وإسقاط النبـوة وحقيقة الوحي: وإما من الاغتراف من المصـطلحات والثقـافات الأوروبيـة، خاصة ثقافات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، والتطور معهـا، والسير في دروبها، الأمر الذي يلغي أخصّ خصائص الدعوى القومية، ويؤكد عداوتها للإسلام والعرب على حدٍّ سواء: ولا شك عندنا أن طرح فكرة القومية كرد فعل على النزعة الطورانية كان لعبة من أعداء هذا الدين، وغفلةً وعدم تبصر بالآفاق البعيدة التي يرمي لها الطرح من قبل المسلمين البسطاء، ذلك أنَّ الذين طرحوا الشعار كانوا على علم بالأبعاد كلّها التي سينتهون إليها، وليس أقلها صناعة الأحفاد الذين سيرثون «كمال أتاتورك» على الساحة الإسلاميـة، لأنهم لا يستطيعون إظهار حقائقهم من أول الطريق حتى لا تُحبط خطواتهم، فمارسوا نوعاً من النفاق الاجتماعي لتكون القومية جسرهم المرحلي لما يريدون، لأنهم في الحقيقة شعوبيـون، أعداء لـلإسلام والعـرب على حـدّ سواء: أمـا الضحايا من المسلمين فلم يخرجوا عن كونهم أدوات لا تدرك ما يُراد لها إلاَّ بعد

فوات الأوان، ذلك بأنَّ العرب معروفون بنزوعهم القومي القبلي تاريخيًّا، وكانوا كلما غابت أو غُيِّبت الإسلامية عادت العصبية القبلية لترفع عقيرتها من جديد على فترات التاريخ، ولم تتوقف المعركة عند حدود العرب وغير العرب، وإنما وصلت إلى التآكل الداخلي للعرب أنفسهم، وقامت المعارك بين القيسية واليمنية، وبدل أن يكون التصويب في تعميق العقيدة الإسلامية، وتجديد الانتماء لها والالتزام بها، عولج الانحراف الطوراني بانحراف مماثل، ما لبث أن تكشَّف عن فلسفة وعداوة للإسلام، وقناع للطائفيات تستَّرت وراءه، ووسيلة لغير المسلمين للنيل من الإسلام، ولم يعد خافياً أنَّ هذه الدعوات عمليًّا تمت على حساب وحدة الأمة وانتمائها الحضاري وميراثها الثقافي، ولم تتأخر الدعوة القومية كفلسفة بديلة عن الإسلام كثيراً في أن يُجسِّم رصيدها: إمّا لصالح الطائفيات الجديدة وأحقادها التاريخية، وإمّا لصالح الماركسية كمضمون مستورد لملء الفراغ العقيدي، أو لصالحهما معاً، وهنا بدأت موجة الشعوبية الجديدة تنقضّ على الإسلام وتفسره من جديد تفسيراً مذهبيًّا غير منهجي، وبدأت تتسقط بعض الوقائع التاريخية، وتلتقط بعض النصوص تبترها عن سياقها لتخدم بذلك دعوتها ومنهجها: خاصة بعد أن أدركت ـ بعد هذه الجولة الطويلة ـ أنَّ مواجهة الإسلام أمر مستحيل، فلا بد إذن من الإلتفاف عليه والانحراف به، والانتقاء من بعض فترات التاريخ وإسقاطها، ومحاولة التسلل إلى داخل المسلمين من خلال الإسلام نفسه، ذلك أنَّ الانتقاء في التاريخ مذهب يقصي منهج التاريخ ويعطّل مساره، ويجعله تابعاً لكل اتجاه عقيدي حديث، وقد كان هذا ثمرة لنقل التراث والفكر الغربي والشرقي ومذاهبهما: وقد تكون آفة أصحاب التفسير القومي الفلسفي هؤلاء ـ ومن ثم التفسير الماركسي للتاريخ، دعاة الشعوبية الجديدة، والانتقاء والالتقاط لكل النقاط السود، والارتكاز على فترات الخروج واعتبارها الاساس ـ أنهم يصنعون بطولاتهم في الفراغ، ويتطاولون على نصوص الإسلام وتاريخه في هذا الزمن الرديء حيث تغيب السلطة التنفيذية التي تدافع عن الإسلام، لكنهم يفتقدون الجرأة ـ ولو بكلمة واحدة ـ لنقد الواقع الذي يسوده الاستبداد السياسي والتفتت والتمزق الإقليمي والتحكم الطائفي الذي جاء ثمرة لهذه الدعوات... إنهم انتهوا إلى صورة من

«الفلكلور» العقيدي والسياسي ترفّع عن المشاركة فيها الكثير من عقلائهم بعد أن استبانت لهم النوايا، وأصيبوا بكثير من الممارسات. . .

ولسنا بسبيل التكلم عن التمزقات السياسية والفكرية والصراع الاجتماعي الذي أورثته هذه الدعوات على أرض الواقع الإسلامي، ولعلَّ في ذلك وجهاً من الخير لأنّه تحدى الناس وحملهم على العودة إلى الانتماء الإسلامي من جديد.

[شعبان ١٤٠٦هـ - نيسان (ابريل) ١٩٨٦م]

محاولة مستمرة لتعطيل روح الجهاد

قد تكون المأساة الحقيقية ـ حيث تتمركز اليوم وتظهر حول المسجد الأقصى ـ إنما هي مأساة المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي، حتى ليمكننا القول: إن مأساة الأقصى هي ثمرة لمأساة المسجد في العالم الإسلامي بشكل عام وغياب دوره عن حياة المسلمين؛ ذلك أن رسالة المسجد ودور المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي إمّا معطل أو محاصر.. والخطير في الأمر اليوم هو محاولة القضاء على المسجد وإجهاض دوره وتهديمه من الداخل.. فالذين يحاربون المسجد ويعطلون رسالته ليصبح مبنى بلا معنى ومتحفاً بلا حياة، لا يمكن أن يدافعوا عن المسجد الأقصى..

* * *

التحذير من عودة روح الجهاد

عملية تهويد الجيل العربي المسلم، وتغيير معالم المؤسسات الإسلامية المقدسة، وتغيير المسميات، وإعادة التشكيل الاجتماعي والتركيب السكاني، في محاولة لطمس شخصية أصحاب الأرض المحتلة، وتحويل ولائهم، وتغيير انتمائهم، تسير بخطوات حثيثة، وعلى أكثر من مستوى؛ وتتركز جهود دولة العدو على مدينة القدس، فمنذ أن احتلتها عام ١٩٦٧م والاعتداءات الظاهرة على المسجد الأقصى تتم بأشكال متعددة، إضافة إلى الحفريات التي تجري تحته تهدد بسقوطه لإقامة الهيكل؛ وفي الماضي القريب كان يقوم بمحاولات الحرق والاحتلال والتدنيس والإساءة لمشاعر المسلمين جماعاتٌ أو أفراد بعيدون ـ

بحسب الظاهر ـ عن المؤسسات الرسمية الحاكمة. . .

لكن التطور الجديد، أو المرحلة الجديدة بعد تلك الاختبارات السابقة جميعها، هو أن عمليات الاقتحام والتحدي بدأت تقوم بها السلطات الحاكمة نفسها، فلقد حملت الأنباء مؤخراً أنّ عديداً من النواب الإسرائيليين التابعين للجنة الشؤون الداخلي، ومعظمهم أعضاء في حزب (هاتحيا) الإرهابي، ومعهم عدد من الحاخامات اقتحموا الحرم القدسي مصطحبين معهم نسخاً من التوراة لقراءة فقرات منها، وقام الحاخام «إليعازر فالدمان». بالصلاة داخل الحرم بحراسة يهودية، كما قام «شلومو هيليل» رئيس الكنيست الإسرائيلي بزيارة الحرم القدسي، وصرَّح «أهارون نحميا» عضو الكنيست أن الصلاة داخل الحرم ينبغي أن تصبح شيئاً مألوفاً بالنسبة لليهود، كما صرَّح، «آرييل شارون» بأن امتلاك اليهود للأقصى مسألة وقت، أما «شيمون بيريز» زعيم حزب العمل ورئيس الوزراء فقال: ما اتخذته الحكومات السابقة التي تعاقبت على السلطة منذ حرب ١٩٦٧م من إجراءات بشأن الأماكن المقدسة لا يزال ساري المفعول، وإنَّ سيادة إسرائيل!! على أجزاء القدس كلّها، ومن بينها الحرم، قائمة لا رجعة عنها، وأما النائبة «شولاميت ألوني» فلم تر من الحادثة إلاَّ ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج خطيرة إذا استشعر العرب التحدّي، فقالت: نحن شهود لعملية خطيرة يُخشى أن تحوَّل الصراع بيننا وبين العرب إلى جهاد!! وهو التخوف نفسه الذي أبداه اليسار الإسرائيلي ـ الذي راهن عليه ولا يزال كثيرون في العالم العربي ـ كما نقلت صحيفة «الفيغارو» من أنَّ هذه الزيارة للبرلمانيين قد تحمل الخطر الكبير بالنسبة لإسرائيل إذا أثارت ردود فعل لا يمكن التحكم فيها في العالم الإسلامي خاصة في الوقت الذي يعكف فيه المتطرفون الدينيون على تسمية من يقتلون اليهود شهداء ـ إشارة إلى حادثة الجندي المصري سليمان خاطر ـ وهذا الاتجاه ليس جديداً على اليسار بشكل عام، واليسار الإسرائيلي بشكل خاص، فلطالما تخوَّف يهود من أن تؤدي تصرفاتهم إلى إيقاظ الروح الجهادية في عالم المسلمين؛ ولا نزال نذكر كيف أن الصحافة ومؤسسات الإعلام العالمية في أعقاب نكبة عام ١٩٦٧م لم تهتم حتى بالمواقف الإنسانية تجاه

الاحتلال ومآسي التشريد والإرهاب، وإنما كان الذي يهمها، وقد أبدت تخوّفها منه: هو التحذير من عودة فكرة الجهاد المقدس إلى الجماهير المسلمة بعد الهزيمة... وكيف كرَّست الدوائر العالمية جهودها لمحاربة التوجهات الإسلامية كلها، ومحاولة اقتلاعها من جذورها بالأيدي نفسها التي ساهمت في صنع الهزيمة لتبلغ النكبة مداها.

ولا شكَّ أن صمودَ الجماهير المسلمة اليوم أمام أسوار الأقصى، واستماتتها في الدفاع عن مقدساتها على الرغم من وسائلها الدفاعية البسيطة من الحجارة والعصي والأيدي المجردة، وطبيعة الشعارات التي ترفعها والنداءات التي ترسلها لتشحذ صمودها وتدفعها إلى الاستشهاد في سبيل عقيدتها مؤشرٌ واضح ومتجدد على النتائج التي يمكن أن تتحقق فيما لو عادت روح الجهاد الإسلامي إلى الجماهير المسلمة، وخُلِّيَ بينها وبين عدوها.

تشويه العقول والمعالم..

إنَّ يهود اليوم أصبحوا على دراية كافية ورصد كامل لردود الفعل، وقدرة على التحكم بالنتائج التي يمكن أن تحدث في العالم العربي، وهم أدرى أيضاً بالوسائل المعتمدة في لجم ومحاصرة التوجهات الإسلامية الجهادية... وقد يكون من الأمانة الاعتراف بالتردد الكثير قبل اختيار الكتابة في موضوع الاعتداءات الإسرائيلية المستمرة، والتحدي الكبير الذي يواجه العرب المسلمين في الأرض المحتلة، ابتداءً من عمليات المسخ والتشويه والتضليل للعقل العربي المسلم في المدارس ومؤسسات الثقافة، والقراءة اليهودية التوراتية للتاريخ والحضارة في مناهج التعليم والكتب الدراسية، وهو الأخطر، وانتهاءً بما يتعرض له المسجد الأقصى من المآسي التي لا تتوقف. ولم يكن الباعث على هذا التردد هو عدم الإيمان بأهمية الموضوع، ذلك أن تهويد مناهج التعليم، وقطع الجيل القادم عن تاريخه وعقيدته، وتغيير انتمائه وولائه يكاد يكون من أخطر القضايا - إن لم يكن أخطرها على الإطلاق - حيث يُدَرَّسُ الطالب العربي المسلم في التوراة والتاريخ والأساطير اليهودية خمسة أضعاف دراسته عن الدين الإسلامي، إضافة إلى أن

هذه الدراسة عن الإسلام وتاريخه التي تسير في طريق الاضمحلال إنما تُقدم مشوهة بعد أن عبثت بها أيدي يهود. كما أن طمس المعالم وتهديم المؤسسات الإسلامية، وتغيير الأسماء والمسميات في محاولة لإلغاء الهوية العربية والإسلامية وإعادة تشكيلها من جديد بما يتوافق ومصلحة يهود يعتبر من أهم القضايا التي لا يملك الإنسان المسلم فيها اختياراً، لأنها مسؤولية دين. كما أن الباعث على التردد لم يكن نابعاً من عدم الإيمان بجدوى الكلمة والتقليل من أهميتها وأثرها وفاعليتها، فالكلمة الطيبة كالبذرة سوف تنبت وتمتد عندما تتوفر لها الشروط الملائمة، فهي كالشجرة الطيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ممتد على الزمن؛ ومن كان يدري أن الكلمة التي قالها سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام في السجن كانت تحمل في طيّاتها كل هذه الآثار التغييرية التي ترتبت عليها؟!

ولقد تشكّلت الأمة الإسلامية، وقامت الحضارة الإسلامية من خلال كلمة، وتكوّنت من خلال كتاب؛ لكن مبعث التردد هو العزوف عن الانضمام إلى جوقة النّدابين والبكّائين، وأصحاب صناعة الحماس الكلامي، أو الذين يوبخون أنفسهم بأقوالهم التي تخالف أفعالهم؛ فلقد كثرت الكتابات وكثرت، ومضى عليها قريب من عشرين سنة، والأمور تزداد تدهوراً، ونخشى أن يصدق فينا قوله تعالى: **﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (الجمعة: ٥).

تطبيع الهزيمة..

والمشكلة في عالمنا العربي ليست في عدم معرفة الحق، وقد لا تنقصنا المعرفة، وإنما مشكلتنا تكمن في عدم الالتزام بأخلاق هذه المعرفة والالتزام بنتائجها، والتضليل الثقافي الذي يُمارس علينا صباح مساء، وكأننا مصرّون على الاحتفاظ بالهزيمة وتهيئة الظروف للإبقاء عليها، وإسرائيل تعمل على إلغاء الاحساس بها من ضمير جيل الأرض المحتلة، كما تعمل في الوقت نفسه على تطبيع الهزيمة والاحتلال في العالم العربي، والمآسي التي نعيشها، ويتلظى بنارها

يوميًا أبناء الأرض المحتلة أصبحت بالنسبة لكثير منًا مادة للإعلام، وموسماً للاحتفالات وصناعة المؤتمرات والتنقل بالطائرات ونزول الفنادق، وفرصة للابتزاز وكسب المال وبناء الزعامات؛ ولو أنَّ مَا أنفق على المؤتمرات والأسفار والاحتفالات احتجز بعضه للإعداد للجهاد، أو وضع في سبيل تربية الجيل على الإحساس بقضيته والإعداد لها وتبصيره بأبعادها حقيقةً لتغير الحال، لكن قد تكون مشكلة الأمة وجماهيرها المسلمة في بعض من يتقدمون لمعالجة القضية، ذلك أننا أصبحنا اليوم نسمع خطباً، ونقرأ كلاماً، ونطّلع على مشاريع للحلول تجاوزت كل عقل ودين ووطنية ومنطق، وهي تسير بنا من سَيىء إلى أسوأ، وهكذا فالعدّ التنازلي مستمر والتراجع متسارع، وتسويغ الهزيمة جارٍ على قدم وساق، وما كان قبل سنوات يعتبر من الخيانة العظمى أصبح طرحه اليوم ومناقشته أمراً طبيعيًا!!

إنه الزمن الرديء الذي أخبر عنه الرسول ﷺ، حيث أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؛ والمطلوب منًا كجماهير أن نروَّض على ذلك، حيث لا يُكتفى بحالة العجز والمحاصرة التي فُرضت علينا، بل لا بد لنا أن نغير عقولنا، ونبدل قناعاتنا، فنكتب للمنكر ونصفق له، ونروّج له على أنه معروف؛ إنه الإصرار على تسويغ الواقع وفلسفة الهزيمة، وقلب القيم، والقراءة الخاطئة التي يُراد أن نعلّمها للأجيال القادمة لتتوارث العجز، وتُدْمِن الذل والهزيمة، وتنمو فيها حواس الهوان والانكسار، وتؤهل لتسويغ الواقع وقبول التضليل السياسي، وهنا مكمن الخطر.

المواجهة مع المسجد..

والناظر في الواقع العربي الإسلامي بعد هذه الحال التي انتهى إليها يصعب عليه أن يقبل أو يصدق أية جديّة في مواجهة القضية والإعداد لها، بل على العكس من ذلك، فالواقع يدل، وكأنما نعد ونحضّر لتصفيتها شيئاً فشيئاً،

وتحضَّر الجماهير المسلمة لابتلاع الطُّعم على مراحل، واللغز الذي لا يزال محيّراً على مستوى العالم العربي، وإن لم يكن كذلك على مستوى العالم: أن تُطرح اليهودية وتقبل ويحضر للتفاوض معها كعقيدة دينية معتدية مغتصبة محتلّة، ويرفض ويحارب الإسلام، ويُتهم شبابه بالتطرف والتعصب وهو في موقع الدفاع؛ وقد يكون في ذلك مندوحة لغير العرب والمسلمين، أما أن تنتقل العدوى المسلمين، فهذا هو الأمر العجيب. ويغيب عن كثير منّا أن المعاقل الحقيقية التي احتفظت بالقضية حيَّة في نفوس المسلمين، واختصَّت بحماية الجيل في الأرض المحتلة وفي غيرها من الذوبان هي المساجد وروّادها، وفي مقدمتها: المسجد الأقصى الذي يتعرض هذه الأيام للتحدي والاعتداء، وأنَّ المواجهات الحقيقية كانت ولا تزال مع المسجد، ذلك أنَّ المقاومة الحقيقية إنما تربى في المساجد، وتنطلق منها، لذلك كانت المساجد في العالم الإسلامي هي خطوط الدفاع والمواجهة الأولى، وكانت على تاريخها الطويل موئلاً للعلم ومعقلاً للجهاد وموردأ للثورات ضد المحتل والمستعمر؛ وأن أي إذلال للمساجد، أو محاولة لإلغاء رسالتها، أو طمسٍ لدورها، أو مطاردة لروّادها كان دائماً مؤشراً واضحاً على الخيانة والتبعية الفكرية عبر التاريخ؛ والذين يمارسون ذلك هم رصيد العدو المتقدم في العالم الإسلامي علموا ذلك أم جهلوا!!

وقد تكون المأساة الحقيقية حيث تتمركز اليوم وتظهر حول المسجد الأقصى، إنما هي مأساة المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي، حتى ليمكننا القول: إنَّ مأساة الأقصى هي ثمرة لمأساة المسجد في العالم الإسلامي بشكل عام وغياب دوره عن حياة المسلمين، ذلك أن رسالة المسجد، ودور المسجد في معظم أنحاء العالم الإسلامي إمَّا معطّل أو محاصر، والخطورة كل الخطورة أن تنقلب المساجد في كثير من بلاد المسلمين إلى مؤسسات إعلام رسمية تردّد ما يكتب لها، وتدخل في جوقة المدَّاحين فلا يصبح لوجودها معنًى عند جماهير المسلمين، وما أشبه الليلة بالبارحة، فقد يكون من المفيد هنا أن نستشهد بموقف من مواقف نور الدين محمود الشهيد ـ رحمه الله ـ الكثيرة بين يدي تحرير القدس من الغزو الصليبي، علّنا نفيد من أمسنا ليومنا وغدنا، وذلك في محاولته

الرائدة يومها لتوفير حرية النقد البنَّاء وحرية الرأي وهدم جدار النفاق الذي يغيب البصارة الحقيقية للأمور؛ حيث منع كل ما من شأنه بثّ روح التزلّف والتملق والنفاق للمسؤولين، من ذلك مثلاً: أنهّ منع خطباء المساجد الذين يبالغون في الدعاء له، ويصفونه بالعبارات الرنَّانة التي تعوّدوا أن يتقربوا بها إلى قلوب السلاطين!! فطلب إلى خالد بن محمد بن نصر القيسراني أن يوقف ذلك، وأن يكتب له صيغة دعاء بسيط، تطابق الواقع بأحواله وأفعاله، فكتب له: اللَّهم أصلح عبدك الفقير إلى رحمتك؛ الخاضع لهيبتك، المعتصم بقوتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك أبا القاسم محمود بن زنكي أمير المؤمنين، وقرأ نور الدين ـ رحمه الله ـ نسخة الدعاء، وعلَّق عليها بالعبارة التالية: مقصودي ألاَّ يُكذب على المنبر، أنا بخلاف كلّ ما يقال، أأفرح بما لا أعمل؟ قلَّة عقل عظيم، الذي كتب هو جيّد، اكتب به نسخاً حتى نسيره إلى جميع البلاد.. (مرآة الزمان: ٣٢٣/٨، سبط ابن الجوزي).

والخطير في الأمر اليوم هو محاولة القضاء على المسجد وإجهاض دوره وتهديمه من الداخل، فالذين يحاربون المسجد، ويعطلون رسالته، ويحنطون دوره ليصبح مبنًى بلا معنى لا يمكن أن يدافعوا عن المسجد الأقصى؛ والذين يزعجهم الأذان، ويحاولون إسكات صوت المؤذن لأنهم يرون في ذلك إقلاق راحتهم، وتعطيل نومهم لا يمكن أن يكونوا محلاً للدفاع عن الأقصى؛ والذين يهدمون معاني الجهاد في الأمة لا يمكن أن تصدق دعواهم بالعمل على تحرير المسجد الاقصى؛ والذين يدعون إلى إقليمية وعصبية طائفية يستبدلونها بالإسلام لا يُطمأن إلى صدقهم وحسن نواياهم، لأنهم جنود في جيش العدو، ولا يمكن أن يكونوا رجال التحرير؛ والذين يدعون إلى رفع سلاح الإسلام من المعركة، ويخدعون بطروحات العلمانية على حساب الإسلام ليسوا مؤهلين لقيادة الأمَّة؛ والذين يطاردون المصلحين، ويحاصرون العقيدة الإسلامية، ويحولون دون عملية البلاغ المبين لا يمكن أن يُقبلوا حماة للأوطان...

الواقع وتصحيح المسار..

إنَّ إسرائيل تخاف من المسجد لأنها تعرف ماذا يعني، وتخاف من عودة روح الجهاد المقدس إلى الأمة، وهي مع الأسف أقدر على الاعتبار بالدرس التاريخي، لذلك تعمل على استئصال روح الجهاد، وتهديم المساجد في الأرض المحتلة، وتمكِّن لأصدقائها في العالم ليقوموا بالدور نفسه، وتذكر العرب دائماً بأيَّام الجاهلية لتقوم حرب القبائل ويستمر الثأر!!

إنَّ المآسي والأحزان والمعاناة التي صنعت في بعض أنحاء عالم العرب والمسلمين أنهكتهم وجعلتهم على حالٍ ليست أحسن كثيراً من إخوانهم في الأرض المحتلّة، وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأنَّ ضحايا معركة واحدة من معارك حرب الخيام والقبائل التي تستنزف العالم العربي وتمكِّن اليهود بشكل مباشر أو غير مباشر تكفي لتغيير صورة الواقع الذي نعاني منه.

لقد احترقت الشعارات كلّها، وأفلست القيم التي استبدلت بالإسلام، وهُزمت وعجزت عن أن تقدم شيئاً للقضية؛ كما أن المواجهة المادية للجيل المسلم ومؤسساته باءت بالفشل، وبقي الإسلام ملاذ الأمة وحصنها الأخير؛ والخطورة اليوم أن يُوظّف الإسلام من خلال بعض من يدَّعون الانتساب إليه ليكون جزءًا من صورة الحلول العاجزة؛ وتُطرح شعارات، وتُقام مؤسسات إسلامية، وتُعقد مؤتمرات إسلامية بعيدة عن أي مضمون صحيح، أو جدّية صحيحة، أو التزام صحيح بالأخلاق الإسلامية لإجهاضها وإفسادها ومحاربة الإسلام الصحيح... وهذا لا يقل خطورة في نظرنا عن محاربة الإسلام بشكل مباشر، إن لم يكن الأخطر حيث يُغَيِّب التحدّي الذي يوقظ شعور الأمّة ويستنفر طاقاتها ويدفعها إلى إعادة تنظيم صفها وحشد إمكاناتها ومواجهة عدوها، ويُفقد الأمة أي أمل في نهوض أو أي ثقة بقيمة أو مبدأ.

إنَّ مواجهة يهود قد لا تتحقق في هذا الجيل لسبب أو لآخر، فلا أقل من أن نكون أمناء على القضية عندما نورثها إلى الجيل القادم، فلا نورّثهم فلسفة

الهزيمة ومسوغات الواقع، وصورة البطولات التي تصنع من فراغ، ولا نربِّي فيهم حواس الذل والهوان والتضليل الثقافي.. ولا بأس أن يتم التحرير في جيل قادم أو في أجيال قادمة تستشعر التحدي، وتصدق المواجهة، فلقد استمر الاحتلال الصليبي ما يقارب مائتي عام، ولكن المشكلة اليوم: تطبيع الهزيمة في نفوس الأبناء والأحفاد، والاستكبار وعدم الاعتراف بها وإعداد العدّة الصحيحة لها ومحاربة الانتماء للإسلام، وعدم تحدد الولاء بشكل حاسم!!

كما أنه لا بد أن تسير تربية الجيل في طريق تأكيد أن جهة الولاء الوحيدة بالنسبة للمسلم هي لله تعالى ورسوله ﷺ ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة: ٥٥) وتعميق هذه القناعة، وبيان أبعادها، وكيف أن العدول عنها نوع من الارتداد والعياذ بالله، وقد لا يكون من الغريب أن معظم آيات الولاء في القرآن الكريم إنَّما نزلت عندما انحاز المنافقون في عصر النبوَّة لموالاة يهود، والتي اعتبرها القرآن الكريم ردَّةً، فقال بعد ذكر جهة الولاء: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥٤).

وبعد: فإنَّ الواقع الذي عليه العالم العربي إذا استمر على ما هو عليه لا يرجى منه خير إلاَّ ليهود، وإذا لم يتدارك أمره ويعدل مساره، ويغيِّر ما في نفسه، ويتبصر الأحداث بالطريق الصحيحة. وتقترب الخبرة من موقع صناعة القرار فسوف تتوالى الكوارث والنكبات، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١).

[جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ - شباط (فبراير) ١٩٨٦]

وراثة الأرض والصلاح المطلوب

لقد أشاع المناخ العلمي الذي جاء به القرآن، روح البحث والنظر عند سلفنا، فأنتجوا علوماً في شتى فروع المعرفة البشرية مكنتهم من تعمير الأرض وقيادة الحضارة؛ وأدرك المسلمون الأوّلون أن الكشف العلمي هو الوسيلة لتحقيق عمارة الأرض، وأن القيم الدينية هي الضابط المتحكم، والقائد إلى الهدف، والمؤشر الصحيح لمسيرة الحضارة وتحقيق أهدافها، فاجتمعت لهم القيادة العلمية والقيادة القيمية السلوكية؛ فولدت الحضارة الإنسانية التي تليق بالرسالة الخاتمة... ذلك أن عمارة الأرض بفقه قوانين التسخير، وصلاح البشر بهداية الوحي، أمران لازمان لتحقيقها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحقق بفقد أحد هذين الأمرين.

* * *

القيام بأعباء الاستخلاف، وعمارة الأرض التي ناطها الله تعالى بالإنسان في قوله جلّ وعلا: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود: ٦١)، لا يمكن أن يتحقّق بعيداً عن امتلاك القدرة على اكتشاف قوانين التسخير، ومعرفة الأسباب، وعلل الأمور، والتحقق بمعرفة سنن الله التي تحكم الأنفس والآفاق، وملاحظة اطرادها، وتحديد مواطن التقصير عند تخلف هذه السنن عن تحقيق النتائج، والاستقراء الدائم والكامل للتاريخ والواقع، وإدراك حركته على مستوى الأمم والشعوب والجماعات والأفراد، وإعمال النظر والتبصر بالعواقب كثمرة للسير في الأرض الذي أمر الله به ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ

كان عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (النمل: ٦٩)، لتحقق إمكانية التفريق بين ما يمكن أن يصنَّف في إطار المحنة والابتلاء ـ وساحة ذلك الخير والشر على سواء؛ يقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ والْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥)، فالمحنة وسيلة إيضاح، وأداة تمحيص وإعداد للنفوس، وتنقية للصفوف ـ وبين ما يمكن أن يقع نتيجة للتقصير والخطأ، والعجز عن الدراية وفقه قوانين الأشياء، والسنن الجارية والمطّردة التي تحكمها، وكيفية التعامل معها...

ذلك أن عدم التفريق بين ما يمكن أن يصنف في إطار المحنة والابتلاء وما يقع في دائرة الخطأ والتقصير والعجز عن معرفة الأسباب وحسن التعامل معها، يؤدي إلى نوع من الضلال، والمغالطة، والتدليس أحياناً لتسويغ الواقع والتهرب من المسؤولية عن الخطأ، كما يؤدي إلى الالتباس، وعدم القدرة على الإبصار، وبالتالي استمرار حالة التخلف والسقوط، وانعدام أي أمل في النهوض، حيث لا مكان في هذا الكون ـ الذي جعل الله فيه لكل شيء سبباً ـ للمصادفة والعبث: وهذا من مقتضيات العدل الإلهي الذي شرع الأسباب، وأقام الحياة على سنن، وناطها بعلل، وخلق الإنسان المكلف بتعمير الأرض، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، ورُتب الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة في ضوء القدرة على التعامل مع سنن الله تعالى، وتحقيق الأهداف التي من أجلها خلق الله الحياة والأحياء. ولعل المحنة في كثير من الأحيان إنما تكون لكشف جوانب التقصير، وبيان ما تنطوي عليه النفوس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠٥). ونكاد نجزم هنا أنه من الجفوة والإساءة لكتاب الله، والعقم في الفهم، والإجحاف في الإدراك، أن نقصر أبعاد مدلول الصلاح الوارد في الآية الكريمة السالفة، الذي يمكِّن من وراثة الأرض، وقيادة الحضارة، على التحقق ببعض الشروط من تهذيب النفس وتزكيتها، وأداء العبادة بمفهومها الخاص فقط، وزيادة التوثب الروحي، ومن ثم الانسحاب من الساحة، وعدم المكابدة في التعرف على قوانين الله في الكون وتسخيرها، لأن هذا الفهم القاصر مدفوع بالواقع الذي لا نُحسد عليه، ومدفوع بسير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن سار على

دربهم، حيث لم يستطيعوا تعمير الحياة، وقيادة البشرية، وإنتاج الحضارة إلاَّ بالمكابدة وتحصيل العلم، والتفوق على عصرهم بما حققوا من شروط نفسية إيمانية، وما أعدّوا من مقومات مادية، وما حصلوا من أفكار ومعارف علمية؛ ذلك أن تعمير الأرض لا يمكن أن يتحقق بترديد القيم، والوصايا، والمواعظ وحدها ـ وهي شروط لا بد منها ـ بعيداً عن اكتشاف قوانين الترقي العلمي، ومعرفة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، فكما أن للمادة قوانينها التي تحكمها، فللمجتمعات البشرية ـ وللنفس البشرية أيضاً ـ قوانينها التي تحكمها، وسنن تغييرها، وعوامل نهوضها وانقراضها..

وهنا قد يرد اعتراض لا بد من الإجابة عليه ما أمكن، وهو أن الإمبراطوريات والأمم التي عاصرت فجر الدعوة الإسلامية، كان رصيدها من المعارف العلمية أكبر بكثير مما عند المسلمين؛ ومع ذلك تفوّق المسلمون عليها وأسقطوها.. وهذا يشكل بعض الحقيقة؛ أما الحقيقة كاملة كما تتراءى لنا فهي أن هذه الإمبراطوريات اكتفت بأنها علمت ظاهراً من الحياة الدنيا وغفلت عن الآخرة: **﴿يَعْلَمُون ظَاهِراً مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُم غَافِلُونَ﴾** (الروم: ٧)، فأصابها ما أصابها.. كانت رؤيتها نصفية كما هي حالنا اليوم.

وعمارة الأرض، وسعادة البشر، وأداء الأمانة في الاستخلاف، يتطلب دائماً الالتزام بالقيم الدينية الصحيحة وتحصيل علم الدنيا، فإذا اختلّ أحد الأمرين سقطت الحضارة.

مشكلة العقل المسلم

والأمر الذي لا بد من حسم الإجابة عليه ابتداءً ـ على الرغم من المحاولات المستمرة لتحميل آيات الله في القرآن الكريم كل جديد في موضوعات العلم كلّها ـ أن القرآن الكريم كتاب هداية؛ ومحل الخطاب الإلهي هو الإنسان، ومصدره الوحي [ولقد استخدم القرآن لغرضه في تحقيق الهداية الأدلة العقلية، والعبرة التاريخية، والحقيقة العلمية، وطلب إلى الإنسان النظر، وزوّده

بالأهلية اللازمة لذلك، ودفعه إلى السير في الأرض ، والاعتبار بالأحوال، ومقارنة الأشباه بالنظائر، وملاحظة اطّراد السنن في الأنفس والآفاق، والتعرف إلى كنهها، واستشراف آفاق المستقبل على ضوء هذا الاستقراء؛ واستنفر حواسه ـ مصادر المعرفة العقلية ـ وجعله مسؤولاً عن إهمالها، كما جعله مسؤولاً عن نتائج عدم الالتزام بإعمالها، قال تعالى: **﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لك بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾** (الإسراء: ٣٦)، كما استنفر مواهبه، وأثار وعيه للتفكر الدائب.] والذي نريد إيضاحه من هذا، أن القرآن الكريم نقل الإنسان المؤمن إلى المناخ العلمي الذي يفتح بصره، ويثير ملاحظته، وملّكه مفاتيح الكون، وطلب إليه استخدام العقل للإدراك، وتحقيق النتائج، والاهتداء بالبصر إلى البصيرة، وجعل السببية وسيلة الوجود، ودليل واجب الوجود.

لقد هيّأ المناخ العلمي الذي دفع المسلمين الأوائل ـ الذين أدركوا حقيقة إسلامهم، وموجبات استخلافهم ـ إلى اكتساب أكبر قدر من التعرف على القوانين التي تحكم الأشياء في شتى العلوم الإنسانية والمادية على حدٍّ سواء؛ وقد تكون محاولات اكتشاف بعض الحقائق العلمية في القرآن، وتحميل آياته أحياناً ما لا تحتمل من النظريات العلمية، مظهر عجز، وعدولاً عن الموقع الصحيح... فالقرآن كتاب هداية قد يستخدم لتحقيق غرضه في الهداية الحقيقية العلميّة، وحسبه أنه أشاع في المسلمين مناخ تحصيل العلم، وملّكهم مفاتحه، كما أسلفنا، وهم انطلقوا بهديه إلى تحقيق عمارة الكون بالعلم الذي أنتجته عقولهم. والهداية التي حملها الوحي إلى قلوبهم؛ ولم يحتاج المسلمون الأولون الذين عاشوا هداية القرآن، وتمثلوا مناخه العلمي الدافع إلى البحث، والتجربة، والتفكير، والدراسة، إلى تحميل آياته النظريات والاكتشافات العلمية؛ الأمر الذي بدأ يتسرب إلى المسلمين مع عصور التخلف، لستر العجز عن التحقق بمناخه العلمي.

لقد أشاع المناخ العلمي الذي جاء به القرآن، روح البحث والنظر عند سلفنا، فأنتجوا علوماً في شتى فروع المعرفة البشرية، مكّنتهم من تعمير الأرض

وقيادة الحضارة؛ وأدرك المسلمون الأوّلون أن الكشف العلمي هو الوسيلة لتحقيق عمارة الأرض، وأن القيم الدينية هي الضابط المتحكم، والقائد إلى الهدف، والمؤشر الصحيح لمسيرة الحضارة، وتحقيق أهدافها، فاجتمعت لهم القيادة العلمية والقيادة القيمية السلوكية؛ فولدت الحضارة الإنسانية التي تليق بالرسالة الخاتمة... ذلك أن عمارة الأرض بفقه قوانين التسخير، وصلاح البشر بهداية الوحي، أمران لازمان لتحقيقها، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تتحقق بفقد أحد هذين الأمرين؛ ففي الوقت الذي وضع فيه القرآن الكريم معالم الهداية، وأسس العقيدة، وأصول التربية، وتزكية النفس، وشرح لذلك تربية عملية في العبادات اليومية، أوجد مقومات المناخ العلمي الذي حرر العقل من الخرافة، ووفر للإنسان طاقاته من التبديد، وخلّص نفسه من الرعب، وأكسبه الاطمئنان، وأبعد عقله عن القلق، وأطلقه للنظر في الكون، فأنتج هذا المناخ علماء في الطب والكيمياء والرياضيات والفلك والتاريخ قادوا المسيرة العلمية العالمية إلى أهداف إنسانية على هدي من الوحي؛ ولم يفهم المسلمون الأوائل أن تزكية النفس وتأدية العبادة ـ بعيداً عن حركة العقل ـ تحقق عمارة الأرض وتقود الحضارة، وتكسب الصلاح الذي يمكّن من وراثة الأرض.

ولا شك عندنا أن أزمة الفهم للمشكلة الثقافية والحضارية اليوم، والتفسير لآيات القرآن الكريم، والتعامل معها، والقدرة على إدراك الأبعاد الكاملة لمدلولات القيم الإسلامية، محكومة إلى حدّ بعيد بالواقع المتخلف الذي نعاني منه اليوم على مختلف الأصعدة... إننا نحمل مدلولات القيم الدينية وتفسيراتها وتطبيقاتها الكثير من واقعنا المتخلف، وإلاّ كيف استطاعت هذه القيم على أيدي السلف أن تصنع وتشكل العناصر الصالحة التي ورثت الأرض، وقادت الحضارة، وقامت بأمانة وأعباء الاستخلاف الإنساني، وأنتجت العلماء المبدعين القادرين في كل مجال؟!

إنها مشكلة العقل الذي يقيم من تخلفه حاجزاً نفسياً يعطل فاعلية القيم وقدرتها على الدفع لارتياد الآفاق، ويحتجزها لتكون محلاً للتبرك فقط!!

والكارثة التي ألمت بعالم المسلمين، ولا تزال آثارها تحكم العقل المسلم اليوم هي: التوقف عن طريق العلم، ومن ثم العجز عن توظيف الأفكار العلمية ـ إن تحققت ـ لخدمة القيم الإسلامية؛ دون أن ندري أن التوقف عن طريق العلم وتحصيله ـ حتى العلم الذي به صلاح الدنيا وتعميرها ـ هو في الحقيقة نكول عن موجبات الدين وفرائضه، وأن الانهدام الذي أصاب الحياة الإسلامية فانفصلت بسببه القيم الإسلامية عن الأفكار العلمية، وافترق به طريق العلم عن ضوابط الدين التي تعطي العلم الحياة والهدف وقسمت العلوم على ضوء ذلك إلى علوم شرعية وعلوم عصرية، أو ما يسمى بعلوم الدين وعلوم الدنيا، أسقط العالم الإسلامي في الهوة التي لّما يجد فكاكاً منها حتى اليوم. . .

ولا ندري كيف يمكن أن نتصور أن طريق العلم، وفقه قوانين التسخير، وإدراك سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق، ليس من الدين، على الرغم من هذا الحشد الهائل من الآيات والأحاديث التي تحضّ عليه، ومن الممارسة العملية التي كان عليها المسلمون الأوائل!! ذلك أن تحصيل ما يسمى بـ «علوم الدنيا» يعتبر فرض كفاية بالنسبة للأمة، وأما تحصيله والنبوغ فيه لمن يتخصص به فهو فرض عين. وكلمة فرض عين تعني مدلولاً قيميًا دينيًا، فكيف بعد ذلك يسوغ لعاقل أن يعتبر أن تحصيل العلم الدنيوي ليس من الدين؟ وكيف يعدل كثير من مسلمي اليوم عن متابعة التحصيل العلمي المتخصص إلى الاشتغال بأمور الفقه والدعوة على غير تخصص؟! وكأنه يشعر بعقدة الذنب في دراساته لعلوم الطب والهندسة والرياضيات والزراعة. . .

وكثمرة للتخلف، كثيراً ما نرى اليوم مسلمين من أصحاب التخصصات العلمية العالية يعدلون عنها وعن متابعتها ليمارسوا الفتوى، والتفسير، والفقه، وشؤون الدعوة، والبحث في مشكلات الدعاة، الأمور التي تتطلب علماً وتخصصاً، في الوقت الذي نرى فيه بعضاً من فقهاء ومحدِّثين يتكلمون في الطب

والفلك والأنواء والكيمياء وكروية الأرض وإمكانية الوصول إلى القمر والفضاء الخارجي! إنه الاضطراب نتيجة التبعيض، وتمزيق الرؤية الإسلامية الشاملة الذي يولد الخزي والتخلف في الدنيا والعقاب في الآخرة ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ (البقرة: ٨٥). وباعتقادنا أن الإصابة بالعجز والتخلف وعدم القدرة على الإبداع في علوم العصر، والتبعيض الذي يحكم عالم المسلمين اليوم، والتفريق الدخيل على الفكر الإسلامي بين علوم الدين وعلوم الدنيا لم تنج منه حتى علومنا الدينية الشرعية. وما نراه اليوم من قبض العلم بموت العلماء، وعدم قدرة الأمة على تعويضهم الأمر الذي ينذر بانقراض العلم الشرعي لا سمح الله - وهو من أخصّ خصائص هذه الأمة - شيء مفزع ويمكن أن يصيب مقومات الوجود الإسلامي أصلاً، ذلك أن عجز الأمة عن التحقق والمعرفة لقوانين التسخير والإبداع في علوم العصر لا بد أن يكون نتيجة طبيعية وثمرة للإصابة المستحكمة في الفهم والنبوغ في العلوم الشرعية فلو تمكّنا من العلم الشرعي وتمثلناه حق تمثله لقادنا بالضرورة إلى النبوغ في علوم العصر.

إسلامية العلماء

لقد ولد هذا الواقع المفزع المحزن نوعاً من الضلال عن الهدف، والتداخل في الأمور عجيب حقاً، جعلنا عاجزين عن الإفادة حتى من العناصر المسلمة التي حققت النبوغ في التخصص العلمي فهجرت، وانقلبت إلى أرقام في جداول الحضارة الغربية المادية، وعقول جاهزة للتوظيف في إدارة عجلة العلوم في الحضارة المادية بعيداً عن أيّة إمكانية للإفادة منها في عالمنا الإسلامي، أو الإفادة للقضية الإسلامية هناك؛ ويقوم بعض المخلصين والغيورين اليوم بمحاولة لما يسمى: أسلمة العلوم، ظنًّا منهم بأن القضية يكفي فيها تغيير بعض المصطلحات، كاستبدال كلمة بأخرى، كوضع كلمة «الإله» مكان «الطبيعة» وبذلك تصبح العلوم مسلمة، وهو جهد مشكور ومطلوب عن كل حال؛ ذلك

أن مراجعة العلوم الإنسانية بحدّ ذاتها، وتحديد المواطن التي تجانب فيها النظرة الإسلامية لون من التحصين؛ لا بد منه في مرحلة العجز عن إنتاج هذه العلوم؛ خاصةً وأننا مضطرون لتدريسها في مدارسنا وجامعاتنا؛ فلا أقل من أن تكون لنا مقاييس نرجع إليها في القبول والرد، لكن قد لا تكون الأمور بهذه البساطة، وإذا قبلت هذه المحاولة ابتداءً فقد تكون عديمة الجدوى على المدى البعيد. ومهما عظمت جهودنا فسوف لا نستطيع اللحاق بالتقدم العلمي الهائل، ومحاولة تنقية كل ما ينتجه العقل المادي من أفكار؛ لتتوافق مع النظرة الإسلامية ولو كنا نمتلك النظرة الإسلامية حقاً لقادتنا إلى إنتاج العلوم ذات الفلسفة والهدف الإسلامي؛ ذلك أن العلوم تدين لمن أنتجها، وترتبط بحضارته وثقافته ونظرته إلى الحياة مهما قيل عن حياد العلم، وما لم نصل إلى مرحلة إنتاج أفكار علمية تجيء ثمرة لقيم ورؤية دينية ومحكومة بنظرتها، تكون كالذي يعالج العرض في المرض ويترك السبب...

إنَّ الطرح الصحيح هو إسلامية العلماء وليس أسلمة العلوم، فإذا تحقق العلماء بالقيم الإسلامية جاءت العلوم نتيجة طبيعية لذلك؛ إنَّ الكثير من علمائنا اليوم في الجامعات ومراكز الأبحاث التي انتهوا إليها خارج العالم الإسلامي هم أشبه بمعاجم في خزائن الغرب؛ يقدمون خبرتهم واكتشافاتهم العلمية لتصب في نهر الحضارة الأوروبية والأمريكية، بعيداً عن القدرة على توظيفها لقيمهم الدينية والثقافية؛ فهم من جهة عاجزون - بسبب منهم أو بسبب من العوامل الخارجية - عن إنتاج العلوم ذات الأهداف الإسلامية، ومن جهة أخرى عاجزون عن توظيف واستخدام مهاراتهم ونبوغهم للضغط والانتصار لقضايا أمتهم الإسلامية.

توظيف النبوغ العلمي..

والذي دعا إلى هذه المقدمات الطويلة ما يقرؤه الإنسان يوميًا من أن مراكز التأثير في العالم اليوم أصبحت محتجزة للعلماء والخبراء، وكيف أن السير في

طريق التحصيل العلمي واكتساب المهارات لم يعد اختياراً؛ وإنما أصبح المطروح اليوم في الدول المتقدمة: ضرورة توفير الطاقات للتخصصات الدقيقة ذات التأثير والتحكم في السياسة والحضارة والفكر، بيْنما يبقى دور العالم المتخلف ـ ومعظم دوله من العالم الإسلامي ـ القيام بالخدمات وتقديم اليد العاملة، كسائق السيارة، وعامل التنظيفات، وخادم الفندق، وراصف الطرقات وما إلى ذلك... إلى درجة قد يلمح الإنسان معها أنه انتهى إلى ذهن الكبار في مؤتمرات الاتفاق ـ وليس الوفاق ـ على تقسيم العالم بشكل نهائي سياسيًّا وحضاريًّا إلى عالم متقدم متحكم وآخر يجب أن يبقى متخلفاً؛ أما أصحاب المواهب والعقول في العالم المتخلف فما عليهم إلاّ أن يلغوا انتماءهم، ويقفزوا من فوق الفجوة إن استطاعوا ليلتحقوا بذلك العالم حيث لا مكان ولا مجال ولا حياة ولا حرّية لهم في عالمهم؛ وكل الترتيبات السياسية والثقافية والمعاشية تعني ضرورة إلغائهم من هنا وإلحاقهم هناك...

وحسبنا هنا أن نأتي على ذكر بعض الأرقام للواقع العلمي في البلاد العربية مقارناً بالواقع العلمي عند يهود في دولة الاحتلال ـ ونحن نعتبر أنفسنا على خط المواجهة ـ فلعلَّ ذلك يعيد إلينا بعض وعينا المفقود، ويعيدنا إلى الاستشعار بالمسؤولية التي يُلزمنا بها إسلامنا، وقد يذهب بعضنا إلى القول بأن دولة الاحتلال هي التي ترعى البحث العلمي وتشجعه؛ على عكس الكثير من دولنا التي تخشى المعرفة وتعتمد سياسة التجهيل وتعتبر أهل الخبرة خطراً عليها، وهذا بعض من الحقيقة؛ لكن من الحقيقة أيضاً أن نقول بأنَّ اليهود وهم في طريقهم إلى بناء الدولة اعتمدوا على توظيف النبوغ العلمي في الضغط السياسيّ.

في سنة ١٩٦٧م كان في العالم العربي من العلماء الذين ينشرون بحوثاً علمية (٤٦٥) عالماً، بينما كان في إسرائيل (١٢٥) عالماً، وفي سنة ١٩٨٣م أصبح عدد العلماء العرب (٢٦٠٠) عالم، وبلغ في إسرائيل (٤٦٠٠) عالم، أما المؤسسات العلمية التي ينشر علماؤها البحوث، ففي إسرائيل منها خمس، وليس في العالم العربي مؤسسة واحدة (العربي: أكتوبر ١٩٨٥م).

ونضيف إلى ذلك أن أغلب العلماء والأساتذة المتخصصين في علوم الطب والفلك والكيمياء النووية، والآداب والفنون في الاتحاد السوفييتي من اليهود، أما أوروبا وأمريكا فلا يحتاج الأمر إلى استدلال... لقد استطاع اليهود على الرغم من قلة عددهم، وحتى قبل قيام دولتهم من التحقق بالاختصاصات العلمية النادرة التي تضمن لهم الوصول إلى مراكز التأثير في العالم وقبض الأثمان السياسية لإنجازاتهم العلمية ابتداءً من «أينشتاين» الذي حقَّق اختراعه تفوق الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية، ومروراً بعائلة «روزنبرغ» التي نقلت أسرار القنبلة الذرِّية إلى الاتحاد السوفييتي مقابل الاعتراف بالدولة والسماح بالهجرة وتأمين هجرة ستمائة وخمسين ألف يهودي من الكتلة الشرقية؛ وانتهاءً اليوم بالمساومة التي تمارس مع الولايات المتحدة كورقة ضغط على الاتحاد السوفييتي لتأمين هجرة مليوني يهودي مقابل الضغط على العلماء اليهود للانسحاب من البرنامج الأمريكي لأبحاث الفضاء المضاد للصواريخ والمعروف باسم «حرب النجوم»، لقد وضع «هامير» (ارماند هامير) وهو أحد أنجح اليهود المهاجرين من الاتحاد السوفييتي، كان والده صديق رئيس مخابرات الثورة البلشفية، تعاون مع «لينين» واشتهر بعلاقاته المميزة مع زعماء موسكو، برز دوره في الشهرين الأخيرين كمنسقٍ من وراء الستار لمؤتمر قمة «جنيف» ملف اليهود السوفييت على طاولة قمة جنيف بين الرئيس الأمريكي رونالد ريغان والزعيم السوفييتي جورباتشيف لقاء تجميد حرب النجوم بواسطة العلماء اليهود وهذا كله يعني أن اليهودية العالمية استطاعت أن تصل إلى مراكز التأثير والتحكم في العالم عامة، وتفرض نفسها على المعادلات الدولية؛ بل تتحكم بمسارها، وأصبحت تخصصاتها العلمية سلعة للمقايضة، تستخدم بالطريقة المناسبة ـ لقد خسرنا أفريقيا بعد أن ظننَّا أننا قادرون على شرائها بالمال، وسرقتها إسرائيل بجيش الخبراء والمستشارين الذين تقدمه لها ـ.

والسؤال الذي لا بد من طرحه: إلى متى تبقى الطاقات العلمية للمسلمين مطاردة تعيش في حالة من القلق والضياع، وتبقى العقول العلمية المهاجرة مبعثرة دون أي مردود؟! وقد يكون المطلوب اليوم مزيداً من المراجعة،

وعلى أكثر من مستوىً، لنعلم أن بناء الحضارة الإنسانية هو قيم دينية تعطي الحياة هدفها، وترسم لها مسارها، وتضمن لها أخلاقها؛ وعلم يسخر الكون ويرتاد الآفاق؛ وأن الاختلال في فهم مدلولات القيّم الدينية سوف يعطل الحسّ السويّ بضرورة اكتساب المهارات والتخصصات العلمية، وأن العجز العلمي سوف ينعكس بالضرورة على اكتساب العلم الشرعي الإسلامي والتحقق به.

والطريق إلى إعادة التوازن للحياة الإسلامية إنما يكمن أولاً وأخيراً في استرداد منهج القرآن في التربية التي يُشيع المناخ العلمي ويحرك طاقات الإنسان الكامنة، ويلفت نظره إلى استقراء الحياة والأحياء والأشياء واكتشاف القوانين والسنن الناظمة لها، ويوجه عقله إلى المقايسة والاعتبار.

وقد يكون توفير المناخ العلمي هو الأساس الذي نشكو من فقده؛ ذلك أن الكثير من المسلمين يبدعون في أوروبا وأمريكا، ويلغى وجودهم وتُطفأ فاعليتهم في عالمنا الإسلامي، كما أنه لا بد من تصويب النظرة تجاه العلوم التجريبية عامة، وإيقاف التصادم والتقاطع المفتعل بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وبناء الحياة الثقافية على التكامل والتوازي بين القيم الإسلامية والقوانين العلمية؛ وبذلك فقط تتحقق لنا وراثة الأرض، ونمتلك خصائص الصلاح المطلوب.

[جمادىٰ الأولى ١٤٠٦هـ - كانون الثاني (يناير) ١٩٨٦]

ما ظننتم أن يخرجوا

خاطب القرآن الكريم يهود الذين عاصروا البعثة، ونسب إليهم الجرائم والمؤامرات التي مارسها أجدادهم مع البشرية وأنبيائها وكأنهم هم أصحاب تلك الجرائم وفاعلوها، وكأن المكر والخداع والتآمر أصبح جبِلّة وخلقاً وشيئاً عضوياً يلازمهم، ينتقل من الأجداد إلى الأحفاد، ولعل المجتمع المغلق الذي يحرصون عليه هو السبب في استقرار هذه الأخلاق المعوجة واستمرارها، وفي سيادة مناخ المكر والتآمر والمحافظة عليه وتوارثه...

والمساحة التعبيرية الكبيرة التي خصصها القرآن الكريم للكلام عن بني إسرائيل وتاريخهم وأخلاقهم وعلاقتهم بالنبوة ليست عبثاً، وتكاد تكون المحور الرئيس لمعظم سور القرآن وآياته؛ حتى يكون المسلمون على بينة من أمرهم..

* * *

الإيمان اختيار..

من الحقائق المعروفة عقلاً وواقعاً أن الإيمان بأمر من الأمور يأتي ثمرةً لقناعة تتولد من خلال البحث والاستدلال، والاستقراء والاختبار، والمعاناة والاستعداد الفطريّ، وأن موطن هذا الإيمان هو القلب ـ بالتعبير الإسلامي ـ المحلّ المنوط به الإدراك وتحقق القناعة، وهو أمر داخلي مغيب، والاستدلال عليه إنما يكون برصد سلوك صاحبه، وليس السلوك الظاهري ـ على كل حال ـ دليلاً كافياً على توفر القناعة، فقد ينافق إنسان فيُظهر غير ما يُبطن لتحقيق

مـأرب، وقد يتملق آخـر الشعور الإسـلاميَّ ليخفي حقيقة أمـره في مجتمـع المسلمين، ويبقى الإيمان مقره القلب ولا سلطان لأحد عليه إلاَّ سلطان الدليل؛ وغيـاب هذه الحقيقـة عن الساحـات الفكريـة ووسائـل العمل، والـظن بأن الإرهـاب الفكري، أو الإغـراء المادي، أو تحقيق المصـالـح يصنـع مؤمنـين بالمبادىء، مضحِّـين في سبيلها، وهمٌ خـادع لأنه يـزيد في مسـاحة المنـافقين والانتهازيين الذين لا يريدون بالأمـة خيراً، ومن التـوهّم أيضاً: الـظن بأن العقائد تنشأ بقرار رسمي، وأن الإيمان لا بد له من إذن السلطان ﴿آمَنتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ (الأعراف: ١٢٣)، لذلك قال الله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦) وخاطب الرسول القدوة ﷺ بقـوله: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢) وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩) وحدد مهمته بالبلاغ المبين: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ (المائدة: ٩٩) وبيَّن أن طريقة هذا البلاغ، وتحقيق القناعة للناس إنما يكون بالدعوة إلى الله سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن؛ لأنَّ الله وحده هو الأعلم بمن ضلَّ عن سبيله، وهو أعلم بـالمهتدين، وأمـر الثواب والعقاب مردّه إلى الله في نهاية رحلة الحياة؛ وهذه قضية لا مجال فيها لجدال أو مناقشة، وغيابها عن التصور لا يعدو أن يكون جهلاً بها أو سوء فهم لها...

لكن المشكلة اليوم التي لا بدَّ من تحرير القول فيها، تطرح وجهاً آخر للقضية، ذلك أن الإسلام ابتداءً هو التزام وليس إلزاماً؛ والإيمان اختيار وليس إكراهاً أو إجباراً، والسؤال الذي لا بدَّ من حسم الإجابة عنه: هل ينسحب هذا الاختيار على كل جزئية وتكليف وقضاء وتشريع في الإسلام؟

أو بمعنى آخر:

هل بعد اقتناع الإنسان بالإسلام وإيمانه به، وارتحاله إليه، والتزامه به يمكنه أن يستمر ويقوم بعملية الاختيار والانتقاء من التكاليف الإسلامية لثابتة تحت شعار ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾؟

أم أن الاختيار إنما يتحدد ابتداءً في أصل القبول بالإسلام أو الرفض له، وبعد ذلك تأتي التكاليف الشرعية ثمرةً ونتيجةً طبيعية ومنطقية للاختيار الأول، وليست هي بحد ذاتها ساحة للاختيار أصلاً؟ إذ لا يمكن عقلاً أن أؤمن بأمر ثم أتنكر للنتائج التي تترتب على إيماني به، وأتوهم أن لي حق الانتقاء والاختيار حيث لا إكراه في الدين. لغير المسلم حق الاختيار، وله عدم الإكراه ابتداءً، فإذا التزم بالإسلام ألزم بالنتائج جميعاً التي تترتب على التزامه الأول. فالإسلام يبدأ التزاماً، وينتهي إلزاماً، بمعنى: الإلزام بالنتائج المترتبة على الاختيار الأول، وإلاّ كيف يمكن أن نتصور أن الإسلام يبني أمّة، ويقيم مجتمعاً، ويحاسب خارجاً، ويشرع قانوناً ولا يضع لذلك مؤيّداته المادية والمعنوية؟!

من هنا فإن قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) الذي يحسم الإجابة لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فقبول قضاء الله تعالى وقضاء الرسول ﷺ ثمرة للإيمان الأول، لذلك جاء قوله تعالى: ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ﴾ فالإسلام بالنسبة للمسلم الذي اعتنق الإسلام وآمن به هو وجود لا خيار فيه؛ وفرصة الحرية هنا بالنسبة للمسلم إنما تكون بالتحقق وبذل الجهد والتحري في إثبات صحة التكليف الإسلامي، فإذا ثبت أنّه تكليف من الله أو من الرسول ﷺ فلا خيار بعد ذلك للمسلم: «إن كان قد قال، فقد صدق؛ إننا نأتمنه على خبر السماء».

فهل يمكن للمسلم الذي آمن بنبوّة محمد ﷺ أن ينكر إسراءه، ويُخْضِع ذلك للاختيار، أم لا بد له منطقيًا من ترتيب النتيجة المتحصلة على المقدمة التي آمن بها كما فعل أبو بكر رضي الله عنه؟

والذي نريد أن نخلص إليه أن الحل الإسلامي اليوم بالنسبة للمشكلات الكثيرة التي نعاني منها لا يشكل اختياراً للمسلم، وما يُطرح على الساحة الفكرية اليوم من المغالطات لون من التضليل الثقافي لا بدّ من انتشال المسلمين منه، فكلما طولب المسلمون بضرورة الالتزام بالإسلام، والتخلّق بأخلاقه،

والاحتكام إلى شرعه ارتفعت الأصوات هنا وهناك تردد قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولا ندري كيف يكون تصوّر الدين بتشريعاته وعقوباته وتكاليفه ومؤيداته عند هؤلاء القوم إذا كانت كل جزئية، وكل تكليف يخضع لـ ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّين﴾ ويقع في دائرة الاختيار؟! وكيف يمكن أن يُسمح في المجال الثقافي بهذه المغالطات الفكرية، واستمرار نقض الغزل من بعد القوة؟ نعلن بأننا مؤمنين، ثم نتنكر لهذا الإيمان، ونلغي نتائجه من مسيرة الحياة كلها، تحت شعار ﴿لاَ إِكْرَاه فِي الدِّين﴾؟!!

تعدية الرؤية القرآنية

بعد هذا يمكننا القول: إنه لا خيار للمسلم المدرك لأبعاد إسلامه من أن يتحقق بأبعاد الرؤية القرآنية الشاملة، وأن يبحث ويتحرى ليعرف حكم الله في كل أمر وشأن من شؤونه الخاصة والعامة، وأن يتسلح بالتقوى لتتحقق له ملكة الفرقان، فالرؤية القرآنية ليست نظريّةً فلسفية، أو معارف باردة بعيدة عن صياغة السلوك وتوجيهه؛ ولا خيار له أيضاً في القعود عن إدراك هذه الأبعاد بشكل سليم وكامل، وتلقِّي البيان من الرسول ﷺ، وفي أن يديم النظر في مرحلة التطبيق (السيرة النبوية) تلك المرحلة التاريخية التي تم فيها ميلاد المجتمع الإسلامي الأول «مجتمع القدوة»، وأن يديم النظر أيضاً في الظروف والشروط والمراحل التي تم فيها ذلك الميلاد حتى يمكنه تعدية الرؤية، والاهتداء بالماضي المعصوم «مرحلة السيرة» للنهوض بالحاضر واستشراف آفاق المستقبل.

ومن المفارقات العجيبة حقًّا في عالمنا الإسلامي، وبعد هذه الحال التي انتهى إليها، أن يستمع الإنسان إلى أصوات هنا وهناك تردّد القول بـ «الحتمية التاريخية» وتجهد نفسها في محاولة التدليل على صحة مقولتها، وقد تصل في تفسيراتها العجيبة لتاريخ البشر الذين يخطئون ويصيبون إلى درجة تزري بالعقل البشري «العلمي» نفسه.

ونحن لسنا ضد معرفة السنن في الأنفس والآفاق، والتعامل معها،

والاعتبار بحوادث التاريخ التي تحمل رصيد التجربة البشرية، وتختصر المسافة الزمنية بالنسبة لإنسان اليوم، ونعتقد أن الذي يتخلى عن ذلك إنما يتخلى عن ذاكرته وشخصيته؛ فالقرآن الكريم أوّل من اعتمد الحادثة التاريخية، ووجّه إلى ضرورة الانتفاع بها، وطلب السير بالأرض والنظر في تاريخ الشعوب والأمم، وكيف كانت عاقبتها، وعدم الاقتصار على التاريخ الخاصّ بالأمة المسلمة، والإسلام من بعض الوجوه ثمرة للتجربة الإنسانية من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (النمل: ٦٩) لكن المشكلة حقًّا بالنسبة لمسلم اليوم تجاهل ما بيَّنه القرآن الكريم من العبر والدروس الخالدة، وما قصَّه علينا من أحوال الأمم السابقة التي سادت ثم بادت، وأسباب انقراضها؛ وعدم الاعتبار بذلك وأخذ الحذر، وهو الكتاب المعصوم الذي ورد بالتواتر؛ ذلك أن آيات القرآن الكريم - في عصر السقوط والتخلف - حتى لو رفعناها شعاراً لبعض مؤتمراتنا ولقاءاتنا، وابتدأنا إذاعاتنا بقراءتها فهي في حياتنا أقرب للتبرّك من قدرتنا على استيعاب درسها، وأخذ أنفسنا بمدلولاتها، والتحقق بعبرها؛ ولقد تحولت سيرة الرسول ﷺ عند كثير منَّا إلى مناسبات وأعياد واحتفالات ومواسم وموالد تنسَجُ حولها الخرافة، وتمجَّد فيها البدعة، وتهزَم فيها الحقيقة، وتغيب عنها السيرة الصحيحية وتوليد العزمة الصادقة، وقد لا تختلف موالدنا الحديثة (اجتماعات، مناسبات، احتفالات) عن تلك الموالد الخرافية من حيث الطرب، وضياع النتيجة والأثر..

من هنا نقول، ونحن على أبواب شهر ربيع الأنور: إنَّ المطلوب من المسلمين اليوم - بعد هذا السقوط المريع على مختلف الأصعدة، وهذه العقوبات المتعاظمة التي يوقعها الله تعالى بنا على يد أشد الناس عداوة لنا؛ اليهود - فرضيَّة العودة المبصرة إلى القرآن الكريم لأخذ العبرة والدرس، وإدامة النظر في السيرة العملية للرسول ﷺ، ومع اعترافنا بعدم إمكانية استعادة التاريخ بأشخاصه وحوادثه، وملابساته ومشكلاته، واسترداده بتفاصيله كلّها لصناعة الحاضر، إلاّ أنه بإمكاننا استشهاد التاريخ، واهتداء به، والاعتبار بدروسه، والبصارة في ضوئه، والتحقق بالسنن التي حكمته، والتي لا بدّ أنها حاكمة

للأمم والشعوب لمعرفة الحاضر وإبصار المستقبل، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للتاريخ، فكيف يكون الموقف بالنسبة للسيرة النبوية، وهي الفترة المعصومة من التاريخ التي لا يجوز إخضاعها لمقاييس وتقويمات الحادثة التاريخية من كل وجه؟ وكيف يكون الموقف بالنسبة للقرآن الكريم وما عرض له من السنن والنماذج التطبيقية من حياة الأمم؟ وحتى لا نستمر في التجريد بعيداً عن المثال التطبيقي سوف نعرض لأنموذج من السيرة ـ إجلاء يهود بني النضير ـ بعد أن نقدّم له بمقدمات نرى أنه لا بد منها.

التآمر اليهودي لن يتوقف..

لقد بدأ الصراع مع يهود منذ اليوم الأول للبعثة النبوية، لأنهم كانوا يرون في الإسلام والنبي الجديد ﷺ تهديداً لمعتقداتهم، وكشفاً لتحريفهم كلام الله، وتاريخهم السيِّء مع أنبيائه، وخطراً على قيادتهم الدينية للعالم، وخوفاً من انتقال هذه القيادة إلى المسلمين؛ أصحاب الرسالة الخاتمة، فالمعركة الحقيقية كانت ولا تزال معهم: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ (البقرة: ٢١٧) فواجهوا ذلك بكل ما يمتلكون من حقد وكيد وتآمر وتخريب وغدر، سواء أكان ذلك مواجهة مباشرة أو من داخل الصف المسلم نفسه باصطناع النفاق والمنافقين، ومن ثم تغذية الملل والنحل الباطلة والخارجة عن الإسلام باسم الإسلام، فهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وهم شياطين النفاق، الذين صنعوه ورسموا دروبه...

المساحة التعبيرية الكبيرة التي خصصها القرآن الكريم للكلام عن بني إسرائيل، وتاريخهم، وأخلاقهم، وعلاقتهم بالنبوة ليست عبثاً، وتكاد تكون المحور الرئيس لمعظم سور القرآن وآياته حتى يكون المسلمون على بيِّنة من أمرهم، فلا يقعوا بما وقع به يهود، وهم الذين نيطت بهم القيادة الدينية للعالم فلم يرعوها حقَّ رعايتها؛ وليأخذوا حذرهم من جانب آخر لأنَّ التآمر اليهودي لن يتوقف حتى يرث الله الأرض ومن عليها..

خاطب القرآن الكريم يهود الذين عاصروا البعثة، ونسب إليهم الجرائم والمؤامرات التي مارسها أجدادهم مع البشرية وأنبيائها، وكأنهم هم أصحاب تلك الجرائم وفاعلوها، وكأنَّ المكر والخداع والتآمر أصبح جبلة وخُلُقاً وشيئاً عضويًا يلازمهم، ينتقل من الأجداد إلى الأحفاد، ولعلَّ المجتمع المغلق الذي يحرصون عليه هو السبب في استقرار هذه الأخلاق المعوجّة واستمرارها، وفي سيادة مناخ المكر والتآمر والمحافظة عليه وتوارثه؛ ومع أن المسؤولية في الإسلام فرديَّة ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ (الأنعام: ١٦٤) إلاَّ أنها بالنسبة ليهود جاءت جماعية، فكان تقريع الأبناء بما فعل الآباء من الجرائم، مِن قَتْلِ الأنبياء والقول على الله غير الحق. . . إلخ.

اختبر الرسول ﷺ يهود عصره بالاعتراف لهم بالحرية الدينية، والتعامل معهم، وتوقيع الصلح والمعاهدات مع فرقهم وطوائفهم ـ بني قينقاع والنضير وقريظة ـ وأعطاهم حقّهم كاملاً غير منقوص في معاهدته لهم عندما وصل إلى المدينة المنورة، وجعلهم على قدم المساواة مع المسلمين في الدفاع عنها؛ فماذا كانت نتيجة التجربة الميدانية ـ تجربة الرسالة الخاتمة ـ معهم؟ تلك التجربة التي لا بد من الاهتداء بها وعدم القفز من فوقها في التعامل معهم كما هو واقع اليوم في عالم المسلمين؛ ولسنا الآن بصدد الكلام عن تهديدات بني قينقاع المباشرة للمسلمين في أعقاب غزوة بدر الكبرى وتهوينهم من شأن الانتصار، وقولهم: لقد لاقى محمد ﷺ في بدر قوماً أغماراً ـ لا علم لهم بفنون القتال ـ لو نازلنا لأريناه كيف يكون القتال، وخوفهم من توجّه أمر الإسلام، واعتدائهم على المرأة المسلمة في حيّهم؛ ولا عن صناعة النفاق التي هزّت الصفوف في غزوة أحد قبل المعركة؛ حيث عاد ابن أُبيّ بمجموعته مخذلاً قوة المسلمين وهم في الطريق إلى المعركة، ثم كيف تأصَّل النفاق ليصبح ضرباً من الفرق الباطنية التي تعيش في حلق المسلمين، وتمكّن اليهود من جديد. . .

ولا عن خيانة يهود بني قريظة وتخريبها الأحزاب في غزوة الخندق، وشهادتها للكفار بأن الأوثان أهدى من إله محمد ﷺ، وإنما الأنموذج الذي نعرض له بمناسبة شهر ربيع الأنور هو: غزوة يهود بني النضير، حيث تم

إجلاؤهم في هذا الشهر الكريم، نعرض لهذا بعد أن تعاظم أمر يهود اليوم ـ إسرائيل ـ وأصبحت ذراعهم ممتدة إلى المكان الذي يختارونه في العالم الإسلامي، وبدأت بذور اليأس والإحباط والاستخذاء تتسلل إلى بعض النفوس، وخيّم مناخ الهزائم على الرؤوس إلى درجة أصبحت قريبة من الحال التي كان عليها الأمر بعد هزيمة أحد، وشيوع النفاق، وموقف يهود بني النضير من الاعتزاز بالقوة والتهديد للمسلمين..

إجلاء يهود بني النضير

ففي أعقاب غزوة أحد، وبعد الجراحات والقروح التي أصابت المسلمين، والانتكاسات النفسية التي لحقت ببعضهم بسبب مناخ الهزيمة الذي وجد فيه المنافقون ـ وعلى رأسهم ابن أُبيّ بن سلول ـ فرصتهم للنيل من الرسول ﷺ والمسلمين، ولما يمض وقت طويل على إخراج يهود بني قينقاع من المدينة المنورة، وقد كانت نفوس يهود الباقين ـ النضير وقريظة ـ معبّأة، عامرة بالحقد؛ استغلّوا الفرصة لتضخيم انتصار قريش وإظهار المسلمين بمظهر الضعف والوهن، وقالوا: (ما محمد إلاّ طالب مُلْكٍ، ما أصيب نبي هكذا قط في بدنه وأصحابه)، وهكذا بدأوا يتطاولون ويتآمرون مع المنافقين، وتناسوا العهد الذي كتبوه مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم....

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه في شهر ربيع الأول إلى بني النضير ـ وكانت حصونهم على ميلين من المدينة ـ يستعينهم في دية الرجلين اللذين قتلهما عمرو بن أُميَّة الضمري حينما رجع من بئر معونة، تنفيذاً للعهد معهم، فلما أتاهم قالوا: نعم أبا القاسم، نعينك على ما أحببت؛ ثم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ قاعد إلى جنب جدار من بيوتهم ـ فمن يعلو هذا البيت فيلقيَ عليه صخرة، فيريحنا منه؟

فانتدب لذلك أحدهم، فصعد ليلقي الصخرة، فأتى جبريل عليه السلام

رسول الله ﷺ وأخبره بما أراد القوم، فقام ﷺ مظهراً أنه نهض ليقضي حاجته، وترك أصحابه، ورجع إلى المدينة مسرعاً... إلى آخر ما ورد مما هو معروف في مظانّه من كتب التفسير والسيرة...

وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، وبعث رأسُ النفاق ابن أبيّ بن سلول إليهم أن اثبتوا وتمنّعوا، فإنّا لن نُسْلمكم، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم... وحاصرهم الرسول ﷺ أيّاماً، وهم قد تحصّنوا ينتظرون نصرة المنافقين دون جدوى، إلى أن أُجلوا عن المدينة المنورة، وفيهم نزلت سورة الحشر، ومن آياتها ذات الدِّلالة الكبيرة على ما نعاني اليوم، قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢).

البعد الغيبي الإيماني..

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا﴾ الكثيرون في عالمنا الإسلامي اليوم يعيشون الإحباطات المتتالية ـ كنتيجة طبيعية لإقصاء شريعة الله وما استتبع ذلك من الهزائم المستمرة ـ ويسيطر عليهم مناخ الهزيمة ويتنفسون هواءه، فذراع «إسرائيل» تصل إلى المكان الذي تريد من أقصى المشرق العربي إلى أقصى المغرب العربي، والكتابات الكثيرة هنا وهناك تسهم بإنهاك العرب المسلمين وتحقيق هزيمتهم النفسية من حيث تدري أو لا تدري بأن إسرائيل باتت تمتلك أسلحة ذرِّية، وتطوُّر الطائرات، وتحدُّث التكنولوجيا إلى درجة بدأت معها روح التخاذل تسري إلى جماهير المسلمين، وتورث لأجيالهم، بعد أن استولت على مؤسساتهم.. وهنا مكمن الخطورة.

وتمارس «إسرائيل» الصلف والكبر والعدوان، وتوقظ النزعات الطائفية والقبلية والعنصرية والإقليمية، وقد وجدت هذه الأمور هوىً في نفوس بعضنا،

وهي التي كانت تجد هوىً دائماً في مجتمعنا العربي إذا ابتعد عن الإسلام، والحالة التي انتهينا إليها اليوم من وجود التحالفات غير المعلنة مع يهود، والنتائج الظاهرة والمنظورة لهذه التحالفات داخل مجتمع المسلمين لا يحجبها اليوم شيء... لقد وصلنا فعلاً، من الناحية النفسية، إلى مرحلة يصدق علينا فيها قوله تعالى: ﴿ما ظَنَنتُمْ أن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مانِعَتُهُم حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ﴾، لقد ألغينا الاعتبار من تجربتنا، وعجزنا عن البصارة...

وهنا قضية أخرى نرى أنه لا بد أن نعرض لها، ونحن بسبيل الاستضاءة والتحقق بالرؤية الإسلامية التي لا خيار للمسلم إزاءها، وهي أن التمزق والضياع اللذيْن نعاني منهما على مختلف الأصعدة أفقدانا التوازن المطلوب، وأضاعا علينا الجهات.

لقد أسقط الكثير من المسلمين اليوم البعدَ الغيبي عن صياغة حياتهم مما أفقدهم مجرد الأمل الدافع إلى التغيير ﴿فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ صحيح بأنَّ الله تعالى ناط هذا الدين بعزمات البشر، وأجراه على السنن الجارية في الإعداد والاستعداد، ولم يربطه بالخوارق والمعجزات، ونبَّه المسلمين أن يأخذوا حذرهم، فينفروا ثُباتٍ وينفروا جميعاً، وأن يعدّوا ما استطاعوا من قوّة، كما بيَّن لهم أعداءهم الحقيقيين، غير أن ذلك لم يتعارض إطلاقاً مع ضرورة استحضار البعد الغيبي... وعلى الرغم من التخفيف الوارد في مواجهة الأعداء في قوله تعالى: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً﴾ (الأنفال: ٦٦) بقي للبعد الغيبي دوره: ﴿فَإِن يَكُن مِنْكُمْ مائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مائتين﴾.

وقد تكون المشكلة في مسلمي اليوم أنهم يقصِّرون في استكمال عوامل النصر المادية، ويقعدون عن التحقق بشروطه المعنوية، ورغم ذلك ينتظرون النصر!! يطلبون ما يعتبرونه حقًّا لهم وينسون واجباتهم المشروطة فيهم لتحقق المعادلة المطلوبة ﴿إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾.

وأعتقد لو أنَّا صرفنا بعض ما كُتب عن العدو الإسرائيلي خلال نصف

قرن ـ عن انهيار مجتمعه وهجرته المضادّة، وأزماته الاقتصادية التي جعلتنا دائماً نمارس حالة الانتظار لسقوطه دون أن يكون لنا دخل في ذلك ـ لو أننا صرفنا جزءًا من ذلك لإصلاح جوانب الخلل في نفوسنا، ولإعداد الأمة وتبصيرها بعدوّها، وإعادة بناء مجتمعنا على أصوله الإسلامية الصحيحة، حيث لا خيار للمسلم، ولا بديل عن الحل الإسلامي الذي يجب أن تُهيَّأ مقوماته، وأن يحذر من طرحه كشعار دون التحضير لهذه المقومات، لأننا إذا طرحنا الشعار ـ الجهاد المقدَّس ـ دون أن نهيِّىء له مقدماته نكون قد افتقدنا آخر مواقعنا، والعياذ بالله وقد يكون ضروريًا أكثر من أي وقت مضى استعادة البعد الغيبي الإيماني الذي يبعث الأمل، ويشحذ الفاعلية، ويدفع إلى العمل، ويكفي أن نذكِّر بخصيصة واحدة من خصائص المجتمع الذي انتصر على يهود بإعداده ـ وقبل ذلك كلّه بتأييد الله له ـ علّها تحقق لنا الاعتبار، وتعيد إلينا بعض خصائصنا المفقودة:

لما أخذ الرسول ﷺ فيء بني النضير، قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمة».

فقالوا: بل نقسم من أموالنا وديارنا، ونؤثرهم بالغنمية ولا نشاركهم فيها، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٩) إنه الجيل الذي استكمل شروط النصر وعوامله المادية فوفَّقه الله إليه، فهل نعود إلى الحل الإسلامي من جديد؟!

[ربيع الأول ١٤٠٦هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥]

الغزو الثقافي والمجتمع الإسلامي

كلما تقدمت بنا الأيام ومرّت الأحداث، أدركنا قيمة وضرورة الاستشعار المبكر في مجال الغزو الثقافي، ووسائل تحصين الثقافة الذاتية الذي كان رائده بحق: الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، المفكر الجزائري المسلم الذي زرع بذرة الملتقيات الفكرية، ورعاها، ودعا لها بعض المفكرين والباحثين في العالم الإسلامي، بعيداً عن صورة المؤسسات الرسمية ومؤتمراتها، لإقامة جبهة فكرية ثقافية على مستوى هذا العالم، لأن المشكلة الحقيقية التي نعاني منها اليوم هي بسبب الإصابة في عالم الأفكار، والخروق والكسور التي أصابت ثقافتنا الذاتية، لذلك رأيناه يكرس حياته للمرابطة في هذا الموقع إدراكاً منه لخطورته، ولمطاردة التسلل الثقافي، وكشف وسائله، وأهدافه إلى درجة أورثته مزيداً من الحساسية في هذا الموضوع كردّ فعل على البلادة والعطالة الذهنية والسذاجة التي ابتلي بها الكثير من الباحثين والدارسين.. فلم يكتف بأن يطلق صيحة النذير وصوت التحذير من مخاطر الغزو الثقافي، وإنما كان الرائد الذي لا يكذب أهله، والدليل البصير...

* * *

انعقد في ولاية «بجاية» في الجزائر، في الفترة من ٢٠ ـ ٢٨ شوال ١٤٠٥ (٨ ـ ١٦ تموز ـ يوليو ـ ١٩٨٥] ملتقى الفكر الإسلامي التاسع عشر للمناقشة والحوار وتبادل الرأي حول الغزو الثقافي والمجتمع الإسلامي وتاريخه، ليأتي طرح هذا الموضوع حلقة في سلسلة موضوعات هامة وخطيرة، عرضت لها

الملتقيات السابقة، والأخيرة منها بشكل خاص، حيث كان لا بد منطقياً من البدء في التأصيل الثقافي، وبيان مصادره وموارده من الكتاب والسنّة، كمصدرين للحياة الإسلامية وللتشريع الإسلامي، ومن ثم البحث عن وسائله وتواصله وامتداداته لتحقيق شمولية الإسلام للحياة الإنسانية، وبيان أن خلود الإسلام وقدرة المصادر الإسلامية على استيعاب أمور الحياة وما يستجدّ من تطورات وأحداث، لا يجوز معها أن يقف العقل المسلم عاجزاً سلبياً بعيداً عن الساحة، فكان الاجتهاد ـ موضوع أحد الملتقيات القريبة ـ والبحث في ضرورة استمراره لأنه يشكل النسغ الذي يضمن للحياة الإسلامية استمرار العطاء، ويحميها من العقم، كما يحمي العقل المسلم من العطالة والعجز والجمود الذي سوف لا ينفع معه أي ادعاء أو افتخار تاريخي بعطاء الأجداد، وكان من الطبيعي جداً أن يعقب ذلك، الحوارُ وتقليب وجهات النظر حول مظاهر العودة إلى تلك الينابيع الإسلامية الأولى، بعد رحلة الانسلاخ التي شهدها عالم المسلمين إثر سقوط الصورة السياسية الإسلامية، وأثرها السيء على المجتمع الإسلامي، فخصصت بحوث وندوات وتعقيبات الملتقى الثامن عشر لطرح موضوع «الصحوة الإسلامية» ثم كان من الطبيعي أيضاً أن يأتي موضوع الملتقى التاسع عشر عن عوارض التأصيل الثقافي، وبيان الثغور المفتوحة في جبهة المسلمين الثقافية، والخروق المتعددة لثقافتنا الذاتية التي نعاني منها على الأصعدة المختلفة، ودراسة الأسباب الحقيقية للأمراض الثقافية، ومحاولة بيان سبيل العلاج، لذلك خصصت أعماله لمناقشة أسباب ووسائل ومظاهر الغزو الثقافي للمجتمع الإسلامي؛ وكان الارتكاز على الوسائل والمظاهر المعاصرة بشكل خاص وسوف نعرض هنا لبعض الهوامش والتعقيبات:

لعلَّ من الأمور الأساسية الجديرة بالتسجيل، والتي لا يجوز تجاوزها هنا: أن تكون الجزائر هي التي تحتضن مثل هذه الملتقيات، ذلك البلد الذي استهدف فيه المستعمر أوّل ما استهدف ثقافته الذاتية، واحتلال عالم أفكاره قبل احتلاله أرضه، ومحاولة مسخ شخصيته العربية المسلمة وإعادة تشكيلها على الطريقة الأوروبية الفرنسية، وكان من وراء ذلك كلّه الحملات العسكرية التي

تدمر القرى، وتحرق المزارع، وتمارس أشد ألوان العدوان والعذاب والترغيب والترهيب لتجعل من الجزائر أرضاً فرنسية؛ ودفعت الجزائر الثمن غالياً، وقدمت المليون شهيد في سبيل عروبتها وإسلامها، فكان من الطبيعي جداً أن تقدر حق التقدير قيمة العربية والإسلام في حياتها وثقافتها ومواجهتها، وهي التي عرفت عن كثب الاستعمار العسكري والغزو الثقافي، لأنها ترابط في الخندق الأول بالنسبة لعالم المسلمين في مرحلة الاستعمار الحديث؛ وبإمكاننا القول باطمئنان:

إنَّ البلد الذي دفع هذا الثمن الباهظ، وقدم هذه التضحيات الجسام ليس من السهولة عليه أن يتنازل عن عربيته ودينه مهما كانت المحاولات، ومهما كان شأن ولون المحاولين؛ فالمبادىء الإسلامية بالنسبة للمسلمين اليوم لا تشكل اختياراً، وإنما هي وجود، وقد تكون هذه الحقيقة غائبة عن كثير ممن يحاولون متابعة رسالة المستعمر والغازي في مرحلة ما بعد الاستعمار، وغيابها يؤدي إلى كثير من الانتكاسات والاضطراب في العالم الإسلامي . . .

الاستشعار المبكر

وكلما تقدمت بنا الأيام ومرّت الأحداث أدركنا قيمة وضرورة الاستشعار المبكر في مجال الغزو الثقافي ووسائل تحصين الثقافة الذاتية الذي كان رائده بحق: الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله، المفكر الجزائري المسلم الذي زرع بذرة الملتقيات الفكرية ورعاها ودعا لها بعض المفكرين والباحثين في العالم الإسلامي بعيداً عن صورة المؤسسات الرسمية ومؤتمراتها، لإقامة جبهة فكرية ثقافية على مستوى هذا العالم، لأن المشكلة الحقيقية التي نعاني منها اليوم هي بسبب الإصابة في عالم الأفكار، والخروق والكسور التي أصابت ثقافتنا الذاتية، لذلك رأيناه يكرس حياته للمرابطة في هذا الموقع إدراكاً منه لخطورته، ولمطاردة التسلل الثقافي وكشف وسائله وأهدافه إلى درجة أورثته مزيداً من الحساسية في هذا الموضوع كردّ فعل على البلادة والعطالة الذهنية والسذاجة التي ابتلي بها الكثير من الباحثين والدارسين؛ فلم يكتف بأن يطلق صيحة النذير وصوت

التحذير من مخاطر الغزو الثقافي، وإنما كان الرائد الذي لا يكذب أهله. والدليل البصير. . .

وتأصيل هذا المنهج الذي يشكل ـ في نظرنا على الأقل ـ حاسة الاستشعار المبكر، لا بد أن يتسلح به مسلم اليوم حتى يتوقف تكرار اللدغ الثقافي والسياسي في عالم المسلمين؛ والرسول ﷺ يقول: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين».

الإدانة.. والحوار المفتوح

ولا شك أن استمرار انعقاد وعطاء مثل هذه الملتقيات يعتبر مأثرة من مآثر وزارة الشؤون الدينية، إن لم يكن من أعظم مآثرها على مستوى العالم الإسلامي، والذي نرجوه أن يأخذ منها الجهد الأكبر تفكيراً وإعداداً وتنظيماً وتقويماً، وإن كانت مهامها كثيرة، ومسؤولياتها كبيرة، لأنها تساهم بإعادة القسمات العربية الإسلامية لمجتمع عانى من الاستعمار ما يقارب القرن ونصف القرن، بل لعلّنا نقول: إنّ هذه الملتقيات لم تعد ملكاً للجزائر وحدها، وإن كانت تنعقد على أرضها، وبإشراف وزارة الشؤون الدينية فيها، وإنما هي ملك العالم الإسلامي بما يعرض فيها من مشكلات عالمية، وبمن يشارك فيها من العالم الإسلامي، لذلك قد تكون الاستعانة والإفادة ممن هم مظنّة الرأي والتخطيط على مستوى العالم، من طبيعة الملتقيات ومن عالميتها أيضاً. . .

والمؤتمرات والملتقيات اليوم ليست بحاجة إلى مزيد من الحماس والتوثب الروحي بقدر ما هي بحاجة إلى التخطيط والتخصص والدراية بالموضوعات المطروحة، فلا بأس بالاستعانة ولو عن طريق المراسلة بأهل الخبرة، لنحس في كل عام أكثر فأكثر بأننا استوينا على الطريق القويم؛ وكأنّ المطلوب من وزارة الشؤون الدينية التفكير أكثر بعالمية الملتقى إعداداً وتنظيماً وتقويماً وتعميماً لأعماله ومناقشاته، وألاّ يقتصر ذلك على مستوى دعوات الحضور والموضوعات المطروحة فقط، خاصة وأن الملتقى بدأ يقترب من بحث مشكلات المسلمين الحقيقية، ويمس بعض المظاهر الشاذة الموجودة فعلاً في بلاد المسلمين، إن اختيار مثل هذه الموضوعات الحساسة يمس الواقع الذي يعيشه عالم المسلمين في

بعض مؤسساته الرسمية في مجال الإعلام والتعليم والأسرة والمواقف السياسية والفكرية؛ فالكلام عن الصحوة بأبعادها المختلفة، ووسائل ترشيدها، ومظاهر مطاردتها، وتقديم عينات ونماذج لذلك، ومن ثم تتبع مسارب الغزو الفكري للثقافة الذاتية الإسلامية يقتضي قدراً غير قليل من الحرية وهو مع الأسف غير متوفر في كثير من بلاد المسلمين اليوم. . .

ولا شك أن الإقدام على طرح مثل هذه الموضوعات ومناقشتها والإتيان بالأمثلة والنماذج من واقع المسلمين، سوف يشكل إدانة وحساسية ليس من السهل تجاوزها، وإن كنّا نعتقد أنَّ الحوار المفتوح حول مثل هذه الموضوعات والقضايا هو الطريق الصحيح لحلها ومعالجتها، فقد يكون الحل لكثير من قضايا العالم الإسلامي الحوار المفتوح، وليس القمع والمواجهة، وتأخير الحسم فيها، أو الانخداع بغيابها الظاهر عن الساحة. . . من هنا نقول: إنه لا بد من الاستمرار وبإصرار في شد الملتقى - سواء في مستوى الطرح، أو في اختيار الموضوعات وإدارة الحوارات - إلى الابتعاد عن الصور الرسمية والعلاقات الرسمية والتحكم الرسمي، وإن كنّا في الوقت نفسه نرى ضرورة المشاركة الرسمية حتى تتكامل الصورة، وتطرح وجهات النظر كلها، ولعلَّ الكلام الذي عرض له وزير الإسكان أمام الملتقى عن الغزو الثقافي اليوم في الفن المعماري ومجال البناء، والأمثلة والمقارنات التي قدمها عن الخلفية الثقافية التي تقبع وراءها، أغنى وعي وحسَّ الطلبة والمشاركين بنماذج لا بد منها من موقع المسؤولية والمعاناة اليومية، كما أن وقوف وزير الثقافة ليقدم وجهة نظره في بعض القضايا، واستماعه لبعض التعقيبات أمر مهم أيضاً، خاصة وأنّ الملتقى محل للحوار والمناقشة، وتبادل وجهات النظر وتداول الآراء، وتطعيم الأفكار، وسماع الرأي الآخر للوصول إلى الصيغة الثقافية الواحدة والرؤية الثقافية المشتركة، أو إلى تكوين الجبهة والقاعدة الثقافية الواحدة، وليس مكاناً لإبرام القرارات وإصدار التشريعات؛ ذلك أن التوصيات والمناقشات والبحوث سوف تتخمر في العقول، وتنمو في وجدان الأمة وتأخذ شكلها لتصبح نمطاً حياتياً وقراراً سياسياً فيما بعد. . .

لذلك نرى أن يستمر الملتقى في المحافظة على مقومه الأساسي كندوة فكرية مفتوحة بعيدة عن الأشكال والقيود الرسمية: وإن كان بطبيعته ليس ضد المؤسسات الرسمية، فالكثير من المؤتمرات الرسمية التي تنعقد اليوم في العالم الإسلامي هي بطبيعتها أقرب إلى مؤتمرات موظفين يقتصر دورهم على ترديد البيانات الرسمية، ولذلك لم تستطع تلك المؤتمرات أن تقدم شيئاً يذكر، كما أنها لا تستطيع أن تخرج بالمسلمين عن الصورة الواقعة في العالم الإسلامي، إن لم نقل بأنها جاءت تكرّسها وتوجد لها المسوغات...

هذه بعض الملاحظات التي أردنا أن نلفت النظر إليها حول إطار الملتقى بشكل عام، ونرى أنه لا بد أن نساهم بوجهة نظر أو رؤية من داخل الملتقى علّها تساهم بشيء من الارتقاء به على الرغم من النفع الكبير الذي يحققه، لكننا نطمع بالمزيد.

العالم المتخصص..

الناظر في برنامج الملتقى، وهذا الكم الكبير من المواد الثقافية والمحاضرين، وما استتبع ذلك من المعقبين، لا بد له أن يلاحظ أننا لا نزال في العالم الإسلامي تستهوينا الحجوم والأشكال والكم أكثر بكثير من البحث عن الكيف والنوعية والحصيلة المتوخاة، خاصة إذا علمنا أن الكثير من المحاضرين، ولا نقول بعضهم، لم يعط موضوعه القدر الكافي من النظر والعناية والتخصص والمنهجية، حيث لا تزال عقلية الكثيرين في عالمنا الإسلامي بعيدة عن التزام المنهجية والتخصص، فكل كلام يصلح لكل موضوع ومناسبة، ويمكن أن تستمع للكلام نفسه أياً كان الموضوع المطروح سواء أكان في مجال الصحوة أو الاجتهاد، أو القرآن، أو الغزو الثقافي... إنها الخطب التي تصلح للمناسبات كلها، والتي أصبحت عبئاً على الذهن المسلم؛ تساهم بتسطيح معرفته أكثر من أن تشكل دليلاً يأخذ بيده إلى المواقع المطلوبة، حيث لا يزال حب الكلام، والمساجلات والمطارحات الكلامية، وطنين العبارة يحتل المرتبة الأولى في نفوسنا،

أضف إلى ذلك تكرار بعض المعقبين للمعاني نفسها، وتحكم شهوة الكلام ببعضهم الذي كان يحملهم إلى كتابة التعقيب قبل سماع المحاضر، ولا أزال أذكر أحد المعقبين على وزير الإسكان، وكيف أنه كتب التعقيب بمجرد أن سمع عنوان المحاضرة؛ فحبذا لو قلّت المفردات الثقافية وعدد المحاضرات، وترك المجال مفتوحاً أكثر للحوارات والندوات والاستفسارات والاجتماعات الموازية والمتخصصة؛ على الرغم من أن ذلك يشكل متعبة للقائمين على إدارة الملتقى.

ولا شك أن المحاضرين والمعقبين يخاطبون الجمهور من خارج قاعات الملتقى عن طريق وسائل الإعلام المختلفة إضافة إلى الطلبة والمشاركين، وبذلك فالملتقى مصدر للثقافة الجماهيرية المتنقلة، حيث جرت العادة أن ينعقد كل عام بولاية من ولايات القطر الجزائري، ولهذا ما له من العطاء الثقافي، وتحريك وهزّ البرك الراكدة، وتجديد ذاكرتها تجاه الإسلام، وتبصيرها بالثغر الثقافية وصور وأدوات المواجهة الثقافية؛ ولعلَّ بعض المحاضرين يؤتى من هنا، حيث يظن أحدهم أنه يشفع لتدني سوية موضوعه كونه يخاطب الجماهير من خلال وسائل الإعلام، إلاَّ أننا نرى هنا أن البساطة والتبسيط لا تعني ولا يجوز أن تعني تسطيح المعرفة وسذاجتها، أو أن تقول أي كلام؛ وإنما تعني القدرة على تقديم الأفكار الهامة بلغة وخطاب سهل، وقد يكون من المؤسف أن بعض البحوث لم تستطع أن تضيف جديداً، لا للجمهور خارج قاعات الملتقى، ولا للطلبة داخلها، ولا نغالي إذا قلنا: إنَّ بعض الطلبة قد يكون متقدماً على إدراك آفاق وأبعاد البحث المطروح أكثر من بعض المحاضرين؛ فمتى نصل إلى مرحلة أن يعتذر المدعو عن المشاركة بسبب عدم قدرته على تحضير الموضوع المطلوب، أو عدم تخصصه به، أو عدم معاناته له؛ ونتخلص من عقلية الادعاء بمعرفة كل شيء، الأمر الذي يؤدي إلى لون من الاحتراف للمؤتمرات مهما كان موضوعها؟! ذلك أن الذي يدعي أنه يعرف كل شيء لا يعرف شيئاً؛ وقد يكون المطلوب اليوم: العالم المتخصص؛ وبكل قضية أصحابها.

وهنا نقول: إنه يمكن أن تتحكم بعض الظروف والملابسات والاعتبارات بدعوة بعض الأشخاص، وحبَّذا لو كانت دعوتهم لحضور الملتقى وشهود الحوار

والمناقشات، وليس من الضروري أن يكون المدعوون كلهم من أهل الكلام، وهذا الأمر - وإن كنّا لم نتعود عليه بعد - سوف يوجد للقائمين على تنظيم أعمال الملتقى بعض الحساسيات، إلاَّ أنَّ الحسم فيه موقف لا بد منه، خاصة إذا اعتبرنا مثل هذه الملتقيات مجالاً لمعالجة بعض أمراضنا وليس لتكريسها؛ كما أن بعض المدعوين للكلام قد يكون من أهل العلم والفضل، لكنه ليس من أهل الكلام والبحث. في هذا الميدان؛ ولما كان الملتقى بعيداً بطبيعته ومضمونه عن الأشكال الرسمية، وهذه من أهم ميزاته، وكانت الدعوة إليه والحضور فيه لا يقوم على أساس التمثيل الرسمي لبلدان العالم الإسلامي، لذلك قد يكون المطلوب: الاعتذار عن الكلام للوفود التي تمثل جهات رسمية ليبقى تمثيلها شرفياً، والتي يمكن بتدخلها أن تخترق جدول أعمال الملتقى، ولا تكون مهيأة لطرح المواد المطلوبة بقدر ما تجيد عملية المجاملات الدبلوماسية التي ليس مكانها مثل هذه الملتقيات على الأقل؛ ويبقى الأمل قائماً في عزيمة القائمين على أمر الملتقى لتجنيبه مظاهر الانحياز كلها لأية جهة، رسمية كانت أو شعبية، ليبقى ويستمر كما بدأ ساحة للحوار الحر المنطلق من مفهوم الأخوّة الإسلامية الشاملة، ومنبراً للمسلمين كلهم.

الحضور الأفريقي..

وقضية أخرى لا بد أن نلفت إليها النظر، وهي ضرورة التفكير بشكل مبكر باختيار المدعوين، وأسماء المحاضرين المختارين للموضوع المطروح، وعناوين المحاضرات، ومحاور الأبحاث، واستقبال الموضوعات الرئيسة وطباعتها وتوزيعها على المدعوين والمحاضرين ليتم مناقشتها وتسجيل التعقيب عليها مسبقاً، وبذلك يتخلص القائمون على أعمال الملتقى والمدعوون جميعاً من المفاجآت والارتجال، وتأتي البحوث والتعقيبات أكثر نضجاً وأعم فائدة.

ولعلَّ من أبرز الأمور التي تميز بها الملتقى التاسع عشر لهذا العام: الحضور الأفريقي المكثف، وإتاحة الفرصة أمام المشاركين من أفريقيا للكلام

والحوار والتعقيب وتقديم الرؤية الميدانية عن وسائل وأساليب الغزو الثقافي للقارة التي تكاد تسقط فريسة للغزو الثقافي والهجمات التنصيرية المهملة من أهل الشأن من المسلمين.

فعلى الرغم من الكلام الكثير والكثير جداً على أهمية أفريقيا، وتقصير الدول الإسلامية في حمايتها من الغزو الثقافي والهجمات التنصيرية، والصراع السياسي والثقافي عليها، وتغلغل يهود فيها وتقديمهم الخبرات الفنية على مختلف الأصعدة، فنحن إلى الآن لم نقدم لها شيئاً يذكر، واكتفينا كالعادة بالكلام والانتصار العاطفي عن الفعل والممارسة؛ لذلك فإنَّ التفكير بالحضور الأفريقي والمشاركة الأفريقية قضية على غاية من الأهمية في إثارة الوعي والتبصير بأدوات ومظاهر الغزو الفكري، ووضع المفكرين من المسلمين في صورة القضية ليتحملوا مسؤوليتهم.

مرحلة ما بعد القمر الإعلامي

وتبقى المشكلة عندنا، نحن مسلمي اليوم، أننا نأتي دائماً في الزمن الأخير، يأتي إحساسنا بالمشكلة ومحاولة المعالجة بعد فوات الأوان، واستفحال المرض وإزمانه واستعصائه على العلاج؛ ولا تكون يقظتنا وصحوتنا إلاَّ بعد وصول خصومنا إلى مراحل التنفيذ، وقد نرفع الآيات القرآنية شعارات لنا ونعجز عن تمثلها، ويقتصر نصيبنا من رفعها وتلاوتها على التبرك بكلام الله تعالى دون القدرة على وضعه في المكان المطلوب من حياتنا ونفوسنا... ولسنا الآن بسبيل أن نذكر كثيراً من النماذج والأمثلة في إطار الأسرة وضرورة تعليم المرأة، وقضايا مناهج التعليم ووسائل الإعلام، إننا نفتقر دائماً إلى الاستشعار المبكر الذي يدعو إلى أخذ الحذر، والدفع أسهل من الرفع كما يقول الفقهاء.

وقد تكون المشكلة عندنا، كثمرة لتخلفنا وانتهائنا إلى مرحلة الغزو الثقافي الذاتي التي نعاني منها اليوم؛ وماذا بعد المؤتمرات والملتقيات؟ هل تنتهي مهمتنا بانتهاء أيامها وإصدار توصياتها؟ هل يوجد من يقوم بتحليل الأفكار، وتسجيل

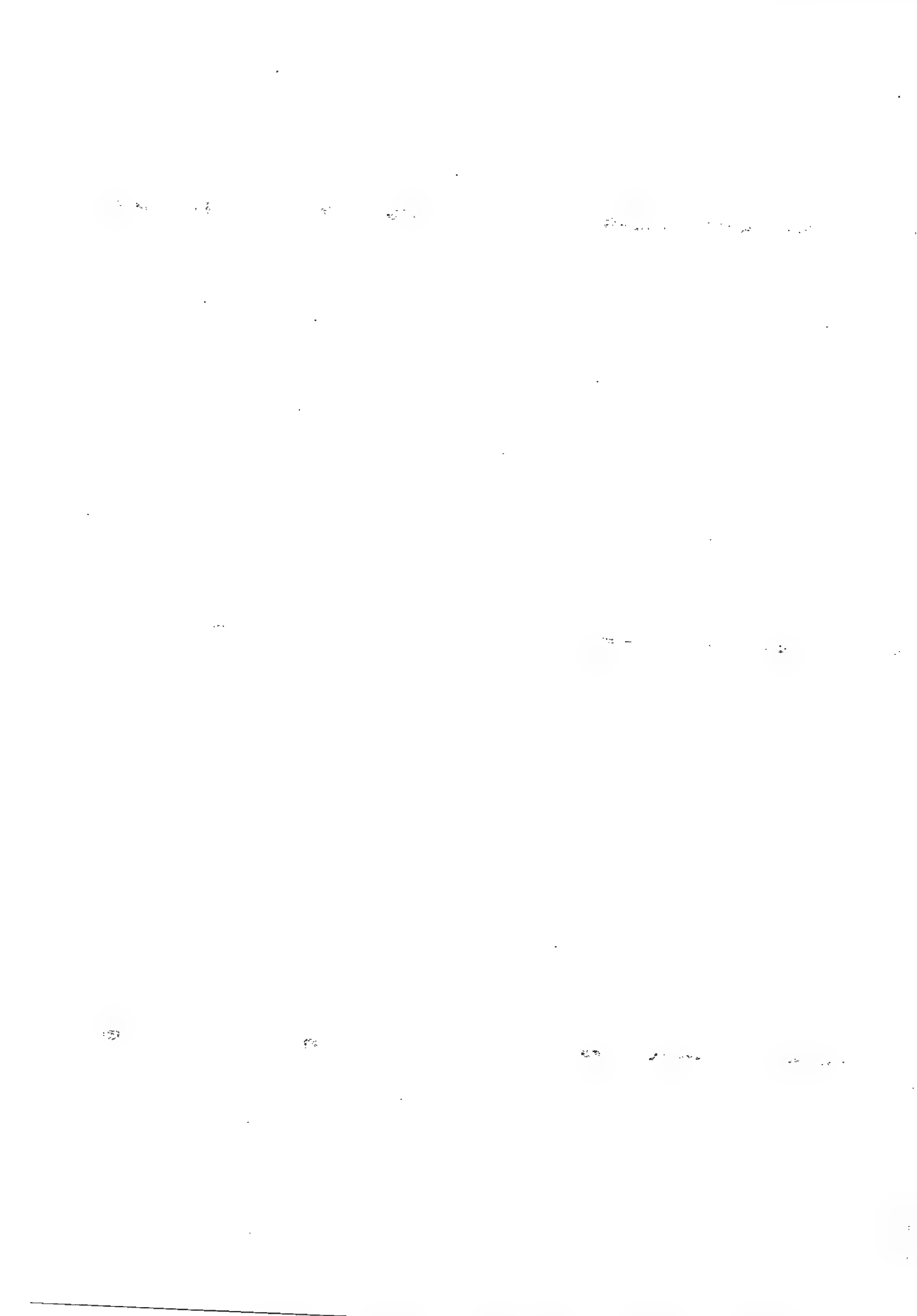
الاهتمامات، ورصد ردود الأفعال لتحديد الآفاق التي يقف عندها المسلمون اليوم؟ وما هي ـ نتيجة الدراسة ـ الثُّغَرُ الثقافية التي تستدعي المرابطة؟ وما هي الانهدامات والكسور التي تعاني منها الشخصية المسلمة؟ أم أن مؤتمراتنا عامة ستبقى فرصة للمساجلات الكلامية، والمطارحات الخطابية، والمدائح السياسية، وبذلك تكون فائدة عدونا منها أكثر منا، حيث نهيىء له بإرادتنا وأموالنا المساحات الكافية التي تحقق عمليات الرصد والمسح الفكري، واستطلاع الواقع، ومن ثم تؤمِّن له مزيداً من المعرفة التي تمهد له رسم سياساته الثقافية على أصول مدروسة، تضمن له استمرار تحكمه الثقافي الذي يستدعي بالضرورة التحكم السياسي.

واليوم وقد تطورت وسائل الغزو الفكري بشكل رهيب، وبدا عصر الدولة الإعلامية الواحدة، عصر الأقمار الإعلامية والإغراق الإعلامي الذي لا مكان فيه للعجزة وأصحاب الأماني وأحلام اليقظة، لسوف يقذف عالمنا الإسلامي يومياً من خلال الأقمار الصناعية الإعلامية بما يغيّر علينا نمط حياتنا، ويختطف أبناءنا ونساءنا، ويعيد صياغة اهتماماتنا وعواطفنا، وسوف يقتحم علينا بيوتنا وحجرات نومنا، فماذا أعددنا له؟! إن الدول التي تحترم نفسها، وتقيم وزناً لثقافتها الذاتية، تفكر اليوم بوسائل التحصين الثقافي والمواجهة الإعلامية لمرحلة ما بعد الأقمار الصناعية ـ نقلت بعض الأنباء أن «كوريا» تقوم بإجراء دراسات لوضع خطط المواجهة لمرحلة ما بعد القمر الإعلامي ـ ونحن لا نزال نحاول محاربة ومواجهة الأفكار بالوسائل الساذجة، ونظن أن الجندي، أو ضابط الأمن، أو الخفير الجمركي قادر بوسائله البسيطة ـ التي لا تعدو منع كتاب، وحجز صحيفة أو مصادرة مجلة ـ على تحصيننا ثقافياً في الوقت الذي تصل فيه هذه الأمور إلى بيوتنا قبل أن نصل نحن إليها..

وبعد: فنرى أنه لا بد من التفريق بين التبادل الثقافي والغزو الثقافي، ذلك أن التخويف والحساسية الزائدة غير المدروسة والمعقولة من الغزو الثقافي توقع الفرد المسلم اليوم بشيء من التخليط بين التبادل ـ والحكمة ضالة المؤمن ـ والغزو؛ وتحمله إلى مواقف الرفض المطلب الذي يعني وجهه الآخر: القبول

المطلق. والأمم التي تفتقد ثقافتها الذاتية واقعة في منطقة الغزو شاءت أم أبت، لأنها تعاني من فراغ لا بد أن يُملأ، والأرض العالية لا بد أن تفيض على الأرض الواطئة، ولو صرفنا جهودنا لضبط المقياس، وعلّمنا المسلم المنهج الذي يعتمده في القبول والرفض، وحسن الأخذ والردّ، لاستطعنا أن نحقق الحصانة الثقافية المطلوبة، ولكان ذلك أولى من الرفض المطلق الذي سوف لا نقدر عليه؛ والله الهادي إلى الصواب.

[صفر ١٤٠٦هـ - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٥]



المسلمون بين صواب الهدف وخطأ الوسيلة

إن لجوء علمائنا إلى المنهج التربوي للتحصين عند عدم امتلاك القدرة على التغيير الشامل، أعطى الثمار العظيمة التي ضمنت للأمة هويتها كما ضمنت لها التواصل والاستمرار، ولأعدائها الغياب والاندثار..

فأين الكثير من قادة الاستبداد السياسي، وأين تأثيرهم؟ لقد غابت صورتهم في التاريخ، وباؤوا بإثمهم، وأحاطت بهم خطيئتهم؛ بينما المعالم الهادية في تاريخنا، كانت للعلماء العاملين، وليست للسلاطين المستبدين.. فهل من سبيل إلى المقارنة بين عطاء الإمام أحمد بن حنبل والإمام الشافعي والإمام ابن تيمية والعزّ بن عبد السلام، وغيرهم كثير، في القديم والحديث رحمهم الله، وبين سلوك المستبدين الذين حاولوا سومهم وسوم أمتهم الخسف؟!.

* * *

القلق السوي..

الهاجس الدائب الذي يؤرق المسلم، والتحدي الذي يواجهه عندما يستشعر حدود مسؤوليته وأبعاد الأمانة التي حُمِّلها بعد أن أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، أو ما يسمى في المصطلحات الحضارية اليوم: القلق السوي، الذي يطارد الإنسان الفاعل، ويدفعه ويحرضه، وينمي شعوره بالتناقض الحاد بين واقعه المعاش، وقيمه التي يعمل على تجسيدها في حياته وحياة الناس، لإلحاق الرحمة بهم، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن

جور الأديان إلى عدل الإسلام... إن هذا الهاجس أو هذا القلق هو المهماز الحضاري، وهو أساس كل تغيير في العصور كلها، يبدأ الإحساس به داخل النفس، ومن ثم يستفيض ويمتد فيصوغ السلوك، ويكوِّن الأخلاق ويحكم علاقات الإنسان الخارجية، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

فإذا ما غاب هذا القلق على مصير الناس وما انتهوا إليه وانطفأت تلك الفاعلية، وانكفأ الفرد عن ذاته، وأعجبت الأمم والجماعات بأفكارها وتاريخها واسترخت ولم تحاول الصعود، بدأت مرحلة السقوط الحضاري، وخمدت جذوة الإيمان التي تمد بالطاقة لمتابعة المسير؛ إن هذا الهاجس هو الإيمان الذي يُشعر الإنسان بالتحدي من حوله، ويهديه إلى وسيلة الدعوة الناجعة وسلاح المواجهة المؤثر، وإلى مراجعة رصيده من الأفكار والوسائل حيث لا بد من الاستجابة لسنة الله في التغيير وتطوير الوسيلة في الدعوة، وتنويع أسلحة المواجهة أيضاً طبقاً لطبيعة الظروف وطبيعة العدو والإمكانات المتوفرة.

ونسارع إلى القول: إننا لا نطلب الإتيان بالمعجزات في نطاق العالم الإسلامي، أو العاملين للإسلام، وإنما المطلوب حقاً هو حسن توظيف الإمكانات الموجودة فعلاً لتحقق أفضل مردود، وجعلها قادرة على هزّ العالم الإسلامي وتحريك بركه الراكدة، والتأصيل لسنن المدافعة في الأرض، والاستفادة من الخبرات كلها التي تحقق الحماية للمستضعفين وتستنهضهم ليؤدوا الدور المنوط بهم...

لذلك يبقى المطلوب دائماً - أو الهاجس الدائم كما أسلفنا - في المواقع المختلفة وعلى الأصعدة كلها: إعادة النظر والقيام بعمليات المراجعة لوسائل العمل وطرائق نشر الدعوة، ومستلزمات البلاغ المبين: بعد أن استقر في وجدان المسلمين أن القيم الإسلامية هي الحق المحض، وساروا أشواطاً طيبة على طريق الالتزام، وتجدد انتماؤهم للإسلام، وهو ما أطلق عليه اسم «الصحوة الإسلامية المعاصرة» والإسلام محض حق، والحق يعلو ولا يُعلى عليه، قال

تعـالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَـافِرِينَ عَـلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيـلاً﴾ (النساء: ١٤١) والمنطق الطبيعي يقضي بأن ينتصر أهل الحق على أهل الباطل، والابتلاء بالهزيمة في بعض الجولات إن تحققت فيها العبرة والدرس والسداد لا تخرج في النهاية عن إطار النصر، لكن الواقع اليوم في كثير من بلدان العالم الإسلامي لا يتحقق فيه ذلك بالقدر المطلوب، أو بالمساحة المطلوبة، فالمسلمون مهيضـو الجناح، والبلايا تتابع على عالمهم، والإخفاق يترافق مـع حركـاتهم، الأمر الـذي قد يعرض القيم الإسلامية ذاتها عند بعض الناس لـلاهتزاز أمـام هذا الاختبـار الميداني الصعب: ويعرض نفوس بعضهم للإحباط والانكسار. . .

الإحباط.. واتهام المبادئ

وأمام هذا السيل الجارف من الفتن كان لا بد من التسليم ابتداء بأن هذا الفشل والانكسار، الذي تعاني منه بعض جوانب العمل الإسلامي اليوم إنما يتمركز في الوسائل ذاتها، التي قد تكون أصبحت غير مجدية في هذا العصر وقد تكون مخطئة في كثير من الأحيان، فكثير من المسلمات التي مضى عليهـا زمن طويل لم تناقش، ولم تراجع، وأقل ما يقال فيها، إنها لم تحقق الأمل المرجو منها، فهي مدفوعة بالواقع الذي نعاني منه، فالخطأ والخلل لا يمكن أن يخدم الحق ويوصل إليه.

فالسقوط والفشل والهزائم، التي هي من عند أنفسنا بسبب من وسائلنا المخطئة أو غير المجدية في نصرة ديننا لا بسبب منه، لا يجوز أن تمد لتصيب القيم ذاتها، وتنسحب عليها، وكان الأجدر بنا أن نراجع حساباتنا، ونختبـر صحة وسائلنا، لنحدد مكان الخلل وصور الخطأ التي أوصلتنا إلى هذه النتائج حتى لا نقع فيها مرة أخرى، لا أن يحملنا تتابع الإحباط والانكسار إلى أن نتهم المبادىء والقيم فنلجأ إلى محاصرتها وتحنيطها باسم المعاصرة، أو تمييعها باسم الواقعية، أو إبعادها باسم أنها دعوة مثالية لا يمكن تطبيقها اليوم، أو تقييدها باسم المصلحة، أو استبدالها بحجة تَبَدُّل الأعراف وتحت عنوان: لا ينكر تبدل

الأحكام بتبدل الأزمان؛ وقد يتطاول بعضنا أكثر، فيلقي بمسؤولية فشله على القدر إن لم يجد جهة خارجية يلقي بالتبعة عليها، فالمهم ألاَّ نعترف بأخطائنا ولو أدَّى بنا ذلك إلى التضحية بالقيم التي نعتقدها، ومخالفة كل منطق، ومغايرة طبائع الأمور.

فاعلية الإيمان..

ويكاد الإنسان يلمح لهذا الأمر بعض المعالم الهادية في غزوة أحد، حيث كان سبب الهزيمة: الخطأ في الوسيلة، وليس الخطأ في القيمة والمبدأ، فعلى مستوى العقيدة، والقيم والانتماء قال تعالى: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩).

أما على مستوى الوسيلة التي أخطأناها فأوصلت إلى الهزيمة وانتصار الكفر على الإيمان في هذه الجولة، فكان قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

إن الهزيمة في أحد هزَّت القيم ذاتها عند فئة فانقلبت على أعقابها، ودعت غيرها إلى اللحاق بدينها الأول أو كادت.. كانت هذه الفئة عاجزة عن تحديد موطن الخطأ حيث إنه في الوسيلة التي كانت سبب الهزيمة (العدول عن أمر القائد والطمع في الغنيمة، وليس في نصرة العقيدة) فارتكست... وكان قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِن عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ واضحاً في تحديد موطن الخطأ، ومن ثم كان قوله تعالى: ﴿ولاَتهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ [الاستعلاء بالإيمان] ليحمي من السقوط والإحباط والوهن والحزن والانكسار النفسي، ذلك أن الهزيمة التي حلت بالمسلمين كانت بسبب الخطأ في الوسيلة كما أسلفنا، إذ لا يمكن في تصور العقلاء ولا في تصور المؤمنين أن ينتصر الكفر على الإيمان، وما يمكن أن يحدث في هذا نتيجة الخطأ في الوسيلة إنما يكون للتربية والإعداد والتصويب والاعتبار والتدريب على تحديد موطن الخطأ واستدراكه مستقبلاً

لتسديد طريق المؤمنين، وإلاَّ كيف يمكن أن نتصور انتصار الكفر على الإيمان إذ لم نعْزُ ذلك إلى وسائلنا؟!

فإذا تحدد موطن الفعل المؤثر أو الموقع الفاعل، وتمت المراجعة المطلوبة في الدعوة والعمل الإسلامي الذي محله الوسائل والخطط أصبحت مقولة: ليس بالإمكان أفضل مما كان: مخدرة ومعطلة لنا فعلاً، وقاتلة لكل تطلع ونشاط، ومهرباً لإغلاق صفحة الماضي وعدم مناقشته وتحديد مواطن الخطأ فيه، وبذلك تمر بنا التجارب، وتتكرر النكبات، ويستمر فينا الارتكاس. فإذا لم يستبدل المسلم اليوم المعادلة، فيعتقد أنه بالإمكان دائماً الحصول على أفضل مما كان، وأفضل مما هو كائن أيضاً، ويكون ذلك هاجسه الدائم، وشعاره المستمر، فيبحث عن أسباب التقصير، فسوف لا يكون هناك نهوض، ولن يؤمل أي ارتقاء أو أي كسب للقضية الإسلامية... إنها حالة الوهن والحزن المستمر التي تغيب عندها معاني ودوافع الارتقاء والاستعلاء، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾ إنها فاعلية الإيمان التي لا تُطفأ، والنور الذي لا يدخل من أدق الثقوب فلا يمكن حبسه.

المراجعة وليس الرجوع

ونكاد نعتقد هنا أن الكثير من العاملين في حقل الدعوة الإسلامية لا يطيقون عملياً المراجعة على الرغم من رفعهم لشعاراتها، ويتهربون منها تحت شتى العناوين والمعاذير والتسويفات والمسوغات. وتكاد تكون أخطر قضية يعاني منها العاملون للإسلام، وتزيد من الارتكاس: عدم الاعتراف بخطأ الوسيلة وعدم جدواها، الأمر الذي يؤدي إلى الخلط وعدم التحديد، بين الوسائل المخطئة والأهداف المحقَّة، فيدافعون عن خطئهم في اختيار الوسيلة ويغطون فشلهم بالكلام عن صواب المبادىء والقيم، وبذلك يضعون أنفسهم في مرتبة فوق مرتبة الآدمية، وكل بني آدم خطّاء. وقد نقرأ في دفاترهم فلا نجد اعترافاً واحداً بخطأ رغم الواقع الأليم الذي نعاني منه على الأصعدة المختلفة، حتى لو

امتد الأمر وفُسر التقصير تفسيراً ينال من القيم ذاتها، المهم ألاَّ ينال من بعض الأشخاص الذين أصبحت ذواتهم وسلوكياتهم هي المقياس، ووسائلهم هي المعصومة، وكأنَّ قدر الله تعالى هو المسؤول عن أخطائهم والعياذ بالله. . . وقد نغطي فشلنا في تحقيق الهدف بسبب من خطأ الوسيلة (والكيِّس من دان نفسه) بتتبع عورات الآخرين واتهامهم وإطلاق الأحكام التي فيها الكثير من الظلم والقليل من الحق إلى درجة أصبح ذلك يشكل اليوم منحىً خطيراً في الدعوة إلى الله، إنه محاولة لصرف الأنظار عن أخطائنا ولفتها وتوجيهها إلى ما نقوم به من تضخيم خطأ الآخرين، فبدل الاستفادة من أية تجربة لأية جهة من جهات العمل الإسلامي والدعوة إلى الله ـ حيث إن ذلك يمكن أن يعتبر رصيداً مضافاً إلى تجاربنا ـ نضخم الأخطاء إلى درجة تُستَنشم منها رائحة الشماتة وبخس الناس أشياءهم علَّ ذلك يستر ويغطي ما نحن فيه.

وقد تكون المشكلة اليوم أن أعداء الإسلام الذين يخضعون أمورهم للدراسة والتحليل والتفسير ودراسة الدوافع أقدر على الاعتبار والاستفادة من تجارب العاملين في حقل الدعوة أكثر من بعض الإسلاميين أنفسهم، الذين حالت تربيتهم الخاصة وولاءاتهم الشخصية دون اعتبارهم بتجربتهم فانقلبوا إلى وسائل إيضاح تستحضر وقت اللزوم للاستدلال على فساد عهد وممارسة ظلم وقمع واستبداد سياسي.

إن أعداءنا ـ مع الأسف ـ كانوا الأقدر على الاستفادة من تجاربنا في رسم خططهم وفي محاربتنا، وكانوا الأقدر على توظيف جهودنا وجهادنا لمصلحتهم في أكثر من موقع على خارطة العالم الإسلامي، ولم يقتصر الأمر على ذلك وإنما تجاوزه إلى التأثير علينا في اختيار وسائلنا المخطئة وإلجائنا إلى ممارسات هي محل نظر من الناحية الشرعية حيث أصبحت الطرق التي رسمت لنا تملكنا ولا نملكها. . .

بين السهولة.. والاستحالة

وقد يكون الأمر المقلق حقاً أن العاملين للإسلام كانوا ولا يزالون الأقدر

على كشف مخططات وخطط الأعداء واستشعار نواياهم، لكنهم مع الأسف يصابون بالعجز عند الممارسة والقدرة على تجنب المعارك التي يفتقدون أسلحتها، بل قد ينقلبون إلى أسلحة تصفّي الحسابات بسواعدهم، ولعل مرد ذلك كله كامن في عدم تقويم التجارب السابقة وتحديد مواطن التقصير وأسباب القصور وخطأ الوسائل حتى لا تتكرر الحال، ولا بد من الاعتراف أيضاً بأن المشكلة التي يعاني منها بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية اليوم هي النظر إلى شراسة الأعداء ومخططاتهم وإمكاناتهم الظاهرة ويهوّلون الأمر إلى درجة تصاب معها الأصول النفسية الإيمانية والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ لتصل نتيجة الحسابات التي يجريها إلى ما يسمى بحالة «ذهان المستحيل» فيصاب بالعطالة عن الفاعلية، والشلل عن الفعل، فيتوقف عن المتابعة في نشر الدعوة ويفتقد قدراته الذاتية فضلاً عن تطلعه إلى تطويرها وإنمائها، كما نرى على الجانب الآخر كيف تتحكم ببعض العاملين كذلك ذهنية السهولة والبساطة، أو «الدروشة»!! فيعتقد أن الأمر من السهولة إلى درجة لا تقتضي البحث والنظر والتخطيط والدراسة، فيجيء تصرفه عشوائياً، ونشاطه أعمى، ويظن أنه يستطيع أن يقسم الدبابة والمدفع بضربة سيف أو طعنة رمح، ويخضع العالم لأمانيه، ويفوته تأمين الشروط المطلوبة، وإعداد العوامل الضرورية، المادية والنفسية، ويعدل عن السنة الجارية المتعبد بها والتي يملكها إلى السنة الخارقة التي لا يملكها، فيجلب البلاء عليه وعلى غيره من المسلمين...

صحيح أن مدد الله تعالى للمؤمنين لا ينقطع ولا يتوقف، ولن ينتهي، فعلى الرغم من التخفيف في قوله تعالى: **﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** (الأنفال: ٦٦) لا تزال القلة المؤمنة تغلب الكثرة الكافرة ـ مائة يغلبون مائتين ـ لكن بشرط أن يقود صفاء الإيمان وفرقان التقوى إلى صواب الوسيلة.

عطاء العلماء.. وسلوك المستبدين

والحقيقة التي لا بد من حضورها دائماً أننا لا نزال نفتقر في دعوتها

الإسلامية إلى تحديد الموقع الفاعل المؤثر والوسيلة الشرعية المجدية من خلال الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، والمدى الذي نستطيع الوصول إليه من خلال مجمل الظروف المحيطة، وعلى هدي التجارب السابقة.. لقد أدرك علماؤنا الاعلام ذلك بتواضع ودون تطاول، ولم ينفصل العلم عندهم يوماً عن الجهاد في تاريخنا الإسلامي الطويل، ولم تعرف الأمة الإسلامية الجهاد الأعمى، كما أنها لم تعرف اليأس، أي: لم يقعدها عن أداء الرسالة وإعطائها ذهنية يغتالها الشعور بالمستحيل، أو ذهنية تعميها السهولة التي تقود إلى عدم الإعداد والاستعداد والتخطيط، إلاً في عصور التخلق... وكان العلماء طلائع الجهاد، ولو حاولنا استقراء معظم الحركات الجهادية التغييرية ضد الاستعمار لرأينا حصونها، مساجدنا ومؤسساتنا الشرعية؛ وقادتها: العلماء العاملين، فكانت القوة المبصرة للتغيير؛ وهذه السمة الواضحة في تاريخنا يغفل عنها كثيرون اليوم - اقتران العلم بالجهاد - حيث ترفع رايات الجهاد في بعض الأحيان بنظر عليل وفقه كليل يعود على الأمة بالكوارث الماحقة...

فإذا كانت الإمكانات تسمح بالتغيير، كان العلماء العاملون في مقدمة الركب المجاهد... وإذا كانت الإمكانات لا تمكّن من التغيير والمواجهة للظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي كان الخيار البديل عن هذا التغيير هو التحصين ضد ذوبان الأمة وتأثرها بالانحراف، وضمان تماسكها وتواصلها، و﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا**﴾.

إن لجوء علمائنا إلى المنهج التربوي للتحصين عند عدم امتلاك القدرة على التغيير الشامل أعطى الثمار العظيمة التي ضمنت للأمة هويتها، كما ضمنت لها التواصل والاستمرار، ولأعدائها الغياب والاندثار: فأين الكثير من قادة الاستبداد السياسي وأين تأثيرهم؟

لقد غابت صورتهم في التاريخ وباؤوا بإثمهم وأحاطت بهم خطيئتهم، بينما المعالم الهادية في تاريخنا كانت للعلماء العاملين وليست للسلاطين المستبدين... فهل من سبيل إلى المقارنة بين عطاء الإمام أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، والإمام ابن تيمية، والعزّ بن عبد السلام وغيرهم كثير في

القديم والحديث رحمهم الله وبين سلوك المستبدين الذين حاولوا سومهم وسوم أمّتهم الخسف؟!

وقد تتركز المشكلة اليوم في أن الدنيا تغير من حولنا بسرعة مذهلة ونحن نصر على ألاَّ نتغير، لا في أشخاصنا، ولا في طبيعة عملنا، ولا في وسائلنا، ونعتقد أن اعترافنا بأخطائنا وتغيير وسائلنا على ضوء المتغيرات الجديدة ينال من ذواتنا، وكأنَّ المهم عندنا ألاَّ تُمس الذات ولو دمرت الجماعات والمجتمعات!!

إعادة تشكيل الصورة

لقد تغيرت صورة المجتمعات الحديثة، وتطورت شبكة العلاقات الاجتماعية وترافق مع هذا ظهور مشكلات وتحديات على أكثر من صعيد، وبرزت مؤسسات جديدة وتغيرت صورة ووظيفة الدولة الحديثة، وقدمت التكنولوجيا للسلطات السياسية ما يضاعف حواسها ومعلوماتها وإمكاناتها حتى لتكاد تكون التكنولوجيا كلها اليوم في خدمة السلطان، وبرزت مشكلات لا يمكن أن توصف إلاَّ بأنها عالمية، ودخل الإعلام مرحلة السلاح الاستراتيجي، وتراجعت الأسلحة المادية إلى الخطوط الخلفية إلى درجة أصبحت الاتصالات السلكية واللاسلكية ـ حتى الإشارات الخاصة بين الدول وسفاراتها ـ مرصودة ومقروءة بشكل مذهل، وتقدمت وسائل الاتصال، وتفجرت ثورة المعلومات ومراكز التصنت والتجسس العالمي (لقد اعترف دايان بأن الحرب الإعلامية التي خاضها مع خمسمائة صحفي أمريكي وبريطاني وفرنسي هي التي ساعدت على تثبيت الصورة الأسطورية للجيش الإسرائيلي لدى الرأي العام العالمي) وظهرت الدولة العالمية... لقد أصبح العالم كله أشبه بدولة واحدة، وما يقع في دولة يجب أن ينعكس بالضرورة على الدول الأخرى في التأثير والتأثر، وسوف لا تكون أية حركة دون رصد عالمي وتأثر عالمي؛ إن النظرات الإقليمية مهما كانت دقيقة وصائبة وصحيحة يبقى استقراؤها ناقصاً إذا لم تأخذ باعتبارها المعطيات الحديثة للصورة العالمية أو الدولة العالمية والمخططات العالمية.

لقد مرَّت الدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل بتجارب متنوعة، وسلكت طرقاً شتى للتغيير، ومناهج متنوعة للتربية والتحصين عند العجز عن التغيير، وعلى مستوى العصر الحاضر أيضاً كانت تجاربها غنية ومتنوعة على امتداد خارطة العالم الإسلامي والعالم (كانت هناك تجارب للمعارضة السياسية أخذت أكثر من شكل، وتجارب أخرى للمواجهة السياسية، وتجارب في المشاركة السياسية، كما كانت هناك تجارب أخرى في المهادنة والمسالمة) وعلى الرغم من غنى هذه التجارب يرى الإنسان محدودية الاعتبار، لقد وصلت طروحات العاملين للإسلام في بعض البلدان إلى درجة من التساهل وتمييع المفاهيم قد تكون محل نظر من الناحية الشرعية حيث اعتبر اختيار الكفر من مقتضيات حرية الرأي ومستلزمات الديمقراطية: ومع ذلك جاءت معطيات التجربة عجيبة وغريبة، وقد يكون من الصعب استرداد الماضي وإعادة تشكيله، لأن من السهل جداً أن نتخلص ونخلِّص حقل الدعوة الإسلامية من الوسائل المخطئة ومن التحديات غير المسؤولة للشرق والغرب والشمال والجنوب التي لم تؤد إلى أيَّة نتيجة في خدمة الإسلام والمسلمين وإنما أظهرتنا على غير حقيقتنا، وأغرت بنا أعداءنا، فهل من سبيل إلى إعادة تشكيل صورتنا على ضوء واقعنا وإمكاناتنا؟!

[شعبان ١٤٠٥هـ - نيسان (أبريل) ١٩٨٥م]

حتى يتوقف الخداع للذين آمنوا

. . . كثيرون أولئك الذين يدخلون علينا باسم الصلاح، والتقوى، والإيمان، والغيرة المفاجئة على القضية الإسلامية والمصلحة الإسلامية، وتحقيق المعاني الإسلامية الغائبة. . إنه إيمان المناسبات الذي تكرر كثيراً في حياة المسلمين ولا يزال؛ عندما يكون طرح شعار الإيمان والإسلام مناسباً للابتزاز السياسي، واقتناص شعور المسلمين البسطاء لمرحلة تقتضيها الظروف والأحوال، فيبدأ التمسح بالدين والتقرب من المتدينين لمرحلة انتخابية أو سياسية، أو بين يدي معركة عسكرية، أو لدعم كيان أو نظام يوشك على الانهيار. . ثم لا يلبث الإسلام والمسلمون أن يكونوا أول الضحايا. . .

* * *

أمّة الاستجابة.. وأمّة الدعوة

من الحقائق الأساسية التي يشهد لها التاريخ والواقع معاً أن الإسلام هو منهج الله تعالى للبشر جميعاً، وأنه ليس حكراً على جنس أو لون أو قوم أو طبقة اجتماعية أو جماعة أو حزب أو فترة تاريخية دون سواها، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سبأ: ٢٨)، وأنه أول من دعا إلى المواطنة العالمية ومارسها على مستوى التطبيب، وأخوة العقيدة، والدولة الإنسانية، ووضع معايير التفاضل والكرامة، وناطها بكسب الإنسان واختياره ليتحقق بذلك تكافؤ الفرص. ويؤصّل العدل، وينتفي الظلم في الأرض، ذلك أن الألوان والأجناس والأقوام وما إليها من المرتكزات الأخرى أمور قسرية خَلْقِيَة،

لا يد للإنسان فيها، فكيف يمكن أن يكون من المقبول عقلاً وعدلاً أن تصبح معايير للفضل والكرامة على مستوى المواقع والمراتب في الدنيا، أو على مستوى الثواب والعقاب في الآخرة؟ قال تعالى: **﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾** (الحجرات: ١٣).

ولم تكن هذه الحقيقة التي تمثل روح الحضارة الإسلامية وخلودها محل نظر أو اجتهاد أو مساومة أو مهادنة منذ اللحظات الأولى لنزول الوحي، والخطوات الأولى للمجتمع الإسلامي، فالخطاب كان للناس جميعاً، والاستجابة كانت من الناس جميعاً، دون تمايز. ولأمر يريده الله تعالى ضم المجتمع الإسلامي الأول بلالاً الحبشي، الأسود اللون، وسلمان الفارسي الجنس، وصُهيباً الرومي الأصل، إلى جانب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله عليهم جميعاً؛ وكان الفقير بجانب الغني في العبادة وفي المجلس الواحد لتأصيل هذه الحقيقة... وعبثاً يحاول زعماء قريش ورؤساؤها وأغنياؤها ممارسة الضغوط، وليس أقلها الحط من قدر المجتمع الجديد والحكم عليه من خلال المعايير الجاهلية: **﴿أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا﴾** (الأنعام: ٥٣) بنوع من الاستنكار والتوهين والتحقير، فيجيء الجواب الحاسم الجازم، ويقرر المقياس المنضبط **﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَم بِالشَّاكِرِينَ﴾** (الأنعام: ٥٣) وتؤكد الآيات ذلك بشكل لا مجال معه للاجتهاد أو الاحتمال أو التأويل في قوله تعالى: **﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُون وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِم من شيء﴾** (الأنعام: ٥٢) إلى أن يقول جلّ وعلا: **﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِين يُؤْمِنُون بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾** (الأنعام: ٥٤) فالمعيار إيمان وكفر وليس غنىً وفقراً ووجاهة...

وجاء العطاء الحضاري والثقافي الإسلامي ثمرة لهذه الدعوة الإنسانية، وهذه المعايير في الكرامة والتفاضل، وشاركت فيه الأجناس والأقوام والألوان كلها إلى درجة أصبح معها نسيجاً متماسكاً، لونه إسلامي، يصعب معه التمييز والفصل في اللون أو القوم أو الجنس. والمحاولات كلها التي بذلت في هذا السبيل لجعله قومياً أو طبقياً كان مصيرها الفشل، فباب الإسلام مفتوح لكل

قادم، ومن الخطأ العقيدي والتاريخي والحضاري ربط الإسلام بجنس أو جماعة أو حزب أو قوم، بل قد يكون هذا أخطر على الإسلام والمسلمين من أعدائهم، ولا شك عندنا أنها إحدى الحفر والشُرُك التي نصّبها العدو، ليُسقط فيها بعض المسلمين، فيحط من قدرهم ويوقعهم في المحاصرة.

فإذا تقرر أن مقياس الفرز الذي يعتمده الإسلام إنما هو في الاستجابة لحقائق الدين أو عدم الاستجابة، فالذين آمنوا هم الذين يتشكل منهم المجتمع المسلم. ودار الإسلام، والأمة المسلمة. أمة الاستجابة. والكفار هم الجهة التي لّما تستجب بعد، والذين يشكلون، أمة الدعوة، أي لا يزالون محلاً لنشر الإسلام ودعوتهم إليه.

دليل التعامل.. ومعيار الاختيار

وقد يكون الأمر المطروح على الساحة الإسلامية اليوم - ولا بد لنا من الاعتراف هنا بأنه لا يزال بحاجة إلى مزيد من النظر والاستدلال - والمطلوب داخل «أمة الاستجابة» نفسها والتي لا بد أن يكون وضعها سليماً، ومجتمعها متيناً. لتكون قادرة على النقل الثقافي والحضاري لـ «أمة الدعوة» وأداء رسالتها في الشهادة على الناس - هو التذكير بضرورة استخدام المعايير التي وضعها الإسلام. والانضباط مع هذه المعايير في تحديد مواقع الأفراد في المجتمع الإسلامي. ومدى التعامل معهم، والإمكانات والخصائص والصفات التي يمتلكونها حتى تؤهلهم لبعض المهام في الحياة الإسلامية، ذلك أن الأعمال في الحياة متفاوتة، وبالتالي فهي تتطلب مهارات وخصائص وصفات متفاوتة. ولن نخرج من عهدة التكليف بأداء الفروض الكفائية، وتحقيق الإتقان في العمل، والاقتراب من الكمال في الأداء إلاّ بحسن الاختيار للمسؤول في كل موقع ضمن المجتمع الإسلامي نفسه من خلال خصائصه وصفاته وإمكاناته وخبراته وسلوكه وكسبه وماضيه، وفي اعتقادنا أن ذلك لا يتعارض مع إيمان المؤمنين وتقوى المتقين، ذلك أن الإيمان هو الشرط الضروري الذي يتم بعده الاختيار على

الساحة الإسلامية، وكثيرة هي المؤسسات الإسلامية والأعمال الإسلامية اليوم، التي يقوم عليها رجال قد لا ينقصهم التوثب الروحي والإيمان والإخلاص والحماس، وإنما الذي يعوزهم الإمكانات والخصائص والتخصصات والخبرات، التي تجعلهم أهلاً لمثل هذه المهام، فليس مجرد الإيمان يجعل الشخص مؤهلاً للمهمات والأعمال كلها، قادراً على القيام بها وحسن أدائها؛ فالإيمان، كما قلنا، شرط لا بد منه، ثم لا بد بعد ذلك من البحث عن المؤهلات والقدرات الأخرى، فمجتمع المدينة القدوة لم يكن مجتمع فوضى وعبث وضياع وتداخل في الأعمال وبعثرة للجهود، كل إنسان فيه يدعي أنه يحسن الأعمال كلها، ويرشَّح لكل شيء، ذلك أن الذي يدعي معرفة الأشياء كلها لا يعرف شيئاً، وإنما مجتمع المدينة القدوة كان مجتمعاً اتضحت فيه خصائص ومميزات أفراده من خلال التجربة الميدانية، فكان الرسول ﷺ على ساحة المؤمنين نفسها لا يسلم الراية إلاَّ لمن يختاره من القادة، ولا يختار القادة إلاَّ من ذوي الكفاءات العالية والقدرات الخاصة، والذي يصلح لقيادة الجيش قد لا يصلح لولاية الأمر وللتفاوض وحمل الرسائل للملوك، ولم يقتصر هذا الاصطفاء على ساحة الحرب، ففي مجال الولاية مُنِع أبو ذرّ منها: عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذرّ إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلاَّ من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها» [رواه مسلم وأحمد].. ولأن أبا ذر ليس مؤهلاً لها، لم يحط ذلك من قدره، أو من إيمانه، فالرسول ﷺ أخبره بأنه سَيُبْعَثُ أمةً وحده.

وفي مجال التخصصات العلمية من منّا لم يطلع على قول الرسول ﷺ في تحديد إمكانات أصحابه ومؤهلاتهم بقوله: «أقرؤكم فلان... وأفقهكم فلان... وأفرضكم فلان...»؟ وأبو بكر رضي الله عنه خليفة رسول الله ﷺ التزم معيار الاختيار للمهام على ضوء المؤهلات والبلاء في الإسلام، فاختيار زيد ابن ثابت رضي الله عنه لجمع القرآن إنما جاء للمعاني التي توفرت له دون غيره من قوة حافظته، وجلده، وعدم اتهامه في دينه، واستمراره حكماً عند الاختلاف

في القراءة على عهد عثمان رضي الله عنه، وكان سلوك الإنسان وماضيه دليلاً لأبي بكر رضي الله عنه على مؤهلاته (كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وعياض ابن غُنم رضي الله عنهم، أن استنْفرا منْ قاتلَ أهل الردَّة، ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ. ولا يغزون معكم أحد ارتدّ حتى أرى رأيي: فلم يشهد الأيام مرتد) [الطبري: ٣/٣٤٧].

كان سلوك الإنسان وماضيه هو دليله - رضي الله عنه - للتعامل والاختيار، وقد يكون ممن تاب وحسنت توبته، لكن ذلك يبقى بينه وبين الله تعالى. وهكذا سلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسلك نفسه في الاختيار، وفقهه في هذا الباب دليل هادٍ. قال رضي الله عنه: (لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ كمن قاتل معه) (وفرض لأهل بدر - عصابة الإسلام الأولىٰ - وفضَّلهم على غيرهم، وفرض للمسلمين على أقدارهم وتقدمهم في الإسلام). [طبقات ابن سعد: ٣/٢٩٦] (فكان الرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغَناؤه في الإسلام) [الطبقات: ٢/٢٩٩] هذه الموازين كانت على الساحة الإسلامية، والله تعالى يقول: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الحديد: ١٠).

إيمان المناسبات..

إنها المعالم والبدايات التي رسمها الرسول ﷺ، والتي كانت تتناسب مع تركيب المجتمع الإسلامي الأول ووظائفه في ذلك الوقت، والتزمها الأصحاب من بعده ﷺ والتي لم يستطع المسلمون بعد ذلك المواصلة فيها على المستويات والأصعدة كلها، أو لعلَّهم في عصور الانحطاط أهملوا الالتزام بهذه المعايير والمواصفات فاختلط عندهم الحابل بالنابل.

ويأخذ الإنسان العجب عندما يطَّلع على ما ورثناه من علماء الحديث في هذا المجال الذي أُصِّلَ له حتى أصبح الجرح والتعديل علماً له قواعده وكتبه؛

ولو قبلوا رواية كل راوٍ لمجرد إيمان الإنسان أو إخلاصه دون نظر إلى المؤهلات التي تمكنه من الرواية، من التوثيق والحفظ والعدالة والضبط وعدم النسيان، لاختلط الكثير من حديث رسول الله ﷺ بكلام الناس؛ إن الموازين الدقيقة لعلم الجرح والتعديل، والمقاييس المنضبطة التي على ضوئها يكون القبول والرد للراوي وروايته، يمكن أن تكون معالم هادية للأمة المسلمة اليوم التي افتقدت المعايير حتى عَمِيَتْ عليها الأمور، وعجزت عن إيجاد الأمور إلى أهلها؛ إنه الاختلال الذي يكون في آخر الزمن بين يدي الساعة وإحدى أماراتها حيث يوسَّد الأمر لغير أهله، لقد أصبحنا كلّنا أهلاً لكل أمر. . .

وهنا لا بد من إيضاح قضية قد تختلط فيها الأفهام وتتداخل الأمور، وهي أن جرح راوٍ عند علماء الحديث لا يعني دائماً الطعن في دينه، فالطعن في دينه لا يؤهله ولا يجعله محلاً للنظر أصلاً، وإنما هي صفات وإمكانات يُنظر فيها بعد توفر شرط الإيمان، فكثيرون من علماء الحديث كانوا مع اعتقادهم بصلاح فلان يردون روايته لعدم ضبطه أو لنسيانه، وحسبنا قول بعضهم، نُقَبِّلُ يده لصلاحه ولا نقبل حديثه لوهمه أو نسيانه أو عدم ضبطه. . . إن هذه القضية اختلطت عند المسلمين وتداخلت إلى درجة أصبح يصعب معها التمييز والاختيار، وكثيراً ما تعاني الأعمال الإسلامية من وجود أهل الثقة والإخلاص، وافتقاد أهل الخبرة والاختصاص والصواب، بدافع أن المرشح ذو دين وإخلاص، علماً بأن قضية الإخلاص قضية مُغيَّبة مردها إلى الله تعالى، لا تنضبط وليس بمقدور الإنسان الاطلاع عليها والتحقق منها، لأنها من المعاني الباطنة غير المنضبطة على رأي الفقهاء، لذلك لا يمكن اعتمادها مقياساً، وإنما يقوَّم الإنسان بعمله الظاهر وكسبه المنظور.

إن هذا الاختلال في المعايير، وهذا التداخل في الأمور على الساحة الإسلامية سمح لألوان من المخادعة والمخادعين الذين يتدثرون بثياب الوعاظ والدعاة والقادة المؤمنين المنقذين بالتسلل إلى الصفوف فزادها ذلك ارتكاساً وإحباطاً، وأوجد خروقاً في الصف الإسلامي لا يزال ينوء بحملها. . . فكثيرون أولئك الذين يدخلون علينا باسم الصلاح والتقوى والإيمان والغيرة

المفاجئة على القضية الإسلامية، والمصلحة الإسلامية، وتحقيق المعاني الإسلامية الغائبة، إنه إيمان المناسبات الذي تكرر كثيراً في حياة المسلمين ولا يزال؛ عندما يكون طرح شعار الإيمان والإسلام مناسباً للابتزاز السياسي، واقتناص شعور المسلمين البسطاء لمرحلة تقتضيها الظروف والأحوال، فيبدأ التمسح بالدين، والتقرب من المتدينين لمرحلة انتخابية أو سياسية، أو بين يدي معركة عسكرية، أو لدعم كيان أو نظام يوشك على الانهيار، ثم لا يلبث الإسلام والمسلمون أن يكونوا أول الضحايا. . . إن هذه الحالات تتكرر اليوم على أكثر من موقع على الساحة الإسلامية، وفي إطار بعض جوانب العمل الإسلامي الذي يفترض فيه أن يكون أكثر كسباً ويقظة وانضباطاً مع المعايير الإسلامية؛ لقد افتقد كثير من المسلمين المعيار السليم للأشياء فزلّت أقدامهم، وضلّ سعيهم، وضاعت عليهم الجهات، وكثرت الانكسارات على الطريق الإسلامي، وغابت فراسة المؤمن الذي ينظر بنور الله عزَّ وجل وفرقان المتقي، وتكرر رفع شعار؛ «من خدعنا بالله خُدعنا به». وغاب شعار: «لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين».

ظاهرة أتاتورك

وقد تكون المشكلة كامنة في الصورة التي انتهت إليها الذهنية الإسلامية اليوم من بلاء النسيان، ذلك أن الأفراد كالأمم، لهم ماضٍ يشكل تاريخهم، وهذا التاريخ يشهد لهم أو عليهم، فإلى أي مدىً نستطيع أو نمتلك إسلامياً أن نلغي أو أن نهمل تاريخ الإنسان الطويل، ونمحو صفحة سوابقه، ونتجاهل سلوكياته ولا نعتبرها دليلاً لحاضره واستقراء لمستقبله؟ إن تاريخ الإنسان هو المفتاح الأساسي الذي يشكل المدخل السليم لفهم شخصيته، وتحديد ملامح سلوكه وتصرفه المستقبلي إلى حدٍ بعيد، وإذا أردنا اليوم أن نحدد موقع أية أمة على السلم الحضاري الإنساني، ونستقرىء قدرتها على النهوض فدليلنا إلى ذلك تاريخها الذي ترتكز إليه، وعقيدتها التي تعتنقها، ومدى صلاحية هذه العقيدة للحياة الإنسانية، ونصيبها من التطبيق والممارسة في التاريخ والواقع معاً؛

والمفارقة العجيبة أننا نحن المسلمين نصر على أن ماضي الأمة هو دليلنا على صناعة مستقبلها إلى درجة سمحت لخصوم الإسلام بوصفنا بـ «التاريخيين» الذين حصروا أنفسهم بالماضي فقط، ومع ذلك فإننا أول ضحايا السقوط في الشراك والفخاخ المنصوبة لنا من الذين يخادعوننا باسم الدين ويلبسون مسوحه، وما أسهل أن ننسى ماضيهم ومواقفهم، وتختلط عندنا الأوراق بسهولة، ونوظف بعض الآيات والأحاديث لتسويغ واقعنا المتردي: بقولنا: «عفا الله عما سلف» و«الإسلام يجبُّ ما قبله» متناسين أن ذلك إنما يكون في مجال الثواب والعقاب، وأن قبول توبة العاصي موقوف على أداء حقوق العباد، إذ لا يمكن أن يرتكب الإنسان الجرائم والمعاصي، ويعتدي على الناس، ثم يتخذ من التوبة وإعلان التمسك بأهداب الدين ملجأً يفر إليه من آثار عدوانه، وقد يقفز فوراً إلى مكان القيادة؛ ومن هنا كان تفريق الفقهاء بين حقوق الله وحقوق العباد، ولعل من ذلك ما أعلنه رسول الله ﷺ عن بعض المجرمين الذين لم يقبل إعلانهم للإسلام إلغاء جرائمهم: «اقتلوهم ولو تمسكوا بأستار الكعبة» وأبو بكر رضي الله عنه عندما نهى عن الاستعانة بمن سبق له أن ارتد في جهاد عدوٍ كان يعلم بأن الإسلام يجب ما قبله من الذنوب والآثام إن حسن الإسلام. لكن ذلك لم يغب أو يلغي سلوكه الذي يعتبر دليلاً لكيفية التعامل معه... فكيف والحالة هذه يكننا نحن أن نلغي تاريخ الإنسان وسلوكه الماضي لمجرد موقف أو مظهر قد لا نكون قادرين تماماً على إدراك دوافعه... إن جراحات المسلمين ممن خادعوهم باسم الدين، ومن ثم كانوا أدوات لتكريس الإلحاد، وجسوراً لمرور العمالة السياسية والفكرية إلى العالم الإسلامي لا تزال نازفة، فظاهرة «كمال أتاتورك» الذي تمسَّح بالإسلام والغيرة على المسلمين، وحمل المصحف وطاف بالجنود مشجعاً إيَّاهم على الوقوف بجانبه ليصل إلى مأربه، حتى وصل إلى درجة استعاد به بعض شعرائنا سيرة سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، بقوله:

«يا خالد الترك جدِّد خالد العرب»

فكان في الحقيقة السيف الذي سلّط أول ما سلّط على الرقبة المسلمة وما

أكثر الذين لبسوا ويلبسون ثياب «أتاتورك» في العالم الإسلامي حيث لا تزال تتكرر في عالمنا هذه الظواهر بصور وأشكال متعددة، ولسنا الآن بسبيل الاستقصاء لذلك، وليس بعيداً عن ذهننا كيف أن «نابليون» الذي غزا مصر أعلن إعجابه بالإسلام، وغيَّر اسمه، وخادع بعض المسلمين، وكيف أن كثيراً من الماركسيين اليوم في العالم الإسلامي بعد أن اكتشفوا أن بوابته موصدة أمام أفكارهم راحوا يفتشون عن المداخل التي تمكنهم من الوصول إلى الشخصية الإسلامية من خلال بعض مبادىء الإسلام نفسه، ولا مانع في سبيل ذلك عند بعضهم من الظهور بالمظهر الإسلامي إذا كان الدور الذي نيط به يتطلب ذلك!! فإلى متى يبقى المسلم سهل المأخذ؟!

تفسير الظواهر السلوكية..

ومع الأسف لم تنج بعض جوانب العمل الإسلامي من هذا التسلل الذي يتم غالباً ضمن الأنفاق المظلمة والممارسات السرية؛ وفي رأينا أن الذهنية الإسلامية بشكل عام لم تحاول بعد الدخول إلى دراسة الدوافع والأسباب التي تكمن وراء سلوك معين، وتستهدي بالتاريخ والماضي السلوكي للأشخاص، ذلك أن تحديد الدوافع. وتفسير الظواهر السلوكية يفيدها كثيراً في تحديد المواقف والتعرف على كيفية التعامل، فلا نخدع، لأن الجحور والفخاخ المنصوبة للمسلمين عميقة القاع.

إن تحديد المواقف وتحليل الشخصيات على ضوء ماضيها وسلوكها أصبح علماً له مرتكزاته ونتائجه التي لا تكاد تخطىء، وإن كانت لا تصل إلى درجة الصرامة الرياضية، لكنها على كل حال من أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ وقد يفيدنا كثيراً اليوم منهج علماء الحديث الذي يقدم الشك على اليقين أداء للأمانة الإسلامية.

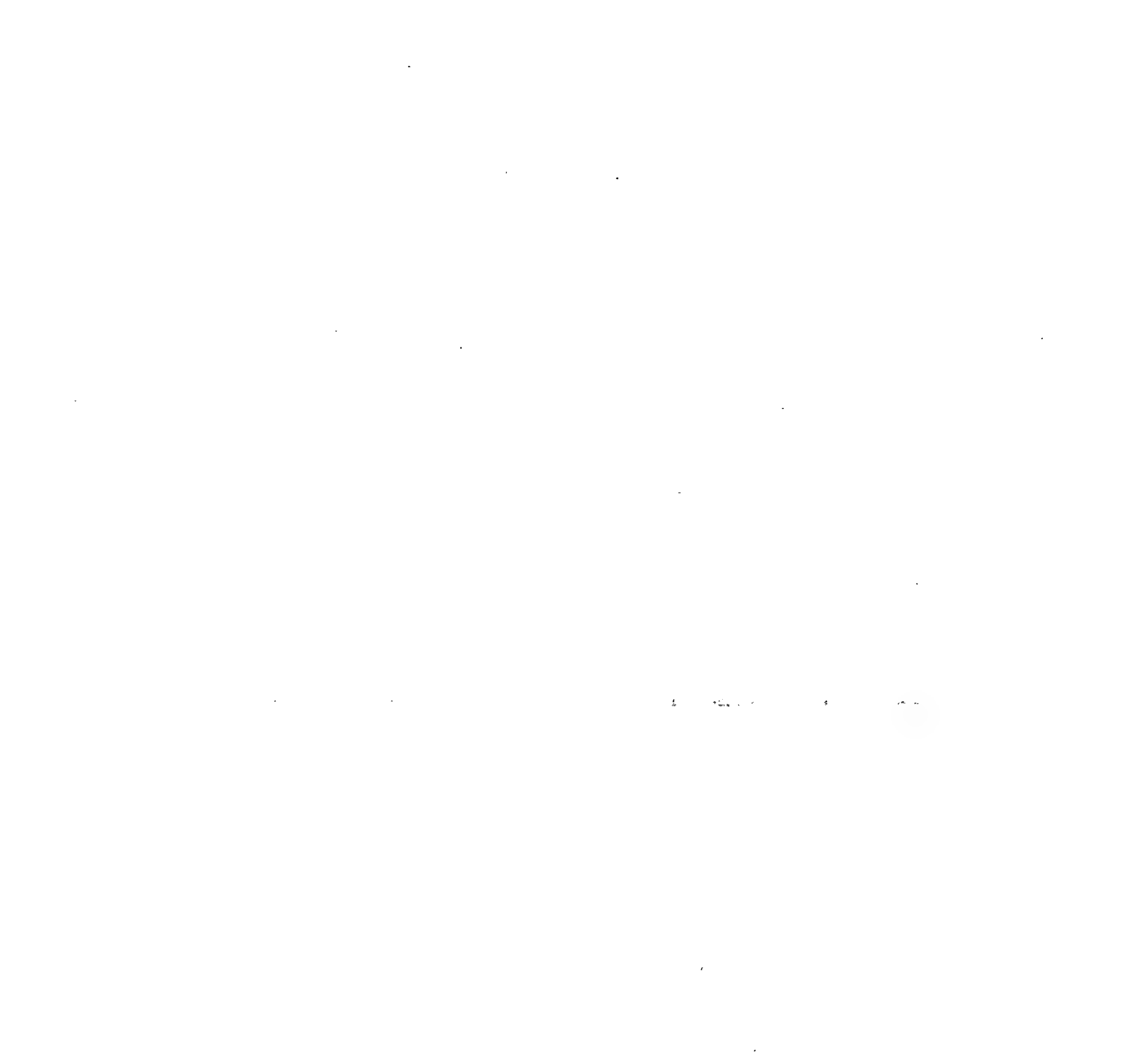
لقد أصبح لكل إنسان عند الأمم المتقدمة ملف، هو أشبه بـ «صحيفة السوابق» التي تحتفظ بها سلطات الأمن، ليكون دليلاً لتوجهاته، واستقراء

لمستقبله والتنبؤ بمواقفه وتصرفاته مسبقاً، فيكون الحذر، ويكون التعامل السليم. . . وظواهر المخادعة باسم القيم والمبادىء موجودة في كل زمان ومكان، لكن مخاطرها تتعاظم عندما يضعف المجتمع، ويفتقد معاييره التي تشكل الأسلحة الحقيقية لحمايته، فالمجتمع الإسلامي الأول لم يخل من ظاهرة النفاق ووجود المنافقين الذين عاشوا ضمن الصف الإسلامي، ورفعوا شعائر الإسلام حتى إن زعيمهم «عبدالله بن أبي بن سلول» ـ الذي كان يُصنع له الخرز ليتوج قبل الإسلام زعيماً على المدينة التحق بالركب الإسلامي الذي أصبح قدراً لا يمكن الخروج عليه ـ كان يصلي في الصف الأول، ويحسن الاستماع إلى الرسول ﷺ وهو يخطب، حتى وصل به الأمر إلى تعنيف كل من لا يحسن السماع، لكنه في الحقيقة هو الذي تولى كبْر الإفك وبدأ بالتخريب من بيت الرسول ﷺ وأثار الاضطراب والعصبية الجاهلية في غزوة بني المصطلق، وانعطف من قَبْلُ بكثير من الناس ونكص على عقبيه يوم أحد؛ ولم يتورع المنافقون عن بناء مسجد الضرار ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (التوبة: ١٠٧) لكن قوة المجتمع الإسلامي وسلامة معاييره حالت دون سقوطه في حفر المنافقين، لقد بيَّن الله تعالى من الخصائص والصفات والأعمال والسلوكيات التي لو وعيناها لجعلتنا في مأمن من النفاق والمنافقين، لكن بشرط أن نستعملها كمقاييس تشكل أسلحة الحماية ـ كما أسلفنا ـ للأمة، فعلى الرغم من ظهور المنافقين بالصورة الإسلامية، وشدة حماسهم لها في بعض الأحيان، إلاَّ أن ذلك لم يغير من تعامل المجتمع الإسلامي معهم، ولم يوكل الرسول ﷺ لهم أية مهمة ذات شأن، على الرغم من ديمومة معاملتهم معاملة إسلامية، وقبل وفاته ﷺ ائتمن على أسمائهم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ليبقى صمام أمن لمجتمع المسلمين، فلا يتسللون إلى المواقع الإسلامية الفاعلة المؤثرة.

فهل يعي المسلمون اليوم، فيأخذوا حذرهم، وتبدأ في حياتهم مرحلة استعمال المعايير الإسلامية في تقويم الأشخاص وحسن التعامل معهم في ضوء

ذلك سواء على الساحة الإسلامية ـ وهي الأهم ـ أو على الساحة العالمية بشكل عام، بشرط أن يتوقف شد هذه المعايير باتجاه المواقف الشخصية والحزبية لتبقى معايير موضوعية موصلة إلى نتائج موضوعية صادقة؟! وهل يعتصم المسلمون بهذه المعايير في الحكم على الأشخاص وكيفية التعامل معهم؟! وهل يلتزمون منهج عمر بن الخطاب رضي الله عنه بضرورة الاختبار السلوكي التعاملي للإنسان وعدم الاكتفاء بمظاهر العبادة وأردية التقوى؟ فتكون الحصانة وتتحقق الضمانة من المخاطر التي ما تزال تنهك المسيرة الإسلامية.. والله الهادي إلى سواء السبيل.

[رجب ١٤٠٥هـ ـ آذار ـ نيسان (مارس ـ أبريل) ١٩٨٥م]



إسرائيل تستقبل الهجرة الرابعة

إن المدد الرئيس للاستعمار الاستيطاني الذي يشكل العمود الفقري للكيان الصهيوني - ورموزه وقياداته الأولى في فلسطين - كان من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي.. ولا يزال.

ولا شك أن إسرائيل - بدافع من مصلحتها - قد لا ترى هجرة بعض يهود أوروبا الغربية وأمريكا، حيث تضمن لنفسها هناك استمرار التحكم بإدارة وتوجيه تلك المجتمعات، والمشاركة في حقول التجارب والدراسات التكنولوجية المتقدمة التي تحقق ليهود نصيب الأسد فيها؛ ذلك أن اليهود يشغلون في أمريكا اليوم أعلى المنابر التعليمية وأكثرها تأثيراً في الجامعات والإعلام والصحافة، إلى جانب المساهمة بتطوير التكنولوجيا والتخصصات النادرة..

* * *

عملية موسى.. والتفسير التوراتي

من المفارقات الغريبة حقاً في عالم اليوم أن تُقبل اليهودية بوجهها الصهيوني عقيدةً دينية عنصرية معتدية غازية، ويُحارب الإسلام ويُتهم أصحابه بالتطرف، ويُرفَض عقيدةً مدافعة لرد العدوان وإعادة الحقوق المغتصبة إلى أهلها، ولو كان هذا مقتصراً على الأعداء لهان الأمر، وبدا طبيعياً نوعاً ما، لكن المشكلة أن تتسلل بعض المقولات والمغالطات إلى عالم المسلمين، فيسقط بعضهم في الفخاخ المنصوبة له، ومن ثم يحاول إقصاء العقيدة المجاهدة

والطاقات الإسلامية الفاعلة عن ساحة المعركة، بالدعوة إلى إقامة الدولة العلمانية وممارسة ذلك عملياً بمشاركة بعض أجنحة العدو الإسرائيلي في تشكيل المؤسسات المهنية أو العقيدية تحت شعار التقدمية والعالمية متجاهلاً في ذلك التاريخ والواقع معاً!!

وبذلك يساهمون بالتحضير لقبول العدو، قصدوا إلى ذلك أو وقعوا فيه ضحية لعدم القدرة على البصارة والاعتبار، والإصرار على القراءة بأبجدية مغلوطة.

إسرائيل تقوم على الرؤية الدينية التوراتية وتحاول ضبط منطلقاتها، وتفسير ممارساتها، وحمل العالم كله على التسليم بهذه الرؤية ومحاسبته على ضوء ذلك وهذا الأمر لم يعد موضع نقاش، سواء في ذلك من اعتبر الأمر نوعاً من توظيف الدين لخدمة أغراض استعمارية استيطانية إمبريالية رجعية (!!) واضطر في سبيل ذلك إلى اعتبار اليهودية كدين شيئاً، والصهيونية كنزعة استعمارية توظف اليهودية لتحقيق غاياتها شيئاً آخر؛ أو من اعتبر الصهيونية هي الوجه الآخر لليهودية المعمول بها التي قامت أصلاً على العنصرية والتعالي من خلال عقيدة الشعب المختار... فالتسميات للأماكن والمستعمرات دينية، وحفر القبور ونبش الصخور يرمي إلى هدف ديني وإثبات حق موهوم، والتهويد للتاريخ ومناهج التعليم، والتفسير التوراتي للأحداث، وإسقاط المفهومات الدينية على الحياة اليومية، ومحاولة شحذ فعّالية اليهود في بقاع الأرض كلها وربطهم بالرؤية التوراتية الدينية أمور لا تحتاج إلى استدلال، ولم يبق فيها استزادة لمستزيد، ولعل في تسمية عملية نقل يهود إثيوبيا (الفلاشا) أو ما أُسمي بحق: الهجرة الرابعة باسم «عملية موسى» تأسِّياً ومحاكاة وتشبهاً بخروج موسى عليه السلام ببني إسرائيل من ظلم فرعون ومَلَئِهِ من أفريقيا إلى آسيا، إلى الأرض المقدسة، ما يؤكد التفسير الديني التوراتي للتاريخ والواقع، والذي يرجع إلى أسماء الأماكن في الضفة الغربية (يهودا والسامرة) والجولان، وإعادة تسمية الأحياء والمستعمرات حتى الأراضي التي احتلها يهود حديثاً في جنوبي لبنان أوجدت إسرائيل لها التسميات الدينية التوراتية، وأطلقت على أعمالها العسكرية

التسميات الدينية أيضاً، وحاولت إيجاد الصيغ والأصول الدينية المشتركة مع بعض الطوائف، وبذلك تزرع الألغام الطائفية، وتوقظ الروح الإقليمية والعنصرية الضيقة، فالنصارى في لبنان يلتقون معها على «العهد القديم» ولا علاقة لهم بالعروبة والإسلام، وللدروز معها علاقة مصاهرةحيث تزوج موسى عليه السلام ابنة النبي شعيب عليه السلام!!

العنصر البشري والمواقع المؤثرة..

وهكذا تمضي «إسرائيل» في تحقيق الحلم الديني التوراتي ليهود العالم الذي ظلت تبشر به ألفي عام، وتستورد له المهاجرين من جميع أنحاء العالم بثقافاته وسلالاته وحضاراته ولغاته وعاداته المختلفة تستوردهم إلى أرض الميعاد!! وتقر ما أسمي بـ «قانون العودة» مع الخطوات الأولى لبناء الدولة اليهودية الذي يحق بموجبه لكل يهودي في العالم أن يعود إلى «إسرائيل» ويكتسب بمجرد عودته الجنسية وكامل الحقوق... وبمجرد أن طُرح التشكيك بيهودية (الفلاشا) لأنهم يعتقدون بالتوراة فقط الكتاب المقدس الأساسي ويراعون تعاليم السبت والصيام والختان، غير أن التلمود يبدو أنه لم يصل إليهم على الإطلاق بسبب عزلتهم الجغرافية أصدر «أوفاديا يوسف» زعيم السفارديم عام ١٩٧٢م إعلاناً رسمياً بأن (الفلاشا) من اليهود فعلاً، وهم بالأصل من قبيلة «دان» سكان الأرض المقدسة في منطقة «جوبلي» الواقعة الآن جنوبي الجزيرة العربية!! ثم قررت لجنة حكومية أن اليهود الإثيوبيين يخضعون لقانون العودة الإسرائيلي الذي يمنح اليهود جميعهم حق المواطنة المدنية والجنسية الإسرائيلية فور وصولهم «إسرائيل»، يقول «دافيد هارتمان» مدير معهد «شالوم للدراسات اليهودية المقدسة» في القدس:

[...لا يهم أن يكون اليهود من السود أو الصفر... لقد وصل (الفلاشا) هنا لأن الشعب اليهودي مرتبط بميثاق إبراهيم] (التايم الأمريكية يناير «كانون الثاني» ١٩٨٥م) وقال «بيريز» رئيس حكومة العدو: [...إننا أبناء

شعب واحد، ولا يمكن لأي قوة في العالم أن تبقينا منفصلين، إن أشقاءنا يهود إثيوبيا ينتظرون الهجرة إلى «إسرائيل» منذ ألفين وستمائة عام. . .].

لقد أدركت «إسرائيل» منذ اللحظات الأولى، وفي طريقها إلى إقامة الدولة، أن مشكلتها لن تحل إلاَّ باجتذاب اليهود من جميع أنحاء العالم، ولعل من أوائل التشريعات على عتبة الدولة كان قانون العودة ـ كما أسلفنا ـ، ذلك أن النمو السكاني العربي في الأرض المحتلة قد يغرق «إسرائيل» في سيل بشري لا تستطيع مواجهته مستقبلاً، كما أن أحلامها في التوسع وإقامة المستعمرات وملء الأراضي المحتلة الجديدة في الضفة الغربية والجولان لا تتحقق إلاَّ بالمزيد من الهجرات من جانب، ومحاولة تهجير العرب وتعقيم إنسانهم من جانب آخر. . .

إن العنصر البشري، أو الاستعمار الاستيطاني كان دائماً هو الأخطر في القضية الفلسطينية، والهجرة هي الروح المستمر الذي يضمن لـ «إسرائيل» ديمومة الحياة، فهي دماء جديدة، مهما كانت سويتها، للجسم الإسرائيلي، ذلك أن عشرات المستوطنات في الضفة الغربية والجولان لا تزال فارغة بانتظار المهاجر الجديد؛ ولا شك أن «إسرائيل» بدافع من مصلحتها قد لا ترى هجرة بعض يهود أوروبا الغربية وأمريكا وبذلك تضمن لنفسها هناك استمرار التحكم بإدارة وتوجيه تلك المجتمعات، والمشاركة في حقول التجارب والدراسات التكنولوجية المتقدمة التي تحقق ليهود نصيب الأسد فيها، ذلك أن اليهود يشغلون في أمريكا اليوم أعلى المنابر التعليمية وأكثرها تأثيراً في الجامعات والإعلام والصحافة إلى جانب المساهمة بتطوير التكنولوجيا والتخصصات النادرة. . . فكيف لا يؤثرون على المجتمع الأمريكي، وهل يُحتمل أن يؤثر عليه من لا يمتلكون من المؤهلات إلاَّ قوة حناجرهم في ارتفاع أصواتهم واشتداد احتجاجاتهم!؟

الحركة الصهيونية وأسد يهوذا..

ومن الأمور التي لا يختلف عليها اثنان أن المدد الرئيس للاستعمار الاستيطاني الذي كان يشكل العمود الفقري للكيان الصهيوني دائماً، ورموزه

وقياداته الأولى في فلسطين كان من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي على وجه الخصوص، ولا تزال قضية هجرة اليهود من روسيا تأخذ دائماً مكان الأولوية في محادثات «الوفاق الدولي» بين روسيا وأمريكا، في مطلع السبعينيات عقدت صفقة وفاق بين «موسكو وواشنطن» تقضي بترحيل ثلاثين ألف يهودي سنوياً من روسيا مقابل توفير القمح وتأمين التكنولوجيا المتقدمة من الولايات المتحدة، لقد كان تقديم القمح الأمريكي رهيناً بهجرة يهود!!

ولا شك بأن الاتحاد السوفييتي مصدر الهجرات الأولى، كان من أوائل الدول التي صوتت لصالح قرار التقسيم عام ١٩٤٧م والدولة الثانية التي اعترفت بالكيان الصهيوني بعد الولايات المتحدة، الذي سوغ هذا بما جاء على لسان مندوبه بالأمم المتحدة يومذاك ووزير خارجيته اليوم «أندريه غروميكو»:

[. . . إن الدول الغربية قد أثبتت عجزها في الدفاع عن الحقوق الأولية للشعب اليهودي، وهذا ما يبرر طموح اليهود إلى إنشاء دولتهم بأنفسهم، ومن غير العدل أن لا نوافق على هذا الطموح، أو أن ننكر حق الشعب اليهودي في تحقيق ما يصبو إليه. . .].

وفي عام ١٩٤٩م صوت مرة أخرى لصالح دولة العدو عند احتلالها «النقب» ووصف الجيوش العربية التي دخلت لتساهم بتحرير فلسطين عام ١٩٤٨م بالعصابات المسلحة، وقد نشرت صحيفة «معاريف» الإسرائيلية بتاريخ ٢٢ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٤م تصريحاً للملحق العسكري السوفييتي، جاء فيه قوله:

[. . . إننا نشارك العرب في مكافحة الاستعمار والرجعية، ولكن لا نشاركهم في العدوان على إسرائيل، ولقد كان موقفنا منذ البدء معارضاً أشد المعارضة للعدوان العربي الرجعي، بل نحن أعربنا عن تأييدنا لـ «إسرائيل» بالسلاح والمال في أشد أوقات الأزمة الفلسطينية يوم كانت حركة التحرر الوطني اليهودي بأمسّ الحاجة. . .].

ثم توالت الهجرات ولم تنقطع، ففي عام ١٩٥٠م هاجر إلى «إسرائيل

ستون ألف يهودي من اليمن عبر جسر جوي بين عدن و«إسرائيل»، ومن ثم كانت الهجرة الثانية من العراق عام ١٩٥١م عن طريق قبرص، والهجرة الثالثة جاءت من شمالي أفريقيا بين عام ١٩٥٦ و١٩٦٢م عن طريق فرنسا، وكانت ستة وسبعين ألف يهودي. . . وتستقبل «إسرائيل» الآن الهجرة الرابعة: يهود (الفلاشا) من الحبشة، وعلى خلاف الصورة الظاهرة التي يخدع بها الكثيرون في عالمنا الإسلامي، فهناك علاقات تاريخية بين إثيوبيا و«إسرائيل» ابتداءً من أسد يهوذا «هيلا سلاسي» وانتهاءً بـ«هيلا مريم» بالرغم من السياسة الماركسية المعلنة، ذلك أن امبراطور الحبشة كان يعتقد أنه ينحدر من نسل «منليك الأول» ابن سليمان وملكة سبأ، وكانت نجمة داود تزين علم الحرس الأمبراطوري، ولم ينس أنه لجأ إلى القدس عندما احتلت قوات «موسوليني» إثيوبيا، والتقى هناك بزعماء الحركة الصهيونية الذين أصبحوا فيها بعد قادة الدولة، وكانوا يقرون للامبراطور بأنه أسد يهوذا!!

و«إسرائيل» هي التي أخبرت «هيلا سلاسي» بالتمرد الذي حصل سنة ١٩٦٠م عندما كان في الأرجنتين، وبن غوريون هو الذي أمر فوراً بإعادة السلطة للامبراطور وقمع التمرد على يد المخابرات الإسرائيلية، وكان الثمن: اعتراف إثيوبيا رسمياً بإسرائيل عام ١٩٦١م وفي عام ١٩٧٣م عجز الامبراطور عن الحصول على أسلحة أمريكية لمواجهة الدولتين المسلمتين: السودان والصومال، وقمع حركات التحرير في أريتريا وأوغادين بعد أن حصلت الصومال على أسلحة سوفييتية متقدمة، عندما كان الاتحاد السوفييتي يراهن عليها في أفريقيا، وكان لليهود دور في الولايات المتحدة أدى إلى حصول الإمبراطور على الأسلحة المطلوبة.

صفقات نصرانية ماركسية..

والمعروف أن إثيوبيا هي الدولة الوحيدة غير الإسلامية التي تطل على البحر الأحمر، ومن هنا التقت أهداف «هيلا سلاسي» و«بن غوريون» في أن لا يتحول البحر الأحمر إلى بحر عربي إسلامي، لذلك فتح «هيلا سلاسي» بلاده

للخبراء والفنيين الإسرائيليين، وتشكل البوليس الإثيوبي على النمط الإسرائيلي، كما أن الجيش الإسرائيلي تولى تدريب الجيش الإثيوبي بصورة كاملة حتى إن «منغستو هيلا مريم» نفسه تدرب في «إسرائيل».

وعند قيام الانقلاب الماركسي عام ١٩٧٤م فوجىء العالم بطلب قادة الانقلاب من «إسرائيل» زيادة عدد مشاريعها وتعزيز كميات السلاح التي تسلمها الجيش الإثيوبي لأن النزاعات في «أوغادين» و«إريتريا» تهدد وحدة إثيوبيا، مقابل السماح ليهود إثيوبيا (الفلاشا) بمغادرتها، واشترط «هيلا مريم» بقاء الصفقات سرية حتى لا يغضب الرفاق العرب وليضمن استمرار مساعداتهم المادية.

فالعلاقة بين «إسرائيل» و«إثيوبيا» ـ كما تراها إثيوبيا وإسرائيل على حدٍ سواء ـ استراتيجية تمليها المصالح المشتركة، وهذه المصالح تقضي بأن تبقى «إثيوبيا» قوية سواء أكانت نصرانية أو ماركسية أو نصرانية ماركسية، وقد صرح رئيس إثيوبيا، والأمين العام للحزب الشيوعي فيها «منغستو هيلا مريم» بأن إثيوبيا تواجه الزحف الإسلامي في أفريقيا ويجب على النصارى كلهم مساندتها...

كما أن نفاذ «إسرائيل» إلى أفريقيا، وحسم نزاع القرن الإفريقي أمران رئيسان في الاستراتيجية الإسرائيلية، فإغلاق باب المندب أمر قاتل لـ «إسرائيل» ومن أجله مع ـ مضائق تيران ـ كانت حرب عام ١٩٥٦م ثم حرب ١٩٦٧م، فـ «إسرائيل» سلحت «إثيوبيا» ولا تزال تسلحها بالرغم من السياسة الماركسية المعلنة، وهناك قواعد عسكرية إسرائيلية في البحر الأحمر، وقسم من هذه القواعد مقابل الساحل الإريتري منذ حوالي تسع سنوات، وهناك مزارع كاملة في «إثيوبيا» يسيطر عليها الإسرائيليون، ويسيطرون على المسالخ بكاملها، والدور الاقتصادي لشركة «انكودي» معروف منذ عهد الإمبراطور.

التدريب العسكري ودروس التوراة..

ولسنا الآن بسبيل استقراء الخلفيات السياسية والفكرية لمواطن الهجرات

اليهودية، وقدرة يهود على المراهنة على أكثر من جواد في السباق الدولي ليكون نصيبهم متحققاً دائماً إلى جانب تبادل الأدوار وبراعتهم في ممارسة لعبة «اليمين واليسار» بينما نحن في عالمنا، لسبب أو لآخر، كان رهاننا غالباً على الجواد الخاسر!! فالعلاقات بين إسرائيل وإثيوبيا تاريخية، ولم تعوزها الرؤية الدينية والتفسير التوراتي، وعملية تهجير (الفلاشا) والإعداد لها بدأ منذ عام ١٩٧٤م عندما تأسست الجمعية الأمريكية لإنقاذ يهود الحبشة، ودخلت حيز التنفيذ عام ١٩٧٨م، وطرح موضوع (الفلاشا) المجلس الاتحادي اليهودي الذي عقد بمدينة «سان فرانسيسكو» وأثار رئيس اتحاد الطلاب الكنديين اليهود «ستيفن بومان» هذه المسألة معتبراً أنها مسألة حيوية لسلامة مجموعة منسية، وقال «ستيفن مونتانج» المسؤول عن الشبكة العالمية للأحياء:

[. . . أنا لا أحب أن يواجهني أي فلاشي بعد أربعين سنة بالسؤال الذي واجهنا به الآخرون: تُرى أين كنت عندما تعرض أهلي للمآسي؟!

وتقول مجلة «جويش برس» التي يصدرها يهود الولايات المتحدة في عددها الأخير:

[إن عدد المهاجرين وصل إلى ثمانية آلاف، وإن عملية التهجير والاستيعاب والتجنيس بقيت مستمرة خمسة وعشرين عاماً. . .] أي: من عهد «هيلا سلاسي».

أما «موسى جيلو» أحد كبار المسؤولين في وزارة الخارجية الإسرائيلية، فيقول:

[. . . كان هناك دائماً رباط يجمع بين شعبي إسرائيل وإثيوبيا، وعلى الرغم من توتر العلاقات السياسية الظاهر بين الحكومتين، فهناك تعاون بينهما على الصعيد العسكري والتكنولوجي والزراعي . . .].

ولا شك عندنا أن هؤلاء المهاجرين الجدد الذين شهدوا ظروفاً صعبة سيشكلون قوة عسكرية شرسة مستعدة للقتال حتى الموت عن البلد الذي

أنقذهم من الموت جوعاً إلى جانب ما يُشْحَنون به من رؤية توراتية دينية، وقد بدأ، فعلاً، التدريب العسكري والتدريس في التوراة جنباً إلى جنب من أول يوم لوصولهم إلى الأراضي المحتلة، وسوف يشكلون أيضاً أحزمة أمن، وأيادي عاملة للمهن الدنيا التي تتناسب مع فقر ثقافتهم وتدنِّي سويتهم الحضارية، بينما يتوفر اليهود الآخرون للصناعات الدقيقة، وسوف يملؤون المستعمرات الفارغة في الضفة والجولان التي تنتظرهم إلى جانب ما تبهر به إسرائيل العالم من أعمال خارقة - تبدو إنسانية في ظاهرها - يقف العالم أمامها مشدوهاً؛ وقد لا يكون غريباً ولا مذهلاً في العالم الإسلامي اليوم أن تبدأ عملية هجرة يهود (الفلاشا) منذ عام ١٩٧٤م وأجهزة الأمن والاستخبارات غائبة غياباً تاماً، لأن عندها ما يشغلها، فهي تستنفد جهدها في مهمات داخلية، وتأمين الحماية لأولياء نعمتها... وكذلك رجال السلك الدبلوماسي وسفارات بعض بلدان العالم الإسلامي فإن اهتماماتها الخاصة لا تسمح لها بوقت كاف تؤدي فيه واجبها...

هجرة العقول..

والمسؤولون في العالم الإسلامي في حالة عجز كامل تجاه ذلك، بل لقد وجد بعضهم في ذلك فرصة للاتهام والابتزاز السياسي وزيادة التمزق والتشرذم، وبعضنا استعذب الاستغناء بالكلمة عن الفعل، واكتفى برفع الشعارات عن الشعور بالمسؤولية وأداء الواجب، أما بعضنا الآخر فتستغرقه الأماني ويعيش أحلام اليقظة، ويمارس حالة الانتظار والتواكل ليسقط المجتمع الإسرائيلي من تلقاء نفسه ومن خلال أمراضه وأزماته الاقتصادية وهجراته المعاكسة والفوارق الحضارية في تركيبه السكاني!! إلى درجة وصل فيها بعض الكتّاب في العالم الإسلامي إلى الإشفاق على «إسرائيل» من هذه الكارثة الحضارية الجديدة!!

هذا إلى جانب الإحباط الذي لا شك في أنه أصاب كثيراً من التقدميين الذين كانوا يراهنون على حزب العمل حيث كان يتصدر المؤتمرات الدولية غير الرسمية إلى جانبهم، ويَعِدُ بأنه ضد سياسة المستعمرات واحتلال الأرض، وإذا

به يتفق مع الليكود على إنشاء ست مستوطنات جديدة في الضفة الغربية قبل الخريف القادم دون أن يدروا أن يهود اتقنوا لعبة «اليمين واليسار» وأن بعض أبناء جلدتنا ضحايا سذَّج لما يرسم لهم...

ولا نريد هنا أن نتكلم بالمقابل عن أسباب هجرات العقول والسواعد معاً من العالم الإسلامي إلى دول أوروبا الغربية والولايات المتحدة بسبب من الاستبداد السياسي، الأمر الذي يزيد من تخلفنا ويحرمنا خيرة أبنائنا؛ ولا عن الهجرات والغربة داخل الأوطان حيث تتعطل الطاقات ويعتمد أهل الثقة والولاء، ويطرد أهل الخبرة الأكفياء، بل نكتفي بما ذكره الأستاذ محمد الصالح عزيز في «هجرة العقول المسلمة» على الصفحة السابعة والسبعين من هذا العدد، وما أورده الدكتور محمد كامل رئيس أكاديمية البحث العلمي في مصر في المؤتمر الذي بدأ جلساته بجامعة الدول العربية عن هجرة العقول:

[... لقد بلغ الأمر خلال النصف الأول من السبعينيات في أمريكا على سبيل المثال: أن الأطباء والجراحين القادمين من الدول النامية (معظمها من العالم الإسلامي) يمثلون ٥٠٪ والمهندسين ٢٦٪ من مجمل القوة البشرية المضافة إلى الرصيد القومي الأمريكي، كما تشير التقارير إلى أن ثلاث دول من دول الشمال (أمريكا ـ كندا ـ بريطانيا) تستأثر بنسبة كبيرة تصل إلى ٧٥٪ من جملة التدفق في العقول المهاجرة من العالم النامي، حتى بلغ متوسط الوفر في نفقات التعليم والتدريب في أمريكا نتيجة لهجرة كفاءات الدول النامية إليها نحو بليون دولار سنوياً.

ولقد فقدت مصر وحدها أكثر من ثلاثمائة وخمسين ألف مواطن الغالبية منهم من حملة المؤهلات العلمية العالية، مثل: الماجستير والدكتوراه، ومعظمهم استقر في البلاد المتقدمة] (الأهرام ٥ يناير «كانون الثاني» ١٩٨٥م). هذا عن هجرة العقول، أما هجرة السواعد فالله أعلم بها.

ولا سبيل في هذه العجالة إلى الكلام عن معاناة المهاجرين من بعض بلدان العالم الإسلامي إلى بعضها الآخر وما يعاملون به من غياب لميزان

الكرامة الذي شرعه الإسلام ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ وتجاوز لحقوق الأخوة الإسلامية . . .

إنها المقدمات التي نرى ونعيش نتائجها في واقع مجتمعاتنا اليـوم، فهل يكون لنا من عدونا درس وعبرة، فنعيد النظر بمواقفنا على مختلف الأصعدة، ونحدد الخلل أم نواصل الاصرار على السير في الطريق المسدود؟!.

[جمادىٰ الآخرة ١٤٠٥هـ ـ آذار (مارس) ١٩٨٥م]



هل يحقق القياصرة الجدد الحلم القديم؟

إن قضية أفغانستان وقضية فلسطين هما المحك الذي أسقط الكثير من الأقنعة، ذلك أن «اليسار» في العالم الإسلامي لم يستطع التخلص من التبعية السياسية، على الرغم من كل دعاواه وادعاءاته للوطنية؛ فقد كان عاجزاً حتى عن المواقف الإنسانية وعاجزاً عن الانسجام مع مقدماته، وقد تكون مشكلته أنه لا يرى إلاّ بعين واحدة ولا يستطيع أن يرى إلا عدواً واحداً، ذلك أن الذي يتحدث عن الغزو الاستعماري الشيوعي يجب أن يكون بالضرورة عميلاً أمريكياً، فالذبح والدمار في أفغانستان إنما يتم على الطريقة التقدمية بينما كان في «فييتنام» استعماراً وغزواً رجعياً، وقضية الانتصار لـ «فييتنام» عنده مقدمة على قضية المسلمين المركزية ـ فلسطين ـ أما اليوم فهو في وضع لا يحسد عليه؛ فلا مجال عنده للحديث عن الغزو السوفييتي لأفغانستان لأنه سيكون ـ حسب زعمه ـ على حساب قضية فلسطين!!

* * *

أعشاب ضارة في الحقل الإسلامي

«لا ينام الأفغاني عن الثأر، ولا يقبل أن يطأ الأجنبي أرضه، ولا يواطىء العدو على استقلال بلده، فمع أن بعض القبائل المجاورة للهند كانت شديدة الاختلاط بأحوال الإنكليز فإنها لم تواطىء الإنكليز على بلادها، ولم تمكّن لهم من أرضها كما صنع كثير غيرها...» [شكيب أرسلان في حواشيه على «حاضر العالم الإسلامي»].

هذا القول يمكن أن يعتبر إلى حدٍ بعيد المفتاح الذي يُمكِّن من إدراك أبعاد المواجهة الجهادية في القضية الأفغانية تاريخياً، كما أنه يلقي الأضواء الضرورية لتفسير كثير من صور المواجهة، والقدرة على استمرار المعركة والصمود أمام أعتى صور البغي والطغيان التي تمتلك أحدث ما ابتكره العقل البشري من وسائل التدمير والفتك؛ ويمكننا القول: إن الجهاد الإسلامي في أفغانستان ـ بإيمانه الكبير ووسائله القتالية البسيطة ـ استطاع أن يدمي أنف الجيش الروسي ويمرغ وجهه في التراب، وليس من شك أن أفغانستان استعصت تاريخياً على الغزاة والمستعمرين كلهم، ولم تقبل إلاَّ الإسلام وأهله، حتى إن بريطانيا في أوج عظمتها عجزت عن الاستقرار والثبات هناك، وألحق بها الأفغانيون أفدح الخسائر حيث خسرت جيشاً كاملاً قوامه ستة عشر ألف جندي، واضطرت إلى الاعتراف لأفغانستان بالاستقلال في النهاية، ولعلَّ في هذا دليلاً وأملاً يؤكده الواقع منذ بدأ السوفييت غزو أفغانستان حيث تمكن المجاهدون من المواجهة المستمرة ـ برغم أسلحة العدو المعقدة والظروف الصعبة التي يعيشونها ـ والاحتفاظ بتسعين بالمائة من الأراضي الأفغانية، وإيقاع الهزيمة بكبرى القوى العالمية في أكثر من موقع؛ لقد دللوا بإيمانهم على أن الإنسان هو الذي يحمل السلاح، وليس السلاح هو الذي يحمل الإنسان، فهم يحملون السلاح أمَّا عدوهم فالسلاح يحمله، وأي نصر أكبر من هذا يمكن أن يتحقق، أو يمكن أن يُطلب إليهم تحقيقه!! في الوقت الذي عجزت بعض الجيوش في عالم المسلمين ـ عندما حاولت دخول المعارك ببدائل فكرية مستوردة، ورايات جاهلية عميَّة ـ عن الصمود أمام عدوها في معارك جزئية لستِّ ساعات، أو ستة أيام. . .

لقد أدركت الشيوعية أن بوابة العالم الإسلامي ستبقى موصدة في وجهها، فكان لا بد لها من إيجاد المداخل من خلال المسلمين أنفسهم، حيث أخضعت البعثات العسكرية والتعليمية لصناعة فكرية وتدريبية خاصة ليكون أفرادها بعد عودتهم إلى بلادهم أدوات التبعية الفكرية التي تستدعي العمالة السياسية بالضرورة؛ ومن خلال بعض المبادىء الإسلامية التي تدعو إلى التكافل والعدالة الاجتماعية تتسلل منها لتحاول خداع بسطاء المسلمين بأن

الدعوة الشيوعية ليست غريبة عن طبيعة ما دعا إليه الإسلام، ولا بد من الاعتراف بأن الماركسية استطاعت زراعة أعشاب ضارة في الحقل الإسلامي تدعو إلى ما يسمى بـ «اليسار الإسلامي» تستورد جميع الشعارات والمصطلحات الشيوعية، وتلحق بها كلمة «إسلامي»، وتمارس القراءة الانتقائية للتشريع والتاريخ الإسلامي بأبجدية ماركسية، وبذلك تقيم ركائز التبعية الفكرية والعمالة السياسية كما أسلفنا...

وحسبنا أن ندرك المخاطر المستقبلية لترحيل حوالي خمسة وعشرين ألف طفل أفغاني إلى الاتحاد السوفييتي لغسل أدمغتهم، وتنشئتهم على المبادىء الماركسية، (الزمن يغير كل شيء ففي السنوات العشر أو العشرين المقبلة سوف ينظر الجيل الأفغاني الجديد إلى وجودنا بصورة مغايرة [النيوزويك]) ونحن في العالم الإسلامي لا نزال بعد هذه السنوات من المواجهة والصمود في وضع لا نحسد عليه، نجود لكن بالمزيد من الكلام، وبعضنا قد يجود بفضلات أمواله وطعامه، ويسيطر علينا الخزي والعجز، ونحسن عملية البكاء على الأطلال التي بدأها بالأندلس أبو عبدالله الصغير ويلتزمها اليوم أحفاده كلهم وفاء وأمانة!!

فأين المدارس الابتدائية والثانوية؟ وأين الجامعات التي تفتح أبوابها لإيواء أبناء المسلمين الأفغان، تحصنهم بالثقافة الإسلامية وتحول دون تذويبهم في المبادىء الماركسية؟! إن خطوة عملية على الطريق الصحيحة لا تعدلها أنهارٌ من الدموع...

قبل أن تسرقهم الشيوعية

إن أفغانستان ـ التي تعتبر من الناحية الجغرافية والبشرية امتداداً طبيعياً للمنطقة الإسلامية التي احتلتها روسيا ـ قد استعصت على القياصرة في الماضي؛ الذين كانوا يحلمون بضمها والوصول إلى المياه الدافئة في الخليج، فجاء القياصرة الجدد باسم الشيوعية، وضموا هناك مختلف الجمهوريات الإسلامية، ذلك أن محاولاتهم واعتداءاتهم بدأت مبكرة، فقد صادروا ماشية المسلمين

المنتمين إلى قبائل «الكزاخ» عام ١٩٢٦م، واستشهد كثير من المسلمين على أيدي الشيوعيين الذين تمكنوا ـ فيما بعد ـ من الاستيلاء بالقوة على مساحة من هذه المنطقة تتجاوز ثلث مساحة الاتحاد السوفييتي، ثم كان التخطيط السوفييتي البعيد لوضع أفغانستان في فلكه، لأن مجيء البديل الإسلامي سوف يكون مصدر خطر دائم على الوجود السوفييتي، وذلك بإيقاظ الوعي الإسلامي في الجمهوريات الإسلامية التي احتلها واستعبدها. . . وقبل الغزو الروسي بعشرين عاماً كانت روسيا تعد الخطط، فأنشأت مطاراً في بطن الجبل في أفغانستان عند الحدود هو مطار «شندند» وهو أكبر مطارات آسيا، وهو الذي يدعم الاحتلال اليوم. . إنه التفريط الذي يدفع المسلمون ضريبته اليوم حيث كانت البعثات العسكرية والتعليمية التي ذهبت إلى الاتحاد السوفييتي ورُبيت على أعين الشيوعيين هي الجسر الشيوعي الذي عبرت عليه روسيا، والذراع الذي لا تزال تستخدمه تحت اسم «الحزب الشعبي الديمقراطي».

ونحب هنا أن نذكِّر ـ لعلَّ الذكرى تنفع المؤمنين ـ بأن حركة التحرير الجزائرية التي تعتبر الحركة «الأنموذج» لحركات التحرر الإسلامي في العصر الحديث، والتي قدمت من الشهداء ما يربو على المليون شهيد [الرقم الذي قدَّمه الجهاد الأفغاني نفسه]، والتي واجهت فرنسا زمن جبروتها الاستعماري ومن ورائها قوات حلف الأطلسي بأسلحته المتطورة ـ والتي تشبهها إلى حد بعيد، ومن أكثر من وجه حركة الجهاد الأفغاني ـ [٥٠٪ من القوات التي نواجهها الآن ليست من روسيا ولكنها من دول حلف وارسو (سياف)] بإيمانها وتضحياتها ومواجهاتها، تنبهت لخطورة الموضوع فأرسلت مجموعات من الطلبة للدراسة والتحصيل في مدارس وجامعات العالم الإسلامي، فحققت لهم الحماية الثقافية والنمو العلمي، وكثير منا لا يزال يذكر زملاء له على مقاعد الدراسة من الإخوة الجزائريين، فهل تفتح أبواب مدارسنا وجامعاتنا لأطفال المسلمين الذين تسرقهم الشيوعية وتصنعهم على عينها؟! وبذلك نقدم خطوة عملية هي جهد المقل.

الثورة من داخل الأرض

وقد تكون مشكلة المسلمين في أكثر من منطقة في العالم أن اليقظة والصحوة تجيء متأخرة ـ على مستوى الأفراد والجماعات ـ في مرحلة التنفيذ لكل المخططات المبيتة للعالم الإسلامي، ولسنا بحاجة إلى الشواهد على مستوى الأفراد والجماعات فهي أكثر من أن تحصر، وكثيرون في عالمنا الذين يتجرعون آلامهم، ويفرغون طاقاتهم في البكاء على فرص كان بالإمكان اغتنامها، وسلطات كان بالإمكان استخدامها في أكثر من موقع من مواقع العمل الفاعل؛ لقد التهمت روسيا الجمهوريات الإسلامية وسامت المسلمين هناك الخسف والهوان، وصلت طلائع النازحين والمهاجرين إلى معظم أنحاء العالم الإسلامي ليكونوا نذير خطر، لكن العالم الإسلامي استمر في غطيطه دون أن تكون عنده القدرة على استشراف آفاق المستقبل والإعداد لها، وقضمت أطرافه الواحد بعد الآخر، واليوم تتكرر المشكلة نفسها في أكثر من بقعة في العالم الإسلامي، في فلسطين وأفغانستان والقرن الافريقي . . . (لقد أهمل آباؤنا وأجدادنا أمر الجهاد في بخارى وسمرقند، وكان الواجب يقتضيهم أن يخرجوا للقاء العدو خارج أسوارهم). (على جميع المسلمين اليوم، الذين يعيشون في المناطق القريبة، أن يواجهوا عدوهم في أفغانستان لأنه يقف الآن وراء أبوابهم وخارج قراهم وإلاَّ فاجأهم داخل حدودهم وعلى فرشهم) [عبد رب الرسول سياف].

لقد كان في احتلال السوفييت للجمهوريات الإسلامية عبرة ودرس لأولي الأبصار، ولا تزال ـ للأسف ـ تتحقق فينا نحن المسلمين مقولة: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض) (إن معظم المهاجرين الأفغان هم من البخاريين الذين سبق لهم أن تركوا بلادهم إلى أفغانستان بعد الاحتلال السوفييتي لأرضهم، وتركوا القتال في بخارى، والآن يتركون القتال في أفغانستان) [جلال الدين حقاني نائب القائد العام] لقد أدرك المجاهدون الأفغان أهمية الثورة على الأرض نفسها (نطلب إلى المهاجرين الأفغان الموجودين في أوروبا وإيران وباكستان والسعودية ودول الخليج العودة إلى البلاد وعدم اختيار الحياة خارج الأرض) [حقاني].

توظيف تضحيات المسلمين

ولا شك أن روسيا خلال سنوات الغزو مارست الوسائل القذرة كلها، فعلى المستوى العسكري استعملت جميع أنواع الأسلحة الكيماوية الحارقة والسامة على حد سواء، وكانت تظن في البدء أن بإمكانها إنهاء القضية خلال ستة أشهر أو سنة على الأكثر، واستعانت لذلك بقيادات من الذين اشتركوا في عملية اقتحام تشيكوسلوفاكيا والمجر، ومن المانيا الشرقية... كما أنها سعت ابتداءً إلى وضع شخصيات شيوعية في السلطة بأسماء ومظاهر إسلامية، وعندما فشلت في هذه الخطة ولم تتحقق سيطرتها عن بعد - كما هو حاصل في بلاد أخرى كثيرة - قامت بالغزو المباشر بمائتي ألف جندي أو يزيد، وهي في سبيل تحقيق أهدافها في السيطرة على أفغانستان تحاول اختراق صفوف المجاهدين بوسائل مختلفة، وعن طريق طرح حلول خادعة، ولقد مارس «أندروبوف» رجل المخابرات العريق إثارة الفتنة - على طريقة المخابرات دائماً - ضمن صفوف الشعب الأفغاني، وحاول إقامة واجهات إسلامية لإجهاض حركة الجهاد، كما أنه أشار على حكومة «كابل» بتشكيل بعض الجمعيات الدينية والاحتفال ببعض المظاهر الإسلامية وبناء بعض المساجد، ولما أعيتهم الحيلة، ونفق رجل المخابرات «أندروبوف» عادوا إلى اعتماد الحل العسكري و«سياسة الأرض المحروقة»، ذلك أن «تشيرنينكو» الرئيس الجديد للاتحاد السوفييتي واحد من الذين كانوا وراء قرار الغزو العسكري لأفغانستان، لذلك يحاول الروس الآن ضرب القرى وتدميرها لإجبار الناس على الهجرة إلى داخل المدن، وبذلك يزداد العبء على المجاهدين ويفتقدون الملجأ والمأوى، كما أن الروس يقومون الآن بحرق الغابات لتتكشف أمامهم مواقع المجاهدين...

لقد فقدت روسيا وحلفاؤها إلى الآن حوالي مائة ألف جندي أو يزيد خلال سنوات الحرب رغم هجماتها العسكرية الشرسة، لذا فهي تفكر ببدائل جديدة لإحكام سيطرتها على أفغانستان بعد أن أعيتها الحيلة، ومن هذه البدائل:

- انسحاب القوات السوفييتية إلى الشمال قرب الحدود السوفييتية، واحتلال الشمال فقط، ثم التحرك منه إلى داخل أفغانستان بالتدريج بعد فصل الشمال عن الجنوب.
- تقسيم أفغانستان تقسيماً عرقياً، وإلحاق قسم بالهند، وقطع الطريق على باكستان إلى البحر.
- تقسيم أفغانستان ـ حسب اللغة ـ بين لسان «البشتو» واللسان «الفارسي».
- تقسيم أفغانستان حسب التوزعات والانقسامات الحزبية والقبلية.
- تهجير الأطفال إلى روسيا وتربيتهم هناك وفق المبادىء الشيوعية.
- محاولة اختراق صفوف المجاهدين عن طريق العمالة والتجسس...

إلاَّ أن المجاهدين باتوا يدركون طبيعة الروس، فإذا قالوا: إنهم يعملون للمفاوضات والحل السياسي، فهم مخادعون وغير صادقين، ولقد عاش الشعب الأفغاني أكثر من مرة خداعهم، فقد سبق أن وعد «لينين» بالاعتراف باستقلال «خيوة وبخارى» بشرط أن يخرج الأفغان من ساحة الجهاد لتحرير الجمهوريات الإسلامية آنذاك، ثم كانت الاتفاقية حبراً على ورق!!

ومن الحقائق التي لا يعوزها الدليل أن بلاد المسلمين عامة مرشحة دائماً لتصفية الحسابات الدولية ودفع ثمن الوفاق الدولي، فهل يتحصل ذلك لأن بعض مسلمي اليوم يمتلكون التضحية ويفتقدون البصارة الكافية، لذلك توظف تضحياتهم وتستغل دماؤهم في أكثر من موقع على المستوى الإقليمي والعالمي؟! حيث لم يكن غزو روسيا لأفغانستان بعيداً عن الوفاق الدولي، بل لعلَّه يكون من أوضح صوره، ذلك أن الصحوة الإسلامية التي بدأت طلائعها هنا وهناك بعد سنوات القهر والاحتلال والغربة الطويلة، لا بد من محاصرتها وقص أجنحتها من الخارج ومحاولة احتوائها والانحراف بها من الداخل، ومن المسلمات أن ندرك أن روسيا وأمريكا على حد سواء متفقتان على وجوب التصدي للبديل الإسلامي الذي ينتظره الشعب في أفغانستان وفي غيرها من بلدان العالم الإسلامي، لذلك لا يستطيع أحد أن يدَّعي أن غزو روسيا لأفغانستان كان بعيداً عن الوفاق الدولي، أو كان في غيبة أمريكا، ولا شك أن أمريكا تشارك

في جني أعظم ثماره، إنها تحقق من وراء ذلك عدة أغراض: فهي ترمي روسيا في منطقة من أشد مناطق العالم كفاحاً وجهاداً، والواقع دليل على أن ورطة روسيا وضحاياها في أفغانستان لم يضعها أحد في الحسبان، ولا نظنها كانت بعيدة عن علم أمريكا التي تعرف الكثير عن هذا الشعب، وتعلم أن روسيا لا يمكنها هضم القبائل الأفغانية، فلقد قال الرئيس الأمريكي الأسبق «نيكسون» معلقاً على غزو روسيا لأفغانستان: (القبائل الأفغانية أظهرت شجاعة مدهشة، ولا شك أن موسكو ستدرك أن هضم أفغانستان عملية صعبة، وقد سبق للأفغان أن ألحقوا الهزيمة بالبريطانيين ثلاث مرات في القرن التاسع عشر في وقت كانت فيه بريطانيا أقوى دول العالم، ولن يتمكن السوفييت أبداً من السيطرة على هذه القبائل بشكل كامل!! وستظل هناك معارضة دائمة في الجبال. . .).

إنها لقمة الزقوم التي تقدمها أمريكا وتحاول روسيا اليوم ابتلاعها.

سقوط الأقنعة..

والحقيقة أن المجاهدين الأفغان أدموا أنف الجيش الروسي فعلاً، وأوقعوا فيه القتل والأسر، وتجاوز أمرهم وتأثيرهم أفغانستان إلى الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر تكون روسيا بغزوها أفغانستان قد حالت دون البديل الإسلامي الصحيح الذي تحاربه الولايات المتحدة وروسيا على حد سواء، وقد تكون الأسلحة الفردية التي يحصل عليها المجاهدون في الحرب هي وسيلتهم الوحيدة، أما المساعدات التي تقدم إليهم - ظاهراً - فهي محكومة بحدود لا تسمح لهم بإنهاء الاحتلال السوفييتي وإنما تضمن استمرار إنهاكه. .

ولا شك أن الشعوب الإسلامية تمتلك من عوامل المواجهة والصمود والنهوض ورفض كل أشكال الاحتلال والتبعية ما تفتقده كثير من شعوب العالم، لذلك كان لا بد - استكمالاً للوفاق الدولي، والكفر ملة واحدة -

لمواجهتها من إقامة مفارز حراسة، وأنظمة قمع، وجيوش ـ لحماية تلك الأنظمة وليس لحماية الوطن ـ غريبة عن جسم الأمة بعقائدها وشعاراتها، يوكل إليها تعقب المسلمين ودعاة الإسلام حتى يستمر التحكمّ الأجنبي في بلاد المسلمين، ويحال بينهم وبين استعادة مكانتهم؛ والحقيقة أن هذه الوسيلة المكشوفة أخفقت في أفغانستان أيما إخفاق، فقد عجز نظام «كابل» المدعوم دولياً عن تحقيق أي تقدم خلال هذه السنوات، بل على العكس من ذلك فإن كثيراً من الضباط والجنود التحقوا بصفوف المجاهدين بمجرد أن أتيحت لهم الفرصة.

والصعوبة الكبرى التي يواجهها السوفييت حالياً هي مع جنود الجيش الأفغاني، فإذا كانت موسكو لا تزال قادرة على ضبط قواتها وتسويغ وفاة أكثر من عشرة آلاف جندي سوفييتي أمام ذويهم، فإن الوضع يختلف تماماً حيال موقف القوات الحكومية الأفغانية، فقد لمست القيادة السوفييتية في أفغانستان أن قوات «كارمل» خفَّ حماسها في التعاون مع الغزاة السوفييت، وسجلت في الآونة الأخيرة عمليات هروب بالجملة من الجيش الأفغاني، وانضمام عدد من النفور والتشنج حتى إنهم امتنعوا عن تسليحهم وإمدادهم بالذخائر الحيَّة خلال التدريبات خوفاً من أن يلجأ بعض هؤلاء إلى استعمالها ضدهم...

والحقيقة أن قضية أفغانستان وقضية فلسطين هما المحك الذي أسقط الكثير من الأقنعة، ذلك أن «اليسار» في العالم الإسلامي لم يستطع التخلص من التبعية السياسية، وعلى الرغم من كل دعاواه وادعاءاته للوطنية فقد كان عاجزاً حتى عن المواقف الإنسانية، وعاجزاً عن الانسجام مع مقدماته، وقد تكون مشكلته التي يعاني منها أنه لا يرى إلاَّ بعين واحدة، ولا يستطيع أن يرى إلاَّ عدواً واحداً، ذلك أن الذي يتحدث عن الغزو الاستعماري الشيوعي يجب أن يكون بالضرورة عميلاً أمريكياً!! فالذبح والدماء في أفغانستان إنما يتم على الطريقة التقدمية، بينما كان في «فييتنام» استعماراً وغزواً رجعياً!

لقد استطاع اليسار في دول أوروبا ـ وهو أكثر تحرراً ـ أن يقف مع الجهاد الأفغاني، ويدين الغزو الشيوعي لأفغانستان كما أدان الغزو الأمريكي لـ «فييتنام»

والغزو الشيوعي لـ «يوغوسلافيا» و«بولندا»، أما اليسار في العالم الإسلامي فقد كانت قضية الانتصار لـ «فيتنام» عنده مقدمة على قضية المسلمين المركزية ـ فلسطين ـ وأما اليوم فهو في وضع لا يحسد عليه؛ فلا مجال عنده للحديث عن الغزو السوفييتي لأفغانستان المسلمة لأنه سيكون ـ حسب زعمه ـ على حساب قضية فلسطين!! أما مساهماته التاريخية في تمييع مفاهيم القضية الفلسطينية وتضييع هويتها وترويض أهلها على القبول بوجود عدوهم فلنا معه حديث آخر إن شاء الله.

نعود إلى القول: إن أفغانستان التي لم يستطع أحد زحزحتها عن إسلامها تاريخياً، لا يمكن أن تتنازل عنه، وإن هذه السنوات من الصمود أمام كبرى القوى العالمية يمكن أن يستمر خمسين سنة أخرى أو يزيد، ما دام العدو موجوداً، وعلى الرغم من استخدام أشد الأسلحة فتكاً وتدميراً، وأقذر الوسائل لاختراق صفوف المجاهدين، وتقديم مليون شهيد، فقد وطّن المجاهدون النفس على الحرب الطويلة. إن صور الاطمئنان التي يراها الإنسان على وجوه المجاهدين على اختلاف أعمارهم، وتحملهم الظروف القاسية بكل الرضى، وبناءهم المعاهد العلمية والمؤسسات التعليمية بالوسائل البسيطة التي تعني فيما تعني الاستعداد للمواجهة طويلة الأمد، لأعظم دليل على ذلك...

إن هذه المنطقة التي أنجبت الكثير من الأئمة الفقهاء والمحدِّثين، وساهمت في إثراء العلوم والثقافة الإسلامية ليس من السهل اختراقها والقضاء عليها بسبب من العملاء أو بغزو من الدخلاء، والمجاهدون مؤمنون بأن النتائج موكولة إلى الله، وأن المسلم مكلَّف بأن يتقن المقدمات من خلال الإمكانات المتاحة، ويبصر الظروف المحيطة، ويستفيد من الدرس التاريخي، ويستحضر البعد الغيبي كعامل من عوامل الصمود والنهوض، ولينصرنَّ الله من ينصره.

[جمادىٰ الأولى ١٤٠٥هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٥م]

المعادلة الصعبة

. . . إن وسائل الإعلام العالمية تحاول باستماتة تهوين القضية الإسلامية، والتقليل من شأن الأهداف الإسلامية وقطعها عن محورها العقيدي وخلفيتها التاريخية وصفتها الجماهيرية، ومحاولة حصرها في إطار فئة أو تنظيم أو جماعة تسعى لتشويه صورتها وبذلك تعزلها عن حياة الأمة وأهدافها وتاريخها. . ومن ثم يكون التقليل من شأنها وتصويرها بأن تشكل خطراً على السلطة السياسية لا بد من مواجهته وإبادته، والإغراء بسهولة ضربها والقضاء عليها. . وهذا قد يكون من أخطر أسباب الصدام.

* * *

البدائل الفكرية وأسباب الصراع

من الحقائق البادهة أن مشكلة العالم الإسلامي الرئيسة وسقوطه في وهدة التخلف، وتكريس هذا التخلف إلى درجة أصبح معها وكأنه ضربة لازب لا سبيل معها إلى خروج، واستمرار العد التنازلي والعجز عن الإبداع الحضاري على مختلف المستويات، الثقافية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، ليس مردها عدم وجود الكفاءات المبدعة، وقلة الإمكانات المتوفرة، وإنما هي في ذلك الصدام الرعيب بين بعض القيادات السياسية والعاملين في الحقل الإسلامي وما يستتبع ذلك من شيوع مناخ الاستبداد السياسي، وغياب الشورى الحقيقية في الحكم والعدل الاجتماعي في الحياة، واعتماد الولاءات ومطاردة الكفاءات في أكثر من موقع على خريطة العالم الإسلامي. . . وهذا ليس وليد ظرف طارىء، أو مجيء شخص عابر، وإنما هو النفق الطويل المظلم الذي أدخلت فيه الحياة

الإسلامية حتى كادت تفتقد معه سلامة الحواس، فكان ما كان من الواقع المأساوي الذي نعيش آثاره، ونتنفس جراثيمه، وتستوطن في نفوسنا أمراضه، ولسوف نظل نراوح في مكاننا، ونستهلك أنفسنا، ونبدد طاقاتنا، ونتوهم أننا قطعنا أشواطاً صوب تحقيق أهدافنا دون أن ندري أننا نعاني من حالة استنقاع تزيد في بؤسنا، وتساهم بالمزيد من عجزنا ما لم تحل المعضلة الرئيسة، أو المعادلة الصعبة، ويصلح الخلل الذي يحكم حياتنا ويتحكم بتصرفاتنا، ونضع حداً لحرب الاستنزاف هذه بين الثقافة والسياسة، أو لانفصال السلطان عن القرآن ـ إن صح التعبير ـ في عالمنا العربي والإسلامي...

ولسنا هنا بسبيل استقصاء ودراسة أسباب الظاهرة وتقديم الحلول لها، فقد لا يكون الحل الذي نراه في متناول يدنا، بقدر ما نساهم بتقديم بعض البصائر لمن يمتلكون المقود، ويقدرون على الحل، وإنما الذي ينقصهم: العزمة الصادقة والرؤية المبصرة.

ولا شك عندنا أن الذين اختاروا الانتماء للإسلام والالتزام بقيمه حقاً هم الوليد الشرعي والتاريخي لحضارة هذه الأمة وثقافتها، والامتداد الطبيعي لأصالتها وذاتيتها، والحارس الأمين لشخصيتها الاستقلالية ورسالتها الإنسانية، وحمايتها من كل ألوان التبعية السياسية والثقافية... ولا ينكر ذلك ويتنكر له إلاّ معاند أو جاحد.

ولا شك عندنا أيضاً ـ والأدلة تملأ على الناس حواسهم ـ أنهم خيرة شباب الأمة ونخبتها المفكرة، حيث دلت التجارب على أنهم أصدق الناس قولاً، وأرقاهم خُلُقاً، وأبصرهم بوسائل الاستعمار، وأقدرهم على جهاده ومواجهته، وأكثر الناس وطنية، فهم وقود معارك الجهاد لنيل الاستقلال، وعدة الأمة للبناء، وفي مقدمة الناس نبوغاً وتخصصاً، قد حفظ الله عليهم طاقاتهم من التبديد، وأخلاقهم من الانحلال؛ وهم الخطر الدائب على مصالح الأجنبي الذي لا يكل ولا يمل من تشويه صورتهم والإغراء بمطاردتهم والتهويل من خطورتهم... من هنا يمكن أن نلمح فداحة الخطب وخطورة الصراع وآثاره

المدمرة على الأمة ومستقبلها، ونحن لا نريد أن نحمل مسؤولية ذلك طرفاً دون آخر، بل قد يكون الاشتراك في تحمل المسؤولية عن هذا الصدام هو الحقيقة التي لا بد من إدراكها، ومن ثم مراجعتها ومعالجتها.

ومن الأمور المستيقنة أيضاً أن القيم الإسلامية هي التي حركت جماهير العالم الإسلامي، وعبأت طاقاتها لمواجهة الاحتلال وصناعة الاستقلال، وكانت مانعة لها من الذوبان أيام الغلبة والشدة، وكانت دافعة لها للانتصار والنهوض من جديد في أيام القوة وتجديد الالتزام، تشحذ همها وتوقظ شعورها وتشعرها بالتحدي، وهذه الحقيقة لا يحتاج إدراكها إلى مزيد عناء، ولقد أحسن العدو إدراكها، فكان همه الدائب وخططه الدائمة، محاولة طمسها وإقصاء المسلمين عنها، وتقديم البدائل الفكرية التي لا تمت إلى عقيدة الأمة بصلة، والتي ما زادتها إلاّ إنهاكاً وتخلفاً، وكانت من أهم أسباب الصراع...

الإسلام هو الدافع وهو الهدف

إن معارك التحرير وثورات التحرر ومواجهة المستعمر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه حتى في العصر الحديث، لم تحركها إلاّ الأهداف الإسلامية، إن الشعارات الإسلامية هي التي حركت جماهير ثورة الريف في المغرب بقيادة الشيخ عبد الكريم الخطابي وجعلت من علماء القرويين قادة الثورة حيث لم ينفصل العلم عن الجهاد في تاريخنا يوماً من الأيام، فيكون التحرك الأعمى وتكون الراية العمية، وكان الاستشهاد في سبيل الله منطلق مسلم التحرير، وهذا لم يقتصر على منطقة دون أخرى، وليست ثورة الأمير عبد القادر في الجزائر في مواجهة الاستعمار الاستيطاني، وفتاوى جمعية العلماء بتحريم التجنس بالفرنسية والحكم على فاعله بالارتداد وتحريم دفنه في مقابر المسلمين عنا ببعيد، حتى الأهداف التي أعلنتها جبهة التحرير الجزائرية، وقدم الشعب الجزائري المسلم في سبيل تحقيقها مليون شهيد لم تكن إلاّ أهدافاً إسلامية. ولو اتسع المجال للاستشهاد لأتينا على ذكر الكثير من الأقوال والخطب والتصريحات، إنها

الحقائق التي ما تزال حاضرة في وجدان الجيل ولا يحتاج معها إلى دليل، فهو شاهدها ودليلها. وإذا عدنا إلى مشرق العالم الإسلامي لنتعرف على حركات التحرير وأهدافها وشعاراتها رأينا الإسلام هو محركها، وهو هدفها، وهو شعيرتها، ابتداءً من ثورة الشيخ حسن الخراط في سورية ضد الفرنسيين إلى ثورة الشيخ عز الدين القسام في فلسطين إلى مصطفى كامل في مصر، حتى الجنرال مصطفى كمال أتاتورك الذي يمكن أن يمثل الخرق الأول، ويبوء بإثمه، ويحمل وزر كل خرق على مدى التاريخ الحديث في هذا المجال، في الصدام بين القيادة السياسية والقيادة الإسلامية ـ عندما أراد تعبئة الأتراك للقتال ضد اليونانيين، حمل القرآن وطاف بالجنود معلناً أن العدو يريد أن يقضي على دينهم وعلى قرآنهم، فهبوا للجهاد والاستشهاد في سبيل الله، ثم كان ما كان. . .

وفي حروبنا الحديثة مع يهود، ما هي الدوافع التي حركت الجنود في حرب رمضان في كل من سورية ومصر؟ وما هي الشعارات التي سادت جو المعركة وشحذت همم الجنود وحققت النصر؟

وبماذا خاطب القادة والرؤساء الجنود بين يدي المعركة وأثناءها حيث خوطبوا بأحفاد أبي بكر وعمر وصلاح الدين؟ إن البدائل الفكرية والشعارات المستوردة انهزمت على أيدي أصحابها قبل غيرهم، ولم تستطع أن تحقق شيئاً في أوقات الأزمات والشدائد، وإن الشعوب التي قدمت الملايين من أبنائها للشهادة في سبيل الله تاريخياً ليس من السهولة حملها على التنكر لأهدافها أو تحويل مسارها إلى أهداف باهتة أو بدائل مستوردة تقضي على ثمرة جهادها، وتجعل جهادها ضد المستعمر وكأنه لا معنى له، فهل جاهدت ابتداء إلاَّ لهذا؟ لذلك فأي عدول عنها أو تجاهل لها أو طرح بديل عنها موقع في الصدام والنزاع وبالتالي موصل إلى ذهاب الريح.

﴿واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً﴾ ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

والحقيقة التي لا بد من إيضاحها أيضاً أن هٰذه الأهداف والتوجهات هي أهداف جماهير المسلمين عامة، تقف الأمة بمجموعها من ورائها، وليست أهدافاً محصورة في فئة أو تنظيم أو جماعة أو إقليم أو جيل مهما أُريد لها ذلك، وأنه من الخطأ العقيدي والتاريخي والثقافي والاستراتيجي اعتقاد ذلك والعمل له. . . صحيح أن الأفراد والجماعات والجمعيات يتفاوتون فيما يحققون من كسب للقضية الإسلامية، ويرجو كل إنسان أو جماعة أن تكون أكثر كسباً، وإثارة للاقتداء، وقدرة على إيقاظ الوعي الإسلامي وتجديد ذاكرة المسلمين وشحذ فاعليتهم واستنهاض هممهم للدفاع عن القضية الإسلامية والتضحية في سبيلها، ليشرفون بدور الريادة والدلالة على الخير، لكن ذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون وسيلة للحد من شمولية هذه الأهداف وجماهيريتها، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**. . .﴾. إنها أهداف الأمة قاطبة لا بد من رواد وقادة وجهود منظمة لتأكيدها وبيانها وضمان تواصلها، وتحقيق النقل الثقافي لها، وكشف أعدائها والحيلولة دون اغتيالها والاعتداء عليها.

إن أعداء الإسلام ووسائل إعلامهم العالمية التي وصلت مرحلة من النفاذ والتأثير تحاول معها إعادة صياغة الإنسان وزرع اهتماماته، وتركه أسيراً لما يُلقى إليه حيث تقتحم عليه بيته وفراشه وطعامه وشرابه وفترات راحته وتسليته. . . إن وسائل الإعلام العالمية تحاول باستماتة تهميش القضية الإسلامية والتقليل من شأن الأهداف الإسلامية وقطعها عن محورها العقيدي وخلفيتها التاريخية وصفتها الجماهيرية، ومحاولة حصرها في إطار فئة أو تنظيم أو جماعة تسعى لتشويه صورتها، وبذلك تعزلها عن حياة الأمة وأهدافها وتاريخها، ومن ثم يكون التقليل من شأنها وتصويرها بأن تشكل خطراً على السلطة السياسية لا بد من مواجهته ومن إبادته، والإغراء بسهولة ضربها والقضاء عليها، وهذا قد يكون من أخطر أسباب الصدام.. إن الأمة المسلمة لم تتخل عن أهدافها طيلة

رحلتها التاريخية الطويلة، وفترات السكون عن المواجهة الساخنة والمباشرة مع الاستعمار، أو مع السلاطين الظلمة من الخارجين على عقيدتها، إنما هو سكون العاجز عن التغيير وهو الرافض للواقع المفروض، فالإسلام لا يقر الاستعمار، ولا يقر الاستبداد والظلم، والأمة لا تجتمع على ضلالة؛ لذلك كان لا بد من صورة للمواجهة، فكان التحول إلى العمل التربوي كلون من التحصين للأمة حتى لا ينالها الذوبان، وحتى تحاصر بذلك الآثار السيئة المتحصلة من انفصال السلطان عن القرآن حتى تتاح فرص التغيير.

من هنا لم يكن المنهج التربوي الذي أخذ المساحة الأكبر من حياة المسلمين حالة سلبية وهروباً من الساحة، بقدر ما كان لوناً من التحرف للمواجهة في الموقع الفاعل، إنه الخندق الآخر في المواجهة، لذلك يمكننا القول: إن الصراع لم يتوقف طيلة الفترات التي تشعر معها الأمة المسلمة بأن السلطان السياسي - سواء أكان مرده الاستعمار، أو كان مرده الطغيان الجائر - يحاول اغتيال أهدافها أو تحريفها عن مقوماتها، أو احتواءها، وإن كانت هذه المواجهة أخذت أشكالاً متعددة، ولا سبيل إلى إيقاف الصراع إلاّ بالاعتراف الحقيقي لأهداف الأمة والعمل على تحقيقها، واستلهام شخصيتها الحضارية ومتابعة مسارها التاريخي، والخطورة كل الخطورة من الذين يرفعون شعارات الأمة المسلمة ويعلنون أهدافها لمرحلة، لكسب سياسي، أو نشاط انتخابي، ومن ثم يتنكرون لها ويسعون في وأدها. . . إن حصاد الأمة المسلمة التاريخي من هؤلاء كان مراً، ابتداءً من اعتناق نابليون بونابرت القائد العسكري الفرنسي الذي غزا مصر لاستعمارها، الإسلام، واستمراراً في سلسلة لا نهاية لها.

تغيير الخصم من الداخل؟

وهنا لا نريد أن نكمل المسؤولية لطرف واحد في هذه المعادلة الصعبة، والتي تبدو أنها صعبة إلى حد بعيد، ذلك أن الإلقاء بالتبعة على الآخرين دون نقد الذات ومحاسبتها عما كان من التفريط وعدم القدرة على دراسة الأسباب

وحساب النتائج والاحتمالات، يعني أننا دون سوية التعامل مع الصورة والقدرة على التأثير فيها، وبذلك فلا يبقى معنى لوجودنا.

إن قضية الصدام بين القيادة السياسية والعاملين في الحقل الإسلامي في أكثر من موقع على خريطة العالم الإسلامي إنما هو نتيجة لعوامل كثيرة... من هنا كان من حق الذين يغارون على هذه الأمة أن يبادروا إلى دراسة المقدمات والأسباب التي أوصلت القضية إلى ما وصلت إليه؛ أما الذين ينتفعون بالأزمات، ويتاجرون بالدماء، ويحققون مصالح ما كان لها أن تتحقق في الظروف والشروط الطبيعية فلهم شأن آخر؛ لا بد من دراسة المقدمات بدقة وتحديد العوامل الداخلية والخارجية ومحاولة تفادي الصدام الذي ما يزال يقتل الأجنة قبل ميلادها، ويعيق الأمة عن أداء رسالتها.

وقد يكون ما يخصنا من الموضوع هنا، وعلى مستوى العمل في الحقل الإسلامي والدعوة أن نعلم أن المطلوب إسلامياً ليس هو القضاء على الخصم وإنهاء حياته وشرخ رأسه، إنما استنقاذه من الكفر والجهل وإلحاق الرحمة به وتغييره من الداخل.

إن معرفة هذه الحقيقة بعيداً عن ردود الفعل والنظرة الجزئية المتعسفة والضيقة للأمور... سوف تكون لها انعكاسات خطيرة وهامة وسوف تترتب عليها نتائج كبيرة على مستوى العمل الإسلامي ومستوى نسبة الأداء في مجال الدعوة إلى الله أيضاً... والذي يلمحه الإنسان ابتداءً أن الغاية من البعثة إنما هو إلحاق الرحمة بالناس وتغيير مواقفهم وتحويلهم من الكفر إلى الإيمان، وأن مما أعطيه الرسول ﷺ وامتازت به رسالته عدم تعجيل العقوبة للظالم والمخطىء حتى تتحقق فرصة التوبة، وأنه ليست من طبيعة النبوة والدعوة الإكراه والإجبار **﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ...﴾ ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ...﴾** ولو عدنا إلى شيء من السيرة لوجدنا أن موقف الرسول ﷺ بعد أن لقي من أعدائه ما لقي في الهجرة إلى الطائف، وكان أشد ما لقي في تاريخ الرسالة حسب رواية السيدة عائشة رضي الله عنها، وجاءه ملك الجبال قائلاً: يا محمد، لو شئت لأطبقت عليهم

الأخشبين (جبلين في مكة) فكان الجواب الذي يشكل النداء التاريخي الخالد لكل مسلم: «عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ولا يشرك به شيئاً».

الاستبداد السياسي.. والتخلف

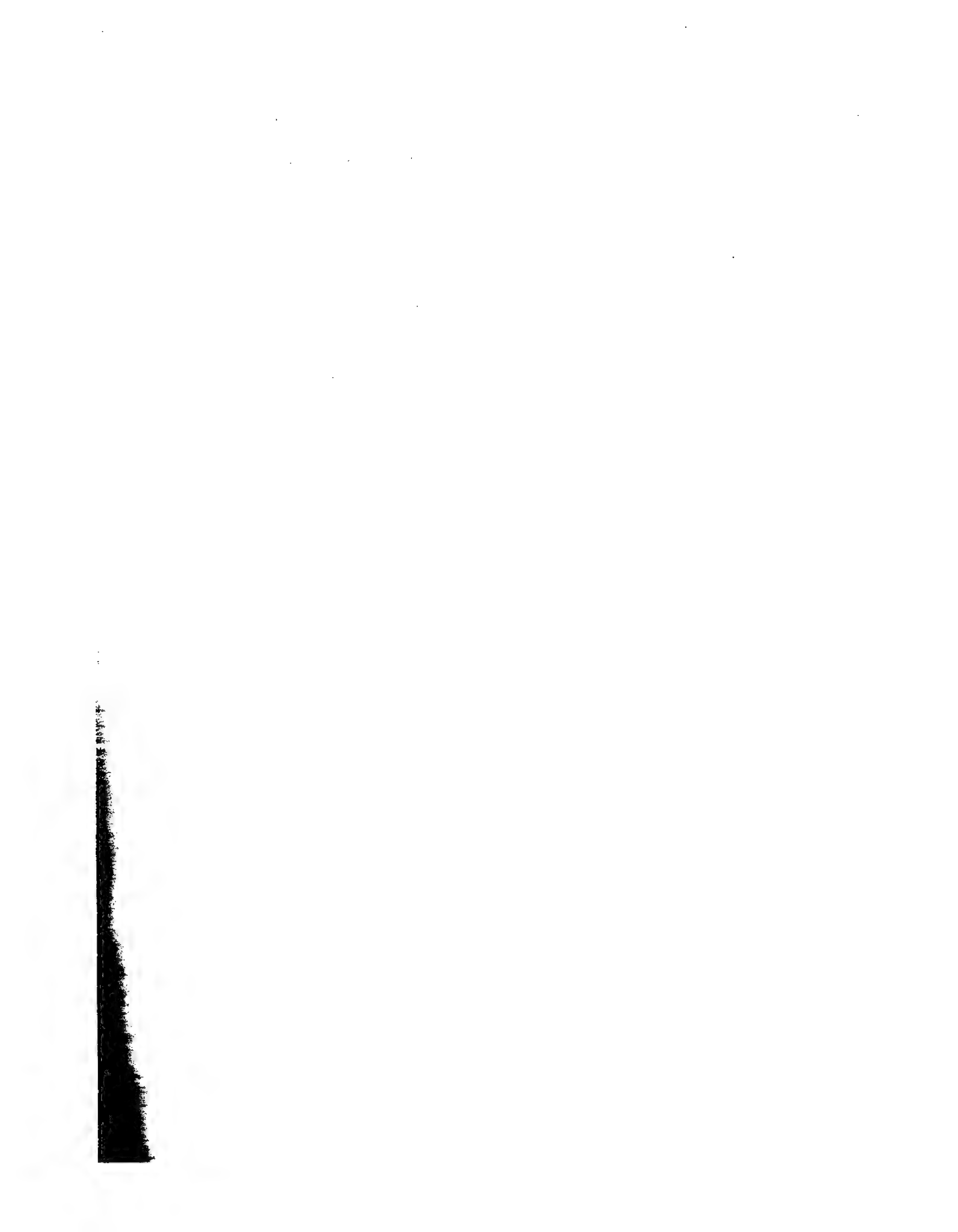
إن عمليات التغيير والتحويل لا يمكن أن تتم بالقضاء على الخصم، الذي هو محل الدعوة والتغيير، وإنما بالرفق واللين والحكمة والبلاغ المبين والمدافعة بالتي هي أحسن، وهذه توجيهات القرآن الكريم وسيرة النبي عن ربه ﷺ، ومقاصد الشريعة، وفي تاريخنا من الشواهد والأدلة ما لا يدع استزادة لمستزيد. . . فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ذهب لتأديب أخته عندما أسلمت، رجع مسلماً أعز الله به الإسلام، وخالد بن الوليد رضي الله عنه الذي ذهب مقاتلاً للمسلمين في أحد، وكان سبب هزيمتهم كان أحد قادة فتح مكة المسلمين. إن هذه الصور لم تنقطع على مدار التاريخ، فالمغول الذين جاءوا كالإعصار المدمر انقلبوا مسلمين نشروا الحضارة الإسلامية في العالم. . . وسيان في نظر المسلم الحق إن وصل أهل الإيمان إلى السلطة والتمكين في الأرض لأداء الرسالة المنوطة بهم والخروج من عهدة التكليف، أو وصل الإيمان إلى قيادة السلطة السياسية فتحصلت النتيجة نفسها، والمسلم متعبد باستفراغ وسعه وبذل جهده في انتقاء الوسيلة الأفضل والطريق الأحكم لتحقيق الأهداف، فقد يكون الطريق ممهداً لإيصال الإيمان إلى أهل السلطان في مرحلة لا بد من اغتنامها، وقد يكون الطريق ميسوراً لوصول أهل الإيمان إلى السلطان، المهم أن تتحصل القضية وليس المهم وصول الأشخاص.

وسوف لن تحل مشكلة العالم الإسلامي ما دام الصراع قائماً، لقد أصبحت تجربة الصدام غنية أيما غنيً، ولا بد من عودة إلى مراجعة الحسابات، وإلى دراسة المقدمات على ضوء النتائج التي انتهت إليها على مستوى القيادة السياسية والثقافية الفكرية على حد سواء، ويكاد يكمن معظم الحل ـ إن لم

يكن كله ـ في يد القيادة السياسية صاحبة السلطة والنفوذ والتنفيذ، فما قيمة الاستمرار السياسي إذا كان على حساب أجيال الأمة وكفاءاتها المبدعة؟ وما فائدة العمل الإسلامي وجدواه إذا حصدت أجياله كاملة وهم عقل الأمة وروحها، نتيجة الإقدام على معارك غير محسوبة، ورؤية غير واضحة قد لا يكون للإسلام منها نصيب، وإنما نصيب المسلمين أن تصفي الحسابات بدمائهم، وتشوه صورتهم، ويحال بينهم وبين دعوتهم؟!!.

إن إنهاء حالات الاستبداد السياسي وإيقاف الصدام، وإشاعة مناخ الحرية في العالم الإسلامي كفيل بوقف كل السلبيات المترتبة على ذلك، وكفيل بحل مشكلة التخلف بإيقاف نزف العقول المبدعة من جانب واستقدام العقول المهاجرة التي تساهم بدفع عملية التقدم العلمي في أوروبا وأمريكا من جانب آخر لتأخذ مكانها في إنقاذ العالم الإسلامي من معاناته، ذلك أن التخلف من لوازم الاستبداد السياسي في عالمنا الإسلامي الذي ضربه علينا أعداء الإسلام ليضمنوا تقدمهم بالعقول والسواعد والأموال الإسلامية.

[صفر ١٤٠٥هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م]



قضايا في ملتقى الفكر الإسلامي

إن الحرية هي المناخ الصحيح والشرط الضروري لمعالجة مشكلات العالم الإسلامي، حتى ليمكننا أن نعزو واقع التخلف وصور العجز والانكسار وانعدام الكفاءات وهجرتها، وغياب القدرات واختفاء ملكات الإبداع، مردها جميعاً إلى الاستبداد السياسي الذي يتحكم بكثير من عالم المسلمين، بل لعل مخططي السياسة الدولية أدركوا هذه الحقيقة في عالم المسلمين وعملوا على تكريسها بوسائل مختلفة وبأشكال شتى.. ومهما تكن المشكلات التي تترتب على الحرية السياسية والحرية الفكرية ومناخها المعطاء، فإنها لا يجوز أن تقاس بمفاسد الاستبداد السياسي والإرهاب الفكري، حيث تهدر كرامة الإنسان، وتغيب إنسانيته، ويلغى حضوره..

* * *

حماية عالم الأفكار..

عقد في الجزائر العاصمة «في الفترة من ١١ ـ ١٧ شوال ١٤٠٤هـ، ١٠ ـ ١٦ تموز (يوليو) ١٩٨٤م» ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر ـ الصحوة الإسلامية والحضارة المعاصرة ـ في سلسلة الملتقيات السنوية التي تنظمها وزارة الشؤون الدينية، وتعتبر من أبرز أعمالها على المستوى الإسلامي العام، إن لم تكن أبرزها، حيث إنها بمجموعها أصبحت تشكل رصيداً فكرياً، ومرجعاً لكثير من القضايا، وتراثاً حضارياً ذا بعد واضح في الثقافة الإسلامية المعاصرة...

وقد يستغرب بعضنا هذا الكلام، ذلك أن الأسوار الإعلامية في العالم

الإسلامي، وقصور وسائل الإعلام عن أداء رسالتها بحق كانا يحولان دائماً دون بلوغ الأهداف المقصودة لمثل هذه الحوارات الفكرية الضرورية لمسلمي اليوم، ومن وجه آخر فإن عدم إعطاء أعمال الملتقيات قيمتها الصحيحة من حيث الطباعة والترجمة والنشر والإعلام والتوزيع على مراكز البحوث والدراسات والجامعات والمراكز الثقافية يحول أيضاً دون الإفادة منها، أو اقتصارها على المساحة البشرية الأقل، ولا شك أن دقة البرمجة والتخطيط والتوفر الإعلامي المناسب اليوم هو الذي يحمي عالم الأفكار، ويحقق لها سريان الروح، وإلا كانت المساهمة السلبية بإماتتها وقبرها. . .

وسوف لا نعرض هنا للمحاور التي دارت عليها بحوث ومناقشات الملتقى، وإنما الذي يعنينا أن نلقي الضوء على بعض القضايا الأخرى التي لم تكن أقل أهمية ـ في نظرنا على الأقل ـ من بحوث ومناقشات الملتقى، أو هي تشكل في الحقيقة الشروط الضرورية لنجاح أعمال الملتقى ومقياس نجاحه. . . وقبل أن نعرض لهذه القضايا قد يكون من المفيد أن نسارع إلى تسجيل هذه الملاحظة الهامة:

على الرغم أن الداعي إلى هذه الملتقيات جهة رسمية، هي وزارة الشؤون الدينية، فقد تخلص وبشكل يلفت النظر من الأمور المألوفة في المؤتمرات الرسمية، أو التي تدعو لها جهات رسمية، أو تقام في ظل جهات رسمية، مما يمكن أن يحكمه أو يتحكم به من الاعتبارات والرسوم والأشكال حتى ولو كان مؤتمراً فكرياً وليس سياسياً، مما يفقد هذه المؤتمرات قيمتها الحقيقية، ويجعل منها وسيلة دعائية باهتة، الأمر الذي يجعل المسلم في حالة ارتياب من هذه المؤتمرات، وشك في فوائدها، وزهد في حضورها أو الاهتمام بها، فقد آن الأوان لأن يتحرر العلماء والمفكرون من سلطان الجهات الرسمية، ويتوقف كيل المديح في حياتنا، والتصفيق للخطأ والصواب على حد سواء ليمكننا بذلك أن نقول كلمة الحق بالتي هي أحسن، فيكون لها أثرها وتأثيرها، وقد يكون المسؤول في السلطة أحوج إلى الذي يبصره بأخطائه من الذي يصفق لأخطائه حتى تحيط به خطيئته؛ لذلك كان شعار علمائنا العاملين: لو كان عندي نصيحة لادخرتها

للحاكم، لأن نفعها يعم الناس. والنصح إنما يكون بالتحذير من الخطأ والتبصير بالصواب.

وهنا لا بد أن نقول: إن ملتقى الفكر الإسلامي عوفي من مرض التملق والمديح، بل لعل الإصرار على ذلك كان ملاحظاً وواضحاً في أن يتجنب الملتقى هذا المنزلق الخطير، فليس له من الصفات الرسمية المعروفة إلا أن الداعي له وزارة...

المناخ الصحيح لمعالجة المشكلات

● إن هذه الملتقيات بمجموعة البحوث والتعقيبات والملاحظات التي تملأ أيامها وتستغرق جهودها ليست ملكاً للجزائر، ولا تختص بالجزائر وحدها وإنما هي ملك للعالم الإسلامي، بل للعام بأسره... سواء نظر في ذلك إلى طبيعة المدعوين الذين يشكلون إلى حد بعيد جغرافية العالم الإسلامي والأقليات الإسلامية في العالم والعمل الإسلامي بمدارسه المتعددة، أو إلى القضايا والمشكلات التي يتم طرحها ومناقشتها، إنها ليست مشكلات وقضايا جزائرية، وإنما هي قضايا العالم الإسلامي، أو قضايا المسلمين في العالم، ولعل نصيب المسلمين في الجزائر من ذلك لا يتعدى نصيب أي مسلم في أي مكان من العالم، مضافاً إليه فضل الريادة، وقد تكون هناك خصيصة في هذه الملتقيات تنفرد فيها الجزائر دون بقية المسلمين ألا وهي وضع الطلبة والخريجين والحضور والشعب الجزائري من خلال نقل وسائل الإعلام في صورة الفكر الإسلامي العالمي والتصور الإسلامي العالمي للمشكلات الذي يجتمع لها هذا الملتقى... ومن الإنصاف هنا أن نبين، والله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ...﴾ (الأعراف: ٨٥) أن البذرة الأولى لهذه الملتقيات كانت من زرع المفكر الإسلامي الجزائري مالك بن نبي رحمه الله الذي كان قد نظم مع طلابه بواكيرها الأولى وأسماها «ملتقى التعريف بالفكر الإسلامي» وكان يدعو لها من يستطيع ممن هم مظنة الخير والفهم في العالم الإسلامي بمساعدة إخوانه وطلابه،

وبهذه المناسبة يمكننا أن نقول: إن العاملين للإسلام اليوم لم يحسنوا الاستفادة بعد من فكر مالك رحمه الله ومن منهجه الذي تتأكد يوماً بعد يوم حاجة العمل الإسلامي إليه، إنه الحاسة الإسلامية التي لا يمكن الاستغناء عنها، ومراكز الاستشعار عن بعد التي لا بد من استخدامها للتعرف على النتائج، والقيام بالحسابات قبل حلول الكوارث.

● من القضايا ذات الأهمية والدلالة البالغة هذا الإصرار الواضح على اعتماد العربية على المستوى الرسمي والشعبي، ونستطيع أن نقول: إن قضية العربية وعملية التعريف سبقت الزمن وخطت خطوات عريضة حتى لتكاد الفوارق تستبين بين سنة وأخرى، وأذكر أني حضرت ملتقى الفكر الإسلامي العاشر في «عنابة» قبل ثماني سنوات فرأيت عربية الجزائر الآن غير عربية جزائر الأمس؛ وقد أصبحت العربية تعم البلاد من الطالب في المدرسة حتى العامل في المصنع والتاجر في السوق. إن سمات العربية والإسلام أصبحت هي الطابع المميز للجزائر بعد الغربة التي ضربت عليها خلال قرن ونصف القرن تقريباً من الاستعمار الذي حاول طمس كل شيء يمت إلى الهوية الأصلية للشعب الجزائري، ومحاولة إخراجه من تاريخه وعقيدته. . .

● يمكن أن نعتبر أن ملتقى الفكر الإسلامي الثامن عشر أشبه ما يكون بالأسواق الحرة في عالم الاقتصاد، أو المناطق الحرة التي لا تخضع فيها البضائع لأية قيود والتي تقام ضمن بلاد تحكمها الكثير من السدود. . . إنه ساحة للحوار والتنفس يجد فيها الإنسان نفسه؛ والحقيقة أن هذا الملتقى تحقق بقدر من الحرية قد يلفت النظر في عالم المسلمين اليوم. ولا شك أن الحرية هي المناخ الصحيح، والشرط الضروري لمعالجة مشكلات العالم الإسلامي حتى ليمكننا أن نعزو واقع التخلق وصور العجز والانكسار، وانعدام الكفاءات وهجرتها، وغياب القدرات واختفاء ملكات الإبداع مردها جميعاً إلى الاستبداد السياسي الذي يتحكم بكثير من عالم المسلمين، بل لعل مخططي السياسة الدولية أدركوا هذه الحقيقة في عالم المسلمين وعملوا على تكريسها بوسائل مختلفة وبأشكال شتى، ولسوف تبقى أزمة التخلف وانعدام الإبداع وعدم تلمس وسائل التقدم،

من لوازم الاستبداد السياسي لأنه يقتل الكفاءات ويعتمد الولاءات، ويخادع نفسه بالاستقرار الموهوم، حتى لو روجت لذلك في بعض الأحيان فلسفات تحتمي بمظلة الإسلام... ومهما تكن المشكلات التي تترتب على الحرية السياسية والحرية الفكرية ومناخها المعطاء فإنها لا يجوز أن تقاس بمفاسد الاستبداد السياسي والإرهاب الفكري حيث تهدر كرامة الإنسان وتغيب إنسانيته ويلغى حضوره...

خطوة نحو المنصة..

● اجتمع لهذا الملتقى عقل الشيوخ وتجربتهم وحكمتهم، وسواعد الشباب وحيويتهم، فإلى أي مدى يمكن لهؤلاء الشباب، وهم أمانة الأمة وأملها ومستقبلها، الإفادة من تاريخ أمتهم، وحسن وراثة تراثها مع استيعاب ثقافة عصرهم حتى يكونوا أحفاداً شرعيين لأسلافهم وتاريخهم؟؟ ولعل من أهم وأخطر الأمور هنا: التنبه إلى ضرورة أن يتمتع الشباب في العالم الإسلامي عامة برؤية مستقبلية أكثر شمولية ووضوحاً تتجاوز ما عليه المسلمون الآن، تتجاوز ما عليه واقع المسلمين اليوم من التناقضات والخلافيات والتمزقات وقيام الدويلات والأمميات وما إلى ذلك... ولعل مما يبشر بخير ما يلحظه الإنسان من مجموعة الأسئلة التي تقدم بها الطلبة، وكيف أن الخيط الذي كان ينتظمها جميعاً هو: شد المحاضرين والمعقبين إلى معالجة مشاكل المسلمين الآن ومحاولة تلمس الطريق بصدق إلى بعث إسلامي جديد وصحوة إسلامية راشدة، إن ظاهرة إشراك الطلبة، وإن كانت هذه الظاهرة لم تتعد السماع والتلقي والمتابعة والاستيضاح بالسؤال، تحمل الكثير من الخير حيث يتعرف هؤلاء على مواقع الفكر الإسلامي وطرائقه فيعطيهم نوعاً من الدربة والتجربة ويحقق فرصة للتفاعل بين الأجيال خاصة بما يدور من حوارات وأسئلة ومناقشات بعد الجلسات المحددة للملتقى، وحبذا لو يسمح للطلبة أن يتقدموا خطوة أكبر باتجاه المنصة تتجاوز طرح الأسئلة ليأخذوا حجمهم الطبيعي في الطرح والمناقشة مع ما يمكن أن يترتب على ذلك من مشكلات تبقى لا قيمة لها أمام ما يتحقق

من فوائد وما يحلّ من عقد، وقد يكون هذا ضرورياً كلون من المسح الفكري للتعرف على المشكلات الحقيقية التي يعاني منها الشباب فتؤخذ بعين الاعتبار وتعتمد في جدول المناقشات، وبذلك يتخلص الملتقى من بعض الجوانب النظرية والمجردة التي قد لا تجدي كثيراً.

بين القيادة السياسية والقيادة الفكرية..

لقد أجمع المحاضرون والمعقبون على اختلاف تفسيراتهم وتقويماتهم ومناهجهم في التناول على أن أزمة العالم الإسلامي وتخلفه في مجال الإبداع الحضاري، وسقوطه في وهدة التخلف ليس مرده عدم وجود الكفاءات والإمكانات، وإنما هو الصدام الرعيب بين بعض القيادات السياسية والعاملين في الحقل الإسلامي، وأن مشكلة العالم الإسلامي سوف لا تُحل ما لم تُحل هذه المعضلة التي تستنزف الطاقة وتحول بين الأمة وتحقيق أهدافها، سواء في ذلك من رأى أن السبب في القيادات السياسية التي توهمت أن بقاءها واستمرارها مرهون بمطاردة العاملين للإسلام، لأنهم وحدهم الذين يشكلون الخطر الحقيقي على السلطة السياسية، بوحي من أعداء الإسلام في الداخل والخارج، وليس بتحقيق العدل وإضاعة الحرية وتحكيم قيم الأمة؛ أو من أرجع ذلك إلى وسائل بعض العاملين في الحقل الإسلامي الذي قد يرى أن التغيير يمكن أن يتم من القمة.. من قمة العمل السياسي، وأن الطريق الوحيد لاستئناف الحياة الإسلامية يبدأ من السلطة السياسية، فيكون الصراع على السلطة؛ أو من أرجع ذلك إلى مخططات أجنبية، وأتى على ذكر دلائل على ذلك من تجارب ذاتية واطلاع شخصي من أن ديدن أجهزة المخابرات العالمية تخويف السلطة السياسية في العالم الإسلامي من العاملين للإسلام، وزرع الأجسام الغريبة في الحقل الإسلامي التي يؤخذ سلوكها دليلاً على تغذية الشكوك، وبذلك يستمر إنهاك العالم الإسلامي، وتستديم السيطرة عليه من منطق الحاجة للاستناد إلى الدعم واستمداد التأييد..

ولقد طرحت لهذه القضية حلول ووجهات نظر متعددة ومتفاوتة، ابتداء

من طلب الهدنة، إلى المصالحة، إلى التعاون؛ فالكل مجمعون على أن مشكلة العالم الإسلامي هي هذه وإن اختلفت الوجهات والتفسيرات والمقترحات كما أسلفنا. ولا شك عندنا أن المشكلة قائمة في العالَم الإسلامي، وسوف لا تحل هذه المعادلة الصعبة ما لم يلتق أبناء الأمة من حكام ومحكومين على كلمة سواء فيصل أهل القرآن إلى السلطان أو يصل أهل السلطان إلى القرآن، وبذلك يوضع حد لانفصال السلطان عن القرآن، وانفصال القيادة السياسية عن القيادة الفكرية الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ، لقد أصبحت تجربة الصدام غنية أيما غنى، ولم تدع استزادة لمستزيد، ولا بد من عودة إلى مراجعة الحسابات، وإلى مراجعة المقدمات على ضوء النتائج التي انتهت إليها على مستوى القيادة السياسية والقيادة الفكرية على حد سواء، ويكاد يكمن معظم الحل إن لم يكن كله بيد القيادات السياسية صاحبة السلطة والنفوذ والتنفيذ. فما قيمة الاستمرار السياسي وما جدواه وعطاؤه على مستوى الأمة إن كان يفتقد مقومات استقراره؟! أو أن هذا مستوى الأمة إن كان يفتقد مقومات استقراره؟! أو أن هذا الاستمرار سوف لا يكون إلا على حساب أجيال الأمة وكفاءاتها المبدعة؟! وما فائدة العمل الإسلامي وجدواه إذا حصدت أجياله كاملة، وهم عقل الأمة وروحها، نتيجة الإقدام على معارك غير محسوبة ورؤية غير واضحة، وقد لا يكون للإسلام فيها نصيب في كثير من الأحيان، وإنما نصيب المسلمين فقط أن تصفى الحسابات بدمائهم، وأن يظهرهم أعداؤهم بأن أهدافهم تنتهي عند السلطة السياسية فقط، وبذلك يخاف أصحاب السلطان على سلطانهم وتبدأ المعارك؟

التحلل باسم التحرر..

● حضور المرأة المسلمة ومشاركتها في أعمال الملتقى كان ظاهرة تلفت النظر فعلاً، يلمح الإنسان من خلالها الاعتزاز بالثقافة الإسلامية، والتشبث بالزي الإسلامي، والالتزام بالخُلُق والحياة الإسلامية؛ والجدية في المتابعة وطرح كثير من التساؤلات الهامة، ومتابعة المحاضرين والمعقبين بعد الجلسات الرسمية

للملتقى؛ لكن الأمر المحزن حقاً أن المرأة المسلمة ما تزال إنسانة مُستهلكة فكرياً تأخذ مكانها في صالات التلقي ولم تصل بعد إلى مستوى المرأة المسلمة المنتجة فكرياً في أكثر من مجال، فإلى متى تقف القيود والسدود والعادات والتقاليد التي ليست من الإسلام في شيء أمامها بحجة أن ذلك من الإسلام، ويسمح للمرأة العابثة بالقفز من فوقها؟! لماذا لا تتقدم المرأة المسلمة خطوات أخرى باتجاه المنصة والمجلة والصحيفة والكتاب، وكلها آفاق لا تتعارض مع الضوابط الشرعية، بل هي ساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي هي مسؤولية المرأة كما تطلب من الرجل؟! ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ (التوبة: ٧١).

ولشد ما لفت انتباه المشاركين في الملتقى تلك الطالبة التي اخترقت الصفوف وتقدمت إلى المنصة بكل اعتزاز لتقول كلمة تلخص فيها معاني كثيرة، وترد على موجة عاتيةمن العبث بالمفاهيم، من ضرورة أن الذي يتكلم بالإسلام ويفتقر الحد الأدنى للسلوك الإسلامي سوف لا يعتد بكلامه، فالتربية إنما تكون بالقدوة وليست بالفلسفة، وأن اللباس الإسلامي لا يشكل عائقاً أمام التقدم العلمي والمعاصرة الحضارية ذلك أن القضية أولاً وقبل كل شيء مرتبطة بالمواهب والقدرات وليست باللباس، ولا أدل على ذلك من أن الطالبة الأولى في الثانوية بالجزائر لهذا العام استلمت الجائزة من رئيس الدولة ورأيناها جميعاً بوسائل الإعلام كيف كانت ملتزمة باللباس الإسلامي، وهذا يكفي رداً على التحلل باسم الدعوة إلى التحرر.

التجربة الميدانية

● الصحوة الإسلامية، موضوع الملتقى، بمظاهرها المختلفة وتياراتها الظاهرة والخفية، ليست طارئة أو عارضة، كما أنها ليست رد فعل لظروف تاريخية معينة أو أوضاع اجتماعية أو نكسات عسكرية، وإنما هي امتداد طبيعي لرسالة هذه الأمة، جاءت من العمق التاريخي وامتدت إلى الجذور الأصيلة

لعقيدتها والشمولية الكاملة لها، ولا ينكرها ويتنكر لها إلا منكر أو جاحد. . . وإنها تعني فيما تعني استمرار التواصل الحضاري من خلال الطائفة التي ما تزال قائمة على الحق وإن اعتراها المد والجزر، ولا شك أنها اصطفت خيرة شباب الأمة ونخبتها المفكرة، ولقد دلت التجارب على أن رجالها من أصدق الناس قولاً، وأكثرهم وطنية، وأرقاهم خُلُقاً، وأبصرهم بوسائل الاستعمار وأقدرهم على مواجهته. . . فالصحوة طاقة فكرية، وحركة تغييرية إصلاحية، ومدرسة خلقية، إذا أحسنا الاستفادة منها يمكن أن تعود بالخير العميم على الأمة والبشرية، ولهذا فالمطلوب أن توفر لها حرية التفكير وحرية التعبير، وتعطى الفرصة لتجربتها الميدانية، ويؤخذ بيدها إلى سبيل الرشاد. . . والخطورة كل الخطورة أن تكتم أنفاسها، ويدمر أشخاصها وأفكارها، ذلك أن مثل هذا الأمر سيكون نذير خطر على من يعترض سبيلها وبلاءً يصيب المسلمين عامة.

إن حسن التعامل مع الصحوة: عقل الأمة وساعدها، يمكن أن يختصر لنا فجوة التخلف، ويختصر لنا كثيراً من الوقت الذي نحتاجه لنستعيد مكاننا في السلم الحضاري، ولقد حازت الجزائر في هذا قصب السبق عندما اختارت لملتقاها الثامن عشر عنوان «الصحوة الإسلامية والحضارة المعاصرة» إنه الوفاء لدماء المليون شهيد الذين قضوا في سبيل العقيدة الإسلامية، هذا الوقود الضخم الذي لا يمكن أن يتقدم فداء لأهداف غريبة أو باهتة وإنما كان ينطلق من رؤية إسلامية، عريقة الجذور، دفعت به إلى التضحية، وليس من السهل على أي إنسان تجاهل ذلك أو طمسه؛ فهل يتابع جيل الصحوة بناء الاستقلال على خطوات الجيل المسلم نفسه الذي ضحى لصناعة هذا الاستقلال؟ وإن الذين يقرأون تاريخ الأمة الإسلامية وتضحياتها قراءة خاطئة هم الذين يحاولون عبثاً إخراجها عن عقيدتها وتراثها إلى لون من التبعية الثقافية لا يلبث أن يسقط. ولا شك أن ملتقى الفكر الإسلامي كان تجربة رائدة على هذا الطريق، ولا نقول: كاملة، وإنما تكمل وتتكامل شيئاً فشيئاً، ولعلها تكون حافزاً لسائر بلاد المسلمين. . . وقد تكمن الخطورة في النظرات السلبية التي تفوت الكثير من عناصر الخير فلا تراها فتقع في البخس الذي نهى الله عنه ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

فالملتقى ينطوي على خير كثير كبير سواء في محاضراته وحواراته، أو في اللقاءات الجانبية التي تتم مع الطلبة والباحثين؛ واكتشاف بعض جوانب النقص يجب أن يكون حافزاً على بلوغ الكمال والاستكمال وليس مساهمة سلبية في الإحباط.

[المحرم ١٤٠٥هـ - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م]

ومن يتولهم منكم فإنه منهم

قد نكون عاجزين ـ لسبب أو لآخر ـ عن مواجهة القضية الآن، فلا أقل من أن نعترف بعجزنا ونرفع أيدينا عنها، ونتركها للأجيال القادمة، فهي أكبر من أن تكون قضية جيل بعينه، أو رجل بذاته مهما أضفى على نفسه من الألقاب التي تأتي في غير موضعها، نتركها للأجيال تستلمها بأمانة دون زيف أو تدليس، ذلك أن القضية مع يهود قضية صراع ديني تاريخي حضاري ثقافي، لا يمكن لأحد أن يقفز من فوقه ويعطي نفسه أكثر ما تمتلك وتستحق..

وبإمكاننا القول: إن المسلمين عندما كانوا في مستوى إسلامهم، هم وحدهم الذين استطاعوا أن يضعوا حداً لجرائم يهود على البشرية.. ولا يزال خلاص البشرية مرهوناً بالتزام المقاييس والضوابط التي وضعها الإسلام...

* * *

بين الإحساس.. والإدراك

لا نريد بهذه الكلمات أن نشارك مجموعة النّدابين والبكّائين، لأن مساحة المأساة وعمق جراحها يتسع يوماً بعد يوم، ولم يبق في الكلام عنها استزادة لمستزيد... كما أننا لا نريد أيضاً أن ننضم لموكب المشيعين الذين يسيرون في الجنازة، وقد يكون بعضهم من القتلة، ليطمئنوا على مواراتها التراب في مثواها الأخير.. وإنما نحاول المساهمة بشيء من البصارة الضرورية لسلامة الرؤية، وتصويب المسار، وإتيان البيوت من أبوابها بدل الإصرار على السير في الطرق المسدودة والمسالك الوعرة... ذلك أن ما نزل بنا ليس عبثاً، وليس وليد

مصادفة وإنما هو ثمرة لمقدمات طويلة لم نستفد منها، وسنن وقوانين تحكم الحياة والأحياء ثابتة لم نتعامل معها، وعقوق لقيم وتاريخ هذه الأمة لما نستطع أن نضع له نهاية بعد، وليت الأمر توقف عند عتبة العقوق فقط، وإنما تجاوزه إلى مرحلة الاعتداء على عقيدة الأمة والإبادة المستمرة للجيل الذي يحمل هذه العقيدة ويدافع عنها تحت أسماء وعناوين شتى باتت لا تخفى على أحد، خاصة وأنها، وفي كل مرة، جاءت متزامنة ومتوازية مع عمق المأساة وامتداد ساحتها.

ولعل المأساة الحقيقية هي في العدوان على عقيدة الأمة الإسلامية وذلك بتربية الأجيال على التنكر لها والانسلاخ منها، ومطاردة الملتزمين بها الداعين للاحتكام إليها، هذه هي المأساة الحقيقية، وما عدا ذلك إنما يكون من ثمراتها، بل هو أحد الأعراض الكثيرة للأمراض التي تفتك في الجسم الإسلامي.

ونحن ابتداء قد لا نتهم صدق أصحاب العواطف الجياشة التي نلمسها هنا وهناك، ولا الحرقة الصادقة على مأساة المسلمين والمذابح الرعيبة وحمامات الدم في المخيمات الفلسطينية في لبنان التي لا يعوزها الدليل بالنسبة لبعضهم حيث يدفع النساء والأطفال الأبرياء ضريبة التخاذل والعجز العربي... ولكن نريد أن نقول: إن العاطفة الصادقة، والندب المستمر، والبكاء الدائب سوف لا يساهم بحل المشكلة إذا لم يترافق مع دراسة متأنية للأسباب التي أدت إلى وقوع الكارثة، وتحديد العلة وتشخيص المرض.. ومن ثم البدء بالمعالجة، ذلك أن البكاء والندب الصادق قد يكون بمقدور النساء والأطفال والعاجزين، لكن السؤال المطروح دائماً: إلى أي مدىً يساهم بحل المشكلة ومعالجة المأساة؟!

وأخشى ما نخشاه أن يكون ذلك الصراخ والعويل قد أصبح ثقافة تحكمنا، تشفي نفوسنا ولا تحل مشاكلنا، كالأطفال الذين يظنون أن مشكلاتهم كلها تحل بالبكاء والصراخ... لذلك نراهم يستزيدون من الصراخ كلما اشتد بهم الأمر واتسعت دائرة العجز، فهل ينقذ الندب والنياحة الميت؟! وهل يشفي البكاء المريض؟ أم يزيد المأساة، ويستنزف طاقات يمكن ادخارها وصرفها إلى المكان المجدي في الطريق الصحيح؟! لا بد لنا من بصيرة الطبيب، أما أن نبكي ونهدر طاقاتنا ونتابع رحلة التضليل، فإن ذلك تكريساً للمأساة.

ويحضرنا هنا قول الشاعر الأندلسي بعد أن أُجبر المسلمون على الخروج من غرناطة وحدد لهم طريق هذا الخروج، وهو العدوة الثانية من الشاطىء، يخاطب أحد البكّائين من المسؤولين عن ضياع بلاد المسلمين هناك:

تبكي مثل النساء ملكاً مضاعاً   لم تحافظ عليه مثل الرجال

هناك في الحقيقة الكثير من المقدمات الخطيرة التي انتهت بالأمة إلى ما وصلت إليه الحال الآن، ولم نرض لأنفسنا أن نكون من فريق المدّاحين الذين يصفقون لكل خطوة دون فحصها واختبارها، ومن بطانات السوء التي تسللت إلى بعض الأجواء، وهي لا تريد خيراً للبلاد والعباد، وللتي لا يعصم منها إلا من عصمه الله، لأنها بطانة تحسن الهدم ولا تطيق البناء.

فليست الميزة في رؤية المأساة حال وقوعها، والإحساس بها عند حلولها، لأن ذلك يستوي فيه الناس جميعاً.. وإن كان الدرس والعبرة والاسترجاع إنما يختص به بعضهم، لأن الكثير يحس، ولكن القليل هو الذي يدرك...

إن الميزة دائماً تكون بالقدرة على إبصار الأمور من مقدماتها، والقدرة على المقايسة والتعليل للحيلولة دون وقوعها، وهذا ما لا يريده كثير ممن يسمون بالعرب وبالمسلمين اليوم، لأن معظمهم مصاب بالعمى العقلي إن صح التعبير. ذلك بأنهم يصنعون التماثيل من ثلج بأيديهم، ومن ثم يبكون على ذوبانها.

مواقع الرؤية القرآنية

وقد يكون بإمكاننا إلى حد بعيد تلخيص المشكلة، وتحديد أبعادها، ذلك أنها أصبحت من الوضوح إلى درجة لا تتطلب مزيداً من الأدلة بعد أن حصحص الحق..

إن قيام إسرائيل جاء نتيجة رؤية دينية توراتية، كانت وراء تحريك يهود وشدهم في جميع أنحاء العالم، وبوسائل مختلفة، وعلى مستويات متعددة

للوصول إلى دولة «إسرائيل» التي تقيم الهيكل في أرض الميعاد؟؟ ولم تكن القضية وليدة يوم وليلة، كما يتوهم بعضهم، وإنما هي ثمرة لجهود مكثفة، وخطط مدروسة، وتعاون مستمر، وتحكم خفي بالمسارات الدولية، وقدرة على توظيف الكثير من الأشخاص والأحداث لمصلحة القضية، يحكم ذلك كله ويتحكم به إرادة عامة هي وليدة عقيدة تلمودية صنعها لهم الحاخامات ورجال الدين، ولكل فرد يهودي نصيب منها، فاليهود يحاكمون العالم ويحكمون عليه من خلال ما يعتقدونه من قيم، ويفسرون الحركة الإنسانية والنشاط البشري تفسيراً توراتياً ويصرون على ذلك، ويرسمون الخرائط الدينية ويغيرون التسميات ويتلاعبون بالأسماء، وتتفجر أحقادهم التاريخية، كالألغام الموقوتة هنا وهناك، للانتقام من البشرية، ولأمر يريده الله، أن تكون ساحة انتقامهم مركوزة في قلب العالم الإسلامي، فلسطين، وأن يكون أهلها هم على الخندق الأول للمواجهة والوقوف في وجه يهود الذين يهددون العالم الإسلامي كله الذي يعاني الضياع، والضلال والانسلاخ من عقيدته الإسلامية، يعيش فترة التيه والشتات التي خرج منها يهود ليدخلها العرب المسلمون، وتلك الأيام نداولها بين الناس...

أما أولئك الذين يعيشون حياة الاسترخاء والدعة، ولا يشعرون بهول المأساة وخطورة المذبحة، ولا يحسُّون بحقوق الأخوّة، ويسلمون النساء والأطفال ليهود، يمزقون أجسادهم ويهتكون أعراضهم، فلسوف (يؤكلون كما أكل الثور الأبيض!!).

وهذا سوط السماء يؤدب اللّهُ به العصاة، وسيوف الأعداء توقع العقوبات على الأمة المتنكرة لعقيدتها، الخارجة على مبادئها، والمهادنة للظالمين الذين يعملون على سلخها عن عقيدتها، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم:

«..إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقابه..» وقال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الأنفال: ٢٥) والأمر الذي لا يزال غائباً عن

ساحة الرؤية أن قيام الحضارات وسقوطها، وبناء الأمم وانقراضها، وتسليط الأمم بعضها على بعض، إنما يخضع لسنن وقوانين لا يمكن إغفالها ولا القفز من فوقها. . . ولقد عرض القرآن الكريم للمرتكزات الأساسية لهذه السنن، وطلب النظر والتبصر والسير في الأرض، وتحقيق العبرة، والاعتبار بأحوال الأمم السابقة وسبب انقراضها وتداعيها، لتكون الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة على بينة من أمرها وبصيرة بموضع أقدامها ومعرفة بأعدائها، ﴿**والله أعلم بأعدائكم**﴾. . ﴿**وما جعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا**﴾. .

كيف لا يكون ذلك، والله تعالى يقول: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ**. .﴾ (المائدة: ٨٢).

ولكن الأمر الذي نعاني منه على الجانب العربي الإسلامي أن مسلمي اليوم ما يزالون دون سوية الرؤية القرآنية التي تبصرهم بأعدائهم، وتحملهم إلى مواقع الترصد والتبصر والنظر والاعتبار، هذا على المستوى العام، أما في بعض المستويات الأخرى فنرى التنكر والعقوق والعمل على سلخ الأمة عن عقيدتها درع صمودها وعدة كفاحها، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن تلتزم الأمة عقيدتها، وتعيش مواقع الرؤية القرآنية، وتحسن تحقيق الإسلام في حياتها، ويسلط الله عليها أعداءها: فلا بد من المراجعة، وقد تكون الحاجة إلى المراجعة أشد في المنعطفات الكبيرة والهزائم الكبرى في حياة الأمم.

فلسفة الهزائم

إن الخطورة كل الخطورة على هذه الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة تأتي من يهود، والعداوة أشد العداوة كامنة في طبيعة يهود، وقد بدأت المواجهة معهم منذ الأيام الأولى لنزول الوحي الذي أنكروه، لا لشيء وإنما لكونه في العرب، بعد أن كانوا يستفتحون به عليهم، والذي يستقرىء التاريخ يجد أن المسلمين كانوا تاريخياً الأقدر على التسامح وحسن التعامل والإحسان، ولم يجد يهود في تاريخهم الطويل من حسن المعاملة ما وجدوه عند المسلمين، لكن كانت تأبى

طبائعهم المتوارثة إلا الحقد والتآمر والكيد. . . إنها الجبلة التي طبعوا عليها كما طبعت بعض الحيوانات على الافتراس، وكما طبعت الأفاعي والعقارب على اللدغ، وهل الإحسان إلى هذا النوع من المخلوقات يغير من وظيفتها، ويبدل من طبيعتها، ويستبدل سمها بعسل. . . إن كل المحاولات التي تبذل في هذا المجال يسخر منها التاريخ ويكذبها الواقع.

إن علاقات يهود مع المسلمين في مرحلة النبوة، والمعاهدات التي وقعت بينهم وبين رسول الله ﷺ، وجعلتهم على قدم المساواة مع المسلمين لم تغير من طبائعهم شيئاً، وكانوا لا يفتأون يتربصون الدوائر بالمسلمين، وهذا لا يحتاج منا إلى مزيد اختبار وإنما يحتاج إلى مزيد دراسة وديمومة اعتبار. . . ذلك أن الحقد التاريخي اليهودي يمكن أن يتفجر في كل زمان ومكان، فلا بد من اليقظة الدائمة في كل زمان ومكان، ولا بد من التمتع بقدر أكبر من الرؤية القرآنية، واعتبار أكثر بدروس السيرة النبوية. . . فإذا كان من أوليات عقيدتنا أن القرآن مجرد عن حدود الزمان والمكان، وأن الرؤية القرآنية لا يحدها زمان ولا يحصرها مكان، بقي أن نمتلك القدرة على ترجمة هذه الأوليات إلى حركة وموقف. . . وليس عبثاً أن تكون المساحة التعبيرية التي تتكلم عن بني إسرائيل وجرائمهم، وقتلهم الأنبياء، ونكثهم العهود، وأكل أموال الناس بالباطل حتى على أعلى المستويات كالأحبار أو الرهبان، والشهادة للكافرين بأنهم أهدى من المؤمنين سبيلاً، والنكول عن الاستجابة لأمر الله تعالى في دخولهم الأرض المقدسة وتسللهم إلى الصف الإسلامي وصناعة المنافقين وعقد موالاة معهم.

ليس عبثاً أن تكون المساحة التعبيرية بهذا الحجم، وأن تستغرق موضوع السور الطويلة في القرآن الكريم، ذلك أن الخطر الذي يهدد الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة إلى الإنسان إنما يتمركز بيهود، إنها الجبلة التي تنتقل من جيل إلى جيل، وتشكل المناخ الثقافي الذي يتحكم بالأجيال من خلال عقدة الشعب المختار، وأسوار المجتمعات المغلقة، من هنا يمكننا أن نفسر لماذا خاطب القرآن الكريم الأبناء بجرائم الآباء، والأحفاد بجرائم الأجداد، إنها الجريمة، وهي الطبيعة المتأصلة التي تنتقل من جيل إلى جيل.

وبإمكاننا القول: إن المسلمين عندما كانوا في مستوى إسلامهم، فهم وحدهم الذين استطاعوا أن يضعوا حداً لجرائم يهود على البشرية، ولا يزال خلاص البشرية مرهوناً بالتزام المقاييس والضوابط التي وضعها الإسلام، والنظر من النوافذ التي رسمها القرآن لمعرفة ما تنطوي عليه نفوسهم، وأية محاولة للتنكر لهذه الحقائق تعني الدمار، وتعني مزيداً من الهزائم والتردي، وسقوطاً في مناخ التهويد عن حسن نية أو غباء، أو عن عمالة وتآمر وكيد لهذه الأمة.

ولا بد لنا من الاعتراف بأننا نمثل الآن، وأكثر من أي وقت مضى، مرحلة «القصعة» ومرحلة «الغثاء» التي حذر الرسول ﷺ من الانتهاء إليها عندما تتداعى علينا الأمم، لكن بعضنا يصر على الاستكبار، ويلفه الصلف، ولا يرضى أن يعترف بالحال التي نحن عليها، والذي يشكل بداية الطريق إلى الحل من خلال الأرض التي نقف عليها، حيث ما زلنا نسمي الأمور بغير أسمائها، ونتابع رحلة التضليل والمغالطة، ولا زالت الهزائم تقرأ لنا انتصارات... ولا زلنا نذكر بأسى شديد الشيء الكثير عن فلسفة الهزيمة في نكبة ١٩٦٧م والتي شكلت نقطة تحول في الوجود اليهودي، عندما رفعنا شعار أن «إسرائيل» لم تحقق هدفها (الذي حددناه لها نحن وهو إسقاط الأنظمة) وأنها احتلت الأرض ولم تستطع احتلال الإرادة العربية!! لذلك ذهب الناس يفتشون في خارطة العالم العربي عن الإرادة العربية التي لم تستطع «إسرائيل» احتلالها فلم يجدوها!!

قضية أجيال...

إن أعداءنا يتحركون بوعي وإدراك ودراسة ودراية لكل ما حولهم، يشدهم إلى ذلك ويدفعهم إليه رؤاهم الدينية التي يحملون الناس عليها ويحاكمونهم من خلالها، كما قدمنا، ويحاولون أن يوظفوا كل شيء من الغزو الفكري والتضليل الثقافي... وقد امتدت أيديهم إلى القيم الإسلامية للعبث بها وتحريفها، وهم المختصون تاريخياً بتحريف الكلم عن مواضعه، ولا بأس هنا أن نذكر مقولة رئيس وزراء دولة العدو «بيجن» في الكنيست الإسرائيلي -

بين يدي السلام الهزيل الموهوم ـ عندما قال: (إن حق إسرائيل في فلسطين أبدي تاريخي تشهد له الكتب المقدسة، ومنها القرآن الكريم، وقرأ قوله تعالى في سورة المائدة على لسان موسى عليه السلام ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (الآية: ٢١) وقال: إن الله فرض لنا الأرض المقدسة دون سائر الخلق، فلا يجوز لأحد دينياً أن ينازعنا فيها)..

وكانت المأساة أن بعض من يعيشون في عالمنا بدأوا يتساءلون: هل توجد مثل هذه الآية في القرآن الكريم؟! وإن وجدت فما حقيقة تفسيرها؟ أليست هذه هي المأساة بكل أبعادها: أن يكون يهود أقدر على توظيف قيمنا منا، ونحن نستمر في الضياع، ونعجز عن التعامل معها!!..

لقد كان موقف القرآن الكريم من يهود ـ أشد الناس عداوة للذين آمنوا ـ حاسماً جازماً غير قابل للمهادنة والتميع، لأن القضية مصيرية، قضية مصير البشرية، وقد حذر بشكل لا يقبل التأويل من اتخاذهم أولياء، وأن ذلك طريق المنافقين، وحذر أيضاً من الاطمئنان إليهم بأي شكل من الأشكال، وبيّن أن ملة الكفر واحدة، وأن الخطورة على المسلمين تكمن في التعاون الصليبي اليهودي لأن جذورهم واحدة، وبعضهم أولياء بعض... ويؤكد هذا الآن، ما تناقلته وكالات الأنباء من أن «بيجن» بعد احتلال قواته قلعة «الشقيف»، أعادها إلى «سعد حداد» قائلاً: إننا نعيد إليك القلعة التي افتقدها أجدادك أيام صلاح الدين..

قال تعالى في أمر موالاة اليهود والنصارى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ إلى أن يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي

اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (المائدة: ٥١ ـ ٥٤).

فهل ندرك:

أن موالاة اليهود والنصارى ردة عن دين الله، وأنه طريق المنافقين، وفلسفة المنافقين، وأنه مهلكة للأمة وطريق لانتهائها واستبدالها بقوم يحبهم الله ويحبونه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يسيرون في طريق الجهاد؟.. وأن موالاة اليهود والنصارى تسقط الجهاد من الحساب، وذلك نهاية الذل والخذلان؟ ولا يتسع المقام هنا لبيان سبب نزول الآيات، وقد يكون المطلوب قراءتها أكثر من مرة لأنها يمكن أن تفسر إلى حد بعيد الكثيرمما نحن فيه.

وبعد،

فقد نكون عاجزين لسبب أو لآخر عن مواجهة القضية الآن، فلا أقل من أن نعترف بعجزنا، ونرفع أيدينا عنها ونتركها للأجيال القادمة، فهي أكبر من أن تكون قضيةجيل بعينه، أو رجل بذاته مهما أضفى على نفسه من الألقاب التي تأتي في غير موضعها، نتركها للأجيال تستلمها بأمانة دون زيف أو تدليس، فإن القضية مع يهود قضية صراع ديني تاريخي حضاري ثقافي لا يمكن لأحد أن يقفز من فوقه ويعطي نفسه أكثر مما تمتلك وتستحق، فيظن أنه ينشىء قضيةحضارية، أو يلغي تاريخاً ثقافياً، أو يغير جبلة بشرية بتوقيع أو بمعاهدة أو بمقررات..

لا بد أن يتوقف العد التنازلي في حياتنا، فلقد كانت المشكلة في عام ١٩٤٨م قبول العرب بـ«إسرائيل» فأصبحت المشكلة الآن: اعتراف «إسرائيل» بالعرب.

[المحرم ١٤٠٣هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢م]

نسوا الله فأنساهم أنفسهم

لو أحصينا عدد المهاجرين من بعض دول المسلمين بسبب القمع السياسي والإرهاب الفكري، لتوازى عددهم مع عدد الفلسطينيين المهجرين من بطش يهود.. فالمأساة تكاد تكون واحدة وإن اختلفت الأسماء والمسميات.. من هنا نقول: إن الذين يعملون على سلخ الأمة عن إسلامها، ويمارسون الاعتداء على عقيدتها وكرامتها، هم طلائع جيش العدو، يعيشون في أرضنا، ويمهدون لهزائمنا المتلاحقة..

* * *

الحراب العربية

نصف قرن من الزمان في معركتنا المباشرة مع يهود، والنكبات تستمر، والنكسات تتوالى على هذه الأمة، والأرض العربية المسلمة تنحسر وتتناقص من أطرافها، وجيوش اللاجئين والنازحين والوافدين - ولكل مرحلة تسمياتها - تغطي ما تبقى من أرضنا، وخيامهم مزروعة أينما اتجهنا وحيثما سرنا، وكل يوم نحن بحاجة إلى أراضٍ جديدة لإقامة المخيمات التي لم توقظ فينا عقيدة، ولم تثر فينا حمية، بل شكلت مناخاً لزرع وتربية حواس جديدة في نفوسنا، هي، حواس الذل والمهانة، وإشاعة الخوف والانكسار.

لقد حلت مخيمات اللاجئين في عالمنا الإسلامي محل معسكرات المجاهدين، وحلّ التطبيل والتزمير محل الإعداد والاستعداد وامتلاك إرادة القتال، وأدوات الحرب التي ننكأ بها عدونا، لنكون صادقين مع الله ومع

النَّاس، وغدت معظم بلاد العالم الإسلامي ضواح للدول الكبرى تأمرها فتأتمر، وتزجرها فتنزجر، ولا تستطيع الخروج عما رسم لها قيد أنملة، فالموالون للشرق يصيحون ملء حناجرهم: لا غربية، والموالون للغرب الذين أقاموا أنصابهم وأزلامهم في أوروبا وأمريكا يصيحون: لا شرقية.

وتعيش الشعوب المسكينة المغلوبة على أمرها ـهم الاستقلال، وتصدق فرية الشعارات التي تملأ عليها حياتها. وكلما حصلت نكبة، ارتفع الصياح أكثر فأكثر...

إن تهديد إسرائيل لجنوب لبنان، بل تهديدها للبنان واحتلالها الوشيك، أخذ حيزاً كبيراً من اهتمامنا، ومساحة واسعة من وسائل إعلامنا، وضربت له طبول الحرب أكثر من مرة، وعقدت الاجتماعات والمشاورات التي لم تخرج في حقيقتها عن أن تكون حلقة في سلسلة الاجتماعات التاريخية التي سبقتها، وولت الأدبار وباءت بغضب من الله، لأنها لم تقدم شيئاً لقضية الأمة، ولم تتخل عن طريقها وتعترف بالعجز..

واليهود يعرفون ذلك ويعتمدونه في خطتهم، تقول جولدا مائير: إنني أعرف هؤلاء العرب جيداً، إنهم يحتجون اليوم، ويقيمون المظاهرات ويصرخون.. ثم يحتفلون بالذكرى السنوية كل عام للقضية.

وحصل العدوان على لبنان وبدأت حرب الإبادة الكاملة للبقية الباقية، ومع ذلك يصر الكثير منَّا على أن يكون دوره دور المتفرج، إن لم يكن دور الشامت، لأنه متذرع بالحصافة والعقلانية، لدرجة تفوِّت على إسرائيل أغراضها، ولا تسمح لها بتحديد زمان ومكان المعركة!! والشعوب المسكينة ما زالت على قائمة الانتظار، والجيوش المحنطة في العالم الإسلامي انقلب دورها إلى حماية الأنظمة من الشعوب بدل حماية الأرض، وصون العرض على الحدود، إلى جانب المسلسلات الانقلابية التي وظفت لها، فأنهكتها وشلَّت قواها، وأفقدتها وظيفتها الأساسية.

وأظن أننا لا نأتي بجديد، إذا قلنا: إن ما أصاب المقاومة الفلسطينية من

الحراب العربية في أكثر من جهة، كان المقدمة الطبيعية لما تقوم به إسرائيل اليوم من حرب الإبادة في لبنان، لقد اقتسمت إسرائيل المعركة مع عملائها في عالم المسلمين الذين نيط بهم العمل على إنهاك المقاومة الفلسطينية، ومن ثم يأتي دور إسرائيل في العمل على إنهائها، وهذه بديهية أصبح يعرفها القاصي والداني مهما حاولنا تزييف التاريخ، فبعض شواهده ما زالوا على قيد الحياة.

حصاد الهشيم

إن واحدة من هذه الهزائم الساحقة واللاحقة كانت كافية لوقفة مراجعة جريئة على كل المستويات، والاكتشاف أن سبب هذه النكبات هو غياب روح الوعي الإسلامي، وغياب البعد الإيماني عن ساحة المعركة، ولنستمع إلى ما تقوله صحيفة يديعوت أحرنوت في أعقاب غزوهم الأول لجنوب لبنان، وإقامتهم لدويلة سعد حداد، نواة الدولة المارونية الطائفية المنتظرة، قالت الصحيفة:

(إننا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، ويجب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة، ولهذا فيجب علينا أن لا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع يقظة الروح الإسلامية بأي شكل، وبأي أسلوب ولو اقتضى ذلك الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف في إخماد أية بادرة ليقظة الروح الإسلامية).

إن جميع الصور والممارسات التي يعيشها عالمنا الإسلامي، هي المقدمات الطبيعية لما انتهينا إليه، فأين الإسلام من المعركة، وأين أصبح الجيل المسلم الذي يشكل الخطورة الحقيقية على إسرائيل؟! هل استطاعت إسرائيل بواسطة أصدقائها إخماد يقظة الروح الإسلامية؟! ندع الجواب إلى وسائل الإيضاح الكثيرة التي تملأ علينا حياتنا في العالم الإسلامي، فلماذا نصنع التماثيل من الثلج ونبكي على ذوبانها؟

والأمة المسلمة اليوم تُعَاقَبُ بسيوف يهود وحرابهم، هي عقوبات يوقعها

الله في الأمة التي تتخاذل عن نصرة دينها، ويكثر فيها الخبث، وتقعد عن الأخذ على يد الظالمين الذين غدروا بقيمها، ومارسوا عملية سلخها عن إسلامها، إنها ركنت إلى الذين ظلموا وتعايشت معهم، فكان لا بد أن تمضي فيها سنة الله.. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

إنه الغياب الإسلامي المخيف، لقد غاب البعد الإيماني عن حياتنا، وغاب سلاح الإيمان عن معاركنا، ونحن تاريخياً لم ننتصر بعدد ولا عدة فقط، وإنما انتصرنا بهذا الدين، ولا يفهم من هذا عدم الإعداد المادي، والله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾ بل لا بد من إعداد المؤمن المجاهد أولاً، ومن ثم يأتي الإعداد المادي، فالرجل هو الذي يحمل السلاح ويستعمله، وليس السلاح هو الذي يحمل الرجل، ولعل في وصية سيدنا عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص، ومن معه من الأجناد.. رضي الله عنهم، شيء من العبرة والبصائر في هذه المناسبة، قال عمر رضي الله عنه.

(أمّا بعد... فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، لولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا بالقوة، وإلاَّ نُنْصر عليهم بفضلنا.. لم نغلبهم بقوتنا فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شَرٌّ منَّا فلن يُسلط علينا، فرب قوم سُلِّط عليهم شرٌّ منهم، كما سُلِّط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله، كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار، وكان وعداً مفعولاً، اسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم..) فأين موقفنا من الإسلام. وموقع الإسلام من حياتنا، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

سنوات طوال عجاف.. والمحاولات دائبة لسلخ الأمة عن إسلامها،

درع وقايتها وعدة كفاحها، ونصب الآلهة المزيفة والاستنصار بها من دون الله، ومحاولة نقل قبلتها إلى الشرق تارة وإلى الغرب أخرى.. حيث كان الحصاد هشيماً.

ضحايا التصورات الخاطئة

لقد سقطت مدارسنا وجامعاتنا ومعاهد التعليم، والكثير من وسائل الإعلام في بلادنا في أيدي يهود قبل أن تسقط الأرض، ولا يظنن أحد أن سيوف يهود مشهورة على حدودنا، ورماحهم مزروعة في أرض فلسطين فقط، إنها الأشباح تطاردنا في كل مكان.

من أجلها تشرع تشريعات القمع السياسي، والضنك الاقتصادي، وتشرع وتُحْكَم أحكام الطوارىء في أكثر بلاد المسلمين، ومن أجلها قامت المسلسلات الانقلابية طيلة نصف قرن من الزمان، حتى لا يكاد ينجو أحد من الاتهام بالعمالة اليهود، ولا نريد هنا أن نذكر بقائمة الزعماء التي مرت بعالمنا خلال هذه الفترة، ولم يستطع أحدهم أن يحتفظ بسمعته، والذي استطاع أن يحرسها بعسكره حال حياته نفذت عليه الأحكام بعد مماته، وأن عمليات القمع السياسي، والإرهاب الفكري، وتهجير العقول، واستلاب الحريات، وإماتة روح المقاومة في نفوس الأمة التي تمارس في أنحاء كثيرة من بلاد المسلمين، تكاد تجعل الإنسان غريباً في وطنه، ولو أحصينا عدد المهاجرين من بعض دول المسلمين بسبب القمع السياسي والإرهاب الفكري لتوازي عددهم مع عدد الفلسطينيين المهجرين من بطش يهود، فالمأساة تكاد تكون واحدة وإن اختلفت الأسماء والمسميات، من هنا نقول: إن الذين يعملون على سلخ الأمة عن إسلامها، ويمارسون الاعتداء على عقيدتها وكرامتها، هم طلائع جيش العدو، يعيشون في أرضنا، ويمهدون لهزائمنا المتلاحقة، والحقيقة التي لا بد من تأكيدها بعد هذه المعطيات الكثيرة التي نعيشها هي أن الفلسطينيين يُحَاربون وتجمع الدنيا على إبادتهم على أنهم أحفاد المسلمين، صلاح الدين ونور الدين وقطز

وقادة الفتح، وتصب عليهم نيران الأحقاد التاريخية الصليبية والصهيونية مهما كان واقعهم وتسمياته، ومحاولة إبعادهم عن الإسلام سلاحهم الحقيقي ودرعهم الواقي.. فأين سلاح الإسلام في المعركة، وأين تربية الإسلام في البناء، وأين حقوق الأخوة الإسلامية في التضامن.. والنصرة والموالاة، والحميم يصب على رؤوسهم أمام سمعنا وبصرنا؟!

لقد ذهب الكثير منهم ضحية تصوراتهم الخاطئة، ولم يغن عنهم شيئاً إعلانهم القبول بالدولة العلمانية، وتشكيلهم للمنظمات اليسارية، وممارسة بعضهم لحياة الانسلاخ عن الإسلام، فهل ما زلنا نحتاج إلى مزيد من القوارع حتى يعود إلينا الوعي؟!.. فما أشبه اليوم بالبارحة، ما أشبه واقع الأمة اليوم بواقعها أيام الحملات الصليبية!!..

إن الصليبية الفاجرة واليهودية الماكرة، وربيبتهما الطائفية الحاقدة هي التي تحكم صورة المعركة، ومع ذلك لا يزال بعضنا يقابل ذلك بالذهول وبعمى الألوان..

وبعد: فنحن واثقون بأن مصير يهود والصليبيين الجدد لا يختلف عن نهاية الصليبيين القدامى، وسوف تنتهي فترة غياب الجيل المسلم القادر على تحرير الأرض وحماية العرض، ورب ضارة نافعة، فالهزائم المتوالية، وسقوط قائمة الشعارات التي أريد لها أن تكون البدائل الفكرية عن العقيدة الإسلامية، جعل الأمة تفكر في استئناف طريقها إلى الإسلام من جديد مهما عظمت التضحيات، وتعتقد بحتمية النهج الإسلامي لانتهاء رحلة التضليل الثقافي، والضياع النفسي، والاستعمار العسكري، وقد حذرها الله تعالى بقوله: **﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾**.

[شوال ١٤٠٢هـ - آب (أغسطس) ١٩٨٢م]

فلسطين والذاكرة المفقودة

إن عمر الأمم لا يقاس بالسنوات التي يقاس بها عمر الأفراد، ولا يحكم على أمة من خلال مرضها أو أثناء مرضها. وأن الصليبيين، بكل أحقادهم وإمكاناتهم، استمروا في احتلال بلاد المسلمين قرابة قرنين من الزمان، وكانت الأمة بإسلامها، درع وقايتها وعدة جهادها، قادرة بعد ذلك على طردهم، ونحن واثقون بأن مصير يهود لا يختلف عن نهاية الصليبيين، وسوف تنتهي فترة غياب الجيل القادر على التحرير، ذلك أن العقائد أبقى من السياسات، والشعوب أقوى من الحكومات، وأن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضيرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة».

ولعل هذا الربط الذي يلمحه الإنسان من حديث رسول الله ﷺ، من وحدة الجيل المسلم، ووحدة المعركة، ووحدة الأمة، ووحدة المصير، لا تعوزه الدلائل، فمعركة المسلمين واحدة.

* * *

نعترف منذ البداية أننا لا نريد الكلام عن تاريخ القضية الفسطينية، ولا عن قيام دولة إسرائيل، الذي تعود الناس أن يعرضوا له في مثل هذه المناسبات - تأسيس دولة إسرائيل - ابتداء من نشوء الفكرة في رؤوس زعماء

إسرائيل، وظهورها على ألسنتهم، وفي كتاباتهم، واعتمادها في مؤتمراتهم، والتزامها في سلوكهم، وطريقهم الطويل إلى أرض الميعاد، ووسائلهم الكثيرة والمتعددة لتحقيق ذلك.

فالكثير من الصحف والمجلات في عالمنا الإسلامي تكفينا ذلك، فالأمر يكتفى فيه بالرجوع إلى مفكرة المناسبات والأحداث، حيث إن القضية أخذت مكانها في سجل المآسي والأحزان، ومن ثم تأخذ الملف الخاص من الأرشيف، وتعيد طرح المعلومات من جديد، وقد تضيف إليها بعض الصور الجديدة والتصريحات التي يمكن أن تشكل معلومات إضافية، ولا نقول أضواء إضافية، لأنه على الرغم من كثرة الكتابات والكتاب، والورق والأقلام، لا يزال بعض الذين يقفون في طريق التحرير، ويقودون الأمة في الطريق المسدود، يشكلون الحواجز الحقيقية... والمشكلة بالنسبة لهم ليست في نقص المعرفة وإنما في الالتزام بأخلاقها.

إن أوراق القضية الفلسطينية، لا نقول: بلغت حمل بعير؛ وإنما هي أحمال، وقضية الأمة قبالة ذلك آخذة بالتراجع والعد العكسي، وإسرائيل ماضية في قضم أطرافنا، والواحد تلو الآخر، إن هذه الأوراق لو أحرقت على أرض فلسطين لكانت كافية أن لا تبقي فيها عدواً لله، ولو أحرقت على الساحة العربية لطهرتها من كل الذين يعملون لمصلحة يهود عن قصد وغير قصد، سواء أكان ذلك عن عمالة أم هبالة... وأخشى ما نخشاه أن تكون الكتابة والخطابة والصحافة، والبيانات والمؤتمرات أقنية مرسومة مسبقاً لتفريغ العواطف وتنفيس الطاقات والاعتماد النفسي للأمة، وخصاء معاني الجهاد من حياة المسلمين..

إنها صفحات نوبخ فيها أنفسنا بكثرة الكلام وقلة الأعمال، وتوظف في نهاية المطاف لمصلحة عدونا، يبصر فيها حقيقة الواقع الذي نعيشه، ويرسم المداخل الحقيقية للتعامل معنا، وتوظف هذه الأمور جميعاً لمصلحته، وقديماً قال الشاعر:

وَإِذَا مَا خَلاَ الْجَبَانُ بِأَرْضٍ ... طَلَبَ الطَّعْنَ وَحْدَهُ وَالنِّزَالاَ

لقد أصبح الاحتجاج فناً قائماً بذاته في أدبنا السياسي، أو في فكرنا السياسي، إن صح التعبير، ولسوف يحفظه لنا التاريخ دون منازع، وأصبحت الشكوى وسيلة علاج خادع، إنها عودة إلى الطفولة البشرية التي تتوهم أن كل المشكلات إنما تحل بالبكاء والصياح والاحتجاج والخطب والمؤتمرات، ونحن هنا لا ندعو إلى كسر الأقلام، وإلغاء الصحف، وإيقاف المنابر، ولكن نقول: إن هذه الأمور هي في حقيقتها وسائل لشحذ العواطف، وإنارة العقول، وتبصير الأمة بعدوها، وتعبئة طاقاتها، وإعداد قوتها، لكن المشكلة عند كثير منا أن هذه الوسائل انقلبت إلى غايات بحد ذاتها، تأكل القضية فيزداد ارتكاسها.. إنها وسائل، فلتكن ولتبق وسائل تعتمد بالمقدار الذي يحقق للأمة أهـدافها، ويخدم قضيتها..

قلنا في إثر إحراق المسجد الأقصى الأول: إن إحراق الأقصى جريمة لن تمر دون عقـاب، وملأنـا الدنيـا خطبـاً ومظاهـرات واحتجـاجـات واجتـماعـات وتصريحات، وبدأنا بمجلس الأمن، وانتهينا بالجمعية العمومية (الدورة ذاتها) وكان رد جولدا مائير في ذلك الوقت:

«إنني أعرف هؤلاء العرب جيداً، إنهم يحتجون اليوم ويقيمون المظاهرات ويصرخون.. ثم يحتفلون بالذكرى السنوية كل عام...».

فهل نذكر ذلك أم نتابع فقدان الذاكرة، فيصدق فينا قول القائل: يرضى القتيل وليس يرضى القاتل..

وأخشى ما نخشاه هنا أن يشكل هذا الذي عليه الواقع اليوم مُناخاً تُنشَّأ من خلاله الأجيال، وتربى عليه الأطفال، فتفتقد الكلمات معناها، وتنتهي الأمة إلى لون من التضليل والضلال، تضيع عليها الجهات، وتختلط عندها المفاهيم، ويتوارث الأبناء عن الآباء كثرة الكلام وقلة الأعمال، واهتزاز القيم، واعوجاج المقاييس..

باسم قضية فلسطين..

ولنا أن نقول إذا تتبعنا مسار القضية التي سلخت من حياتنا الفكرية

والسياسية والاقتصادية قرابة نصف قرن أو يزيد، في أخطر عملية استنزاف: إن المناخ الذي تركته القضية يحكم حياتنا هو مناخ مأساوي أليم، أحدث اضطراباً سياسياً خطيراً، فلا بد من المصارحة خدمة للجيل القادم الذي يمكن أن يكون جيل القضية، لأن هذا الجيل قد تُودع منه أو كاد. . . إنه جيل الاسترخاء والرخاوة، وفلسفة الهزائم، والخداع السياسي، وصناعة البطولات والأبطال في الفراغ الذي عم حتى يكاد لا ينجو منه أحد. . إننا نعيش مرحلة أبطال الهزائم، والظاهر أن البطولة لم تقتصر في قاموسنا على ساحات النصر، وإنما للهزيمة أبطال لهم مقوماتهم ومسوغاتهم، ولسنا مبالغين إذا قلنا: إن هذا أصبح مناخاً عاماً، يحكم بعض المؤسسات الرسمية وبعض التنظيمات الشعبية أيضاً، فأي مناخ من الزيف والفساد الأخلاقي والسياسي المغشوش هذا الذي نورثه لأبنائنا؟! حتى كرست مفاهيم الفساد والاستسلام والظلم، وأصبح الرافض لها والخارج عليها متعصباً متطرفاً، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى اتهامه بالهوس الديني. . ففي عام ١٩٤٨م كانت الأنظمة سبب الهزيمة وقيام إسرائيل، لذا كان لا بد من الخروج على الأنظمة وإسقاطها، أما في عام ١٩٦٧م فقد خسرنا المعركة، ولم نخسر الحرب، واحتلت الأرض ولم تحتل الإرادة، وهزمت الجيوش ولم تهزم الشعوب، وإن هدف إسرائيل كان إسقاط الأنظمة، فعجزت عن ذلك وسلمت الأنظمة، وأخفقت إسرائيل وانتصرنا!!

إنها ضريبة الوطنية التي يدفعها الفرد في عالمنا على شكل لا نظير له في دنيا العقلاء، ولا يظن أحد أن سيوف يهود مشهورة على حدودنا، ورماحهم مزروعة في أرض فلسطين فقط، إنها الأشباح تطاردنا هنا وهناك. . بها نقتل خصومنا ونحكم عليهم، وبها يقتلوننا ويحكمون علينا، ومن أجلها تشرع التشريعات، ويعبث بالأمن، وتصادر الحريات، وتمارس عمليات القمع السياسي، والضنك الاقتصادي. . ومن خلال المسلسلات الانقلابية طيلة نصف قرن من الزمان يكاد لا ينجو أحد من الاتهام بالعمالة ليهود، حتى ليمكننا القول، وبعملية إحصائية بسيطة للاتهامات المتبادلة: إن الصهيونية لم تقتصر على فلسطين، وإنما يمتد نفوذها إلى العالم العربي كله!! فأسهل طريق وأقصر طريق لمواجهة الخصوم الفكريين والسياسيين اتهامهم بالعمالة لإسرائيل!!

أما في إسرائيل نفسها، فاليهودي البولوني المهاجر إلى فلسطين. . الذي دخلها على رأس عصابات شتيرن للقتل والتدمير، والتمكين ليهود، هو اليهودي الذي يقوم على رأس العصابة التي أخذت شكل الدولة، ولا نريد هنا أن نذكرُ أو نذكِّر بقائمة الزعماء التي مرت على عالمنا خلال نصف قرن، ولم يستطع أحدهم أن يحتفظ بسمعته، والذي استطاع أن يحرسها بعسكره حال حياته، نفذت عليه الأحكام بعد مماته، . . فإلى متى تمتد هذه المأساة، وتُخفى عنّا الحقائق، وتمارس علينا الأباطيل، ونعاني من ألوان الاعتداء على كرامتنا وعقيدتنا في الداخل والخارج، كل ذلك باسم قضية تحرير فلسطين، وكأن من شروط الذين يحررون فلسطين أن يكونوا عبيداً لا حرية لهم، وأن يكونوا فجاراً تافهين لا عقيدة لديهم، وأن يكونوا فقراء لا مال لهم، وأن يكونوا أميين لا علم لهم، وأن يكونوا عزلاً لا سلاح عندهم. .

إنها مجموعة حقائق ما يزال الكثير يتجاهلها أو يجهلها لنبقى نعاني من الهزيمة والعجز، وتمارس علينا عمليات التيئيس. . ابتداءً من نشوء إسرائيل التي بدأت مخلب قط ورأس حربة للاستعمار، وأن بإمكاننا أن نلقي بها في البحر إذا أردنا، لكنا لم نرد لأننا شُغلنا بتحرير بلادنا من الرجعية والامبريالية والاستعمار، وإن شئت قل: تحريرها من الحرية، فإذا بإسرائيل أسطورة في القوة لا يمكن التغلب عليها، فأصبحنا عاجزين، ليس عن تحرير أرضنا، بل الدفاع عما بقي منها. .

القابلية لإسرائيل!

من هذه الحقائق: أن إسرائيل ارتكزت على الرؤية الدينية التوراتية التي شدت يهود من شتى أنحاء العالم، سواء في الشرق أو الغرب، إلى أرض الميعاد، وأنها تحاكم العالم، وتحكم على الأشياء من خلال هذه الرؤية، وتسلك كل وسيلة لتأكيدها وتحقيقها، حتى أنها تعيد الآن خريطة فلسطين وتخلع على مناطقها المختلفة أسماء توراتية وتنبش لذلك الحجارة، وتجمع له الوثائق، وأن

لعبة التفريق بين اليهودية والصهيونية هي لعبة يهود أنفسهم، ومدخلهم إلى كثير من المؤسسات، كما أن لعبة اليسار واليمين من صناعتهم، كلون من توزيع الأدوار، وأن هذه الرؤية ما لم تقاوم برؤية ترتكز على العقيدة، سيبقى العالم العربي يرسم في الفراغ، ويحرث في البحر، وأن طرح الإسلام والجهاد كشعار، واغتياله في الحقيقة والواقع في مناهج التربية، وعلى مستوى المؤسسات والثقافة الشعبية جزء من المخطط، وشراكة في التآمر، وشرك في العقيدة والسياسة والثقافة..

● وأن التآمر على قضيتنا في فلسطين كان دولياً، شارك فيه الشرق والغرب، ابتداءً من الاعتراف بإسرائيل دولياً، وانتهاء بضمان كيانها ومدها بالسلاح المتفوق من الغرب والعنصر البشري الاستيطاني المهاجر من الشرق، إنه تحالف يهودي نصراني وثني، لأن الكفر ملة واحدة، والله تعالى يقول: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

ونكتفي بواحدة من أدلة كثيرة: على طريق بناء الدولة اليهودية، والهجرة إلى أرضها، اقترح هرتزل أن تكون قبرص مكاناً للدولة، فرفض تشمبرلن وزير المستعمرات البريطاني هذا الاقتراح لأن سكان قبرص هم من النصارى البيض!!

● وأن إسرائيل اعتمدت في قيامها واستمرارها على الرفض العربي، واستطاعت توظيفه لمصلحتها، ودرست ردود الفعل في المنطقة دراسة علمية، ورسمت لها الخطة والعمر الزمني، وانطلقت من ثوابت تراها وأهداف تسعى إلى تحقيقها، فهي تدرس الظواهر وتحللها وتخضعها لمختبرات وخبراء، وتخلص إلى خطة مرحلية تتقدم بها بشتى الوسائل، ولقد كتب كثيرون أن حرب ١٩٦٧م كانت مرسومة بدقة، وموقت لها، لأن الوقت قد حان لضم القدس والضفة الغربية وهضبة الجولان.. وأنه لا بد من اشتراك هذه الجبهات الثلاث ليقوم المسوغ.

● وأن الرايات الجاهلية التي طرحت في المنطقة، ورفعت للتحرير

أخفقت جميعاً، وكشف زيفها، وأنها لم تكن أكثر من أقنعة اختبأ وراءها أعداء هذه الأمة في عقيدتها وثقافتها وحضارتها وتاريخها، وأنها كانت مرفوعة على سواعد يهود لم يخرج دورهم عن أن يكونوا الدوّنمة من جديد.

● وأن إسرائيل أقيمت في قلب العالم الإسلامي بعد رحيل الاستعمار العسكري عنه لتمثل أداة استنزاف لقوته واقتصاده وطاقاته وحرياته وأمنه، تستنفد قدرته على استعادة دوره التاريخي، وهذا الأمر أصبح حقيقة، فكل الممارسات الرعيبة في عالمنا العربي تسوغ باسم تحرير فلسطين.

● وأن إسرائيل، كدولة طائفية عنصرية ذات رؤية دينية، بدل أن تعيد المنطقة إلى عقيدتها، درع وقايتها وعدة جهادها، أيقظت فيها الحركات الطائفية والأقليات العرقية، وأمدتها بكل مقومات الحياة لتبقى ألغاماً موقوتة مخيفة يستمر تفجرها في الجسم العربي المسلم، الأمر الذي أدى إلى تمزيق أوصال الأمة وإنهاك قواها.

● وأن اليسار العالمي، مهما حاول التضليل والكلام عن السلام الدولي، والمناداة بحقوق الشعوب وحريتها، لم يخرج عن كونه بديلاً في عالم المسلمين، وكان إحدى لعب يهود الذين أتقنوا توزيع الأدوار - وإننا بكل تادوينا فلم يشف ما بنا - وأن المؤتمرات اليسارية الشيوعية هي أول من رفع العلم الإسرائيلي على الرؤوس العربية في مؤتمر صوفيا، وهو الذي مهد لقبول إسرائيل نفسياً عند بعضهم وحضر للقابلية لها.

● وأن مداخل يهود تاريخياً كانت بعض المؤسسات الحاكمة وأصحاب النفوذ في الجماعات والأحزاب، وأنهم كانوا وراء الكثير من الانقلابات والتغييرات التي رفعت الرايات الوطنية وانتهت في حقيقتها إلى مصلحتهم ابتداءً من الانقلاب على السلطان عبد الحميد رحمه الله، ولسنا الآن في هذه العجالة بسبيل أن ندلل أنهم كانوا المستشارين لكثير من الكبراء والزعماء والمتنفذين، وأنهم قبل الدول وبعدها، وفي كثير من المجتمعات، يعيشون في الظل، ويحكمون من الظل، ويؤدون دورهم في الوقت المناسب.. وهم قادرون على

التشكل والكمون لفترات طويلة.. لقد بدأوا «مشوارهم» الطويل مع الرواد الأوائل للشيوعية، وانتهوا إلى السيطرة على مؤسساتها وتوظيفها.. وأذاقوا المسلمين الأمرين على أيدي الشيوعيين في مناطق متعددة ليس آخرها أرتيريا وأفغانستان. أما في المجتمع الغربي الرأسمالي فأمرهم معروف..

جبهة إسلامية شعبية

● وأن عدوهم الحقيقي والتاريخي والحضاري هو الإسلام، بعقيدته ومؤسساته، وأنهم لا يخفون تخوفهم منه ومن المتمسكين به الذين يعتبرونه العدو الحقيقي.. لذلك نرى الذراع الإسرائيلي تمتد بصورة أو بأخرى للعبث بمناهج التعليم وتهويدها، والسيطرة على وسائل الإعلام وتوجيهها وإبعادها عن المرتكزات الإسلامية، أما عن وسائلها وأدواتها في حرب الدعاة إلى الله، ومكرها لإبادة الجيل المسلم ومحاولتها وأد حركة الوعي الإسلامي، فقد أصبحت واضحة لكل ذي عينين..

● وأن المسجد كان ولا يزال، بما يحمل من معان وما يؤدي من رسالة، هو حصن الأمة من الذوبان، منه تستمد جهادها، وفيه تحفظ أصالتها، وهو حده تاريخياً الذي خرجت منه كتائب التحرير والجهاد، فلا غرو أن تخرج حركات رفض العدو المحتل منه، وأن يكون عنوان هذه الانتفاضة الآن، انتفاضة المساجد، وأن يصرح الحاخام كهانا: إن حركته ستخوض صراعاً حاداً من أجل استعادة ما أسماه الهيكل، وإزالة المساجد الإسلامية بما فيها المسجد الأقصى...

● وأن الذين يدمرون المسجد، ويعطلون رسالته، ويحولون بين الجيل وعقيدته هم جنود في جيش العدو، وأداة بيد الصهيونية مهما كانت الأسباب والمسوغات..

● وأن انتفاضة المساجد، دليل على أن هذه الأمة لن تموت، وأن الجسم الذي حاولت إسرائيل ـ طيلة نصف قرن تقريباً ـ إنهاء الحياة فيه ما يزال ينبض



بالحياة، وأنها دليل على أن الإسلام هو وحده القادر على تعبئة طاقات الأمة ومواجهة عدوها كما كان تاريخياً.

● وأن هذه الانتفاضة تجدد في الأمة شبابها، وتؤكد ذاتها، وتبصرها بعدوها.. إلى الكثير من هذه المعاني الإيجابية التي تحملها الانتفاضة، إلا أننا نرى أيضاً أن الأمة بواقعها عاجزة عن الاستفادة من هذه الانتفاضة التي يمكن أن تعتبر إلى حد بعيد، دليلاً على وجود الطاقات وعجز القيادات عن الاستفادة منها، والذي يخشى منه أن تكون هذه الانتفاضات التي يمكن أن تعتبر إلى حد بعيد، دليلاً على وجود الطاقات وعجز القيادات عن الاستفادة منها، والذي يخشى منه أن تكون هذه الانتفاضات الشعبية ومضات على الطريق حيث لا يوجد من يكتشف الطريق ويسير فيه، وبذلك يتمكن العدو من دراستها ووضع الخطط لإبادتها بالقضاء على أسبابها، أما نحن فنبقى متفرجين ومصفقين وكأن الأمر لا يعنينا، إنها ومضات تضيء، لكن نخشى عليها الاحتراق..

● وأن الحواس الشعبية الإسلامية كانت دائماً الأقدر على الاستشعار المبكر للخطر، وكان حسها صادقاً، لذا فمن الواجب الشرعي المحافظة عليها، وتركها تنمو بعيداً عن المؤسسات الرسمية والحكومية التي يمكن أن تغيب عنها بعض المعاني تحت وطأة العلاقات الدولية والروابط السياسية والدبلوماسية، وما إلى ذلك من المسوغات..

وأنه لا بد من إقامة قوة إسلامية دولية بعيدة عن النظم الرسمية وشبه الرسمية..

وبعد، فلا شك أن عمر الأمم لا يقاس بالسنوات التي يقاس بها عمر الأفراد، ولا يحكم على أمة من خلال مرضها أو أثناء مرضها.. وأن الصليبيين، بكل أحقادهم وإمكاناتهم، استمروا في احتلال بلاد المسلمين قرابة قرنين من الزمان، وكانت الأمة بإسلامها، درع وقايتها وعدة جهادها، وقادرة بعد ذلك على طردهم، ونحن واثقون بأن مصير يهود لا يختلف عن نهاية الصليبيين، وسوف تنتهي فترة غياب الجيل القادر على التحرير، ذلك أن

العقائد أبقى من السياسات، والشعوب أقوى من الحكومات، وأن رسول الله ﷺ قال فيها يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على أبواب دمشق وعلى أبوب بيت المقدس وما حوله، لا يضيرهم خذلان من خذلهم، ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة».

ولعل هذا الربط الذي يلمحه الإنسان من حديث رسول الله ﷺ، من وحدة الجيل المسلم، ووحدة المعركة، ووحدة الأمة، ووحدة المصير لا تعوزه الدلائل، فمعركة المسلمين واحدة.

[شعبان ١٤٠٢هـ - حزيران (يونيو) ١٩٨٢م]

البعد الحضاري لحركة الوعي الإسلامي

لقد أريد لهذه الأمة أن تبقى في مواقع التخلف التي تلجئها إلى الاستيراد، ليس استيراد الأشياء المادية فقط كما يتوهم البسطاء، وإنما تشكل الأشياء المادية الغطاء الذي تتسلل من خلاله العقلية والروح التي أنتجتها، وصورة الحضارة التي صنعتها، وبذلك تصبح البلاد الإسلامية امتداداً للحضارة الأوروبية وواقعة تحت تأثيرها. وليس الخبراء في عصر الوصاية التكنولوجية في الحقيقة إلاّ الجسور التي تمر من خلالها ثقافة أمتهم وحضارتها وعاداتها وتقاليدها، إنهم المبشرون الجدد...

* * *

سقوط البدائل..

يشهد العالم الإسلامي اليوم تحديات خطيرة، ومنعطفات كبيرة، وأحداثاً جساماً، كما أنه يمر بتحولات جذرية على مستوى الفرد والأسرة والجماعة والدولة، بعد هذه المعاناة المريرة من التيه والضياع وسحر أعين الناس. والأمر الذي نريد له أن يكون واضحاً منذ البداية: أن الصحوة الإسلامية بمظاهرها المختلفة وتياراتها الظاهرة والخفية ليست قضية عارضة، من السهل احتواءها، والقضاء عليها، كما أنها ليست رد فعل، جاء نتيجة لظروف طارئة، وملابسات مبهمة، وإنما هي ثمرة لوعي تاريخي، وعودة إلى الأصل وتصحيح الانتماء، واستلهام للشخصية الحضارية التاريخية، التي رسمت الأبعاد الصحيحة لحركة الأمة الشاملة على مختلف المستويات.

إنها صحوة جاءت من العمق التاريخي لهذه الأمة، وعودة بصيرة مبصرة من خلال كل الظروف والملابسات والتجارب التي دفعت الأمة ثمنها الكثير من الضحايا، ثم تبين لها التضليل والضلال والحصاد المر، ذلك أن الشعارات التي رفعت على أرضها، والممارسات التي رافقتها، كانت دون سوية شخصيتها الحضارية، لذلك سقطت، ولم يكن سقوطها سياسياً، لاستبدال شكل بآخر، بل كان سقوطاً حضارياً، وثقافياً بكل ما في الكلمة من معنى.

إن هذه الصحوة لم تأت من فراغ: ولن تضيع عليها الجهات، إنها تحاول أن ترسم معالم الشخصية الحضارية لهذه الأمة، وتلتزم القيم المنزلة، البعيدة عن العبث والأهواء والتسلط، لقد أدركت رسالتها، وعرفت دورها، وشعرت بمسؤوليتها تجاه البشرية التي جعلها الله شاهدة عليها.

والأمر الذي نحب أن نؤكده دائماً، والذي لا يحتاج إلى كثير من التأمل والتفكير، أن كل التجارب والبدائل، التي حملت إلى عالم المسلمين، والتي أسقطت الأمة تحت وطأتها لسبب أو لآخر، لم تُكْتَب لها الحياة لأنها دون سوية الشخصية الحضارية الإسلامية في مجال الحكم والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق.. وهذه بَدَهية مهما حاول أعداء الإسلام تجاهلها. والمعروف تاريخياً: أن الأمة الإسلامية قد امتحنت، بما لم تمتحن بمثله أمة من الأمم، ولا شعب من الشعوب، وأن الحضارة الإسلامية تعرضت لنوع من التضليل والتزييف والسرقة، وابْتُلِيَت بجيل عاق من صنع أعداء الإسلام، ما يكفي لمحوها من الوجود.

حضارة المغلوب..

لقد كان الصدام الأول مع الصليبية العالمية التي دامت قرنين من الزمان تعمل لطمس معالم الشخصية الإسلامية، ثماني حملات صليبية غربية بحضارتها وثقافتها وعاداتها وأخلاقها وأشخاصها وعسكرها، قرنان من الزمان وأجيال تولد وتموت في ظل الاستعمار الصليبي، زحفت أوربا بكل أحقادها وجيوشها، ومع

ذلك انتهت عاجزة عن تحقيق الانكسار النفسي لهذه الأمة، والقضاء على عقيدتها وثقافتها، ثم تلتها زحوف التتار والمغول، والتي جاءت ساحقة ماحقة أتت على كل شيء بالتدمير، حتى سالت الدمّاء أنهاراً، لقد حرَّقوا الأخضر واليابس، وحطموا أشياء الأمة، وحكموا على فكرها وتراثها بالإعدام، ونفذت الأحكام، وألقيت آلاف الكتب والمخطوطات في الأنهار والمحارق، ولم تكن الدماء التي سالت بأقل من أنهار المداد التي نزفت من فكر هذه الأمة، ولم يكن حقدهم على الأموال أقل من حكمهم على الأحياء، الأمر الذي ظُنَّ معه أن قضية الإسلام والمسلمين قد انتهت إلى غير رجعة، ثم كان النهوض، وكانت شخصية الأمة الحضارية وتراثها الثقافي (عالم أفكارها) أقوى من سواعد العسكر المغولي، لقد استطاع العسكر المغولي تحطيم أشياء الأمة وعجزوا عن تحطيم أفكارها، وكانت حضارة المغلوب أقوى من سواعد الغالب، فانقلب العدو الكافر الذي جاء للقضاء على الأمة، مؤمناً يحمل رسالتها، ويلتزم عقيدتها، ويدفع عنها كيد الكائدين، كما تغلب الصليبيون عسكرياً وفشلوا حضارياً من قبل، لقد ابتلعتهم الحضارة الإسلامية، ومن ثم ألقتهم خارج الحدود، وعادت إلى شخصيتها التي استمدتها من دينها، درع وقايتها ومصدر قوتها.

ثم كانت حروب التبشير والاستعمار..

لقد أدركت أوربا ومن ورائها النصرانية غلطتها في الحروب الصليبية بشكلها المعروف ووسائلها العسكرية المكشوفة، فكان لا بد من التوجه إلى عقيدة هذه الأمة، إلى تحطيم أفكارها وعدم الاقتصار على تحطيم أشيائها، وبذلك يكون القضاء عليها واغتيالها من داخلها.

الاحتواء الثقافي..

والحقيقة التي لا بد من ذكرها والاعتراف بها، أن أوربا النصرانية، سبقت العالم الإسلامي في عصر الاستعمار الحديث على الأقل، إلى إخضاع خططها في غزو هذا العالم واستعماره سواءً في ذلك الاستعمار العسكري كمرحلة

متقدمة، أم التبعية الثقافية أو الاستعمار الثقافي - وهي الصورة الأخيرة للاستعمار - إلى دراسات واختبارت. وأنشأت لذلك المعاهد وشكلت له اللجان المتخصصة التي تجمع لها المعلومات، وتُقَدِّم لها الاختبارات، ويمكننا القول بأن دراسة تاريخ كل بلد، وعقيدته وعاداته وعوامل تكوينه أصبحت أمراً لازماً وضرورياً لرسم المداخل الاستعمارية، ووضع الخطط الاستراتيجية، لقد أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والاختبار والعلم، بل لعل العلوم الإنسانية التي تَمَكِّن للاستعمار، وتساهم برسم خريطة مناطق النفوذ أصبحت خاضعة لمختبرات أكثر دقة من العلوم الكيميائية والتجريبية.

وليست الحركة الاستشراقية التي نشأت في إطار الجامعات والمعاهد العلمية، إلا طليعة مبكرة، ومبكرة جداً للتمهيد للعمالة الحضارية التي تنتج بشكل طبيعي العمالة السياسية..

لقد امتدت يد الاستشراق إلى تراثنا تعبث فيه، وتعيد صياغته وقراءته على طريقتها، في حالة غياب كامل للشخصية الإسلامية، المنهكة من المواجهة العسكرية، ولم تستفق الأمة من غيبوبتها إلا وقد وجدت نفسها في موقع المحاكاة للحضارة والثقافة الغربية النصرانية بشقيها، وأن معظم تراثها المخطوط حبيس خزائن الغرب، والذي أُخْتِير منه وحُقق خضع لدراسات استشراقية ومقاييس استشراقية نصرانية مبكرة ومنتقاة، لتكون مصدراً لحياتنا الثقافية. لقد تأسست جامعاتنا ومعاهدنا التي جاءت متأخرة، على الطريقة الغربية، وخضعت في مناهجها ونوعية دراساتها وطرائقها التربوية للمناخ الثقافي الأوربي حتى إن معظم المدرسين كانوا من خريجي الجامعات الأوربية الذين تتلمذوا على يد المستشرقين، وكانوا نسخة مكررة عنهم، تحكمهم القوالب الأوربية، ويلتزمون مناهجها وينسجون على منوالها، إنها مرحلة الاستعمار الثقافي أو التبعية الثقافية التي لم نتخلص من آثارها حتى الآن..

في هذه المرحلة: الاستشراق يصنع، والتنصير (التبشير) يقوم بتسويق هذه الأفكار في عالم المسلمين على كل المستويات.

ولا ينكر أن القضية أغرت بعض البسطاء من ضحايا الغزو الفكري، الذين سقطوا فريسة لبعض المديح الذي مارسه المستشرقون لتاريخنا بالقدر الذي لا بد منه لاغتيال الشخصية المسلمة.

وبالإمكان أن نعتبر بأنه كلما قدر لهذه الأمة أن تكتشف وسيلة من وسائل الغزو الفكري تمكن أصحابه من استبدالها بوسائل جديدة..

لقد أريد لهذه الأمة أن تبقى في مواقع التخلف التي تلجئها إلى الاستيراد، ليس استيراد الأشياء المادية فقط كما يتوهم البسطاء، وإنما تشكل الأشياء المادية الغطاء الذي تتسلل من خلاله العقلية والروح التي أنتجتها، وصورة الحضارة التي صنعتها، وبذلك تصبح البلاد الإسلامية امتداداً للحضارة الأوربية وواقعة تحت تأثيرها شاءت أم أبت، وليس الخبراء في عصر الوصاية التكنولوجية في الحقيقة إلا الجسور التي تمر من خلالهم ثقافة أمتهم وحضارتها وعاداتها وتقاليدها، أفلا يحق لنا أن نعتبر الخبراء الذين يُسْتَقْدمون من الدول المتقدمة إلى الدول المتخلفة المعابر الحديثة للتبشير والاستعمار الثقافي إلا القليل النادر منهم، والقليل النادر من البلاد التي تتمتع بحصانة ثقافية؟.

وعلى الرغم من كل هذه الدراسات المتقدمة في هذا المجال، فقد فشلت عملية الاحتواء الثقافي إلى حد بعيد، بعد معاناة طويلة، ودروس مريرة، ويمكننا أن نعتبر أكثر الدراسات تقدماً في هذا المجال اليوم هي الدراسات الأوربية للإسلام ولظواهر الوعي الإسلامي بشكل أكاديمي، وتخصيص ساعات من البث الإذاعي لشعوب العالم الإسلامي.

لقد أدرك قادة الغزو الفكري أن بوابة العالم الإسلامي موصدة.. فبدأوا محاولة التسلل من خلال الإسلام نفسه وقراءته على الطريقة الأوربية الاستعمارية ليكون الإسلام الذي يريدون وليس الإسلام كما أنزله الله.

والمؤسف حقاً، أننا إزاء هذه التحديات الخطيرة، والدراسات المتقدمة، لا يزال البعض منا في العالم الإسلامي يواجهون ذلك بالخطب والحماس والمواقف الانفعالية الخاسرة والرسول ﷺ يقول:

«. . . إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب». . ما زالوا يطلقون الفرس الشقراء التي كانت تاريخياً إيذاناً ببدء مرحلة الاستعمار الحديث، ولم تزد على أنها كانت دلالة على مواطن الحس والحركة في عالم المسلمين ليسهل اكتشافها والتمكين للعدو في القضاء عليها، فإذا تحدثوا يخطبون، وإذا كتبوا يخطبون وينفعلون، في عالم يحكمه العلماء والمفكرون الصامتون.

ميدان العقل والقوة المادية

وبعد. . فنحن على يقين بأن الله سوف يهيء لدينه من يحمله ويدافع عنه، وأن أسلحة الغزو الفكري سوف تسقط بيد أصحابها. قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤوا نُور الله بِأَفْوَاهِهِم. . .﴾ (سورة الصف: ٨) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون﴾ (الحجر: ٩).

إنه النور الذي لا يُطْفَأُ وَلاَ يَنْطَفِيءُ بهذه الأفواه الصغيرة بكل ما تحمل لأن الله تكفَّل بحفظه، ومرة بعد أخرى، وبالرغم من كل الأساليب والوسائل، فقد عجز الغزو الفكري أيضاً كما فشل الغزو العسكري من قبل، في تحطيم أفكار الأمة الإسلامية وشخصيتها الحضارية.

وكان القرآن هو القوة الفاعلة التي يعتصم بها المسلمون في عزَّتهم وانكسارهم. . إنه الحصن الثقافي، حفظ للأمة عالم أفكارها، حفظها من الذوبان، كان القوة التي تدفع المسلمين للتقدم والارتقاء كما كان القوة التي تعين على الثبات والمقاومة في حالات الغلبة والاضطهاد.

نعود إلى القول بأن اليقظة الإسلامية لم تنطلق من فراغ، إنما ترتكز إلى شخصية حضارية تاريخية كانت أقوى من الأزمات.

فهل يشهد العالم الإسلامي من جديد، في أوائل القرن الخامس عشر الهجري العودة إلى الأسلحة القديمة، بعد أن أخفق الغزو الفكري في تحقيق أهدافه إلغاء هوية الأمة؟

هل تتقدم العضلات لتأخذ دور العقل، بعدما ثبت من عجزه وإفلاسه

أمام القيم الإسلامية؟ ربما يكون ذلك، حيث الشواهد كثيرة في تاريخ النبوة الطويل، قال تعالى بعد أن قص علينا مناقشة الكفار للأنبياء وعجزهم وإفلاسهم في ميدان العقل والحجة ولجوئهم إلى العضلات والقوة المادية:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِم لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِن أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا. . .﴾ (إبراهيم: ١٣). وفي قصة فرعون مع السحرة عندما استبان لهم الحق وبطل السحر بقوله: ﴿آمَنْتُم لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُم وَأَرْجُلَكُم مِن خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُم فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ (طه: ٧١). فقضية الإيمان باتت عنده محتاجة إلى إذن رسمي وإلغاؤها يتم بتهديد جسدي.

وبأن ما نشاهده اليوم من استنفار أعداء الإسلام ـ وهذا الإجماع الرعيب من كل حدب وصوب للقضاء على هذا الإسلام المتمثل في ظواهر اليقظة الإسلامية، قد تكون إلى حد بعيد دلالة على العودة إلى الوسائل القديمة من القهر والتسلط، بعد أن أعيتهم الحيلة، متذرعين ببعض الصور الشاذة التي تحمل شعاراً إسلامياً، وقد تكون إلى حد بعيد من صنع أعداء الإسلام، لأن طرح الصور الشاذة والمشوهة من لوازم الكيد وضروراته.

لقد بدأ التضليل الثقافي من جديد وكثيرون أولئك الذين أعطوا أنفسهم الحق في تقييم ظواهر الوعي الإسلامي، ولبسوا ثياب الجرح والتعديل، وبدأوا يهاجمون القيم الإسلامية من خلال بعض المظاهر الشاذة وأقل ما يقال فيهم: إنه ليس للإسلام نصيب من سلوكهم أو أثارة من فكرهم، فهم بهذا أعجز من أن يصححوا مساراً، أو يرشدوا ضالاً.

فالعودة إلى الأصول الإسلامية كما أنزلها الله ليست قضية أفرادٍ أو جماعات أو هيئات بأعيانها. . كما أنها ليست قضية عارضة أو حركة عشوائية، رافضة، وإنما هي قضية الأمة الإسلامية عامة غايتها العودة إلى شريعة الله والانضباط بأوامرها، وفي هذا الخير والرحمة للعالم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) والله حسبنا ونعم الوكيل.

[صفر ١٤٠٢هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١م]



هل طال علينا الأمد فقست قلوبنا

هل يعتبر عزاء للمسلم أم مزيد حسرة وألم، معرفة أن الأيدي اليهودية التي أرادت لمسجد أيا صوفيا أن يصير متحفاً، هي الأيدي نفسها التي أقدمت على حرق المسجد الأقصى، وأن يهود الدوغة لا يزالون يعملون عملهم في عالمنا الإسلامي.. والمسلمون أسرى في عالمهم لا حول لهم ولا طول، عاجزون عن تقديم دمعة الحزن على مأساتهم لأنهم محاسبون عليها.. ولا تزال تقرأ لهم الهزائم على أنها انتصارات!!.

* * *

حريق المعاني كلها

سنوات طوال مرت على حريق المسجد الأقصى، وأطول منها أربع عشرة سنة مرت على نكبة حزيران (حرب الساعات الست).. نكبة حزيران التي كانت المقدمة الطبيعية لحريق المسجد الأقصى.. ليله لا يزال يغطي الكثير من أرضنا، في سيناء والجولان والضفة الغربية وقطاع غزة، وكآبته تملأ سماء المخيمات هنا وهناك، ومأساته تحتل نفوسنا، وآلامه الموجعة تحفر في وجداننا.

جنوب لبنان الذي أصبح أشبه ما يكون بغابات القنص، يستمتع بها العسكريون الصهاينة بمطاردة فرائسهم، أصبح مركزاً للتدريب، وميداناً للعمليات والمناورات العسكرية الحية، وفرصة لاختبار الأسلحة ومدى فعاليتها... جرح دائم لا يكاد يتوقف عن النزف..

والأمر الآخر وليس الأخير، كان ضرب المفاعل الذري العراقي على هذه المسافة، وفي هذا البعد. فهل طال علينا الأمد فقست قلوبنا؟!

في مثل هذه الأيام من شهر آب (أغسطس) كان حريق المسجد الأقصى الذي جاء بعد سلسلة من الجرائم الكثيرة في نطاق عمليات التهويد التي تستهدف كيان الأمة، وثقافتها، وحضارتها وطمس معالم شخصيتها التاريخية، حيث الحفريات ما تزال مستمرة تكاد تأتي على المسجد من أركانه بحثاً عن الهيكل المزعوم تحت بناء المسجد الأسير..

لقد كان حريق المسجد الأقصى صفعة من أكبر الصفعات لأمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ومع ذلك فإن هذه الصفعة الموجعة، كغيرها، لم تساهم في إعادة الأمة إلى صوابها وتبصرها بحقيقة طريقها.

صحيح أن المسجد في الاسلام لا يقوم على رسوم وأشكال، فهو ليس بناء يقام، ومكاناً يخصص، وإماماً يعين، وكفى الله المؤمنين القتال.. فالأرض كل الأرض مسجد للمسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

فالقضية ليست عدواناً على بناء وأحجار، وحرقاً لأخشاب، وإنما هو التصميم على حريق كل المعاني التي يحملها المسجد ويؤديها في عالم المسلمين، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المسجد بشكل عام لو أخذ بعده في نفوسنا، وأدى رسالته في حياتنا، واستمر في تخريج أجيال الجهاد في عالمنا، لو عمرنا المسجد في بلاد المسلمين ولم تحرق رسالته على أيدينا، لما حرق بناؤه في أرضنا المحتلة ولما كانت دولة «إسرائيل» أصلاً.

لقد احتلت «إسرائيل» القدس وأعلنت أنها العاصمة الأبدية لها وأنها سوف تسمح لأبناء الأديان الأخرى بالوصول إلى أماكنهم المقدسة التي يراد لها أن تصبح متحفاً ذا قيمة تاريخية تستهوي السياح، وتوظفه «إسرائيل» لحسابها (تقضي على مهمته الأساسية وتدنس حرمته وقدسيته بالمناظر الداعرة التي تحدث في ردهاته وساحاته)..

فمن الوجهة السياسية: المسجد باق أمام العالم كله. باق بشكله دون مضمونه، فإذا انتهى المسجد إلى مركز سياحي، أو متحف ذي قيمة تاريخية، أو مأوى للعجزة والقاعدين الطاعنين في السن، نكون بذلك قد حكمنا على الإسلام - عقيدة هذه الأمة، ودرع جهادها محرر فلسطين من الصليبيين - بالتوقف ليصبح في ذمة التاريخ، كما حكم من قبل على مسجد أيا صوفيا وغيره كثير في بلاد التقدمية والحرية!!

هل يعتبر عزاء للمسلم أم مزيد حسرة وألم، معرفة أن الأيدي اليهودية التي أرادت لمسجد أيا صوفيا أن يصير متحفاً هي نفس الأيدي التي أقدمت على حرق المسجد الأقصى، وأن يهود الدونمة لا يزالون يعملون عملهم في عالمنا الإسلامي.

والمسلمون أسرى في عالمهم، لا حول لهم ولا طول، عاجزون عن تقديم دمعة الحزن على مأساتهم، لأنهم محاسبون عليها، ولا تزال تقرأ لهم الهزائم على أنها انتصارات!!

وبعد هذا كله، هل نعيش المأساة فعلاً، على مستوى الفرد والجماعة والدولة؟ وهل نتعامل معها كما يقضي بذلك منطق الأشياء، أم نقرأها بحس متبلد، وذاكرة مفقودة، ثم ننصرف إلى مألوفنا ومعروفنا؟ نتعامل مع مآسينا تعامل النائحات المستأجرات، وليست النائحة كالثكلى... في أثر كل صفعة تبدأ الثورة بالأقلام، ويبدأ إعلان الجهاد، ولكن بالكلام، ونتبارى بالدعوة إلى ضرورة المؤتمرات واتخاذ التوصيات، الأمر الذي لا يخفى على العدو والصديق معاً..

وحبذا أن لا نبدىء في القضية ولا نعيد مع كل حلقة من حلقاتها، وإنما نكتفي بسماع الخطب وقراءة الصحف والمجلات وتوصيات المؤتمرات السابقة، ولا نضيع الأجر والعمر..

لقد كنا عاجزين خلال مأساتنا الطويلة أن نستفيد من أعدائنا، ومشكلتنا الدائمة: مناقشة النتائج التي تأتي ثمرة طبيعية لمقدماتها، وتناسي المقدمات التي صارت بالأمور إلى ما هي عليه الآن..

صياغة الرؤية الدينية وتوزيع الأدوار..

ولسنا الآن بسبيل الدراسة والمقابلة بين ما نحن عليه من الحال التي لا نحسد عليها، وبين حال عدونا الذي ابتدأ خرافة وأسطورة نهون من شأنها، وانتهى إلى خوارق تضبع الأمة ويصعب التغلب عليها، يروج لهذا من هم في داخل الأمة وخارجها ليأتي القبول بالعدو المحتل أمراً قسرياً..

ويكاد لا يشك الإنسان أن الأيدي التي وصفت «إسرائيل» قبل نكبة حزيران ١٩٦٧م، بالكيان الهزيل الذي لا يحتاج إلى أية قوة لإلقائه في البحر حتى يستمر العالم العربي والإسلامي في غطيطه، ولا يأخذ حذره ويقدر القضية حق قدرها، هي نفس الأيدي التي تحاول إسقاط العالم العربي في حالة من اليأس والاستسلام والخنوع بما تضفيه على أعمال «إسرائيل» من الخوارق والمعجزات والتفوق الذي لا يقاوم..

إن هذه الأيدي تمسك بزناد العدو، وتتجاهل تاريخ الأمة وجهادها وحضارتها، ولا نظن أننا، بحاجة أكثر إلى الدروس القاسية والعبر الماثلة لنعيد النظر بواقعنا على مختلف الأصعدة... ونتأكد من حتمية الحل الإسلامي، وأن الله لم يحذر هذه الأمة التي تحمل الرسالة الخاتمة من قوم كما حذرها من يهود، وأن المساحة التعبيرية التي تكلمت عن أخلاقهم وسلوكهم وتاريخهم تفوق كل مساحة في كتاب الله..

نقول: لسنا الآن بسبيل المقارنة والمقابلة، ولكنها لمحات وملاحظات لا بد منها، فالمتتبع لفكرة الدولة الصهيونية ابتداء من نشوئها في الذهنية اليهودية حيث توجيه اليهود المتوزعين في جميع أنحاء العالم نحو «أرض الميعاد» وصياغة الرؤية الدينية لهذه الدولة من خلال الكتب الدينية التي بين أيديهم..

هذه الرؤية التي شدت ولا تزال تشد يهود العالم إلى أرض الدولة بالهجرات المتزايدة، وانتهاءاً بقيام الدولة على أرض فلسطين..

المتتبع لفكرة الدولة، والوسائل التي استخدمت، والأدوار التي وزعت

على كل يهود من كل المستويات، يلحظ تلك المقدمات، فلا يفاجأ بالنتائج التي صارت إليها الأمور على الجانبين العربي واليهودي على حد سواء..

لقد وزعت الأدوار على يهود، كل يهود، في كل العالم، وعلى مختلف المستويات على كل فرد بحسب مكانه ومكانته، وقدراته واختصاصه..

فالحاخامون ورجال الدين كانوا وما يزالون يشحنون الفرد اليهودي بهذه الرؤية حتى أصبحت جزءاً عضوياً منه، غير قابل للمناقشة، فالطريق إلى «أرض الميعاد» هو قدره في الدنيا فلا يمتلك تغييره، وهو سعادته في الآخرة لأنه تنفيذ أمر الرب والتقاء مع وعده..

في إطار الرؤية الدينية جعلوا من توزعهم وتشتتهم حافزاً مستمراً لتغذية وحدتهم، وتأكيد غربتهم عن كل الأقوام والمجتمعات التي حلوا فيها، كما وظفوا ذلك لاستدرار عطف العالم عليهم فحولوا بذلك تشتتهم الذي هو في الأصل عامل سلبي إلى عامل إيجابي يخدم رؤيتهم الدينية ويصب في طريقهم إلى «أرض الميعاد» ومع الهجرة وضرورتها لم ينسوا ضرورة بقاء بعضهم في مراكزهم ضمن المجتمعات غير اليهودية للاستمرار في توجيهها أو السيطرة عليها لمصلحة الدولة اليهودية فهاجر من هاجر منهم من أوربا الشرقية والغربية، وبقي من اقتضت مصلحة الدولة بقاءه.

أما الكتاب والمفكرون، فلم يكونوا أقل من رجال الدين في بناء هذه الرؤية، وحمل يهود للسير في هذه الطريق بمختلف الوسائل عن طريق الرواية والقصة والشعر والنثر والمذكرات وسائر فنون الأدب والكتابة التي كانت ولا تزال تشكل الساحة الثقافية التي ينشأ من خلالها يهود، وتحول دون ذوبانهم في الثقافات الأخرى، وتضمن لهم استمرار مجتمعهم المغلق في سائر الظروف والأحوال، ولا نظن أحداً في عالمنا، حتى المعنيين بالقضية الفلسطينية، أحاطوا أو تعرفوا على الجانب الضروري فيه، كوسيلة من وسائل المواجهة الجادة.

أما المجال السياسي، فهو مجالهم الحيوي الذي يضع الهندسة الكاملة لبناء الدولة، ويحدد مهمات الأفراد في طريق الدولة، ويلحظ في هذا كله عواطف

الناس ومشكلات العالم في السلم والحرب، ويوظفها لمصلحة الدولة اليهودية، فقد تقتضي المرحلة وطبيعة المشكلات التي يعاني منها العالم: توزع الأدوار، وذلك باصطناع الاختلاف في بعض وجهات النظر، والمراهنة على حصاني السباق، والعمل من خلال كل التجمعات السياسية والأحزاب التي قد تبدو متناقضة في ظاهر الأمر.

أما الأغنياء، فهم الذين دفعوا من جيوبهم ثمن قيام الدولة، وتمويل كل الحركات التي ساهمت في بنائها، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر جعلوا أموالهم وتحركاتهم المالية، وسيطرتهم على اقتصاد العالم، والقبض على حاجاته الأساسية، والتحكم بأرزاقه وأزماته وأسعاره، جعلوا حل ذلك كله مرهوناً بتحقيق مصالح يهود بشكل عام، وما اسم «روتشيلد» وغيره في طريق بناء الدولة والعمل لها، وتسخير أمواله في خدمتها بأقل من اسم «هيرتزل» وغيره من رجال الفكر والسياسة.

وليس نصيب العسكريين من المساهمة في الدفاع عن فكرة الدولة وتقديم التضحيات في سبيلها، ومن ثم إقامتها وحمايتها، بأقل من نصيب ومشاركات غيرهم فلعل دور العسكريين يأتي في المقدمة، يمهد الطريق ويذلل العقبات لقيام الدولة بعد أن نحتوا على الشكل اليهودي الذي أراده حاخاماتهم ورجال الدين فيهم، وتسلحوا بالثقافة اليهودية كما رسمها رجال الفكر، وأتقنوا الوسائل المناسبة كما حددها رجال السياسة..

لقد شارك العسكريون من يهود في الحربين العالميتين وقدموا الضحايا لكن حركتهم ضمن هذه الجيوش وتحريكهم لها كان ضمن هدف ونتيجة وخطة، فقد أقاموا الحرب وأنهكوا العالم وظفروا بنتائجها وجعلوها في مصلحتهم..

أما العلماء والخبراء، وكيف فرضوا وجودهم على العالم من خلال نبغهم في اختصاصاتهم، فتسلموا أعلى المنابر العلمية التي لا يزال العالم يتجه صوبها في الرياضيات والطب والكيمياء وعلم النفس وغير ذلك، وكيف جعلوا

اختصاصهم في خدمة عقيدتهم، وكيف أدوا دورهم كاملاً، فالطب وسيلة لتوجيه سلوك الناس واهتماماتهم فيما يريدون، والاكتشافات والاختراعات الكيماوية الحربية لا تسلم لاستخدامها في الحروب وصناعة الانتصارات إلا بشروط ووعود وضمانات لهم بإقامة الدولة، والشواهد على ذلك أكثر من أن تحصى..

المقدمات والنتائج

وَبَعْد: لقد جاءت النتائج طبيعية ومنطقية مع هذه المقدمات، فما هو واقعنا على الجانب الآخر؟

أين موقع الرؤية العربية للقضية الفلسطينية، وما هو نصيبها من العقيدة والواقع التاريخي ومنطق الأشياء؟

أين موقع رجال الفكر والثقافة بيننا من صورة القضية؟ ألم يكن الكثيرين منهم ضحايا التهويد والثقافة اليهودية، يعملون على نشر الرذيلة وحرب الفضيلة، وإذابة كيان الأمة، وتمزيق عقيدتها..

أين موقع أغنيائنا من القضية، وأين اهتماماتهم بها وتضحيتهم في سبيلها؟ لقد استعبد معظمهم شهوات البطن والفرج، وكان المال وبالاً عليهم مكنهم من استيراد الرذيلة والفواحش، ونشر الترف والميوعة التي قتلت روح المقاومة..

وليس حال بعض رجال السياسة والعسكريين بأحسن من حال غيرهم، إنهم يعيشون نفس المناخ، والكثيرون يأكلون بالقضية ويعيشون على حسابها..

إن الذي يقوم بعملية مقارنة بسيطة بين واقعنا وواقع عدونا، بين مقدماتنا وما تنتج ومقدماته وما أنتجت، يرى الأمور طبيعية وأكثر من طبيعية فالعقل العربي مطارد ومهاجر لأسباب باتت معروفة للجميع، والمال العربي مهرب ليكون في خدمة أعداء الأمة في الخارج، والإنسان العربي منكود مطارد في إنسانيته، فكيف نطلب منه النصر؟.

لقد دخل حريق الأقصى كغيره من المآسي الكثيرة محافلنا الرسمية، واكتفينا بإقامة الندوات بمناسبة حرقه عن التفكير بفك أسره، وكان حرقه ولا يزال بالنسبة لبعضنا فرصة وموسماً للابتزاز السياسي والمادي..

ألا ليت المسجد الأقصى يبقى على صورته المحروقة كشاهد تاريخ يروي للأجيال القادمة حقيقة تاريخها، فيكون الحريق حافزاً ومبصراً لها بأعدائها الحقيقيين، ولا تجد فلسفة الهزيمة طريقاً إليها..

[شوال ١٤٠١هـ - آب (أغسطس) ١٩٨١م]

القدس والجهاد الإسلامي

الخارجون على الإسلام هم الجسر الحقيقي الذي مكّن اليهود من العبور إلى فلسطين، وهم الذين حاولوا طيلة القرن الماضي - إن لم نقل النصف الأخير منه - على طرح المشكلة الفلسطينية طرحاً مغلوطاً، ووضعها في غير إطارها الصحيح الذي يشهد له التاريخ، ويؤيده الواقع، وتؤكده الأحداث اليومية. . وهم لا يزالون يصرون على السير في هذا الطريق المسدود، رغم سقوط الطريق وسقوط أهل الطريق. .

* * *

الجهاد.. والمواجهة المستمرة

الجهاد هو السمة المميزة لهذه الأمة في تاريخها الطويل، بل هو طريقها المرسومة إلى الهداية والتمكين في الأرض، وإرضاء الله تعالى، بإقامة المجتمع الإسلامي الذي يحكمه العدل ويعمّه الخير وتسوده المساواة وحمايته داخلاً بتطبيق الحدود، وخارجاً بمتابعة الجهاد في الإعداد والاستعداد لإرهاب العدو. قال تعالى: ﴿والَّذين جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩).

والجهاد: ذروة سنام الإسلام لأنه عطاء أعظم ما يكون العطاء عطاء النفس والمال معاً.

والجهاد ماض إلى يوم القيامة.

لأن العدوان على هذا الدين وأهله قائم إلى يوم القيامة، قال تعالى: **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** (البقرة: ٢١٧). . . والشواهد على ذلك كثيرة وكثيرة جداً، تملأ على المسلم حواسه ويقرأها في كل ما حوله.

ولعل هذا العدوان المستمر، من لوازم الرسالة الخاتمة، وقدر حَملتها الذين نيط بهم القضاء على الباطل وديمومة التصدي له ومواجهة جولاته الأخيرة بكل أحقادها وخبراتها التاريخية لذلك كان الجهاد روح هذه الأمة ودرع حياتها. وكان القيام على الحق، حتى يأتي أمر الله، من أخص خصائصها. وكان الجهاد بمدلوله العام: الذي هو بَذْل الجهد في سبيل نصرة الحق (الإسلام) بشتى الوسائل المشروعة: فرض عيّن على كل مسلم، لا يكون المسلم مسلماً إلا به، كما كان بمدلوله الخاص: الذي هو بذل الجهد في سبيل نشر الدعوة، ونسخ حكم الطواغيت حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين لله: فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقين. وهنا لا بد من التنبه إلى معنى على غاية من الأهمية والخطورة، معنى: قام به بعض المسلمين، أي أداه على الوجه الأكمل واستطاع تغطية حاجاته، وليس المراد من ذلك مباشرته فقط كما يُظن، فإذا لم يتحقق ذلك صار الجهاد بالمعنى الخاص أيضاً فرض عيْن على جميع المسلمين.

وليس الجهاد أمراً طارئاً على هذه الأمة، ولا فترة عابرة من حياتها أو شعاراً تمارسه في المناسبات. قال تعالى: **﴿وَدّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة﴾** (النساء: ١٠٢). وقال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا خُذوا حِذْركم فانفِروا ثُباتٍ أو انفِروا جميعاً﴾** (النساء: ٧١). . .

وللجهاد مقدماته ومقوماته، من الإعداد المستمر والاستعداد المعنوي والمادي، والتدرّب عليه بتهيئة مناخه في المؤسسات المختلفة، في الأسرة، والمدرسة والتربية والتعليم، والإعلام، وسائر ما يكون في هذا المجال من

الأنشطة الكثيرة، لتكون التنشئة جهادية، يُعَد الفرد فيها للمواجهـة المستمرة ويقرأ تاريخه وإسلامه وسيرة سلفه الصالح بأبجدية صحيحة سليمة تحمله إلى مستوى إسلامه وتعرّفه بتحديات عصره، وتبَصّره بمواجهتها.

طريق صلاح الدين..

تحت راية الجهاد الإسلامي فُتحت بيت المقدس زمن الخليفة الراشد عمر ابن الخطاب، كما فُتحت سائر البلاد الأخرى، وبتثاقل المسلمين إلى الأرض، وعدم نفرتهم واستجابتهم لأمر الله والتزامهم بمنهجه سقطت بيت المقدس في يد الصليبيين. وبإيقاد شعلة الإيمان ورفع راية الجهـاد الإسلامي استُـردّت بيت المقدس من جديد، على يد نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله حيث عادت الأمة إلى مواقعهـا الصحيحة بعـد رحلة من التيه والضيـاع والتمزق والعبث الصليبي، وكيد الباطنية الحشاشين. ولا مانع هنا أن نعرض لشيء من طريق صلاح الدين رحمه الله لتحرير بيت المقدس:

لقد كان من أبرز أعمال صلاح الدين قبل أن يوجـه ضربته القـاصمة للصليبيين في معركة حطين نجاحه في ميدانين عظيمين لتعبئة قوى الأمة الروحية والمادية:

في مجال الإعداد الروحي: كان لكثرة ما بنى من مدارس دينية وزوايـا ورُبط وتكايا حتى قيل: لقد بنى نور الدين وصلاح الدين من المدارس والزوايا والربط أكثر مما بنيا من القلاع والحصون. وأحكم صلتـه بالعلماء العـاملين، يسمع منهم ويهتدي بهداهم، وحوّل التوجيه العام في الأمة إلى هدف واحد هو إحيـاء روح الإيمان والجهـاد والحنـين إلى مسرى رسـول الله ﷺ في القـدس الشريف، حتى كانت أغنيات الأعراس والمناسبات أناشيد دينية تُذكي في الأمة روح الجهاد والاستشهاد والحنين إلى المسجد الأقصى والعزم على تحريره وإنقاذه. وكان للأدباء والشعراء والعلماء دورهم في هذه التعبئة المعنوية للأمة، وكان يرى دائماً كسلفه نور الدين رحمهما الله مطرقـاً حزينـاً يقول: كيف أُسرّ والمسجـد

الأقصى في أسْر الأعداء. وكان يُرى وهو يحرّض المسلمين على القتال ملتاعاً كالثكلى التي فقدت أحد أولادها. هذا في مجال الإعداد المعنوي.

أما في مجال الإعداد المادي:

فقد نجح في توحيد جهود الأمة المادية، وقضى على الفرقة والانقسام، وأزال الخلاف بين زعماءالبلاد الإسلامية، حيث وحدّ مصر وسورية وأعد الأمة عسكرياً وجنّد قواها ليوم النصر، ووجه ضربته القوية إلى الباطنية الحشاشين الذين تعاونوا مع الصليبيين، وأرسل إلى أخيه العادل في مصر ليُحكم الحصار على الصليبيين من ناحية، ونزل بقواته القدس بعد انتصاره في حطين، هذا بعض طريق صلاح الدين رحمه الله إلى تحرير بيت المقدس.

الطريق المسدود

وعقيدة الإسلام هي التي حالت بين اليهود وبين شراء السلطان عبد الحميد رحمه الله للمرور إلى فلسطين في عصر الاستعمار الأوربي الصليبي الحديث رغم احتضار الخلافة.

والخارجون على الإسلام هم الجسر الحقيقي الذي مكن اليهود من العبور إلى فلسطين، وهم الذين حاولوا طيلة القرن الماضي إن لم نقل النصف الأخير منه على طرح المشكلة الفلسطينية طرحاً مغلوطاً ووضعها في غير إطارها الصحيح الذي يشهد له التاريخ، ويؤيده الواقع، وتؤكده الأحداث اليومية، وهم لا يزالون يصرون على السير في هذا الطريق المسدود، رغم سقوط الطريق وسقوط أهل الطريق.

إن نوايا إسرائيل وممارساتها ليست جديدة ولا طارئة ولا خفيّة على أحد، كما أن عمليات التهويد في الضفة الغربية وقطاع غزة ماضية إلى غايتها المرسومة، وإن التهويد والعبث والتشويه في مناهج التعليم يكاد يأتي على الأمة بكل مقوماتها، ولا يقتصر على الأرض المحتلة بل يمتد إلى العالم العربي وبلاد

العالم الإسلامي أيضاً، من تهويد للنفوس أولاً ومن ثم ما يلمح من سقوط كثير من وسائل الثقافة والإعلام والتربية في مناخ التهويد. والذي مكن لهذا ولا يزال تغييب الإسلام عن الساحة أو غيابه عنها، وإغلاق مدارس الجهاد الإسلامي وإيقاف نسخ الإسلام عن الحياة اليومية، وإقامة هياكل إسلامية خالية من معاني الإسلام الحقيقية، خاوية من روح الإسلام الجهادية. وطرح صور مشوهة لمحاربة الصورة الصحيحة السليمة، والاسترخاء والميل إلى الدعة والللذائذ ومتع الدنيا والرضى بها عن الآخرة فأنى يكون لنا النصر.!؟

الحل الإسلامي..

إن أخوف ما تخافه إسرائيل عودة الأمة إلى عقيدة الجهاد، أو عودة روح الجهاد إلى جسم الأمة الذي أكلت إسرائيل بعض أطرافه، وهي ماضية في الإجهاز عليه طبقاً لخطة مرسومة، وإن تغير الممثل، فالدور باق على كل حال.

لقد كانت عقيدة الجهاد هي رد الفعل السويّ والطبيعي لوجود إسرائيل وما قامت عليه من الرؤية الدينية التوراتية، لكن الأمة المسلمة حُرمت حتى من رد الفعل السوي، وخدعت بفرية التفريق بين اليهودية والصهيونية، لتستمر حملات التضليل وحياة الضياع.

ولا نزال نذكر الرعب الذي ساد الصحافة الغربية بشقّيها بعد هزيمة الأمة في عام ١٩٦٧ والأمة ما تزال على أرض الهزيمة تلملم جراحها، أن تعود إلى فكرة الجهاد المقدس والتحذير من خطورة ذلك على إسرائيل وسائر العالم.

لقد استُهلكت خلال السنين الماضية، كل الشعارات التي طُرحت في المنطقة العربية لتحرير فلسطين، وسقطت كل الحلول المطروحة، بل تبين أنها كانت في مصلحة إسرائيل في نهاية المطاف، لقد أصبحت جثة هامدة، مهما حاول أصحابها أن ينفخوا فيها الروح، أو يزعموا لها الحياة، ولم يبق إلا الحل الإسلامي. فهل نتقدم باتجاه هذا الحل بإخلاص نية وصدق عزيمة؟ وهل نعدّ

له عدّته بكل مقوّماته ومقدماته، كما أراده الإسلام وطبّقه الرسول ﷺ وصحبه الكرام؟ وهل نفتح مدارس الجهاد الإسلامي في عالمنا من جديد؟ وهل نهيّء المناخ الصحيح لثقافة الجهاد، ونخلي بين الجيل المسلم وبين إسلامه لينشأ نشأة جهادية، ويتدرب ويمارس معاني الجهاد على كل المستويات؟ وهل تعود الأمة إلى الجهاد الإسلامي، أملها الباقي وملاذها الأخير، لإنقاذ الشعب واسترداد الأرض، أم يطرح شعار الجهاد دون إعداد أو استعداد ليلتحق بقائمة الشعارات الموؤودة ـ لا سمح الله ـ؟ وبذلك نكسر السهم الأخير الباقي في جعبة الأمة بأيدينا. ونقضي على الأمل. ويكون ذلك من لوازم التهويد.

فليس أمر بيت المقدس مختلفاً في الحكم الشرعي عن أمر يافا وحيفا وغيرهما من سائر بلاد العالم الإسلامي المحتلة، وإن كان في موقع القلب منها. والله المسؤول أن يأخذ بيد هذه الأمة إلى أهلية النصر ومواقع الانتصار، وأن يحقق وعده على لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم

«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبيء اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود».

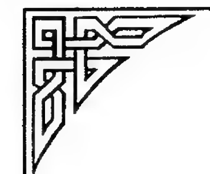
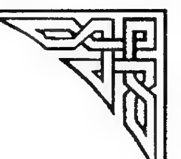
[صفر ١٤٠١هـ ـ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٠م]

فهرس الموضوعات

٧/ ١٥١١

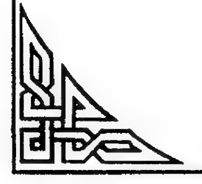
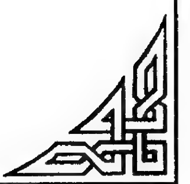
١٥١٣/٧

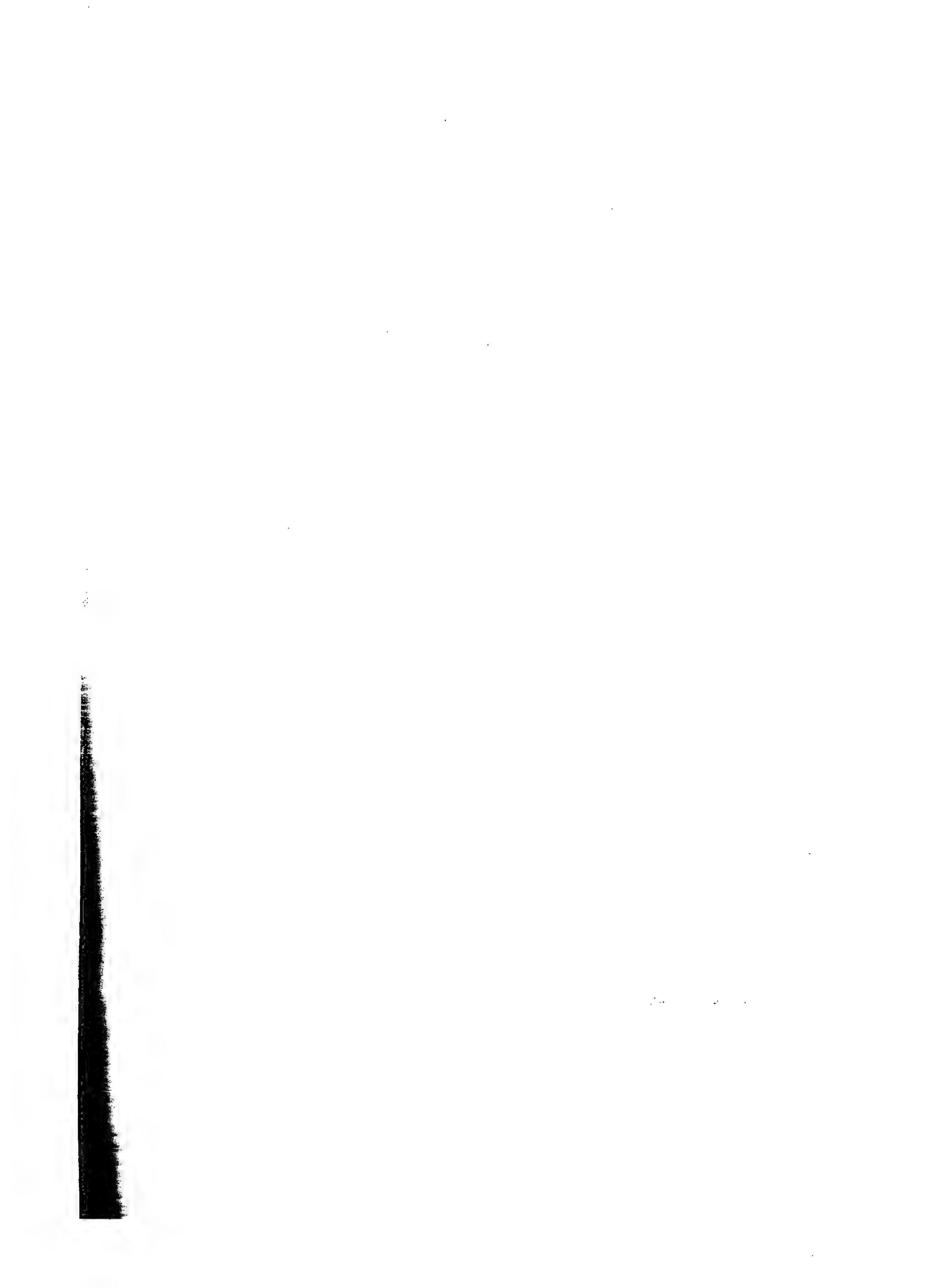
الموضوع	الصفحة

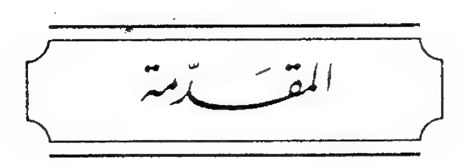



حتّى يتحقّق

الشهود الحضاري





المقدمة

أحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأصلي وأسلم على الرسول القدوة، الذي كانت الغاية من ابتعاثه إلحاق الرحمة بالعالمين، واسترداد إنسانية الإنسان، والدخول به عتبة الرشد البشري، والكمال الإنساني، ووضع الأغلال والآصار، وكانت رسالته الخالدة الخاتمة، الرسالة المعيارية لميراث النبوة، وأمته الأمة الشاهدة على الناس، قال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس. . .﴾ (البقرة: ١٤٣).

وبعد:

فمن الأمور التي تدعو للتأمل والتدبر في محاولتنا لاستئناف النهوض، أن الحضارة الإسلامية بدأت بكلمة: اقرأ، وأن الأمة الإسلامية تشكلت من خلال كتاب: القرآن، وأن الأزمة التي تعاني منها الأمة اليوم على مختلف الأصعدة، والتي نلمح آثارها وإفرازاتها في الواقع العملي، هي أزمة فكرية! وأن ما نراه من المظاهر والآثار، لا يخرج عن أن يكون من أعراضها، وأن أية عملية للتغيير والنهوض والتصويب، لا بد أن تتوجه بالإصلاح صوب عالم الأفكار، تكتشف الخلل، وتحدد مواطن الإصابة والتقصير، وتدرك أسباب القصور، ومن ثم تخطط لإحداث النقلة النوعية والشهود الحضاري، والشهود المستقبلي، في ضوء قيم العقيدة، وفعل التاريخ وحسن قراءة الواقع وتحديد موقعه بدقة من قيم الإسلام، ومسيرة التاريخ.

فالله: لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وما لم تسترد الأبعاد العملية الغائبة لعطاء الوحي، ومقاصد الشريعة، في الحرية، والشورى، والعدل، والمساواة والغيرة عليها، والجهاد في سبيل الدفاع عنها، وضمان نموها

١٥١٧/٨

وامتدادها، كما ندافع عن أنفسنا وأعراضنا، ونتحول من الجدل حول مفهومها إلى الشعور بأهمية ممارستها، وتطبيقها، ليس على المستوى السياسي فحسب، وإنما على مختلف المستويات، الذي لا يمثل المستوى السياسي إلا مظهراً لها أكثر وضوحاً، وأبعد أثراً، فسوف يستمر التراجع ويكرس التخلف والوهن.

وعملية إصلاح الخلل والتأزم في عالم الأفكار، ليس بالأمر الهيّن، والمركب السهل، وإنما لا بد لها من التحقق بالرؤية القرآنية الشاملة، والرؤية البيانية في الهدي النبوي، وحسن قراءة العصر، ومن ثم القدرة على استصحاب قيم الكتاب والسنة، وتعدية الرؤية إلى الواقع المعاش في ضوء فهم لهذا الواقع وكيفية ومراحل بسط وتنزيل الإسلام عليه، ذلك أن فهم الواقع، وحال المخاطبين، لا يقل أهمية عن فهم الكتاب والسنة نفسها.

وإزالة للبس، نسارع إلى القول: بأننا لا نعني بالأزمة الفكرية، التي نعاني منها، الفقر في القيم التي أكملها الله وتعهد بحفظها في الكتاب والسنة، الأمر الذي تستلزمه خاصيتا الخلود والخاتمية.

أو بتعبير آخر: ليست المشكلة التي يعاني منها مسلم اليوم، أو العقل المسلم اليوم مشكلة قيم أو أزمة قيم، وإنما المشكلة كل المشكلة في العجز عن التعامل مع القيم، والإنتاج الفكري، الذي يجسد العلاقة بين القيم، وبين العصر، أو يساهم بتعدية الرؤية القيمية المحفوظة في الكتاب والسنة ويفيد من خلود الرسالة، وقدرتها على العطاء المتجدد، المجرد عن حدود الزمان والمكان.

وهذه - فيما نرى - وظيفة الفكر (الفقه الحضاري)، أو عالم الأفكار الذي نعاني من التأزم فيه، بسبب الحكم بإسكات العقل، ومحاصرة الخلود والامتداد، بإغلاق باب الاجتهاد، بحجة عدم الأهلية، وتسكير باب الفساد، دون أن ندري أن إغلاق باب الاجتهاد حمل من المفاسد، والمخاطر والأزمات للأمة الشيء الكثير حيث ألغى فاعليتها العقلية، وأصابها بالسكتة الفكرية، وأدخلها نفق العطالة، والتقليد الجماعي، والاستنقاع الحضاري، وأحدث

فراغاً رعيباً وغياباً ثقافياً، كان لا بد أن يملأ من قبل الآخر.

ونحسب أن الذين اجتهدوا في إغلاق باب الاجتهاد، وحجروا على عقل الأمة، كما حجروا أيضاً على فضل الله في أن يهيء لهذه الأمة في كل عصر من يحمل هذا العلم الممتد، وقد أخبر الصادق المصدوق بقوله: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه، تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». نحسب أن الذين أغلقوا باب الاجتهاد، بحجة الحماية لهذا الدين، لا يخرجون من حيث النتيجة ـ على الرغم من حسن النية ـ عن الذين فصلوا الدين عن الحياة، وعطلوا نصوصه بحجة عدم الصلاحية لهذا الزمان وإن اختلف المنطلق واختلف المقصد.

ونحسب أيضاً أن الاستبداد السياسي، والاستغلال الاجتماعي، الذي أهدر قيم الشورى والحرية والعدل والذي يمكن اعتباره مقدمة للأزمة ونتيجة لها هو الذي أوصلنا إلى هذا التأزم وهذا الطريق المسدود، وحكم علينا بالغياب الحضاري. ووضعنا أمام هذا الباب العقلي المغلق وأوهم بعض المجتهدين، أن حماية الدين إنما تتحصل بإيقاف امتداده، وإغلاق باب الاجتهاد.

ولو ترك الأمر للشورى، والحوار، والمناقشة، والمفاكرة، والمناظرة، والاجتهاد لحصحص الحق وهزم الخطأ ولم يصح إلا الصحيح، ولماتت اجتهادات لخطئها وعدم قابليتها للحياة، وعاشت اجتهادات لأنها الأقرب إلى الصواب، وتحقيق مقاصد الشرع.

ولو دافعنا وجاهدنا في سبيل انتصار قيم الشورى والحرية والعدل. لكانت عصمة عموم الأمة، وصوتها العقلي المرتفع ضمانة تحول دون أي انحراف، إضافة إلى ضوابط القيم الثابتة في الكتاب والسنة. لذلك جاء الخلل من أننا تحولنا عن الموقع الصحيح الذي يجب أن نجاهد فيه إلى ما نتوهمه من إيثار السلامة فأغفلنا باب الاجتهاد.

لذلك نرى أن الخلط بين الأزمة الفكرية التي نلمح إليها والتي يعاني

منها العقل المسلم اليوم، والتي أورثته العجز عن التعامل مع القيم، وبين التوهم بأن الأزمة في القيم نفسها كان وراء الكثير من المغالطات والتراجعات التي لا تزال تكرس التقليد والتخلف باسم التدين، لذلك نعتقد أن من الأبجديات الأولى المطلوبة لقراءة المسلم اليوم: إزالة الخلط بين القيم المحفوظة والبرامج المطلوبة، بين القيم الثابتة والأفكار الغائبة التي تجتهد لبسط القيم على الواقع المعاصر.

وعملية التشكيل الثقافي، أو النقلة الفكرية النوعية المطلوبة لتحقيق الشهود الحضاري لمسلم اليوم وبناء شخصيته التي تتمكن من تجسيد القيم في الواقع، وتبرهن عن خلود الرسالة، وقدرتها على الإنجاب للأنموذج المطلوب، وصلاحيتها لكل زمان ومكان وتقدم الحلول الحضارية المنبثقة من التصور الإسلامي لمشكلات الإنسانية الكبرىٰ وتردم فجوة التخلف وتتجاوز إحباطات الماضي إلى الإفادة من إمكانات المستقبل.

إن النقلة الفكرية المطلوبة عملية متراكبة لا بد لها من قناعة بجدوىٰ الأمر واختيار مراحله، وجدولتها بدقة، والتخطيط لكل مرحلة، لتتم عملية التحويل الفكري، والتشكيل الثقافي، وإحداث التفاعل المأمول بين إنسان اليوم، وبين الإسلام.

وحسبنا في هذه المقالات التي نقدمها في هذا الكتاب، والتي جاءت ثمرة لمعاناة ورؤىً متعددة، في فترات متباعدة، أن نساهم بوضع لبنة في البناء للوصول إلى الشهود الحضاري الذي ناطه الله بهذه الأمة بقوله: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾، معتقدين أن الأمر أكبر من أن يحسمه مقال أو كتاب، وإنما هي نوافذ تلقي بعض الضوء على جوانب المسألة الفكرية التي لا نزال نعتبرها هي الموقع الحقيقي للمجاهدة، والذي يقتضي كثيراً من الصبر والمصابرة وديمومة المرابطة.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الدوحة في ٢٥ شوال ١٤١١

الموافق ١٩٩١/٥/١٠

نَحْوَ
عَقلٍ إسلاميٍّ راشِدٍ

١٥٢١/٨

من إصابات العقل المسلم

قد نقول بأن العقل المسلم اليوم، ومن خلال الظروف الإقليمية والدولية، وبعد أن انفتح العالم على بعضه، وتوقف الصراع العسكري إلى حد ما، وبدأت مرحلة استخدام السلاح الفكري والحضاري، لا يستطيع أن يؤدي دوره المطلوب إلا إذا استدرك بعض الإصابات التي لحقت به بسبب من التقليد والتخلف.

وفي تقديرنا أن العامل الأهم في تكريس عملية التقليد والتخلف، تقوقع العقل المسلم على نفسه، وانشغاله بالعملية الدفاعية لمواجهة أعداء الإسلام في الحقبة الاستعمارية والاستبداد السياسي، الأمر الذي جعله يعتبر كل شيء مقدساً دون أن تتاح له الفرصة للتمييز بين النص المقدس فعلاً ـ وهو الكتاب والسنة ـ وبين الاجتهاد القابل للخطأ.

وقد يكون المسلم معذوراً في مرحلة المواجهة، أما الآن، فالظروف لم تعد تحتمل أن يحمل إصاباته ويستمر الخلل الذي لحق به. وإذا لم يكن في مستوى العصر، فسوف يخسر الجولة على المستوى الداخلي والخارجي. أما على المستوى الداخلي، فسوف يكون عاجزاً بوضعه الحالي عن التعامل مع المشكلات، وإيجاد الحلول لها، الأمر الذي يستدعي الاستمرار في استيراد الحلول من ثقافات وحضارات أخرى.

أما عجزه على المستوى الخارجي، فيتمثل في القصور عن تبليغ الخطاب

الإسلامي، بأبعاده العلمية. والتقدم للمساهمة في حل مشكلات العالم. ونرى أن من أبرز الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم اليوم:

● العدول في التعامل عن السنن الجارية واكتشاف قوانين التسخير، إلى السنن الخارقة وانتظار المنقذ القادم من الغيب ليعالج التخلف والتأخر والتمزق، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً. وفي هذا ما فيه من مجافاة للعقل المسلم وللإنجاز الحضاري في عصر النبوة، فترة القدوة... لكنها إفرازات مناخ التخلف، واجتهادات عصر التخلف.

● تعطيل قانون السببية، علماً بأنه من أقوى الأدلة التي تبرهن على وجود خالق الكون، والله سبحانه وتعالى يقول حكاية عن ذي القرنين الذي حقق تفوقاً وإنجازاً وتمكناً في الأرض بعد أن ألهمه الله معرفة الأسباب، فاتبعها: ﴿**وآتيناه من كل شيء سبباً. فأتبع سبباً**﴾ (الكهف: ٨٤ - ٨٥).

ومشكلة العقل المسلم اليوم، فقدان التوازن في هذه القضية، فهو يتردد بين موقفين. بين تأليه الأسباب، وبين تعطيلها.. والجدل النظري حول هذا الموضوع، أضاع الكثير من الإنجاز، وفوت الكثير من فرص التصويب والمراجعة واكتشاف الخطأ ومعالجته، وترتب على ذلك خلط بين التوكل على الله الذي يعني فعل المقدمات كاملة وتعاطي الأسباب، ثم الاتكال على الله في إدراك النتائج.

وذلك تعامل مع السنن وقوانين التسخير كما شرعها الله لعباده - وبين التواكل الذي يعني القعود عن فعل المقدمات وتعاطي الأسباب، وانتظار النتائج والخوارق.

● عدم الاقتناع بجدوى النقد والمراجعة والتصويب، والاعتبار بالتجارب السابقة واكتشاف السقطات والحفر والإخفاقات، ودراسة أسبابها، وأخذ الدرس والعبرة منها للمستقبل استجابة لحديث الرسول ﷺ: «**لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**». ومحاولة الهروب من المسؤولية عن الفعل، والإلقاء بالتبعة على العوامل الخارجية، فإن أعيتنا الحيلة كان القدر هو المسؤول عن هزائمنا، أما بالنسبة لنا فقد أدينا واجبنا كاملاً تحت شعار: «ليس بالإمكان أفضل مما كان» وبذلك لا نزال نراوح في مكاننا، ونكرر أخطاءنا، والله سبحانه وتعالى لم يرد لنا الاعتبار بتاريخنا

الخاص فحسب: ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ (آل عمران: ١٦٥)، وإنما طلب إلينا أيضاً تحقيق العبرة من التاريخ العام للأمم: ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا**. . .﴾ (الروم: ٤٢).

● تعطيل الحوار الذي يفتح الآفاق، ويساهم برعاية القابليات، ويشحذ الفاعلية، ويحقق الإبداع. . فالقرآن عرض للعقائد السابقة وناقشها من أكثر من وجه، وفي أكثر من موقع، وطرح أكثر من احتمال. فإذا كان الحوار مع الخصوم قائماً، فما بال العقل المسلم اليوم يغلق منافذ الحوار حتى مع القائمين على الأمر الواحد، المستهمين في السفينة الواحدة؟!

● عدم القدرة على التمييز بين الغزو الثقافي والتبادل المعرفي. . وإقامة هذا الحاجز من تخوف الغزو الثقافي، حرم العقل المسلم الكثير من المعارف وارتياد الآفاق التي تمكنه من اختصار فجوة التخلف، والمساهمة في التغيير الحضاري «والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها».

● العجز عن النظرة الكلية، للأمور، وإدراك المقاصد العامة للشريعة، والوقوع في الجزئية وعدم القدرة على التحقق بالسنن التي تحكم الحياة وتبصر الأولويات المطلوبة، وتستطيع تحديد الموقع الفاعل والتحرك المناسب من خلال سنن المدافعة التي شرعها الله لحماية القيم التي أنزلها.

[١٦ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ - ١٤/١٢/١٩٨٩ م]

الفرار من قدر الله إلى قدر الله

لا بد أن نعترف ابتداء بأن ما لحق بالعقل المسلم من إصابات، لا يمكن أن يعالج بمقال، أو كتاب، أو نحوه. ذلك أن الأمر يتعلق حقيقة بصميم المشكلة الثقافية، والمناخ الثقافي أو عالم الأفكار الذي يشكل المحضن الصحي والضروري لإعادة تشكيل العقل وتربيته، ومنحه القدرة على العطاء والحماية من الانكسار. لذلك نقول: إن المعالجة لا بد أن تأتي طويلة النفس، دائبة ومستمرة، تعطي من الزمن والمحاولة ما تستحقه الأمراض المزمنة من الصبر والأناة وبراعة المعالجة ورسم المنهج الصحيح، وتعميق أبعاده، ومتابعة ذلك بأكثر من وسيلة ليتمثله الفرد المسلم فتحصل النقلة المطلوبة، ونسترد المواقع المفقودة، ولا نخدع أنفسنا، أو نخادع بالفجر الكاذب الذي يعمي على كثير منا حقيقة النور، وسلامة الرؤية في تحقيق نصر موهوم.

إن العقل الذي لا يتحقق بالرؤية الشمولية الكاملة، لا يمكنه الترتيب لانعدام الرؤية الدقيقة لسلم المشكلات التي تواجه عالم المسلمين، وبالتالي فلا يمكن له القيام بعملية البرمجة، ولا يمتلك القدرة على التصنيف وإعطاء كل مشكلة علامتها ومكانها الذي تستحق، والطاقة التي تحتاج، كما أنه لا يمتلك المقدرة على التمييز بين آثار المشكلات التي تنجم عنها وأسبابها التي أوجدتها، وإن معالجة الأسباب تعني مزيداً من الارتكاس، ومزيداً من هدر الطاقات فلا بد من اكتشاف الأسباب والعلل ومعالجة هذه الأسباب، وإلى أي مدى يمكن أن يكون الكثير من المشكلات الفرعية أو الجزئية، مظهراً من مظاهر المشكلة العامة، وأن هذه

المشكلات الفرعية سوف تغيب عن عالم المسلمين إذا أحسنّا تحديد أبعاد المشكلة العامة، وبالتالي أحسنّا معالجتها.

إن دعوتنا إلى إعادة صياغة العقل المسلم، أو الوصول إلى العقل المرتب لمسلم اليوم هي دعوة مزدوجة في حقيقة الأمر، أو هي ذات بعدين رئيسيين:

● **البعد الأول**: تصحيح التصور، وذلك بالقدرة على رؤية الخطوط الإسلامية، والمسارات الإسلامية متواصلة متكاملة، متوازية، لا يصطدم بعضها بالآخر لتأخذ بعدها بضبط وربط.. والقدرة على تكوين العقلية التي تمتلك أبجديات الثقافة الإسلامية فتحسن القراءة الإسلامية التي تستطيع من خلالها أن تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيراً إسلامياً، وتصدر عن تصور شامل للكون والحياة والإنسان، ولا تقع فريسة للتفسيرات غير الإسلامية كما أنها لا تبقى مهوشة غير قادرة على التوازن والاعتدال.

● **البعد الثاني**: تخليص العقل من التركيز على النظرة الجزئية، لأن التركيز عليها يؤدي إلى آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار، كما يؤدي إلى تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات الأمر الذي يقتل الإبداع، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان، ويوقع في التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين سواء أكان ذلك بالتعامل مع التراث، أم القدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهة حاجات العصر المتجددة. ونحن هنا، بمطاردتنا لأصحاب النظرة الجزئية والمولعين بالتبعيض المتلزمين بالأبعاض لا ندعو إلى تسطيح المعرفة العلمية وتمديدها في عصر التخصصات الجزئية، والعجز الفردي عن الاستيعاب والأداء الفردي الشامل والمجدي. وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً إن الكلام هنا في مجال البنية الثقافية وهي أمر آخر لا تشكل المعرفة العلمية الأكاديمية إلا حيزاً بسيطاً منه، على ضرورته وأهميته ولذلك نرى: إنه لا بد من ثقافة عامة، ونظرة شمولية وعقل مرتب متوازن قادر على النظرة العامة إلى جانب التخصص العلمي ببعض الجوانب.. فالعلم شيء، والثقافة التي تستطيع توظيف هذا العلم والإفادة منه شيء آخر. كما لا بد من إعادة النظر.. من حين لآخر، بسلم المشكلات وإعادة تصنيف هذه المشكلات، وترتيب الأولويات، حماية للجهد، واغتناماً لفرصة العمر، وتوفر الطاقات، والموازنة الدقيقة بين الحاجات والإمكانات، وعدم الخلط

بين الأمنيات والإمكانيات وإعادة النظر بالموقع الذي يمكن أن يكون فيه الفرد المسلم والعاملون للإسلام وإعادة النظر أيضاً بوسائل الدعوة، وتطويرها حسب حاجات العصر، ومن خلال مشكلاته وعدم الضرب في الحديد البارد، وجعل الاختصاص في خدمة العقيدة والتقدم في قضية الدعوة واكتشاف المنابر المؤثرة والمواقع الجديدة التي أخذت مكاناً ومكانة في المجتمع الحديث، والقدرة على دراسة شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتناع بأن التفوق العلمي والتخصص النادر الذي يتحصن صاحبه بالدين القويم، هو المطلوب لهذه الأمة.

ومطلوب أيضاً بناء عقلية البرمجة والتخطيط ودراسة الأسباب واختبار النتائج واكتشاف مواطن الخطأ والعجز، وإعادة المحاولة أكثر من مرة، وقد نخطىء كثيراً ولا نظفر بالمطلوب في أكثر من جولة، لكن على الأقل نطمئن إلى أننا وقفنا على الجادة، وبدأنا طريق العودة إلى الإسلام.

إن عطالة عقل مسلم عصر التخلف، وإلغاءه تجاه قضية مناقشة صحة النتائج ومدى توافقها مع المقدمات، بوحي من تصور إسلامي مغلوط، سيبقي العقل يراوح مكانه لا يبرحه ما لم يحرر من هذه المعضلة، ويدرك أبعادها بشكل دقيق وسليم.

صحيح أن أمر ترتيب النتائج على المقدمات مملوك لله تعالى ومراد له وصحيح أيضاً أن الذي خلق قانون العلل والأسباب والسنن لا يمكن أن يحكم به لكن، من جانب آخر، لا بد من الاعتقاد أن الله يحكم البشرية بهذا القانون ويحاسبهم على ضوئه وإلا توقفت الحياة وتعطلت وظيفة الإنسان في الأرض القائمة أصلاً على تعاطي الأسباب وإتقانها وحسن التعامل معها لتوصل إلى النتائج وبطل التكليف وسادت العبثية.

إن عدم مناقشة ومراجعة ترتب النتائج على المقدمات أو المسببات على الأسباب تحت شعار «ليس علينا إدراك النتائج» والاستسلام لها بهذه السهولة، يفقدنا عملية الصواب والتصويب التي لا تتحصل إلا بالعودة إلى دراسة الثغرات التي كانت سبباً في تخلف النتائج واستدراكها، ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥) إن الإيمان والالتزام بقول الرسول ﷺ: «وإذا أصابك شيء فقل: قدر الله وما شاء فعل» لا يعني الاستسلام وإنما يعطي

نوعاً من الإيجابية حتى لا تمتد العطالة والإصابة إلى المستقبل. إنه لا يلغي الفاعلية القائمة على تعاطي السنن أصلاً للتوصل إلى النتائج المطلوبة، وإنما يوفر الطاقة ويحول دون العجز والسقوط والبكاء على الأطلال. إن كون النتائج وحصولها أو عدم حصولها من قدر الله، أمر يوازي قضية السببية ولا يصطدم بها، لأن الأسباب الموصلة للنتائج هي من قدر الله وسننه، في الحياة أيضاً.

ومن هنا تأتي ضرورة إعادة ترتيب العقل المسلم اليوم على ضوء فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سئل بعد تحوله برعيه من الوادي المجدب إلى الوادي المخصب ليؤمن لغنمه المرعى الصالح: كيف تفر من قدر الله؟ فيقول: فررت من قدر الله إلى قدر الله.

[٧ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠/١/٤ م]

﴿أفلا يتدبرون القرآن .. أم على قلوب أقفالها ..﴾

قد يكون من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه وبين تدبر القرآن، وكسر الأقفال، ووضع الأغلال والآصار، والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة والاغتراف منها لعلاج الحاضر، والامتداد صوب المستقبل، واعتماده مصدراً للمعرفة، والبعث الحضاري، التوهم أن الأبنية الفكرية السابقة التي استمدت من القرآن في العصور الأولى، هي نهاية المطاف، وأن إدراك أبعاد النص مرتهن بها، في كل زمان ومكان، وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي، وجعل الرأي دائماً قرين الهوى، وسوء النية، وفساد القصد، وفي هذا ما فيه من محاصرة للنص القرآني، وقصر فهمه على عصر معين، وعقل محكوم برؤية ذلك العصر، وحجر على العقل، وتخويف من التفكر الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه بنص القرآن. هذا عدا عن أن الاقتصار على هذا المنهج في النقل والتلقي يحاصر الخطاب القرآني نفسه، ويقضي على امتداده وخلوده، وقدرته على العطاء المتجدد للزمن، وإلغاء لبعده المكاني: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ: ٢٨) ولبعده الزماني: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ (الأحزاب: ٤٠) وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض والنظر في البواعث والعواقب، واستمرار النظر في الأنفس والآفاق، والاكتشاف المستمر للسنن والقوانين، والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي، والكشوف البشرية في إطار علوم الكون والحياة: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ (فصلت: ٥٣).

ولعل، ترسب هذه القناعة العجيبة الغريبة، هي من الأقفال الأولى التي يجب كسرها لينطلق الفهم من قيوده وأغلاله وآصاره، فيتحقق العقل بالرؤية القرآنية في أبعاد الحياة المختلفة وينضج معرفة وحضارة مستمدة من الوحي المعصوم، لأن هذه القناعة إذا استمرت فسوف تلغي الحاضر والمستقبل معاً، وتسقط عن القرآن صفة الخلود الزماني، والامتداد المكاني. ومن المفارقات العجيبة حقاً بالنسبة للعقل المسلم جرأته على إلغاء التكليف القرآني بالنظر والتدبر، باجتهاد بشري وإسقاطه، وذلك بعدم إدراكه للنص النبوي ـ البيان القرآني ـ الذي يقرر أنها قد تتأتى فهوم مستقبلية أكثر وعياً وإدراكاً للنص القرآني: «بلغوا عني ولو آية، فرب مبلغ أوعى من سامع»، «فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» رواه الترمذي.. ونحن بهذا لا ندعو إلى القفز فوق الفهوم التاريخية للقرآن. وهذا الميراث الثقافي الذي يعتبر مفخرة من مفاخر الفكر، والاغتراف من القرآن مباشرة بمؤهلات وبدون مؤهلات، وإنما نريد أن نحرر العقل من قيوده حيث حرم عليه النظر، وندعو إلى النظر الذي لا يتحقق ولا يتأتى ولا يستحق أن يسمى نظراً إذا تجاهل الفهوم السابقة، ولعل من أبسط مستلزماته: استصحاب الاجتهادات السابقة، ولكن لا نقتصر عليها فلكل عصر رؤيته في ضوء مشكلاته ومعطياته.

إن الدعوة إلى محاصرة العقل، والحجر عليه، وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن الكريم، وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر، وأبقى الأقفال على القلوب وصار القرآن عبارة عن تراتيل وتناغيم. وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم، وتغني الرؤية وتعين على التدبر، أصبح ـ من بعض الوجوه ـ عائقاً يحول دون هذا كله.. وشيئاً فشيئاً، تنقلب القدسية من القرآن إلى السنة، فتجعل حاكمة على القرآن، ومن ثم، انتقلت القدسية لفهوم البشر، وبقي الكتاب والسنة للتبرك.

فالمشكلة المستعصية، في اختلاط قداسة النص ببشرية التفسير والاجتهاد لذلك النص، وإدراك مرماه حيث اعتبر رأي الشيخ أو المتبوع في تفسير نص ما أو فهمه، هو الأمر الوحيد، والممكن، والمحتمل، والأكمل لمدلول ذلك النص وصار

أي رأي أو احتمال آخر خروجاً عن الإجماع أو نوعاً من الابتداع وقد لا نستغرب في هذا المناخ أن ينتهي بعض الفقهاء والأصوليين إلى القول: «كل آية أو حديث تخالف ما عليه أصحابنا، فهو مؤول أو منسوخ»، وهـذا القـول منسوب لأبي الحسين الكرخي من الأحنـاف. وقد يكون هذا واقع العقل المسلم لكثير ممن سيطر عليهم مناخ التقليد الجماعي، وإن لم يصرحوا به، وأصبح كف العقل عن فهم وتدبر القرآن مناخاً عاماً يصعب الانفلات منه. وجاءت ثمرة ذلك: مجاهدات عقلية وجهوداً فكرية غير مجدية استغرقتها مسائل الفروع التي كتبت فيها مئات المؤلفات من المتون، والحواشي، والشروح والاختصارات، وضاعت بذلك مقاصد الدين، وحوصر امتداد القرآن الكريم والسنة، عن شعب المعارف الأخرى كما توقف الامتداد في بعدي الزمان والمكان، وانطفأت بذلك جذوة العقل المسلم، وتجمدت قيم الدين ومقاصده في مجال الشورى، والعدل الاجتماعي، والمساواة، والحرية، وغاب الفقه القرآني بمعناه الشامل ليقف عند حدود الحل والحرمة لبعض الفرعيات وقطعت الرؤية القرآنية الشاملة، وسادت النظرات الجزئية، وساد العجز وتوقفت النظرة الموضوعية لتخلي مكانها للرؤى الموضعية.

لقد أورثنا مناخ التقليد الجماعي الذي عطل فينا ملكة الاجتهاد، والإبداع، والإنجاز لقرون طويلة، نوعاً من العجز المزمن جعلنا دون سوية التعامل مع القرآن الكريم، وإدراك سننه في الأنفس والآفاق. والاقتصار على بضع مئات من الآيات نظر فيها الأقدمون على أنها آيات الأحكام التشريعية.. ولا نزال إلى اليوم نبدي فيها ونعيد من خلال ميراث الفقهاء وليس من خلال موقعها من الرؤية القرآنية حيث للآيات مقاصد عدة: تربوية واجتماعية، ونفسية، وكونية، ومنبهات حضارية ووسائل الكشف العلمي بحيث لا يخرج الحكم الشرعي عن أن يكون واحداً منها.

[٢١ جمادى الأخرة ١٤١٠ هـ - ١٨/١/١٩٩٠ م]

التبعيض المورث للخزي

ما أظن أن أحداً من المسلمين لا في الماضي ولا في الحاضر يعترف أو يقبل بأن ينسب إليه بأنه يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، ذلك أن مثل هذا الأمر إن اعتقده الإنسان يخرج من الملة وينتهي إلى سوء العاقبة، وأحب أن أنبه ابتداء أني لا أنظر إلى الموضوع أو أناقشه على مستوى العقيدة أو التنقيب عن النوايا، فذلك أمر مرده إلى الله الذي يعلم السر وأخفى، ولا على مستوى الأقضية الشرعية والحكم على الناس بالتكفير والتأثيم والتجريم، فتلك أمور لها شروطها ومقتضياتها في مثل هذه الأمور.

وإنما الذي أقصد إليه هو: رصد بعض الظواهر في الواقع الإسلامي اليوم وما يترتب على تلك الممارسات من الخزي والتضليل الثقافي الذي تعيشه الأمة وتعاني منه على أكثر من صعيد، وإن لم نعترف به على مستوى الفكر والعقيدة.

كما لا أقصد من إثارة هذا الموضوع الانتهاء إلى مقولة شاعت على ألسنة كثير من العاملين في الحقل الإسلامي: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه» على الرغم من أن تلك المقولة تعتبر مسلمة على مستوى العقيدة، فإنكار أية أجزاء يقينية من الإسلام تؤدي بصاحبها إلى الكفر، فهي تحتاج إلى مناقشة هادئة لا بد من العودة إليها مستقبلاً حيث إني أرى أن التدرج للوصول إلى تحقيق مقاصد الشرع سنة لا بد من اعتمادها والأخذ بها، فالتكليف الشرعي مرتبط بالوسع، فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها، فاتقوا الله ما استطعتم،

فأتقدم باتجاه الالتزام بالأحكام الإسلامية قدر استطاعتي، وأرتقي في مدارج الكمال شيئاً فشيئاً وقد يعتريني السقوط فأعاود الصعود وهكذا أفعل المتاح والممكن الآن، وأتقدم باتجاه غير الممكن ليصبح ممكناً في الزمن التالي، ولا يجوز لا عقلاً ولا ديناً أن أوقف الإسلام بجميع شعبه المستطاعة وغير المستطاعة حتى أتمكن من أخذه جملة، وما أظن ذلك عقلاً أو شرعاً وإن كنت أعتقد بأن المطلوب من كل مسلم بعد أن اكتمل الدين أن يعرف الإسلام جملة ويعتقده، فلا تدرج في التشريع وقد اكتمل الدين ولكن يبقى التدرج في التطبيق.

والمسلم وهو يتقدم متدرجاً باتجاه الكمال بمقدار الوسع والإمكان لا بد له أن يبصر الصورة الكلية الشاملة التي يحاول الانتهاء إليها.

نقول هذا الكلام بعد أن تعاظم التبعيض والتقطيع للرؤية الإسلامية والانتقاء منها على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي.. إلخ سواء جاء ذلك من الداخل الإسلامي أو من الخارج الإسلامي على حد سواء.. فعلى المستوى الاجتماعي قد نرى إنساناً ـ وما أكثرهم اليوم ـ يعيش حياته بعيداً عن الانضباط بحدود الشرع حتى تلك التي تقع تحت وسعه وضمن طاقته بل قد يعيش نمطاً من الحياة آخر غير النمط الإسلامي تماماً، لكنه يستعير من الإسلام ما يستدعيه تبرير موقفه ومسلكه مع زوجته في البيت من مطالبتها بحقه في القوامة كما يفهمها لوناً من التسلط والتشريف.. وقد يتعسف في استعمال حق الطلاق فيشرد زوجه وأطفالها بغير حق، أو يتعسف في استعمال حق التعدد مع غياب العدل فيؤدي ذلك إلى لون من الدمار الاجتماعي للأسرة من زوجة وأولاد، وكأن الإسلام هو سبب شقائهم ودمارهم ذلك أنهم عاجزون عن إدراك قراءة هذا التبعيض المورث للخزي الذي مارسه الزوج أو الأب.. إلخ فظنوا أنه الحكم الشرعي، ذلك أن تلك الحقوق إنما شرعت للزوج المسلم فأعطنا الإسلام نعطك هذه الحقوق.

وفي المجال السياسي وإن شئت فقل: التضليل السياسي نجد مثلاً كثيراً من الذين يعملون على الساحة السياسية اليوم من كتّاب أو زعماء أو مسؤولين أو مفكرين، قد لا يكون للإسلام نصيب من سلوكهم وفكرهم وخلقهم، لكنهم

لا يتورعون أو لا يخجلون من استعارة الإسلام كمسوغ لبعض تصرفاتهم ومواقفهم السياسية التي لم تنبع من الإسلام ابتداء، ولا تصب في أهدافه انتهاء ودافعهم في ذلك ستر عوراتهم السياسية والفكرية أمام الجماهير المسلمة المضللة والتلاعب عليها بالألفاظ والإسقاطات التاريخية.

فقد تسمع دعوات جهاراً نهاراً لعزل الإسلام وتاريخه وحاضره الجهادي عن المعركة مع يهود، وطرح البديل العلماني الذي أقل ما يقال فيه إنه إقصاء الشريعة وتقطيع الإسلام - كما أنزله الله - ومع ذلك يستدعى الإسلام لتسويغ مواقف تتم جميعها في الخارج الإسلامي خارج إطار الإسلام ومنطلقاته لانتشال الساقطين من ورطتهم، وتبرير مواقفهم أمام الجماهير المسلمة، فترى حيناً مثلاً أن الصلح مع إسرائيل لا يجوز شرعاً لأن الجهاد في هذه الحال فرض عين على كل مسلم حيث احتل اليهود أرضاً إسلامية، عندما تقتضي الظروف ذلك وحيناً آخر يصبح الصلح والاستسلام أمراً شرعياً لا يخرج عن الشرعية الإسلامية التي مارسها الرسول ﷺ في صلح الحديبية، والجماهير المسلمة تقف مشدوهة تلمس على رأسها وتفحص حواسها ولا تلبث أن تدرك مدى الاستهتار فيها والتلاعب بقيمها.

وقد تكون المشكلة التي نعاني منها اليوم على مختلف الأصعدة كما أسلفنا الوضع المعكوس الذي نعيشه في هذا الزمان مع قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

ذلك أننا اليوم نستخدم ما جاء به الرسول ﷺ لتسويغ أهوائنا وتبرير تصوراتنا فنجعل ما جاء به الرسول تبعاً لأهوائنا!!

وكثير منا لا يزال يذكر كيف يستعار الإسلام في أيام المواسم والانتخابات، وبناء الزعامات والرئاسات ثم لا يلبث أن تنتهي مهمته ويعزل عن الحياة.

نعود إلى القول: لو اقتصر الأمر في التبعيض والتقطيع والانتقاء على الجانب السياسي لهان الأمر، لأنه أصبح أكثر انكشافاً من غيره لكن المشكلة أنه تتعدى إلى جوانب حياتنا المتعددة.

ولا نريد أن نسترسل في تقديم النماذج ولكنها إشارات سريعة إلى الخزي والتخلف في حياتنا الذي أورثه التبعيض.

ولقد حذرنا الله بقوله: ﴿**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب**﴾ (البقرة: ٨٥).

والرسول ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

فهل يتوقف الخزي ونعيد حساباتنا من جديد ونعلن أن الله مطلع علينا ونخشى اليوم الذي نرجع فيه إلى الله؟ عندما تسقط الأقنعة كلها وترى الأمور على حقيقتها.

[٤ شعبان ١٤١٠ هـ - ١/٣/١٩٩٠ م]

تجديد المعركة بين العقل والنقل

من الأمور اللافتة للنظر: استيراد أو تجديد المعركة المفتعلة على الساحة الإسلامية بين العقل والنقل أو بين النص والاجتهاد، ونعتقد أن هذه القضية تعتبر من القضايا المحسومة في تاريخ الفكر الإسلامي وأن ما أثير ويثار حولها لا يخرج عن كونه صدى وشظايا متناثرة لمعارك بين النص الديني والكسب البشري التي دارت رحاها في أوروبا بعيداً عن طبيعة الإسلام وفكره وعطائه الحضاري، ولئن كانت لتلك المعارك مبرراتها في الحضارة الأوروبية النصرانية التي تفتقر ابتداء إلى النص الديني الموثق فإن طرحها في المجال الإسلامي يدعو للإشفاق.

فمن المعروف أن النصوص الدينية غير الإسلامية لم تدون إلا بعد ما يزيد على قرن من الزمان من ذهاب أصحابها، وأن الكثير من هذه النصوص يصعب جداً أن يثبت أمام الفحص الوثائقي إلى درجة جعلت بعض مفكري الغرب يدعو إلى التعرف على النصرانية الصحيحة من خلال القرآن الكريم لأنه أقدم وثيقة وردت بطريق علمي موثق، ودفعت بعضهم الآخر إلى الشك والاعتقاد بأن وجود المسيح أصلاً كان خرافة (والعياذ بالله)، وطالما أن النص المعمول به هو من وضع البشر الذين تفصل بينهم وبين المسيح عدة أجيال على الأقل، فإن قضية الخطأ والصواب تجري عليه كما تجري على سائر أعمال البشر، فلا بد إذن من فحصه واختباره وإلغاء بعضه وإبقاء البعض الآخر في ضوء المعارف العقلية.

ولم يكن شعار الإسلام في يوم من الأيام: أطفىء سراج عقلك واتبعني كما هو الحال في الحياة الدينية في الغرب ولم يكن قانونه: من تفلسف فقد تزندق، وأن التسليم طريق الدين وليس العقل والفكر، إنها مجموعة من المنكرات العقلية، الإسلام بريء منها.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن القرآن يعتبر أقدم وثيقة علمية تاريخية وردت بالتواتر، وأن محاولات الأعداء مستمرة لإلحاق إصابة واحدة بالنص القرآني، ومع ذلك فقد باءت المحاولات كلها بالفشل، لأن الذي أنزل النص هو الذي خلق العقل، فاحتمال التناقض منتف ابتداء إلى درجة حملت بعض علمائنا على التأليف في مسألة: موافقة صحيح المعقول لصريح المنقول..

لذلك نقول: إن الصراع بين العقل والنقل صراع مفتعل وبعيد أصلاً عن ساحة الفكر الإسلامي الصحيحة.

أما الذين كانت دراساتهم في مناخ الحضارة الأوروبية، أو كانوا من تلامذتها، أو من معتنقيها فلهم عذرهم العقلي والديني.. لكن المشكلة في تسويق ذلك في عالم الإسلام من الذين يجهلونه أو يتجاهلون تاريخه الفكري وإن كانت لهم مناصب الأستاذية فيه.

إن آفتهم الثقافية هي في عدم الاعتراف بغير الحضارة الأوروبية، لذلك نرى الكثير منهم ـ عند العجز عن المواجهة ـ يحاول الالتفاف على النص ومحاصرته باسم المصلحة والضرورة وغير ذلك من ظروف الكيد.

ولا بد في النهاية من القول: بأن الأمة المسلمة أمة متميزة عن سائر الأمم بأنها أمة الرواية والدراية معاً، وأن خلود الرسالة وختمها يقتضي وجود النص وصحته وعدم مصادمته للعقل، وأن الإصابة الحقيقية جاءت من عدم الالتزام بالنص المحكم المتواتر.. والتاريخ يشهد أننا حين استمسكنا بالنص وأعملنا العقل في إدراكه تحققت لنا الشهادة والقيادة.. والعطاء الحضاري وعندما عدلنا عن النص سقطنا في التخلف والتبعية الثقافية.

فكيف والحقيقة هذه يعتبر بعض المفكرين أن إسقاط النص (النقل) من

شروط النهوض وأن العقلنة نقيض الوحي؟ ويستمر في حياتنا الثقافية الترويج لمثل هذه الثقافات المغشوشة!!

ويعاد طرح ذلك على مستوى الصحف والمجلات والندوات والمواسم الثقافية ويمارس التضليل الثقافي باسم الانفتاح والتنوير.

[٢٢ ربيع الآخر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/١٢/١ م]

مناخ عقلي مغشوش

الأمر الذي يدعو إلى الحزن، هذه الحال المؤسفة التي عليها المسلمون اليوم، بعلمائهم، ودهمائهم، والتي قد لا نجد من المناسب إلا وصفها «بالمناخ العقلي أو الثقافي المغشوش» الذي نعيشه، والذي يستوي فيه العالم والجاهل في كثير من الخصائص والصفات والمكتسبات التي تشكل الشخصية، حيث جعل هذا المناخ الثقافي رد الفعل واحداً في أصله، وإن اختلفت صور إخراجه، أو القدرة على تشكيله بين العالم والعامي، فهو عند العامي يصدر عارياً من أي لبوس أو تلوين، بينما نجده عند بعض العلماء يمر بقنوات غالباً ما يحاول العالم التحكم فيها.

وطالما أن المناخ الثقافي بهذا الشكل، فلن يكون هناك أمل في نهوض أو تقدم، أو تفاهم حتى على الحد الأدنى اللازم والمطلوب من الأمور الفكرية، والسياسية، والفقهية، وغير ذلك، للتماسك الاجتماعي. وهذا الذي نسميه الحد الأدنى، لا يتوافر إلا في أجواء صحية من التحاور، والتفاكر، والتناظر، والتشاور، والتنوع، والتعدد في وجهات النظر الذي يتباعد ويتقارب ويتبلور ويتفاعل حتى يصح الصحيح، ويستقر النافع، والأمم التي تحرم من الشورى وتلاقح الآراء وتنوعها، تحرم من الخير الكثير، إن لم نقل من الخير كله.

وفائدتنا من اكتشاف الخطأ بالحوار، لا تقل عن إدراك الصواب وليست الفائدة من اكتشاف الخطأ، تجنبه فقط، وإنما فائدة اكتشاف الخطأ أنه يقود إلى الصواب ويلغي كثيراً من المسالك غير الموصلة في التعرف على الحقيقة. بل

لعل معرفة الخطأ هي إحدى الموجهات الضرورية إلى الصواب. فالعلماء لو لم يتعرفوا إلى طرق الخطأ لم يهتدوا إلى الصواب، ويتوجهوا إليه. من هنا نقول: إن عدم الإفادة من معرفة الخطأ وجعله أداة تمزيق، وتفرق هو في الحقيقة تحويل النعمة إلى نقمة.

لذلك فمصادرة الرأي الآخر، ومطاردته، واتهامه، وإدانته، وإشاعة أجواء الرعب، والإرهاب الفكري، وتبادل التهم، وتجاوز الأدلة، ومناقشتها إلى البحث والتنقيب في النوايا، قضية تشل حركة العقل، وتطارده، وتخيفه، وتحول بينه وبين الإنتاج الصالح، وتدفع بالكثير من المفكرين، والباحثين، والفقهاء إلى إيثار السلامة، وتجنب التهم، والتهجم، والتجريم، والتأثيم، والتكفير، فيوقفون عقولهم، ونحرم مساهماتهم وعطاءهم. وبدل أن تكون الشورى نعمة، واجتماعاً للعقول في عقل، والحوار إغناء للرؤية، واستنفاراً للهمم، وشحذاً للفاعلية، تصبح أداة تفرق وتمزق، ويكون الأمر أشد خطورة عندما تصبح القضايا الفكرية والفقهية التي محلها أهل الرأي، والعقل، والاختصاص، والقدرة، في تداول العوام، وأنصاف المتعلمين، فتنقلب القضايا الفكرية التي من أبرز خصائصها الحرية في البحث، والأخذ والرد، إلى مواقف حزبية، وتعصبية سياسية جماهيرية، فتفسد طبيعتها.

فالخوف، والتخويف من الإقدام على الاجتهاد، والحوار، والحرية الفكرية، يمكن أن يعتبر قاصمة الظهر في الفقه، والفكر، والارتقاء في حياتنا، وتحنيطاً للعقول، وتعطيلاً لوظيفتها، مهما ادعينا غير ذلك. ولعل الإشكالية التي لم نستطع بعد أن نعد أنفسنا ونروضها بشكل صحي لها هي: قبول الاجتهاد، وحرية الرأي، وكيفية التعامل معه، والإفادة منه، على الرغم من مفاخرتنا، وتباهينا بميراثنا الثقافي وفي أن قرآننا عرض لعقائد، وأفكار، ومسالك وأعمال الكافرين، وأهل الكتاب، وبسطها، وناقشها بهدوء، وأن قارئها يؤجر بكل حرف عشر حسنات.

وميراثنا الفقهي والفكري غني في التعدد والتنوع الفكري، والمنهجي، ومع ذلك لم نستطع في عصور كثيرة من التخلف، والجمود العقلي، من تمثل ذلك، والقبول به، ولا تزال شعارات الزعيم الأوحد الخالد والمفكر الأوحد،

والفقيه الأوحد، والعالم الأوحد، هي التي تسيطر على عقولنا، وتشكل شخصياتنا، وتحكم مواقفنا، كما لا بد لهذه الشعارات من جمهور من العوام يرفعها، ويعلي صوته بها، ويورثها للنشء ليبقى المناخ العقلي المغشوش مستمراً.. وافتخارنا بثروتنا الفقهية، ودراستنا للفقه المقارن، وتعدد وجهات النظر في مدارس الفكر الإسلامي، لم يؤثر في بنائنا العقلي والتربوي بالشكل المطلوب.

إن ادعاءنا المرونة، وترديدنا لحديث من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر كدعوة لولوج الاجتهاد، وإعمال العقل، وأن الذي يعمل عقله مأجور أصاب أو أخطأ، وأن الإسلام لم يثب على فعل خطأ إلا عمل العقل. لا تزال دعوى بلا دليل عند مسلمي اليوم.

فما أسهل أن نتهم المخالفين لنا بالرأي والاجتهاد والفكر، والمنهج، والانتماء، حتى ضمن الإطار الإسلامي، بشتى أنواع التهم، ولا نقتصر في ذلك على مناقشة الدليل، وبيان فساد الاستدلال، ومقارعة الحجة، وبيان وجه الخطأ والصواب من وجهة نظرنا، وإنما نتجاوز ذلك إلى التكفير والتأثيم والتجريم، والتنقيب في النوايا، وإصدار الأحكام بالجنة والنار، وكأن في الإسلام كهانة وصكوك غفران.

ولو نظر الإنسان من قريب لما قيل ويقال عن الفتوى التي أصدرها مفتي مصر حول شهادات الاستثمار وصناديق التوفير، والتراشق الذي لا يزال مستمراً بكل أنواع الأسلحة، الجائزة والممنوعة، المباحة والمحرمة، لأصابه الأسى والحزن على واقعنا الثقافي حتى تجاوزنا الاتهام بالنوايا الذي بلغنا منه المدى الكبير إلى كثير من المفارقات التي جاءت بها الخصومة، مما هو عجيب وغريب.

فمثلاً من جملة الاعتراضات، أو الردود: أن المفتي غير متخصص، وهو خريج كلية أصول الدين، وليس خريج كلية الشريعة، وبناء على ذلك فهو لا يمتلك أهلية الفتوى، وكم تكون النتائج محزنة لو اعتمدنا هذا المقياس على بعض الذين استخدموه، على الرغم من أنه محل نظر ولا يشكل حجة صحيحة، فهل كل من في مناصبنا الشرعية، ومؤسساتنا التي تدرس العلوم

الإسلامية يدرس اختصاصه؟ أم أن كثيراً من الأساتذة والموظفين في غير أقسامهم، وغير تخصصاتهم؟ ولو جاز لنا اعتماد ذلك، لوجب على كثير من القصاص، والوعاظ، السكوت عن المناقشة، وتركها لأهلها إلا إذا كان يحكم أمورنا العقلية، قانون السير ذي الاتجاه الواحد. فالذي يوافق رأينا، ندعمه، ونقبله مهما كان تخصصه، والذي يخالفنا، ندفعه بأية وسيلة حتى ولو كانت محل نظر من الناحية الشرعية، ولم يسلم من آثار المعركة وإثمها إلا من رحم الله، فالذين اتهموا المفتي بأنه أقدم على الفتوى لتحقيق مصلحة، والحفاظ على مكسب من الدولة، اتهموا بالتهمة نفسها من تحقيق مصالحهم والدفاع عن مكاسبهم في المؤسسات التي يعملون بها، وهكذا تخرج الأمور من نطاقها، وضوابطها، وموضوعيتها، لتصبح سبيلاً للابتزاز، والاتهام وفي أحيان كثيرة كسباً للعوام. وأصبح كل رأي هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والرأي الآخر هو الباطل المحض الذي لا حق فيه.

ونحن هنا لا ندعي مناقشة المسألة بأدلتها، وإن كنا نرى في مثل هذه الموضوعات ـ الربوية خاصة ـ التحريم لمجرد الشبهة، لأن ذلك أبرأ للدين والعرض كما أننا نرى أهمية التفريق بين المصلحة والضرورة، فللضرورة أحكامها وتقدر بقدرها، أما المصلحة فشأنها آخر، وحكمها آخر، خاصة وأن تحريم الربا تناول تحريم الوسائل المساعدة القريبة والبعيدة، كالخمر، فآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده ـ ملعونون من الله سبحانه وإن كان الشاهد والكاتب لا يأكل الربا على عكس الزنا والسرقة وبقية المحرمات التي تدرأ بالشبهة ويصرف عنها صاحبها إلى الستر بعد أن ستره الله، وأن الشروط التي لا بد من توافرها فيها تكاد لا تتوافر. أما الربا فشأنه عظيم، وتحريمه مخيف، لذلك نرى أن الشبهة فيه كافية للاستدلال على تحريمه.

لذلك، لا يجوز أن يفهم من كلامنا أننا مع المفتي فيما ذهب إليه، ولا مع من سوى المصلحة بالضرورة، ولكل شروطها وظروفها. لكن الأمر الذي أردنا الحديث عنه، هو الشكل الذي تعالج فيه الأمور الفقهية، والتحذير من الإرهاب الفكري الذي يطارد به الناس ويشل تفكيرهم وتمييزهم، والذي يعنون له بالغيرة على الإسلام، وكأن الإسلام سوف يهدم بفتوى فاسدة أو

غير صحيحة، وكأن الجماهير المسلمة هي اليوم غاية في السذاجة والغباء، بحيث لا ينفع معها إلا الحجر على عقولها من الناحية السياسية، والفكرية، والفقهية، فكيف والحالة هذه نتوقع أن تقوم لنا قائمة، فبدل أن تكون الآراء والفتاوى فرصة لمزيد من التفكير، والاستدلال، والنشاط العقلي، أصبحت أداة تمزيق وتفريق، واتهام، ودليلاً على أننا ما نزال عاجزين عن إيجاد ساحة للحوار والتفاهم بالتي هي أحسن، إضافة إلى أن الكثير من المعارك قد تكون الاستزادة فيها على حساب قضايا الأمة الكبرى التي لا بد من تعبئة الجماهير تجاهها.

[٢٥ ربيع الآخر ١٤١٠ هـ - ٢٣/١١/١٩٨٩ م]

عقلية التنهيج

من الأمور التي لا تزال موضع فخرنا واعتزازنا إلى اليوم، ما أنضجه أسلافنا من مناهج في شعب المعارف المطروحة والمطلوبة في عصرهم، حتى أن عقلية التنهيج في شتى المجالات كانت هي السمة المميزة للعقل المسلم في مجال الحديث والفقه، والأصول، واللغة، والتفسير، والفرائض، إلى أن توقف العقل المسلم عن الاجتهاد، وساد الأمة مناخ التقليد الجماعي، وسيطرت عليها عقدة الخوف من كل فقه أو فكر جديد، واختلط ـ كثمرة للتقليد ـ مفهوم الابتداع في الدين بالاجتهاد والإبداع في شعب المعرفة، فتوقفت تلك العلوم عن النمو، وعطلت تلك المناهج الفذة عن التواصل والتوصيل إلى حقائق المعرفة، ولم يبق لها اليوم سوى القيمة التاريخية، إلى جانب ما أكسبتنا من الاطمئنان إلى سلامة المعارف التي حققتها في حينها.

ولا شك أن تقدم المجتمعات، وتقدم المعرفة، وتيسر وسائلها أدى إلى تشعب العلوم والمعارف وتسارعها، وبالتالي، فقد تعددت المناهج الموصلة إلى تلك المعارف، في الوقت الذي ما زال المسلمون متوقفين عند الحدود الأولى التي وصل إليها أسلافهم. وعندما استشعروا التحدي والغزو، وبدأوا يفكرون في استئناف السير توهموا أن مناهج المعرفة الأولى يمكن أن تعتمد اليوم فيما وضعت له، وفي شعب المعرفة المتعددة. جاء ذلك نتيجة عجزهم وعدم قدرتهم على إبداع وسائل مناسبة لمعارف اليوم، ولم يدركوا أن المناهج التاريخية التي يمتلكونها إنما جاءت ثمرة لعصرها والمعرفة المطلوبة فيه، وأنه لا

بد أن تنشأ مناهج بقدر ما تتسع شعب المعرفة في كل عصر، فلكل معرفة وسيلتها وأدواتها، ولكل علم منهجه.

لذلك، فالتوهم بأن علم أصول الفقه مثلاً، الذي إنما وضع أصلاً للوصول إلى الحكم التشريعي من خلال الأدلة «مصادر التشريع» يمكن أن يصلح أداة للمعرفة في العلوم السياسية والاجتماعية، والأخلاقية، إلخ. هذا التوهم يحمل الكثير من العامية المنهجية حتى في إطار التراث نفسه.. فعلم أصول الفقه، غير علم مصطلح الحديث، غير علم قواعد اللغة والصرف وقواعد المنطق.

إن توقفنا الطويل عن الامتداد بالمناهج في شعب المعرفة المتعددة لا يعفينا من المسؤولية اليوم التي تقتضي التفكير الدائب في وصل ما انقطع والتيقن أن لكل علم من العلوم الإنسانية والتجريبية مناهج، وآلات وتقنيات خاصة لفهمه وإدراكه حتى أننا نرى اليوم، لكل شعبة أدوات خاصة لفهمها، في مجال العلم الواحد ففي مجال النقد الأدبي، مثلاً، هناك مناهج متعددة، وفي مجال التربية، والأخلاق، والتاريخ، والسياسة، والاجتماع... إلخ، لقد أصبح لكل علم أدواته وآلات فهمه، ولكل منهج خصائصه وشرائطه وميراثه، ولكل معرفة وسيلتها التي توصل إليها. ومن هنا نكرر القول: بأن منهج علماء الأصول، على دقته وعبقريته في استنباط الحكم التشريعي من آيات الأحكام، لا يمكن أن يعتمد ليكون وسيلة علماء التاريخ، والاجتماع، والسياسة.. إلخ. بل بإمكاننا القول: إن هذا المنهج، على دقته قد يكون مفسداً للنتائج والحقائق لو استعمل في غير ميدانه الذي وضع له، على الرغم من بعض التلاقي والأدوات المشتركة أحياناً في ميدان العلوم المتجانسة.

والمطروح بإلحاح: كيف يمكن التعامل مع القرآن والسنة، وتدبر آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ والإفادة من معطيات العلوم وآلات فهمها ليكون القرآن الكريم والسنة مصدري المعرفة وفلسفتها في شعاب العلوم الاجتماعية جميعاً حيث لا بد لنا من العودة إلى القرآن الكريم كمصدر لمعارف الحياة، وفقه المعرفة والحضارة، واعتماد السنة كأداة للتفسير والبيان،

وعدم الاقتصار على الوصول إلى الحكم التشريعي للقيام بدورنا بمسؤولية الشهادة على الناس، والقيادة لهم، وإلحاق الرحمة بهم، واستئناف السير الذي توقف من عهد بعيد في كثير من شعب المعرفة التي يمنحها القرآن الكريم. لذلك كان لا بد من طرح القضية، وتقليب وجهات النظر في جوانبها المختلفة في محاولة لتحقيق الرؤية القرآنية الشاملة.

[٦ رجب ١٤١٠ هـ - ١/٢/١٩٩٠م]

من ألوان التعويض عن العجز

إن مناخ التقليد الجماعي حال بين العقل وتدبر القرآن الكريم، وعطل فينا ملكة الاجتهاد والإبداع، والإنجاز لقرون طويلة، الأمر الذي جعلنا دون سوية التعامل مع القرآن وإدراك سننه في الأنفس والآفاق، والاقتصار على بضع مئات من الآيات نظر فيها الأقدمون على أنها آيات الأحكام التشريعية، ولا نزال نبدي فيها ونعيد من خلال ميراث الفقهاء شرحاً واختصاراً وليس من خلال موقعها من الرؤية القرآنية الشاملة حيث للآيات مقاصد عدة: تربوية، ونفسية، واجتماعية، وكونية، ومنبهات حضارية، ووسائل الكشف العلمي حيث لا يخرج الحكم التشريعي عن أن يكون واحداً منها.

ويمكن أن نقول هنا: إن العجز لحق أيضاً بطريقة التعامل مع آيات الأحكام نفسها التي أخذت هذا الجهد، وتلك المساحة من الميراث الثقافي، وأصبحنا كأتباع ومقلدين غير قادرين، ليس فقط على تجاوز فهم السابقين والامتداد بالآيات إلى آفاق إضافية، وإنما أصبحنا عاجزين أيضاً عن الإتيان بمثال آخر غير ما جاء به الأقدمون وهذا من أشنع حالات التقليد.

وكما أن مناخ التقليد الجماعي جعلنا عاجزين عن الامتداد، ودون سوية التعامل مع القرآن الكريم، فكذلك أصبحنا ـ بذلك ـ دون سوية التعامل مع الواقع المعاصر، لأننا أوقفنا عطاء القرآن للزمن وهو المتغير السريع، وحاولنا التعامل معه بمفهوم عصر آخر يختلف في طبيعته، ومشكلاته، وعلاقاته،

ومعارفه عن عصرنا، وأعطينا صفة القدسية والقدرة على الامتداد والخلود لاجتهاد البشر، ونزعنا صفة الخلود والامتداد عن القرآن، عملياً، وإن كنا نرفضها نظرياً، كما أسلفنا.

وكلون من التعويض عن العجز في الامتداد بالرؤية القرآنية، والتعامل مع العصر ـ «الشهود الحضاري» ـ ما نراه اليوم من التوسع فيما اصطلح على تسميته: «الإعجاز العلمي في القرآن الكريم» على الرغم من التحفظات على هذه التسمية لدى كثير من علماء المسلمين الذين يرون أن ميدان الإعجاز ليس المجال العلمي أصلاً، فالعلم في تقدم وتطور مستمر، وقد بلغ اليوم شأواً واسعاً، وكلما تقدمت الأيام، تراكمت المعارف، وتقدمت الحقيقة العلمية أكثر.. وخلود الرسالة يعني، فيما يعني خلود المعجزة، وعدم قدرة الإنسان على الإتيان بمثلها في كل زمان ومكان، وأظن أن تطبيق هذا في مجال الإعجاز العلمي سيؤدي إلى كثير من المفارقات والتمحلات.. والقرآن الكريم، كتاب هداية، وليس كتاب «تكنولوجيا».. ولا أحد يستطيع أن ينكر أن القرآن الكريم عرض لبعض الحقائق العلمية، ولفت نظر الإنسان إليها، ليحقق هدفه في الهداية، وينبه الإنسان إلى وسائل التعمير وبناء الحضارة، ويفتح طريق البحث العلمي أمام المسلمين، وأن كثيراً مما ذكر من الحقائق لم تكن معروفة في عصر نزول القرآن، وأن العلم أثبتها بعد آماد طويلة.

وقد تؤكد المعارف العلمية كل يوم، ما يكسبنا الاطمئنان إلى صحة النص القرآني، ولا شك أن الحقائق العلمية التي عرض لها القرآن الكريم في عصر الأمية العلمية، تعتبر من دلائل النبوة، وبرهان صدقها. أما تسميتها: «إعجازاً» فالأمر ليس بهذه السهولة، والبساطة على الرغم من أن القرآن الكريم وضع العقل البشري في المناخ العلمي، ووفر له الإسلام الشروط والظروف المطلوبة.. فموضوع القرآن الكريم صياغة الإنسان، ووظيفة الإنسان القيام بأعباء الاستخلاف والإعمار عن طريق اكتشاف سنن التسخير، وحسن التعامل معها. لذلك طلب القرآن الكريم النظر والتدبر والملاحظة والاختبار، وإدراك علل الأشياء وأسبابها، وامتد في ذلك إلى استشراف المستقبل: ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ (صٓ: ٨٨).

والمسلمون اليوم، مطمئنون إلى صدق النبوة، وصحة النص، وإن احتجنا اليوم لهذا اللون من الطرح، فقد يكون مفيداً في إطار الآخرين.
وأخشى ما نخشاه: أن يستغني المسلمون اليوم عن محاولة الإبداع والإنجاز العلمي في مختلف الميادين في ضوء هداية القرآن الكريم، والاستنفار لذلك بالكلام عن الإعجاز العلمي كلون من التعويض. لذلك نرى بعض مسلمي اليوم، كلما اكتشفت نظرية، أو حقيقة علمية على يد غير المسلمين، يجهدون أنفسهم ـ عن حسن نية ـ في التدليل على أن القرآن عرض لها، وأثبتها قبل العلم، وأعتقد أن هذا يمكن أن يعتبر دليل إدانة للواقع المتخلف والعاجز: فإذا كان القرآن الكريم قد عرض لها، فما بال المسلمين لم يفقهوها؟ لذلك، نخشى أن ينقلب موضوع الإنجاز العلمي المعاصر من منبه حضاري مؤرق إلى صورة من التفاخر والتظاهر المعوق وتكريس التخلف والأمية العقلية.

[٢٨ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ ـ ٢٥/١/١٩٩٠ م]

النبوة والعبقرية

لفت نظري ما ورد في جريدة القبس الكويتية منسوباً إلى الدكتور شاكر مصطفى، أحد دعاة الفكر القومي المخضرمين، تحت عنوان تجربة العمل القومي خلال أربعة عقود ـ شهادات قومية ـ الذي يعده الأستاذ توفيق أبو بكر في محاولته لمراجعة التجربة القومية وطروحاتها على مستوى النظرية والتطبيق، وفي سبيل تجسير العلاقة بين دعاة القومية العربية وأهل الصحوة الإسلامية قوله:

«الإسلام كمنهج حياة وسلوك بشري هو الصورة المثلى التي أفرزتها العبقرية العربية للحياة والسلوك».

وقد نشر الكلام نفسه بالراية القطرية بتاريخ ١٩٨٩/٢/٥م، ولسنا بسبيل أن نعرض لما ورد في مقال الدكتور مصطفى وغيره، ونكتفي هنا بوقفة بسيطة عند المقولة السابقة، ومدى المغالطة والخطورة التي تحملها إذا تأملها الإنسان وأدرك أبعادها المختلفة.

فمن المعلوم أن النبوة هبة من الله، واصطفاء ووحي يختص الله به من يشاء من عباده، وأن الأنبياء مسددون بالوحي ومؤيدون به، وأنهم يبلغون ما يوحى إليهم من ربهم بكل أمانة، وأن المعارف الواردة عن طريق النبوة مصدرها الوحي الإلهي، وهذا لا يعني بأن النبوة تناقض العبقرية وأن الأنبياء ليسوا عباقرة «فالله أعلم حيث يجعل رسالته». فالنبوة تكليف وتشريف، والأمر ينطبق على الأمم كما ينطبق على الأفراد. والحمل الثقيل يستدعي المؤهل اللازم.

من هنا نقول: إن الإسلام كمنهج حياة وسلوك بشري هو ثمرة لنبوة محمد بن عبدالله ﷺ وليس ثمرة لعبقرية محمد ﷺ أو لعبقرية أمته العربية.

وهذا الذي نقوله ليس حطاً من قدر العبقرية، وإنما هو تأكيد وتزكية لها فالإسلام العظيم والقول الثقيل لا يمكن أن يقوم به إلا صاحب العبقرية والقدرات المتميزة والعقل الكبير، **وليس العقل مقابلاً للوحي أو نقيض الوحي بل هو دليله.**

أما العبقرية فهي خصائص وصفات ومزايا شخصية تميز إنساناً عن آخر وتجعله أهلاً للرأي الراجح والحكمة البالغة في تقدير الأمور ووضعها بمواضعها الصحيحة، ولا نرى مجالاً هنا للكلام عن كلمة العبقرية وأصل التسمية عند العرب فقد يكون الأمر معروفاً للكثير.

ولذلك فمن الخطورة بمكان أن نقول عن الإسلام وهو دين الله الموحى إلى نبيه عليه السلام بأنه ثمرة للعبقرية العربية، مع اعترافنا بعبقرية الأمة العربية التي أهلتها لحمل رسالة الإسلام، واعترافنا بعبقرية الرسول عليه السلام الذي جعلته محلاً للرسالة.. لكن الرسالة هي وحي من الله واصطفاء لمن يشاء من عباده، وإن الإسلام رسالة الله إلى الأمة العربية وغيرها من الأمم فهو خطاب إنساني عام وإن كان العرب حملته الأوائل وقاعدته البشرية، ولغتهم أداة فهمه وتوصيله إلى العالم..

يقول تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾. (الأنبياء: ١٠٧).**

ومن المعروف أن الكثير من العرب قاوموا الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد أشار الرسول ﷺ إلى طبيعة المواجهة بقوله: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً» فكيف والمقاومة للدين الجديد كانت قائمة والمعارك استمرت والهجرات حصلت يسوغ لنا أن نقول:

بأن الإسلام ثمرة للعبقرية التي أفرزتها الأمة العربية وأن محمد بن عبدالله عبقري، ولا شك أن هذا قول يحمل كبره غير المسلمين لإرضاء أهل

الإسلام، لكن هذا الكلام يحمل في داخله ألغاماً خطيرة من عدم الاعتراف بالنبوة وهو المخرج الذي رسمه غير المسلمين الذين لا يؤمنون بالرسول ﷺ ويدعون بدعوى القومية.

وقضية النبوة تعتبر من المسلمات الأولى في عقيدة المسلم التي لا مجال للمساومة عليها أو التنازل عنها، لأن أي اهتزاز لها أو التفاف عليها يهدد الإيمان ـ فالنبوة من الأصول الأولى في بناء الإسلام بل هي الركن الثاني في هذا البناء وهي أصل الأصول، ونحن نربأ بالدكتور شاكر مصطفى أن يكون أراد بقولته ما تحتمل من المعاني وهو الأستاذ الحصيف، ونرى أنه آن الأوان لوضع حد لمثل تلك المعارك المفتعلة بين العروبة والإسلام التي هبت علينا من الخارج الإسلامي. وكانت قناعاً لبعض الأقليات الكائدة والطائفيات الحاقدة فالعروبة جنس والإسلام عقيدة سماوية والمقابلة إنما تكون بين جنس وجنس وعقيدة وعقيدة، ولا تكون بين جنس وعقيدة بدليل أننا عرب ومسلمون ولا تناقض فالمقدمات الخاطئة تقود دوماً إلى النتائج الخاطئة التي نعاني منها، بسبب عدم فحصنا للمقدمات.

ولا بد أن يتوقف هذا اللون من العبث وهذا التسلل الشعوبي لصفوف الأمة لتستعيد عافيتها.

ولا بد لنا في النهاية من القول:

بأن كل نبي عبقري وليس كل عبقري نبياً.

ونرى أن إزالة الجفوة وتجسير العلاقة إنما يكون بالبحث عن عوامل اللقاء والتأكيد عليها أكثر من التنقيب عن أسباب الخلاف والنفخ فيها.

والله من وراء القصد.

[٣ رجب ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٢/٩ م]

معارك غير مشروعة

من الأمور الهامة التي لا بد من التنبيه إليها، أن الله سبحانه وتعالى تكفل بحفظ هذا الدين وامتداده وخلوده، حتى يرث الله الأرض ومن عليها. قال تعالى: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ (الحجر: ٩) بينما أوكل حفظ الكتب السماوية السابقة لأصحابها فقال تعالى: ﴿.. **بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء**﴾ (المائدة: ٤٤). ذلك أن من لوازم خطاب التكليف الإلهي للإنسان في الرسالة الخاتمة الخالدة أن يبقى صحيحاً سليماً بعيداً عن التحريف والتبديل ليترتب على ذلك الخطاب مسؤولية الثواب والعقاب، ولو تطرق الشك إلى الخطاب القرآني لكان في ذلك عذر للإنسان يعفيه من المسؤولية ولبطل التكليف حيث لا نبي بعد محمد ﷺ ولا تصويب وبذلك فلا مجال للتصويب والتصحيح يقول تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ (الأحزاب: ٤٠). فختم النبوة يقتضي عقلاً بقاء النص صحيحاً.

لذلك فإن سلامة الخطاب الديني للرسالة الخاتمة يكاد يكون مسلمة عقلية إلى جانب كونه حقيقة واقعية من الناحية التاريخية والوثائقية. ولا شك أن المسلمين هم أدوات الحفظ وأوعيته ووسائل النقل الثقافي من جيل إلى جيل. ولقد نعى الله سبحانه وتعالى على أصحاب الأديان السابقة بأنهم: يحرفون الكلم عن مواضعه، وأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، وكان هذا التحريف وذلك النسيان سبباً في الخلل الذي لحق بهم والسقوط لحضارتهم

وقيادتهم الدينية، ليأخذ المسلمون حذرهم فيعتبروا بغيرهم فلا يصيروا إلى مصيرهم. والتحريف هو التبديل للأحكام الشرعية وكتمان مراد الله أو تحويله عن وجهته وممارسة التحريم والتحليل من عندِ أنفسهم أو التأويل الباطل، وذلك بالخروج باللفظ عما وضع له المعنى أصلاً أو النسيان الاختياري وهو الإيمان ببعض الكتاب ـ وهو ما يتوهمون أنه يحقق مصالحهم ـ والكفر ببعضه الآخر.

ولا شك أن هذه التحذيرات إنما حذر بها أصحاب الرسالة الخاتمة حتى لا تلحق بهم الإصابات والعلل الدينية نفسها التي لحقت بالأمم السابقة. لذلك نرى أن كل المحاولات من التحريف والإلغاء والانتقاء في التاريخ الإسلامي باءت بالفشل ولم تستطع أن تنال من الخطاب الإلهي والبيان النبوي، وتلك المحاولات لا تزال مستمرة ودائبة وقد نقول: ستبقى خالدة خلود الرسالة نفسها ليبقى الابتلاء والمجاهدة. ولعل من أبرز مظاهر الحفظ إلى جانب كل الجهود العلمية المتميزة التي بذلها المسلمون تجاه دينهم، أن جعل الله الرقابة والحراسة للمبادىء الإسلامية والأحكام الشرعية عامة، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية جماعية ليست مرتبطة بفرد معصوم أو بطبقة أكليروس أو برجال كهنوت أو بحملة كتاب مقدس تمنع ترجمته لتكون وحدها المتحدثة باسم الله ويكون تفسيرها للمراد الإلهي هو التفسير المعصوم والملزم، وبذلك أي بالرقابة العامة يؤمن الانحراف والتواطؤ والخطأ.

لقد جعل الإسلام الأمة كلها رقيبة على قضايا الدين وليس أحد أحق من أحد وإنما تتعاظم المسؤولية وتتحدد أكثر بمدى العلم المكتسب والموقع المؤثر. لذلك يبقى من علم حجة على من لم يعلم، والعلم الإسلامي مشاع للجميع ولا يخص طبقة دون أخرى، فلا كهانة ولا متحدثين باسم الله ولا طبقة رجال دين تحل وتحرم من عند نفسها ولا سدنة لهيكل أو لسلطان مادي أو سياسي. فعمر بن الخطاب رضي الله عنه الصاحب الراشد تصوب له امرأة ما اجتهد وأخطأ فيه والحق أحق أن يتبع. فالقرآن الكريم معصوم محفوظ بطبيعة خلوده وخاتميته والبيان النبوي معصوم بتسديد الوحي وتأييده. والرسول ﷺ يقول: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي»

١٥٥٥/٨

والعصمة بعد الكتاب والسنة إنما هي لعموم الأمة فيمكن لفرد أو جماعة أو مجموعة أن تخطىء وتنحرف ولكن ذلك مستحيل على عموم الأمة عقلاً ونقلاً فالرسول ﷺ يقول: «لا تجتمع أمتي على خطأ». وفي رواية: على ضلالة. فعصمة عيموم الأمة مستمرة من طوائف الأمة جميعاً، لذلك نرى أنه لا مبرر مطلقاً للخوف على الإسلام والأحكام الشرعية من أي خطأ أو انحراف لأن الأمة سوف ترفض وتبين فساده ولا تقره، والخطأ مردود من أي إنسان كائناً من كان، والخطأ محتمل من كل إنسان، وقد يكون الخطأ في الاجتهاد مع إخلاص النية سبباً في حصول الثواب ويبقى الخطأ وارداً في كل حال والذي يبين الخطأ ويناقشه هم الذين يحملون العلم وليس الأدعياء، يقول الرسول ﷺ: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله»..

من هنا نقول بأن ما يصدر من فتاوى وآراء اجتهادية ومنها الفتوى التي أصدرها فضيلة الدكتور سيد طنطاوي مفتي مصر والتي ذهب فيها إلى إباحة بعض التعاملات المصرفية وصندوق التوفير في البنوك الربوية ليست أمراً جديداً ولا طارئاً على الاجتهاد الفقهي والعقل المسلم. فكثيرة تلك الفتاوى والاختلافات الاجتهادية وتبقى العبرة بالدليل الشرعي وليس بالمنصب الرسمي. وكثيرة تلك الفتاوى السلطانية الرسمية التي لم تستطع الصمود ولم تنل الاحترام من جمهرة المسلمين وكثيرة تلك الفتاوى الرسمية أيضاً التي كلفت أصحابها منصبهم وحريتهم وحياتهم في بعض الأحيان لأنها انطلقت من استشعار المسؤولية عن الشرع والدين ولا نزال نذكر الكثير من الفتاوى التي كانت نقطة تحول في مسار الأمة الجهادي وكانت سبباً في الاستعصاء على الذوبان في مناخ الاستعمار، وتعبئة جماهير الأمة لتحقيق الاستقلال ونستطيع أن نقول بأن فتوى جمعية العلماء المسلمين في الجزائر بتحريم التجنيس بالفرنسية واعتبار التجنس خروجاً عن الملة في ظرف معين كان لها أكبر الأثر في استقلال الجزائر وحماية هويتها العربية الإسلامية. كما لا نزال نذكر بعض الفتاوى التي لم تقنع أصحابها وكانت تدور مع السياسة حيث دارت وكثيراً ما صنعت الفتاوى لتبرير الاستعمار وإقرار الاحتلال. وأعتقد أن فتاوى الصلح والتفاوض مع الأعداء لم ولن تجد أذناً صاغية عند أي مسلم يعرف أبسط المبادىء والأحكام الشرعية وتبقى رقابة الأمة العامة هي الضمان.

والأمر الذي لا بد من إيضاحه أن رد الفتوى يجب أن يكون علمياً موضوعياً بعيداً عن أي أسلوب صدامي أو تعبوي أو اتهامي فليس خلق المعرفة هنا بأقل أهمية من المعرفة نفسها. ولا بد أن يتجنب التنقيب عن النوايا والاتهام بها لأن النوايا أمر مخبوء لا يعلمه إلا الله.

وإن قبول الفتوى وردها إنما ينظر إليه من خلال الاستدلال الشرعي وليس من خلال المنصب الرسمي ولو لم يكن كذلك لخسرنا الكثير من فتاوى وآراء أصحابها موظفون رسميون. فليست الفتاوى التي تصدر عن منصب رسمي فتوى هوى ومسايرة لرغبات الحكام بالضرورة وليست الفتوى البعيدة عن المنصب الرسمي متمحضة للصواب فقد تكون ممالأة الجماهير أخطر في بعض الأحيان من ممالأة بعض الحكام لأن الفتاوى المسايرة لأهواء الحكام أصبحت مكشوفة يأباها الضمير المسلم وقد تكون المشكلة في المعارك الدائرة بعدم الاقتصار على موطن الخلاف وتحريره بدقة وأمانة، وإنما التجاوز إلى النوايا ورصد الملابسات والدفع بأساليب تحمل الروح الهجومية والصدامية التي ليست من طبيعة البحث بل هي مفسدة.

فالحمد الله لا يزال في الأمة الإسلامية علماء أثبات موثوقون لهم باع في العلم الشرعي قادرون على الرد والمناقشة ولقد كان في بعض الجوانب التي طرحها الدكتور القرضاوي ـ وهو العالم بالفقه والمعاملات المصرفية ـ وناقشها مناقشة فقهية ما يبعث على الاطمئنان والارتياح ويبقى ما ذهب إليه المفتي محلاً للأخذ والرد وهذا طبيعي إلى حد بعيد. لكن فساد الأمر جاء من دخول الساحة العلمية والفقهية بعض من لا نصيب لهم من علم شرعي أو سلوك إسلامي بل من المعروفين بعدائهم للقضية الإسلامية أصلاً من الإعلاميين الذين لا يرون فرصتهم السانحة إلا من خلال شقوق الخلاف. فينفخون في الرماد الذي يوتر الأمور ويضيع معالم الطريق، فالخلاف الفقهي والحوار الفكري وتعدد وجهات النظر أمور أكثر من طبيعية لكن المشكلة في سوء الفهم واقتناص الفرص للنيل من الإسلام وإنهاك وحدة المسلمين باسم الغيرة على الدين من المتحجرين وكأن مصلحة المسلمين لا تتحقق إلا بفعل المحرم وانتهاك حرمات الله.

وَبَعْـد:

فقد تكون معـارك الاجتهاد الفقهي والفكـري مشروعة ومـطلوبة إذا كانت تعالج جديداً أو تشكل إضافة أو تصوب خطأ لكنها قطعاً تصبح غير مشروعة ولا مطلوبة عندما تعيد وتبدي في قضايا حسم أمرها وأنضجت حتى كادت تحترق. ويخشى أن يكون الاشتغال فيها مضيعة للعمر وخسارة للأجر ولله الأمر من قبل ومن بعد.

[٦ ربيع الأول ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩/١٠/٥ م]

مَلامِح
فِي الفِقْهِ الحَضَارِيّ



عندما تكتشف الحضارة أمراضها

الإسلام لفت النظر إلى أن السقوط الحضاري السياسي والاقتصادي والعسكري إنما هو بسبب الخطأ والتقصير الذاتي والقعود عن دراسة الأسباب، ومدى ملاءمتها لتحقيق النتائج واكتشاف مواطن الخلل لاستدراكها، وقد جعل الله لكل شيء سبباً. ذلك أن إدراك السنة وحسن التعامل معها، كان ولا يزال سبب التمكين الحضاري، وأن إهمالها، وعدم الاعتداد بها مؤذن بالسقوط والأفول الحضاري. قال تعالى يحكي قصة ذي القرنين: **﴿إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً﴾** (الكهف: ٨٥). فالأسباب هي: سنن الله، وقوانينه التي لا تحابي أحداً، ولا تتخلف ولا تتبدل: **﴿فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾** (فاطر: ٤٣). وبالإمكان القول: إن ثبات السنن واطرادها، هو مظهر العدل الإلهي، بل هو العدل عينه الذي لا يليق بالله سواه.

إن الغفلة عن السنن، وعدم إدراك كيفية التعامل معها، والتستر على الأخطاء والسكوت عن المناصحة، واكتشاف مواطن الخلل، وإصلاحه وتصويبه، سبب في السقوط والانقراض ومسؤولية دينية أمام الله تعالى قبل أن تكون مسؤولية دنيوية حضارية أمام الأمة. فالله سبحانه لو أجاز المحاباة، لحقق النصر والتمكين للمسلمين في معاركهم كلها، سواء أعدوا لها أو لم يعدوا. لكن الله لم يرض بانخرام موازينه القسط، حيث جعل الثمرة نتيجة الجهد، وناط الأمور بأسبابها وجعل الإنسان هو المسؤول عن عمله، وتقصيره.

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾ (القيامة: ١٤). فالمعاذير لا تغني عن الإنسان شيئاً أمام الله.

وقد تكون معجزة الإسلام العظيمة فيما نظن أنه جعلها تكليفية وربط الإعجاز بعزمات البشر، لذلك قال تعالى في أعقاب هزيمة أُحد: **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾** (آل عمران: ١٦٥) فجعل سبب الهزيمة للمسلمين والنصر للكافرين، التقصير الحاصل من المسلمين إذ لا يتصور أن ينصر الله الكفر على الإيمان، لقد ربط الهزيمة بأسبابها الداخلية، لتكون درساً من أول الطريق والعبرة ـ كما يقول العلماء ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وبذلك فقوله تعالى: **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾** ينسحب على كل هزائمنا مهما حاولنا الإلقاء بالتبعة على الآخرين.

لقد جعل القرآن الكريم الأخطاء المتراكمة، هي السبب الحقيقي الذي يدمر الحضارة ويوقف دورتها، ويأذن لغيرها بالقيادة، حيث تموت الأمم وتسقط الحضارات من داخلها قبل أن يسقطها أعداؤها.. وقدرة الأعداء في التغلب إنما تكون فاعلة عندما تجد الاستعداد والضعف الذي يمكن لها، والأخطاء الذاتية المتراكمة التي تحاصرها قبل أعدائها. قال تعالى: **﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** ومن سنن الله أن جعل الظلم الاجتماعي سبباً في دمار الاقتصاد **﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين، ولا يستثنون، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون، فأصبحت كالصريم﴾** (القلم: ٢٠) وجعل الفسق، والترف والاستبداد السياسي، طريق الدمار الحضاري بكل جوانبه: **﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾** (الإسراء: ١٦) وهكذا..

إن غياب التدبر القرآني والفقه القرآني هو السبب في إصاباتنا الحضارية. وكأن القرآن فيما شرعه من سنن وأسباب وما طلبه من دراسة لمواطن التقصير، إنما نزل على غيرنا من أهل الحضارات الأخرى، فنرى أهل الحضارة السائدة اليوم مولعين بترصد أخطائهم، والتنقيب عنها، ودراسة أسبابها، لاستدراكها وإصلاح الخلل الحاصل في بعض جوانبها. ولعل من

أبرز ميزات الحضارة السائدة اليوم، وامتداد سطوتها، واستمرار امتدادها وسيطرتها، وعدم سقوطها أنها لم تتجاهل خطأها ولم تتستر عليه بل هي قادرة على اكتشافه وإشاعته وإصلاحه. إنها الحضارة التي تكتشف أمراضها وتوجد أدويتها، وتداوي نفسها بنفسها. ولعلنا نستغرب إذا قلنا: بأن لكل جانب من جوانب الحضارة مراكز للبحوث والدراسات يوكل إليها أمر التطوير والارتقاء بالإنجاز، واكتشاف مواطن الضعف، والمرض، والخلل، ووضع مشروعات الإصلاح، بكل جرأة ووضوح وإعلان ولا شك أن الذي مكن لذلك، مناخ الحرية واستقرار حقوق الإنسان، فإحصاءات المخدرات والخمر، وأمراض الجنس، والفواحش والتحذير منها، والبحث المستمر عن العلاج الاجتماعي والنفسي، هو الهم اليومي والهاجس المستمر. وقد نستغرب أن هذه الحضارة ذات السطوة الكبيرة لم يركبها الغرور الذي يعميها ويصمها على الرغم من إنجازاتها الكبيرة. ومن بعض أمثلة اكتشاف الخلل والتي يمكن أن نأتي على ذكرها ما سمعناه من دراسة تقوم بها إحدى الجهات في ملفات الموتى في المشافي لمعرفة أسباب الوفيات وعلاقتها بعلاجات الأطباء فتكتشف من خلال الدراسة أن ٢٠٪ تقريباً من حوادث الوفيات كان بسبب خطأ الأطباء، لتحدد بتشريعات جديدة لدور الأطباء ومسؤوليتهم التقصيرية وتحكم نقاط الضعف التي أدت إلى تلك النتائج، وترسم الخطط لاستدراكها، وتفيد من ذلك لحاضرها ومستقبلها. ولا يقتصر ذلك على الجانب المادي فقط الذي بلغت فيه شأواً واسعاً، وإنما الأمر ممتد إلى النظام التعليمي والتربوي ولا تزال صيحة التقرير التربوي: «أمة في خطر» الذي أصدرته أمريكا تدوي في أسماع العالم، فالاهتمام بالجانب الاجتماعي والاقتصادي والسكاني، وحتى الأخلاقي ليس بأقل من بقية الجوانب اهتماماً، وبحثاً ودرساً، الأمر الذي يمكن لها ويأذن باستمرارها. كل هذا في الوقت الذي يسود فيه عالم المسلمين اليوم، شعار التخلف المقدس المضروب عليهم: ليس بالإمكان أفضل مما كان. حيث لم نفكر بعد في الانتقال إلى شعار: أن بالإمكان دائماً أفضل مما كان، ونتهم أنفسنا ونحدد أسباب تقصيرنا ومواطن قصورنا.

وطالما أن هذا الشعار هو الذي يحكمنا، فسيظل البديل الحضاري

غائباً. وبدل أن نكتشف عللنا، ونعالج أنفسنا، نزجي أوقاتنا بالحديث عن أمراض الآخرين التي لم يكن لنا شرف اكتشافها، بل التي اكتشفها أصحابها، ونظل نضخمها لنرضي أنفسنا ونمنيها بالآمال العريضة، متوهمين أن الحضارة الحالية ستسقط لصالحنا، ونحن في غرفة الانتظار دون أن نقدم شيئاً، أو نؤهل أنفسنا لفعل شيء، ودون أن نعترف بأخطائنا، ونحسن مواجهتها بجرأة وشجاعة. بل لا نزال نتستر عليها، ونعيش وهم العافية الكاذبة، ونلقي بتبعة التخلف والتردي على الآخرين، والله سبحانه يقول: **﴿قل هو من عند أنفسكم﴾** ويقول: **﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره﴾**.

وما ندري: ما المانع الشرعي من الإفادة مما عند الآخرين بما لا يعارض أصول ديننا، والاعتراف لهم بالمفيد من عملهم والرسول ﷺ يقول: «الحكمة ضالة المؤمن فأينما وجدها فهو أحق بها». ويكتفي كثير منا برجم الحضارة المعاصرة بخيرها وشرها، عن أن يرجم الشيطان في نفسه، ويتهم كل من لا يرجمها بالعمالة لها، والتأثر بها، الأمر الذي حال دون الإفادة من النافع فيها.

والمطلوب من المسلم عدم بخس الناس أشياءهم: **﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾** (الأعراف: ٨٥. هود: ٨٥. الشعراء: ١٨٣) فإلى متى نكسب المعاصي، والسيئات، وتحيط بنا أخطاؤنا، وتحاصرنا قبل أن يحاصرنا أعداؤنا ونتسلى بتداول عيوب الآخرين، عن أمراضنا والرسول ﷺ يقول: «الكيس من دان نفسه والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

[١٨ ربيع الآخر ١٤١٠ هـ - ١٦/١١/١٩٨٩ م]

حتى يتخلص المسلم من
شعار «ليس بالإمكان أفضل مما كان»

عندما تتخلف الأمم، وتعجز عن الإنجاز والابتكار، بسبب من الظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي حيث يصبح الإنسان رقماً لا قيمة له، تربى فيه حواس الذل والاستكانة يصبح الهرب من الواقع إلى الملاجىء التاريخية والافتخار بإنجاز السلف هو طريق الحماية من السقوط والذوبان وتعويض مركب النقص الذي تعاني منه الأمة وقد يكون الهرب في الإبحار تجاه الآخرين، افتتاناً بإنجازاتهم المادية وإلغاء نفسه كلية، يترافق هذا دائماً بقدرة سلبية على صناعة المعاذير والمسوغات للعجز والسقوط الحضاري. والاستكبار بغير الحق وعدم الاعتراف بالمسؤولية، لإعفاء النفس وتبرئتها ومحاولة الإلقاء بالتبعية على الآخرين لأنهم سبب كل بلاء وآفة ووراء كل مصيبة تلحق بالأمة، وبذلك تنطفىء الفاعلية ويكرس التخلف ويطول الليل ولو تخلله بعض الأحيان الفجر الكاذب وعندها يسهل على الأعداء فعلاً الامتداد في داخلنا لوجود الفراغ والقابلية بل قد يعطي احتلالهم لداخلنا عذراً ومسوغاً لأصحاب النفوس المهزومة الذين لا يستشعرون التحدي ولا يحسون بالاستفزاز ولا يحملون المسؤولية ولا يشكل التغيير والارتقاء بالأمة هاجسهم المؤرق.

ويمكن أن يعتبر هذا من سنن التداول الحضاري والتدافع البشري الذي يجري على الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم على حد سواء لأن هذه السنن

هي قوانين إلهية مطردة لا تحابي ولا تتخلف والتي يعتبر التاريخ لو استوعب بحق منجمها الحقيقي ومعينها الذي لا ينضب.

ولعل وسائل الإيضاح المعينة على الفهم تتركز أكثر ما تتركز اليوم في العالم الإسلامي فلو استقرأنا الواقع الإسلامي اليوم لتملكنا الحزن والأسى والإحباط وكأن آيات القرآن وما لفت إليه من العبر نزل لغيرنا.

ولا نستغرب في هذا المناخ المتخلف والعاجز عن العطاء والإنجاز إن كانت معظم كتاباتنا ومحاضراتنا وندواتنا ومؤلفاتنا وخطبنا ودروس وعظنا وإرشادنا يمكن أن يحكمها منطق واحد وتوجه واحد: إن ما أصاب المسلمين ويصيب العالم الإسلامي إنما هو بسبب من تآمر الأعداء من صهيونيين وصليبيين واستعماريين. . . إلخ.

أما نحن فلا ذنب لنا ولا تقصير منا ولا مسؤولية علينا نعترف بها. شعارنا القاتل دائماً «ليس بالإمكان أفضل مما كان». شعار العاجزين الذي يجعل واقعهم مسترخياً ومذهبهم مرجئاً في الوقت الذي نرى فيه شعار العالم الدائم أنه بالإمكان باستمرار أفضل مما كان وعندهم أنه لا بد من متابعة الدرس والاختبار وإعادة قراءة الماضي لكشف جوانب القصور وأسباب التقصير واستدراك ذلك لصناعة واقع أفضل واستشراف مستقبل أكثر سداداً وصواباً. .

وأعتقد أن هذا الشعار الذي انقلب إلى مسلمة في حياتنا من الأمور التي ساهمت في عطالة الأمة وانطفاء فاعليتها وعجزها عن الإفادة من ماضيها لحاضرها ومن حاضرها لمستقبلها وبالإمكان القول: إن هروبنا إلى التاريخ كان ذهاباً بلا عودة وكأن التاريخ انقلب إلى مقبرة للحاضر، ذلك أن الذين يذهبون إلى التاريخ من الأسوياء إنما يذهبون ليغترفوا منه العبرة والتجربة والدرس ويعودوا إلى حاضرهم بمجموعة خبرات تنير لهم الطريق وترشدهم إلى حل مشكلاتهم.

أما نحن فيمكن أن نوصف بأننا أضعنا التاريخ وأضعنا الحاضر لذلك لا يخرج افتخارنا بالتاريخ عن لون من الانحياز العاطفي والهروب النفسي غير

السوي والمخرج الوحيد من نفق التخلف يبدأ بإدانة الحاضر وذلك بإدانة النفس التي صنعته وقبلت به، واستشعار التقصير ورفع شعائر: ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ (آل عمران: ١٦٥). وأنه بالإمكان دائماً أفضل مما كان وأننا المسؤولون عن واقعنا بالدرجة الأولى وإذا سلمنا بمقولة أن الإصابات كلها تأتي من الأعداء فأقل ما يقال عند ذلك أننا دون سوية الواقع الذي نتعامل معه والأولى بنا أن نخلي مكاننا لمن هم أهل لذلك.

فإذا لم يتدارك المسلمون الأمر ويتعرفون إلى الأسباب الحقيقية لمشكلاتهم ويخلصون من عقلية الإرجاء والإلقاء بالتبعة على الآخرين فسوف يستمرون بالتدحرج إلى القاع أكثر فأكثر. إن كثيراً من التنظيمات الإسلامية ليست أحسن حالاً من غيرها والتي هي بحسب الظاهر محل القيادة والريادة بل لعلها تحمل الكثير من الأمراض المتفشية فكيف يداوي الطبيب الناس وهو مريض.

لقد أصبح العالم اليوم دولة واحدة بعد انهيار السدود وانكسار القيود وتقدم وسائل النقل والاتصال واختصار الزمان والمكان، وبالإمكان القول: بأن العالم اليوم وصل إلى مرحلة الدولة الإعلامية الواحدة وإن لم يصل إلى مرحلة الدولة السياسية الواحدة، وأن صوت المدافع والصواريخ العالمي توقف ليخلي الساحة إلى صراع الأفكار والمبادىء وحقوق الإنسان، والمؤسف أن الذي يهم المسلمين من ذلك هو الجانب السلبي فقط. ولا يرون من الوضع العالمي الجديد إلا مزيداً من المخاطر.

ذلك أن الوضع الجديد يحمل سيلاً إعلامياً، وبثاً مباشراً يصب على رؤوس الناس أينما كانوا يعيد تشكيل حياتهم وعلاقاتهم ونفسياتهم والسؤال المطروح بإلحاح إلى متى نعيش مرحلة رد الفعل ونبقى عاجزين عن الفعل وكيف نواجه هذا الخطر الداهم. ونحن لا نريد أن نهون من هذا الخطر وضرورة التحصين السليم لمواجهة المرحلة القادمة لكن نرى أن للقضية وجهاً آخر قد يكون إيجابياً لكن يصعب علينا الاعتراف، إلا إذا كنا في مستوى إسلامنا وعصرنا.

لماذا لا نفكر بالكيفية التي يمكن لنا معها أن نستخدم هذه التسهيلات لإبلاغ الخطاب الإسلامي وإيصاله إلى بعده العالمي لماذا لا تكون هذه

التسهيلات نعمة نوظفها لعملية البلاغ المبين ونتقدم من خلالها بالحلول الإسلامية للمشكلات العالمية لمشاكل إنسان اليوم استجابة لحديث رسول الله ﷺ: «فليبلغ الشاهد الغائب».

ونرتفع عن الاهتمامات الصغيرة والمحلية خاصة وأن الفرصة متاحة الآن بعد أن سقطت أنظمة سياسية وشعارات فكرية وأصبح الإنسان هو محور الاهتمام العالمي على الرغم من التقدم بوسائل الإنسان وإنجازاته المادية.

الفرصة متاحة اليوم أكثر من أي وقت مضى للطرح الإسلامي لاستنقاذ الإنسان ونحن المسلمين أصحاب الخطاب العالمي منذ أربعة عشر قرناً دعونا لوحدة الجنس البشري واستطعنا إيجاد مفهومات إنسانية وقواسم مشتركة في الوقت الذي كانت فيه البشرية تنوء تحت وطأة القبليات والإقليميات والعصبيات الجنسية وكانت المسافات أكبر من طاقة الإنسان وكان الاتصال عسيراً لكن مسلم العصر الأول استطاع بفضل إيمانه برسالته أن يحمل الخير إلى البشرية في معظم مواقعها الجغرافية والحضارية على الرغم من وعورة المسالك وصعوبة الاتصال.

واليوم نقف عاجزين في مواقع التلقي من الأمم الأخرى على الرغم من أموالنا الضخمة وهمنا يتركز في كيفية الحماية من هذا السيل القادم من البث المباشر أكثر مما ينصرف إلى الكيفية التي يمكننا معها أن نصل للآخرين ونوصل إليهم الخير رحمة بهم الأمر الذي يحقق غاية رسالة الإسلام. قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾**. (الأنبياء: ١٠٧).

[١١ شعبان ١٤١٠ هـ - ٨/٣/١٩٩٠ م]

تجديد الفاعلية

لئن كنا الآن ـ بسبب جفوتنا للقرآن ـ نعاني من العيش في المنخفض الحضاري الذي انتهينا إليه، وكنا عاجزين عن استرجاع شخصيتنا الحضارية بسبب من واقعنا الأليم، وكنا دون سوية خطاب التكليف، ودون سوية الاستفادة من وقائع السيرة، فالذي نريد أن نقوله هنا: إن الحضارة المعطاء لا تتحصل بالأماني، قال تعالى: ﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءاً يجز به﴾ (النساء: ١٢٣) لقد ألغى القرآن بذلك ساحة الأماني من حياة المسلم، ذلك أن الذي يعيش في المنخفض حضارياً، يكون عاجزاً عن العطاء للذي يعيش في القمم، والأرض المنخفضة لا يمكن لها تقديم الساقية للأرض المرتفعة، وهذه سنن الله التي لا تختلف بالنسبة لأحد..

فالمسلمون في مجتمع المدينة الذين خاضوا معركة بدر كانوا يمتلكون من الخصائص والصفات ما يفتقر إليه العالم بأسره آنذاك، لذلك كان من الطبيعي أن يكونوا قادرين على العطاء، كانوا في موطن العطاء وغيرهم في موطن الأخذ، وهذه سنة طبيعية أيضاً.

أما مسلمو اليوم، فقد مضى عليهم حين من الدهر غفلوا فيه عن هذه السنن، سنن النهوض والارتفاع، وغابت عنهم مواطن الضعف الذي يسري في كيانهم فحلت فيهم نتائج ما هم فيه قدراً لا يغلب، وقضاء لا يرد، وإنه لا سبيل إلى نهوضهم والخلاص مما هم فيه إلا أن يدركوا أن الأمر في هذه

الحياة ليس مصادفة عارضة، وإنما تنتظمه سنن وقواعد ونواميس.. من أدركها وتعامل معها استطاع أن يسخر بها ما حوله من إمكانات وطاقات ليكون وراء ذلك ما يرجوه بعد أن يقدم من نفسه ما يستطيع من التغيير.

والغريب في مسلم اليوم أنه ينظر إلى نفسه نظرة العطالة والتواكل وعدم الفاعلية، وهو الذين يتلو آيات الله التي لم تتحدث عن السنن إلا في إطار التاريخ والتغيير الاجتماعي وحركة الأمم، ومع ذلك يميل إلى فهم موضوع السنن في غير الإطار الاجتماعي والتاريخي، وإنما في إطار الأمور المادية التي تتعلق بحياته ومعاشه فقط، والتي يجري الحديث عنها من قبيل التعميم والقياس، وحين يتحدث المسلم عن السنن والقوانين ليتعامل معها ويسخرها لا يغيب عنه أن الفاعل الحقيقي في الكون هو الله وحده، لا يشاركه أحد، وأن تعلق قلبه لا يكون إلا بالله الذي يتنزه أن يحد إرادته شيء إذ لا يمكن أن يخلق الله السنن ويحكم بها. فالحديث عن الأسباب الإيمانية وأثرها في التغيير يشكل الضمانة التي تنقذ المؤمن من السقوط في النظرة المادية البحتة للأمور..

ولا بأس هنا أن نقول.. إن علماءنا من السلف الصالح الذين استفرغوا جهدهم في تعاطي الأسباب والسنن لم يروا تعارضا بين إيجابية السنن وفاعلية الله، وكانت قولتهم القاصدة: إن النتائج تتحصل عند السنن والأسباب لا بها.

والأمر الغريب حقاً أن أصحاب التفسير المادي للتاريخ الذين جعلوا من نظريتهم البشرية نصاً مقدساً، يدعون لها العصمة عن الخطأ ويعتسفون ويفسرون بعض الحوادث الاجتماعية بتفسيرات مضحكة أغلب الأحيان حيث ثبت فشلها في أكثر البلدان، ومع ذلك يدعون لتفسيراتهم الحتمية بينما نرى المسلم منطفىء الفاعلية، عاجزاً عن التعامل مع السنن التي شرعها الله لنهوض الأمم وارتقائها، وكأنه في موضع الشك منها، تسوده روح التواكل، ويسيطر عليه مناخ الهروب.. وانتظار المخلص الذي سيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً..

[٧ رمضان ١٤٠٨ هـ - ٢٣/ ١٩٨٨ م]

دعوة لقراءة الهزائم.. بشكل صحيح

يقول الله تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾. (آل عمران: ١٤٠).

من السنن الجارية في الحياة أن تتعرض الأمم للهزيمة كما تتحقق بالنصر وأن تترقى بالصعود كما تعاني من السقوط، وإن الأمم تمر بدورات حضارية تاريخية تتراوح بين النهوض والسقوط بحيث تنطفىء فاعليتها ويذهب ريحها وتتراجع مهمتها الرسالية وتغيب الفكرة التي تشكل عالم أفكارها وتصوغ وجدانها وتحفظ طاقاتها وتبرز الغريزة التي تستنزف إمكاناتها وتبدد ثروتها وتبعثر تفكيرها وتشكل عندها القابلية للإصابة بالأمراض الاجتماعية التي تدول معها دولتها ثم لا تلبث أن تستشعر التحديث وتكتشف مسالك الانقراض فتصحو من جديد لتستأنف دورها المفقود وتسترد كيانها وتؤدي دورها في الحياة من جديد.

والأمة المسلمة ليست بدعاً من الأمم في خضوعها لهذه الدورات الحضارية من الهبوط والسقوط ومن ثم الارتفاع والنهوض من جديد والناظر في التاريخ الإسلامي، يجد لذلك الكثير من الشواهد والأدلة.

ولعلنا نستغرب عندما نعلم أن التداول بين الأمم قوة وضعفاً كان في فترة السيرة التي تشكل مرحلة القدوة والرسول ﷺ قائم على الأمر، والقرآن ينزل، والوحي يسدد، وقد يستغرب بعضهم أن الآية التي افتتحنا بها الكلام

إنما نزلت في غزوة أحد بعد أن أصاب المسلمين ما أصابهم من الهزيمة لتكون درساً من أول الطريق في استكشاف عوامل الهزيمة لاجتنابها ولتكون محلاً للأسوة والقدوة في كيفية التعامل مع الهزيمة وتجاوز آثارها لأن التعامل مع الحياة يعني النصر كما يعني الهزيمة وابتلاءات الدنيا تكون بالخير والشر معاً. فلا بد من توفر عنصر الأسوة والاقتداء في الهزيمة والنصر أيضاً.

ولا شك أن النصر له آثاره الإيجابية الكثيرة في عملية البناء والأمل والفأل والعطاء كما أن له مضاعفاته من الاسترخاء والفخر والظن بأنه تتحقق بعزمات البشر وإعدادهم المادي بعيداً عن البعد الغيبي الإيماني بخالق البشر مسبب الأسباب، وأن للهزيمة آثارها في امتحان الثبات على المبدأ وخاصة عندما يكون الغالب من أصحاب المبادىء الباطلة، والقدرة على استيعاب الدرس واستشعار التحدي وتجميع الطاقة وإبصار العدو ودراسة الساحة بشكل جيد لتستجمع الأمة طاقاتها وتواجه من جديد.

وباعتقادي أن الأمة من الناحية التربوية قد تكون محتاجة إلى الهزيمة كحاجتها للنصر على حد سواء بل قد تكون الهزيمة في بعض الظروف ضرورة لتجديد شبابها وشحذ فاعليتها والقضاء على الرخاوة والدعة التي اجتاحتها.

من هنا نقول: إن الإدراك الكامل لأبعاد الهزيمة وعدم السماح لكل الأصوات التي تفلسف الهزيمة وتحاول أن تجعل منها نصراً من الأمور المطلوبة لأنها بذلك تحرمنا من الآثار الإيجابية التي تحققها الهزيمة في حياة الأمة وبذلك تستدعي الهزيمة مزيداً من الهزائم كما هو حالنا اليوم ويغيب التحدي الذي يعيد إليها حياتها ويعيدها إلى حياتها، لتبدأ دورة حضارية جديدة.

ومن نعم الله على هذه الأمة أنها لن تموت وأن الله سلط عليها أعداءها في بعض فترات جنوحها وتخليها عن رسالتها تسليط تأديب وإيقاظ، وليس تسليط استئصال وإبادة لذلك نرى هنا أن التسليط نعمة من الله من بعض الوجوه إن نحن أحسسنا به واكتشفنا مواطن القصور وعرفنا أخطاءنا لأنه عقوبة على الذنوب وإشارة إلى وقوعها حتى تستدرك الأمة أمرها وتسترد دورها المفقود وكثيرة هي الأمم التي سادت ثم بادت وبقيت أثراً بعد عين لأنها لم

تدرك أبعاد هزائمها وطبيعة أعدائها إلا الأمة المسلمة. لقد اجتاحتها أعاصير مدمرة في الماضي والحاضر من حملات صليبية وهجمات تترية وغزوات صهيونية لكن الأمة لم تمت ولن تموت بل لقد ساهمت هذه الهزائم بنصرها وتجديد شبابها ﴿**ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا**﴾ (البقرة: ٢١٧) وبإمكاننا القول بكل اطمئنان وبدون مجازفة بأن إسرائيل وأفاعيلها كانت من أهم العوامل التي أدت إلى الصحوة الإسلامية المعاصرة، وأن المواجهات التي تتم على الأرض المحتلة ودوافعها ومراكز انطلاقها مؤشر واضح لما نقول، على الرغم من المحاولات الكثيرة اليوم لطمس الحقيقة، وقراءة هذه الانتفاضة بأبجديات مخطئة تضليلاً للجيل.

وقد نكون اليوم مدعوين أكثر من أي وقت مضى لقراءة الهزائم في السيرة والتاريخ الإسلامي، في القديم والحديث، لنستشعر سلسلة التحدي ونتعرف على مسلسل الكيد والتآمر على ديننا ونحدد أعداءنا ونحسن الإفادة من درس الهزيمة والتعامل معها، ولنا في معركة أُحد وحنين ومؤتة والحديبية وغيرها من المعارك أسوة حسنة.

لقد كان الرسول ﷺ أسوة في النصر وكيفية التعامل معه، وأسوة في الاستعلاء على واقع الهزيمة وكيفية التصرف بها، والله تعالى يقول: ﴿**لن يضروكم إلا أذى**﴾ (آل عمران: ١١١).. فالأمة باقية إلى يوم القيامة، إما مصابة فيوقع الله عليها العقوبة بسبب تخليها عن المنهج، وإما ناهضة تقود العالم إلى الخير.

[١٨ رمضان ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٥/٤ م]

... ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾

في فترات التخلف والسقوط الحضاري تقع الأمم فريسة للأمراض والعلل والثقافات المغشوشة التي تحجب عنها الرؤية السليمة للأمور وتصيبها بالعطالة والعجز عن الإفادة من الإمكانات التي تمتلكها والقدرة على حسن توظيفها بما ينفعها ويرتقي بها.

لذلك يكون طبيعياً جداً أن تسود الأمة في هذه المراحل فلسفة التبرير التي تعفيها من المسؤولية وتساهم باستمرار السقوط، والأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم في هذا الأمر.. فاستقراء التاريخ وقراءة الواقع يدلان على ذلك وإن كانت الأمة المسلمة تمتاز عن سائر الأمم الأخرى بأن الله أكرمها وهي أمة الرسالة الخاتمة بامتلاك الخميرة الحضارية واستمرار تلك الخميرة التي تمكن من النهوض وتحتفظ بقابليته فالرسول ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

وعلى ذلك فالتواصل مستمر وعوامل النهوض كامنة بانتظار استشعار التحدي وشحذ الفعالية وهذا هو الفرق بين الأمة المسلمة والأمم الأخرى السائدة منها والبائدة.

لكن المرض الذي استشرى في جسم الأمة على مستوى الأفراد والجماعات هو ذلك المنطق المعكوس والتفكير المعوج من السعي إلى تبرئة النفس وإدانة الآخرين والإلقاء بالتبعة عليهم والرسول ﷺ يقول: «الكيس من دان نفسه».

ففي عصر ما قبل الاستقلال كان الاستعمار هو سبب كل مصائبنا ومع الأسف لم تظهر في الساحة الفكرية الإسلامية إلا أصوات خافتة تنادي بأن مصائبنا من صنع أيدينا وأن القابلية والتمكين للاستعمار ومخططاته كامن في نفوسنا وأن الإدانة أولاً وقبل كل شيء يجب أن تتوجه إلى الداخل الإسلامي تحت عنوان رحم الله من شغل بعيوبه.

لقد افتقدنا الإيمان المحرك الدافع إلى التغيير الذي يبدأ في داخل النفس.. افتقدنا ما يمكن أن نسميه: «القلق الحضاري» الذي يعني عدم الركون والاطمئنان للواقع البائس ومحاولة التفتيش عن الأفضل والارتقاء إلى الأحسن واستشراف آفاق مستقبلية خالية من عيوب الحاضر.. وعلى أحسن الأحوال كان: «الاستنقاع الحضاري» ومقولتنا الشائعة والمستمرة «ليس بالإمكان أحسن مما كان» الأمر الذي يعني: التحنيط والتجميد والتقليد.

وبعد مضي زمن ليس بالقليل على رحيل الاستعمار العسكري لا نزال نتلذذ بجلد الآخرين ورجمهم وإعفاء الذات من كل نقص أو خطأ أو قصور. إنه لون من السادية «الثقافية والحضارية» إن صح التعبير التي تغيب الخطأ والمرض الأصلي والأساسي عن ساحة المعالجة وتصرف الجهد في غير موقعه الأصلي.

ونحن هنا لا نريد أن نقلل من أهمية الاستعمار ودوره وآثاره لكن نريد أن تتحول نظرتنا إلى الداخل بالقدر نفسه (على الأقل) الذي ننظر فيه إلى الخارج.

وبعد الاستعمار تحولنا إلى الكلام عن آثاره ومخططاته وعملائه وغزوه الفكري الذي لا يزال يفعل فينا أفاعيله وكأننا بذلك نحكم على أنفسنا بأننا إقطاعات بشرية مسلوبة الإرادة ومهيأة للانقياد.. إنها المعادلة المغلوطة التي أصبحت مناخاً ثقافياً نورثه لأبنائنا ولا يزيدنا إلا سقوطاً وخبالاً.

والمتأمل في حال هذه الأمة والضجيج الذي تثيره حول مخاطر الغزو الفكري والإغراق الإعلامي والكيد الصليبي والمكر اليهودي يأخذه عجب من العجب. ذلك أن هذه الإثارات والانفعالات تبقى عاجزة عن أن تقدم شيئاً أو تحل مشكلاً.. بل قد نقول:

أصبحت الاستزادة من الكلام غير المتوازن في هذه الأمور إنما تأتي على حساب الفعالية الصحيحة والموقع المؤثر. لقد أصبحت أشبه بالمخدر الذي يغيب الأمة عن التبصر بأحوالها والتحكم بإمكاناتها وقدراتها ويصرفها عن الموقع المجدي لتستنزف طاقاتها وتبدد إمكاناتها ولنأخذ مثالاً على ذلك:

إننا نمتلك (نحن المسلمين) أقدم مؤسسة إعلامية هي المسجد وأقوى وسيلة إعلامية (المنبر) وأبلغ كلمة مؤثرة (القرآن) وأفضل رصيد شعبي وحضاري وتاريخي «الجماهير المسلمة التي تأتينا إلى المسجد طائعة مختارة» تعيش أجواء العبودية وقدسية المكان وفرضية الخطبة. ولو جئنا نحصي عدد الخطباء والمنابر في العالم الإسلامي التي لا تزال تعمل (من أربعة عشر قرناً) لرأينا أن الأمة تمتلك من وسائل الإعلام ومواقعه ما لا يملكه أحد من خصومنا.

لقد تكلمنا عن الخطر القادم من التليفزيون والمسرح والسينما ولم نتكلم عن العجز والفراغ والفشل الذي نعاني منه في منابرنا ومواعظنا ودروسنا وإرشادنا ولو بنسبة عشرة في المائة مما نتكلم عن الآخرين الذين يمتدون في فراغنا ويقوون على عجزنا.

أين المنبر الذي يبصر الجماهير ويحركها ويزكو بأخلاقها ويرتقي بثقافتها ويحاصر عدوها ويبعث روح الجهاد والاستشهاد والتضحية والإيثار والتقوى والتحصين الثقافي في حياتها؟.

فمساحة وسائل إعلامنا الإسلامية وتأثيرها المرجو وتاريخها لا تمتلكها أية فئة من الفئات. لكن هل نسأل أنفسنا: بماذا نملؤها؟ وكيف نرتقي بها؟ ونحولها لتأخذ بعدها المطلوب في حياة الأمة؟ هذا أمر لا يبحث أما الذي يبحث فقط فهو: التوجه صوب الآخرين ورجمهم. والله سبحانه وتعالى يقول عما يلحق المسلمين من إصابات:

﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥) ويقول حكاية عن الشيطان مصدر الشر: **﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾** (إبراهيم: ٢٢) ولكننا اليوم نعكس الحال: نلوم الآخرين لنعفي أنفسنا.

إن الكثير من مؤسساتنا العلمية ومعاهدنا وكلياتنا التي كنا نعلق عليها

الأمل أصبحت أقرب إلى المتاحف والتكايا منها إلى المعاهد ذات الحياة والحركة والعطاء.. والكثير من منابرنا لا يتجاوز أثرها وتأثيرها شفاه خطيبها لذلك نرى الكثير من المصلين بدأوا يتدافعون على الصفوف الخلفية بدل البكور وأخذ مكانهم في الصف الأمامي.

فمتى نبحث عن العلة الحقيقية ولا ننشد حل مشكلاتنا في أوعية الآخرين أو نظن أن حل مشكلاتنا في محاسبتهم؟.

يروى أن أحد الخطباء كان عظيم الأثر.. وكانت خطبته ومواعظه تبدل سلوك الناس وترقى بهم وكان يلحظ بعد كل درس أو خطبة ما يحدث من أثر ينعكس على حياتهم وتعاملهم الاجتماعي.. وكان أحد مستمعيه عبداً رقيقاً يعاني العنت من سيده الذي يلازم دروس الشيخ ويتأثر بها.. فتقدم «الرقيق» إلى الشيخ الخطيب وطلب إليه أن يتكلم في أدب الإسلام وتعاليمه في حسن معاملة الرقيق وثواب عتقه لأن سيده من رواد مسجد الشيخ والسماع لدروسه وخطبه.. وانتظر هذا «الرقيق» أياماً وأياماً والشيخ لم يعرض للموضوع الأمر الذي أثار عجب «الرقيق».

وبعد مدة ليست بالقصيرة عرض الشيخ لموضوع الرق وتعاليم الإسلام في الموضوع وفضل العتق فما كان من «السيد» بعد سماعه الخطبة إلا أن أعتق رقيقه.

فجاء الرقيق بعد أن استمتع بالحرية وخلص من العبودية والعنت إلى الشيخ يسأله عن سر تأخره في معالجة الموضوع فقال له الشيخ: كان عندي «رقيق» يقوم بحوائجي بسبب حاجتي إليه ولم يكن بمقدوري عتقه وصعب علي: كيف أعالج موضوعاً وأكون مؤثراً فيه وأنا لا أتمثله؟ فانتظرت حتى هيأ الله لي سبيل عتق الرقيق الذي أمتلكه.. ومن ثم كان علي أن أعالج الموضوع وأكون صادقاً في معالجته.

هذه بعض شروط المنبر المؤثر.. فهل نصل بمنابرنا إلى هذا المستوى؟ وهل إذا أدت منابرنا دورها نخشى الاختراق الإعلامي؟!!.

[١٩ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - ٢٦/١/١٩٨٩ م]

متى نحسن التفاهم مع الناس

لفت نظري، ما نشرته جريدة «الشرق» القطرية (١١/٦/١٩٩٠ م) من أن البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان، اختصر زيارته لأبرشية في روما، حتى يتمكن شباب من عشاق كرة القدم، من العودة إلى منازلهم في وقت مبكر لمشاهدة مباراة إيطاليا والنمسا.

وقفت أمام هذا الخبر ملياً متبصراً أبعاده المتعددة، ونتائجه القريبة والبعيدة وتواردت بعد ذلك الخواطر، وفرضت نفسها على الذهن، وكان لا بد لي أن أستحضر شيئاً من فعل هذا البابا وفاعليته، وحضوره العالمي والمستمر في آسيا وأفريقيا وفي أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي خاصة، وأمريكا الجنوبية وهو يشهد سقوط وإسقاط الماركسية، والعودة إلى أحضان الكنيسة، وإعادة المضامين والرؤية المسيحية للحضارة الأوروبية بوجهيها الشرقي والغربي وإفلاس المذاهب والفلسفات الإلحادية، وانعتاق أوروبا الشرقية منها وتهاوي الأصنام الواحد تلو الآخر.

وقد لا نكون مغالين أو مبالغين كثيراً إذا قلنا مع من يقول: بأن بابا الفاتيكان كان إلى جانب أسباب أخرى وراء تصديع الماركسية، الذي بدأ في بولندا ـ والبابا بولندي الأصل ـ على يد الكنيسة البولندية وذراعها في المجتمع نقابة عمال التضامن والوقوف إلى جانب الحرية والتحرير، حيث جاء إسقاط الماركسية على يد العمال أنفسهم مادتها وأداتها الرئيسة.

ولا نزال نذكر ونتذكر ليخ فاليسا رئيس نقابة التضامن البولندية وكيف كان يقف بين يدي البابا، بكل تذلل واحترام وتقدير، في محاولة لاسترداد الأبوة المفقودة للكنيسة، ويطالب بالتأييد والدعم، ويتلقى التعليمات والإرشادات لشخصه وحركته، وكيف أن الخطوة البابوية التي بدأت في بولندا استمرت حتى وصلت إلى معقل الشيوعية في روسيا التي احتفلت بمرور ألف عام على دخول المسيحية إليها، وإعادة الحياة إلى الكنائس والأديرة، وتوجت الجهود البابوية بوقوف جورباتشوف بين يدي البابا كما وقف فاليسا من قبل.

لقد استطاع البابا بذكاء نادر المساهمة بالسقوط الماركسي وتوظيف هذا السقوط لمصلحة الكنيسة، والعودة بالشعوب في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي إلى أحضان الكنيسة، أما دوره وفاعليته في أمريكا فحدث ولا حرج.

فإذا تذكرنا رحلات البابا إلى أفريقيا، وحرصه على أن يبدأ خطواته بتقبيل أرض المطارات التي ينزل فيها، ومن ثم مخاطبته لكل قوم بلسانهم ولغتهم، حيث كانت تكتب له ألفاظ المعاني المطلوبة بحروف لغته، ليكون أكثر قرباً وتأثيراً وحضوراً في الوجدان الإفريقي، داعياً إلى ضروب من التسالم والتعايش بين القبائل والأديان، لأنه بذلك يحقق هامشاً مفقوداً للمسيحية التي اقترنت بالاستعمار ورافقته لأفريقيا.

ولا مانع عنده ابتداء وفي سبيل أهداف بعيدة المدى، أن يطور مفهوماً مسيحياً خاصاً بأفريقيا، فيقر باسم الكنيسة العادات القبلية الإفريقية وتعدد الزوجات للأفريقي، الأمر الذي تحرمه الكنيسة، ويدفع رجال الدين المسيحي للإسهام في الحركات الوطنية التحررية، ويحاول توطين اللاهوت، ليحقق النقلة من لاهوت الرجل الأبيض المرفوض أفريقياً وتاريخياً، إلى لاهوت الرجل الأسود، ويسعى جهده لإبراز دور الكنيسة في إنقاذ أفريقيا من التخلف والاستعمار والتمييز العنصري حتى بات مألوفاً أن نرى رجال الدين المسيحي يقودون المظاهرات والاحتجاجات وينادون بالحرية والمساواة ونبذ العنصرية ويقفون مع حركات الاستقلال على الرغم من كل ما يقال: أن لا علاقة للدين بالسياسة.

أما عن حضور البابا في مختلف المشكلات والقضايا العالمية في فلسطين ولبنان وقضايا الإغاثة في مناطق الكوارث والنكبات فلا يتسع المجال لأن نعرض له حيث تطور المسيحية وسائلها وتدرس خطواتها وتحاول بكل الوسائل امتلاك القدرة لإعادة جسور التفاهم مع المجتمع.

ولا أحب أن أسترسل في الحديث عن الزحف التنصيري الرهيب الذي يجتاح أفريقيا وآسيا وحتى بلاد العالم الإسلامي كثمرة لمخططات الكنيسة المدروسة. وما خبر أندونيسيا عنا ببعيد.

وكان لا بد لي أن أستعرض صفحات الصورة المقابلة التي تفرض نفسها على ذهني لتصيبني بكثير من الإحباط والحزن والأسى للواقع الذي انتهت إليه أجهزة الدعوة الإسلامية، وأشخاصها ومؤسساتها، وتنظيماتها، حيث يغيب الخطاب الإسلامي العالمي والحضور الإسلامي العالمي والفكر الإسلامي العالمي على الرغم من كل الفرص التي تتيحها سنة التدافع الحضاري، والتداول السياسي، والمتغيرات التي تجتاح العالم اليوم على المستوى الفكري والسياسي، والأفكار المطروحة لإعادة تشكيل إنسان العالم الجديد.

وعلى الرغم من الكثير من العناوين الإسلامية الكبيرة للمؤسسات الصغيرة التي لم تستطع أن تتجاوز مبانيها وجدرانها، والتنظيمات التي تدعي لنفسها حمل الرحمة إلى العالم فإنها في الحقيقة أصبحت عاجزة عن معالجة تحكم الأدواء والعلل الحزبية التي لا تستطيع أن ترى الأمور إلا من خلالها.

فإذا تركنا المؤسسات الإسلامية والتنظيمات الدعوية وبعض الزعامات الإسلامية ذات العناوين الكبيرة، والمضامين والاهتمامات الصغيرة والهزيلة، إلى المستوى الأدنى، أدركنا أن العطب لحق معظم العاملين في أجهزة الدعوة. ذلك أن الكثير من الذين تصدروا مراكز التوجيه والإرشاد والخطب والمواعظ نراهم وكأنهم تخصصوا بالحقد على الناس ومطاردتهم وسبهم وشتمهم وجلدهم دون أية مراعاة لحرمة المنبر والمسجد، وكأن الناس الذين جاءوا إلى المسجد طائعين مختارين هم الأعداء الذين يجب البدء بعقابهم وتأنيبهم وإنذارهم بدل ترغيبهم وتبشيرهم، وتزكيتهم، والسمو بهم، والرحمة لهم،

ومساعدتهم على فعل الخير، وكأن بعض المنابر أصبحت اليوم تشكل بالنسبة لبعض الخطباء فرصة للثأر من الناس.

كما أن بعض الكتّاب الذين يكتبون باسم الإسلام تمخضت كتاباتهم للشتيمة والسباب والنيل من الناس ولا يتورعون أن يعتبروا ذلك شجاعة وجرأة وبطولة. والرسول ﷺ لم يرض أن يدعو على الكفار عندما طلب إليه ذلك أصحابه في غزوة أحد وبعد عودته من الطائف وهو في أشد حالات الضيق والحرج.

لقد تخصص كثير من وعاظنا وخطبائنا اليوم بالقدرة على إقامة الحواجز بينهم وبين المجتمع، ولكثرة الإنذارات والتهديدات والتخويفات في بعض دروس الوعظ والخطب والتدريس بالمدارس أصبح الدين بالنسبة للإنسان مصدر قلق وخوف ورعب وتوتر، بدل أن يكون واحة إيمان وسكينة واطمئنان وأصبح بعض المسلمين يخاف من صورة بعض الوعاظ ويحاول الهروب منها، وإسقاطها من حياته كلما أتيحت له الفرصة، لأنها تحمل له التخويف والإرعاب والعذاب في النار حتى على فعل الصغائر التي قد لا يستطيع التحرز عنها. وكأن الرسالة الإسلامية التي حدد الله الغاية منها بقوله: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: ١٠٧) انقلبت على يد بعض الوعاظ إلى عقوبات مسلطة على رؤوس المصلين وهم في المساجد. وكثيراً ما نرى بعض المسلمين اليوم يتراجعون إلى الصفوف الخلفية في المساجد حتى يتمكنوا من الخروج بدل أن يتدافعوا إلى الصفوف الأولى لما لها من ثواب.

وكثيراً ما نسمع بعض الخطباء يستحضرون الآيات التي نزلت في الكافرين والمنافقين ليصبوها على رؤوس المصلين المسلمين، لقد تفننوا بإقامة الحواجز بينهم وبين المسلمين علماً بأن الأصل أن يفوز المسلم بالجنة بإيمانه والمسلمون إلى خير والاستثناء أن يعذب المسلم في النار أما أن تنعكس الآية عند بعض الوعاظ فهذه كارثة.

وكم تكون الكارثة عظيمة وخطيرة إذا أدركنا أن الإسلام لم يعتمد أصلاً طبقة من رجال الدين تتحدث باسم الله وتمارس الإرهاب الديني

والفكري على الناس حتى يتخلص الإنسان من تسلط الإنسان مهما كان وإن بعض المسلمين أعطى نفسه الحق في التحكم بمصائر الناس والقضاء عليهم باسم الإسلام وبدلاً من أن يعين المسلم على شيطانه أصبح بأسلوبه وأدواته المصابة يعين الشيطان على المسلم والعياذ بالله.

فمتى نستطيع نحن المسلمين أن نرتفع إلى مستوى إسلامنا وعصرنا ونعيد التفاهم مع أنفسنا ومع الآخرين وبذلك وحده نستأنف الدور العالمي المطلوب للإسلام اليوم. والله من وراء القصد.

[٢١ و ٢٢ ذو القعدة ١٤١٠ هـ - ١٤ و ١٥/٦/١٩٩٠ م]

التخطيط مسؤولية شرعية
وحاجة عصرية

اعتقد أننا اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى للقيام بعملية مراجعة على أكثر من مستوى في محاولة للتخلص من الواقع الذي نعاني منه وهـذه المراجعة تقتضي أول ما تقتضي إعادة تدبر آيات القرآن الكريم الذي يمثل بالنسبة لنا مصدر القيم ومنهج الحياة كما تقتضي المعرفة الكاملة بآفاق البيان النبوي وكيفية التعامل مع آيات القرآن وتنزيلها على الواقع المعاش من خلال رؤية شاملة للمشكلات التي يعاني منها إنسان اليـوم، لعلنا نبلغ بـالخطاب الإسلامي البعد الغائب، والبشرية أشد ما تكون حاجة لذلك.

وهذا لا يتأتى لنا بمجرد الأمنيات أو بمزيد من التوثب الروحي والإيمان السلبي، أو الضجيج الخطابي كما لا يتأتى بالتخصص بشتائم الآخرين وسبابهم واتهامهم بالكفر والنفاق والمروق من الدين والتنقيب عن النوايا بعيـداً عن الأدب الإسلامي ومقتضيات الشرع والعقل، فالكيس من دان نفسه.

وإنما يتأتى بعملية مراجعة شاملة تقويمية تبين أسباب التقصير ومواطن القصور التي كانت وراء الفشل الذي نعاني منه وإن كان الكثير منا يصر على عدم الاعتراف به.

وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الكون بكواكبه ومخلوقاته عبثاً وإنما خلقه لمقصد وغاية كما أنه لم ينزل الشرع ويرسل الرسل عبثاً.. وإنـما لتحقيق غايـات ومقاصـد أيضاً فـالله منـزه عن العبث قـال تعـالى:

﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون، فتعالى الله الملك الحق﴾ (المؤمنون: ١١٥) وعلى الرغم من أن اكتشاف العلة من التشريع والتعرف على الحكم كان هو الأساس المطلوب للقياس والاجتهاد عند الفقهاء فإن الكثير من المسلمين اليوم تتسم حياتهم بالعشوائية والعفوية والبعد عن التخطيط ومعرفة الأهداف والوسائل والإمكانيات التي يجب توافرها لتحقيق العمل.

لقد أصبح التخطيط اليوم ضرورة عصرية أو هو سمة العصر، أصبح علماً له شروطه ومقوماته وله رجاله ومؤسساته وعلماؤه بل أصبح أمراً لازماً لكل عمل ناجح من الأعمال.

والتخطيط بالنسبة للإدارات والمؤسسات والأعمال يمثل الرأس أو يمثل العقل بالنسبة لسائر الحواس أو يمثل البوصلة التي تحدد الجهات وتحفظ الجهد والمال من الضياع وأي شيء لا يحكمه التخطيط والدراسة أصبح يعني التبعثر والفوضى وضياع الجهد، وتبديد الطاقة أو الحراثة في البحر، أو الإبحار بدون شواطىء وموانىء.

والتخطيط في أبسط معانيه وأقرب صوره هو وضع خطط في محاولة لتوظيف الإمكانات المتوافرة في أفضل سبيل والحصول على أوفر النتائج وتحقيق الأهداف المرجوة.

وهذا يقتضي تحديد الأهداف بدقة ووضوح وترتيبها بحسب الأولوية وتحديد الجدوى من تحقيقها ومن ثم اختبار مدى إمكانية تنفيذها وواقعيتها وعدم الخلط في ذلك بين الإمكانيات والأمنيات. ثم تأتي مرحلة البحث في الوسائل الموصلة إلى هذه الأهداف واختبار سلامتها وصوابها والمطلوب لها من الإمكانيات المادية والبشرية والزمنية بمعنى أننا قبل الإقدام على أي عمل، أو الإحجام عنه لا بد لنا من البدء بالسؤال العريض التالي: لماذا نقدم على هذا العمل؟ مهما دق العمل أو جلّ مهما صغر العمل المطلوب أو عظم.

فكلمة لماذا هذه تعني ما أشرنا إليه من تحديد الأهداف ووضوحها وواقعيتها وجدواها وأولوياتها.

فإذا أجبنا عن السؤال لماذا نقدم على عمل ما، أو أجبنا على الوجه المقابل لماذا نحجم عن عمل ما، وجب أن ننتقل بعدها وبشكل حتمي إلى السؤال الثاني:

كيف نحقق هذه الأهداف التي تقررت أهميتها وفائدتها وضروريتها لديننا ودنيانا والكيفية تعني الوسائل الموصلة واختبار مدى دقتها كما تعني الإمكانيات البشرية والمادية المطلوبة والمحسوبة لهذا العمل.

ثم تأتي مرحلة تحديد الزمن المطلوب لإنجاز العمل، ذلك أن إسقاط عنصر الزمن من المعادلة المطلوبة، يعني شيئاً خطيراً وضياعاً محتوماً وتبديداً مؤكداً للأهداف والوسائل وتفويتاً للفرص والرسول ﷺ يقول: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وماله من أين اكتسبه وأين وضعه وعن علمه ماذا عمل فيه» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. ولو كان المسلمون اليوم في مستوى إسلامهم لكان هذا الحديث وحده كافياً لتأديبهم وتربيتهم وتعليمهم أهمية التخطيط للطاقة ولعل في حديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وشبابك قبل هرمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك» خيربرهان على أهمية الوقت في عملية التخطيط للطاقة واغتنام الفرصة فإذا فات الزمن أصبحت هذه القضايا تملكنا بعد أن كنا نملكها.

لقد حول العالم المتقدم اليوم الزمن إلى قيمة وجعل له ثمناً، وأدرك حساب الزمن وأهميته في أية معادلة مطلوبة لعمل أو إنجاز فامتلاك الزمن والإفادة منه يعتبر من أهم مقومات العملية التخطيطية لذلك نسمع بالخطط الخمسية والخطط العشرية والخطط السنوية ونصيب البرامج اليومية من عملية الإنجاز كما نقرأ ونسمع عن أهمية تحديد أهداف مرحلية وأهداف نهائية وما إلى ذلك.

أما نحن مسلمي عهود التخلف والضياع عن الهدف والوسيلة معاً فتموت هذه المعاني في واقعنا وتغتال من حياتنا مهما رفعنا أصواتنا وغلظت حناجرنا على المنابر والمواعظ في الحديث عن أهمية الوقت فواقعنا يكذب دعوانا حيث لم نقم لليوم والسنة والسنوات لا الخمس ولا العشر أي وزن أو قيمة

بل لعل مقياس الزمن قد ضاع من أيدينا ونحن الذين بنيت عباداتنا على أهمية الوقت في أداء الصلاة وقضائها ومواعيد الصوم والإفطار والحج والأهلة وضرورة الحول في تحديد أوقات الزكاة بل لعل الوسائل البسيطة والبدائية للتعامل مع الوقت عند أسلافنا كانت أنفع من كل الإنجازات العصرية من ضوابط الوقت بالنسبة لنا فما قيمة أن تكون الساعة التي نحرص على شرائها منضبطة تماماً وندفع لها الأثمان الغالية إذا كان الوقت عندنا لا قيمة له ولا فائدة منه. .

كما تقتضي عملية التخطيط التي تحدثنا عنها من حيث الأهداف والوسائل التي تقتضي توافر الإمكانيات البشرية والمادية اللازمة ضمن إطار الزمن المحدد عملاً تقويمياً لاختبار صوابية العمل وحسن سيره ودراسة الجدوى وعملية التقويم هذه لا بد أن تنعكس على الوسائل أولاً وقبل كل شيء وهل أثبتت جدواها وفاعليتها ومن ثم تصل إلى مرحلة تحقق الأهداف التي هي المقصد والغاية ونتيجة الدراسة التقويمية لا بد فيها من تحديد الملاحظات التي تبين جوانب القصور وتبين أسباب التقصير للإفادة من ذلك واستدراكه عند وضع أية خطة مستقبلية.

وأعتقد أن استشعار أهمية التخطيط وفوائده لا يأتي كله من الخارج وإن كان التقدم الحاصل في العالم اليوم بسبب الارتقاء بعلم التخطيط يستفز ويتحدى وإنما لا بد أن يأخذ ذلك بعده في الداخل الإسلامي في العملية التربوية والتعليمية والتشكيل الثقافي للجيل القادم، حتى تتكون العقلية التي لا تقدم على عمل ولا تحجم عن عمل آخر إلا بعد دراسة واختبار وإن شئت فقل: بعد الإجابة عن كلمتين تعتبران أساساً لكل ارتقاء في الدنيا وثواب في الآخرة. لماذا وكيف؟؟

فإذا تدرب الفرد من خلال الأسرة والمدرسة والمسجد ووسائل الإعلام بمختلف أقنيتها على ذلك أصبح بطبيعته إنساناً بعيداً عن العشوائية والضياع.

وقد تكون مشكلة العالم الإسلامي اليوم في غياب العقل المخطط وإن ظن بعض الناس أن استيراده يغني عن استنباته فإنه يعني أننا نخطط لاستمرار التخلف.

وغياب العقل المخطط هو وراء الارتجال والتناقض والعشوائية والمظهرية والافتخارية الذي يسود العالم الإسلامي على الرغم من الإمكـانيات المادية والبشرية فماذا يمكن أن تعني الإمكانيات، إذا كانت في أيد ساذجة عاجزة عن توظيف هذه الإمكانيات ووضعها في المكان المجدي والنافع ماذا تعني الجيوب الممتلئة بالمال إذا كان أصحابها من الأطفال الذين قد يحولون النعم إلى نقم ويعذبون بأموالهم وإمكاناتهم في الدنيا والآخرة وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

[٢٥ شعبان ١٤١٠ هـ - ٢٢/٣/١٩٩٠ م]

سنة التداول الحضاري

يقول تعالى: ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس...﴾ (آل عمران: ١٤٠).

هناك سنن أي قوانين مطردة شرعها الله سبحانه وتعالى لتحكم الحياة والأحياء فهي بذلك تجري على الناس جميعاً المؤمن منهم والكافر.. ترتبط فيها الأسباب بمسبباتها والنتائج بمقدماتها. وقد جعل الله لكل شيء سبباً.

والسنن التي تحكم الحياة والأحياء شبيهة إلى حد بعيد بالقوانين التي تحكم حركة الكون بتعاقب ليله ونهاره وجريان شمسه وقمره وحركة أفلاكه وسائر قوانين نمو النبات والتكاثر والوراثة وما إلى ذلك.

ولولا هذه السنن وذلك الانتظام لكانت الحياة عبثاً من العبث وصوراً من اللعب والانفلات وانعدام الأهداف ولكانت المصادفة والعشوائية هي التي تسود الحياة ولما كان هناك ميزة ولا معنى لعقل العقلاء ورسالات الأنبياء ونصب الشرائع والقوانين التي تنظم مسالك الناس. ولما كان هناك فرق بين فعل الخير وثمراته، ومسلك الشر وعقابيله ولا بين الصراط المستقيم والسبل المتفرقة التي تضل الناس وتصل بهم إلى التيه.

والله سبحانه وتعالى عندما طلب إلينا السير في الأرض والنظر في الدورات الحضارية وتبادل الأيام والأحوال التي تتعرض لها الأمم من العسر واليسر والشدة والرخاء إنما كان ذلك تكليف من التكليف لاكتشاف الأسباب

والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني وتعمير الأرض وفق منهج الله المبني على الأسباب: ﴿**إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً**﴾ (الكهف: ٨٤ - ٨٥) فقضية الحضارة كلها تعني اكتشاف الأسباب وحسن التعامل معها.

وليس السير في الأرض الذي أمر الله به إلا وسيلة من وسائل اكتشاف السنن (القوانين المطردة) التي سوف نخضع لها كخضوع سائر الأمم في التاريخ من النهوض والسقوط والتداول الحضاري بسبب من عدم اكتشافها أو بسبب من تجاهلها وعدم البصارة في التعامل معها.

وليس التكليف بعمارة الأرض والاجتهاد في حسن أداء أمانة الاستخلاف الإنساني يعني في نظري أكثر من بذل الجهد لاكتشاف هذه السنن وإدراك الأسباب وهذا الاكتشاف لا يتأتى إلا من استقراء أحوال الحضارات السابقة في النهوض والركود والملاحظة والمشاهدة والتأمل والمقايسة ومن ثم حسن التعامل مع السنن (الاعتبار) الذي ينعكس على إعادة النظر والمراجعة في المقدمات والأسباب وتجنب الطرق (الوسائل والأسباب) التي كانت وراء انقراض الأمم السابقة فلا نفعل ما فعلوا حتى لا يلحقنا ما حل بهم: يقول تعالى بعد ذكر قصة يهود بني النضير: ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾ (الحشر: ٢) إنها سنة التداول الحضاري التي لا بد من فقهها بعناية حتى يتحقق الاعتبار والخطاب موجه إلى أولي الأبصار فهي أمور دقيقة تحتاج إلى بصارة نافذة ولعل من المعالم الكبرى والشواهد المستمرة على تأكيد سنة التداول الحضاري التي أشرنا إليها أن جعلها الله قرآناً يتلى ولا يبلى على مر الزمن هي غزوة أحد التي شكلت بالنسبة للمسلمين بقيادة الرسول الكريم ﷺ هزة عنيفة باتجاه فقه سنة التداول الحضاري كما شكلت هزيمة كبرى بسبب الغفلة عن هذه السنة وتجاوز الكثير من المقدمات التي كانت سبباً في حتمية الهزيمة والتي لا نرى الآن متسعاً لذكرها حيث ارتبطت المقدمات بالنتائج بشكل دقيق وصارم دون مراعاة للمسلمين إذا غفلوا عن امتلاك المقدمات الصحيحة التي تقود إلى النتائج الصحيحة قال تعالى مخاطباً المسلمين: ﴿**قل هو من عند أنفسكم**﴾ (آل عمران: ١٦٥).

لقد انتصر المشركون على المسلمين ووصل الأمر بالمشركين إلى ضرب من الزهو والصلف (الذي يعتبر بدء السقوط في الجولة القادمة من التداول) والتحدي إلى القراءة المغلوطة لعوامل النصر والهزيمة ونتائج المعركة فنادوا أصنامهم بقولة أبي سفيان: أعل هبل.. وكان أن طلب الرسول ﷺ من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يرد عليهم بقوله: «الله أعلى وأجل.. لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار».

لقد كانت أحد هزيمة مادية بدون شك اعترف بها المسلمون إلا أن تلك الهزيمة المادية لم تفقدهم استعلاء الإيمان ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾ (آل عمران: ١٣٩) الذي منحهم القدرة على المراجعة والتصويب واكتشاف مواطن الخلل والقصور.

إنهم لم ينكروا الهزيمة ولم يسقطوا بسببها لكنهم قدروا على الاستعلاء الإيماني الذي مكنهم من المراجعة وأخذ الدرس والعبرة واكتشاف سنن النصر والهزيمة التي أسميناها سنة التداول الحضاري.. ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ (آل عمران: ١٤٠) والتي ليست المعارك العسكرية إلا أحد ميادينها.

والحقيقة التي نريد أن تتضح هنا أن المعاندة للسنن المطردة والاستكبار بغير الحق والقفز من فوق هذه السنن وعدم مراعاتها يعني الكثير من التقهقر والمزيد من السقوط أو ما يمكن أن نسميه العمى الحضاري.

وأن محاولة التعرف على السنن وحسن التعامل معها هو الكفيل بالعودة إلى الموقع المفقود واسترداد الشهادة والقيادة التي نيطت بالأمة المسلمة.

لذلك نقول: إن الهزيمة في بعض مراحل البناء الحضاري قد تكون ضرورية للأمة لتجديد شبابها والقضاء على الرخاوة والترف والفسوق والاسترخاء في مجتمعها والسلبية والإرجاء والجبرية في تصورها والعطالة في فاعليتها فقد تصل الأمة إلى مرحلة تصبح معها بحاجة إلى المنبهات الحضارية من هزائم وغيرها.

والعجيب في أمرنا اليوم هو هذا الإصرار المنكور على عدم اعترافنا بالهزائم بل قد يكون البلاء والسقوط أكثر من ذلك فهناك محاولات مستمرة

لقراءة الهزائم على أنها انتصارات ليستمر التنويم الحضاري والغفلة عن اكتشاف السنن المعتمدة في السقوط والنهوض.

فاستشعار التحدي كان سبب الاستجابة في حمراء الأسد والقرح كان سبب الانتصار: **﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعدما أصابهم القرح﴾** (آل عمران: ١٧٢) وهذه الاستجابة كانت عقب هزيمة أحد وضمن إطار الحديث عن الهزيمة وحسبنا أن نقول هنا: بأن المساحة التي احتلتها غزوة أحد أو هزيمة أحد في القرآن والتعرية النفسية والمادية التي عرضت لها الآيات والعبر والدروس التي أكدتها ونبهت إليها لتكون معالم في الطريق الإسلامي الطويل تفوق الكثير من المساحات التي وردت بشأن النصر.

وقد يجوز لنا أن نقول مرة أخرى: إن الهزيمة في بعض الأحيان تصبح ضرورة حضارية لأنها تشكل استفزازاً وتحدياً لا بد منه.

صحيح أن سقوط الأمة المسلمة وانقراضها وموتها الكامل مستحيل شرعاً بما ورد من مواثيق الله ومستحيل عقلاً باعتبارها الأمة حاملة الرسالة الخاتمة وبذلك فهي غير خاضعة تماماً للدورات الحضارية التي حكمت الأمم لأنها لا تتواطأ على الخطأ المميت وأن عوامل النهوض كامنة باستمرار تنتظر التحدي والاستفزاز والمنبه الحضاري وشواهد التاريخ أكثر من أن تتجاوز.. لكن المشكلة كما نراها اليوم هي في تعطيل عمليات التعرف على الهزيمة ودراسة أسبابها والإفادة من دروسها.

ولا أرى عيباً في الأمم الأخرى كالذي أراه اليوم فيما انتهت إليه بعض جوانب الحياة في الأمة المسلمة من الاستكبار بغير الحق وعدم الاعتراف بالخطأ والهزيمة والفشل على مستوى الأفراد والجماعات والزعامات والتنظيمات والحكومات وذلك مؤذن باستمرار الخبال والتضليل والتفوق والغلبة الحضارية للآخرين.. والله تعالى يقول: **﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾** (آل عمران: ١٣٧).

[٥ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - ١٢/١/١٩٨٩ م]

هل يهزم التاريخ؟

لأمر أراده الله، وليس من قبيل المصادفة والعبث الفكري، أن تكون قولة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي عبيدة ـ أحد قادة الفتح الإسلامي في بلاد الشام ـ: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله.

نقول: ليس من قبيل المصادفة أن تكون القولة على أرض فلسطين، وفي رحاب الأقصى، وأن يكون الأقصى هو المحور، وأن تكون الساحة الفلسطينية هي المختبر التاريخي الدائم الذي يؤكد صدق هذه المقولة التي هي أشبه ما تكون بالمعادلة الحضارية، وصرامة القانون الرياضي.

ذلك أن المستقرىء لتاريخنا في حالات الرفع والخفض، والعزة والذلة، يرى أن هذه المقولة سارية فينا وكأنها تنزيل من التنزيل أو استيحاء من التنزيل، على الرغم من تبدل أشكال الاستعمار والحروب الصليبية والصهيونية في القديم والحديث.

وتتأكد أهمية هذه المقولة في هذا العصر بالذات حيث يحاول الكثير في عالمنا العربي والإسلامي هزيمة التاريخ باسم المعاصرة، أو القفز من فوقه باسم التجديد، أو إلغاء معطياته تماماً تحت وطأة الهزائم المتتالية، وشيوع مناخ الحلول الاستسلامية.

ذلك أن الطروحات كلها اليوم تتم على حساب القضية الإسلامية أو على حساب القضية الفلسطينية، قضية المسلمين الأولى وحصنهم الحضاري المعاصر الذي تتمركز حوله - تاريخياً - اختبارات الأسلحة والأفكار والصراعات الدينية والحضارية، ويشكل محور الحروب الاستعمارية القديمة والحديثة.

وفي كل مرة يعاقب الله هذه الأمة ويؤدبها بسبب جنوحها عن الاعتزاز بالإسلام، حتى تؤوب إليه وتلتزم به، فتكون العزة، وهكذا نخضع لسنة التداول بين الخفض والرفع، والعزة والذلة، والاعتبار أو العمى التاريخي.. فيتولد الفرج من قلب الشدائد، ويكون مع العسر يسرا.. ولعل هذا أوضح ما يكون في جغرافية العالم الإسلامي على أرض فلسطين، ذلك المكان الذي انطلقت فيه قولة عمر رضي الله عنه، على الرغم من أن الكثير منا لا يزال يصر على عدم سماع هذا النداء التاريخي ويتقمم أفكاراً من هنا وهناك كأن في أذنيه وقراً.

ولا بد أن نعترف أنه في هذه الفترة من السقوط الحضاري انتقلت إلينا علل الأمم السابقة، وأصبح بأسنا بيننا شديداً، وارتفعت على ساحتنا أصوات بعيدة عن الإيقاع التاريخي والثقافي والحضاري لهذه الأمة. واستغلت الساحة الفلسطينية - من خلال مأساة الاحتلال - لتكون محلاً لنفايات الأفكار، وصراعات المبادىء واختبارات الأسلحة، والترويج للشعارات المضللة.

كما استغلت بعض السواعد الفلسطينية لتكون أدوات لتنفيذ المخططات الآثمة التي وضعت لتمزيق المنطقة، وتكديس التنازع والفرقة، وذهاب الريح.. وبذلك استيقظت كل الجراثيم، وعادت كل الأمراض إلى الجسم الضعيف لتزيد من إنهاكه، والقضاء عليه، لكنها هذه المرة: مظهرها غير مخبرها، وصورتها غير حقيقتها.

إنها مرحلة ملوك الطوائف وصراعات الخيام والمخيمات والدويلات والأميات المؤذنة بالسقوط تتحكم الطائفية المقنعة تحت شعار الوطنية والغيرة على المقدسات، والإقليمية والانفصال تحت شعار الوحدة، والظلم تحت شعار العدل، والتآمر على القضية الفلسطينية تحت شعار تحريرها والغيرة عليها.

فالإصابات الفلسطينية بالأيدي التي تحركها جهات ضالعة في مخططات التصفية العالمية، كانت أكبر بكثير من الإصابات التي لحقت بها على أيدي اليهود.

ولا نظن أن مجموعة القتلى الذين سقطوا على أرض القضية الفلسطينية طيلة المواجهة مع العدو المحتل تشكل واحداً بالمائة ممن قتلوا ثمرة لمعركة واحدة من معارك خلافاتنا وصراع الزعامة بيننا في معركة واحدة من معارك المخيمات، أو معارك الخيام. ذلك أن عقلية الخيام والعصبية القبلية الجاهلية لا تزال هي المسيطرة على سلوكنا طالما ابتغينا العزة بغير الإسلام.

إنها فلسفات الهزائم التي تسود الساحة، وصور الجنوح عن المنهج الصحيح، وشعارات التضليل وليس التحرير، ونقل للمعركة من مواقعها الصحيحة وأرضها الحقيقية، والامتداد إلى التصفية الكاملة للرصيد الحقيقي للانتفاضة في المخيمات. وطالما سمعنا ولا نزال نسمع:

إن الطريق إلى المعركة لا بد أن يمر من مخيم شاتيلا.. وبعد مذبحة شاتيلا تتحول دبابات التحرير وصواريخ التحرير إلى مخيم برج البراجنة، ومن قبلها كان مخيم المية ومية، وعين الحلوة. وكنا قبلاً نسمع: إن الطريق إلى القدس لا بد أن يمر في بغداد، أو القاهرة، أو دمشق، أو عمان.. أما اليوم، فأصبح الطريق إلى التحرير لا بد أن يحرر القضية من أهلها، ويقضي عليهم جميعاً إما بالقتل أو بالشتات.

إنه الذراع اليهودي يمتد ليشكل خارطة إسرائيل الكبرى، لكن، هذه المرة بأيد غير إسرائيلية.. فقد أحسنت إسرائيل الإفادة من الدرس، ونحن لا نزال نحسن الظن، ونتجاوز الحقيقة، يحاول بعضنا هزيمة التاريخ، وبعضنا الآخر يقفز من عليه.

ولا شك عندنا أن هؤلاء وأولئك هم جنود في جيش العدو، يحاولون الغدر بالقضية وطعن الانتفاضة، وإجهاض حركة الجهاد الإسلامي التي انطلقت من مساجد الأرض المحتلة، وإعادة المواجهة إلى أرضها الحقيقية، وأسقطت صور الزيف والخداع، كما أسقطت زعامات الزيف والخداع.

ونعتقد أنه قد آن الأوان للمراجعة التاريخية، وتجديد الانتماء، وسلوك طريق العزة، والتزام المواقف المبدئية.. بعد السقوط الكامل للشعارات والأفكار والطروحات السياسية الغريبة عن عقيدة هذه الأمة والتي كانت سبباً في تمزيقها.. ونحن على يقين أنه سوف ينبثق الجيل القادر على استيعاب التاريخ، واستلهام الشخصية الحضارية لهذه الأمة، بعد أن عجز «هؤلاء» عن هزيمة التاريخ، وإن استطاعوا هزيمة حاضر هذه الأمة في إحدى جولات التداول الحضاري.

إن الانتفاضة بكل مقوماتها، ومكوناتها، وشعاراتها، وتضحياتها، هي الرد العملي على مرحلة السقوط، وغياب المواقف المبدئية، والدعوة إلى الحلول الاستسلامية التراجعية.

وحسب هذه الانتفاضة انتصاراً، هذا الصمود، وهذا الشموخ الذي قضى على كل العلل والعقد النفسية التي تراكمت على ذهنية هذه الأمة.. وحسبها أنها ضمنت حضور القضية بكل أبعادها من جديد، وأدانت المتواطئين عليها.

أما أولئك الذين يلغون في الدماء المسلمة للنساء والشيوخ والأطفال في المخيمات تحت شتى العلل والمعاذير فعليهم، وعلى شياطينهم الذين يخلون إليهم، من الله ما يستحقون.

[٢٣ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٧/٧ م]

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾

لعل من أخطر الإصابات التي لحقت بالأمم السابقة، وكانت سبب هلاكها وسقوطها، التواطؤ على المعاصي الخلقية والفكرية والسياسية وغياب الرقابة العامة التي تضمن حراسة الخير وتواصله واستمراره، وتبين الخطأ وتحذر من عقابيله ونتائجه. ولقد نعى الله على بني إسرائيل السقوط في جريمة التواطؤ على المنكر الذي سبب لهم اللعن والطرد من رحمة الله، يقول تعالى: **﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون﴾** (المائدة: ٧٨ - ٧٩).

إنه السقوط الديني والحضاري الذي يذكرنا الله سبحانه وتعالى به لنأخذ حذرنا، ونعتبر بإصابات الأمم والحضارات السابقة فلا نقع فيها وقعوا فيه من العلل والأمراض الدينية. والمعاصي الثقافية والحضارية والأخلاقية التي كانت سبب هلاكهم وانقراضهم، ذلك أن الأمم أو المؤسسات أو التنظيمات أو الحكومات التي تضيق بالنقد والحوار والمناصحة وإشاعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنما تحفر قبرها بيدها مهما حاولت وقف التنفيذ. وأن الجمهرة التي تواكب خطواتها الخاطئة وتتواطأ معها على الخطأ والفساد إنما هي أشبه بمشيعي الجنائز المحترفين الذين يحملونها إلى مثواها الأخير.

ومع شديد الأسف بدأت علل الأمم الماضية وأصحاب الأديان السابقة

تتسلل إلى الأمة المسلمة والصف الإسلامي بشكل خاص وما صور الضيق بالنقد والحوار والمناقشة والمناصحة وتكرر الأخطاء وتكريسها، والتراجع المستمر إلا دليل ذلك. والحقيقة التي لا بد من إيضاحها هنا، ولو بشكل مختصر أن العصمة للأشخاص توقفت بوفاة الرسول ﷺ وانقطاع الوحي. لذلك لم تبق عصمة لفرد أو مؤسسة أو تنظيم أو جماعة أو دولة أو حكومة، كائنة ما كانت، وتبقى دائماً بحاجة إلى التسديد والنقد والمناصحة والمراجعة ذلك أن العصمة لا تتحقق اليوم إلا لعموم الأمة فالرسول ﷺ يقول: «لا تجتمع أمتي على خطأ» وفي رواية: «على ضلالة»... فالعصمة لا تكون لفرد ولا لجماعة ولا لمنظمة ولا لحزب وإنما تكون للأمة بعمومها، التي أخبر الرسول عنها بأنها لا تتواطأ ولا تجتمع على خطأ أو ضلال. فكيف السبيل اليوم إلى عصمة الأمة المنشودة؟

في اعتقادنا أن السبيل هو تأمين مناخ الحرية الذي ينمو فيه الحوار والمناصحة والمناقشة والنقد... وبكلمة مختصرة تتوفر فيه حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمفهوم الإسلامي العريض لا بالشكل الحسير، والصورة الساذجة المحزنة التي نراها اليوم في العالم الإسلامي بعد أن تحدد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مجال لا يسمح له أن يتعداه.

إن الناقد والمناصح، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، هو شريك في تشييد البناء السليم.. والأمم التي تحترم نفسها وتحرص على سلامة خطها، تسعى لسماع الرأي الآخر وتحاول استنباته عند عدم وجوده، وتنظر إلى منجزاتها وقراراتها من عيون الآخرين.. ولا أدري لماذا نضيق نحن بالحوار والنقد والمناقشة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويصل بنا الأمر إلى الحكم على الآخرين بالتجريم والتأثيم ونصرف الجهد كله لمطاردة الرأي الآخر ومحاصرته وإلغائه بشتى الوسائل. والغريب أننا في العالم الإسلامي اليوم، متخلفون في كل شيء إلا في وسائل مطاردة الرأي الآخر ومحاصرته، فإننا نمتلك في ذلك أرقى ما وصلت إليه التكنولوجيا الحديثة.

وكم كان الإسلام عظيماً عندما جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مسؤولية عامة شاملة لكل جماهير الأمة، لتكون الجماهير في حراسة القيم وحماية

الصواب، وتحول دون المنزلقات الخطيرة، خاصة في المواقف المصيرية والرسول ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده... فإن لم يستطع فبلسانه. فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم.

فهل تسللت إلينا علل الأمم السابقة؟ وهل توقف النقد والمناصحة ومحاصرة حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو سبب السقوط والتردي والتسلط الداخلي والخارجي؟

[٨ ربيع الآخر ١٤٠٩ هـ - ١٧/١/١٩٨٨ م]

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾

حتى يتمكن الإنسان من الإدراك الصحيح لمقومات الأمة في النهوض ويحكم على مدى قدرتها في تحقيق النصر وتوفير شروطه ويكون بإمكانه استشراف المستقبل الذي سوف نصير إليه لا بد له من التعرف على العقيدة التي تعتنقها هذه الأمة وملاءمتها للفطرة البشرية وقدرتها على الارتقاء بالإنسان وتنمية خصائصه وصفاته وقدرتها على الصمود في فترات الضعف والانحلال لتحول دون ذوبان الأمة وضياعها والنهوض والانتصار والانتشار وحمل الخير إلى الناس وإلحاق الرحمة بهم في فترات القوة واستعادة العافية.

كما لا بد له من استقراء التاريخ استقراءً شاملاً لفتراته جميعاً وعدم الاقتصار في القراءة على النقاط السود أو اعتماد فترات الرفض والخروج والشذوذ لأنها وإن حصلت في تاريخنا ـ والشر من لوازم الخير ـ إلا أنها لم تؤثر على المجرى العام لحركة الأمة، وقراءة التاريخ التي ندعو إليها هنا ليس المقصود منها تتبع سرد الحوادث وإنما المقصود التبصر بالأسباب والعوامل الكامنة وراءها واستقراء الدروس والعبر التي تترتب عليها واستكشاف أثر العقيدة ودورها في حركة الأمة وسلوكها العام في فترات الخمود والنهوض.

كما لا بد له أيضاً من دراسة الواقع الذي تعيشه الأمة الآن وأثر العقيدة في هذا الواقع وموقع هذا الواقع من الحركة التاريخية العامة إن هذه النظرة ذات الأبعاد الثلاثة:

البعد العقيدي والبعد التاريخي والبعد الواقعي هي التي تمكن من الحكم على مسار الأمة واستشراف آفاق المستقبل الذي سوف تصير إليه.

نقول هذا الكلام بمناسبة انتفاضة أهلنا وإخوتنا في الأرض المحتلة وقدرتها على الاستمرار حيث انطلقت من المسجد واستصحبت روح المسجد وأدركت رسالة المسجد وبذلك أسقطت كل ألوان الرهان والمتراهنين على أسبابها ودوافعها وقدرتها على الاستمرار. أولئك الذين كانوا ولا يزالون يقرأونها بأبجدية خاطئة ويلحقون بها الآثام ويلطخون وجهها بما كسبت أيديهم ويتقاتلون على توظيفها واحتوائها والانتساب إليها أو نسبتها إليهم ويستغنون بذلك عن دعمها والقتال معها، إنهم يتقاتلون عليها بدل أن يقاتلوا معها.

نقول هذا الكلام أيضاً بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة غير العادي المعني أولاً وقبل كل شيء بدعم الانتفاضة وتحقيق تطلعات الجماهير المسلمة في الوطن الإسلامي الكبير في تقديم العون وتحقيق النصرة «فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه» ذلك أن انعقاد مؤتمر القمة المعني بدعم الانتفاضة على أرض الجزائر أرض الثورة القدوة في العصر الحديث لعالم المسلمين له ألف معنى ومعنى. فهل يشم القادة ومن ورائهم الشعوب رائحة الدماء الزكية في كل شبر من الأرض الزكية ليدركوا المعاني التي ضحى من أجلها الشهداء وأسلموهم الأمانة ليحافظوا عليها.

وهل يدرك المسلمون في كل مكان حيث ينعقد مؤتمر القمة الآن بهذه المناسبة، أن احتلال فرنسا للجزائر الذي تجاوز المائة وثلاثين عاماً كان احتلالاً دينياً وثقافياً وحضارياً وعسكرياً واستيطانياً بشرياً وأن الثورة الجزائرية أصرت على التشبث بالأرض ومواجهة الاحتلال من الداخل وقد كلفها هذا مليون شهيد. وأن الجيل الذي طهّر الجزائر وأعاد لها وجهها العربي الإسلامي نشأ في مناخ الفرنسة والتحدي الحضاري والثقافي والديني.

هل يدرك المسلمون قادة وشعوباً هذا فيتعرفوا على الواجب تجاه الإخوة في الأرض المحتلة ويكف بعضهم عن الاتّجار بالقضية والأكل بها والتضليل لمسارها.

نقول هذا الكلام أيضاً في الوقت الذي ينعقد فيه مؤتمر القمة في الجزائر لدعم الانتفاضة وبشائر النصر الكبير للجهاد الأفغاني توشك على التحقق بعد هذه السنوات من الصبر والمصابرة والتضحية وبعد أن أجبر المجاهدون العالم على الاعتراف بهم. إنهم انتزعوا حقهم بأيديهم وحلوا مشكلتهم على أرضهم ولم يلتمسوا ذلك من أحد لقد أدموا أنف الجيش السوفييتي أحد أكبر جيشين في العالم اليوم وأجبروه على الانسحاب الذي يمثل حقيقة الهزيمة للعقيدة والسياسة والعسكرية الشيوعية مهما صنعت له من المبررات وأكدوا من جديد أن الأمة المسلمة لا تستجيب إلا لدواعي العقيدة الإسلامية ولا تضحي إلا في سبيلها.

ينعقد هذا المؤتمر في أجواء هذا التاريخ القريب الذي هو جزء أو حلقة من تاريخ طويل يحكي قصة هذه الأمة وقدرتها على الصمود والنهوض وحسبه من تاريخ فلسطين وأهلها أن يذكر ويتذكر الحقبة الصليبية ونهايتها فالحروب الصليبية عاشت بعسكرها وحضارتها ودينها واستيطانها على أرضنا المباركة ما يقارب القرنين من الزمان ونشأ جيل التحرير في حقبة الاستعمار الصليبي.

لذلك يحق لنا أن نقول: إن الانتفاضة اليوم أو ثورة المساجد في الأرض المحتلة ليست غريبة عن هذه الأمة وتاريخها وعقيدتها وسوف تستتبعها انتفاضات وانتفاضات حتى يتحقق النصر بإذن الله.

أما إذا تخاذلنا واستسلمنا فسوف لا نضر إلا أنفسنا ونحمل أوزارنا ونبوء بإثمنا.

والأمة ماضية على طريقها الطويل ملتزمة بعقيدتها معتزة بتاريخها.

يقول تعالى: **﴿وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**. (محمد: ٣٨).

[٢٥ شوال ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٦/٩ م]

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾

من المعادلات المحسومة وغير القابلة للاجتهاد والمناقشة في التصور الإسلامي أن النصر بآفاقه المتعددة هو من عند الله وأن هذا النصر سوف لا يتحقق ما لم ينصر المسلم الله وذلك بالتزام منهجه والوقوف عند حدوده في الأمر والنهي، يقول تعالى: **﴿إن تنصروا الله ينصركم﴾** (محمد: ٧) ويقول: **﴿وما النصر إلا من عند الله﴾** (الأنفال: ١٠).

وعندما تراءى لبعض البدريين - وهم الذي يقول الرسول ﷺ في بيان فضلهم: «كأن الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم» لأنهم أجنة المجتمع الإسلامي والعصابة التي لو هزمت فلن يعبد الله في الأرض - أن النصر كان بفعلهم بعيداً عن البعد الغيبي والمدد الإلهي كان نزول قوله تعالى: **﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾**. (الأنفال: ١٧).

وهذا لا يعني بحال من الأحوال القعود عن التماس عوامل النصر المادية والإعداد لها على أفضل المستويات وتقديم المسلمين ككتل لحمية تفتك بها أسلحة العدو المتقدمة بعيداً عن أي إعداد واستعداد.

بل إن نصرنا لله يعني في تصور المسلم يقضي بأعلى درجات الاستجابة من الإعداد والاستعداد المادي والروحي على حد سواء يقول الله تعالى:

﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ (الأنفال: ٦٠).

والمسلمون في غزوة أُحد وقعوا في الهزيمة لأسباب نفسية ﴿منكم من يريد الدنيا﴾ (آل عمران: ١٥٢) ولأسباب مادية بمخالفتهم لأمر القائد وعدم التزامهم بالخطة الموضوعة حتى اعتبرت الهزيمة من صنعهم وتقصيرهم ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾ (آل عمران: ١٦٥).

والذي ينظر في إعداد الرسول ﷺ واستعداده المادي للنصر يرى أن هذا الإعداد والاستعداد بلغ مبلغاً يظن معه وكأن صاحبه لا علاقة له بالسماء وإنما المعول كله كان على العوامل المادية للنصر.

وإذا نظر إلى تضرعه ﷺ ورجائه ودعائه وكل ألوان التربية والتطهير والعبادة التي تسبق المعركة وترافقها يكاد يظن أنه لا يقيم للعامل المادي وزناً وهذا هو الإسلام ببعديه المادي والروحي.

ولا شك أن البعد الروحي للنصر هو الذي يصنع إرادة القتال ويرفع الروح المعنوية للمقاتلين ويحمي من السقوط ويرقى بمعاني الجهاد والاستشهاد ويحول دون فلسفات التبرير والتسويغ والهزيمة باسم الواقعية أمام جبروت العدو وطغيانه، وتفوقه في قواه المادية.

والمتأمل للمعارك الإسلامية في القديم والحديث يلمح هذا البعد واضحاً جلياً في حالتي النصر والهزيمة على سواء ولا يزال البعد الروحي يمد المسلمين بصور من التضحية والفداء تحميهم من الانكسار وتقودهم إلى الانتصار.

وعلى الرغم من فرضية وضرورة تعامل المسلمين مع السنن الجارية التي تحكم الحياة والأحياء ومن مقتضاها الإعداد والاستعداد على أرقى ما يكون الإعداد إلا أن الإعداد المادي يبقى بعض المطلوب لأن الله ناط النصر بالتزام منهجه والوقوف عند حدوده فهذا البعد يفعل فعله ويؤدي دوره في الوقت الذي يكون فيه المسلمون مؤهلين لنصر الله.

نقول هذا الكلام بمناسبة انتصار الجهاد الإسلامي في أفغانستان على الجيش الأحمر أقوى جيوش العالم وأكثرها تقدماً مادياً من حيث العدد والعدة فأخرج من المعركة مذموماً مدحوراً.

ولو أراد الإنسان أن يقوم الأمر من الناحية المادية البحتة فسوف تكون النتيجة هي الهزيمة المحتومة لأن الدعوات إلى الواقعية والحسابات المادية البحتة كانت تقتضي الانكسار والسقوط والقبول بالأمر الواقع إذ كيف يمكن أن يتغلب مجاهدون من دولة متخلفة يفتقدون العدد والعدة على أقوى جيوش العالم في العدد والعدة؟ إنه الصبر والمصابرة والتقوى والتحمل إلى جانب بذل أقصى الجهد في الإعداد المادي.

لقد راهن كثيرون على خسارة الجهاد الأفغاني للمعركة وقد يكون للمراهنين عذرهم لأنهم لا يبصرون إلا الحسابات المادية في الموضوع ويقصرون عن إدراك البعد الغيبي فيه وهذا ليس جديداً على الساحة الإسلامية فلقد ظن كثيرون في بدء الدعوة عجز المسلمين في التغلب على يهود بني النضير. قال تعالى مبيناً ذلك: **﴿ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾** (الحشر: ٢).

فهل يستعيد المسلمون هذا البعد المفقود على أكثر من جبهة من جبهاتهم الساخنة منها والباردة؟ وهل ينصرفون عن السماع لدعاة الهزائم والاستسلام باسم الواقعية ويتابعون صمودهم وجهادهم يعدون العدة المادية الكاملة ويرجون النصر من عند الله؟ وهل يستفيد الجهاد الفلسطيني في انتفاضته المباركة من الجهاد الأفغاني دروساً جديدة في الصمود والصبر والمصابرة مع أن له من تاريخه الطويل وقد اختاره الله للمواجهة المستمرة خير درس وعبرة.

والأمل بالله كبير أن تتصاعد الانتفاضة المباركة في الأرض المحتلة لتبلغ الأبعاد المطلوبة كلها من الإعداد والاستعداد والتقوى والإخلاص لله بعيداً عن

دعوات تنظيمات التثبيط والتوهين التي يوحي بها الشيطان إلى أوليائه فلقد خوف المسلمين من مواجهة المشركين لكثرة عددهم وعدتهم بعد معركة أحد فقال الرسول ﷺ لمن حمل التخويف إليهم: «والله لأخرج إليهم ولو كنت وحدي». ونزل قوله تعالى: ﴿**إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ (آل عمران: ١٧٥).

[٢٦ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٢/٢ م]

التخلف سبب ونتيجة

منذ زمن طويل يتحدث المسؤولون في الوطن العربي بأسى ومرارة عن تزايد هجرة العقول إلى الغرب. وفي عام ١٩٨٠ م قدم الدكتور حسن زلزلة الأمين العام المساعد للجامعة العربية آنذاك تقريراً سرياً إلى مؤتمر القمة العربي قال فيه: إن عدد العقول المهاجرة من البلدان العربية إلى الغرب يزيد على ١٥٠٠٠٠ من الخبراء في مختلف التخصصات منهم ٢٤٠٠٠ من الحاصلين على درجة الدكتوراه، ومن بينهم ١٧٠٠٠ مهندس، و ٧٥٠٠ طبيب، ٢٠٠ عالم نووي ويتوزع الباقون بين مختلف التخصصات الأكثر رقياً والأكثر تقدماً. وأكد زلزلة في تقريره أن عدد العقول العربية المهاجرة يتزايد كل عام بنسبة تتراوح بين ١٠ ـ ١٥ بالمائة وقدر خسائر الاقتصاد العربي من هذه الهجرة بحوالي مائة مليار دولار.

ولا بد من الاعتراف بأن العالم الإسلامي بالرغم من موارده المتعددة والمتنوعة، وموقعه الجغرافي، وميراثه الثقافي والحضاري يعاني اليوم من مشكلة التخلف على مختلف الأصعدة وأن فجوة التخلف فيه تتسع يوماً بعد يوم، وأن كثيراً من خطط التنمية، والتظاهرات السياسية ومشاريع التفاخر باسم التنمية باءت جميعها بالفشل، ومؤشر الديون التي تأكل الناتج القومي إن بقي هناك ناتج وترهق كاهل المواطن في تأمين حاجاته الأساسية التي يقضي طيلة وقته للحصول عليها لم تعد خافية أيضاً. ونستطيع أن نقول بأن محاولات المعالجة التي قامت لإنهاء المشكلة لم يكتب لها النجاح ولم تستطع حل المعضلة

لعجزها عن تحديد السبب الحقيقي ومن ثم معالجته بما يقتضيه من الوسائل، أو لعدم جرأتها على تحديد السبب لأن ذلك يؤدي إلى مساءلة سياسية في أغلب الأحيان حيث أن الأنظمة السياسية تعتبر هي المسؤول الرئيس عن الحال التي صارت إليها الأمور، لذلك نرى كثيراً من المتخصصين غالباً يحاولون الدوران حول المشكلة وقد يشيرون إليها إشارات بعيدة لكنهم لا يتجرأون على اقتحام الساحة وتحديد الأسباب الحقيقية لأن الثمن سوف يكون غالياً. يضاف إلى ذلك غياب المرتكزات الأساسية لعملية المعالجة وليس النظام السياسي إلا أحد هذه المرتكزات. فالتنمية في حقيقتها عملية حضارية لكونها تشمل مختلف أوجه النشاط في المجتمع بما يحقق رفاهية الإنسان وكرامته، وهي أيضاً بناء للإنسان، وتحرير له وتطوير لكفاءاته وإطلاق لقدراته. كما أنها اكتشاف لموارد المجتمع وتنمية لها وحسن تسخيرها. وتبقى التنمية الثقافية المدروسة هي أساس التنمية وغايتها بالمفهوم الشامل لمعنى الثقافة.

ومن الأمور اللافتة للنظر أن الدول المتخلفة كمثل حالنا لا تزال تتوهم أن التنمية تعني التنمية الاقتصادية وحدها وأن عملية الترقي والتحضر تنحصر في إطارها دون أن تدرك أن التخلف مشكلة متعددة الأبعاد تتفاعل في إيجادها جوانب المجتمع كلها. فالتخلف في مجال الاقتصاد لا يمكن أن يوجد في مجتمع بمفرده متعايشاً مع تقدم سياسي أو ثقافي أو اجتماعي. فكل واحد من هذه الجوانب يكون مقدمة ونتيجة لغيره في وقت واحد والتخلف في جانب مؤشر خلل وفساد في الجوانب الأخرى. من هنا نقول: إن قضية التنمية لا يجوز أن تفهم إلا ضمن إطار اجتماعي وسياسي وثقافي وعقيدي ونفسي وأن مجرد استيراد أو تغيير الهياكل والأشكال الاقتصادية هو تشويه لحقيقة التنمية وعدم إدراك لمفهومها.

وقد تكون المشكلة التي نعاني منها في العالم الإسلامي أن تحليل عمليات التنمية والتحديث تستند غالباً إلى مقولات نظرية طورت على ضوء التجربة التاريخية لمجتمعات تختلف في تركيبها التاريخي والاجتماعي والنفسي عن المجتمع الإسلامي دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصية التي تتميز بها الأمة وأن استيراد الخطط والخبراء لا يغني فتيلاً إذا ما اعتمد عليه بشكل كامل،

فالذين يحاولون استيراد الخطط والخبراء كما يستوردون الطعام والشراب واللباس والدواء والحذاء دون الالتفات إلى خصوصية الأمة لا يزالون يعيشون على الأوهام حيث يمتلكون البصر ويفتقدون البصيرة.

وقد تكون أسوأ أنواع المعالجة استيراد الخبراء من بلاد تعاني التخلف والعجز ولو كان فيهم خير لأنقذوا بلادهم وقد تكون المشكلة في التركيب النفسي والاجتماعي الذي انتهى إليه عالم المسلمين اليوم حيث أنه افتقد الاستقلالية في النظر إلى قضاياه وأصبحت تسيطر عليه التبعية الثقافية والحضارية قبل التبعية الاقتصادية حيث نرى التخلف لا يفترق كثيراً بين دول العالم الإسلامي الغنية والفقيرة إلا إذا اعتبرنا مقياس النمو بكثرة الاستهلاك. فالعالم الإسلامي اليوم يشغل بما يلقى إليه من مشكلات تستنفد طاقاته وتتحكم بحركته بعيداً عن مشكلاته الأساسية، وقد يبدي ويعيد في قضايا كثيرة لا جدوى فيها ولعل هذا من آثار التخلف ذلك أن التخلف يلحق إصابات بالعقل ويجعله عاجزاً عن الإدراك وإن استطاع الإحساس ويحوله عن كل ذي جدوى إلى معارك تستنزف الطاقة وتعطل الانطلاق وبذلك يكون التخلف سبباً ونتيجة في آن واحد. وقد يكون بعض جوانب المشكلة كامناً في التضليل الثقافي الذي يروج له في عالم المسلمين حيث تزيف الحقائق وتضيع الجهات ويحول الإنسان عن الوجهة الصحيحة.

نعود إلى أحد الأسباب الهامة في صناعة مشكلة التخلف وهي هجرة العقول والسواعد من العالم الإسلامي إلى العالم الغربي أوروبا وأمريكا بشكل عام وقد يكون في مقدمة أسباب الهجرة انتهاك حقوق الإنسان وكرامته، والتمكين لأنظمة الاستبداد السياسي في معظم أنحاء العالم الإسلامي واعتماد أهل الثقة والولاء ولو كانوا أميين ومطاردة ومحاصرة أهل الخبرة الذين لا تسمح لهم عقولهم بالتواطؤ على الظلم والسكوت عن الحق وانتهاك كرامة الإنسان. فعوامل الضغط كبيرة في العالم الإسلامي وعوامل الجذب أقوى في أوروبا وأمريكا والغريب حقاً أن بعض الدكاترة الكتاب الذي يعالجون مشكلات التخلف بزعمهم علقوا على إحصائية الأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية الدكتور حسن زلزلة بأن سبب التخلف وهجرة العقول هو

التطرف الديني، وأن معظم المهاجرين نتيجة لذلك كانوا من غير المسلمين.

هكذا يقفز الكاتب من فوق الأسباب الحقيقية كلها ويسقط الحضارة الإسلامية وعطاءها التاريخي لغير المسلمين وعهودها لهم وحقوقهم الكاملة فيها ليعلل أسباب الظاهرة ببعض المظاهر الشاذة هنا وهناك ولو خالف كل عقل ومنطق وتاريخ وواقع.

[٢٨ صفر ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٩/٢٨ م]

دعوة إلى إعادة النظر في قضية الواجب

لعل من الأمور التي جاء التنبه إليها متأخراً على الرغم من أهميتها وضرورتها للمسلمين اليوم قضية الفروض الكفائية وأثرها في بناء الأمة الحضاري.

فلقد استغرقت الثقافة الإسلامية، والفقه الإسلامي مسألة الفروض العينية أحكامها وسننها وواجباتها ومبطلاتها وحكمة تشريعها، ودورها التربوي في حياة الفرد، أما الفروض الكفائية فإذا جاء ذكرها فإنما هي عبارات مجملة وأمثلة ساذجة وبسيطة لدرجة لا تشعر الإنسان بأية مسؤولية تجاهها، طالما هي منوطة بالمجتمع ككل، وليست مسؤوليته كفرد، وبذلك نلقي بالتبعية والمسؤولية على الآخرين.

وكان لهذا الفقه أو لهذه الثقافة ـ إن صح التعبير ـ مخاطرها على المجتمع الإسلامي بشكل عام، حيث ساهمت في تخلفه أو يمكن أن نقول: كرست تخلفه ومكنت لعجزه، وفككت أواصره الاجتماعية.

والمعروف أن الإسلام شرع نوعين من الواجبات، أو فرض نوعين من الفرائض: فرائض عينية، أو ما يسميه الفقهاء فروض العين، وهي: واجبات فردية مرتبطة بكل فرد بذاته لا يخرج من عهدة التكليف والمسؤولية أمام الله، ما لم يؤدها على وجهها الأكمل، بمقدار وسعه لقوله تعالى: ﴿**فاتقوا الله ما**

استطعتم﴾ (التغابن: ١٦) كالصلاة والصوم والحج والزكاة ومعرفة الحلال والحرام وما إلى ذلك من الفروض.

وهذه الفروض وإن كان لها بعد اجتماعي وأثر في ترابط المجتمع وتكافله، تبقى في إطار الواجبات الفردية، من حيث تحديد المسؤولية ابتداءً.

أما الفروض الكفائية فهي واجبات اجتماعية اعتبر المجتمع تجاهها مسؤولاً مسؤولية جماعية تضامنية أي أن المجتمع بالنسبة لهذه الفروض اعتبر كتلة واحدة، ذات مسؤولية جماعية فإذا لم تتحقق هذه الفروض ويكفى المجتمع تلك المهام، فالمسلمون جميعاً آثمون. لذلك عرف الفقهاء فرض الكفاية بأنه: إذا قام من بعض سقط الإثم عن الباقين وإذا لم يقم به أحد أثم الجميع.

ولا بد هنا من التوقف ولو قليلاً عند قولهم: إذا قام به بعض، ذلك أن معنى قام به أي: أداه على الوجه الأكمل قام به: أدى المهمة كاملة، أما إذا كان الأداء منقوصاً، أو لم يؤد على الوجه الأكمل فلا يبرأ المسلمون جميعاً من الإثم.

ولعلي ألمح هنا علاقة متينة بين ما عبر عنه بالفروض الكفائية وما اصطلح عليه بمبدأ الاكتفاء الذاتي بل أستطيع أن أقول: إن معنى الفروض الكفائية مرادف لمبدأ الاكتفاء الذاتي فإذا لم يتحقق الاكتفاء الذاتي للأمة من حاجاتها العلمية والتخصصية والإنتاجية فقد أثم المسلمون جميعاً.

وأمر آخر: إن غياب الحس الديني المطلوب تجاه فروض الكفاية كان ولا يزال وسيلة عطالة وتخلف وتفكيك للمجتمع المسلم. فكثيراً ما يعدل بعض المسلمين عن القيام بفروض الكفاية ويغيب عنه ثوابها ولا يدرك بعدها الشرعي إلى بعض السنن والنوافل والمندوبات لأن حسن الثواب فيها عنده أكثر نمواً.

فالمعروف أن دراسة الطب والهندسة والصيدلة والعلوم والأعمال الأخرى الكثيرة والتخصصات كلها التي لها علاقة بتعمير الأرض تعتبر فروض كفاية من الناحية الشرعية، إذ لا يمكن أن يتصور عقلاً انصراف جميع الأمة إلى واحد من هذه الاختصاصات فلا بد أن تنفر طائفة لعلم الطب وأخرى لعلم

الهندسة وثالثة للرياضيات وهكذا بالقدر المخطط الذي يكفي الأمة فلو قدرنا مثلاً أن بلداً ما لا تكون فيه الصحة العامة موفورة ما لم يتوافر له مائة طبيب يصبح من الناحية الشرعية توفير المائة طبيب فرضاً على المجتمع وإذا توافر أقل من ذلك أثم المسلمون جميعاً ذلك أن العدد الأقل لا يقوم بالأداء كاملاً، ولا تبرأ ذمة الأمة ما لم توفر هذا العدد المطلوب وهكذا سائر التخصصات إضافة إلى أن الذي اختار دراسة الطب والهندسة لم يعد الأمر بالنسبة له فرض كفاية، لقد أصبحت هذه الدراسة بالنسبة له فرض عين وإن كانت لا تزال بالنسبة للأمة فرض كفاية.

ولقد كان لبعض فقهائنا نظرات متقدمة في هذا الموضوع عندما قرروا أن فروض الكفاية مقدمة على فروض العين لأن مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد.

لكن المشكلة التي يعاني منها العقل المسلم اليوم، والتي جاءت ثمرة لأنظمة التعليم القاصرة باعتبار أن هذه الدراسات بعيدة عن مناخ الدين والدعوة، لأنها أنشئت في مناخ علماني ابتداء فترى المتدين وإن اختار بعض هذه التخصصات لسبب أو لآخر يشعر دائماً بعقدة الذنب الداخلي لأنه لم يختر العلوم الشرعية أو اللغوية الخادمة لها.

إن غياب الحس الديني عن أجواء هذه التخصصات أوقع المسلم في تلك المضاعفات لدرجة قد يعدل عن المتابعة فيها في سبيل التفرغ للدعوة أو العمل للإسلام.

وما درى أن العمل للإسلام والدعوة إليه إنما يكون بالنبوغ في هذه التخصصات وإتقان العمل وأداء الواجب تجاه الأمة.

وهناك وجه آخر لهذا التصور المحزن وهو أن عدم الحس الديني بفروض الكفاية بالقدر المطلوب أوقع المسلمين في نمو النزعات الفردية وغياب العمل المجتمعي وانفصال بين الدين والحياة عملياً وإن كنا نرفضه نظرياً ذلك أن العدول عن علم وسائل تعمير الأرض وإقامة الحضارة إلى بعض الواجبات التعبدية وظن ذلك ليس من العبادة أمر على غاية الخطورة.

والمؤسف أن رؤية آفاق الفروض الكفائية محدود عند مسلمي اليوم فكثير منهم لا يرى من فروض الكفاية ولا يمثل لها إلا بالجنائز وكأن الأمة كلها أصبحت في حالة موت كما يقول بعض علمائنا.

وبعد: فلقد رأيت ضرورة أن أعرض لهذا المعنى الذي كاد يشكل وباء اجتماعياً على أثر مشاهدة آلمتني كثيراً فلقد رأيت أحد الأطباء في أحد البلاد الإسلامية ويبدو أنه رجل فاضل متدين وكان مناوباً والمرضى يقفون على بابه وينتظرون استدعاءهم وبعضهم يتألم، وبعد أن طال الانتظار نسبياً، دفعتني الرغبة إلى التعرف على سبب انشغاله عنهم الذي يحول بينه وبين أداء فرضه الكفائي (العيني) وواجبه المهني والوظيفي فرأيته مشغولاً بقراءة كتاب إسلامي!! وهكذا حالنا اليوم تجاه الواجب والمسؤولية الجماعية فكيف والحالة هذه نأمل في النهوض؟.

[٢٤ ذو الحجة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٧/٢٧ م]

إنما بعثت معلماً

مما لا شك فيه أن العلم هو طريق ارتقاء الأمم، وبناء الحضارة، وتعمير الأرض، وأن الجهل والأمية وباء اجتماعي يعوق الأمم عن التقدم والإنجاز والإبداع، ويعطل قدرات الإنسان ويلغي دوره، ولئن غابت هذه الحقيقة عن كثير من الأمم ردحاً من الزمن ولم تتنبه لها إلا مؤخراً فإن الأمة الإسلامية ترافقت خطواتها الأولى مع أبجديات العلم وكانت القراءة مفتاح الدين، وطريق الإيمان، وكان من نعم الله وكرمه أن خلق قابليات التعلم عند الإنسان، يقول تعالى: ﴿**اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم**﴾. (العلق: ٣ - ٥).

فمن كرم الله سبحانه على الأمم حيازة العلم والارتقاء به وحسبنا أن نقول بأن الأمة المسلمة تشكلت من خلال كتاب وبنت حضارتها من خلال القراءة والتعلم، حتى أن طلب العلم اعتبر فريضة دينية مقدمة على عبادة النافلة بل هو عبادة مفروضة كسائر العبادات، يقول الرسول ﷺ: «**طلب العلم فريضة على كل مسلم، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة**» وكان المسجد المؤسسة الأولى في الإسلام دار علم وعبادة، فلا عبادة بدون علم.

ولعل في كيفية بدء الوحي بعض الإيماءات والمؤشرات الأساسية إلى أهمية القراءة والتعلم وأنهما الطريق الأوحد للارتقاء والشهود الحضاري. فإلى جانب أن أول ما بدأ به الوحي فعل «اقرأ» حيث أن الوحي لم ينزل بذهب

وفضة لشراء هداية الناس. ولم ينزل بسلاح لإرهاب الناس وإكراههم على التدين، وإنما نزل بالتعليم وأداته، والإصرار على طريقه، الذي لا طريق للدين الخاتم سواه لذلك فعندما قال الرسول ﷺ: «ما أنا بقارىء» لم يعدل عنه الوحي، ويرضى بواقعه الأمي، فالرسول ﷺ يقول: «فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد فأرسلني وقال: اقرأ».

هذه الحادثة التي سجلت أول اتصال للسماء بالأرض للدين الجديد تدل دلالة واضحة على طريق الدين، فلا سبيل إلى الالتزام به بدون علم وقراءة، وتعلم، ولا سبيل إلى القراءة إلا بالجهد والمعاناة، لذلك يمكن لنا أن نقول: بأن الإقلاع التعليمي الإسلامي بدأ من غار حراء ليمتد في أنحاء مكة والمدينة كتابة للوحي وحفظاً له وتعلماً للعبادة والأخلاق، ويعم الجزيرة مهد الوحي وينتشر مع انتشار الدين في الدنيا كلها.

فالرسول ﷺ بُعث معلماً يقول ﷺ: «إنما بُعثت معلماً». ويقول الله تعالى مبيناً مهمة النبوة ودورها في محو الأمية: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ (الجمعة: ٢). فالتزكية تربية والحكمة هدف العلم وفلسفته، والقراءة وسيلة إلى التربية والحكمة، فالخير في العالم والمتعلم ولا خير في سواهما.

لذلك رأينا تنبه المسلمين المبكر إلى أهمية العلم والتربية من الناحية التطبيقية فكان التعلم في مراحل الإسلام الأولى له المكانة الأسمى فلقد جعل الرسول ﷺ فكاك أسرى بدر بتعليم أبناء المسلمين وجعل فضل العالم على العابد كفضل الرسول على أدنى البشر كما جعل خشية الله منوطة بالاستزادة من اكتساب المعارف. ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

ومهما طال بنا الحديث عن أهمية التنمية ومجاوزة التخلف وردم الفجوة التي أصبنا بها نتيجة التفريط في تعزيز المؤسسات العلمية والتربوية فلن يغني ذلك عنا شيئاً إذا لم نضع المسألة التربوية والتعليمية على رأس اهتماماتنا وما لم

نبويء المعلم من الناحية العملية المرتبة الأولى. فالتربية والتعليم هما التنمية الحقيقية وبدونهما لا تتحقق تنمية ولا يكون نهوض.

والحالة التي عليها المعلم في عالمنا الإسلامي لا يحسد عليها ومرتبته ورواتبه وقيمته الاجتماعية في انحدار، ولم تعد المهنة تغري اليوم إلا أصحاب البضائع الكاسدة والمواهب المحدودة التي لا تجد سبيلاً آخر غير سبيل التعليم. أما أصحاب المواهب والقدرات المتفوقة فمعظمهم لا يقاربون المؤسسة التعليمية اليوم بعد الحال التي صارت إليها. والمعلم افتقد مكانته في المجتمع الذي يعمل على تغييره وفي نظر الطالب الذي يعمل على تزكيته وتعليمه، وترسبت هذه النظرة عند طلابنا من تهوين المجتمع لشأن المعلم. فلا نستغرب بعد هذا أن يجيء الإنتاج رديئاً ويزداد تردياً ولا شك أن بعض المتنسبين إلى مهنة التعليم ساهموا بتكريس هذه النظرة إلى المعلم وذلك بإقدامهم على بعض المسالك التي تجرح الكرامة وتسقط المهابة وتؤذي الذوق «ولو أن أهل العلم صانوه صانهم» ومع ذلك نرى أنه لا بد من تدارك المؤسسات التربوية والتعليمية قبل السقوط فهي الموقع الأكثر فاعلية وجدوى وأهمية في جدول أولويات الأمم المتقدمة منها والمتخلفة فقد يكون الدعم التعليمي متقدماً على الدعم الغذائي والدعم الصحي والدعم الخيري فالدعم التعليمي هو دعم صحي وسياسي واقتصادي وغذائي هو علاج لكل أمراضنا مجتمعة.

والتعليم مسؤولية جماعية ولعل دور الأسرة التي تزرع فيها بذور الشخصية الأولى ويتعلم الطفل منها الأسس التي تبنى عليها مستقبل حياته التربوية والتعليمية هي المؤسسة الأكثر أهمية. فدور الأسرة هام وأساسي في خلق الاهتمام وإيجاد القابلية وتحضير المناخ المناسب.

ودور وسائل الإعلام التي تسيطر على عقل الطفل وتثير اهتمامه في الاتجاه الذي تريد يزداد خطراً يوماً بعد يوم فإلى أي مدى تساهم وسائل الإعلام في معالجة المشكلات ورعاية القابليات وتنمية الخبرات وإعداد برامجها المختلفة في ضوء المناهج التعليمية لتكون وسائل معينة ومساندة وذلك بتقديم نماذج من المخترعين، والمبدعين، والمتفوقين، تغري بهم وبسلوكهم من خلال

المواد الإعلامية المختلفة والمتنوعة. فكثيرة هي القضايا التي يعاني منها الجيل ولا بد من معالجتها بشتى الوسائل ولعل وسائل الإعلام بما تمتلك من أدوات الإغراء وألوان الخطاب المتعددة إلى جانب تحلل الطالب من قيود وضوابط قاعات الدرس الصارمة هي الأقدر على معالجة مشكلاته ورعاية قابلياته وتوجيه اهتماماته وإغرائه بالكسب العلمي وتبصير الأسرة بدورها والمعلم برسالته والطالب بواجبه وربط ذلك كله بالمعاني الكبيرة التي تعوض المعلم عن جهده وجهاده.

فالتعليم يجب أن يكون مستمراً بوسائل متنوعة، فالأسرة والمسجد ووسائل الإعلام حلقات متواصلة للتربية والتعليم وأي اهتزاز أو ضلال أو خيانة في واحدة منها يساهم في تخريب العملية التعليمية. فالمناخ الأسري الخرب يقتل قابليات التعلم عند الطفل والصراع بين الآباء والأمهات يصيب الطفل بقلق وتمزق يحول بينه وبين الاستيعاب العلمي. والمسجد الذي تضيع منه رسالته يفتقد جوه التربوي والتعليمي وينقلب إلى مؤسسة محنطة لا تساهم بشيء من عمليات التربية والتعليم فإذا وصل إليه بعض الجهلة جعلوا فيه العلم مقابل الدين وقد يحذرون من التعلم ويعتبرونه مفسدة للخلق.

ووسائل الإعلام التي تغتال الوقت فيما لا طائل تحته تدمر الجيل وتحول اهتماماته وتنمي غرائزه بدل أن تهذبها وتجعل منه جيلاً استهلاكياً لا يحوز على اهتمامه إلا التوافه. لذلك لا بد أن ينخرط الجميع في العملية التربوية ويتم التساند بين الأسرة والمسجد والمدرسة ووسيلة الإعلام وقد يكون المطلوب أكثر من تخصيص فترات من البث الإعلامي لإعادة طرح الدروس نفسها لكن على شاشة التليفزيون، حيث لا بد من النزول إلى المعاهد والمدارس والمؤسسات التعليمية والتعرف على المشكلات الثقافية والتربوية التي يعاني منها الجيل ومن ثم إقامة الندوات والحوارات، واستضافة الآباء والمعلمين والمشرفين على العملية التربوية وتقديم وتبادل وجهات النظر وخلق الاهتمامات، وقد يمتد هذا ويمتد ليشمل معظم الفقرات الإعلامية فليست المعالجة المباشرة هي الوسيلة الوحيدة وقد أصبحت اليوم الوسيلة الأكثر تخلفاً فتحقيق الأهداف يمكن أن يتحقق بأكثر من طريق ابتداء من برامج الصور المتحركة للأطفال

وانتهاء بالأفلام والمسلسلات والمحاضرات والندوات وسائر الفقرات الإعلامية فهل نتنبه إلى مسؤوليتنا الكبيرة تجاه الجيل وقد بدأ عام دراسي جديد ونستمع إلى قول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» متفق عليه.

[٢١ صفر ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٩/٢١ م]

امْتِلاكُ القُدْرَة
علَى الحِوَارْ

١٦١٩/٨

﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾

العالم كله اليوم يتجه إلى تأسيس وتأصيل لغة الحوار، وإيجاد الصيغ المشتركة والأعمال المشتركة التي يسهم فيها الجميع، حيث بدأ عصر الدولة العالمية، سواء كان ذلك في المجال الإعلامي، أو المجالات الاقتصادية والسياسية والثقافية، فلقد أزيلت الحدود وسقطت السدود وبدأت كثير من الدول والأفراد تعيد النظر في سياستها، وثقافاتها، في محاولة للارتقاء إلى الموقع العالمي، والخطاب الإنساني. الأمر الذي يتيح لنا ـ نحن المسلمين أصحاب الخطاب العالمي والرسالة الإنسانية منذ أربعة عشر قرناً عندما كان العالم يتآكل بالقوميات والقبليات والإقليميات ـ فرصاً نادرة بسبب سنة التدافع البشري، وذلك لو أحسنا اغتنام الظرف، والتقاط اللحظات المناسبة، وأمكننا الارتفاع فوق الظروف التي تحكمنا، والواقع الذي يشدنا، والكثير من التفاهات التي تشغلنا، والصراعات السخيفة التي تستنزف طاقاتنا، والمزايدات السياسية، التي ما تزال بضاعتها رائجة في أسواقنا على الرغم من أننا نمتلك من القواسم المشتركة والقيم الهادية إلى الحوار والداعية إليه، ما لا تمتلكه أية أمة من الأمم، سواء كان ذلك على مستوى الداخل الإسلامي، أو على مستوى التعامل مع الخارج الإسلامي، حيث شعار النبوة الخالد: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾** (آل عمران: ٦٤) وميثاقه الدائم **﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾** (النحل: ١٢٥) **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾** (العنكبوت: ٤٦).

نقول هذا في الوقت الذي أصبحت تعقد فيه قمم للحوار أكثر من أن تعقد لصنع القرار يلتقي فيها العالم من أقصى اليمين الرأسمالي إلى أقصى اليسار الماركسي في محاولة لإيجاد لغة مشتركة للحوار، وصيغ مشتركة للعمل الحضاري ويعاد ترتيب العالم في ضوء التجارب والممارسات السابقة، ولا نزال نحن العرب المسلمين نعيش خارج التاريخ والواقع، الأمر الذي يستتبع بالضرورة أن نصبح خارج المستقبل أيضاً، ولا تزال لغة التعامل بيننا تتطلب الكثير من الصدق، والتعقل، وأدب الحوار، والخلاف، حيث لا نزال نعيش مرحلة الطفولة البشرية في عصر يقوده ويسوده العمالقة والأذكياء ولا تزال لغة الاتهام والإدانة بالخيانة والعمالة على المستوى الوطني، والكفر والفسوق والإلحاد والتطرف والتشدد والتحلل على المستوى الديني، هي اللغة السائدة والأكثر استعمالاً في قاموسنا اليومي.

ولو تتبعنا ما يكتب وينشر من ألفاظ تتهم الخصوم بالخيانة والعمالة لإسرائيل أو أمريكا أو الاتحاد السوفييتي في أدبيات العالم العربي والإسلامي ووسائل إعلاميه خلال نصف قرن لأمكننا القول: إذا صدقنا بعض هذا فإنه لم يبق على الأرض العربية والإسلامية رجل نظيف خال من الاتهام بشكل أو بآخر.

ولعل من أخطر الاتهامات المعاصرة ما بدأ يتسلل إلى الصفوف فيمزقها لمصلحة العدو ويغتال جهاد المجاهدين في قطاعات الجهاد الأفغاني وفصائل العمل الفلسطيني وكتائب المجاهدين في الفلبين وأريتريا وغيرهما من المواقع العربية والإسلامية، هذا عدا التراشق بالتهم بين الأنظمة والتنظيمات السياسية الأمر الذي لم ينج منه حتى العاملون في الحقل الإسلامي.

وهذه الاتهامات المتبادلة ليست جديدة على القاموس السياسي العربي ولا على الذهنية العربية الإسلامية لكن الجديد فيها أننا كنا نظن أن الجراحات التاريخية والانكسارات والتراجعات والنكبات المستمرة خاصة في قضية الأمة المحورية في فلسطين كافية لأن تعيدنا إلى صوابنا أو تعيد صوابنا إلينا، وأن التعقل والصدق بدأ يأخذ طريقه إلى حياتنا بعد هذه الإصابات الموجعة والجراحات النازفة واختفت من خطابنا اليومي نغمات الإدانة والخيانة

والعمالة والتبعية والمزايدات السياسية التي أصبحت لا تصرف شيئاً في السوق العربية رغم إصرار بعضنا على الاستمرار فيها، وإن العبرة اليوم أصبحت بالعمل والعمل الصامت.

وإن حالة الطفولة التي تظن أن الصراخ والبكاء والندب والسب والشتم هي وسيلة الضغط والحصول على الحاجات قد انتهت بشيء من التمييز والرشد، كنا نظن اختفاء نغمة: إن الطريق إلى فلسطين يجب أن تمر من فوق جثة فلان أو فلان فمر العدو من فوقنا جميعاً دون أي دليل على صدق ما ندعيه.

كنا نظن أننا بدأنا ندرك أننا جميعاً مستهمون في مركب واحد وإن أصاب بعضنا أعلاه وأصاب الآخرون أدناه، وأن أي خرق في المركب سيغرقنا جميعاً خاصة أن العمالة لإسرائيل أو التعامل معها الذي يحاول بعضنا اليوم أن يرمي بها الآخرين لم تعد اليوم تشكل تهمة بل هي عند بعضهم تعقل وواقعية سياسية بل أصبح يستميت ليحصل على قبول إسرائيل التعامل معه حتى وصلت القضية إلى مراحل التذلل والإذلال.

لقد كانت المشكلة خلال نصف قرن اعتراف الدول العربية بإسرائيل فأصبحت المشكلة اليوم اعتراف إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني ومنظمة التحرير ولا ندري ماذ يخبىء المستقبل وتخبىء لنا بعض القيادات الحكيمة جداً في ملفاتها السرية؟ والتي لا تتورع عن اتهام الآخرين.

ولا بد أن نعترف: إننا في كل الظروف كنا الأقدر على قتال بعضنا وإدانة بعضنا واتهام بعضنا وإسرائيل تعلم هذا تماماً وتبني سياستها ومخططاتها على ذلك، هذا إن لم نقل: إن الذراع الإسرائيلية هي التي تصنع هذا وتمكن له.

اليهود اليوم يستقبلون المهاجرين من كل أنحاء العالم وخاصة الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية، وفي بعض أنحاء عالمنا نهجر الطاقات ونطارد ونحاصر الخبرات ونتهمها بشتى التهم. اليهود يحاولون البحث عن أصولهم وقبائلهم المندثرة في شتات القارة الهندية وغيرها، ويغزون أفريقيا بالخبرة والمال

ونحن نتهم أقرب الناس إلينا الذين يقفون على ثغور القتال، وبعض ساستنا يجهدون أنفسهم لإقناع الاتحاد السوفييتي بإيقاف الهجرة وإقناع دول أوروبا الغربية باستيعاب المهاجرين حتى لا يصلوا إلى فلسطين.

اليهود بدأوا جهوداً كبرى لشراء صحف ومحطات إذاعة وتليفزيون في دول أوروبا الشرقية واستغلال مناخ الانفتاح السياسي والاقتصادي لركوب الموجة واستثمار رؤوس الأموال في شراء الصحف والمجلات والأجهزة الإعلامية لملء الفراغ وبدء مرحلة التحكم في أوروبا الشرقية ليحكموا الطوق على العالم كله.

وبعض أصحاب المال من العرب والمسلمين الذين طمس الله على أموالهم فهم ينفقونها في الترف والمعاصي والفسق والفجور وعلى أحسن الأحوال يضعونها في بناء الحجارة أو المساعدات الاستهلاكية لأنهم لم يدركوا بعد مسؤوليتهم تجاه أمتهم والعالم، فيختاروا لها الموقع المؤثر.

[٢٠ و ٢١ ذو الحجة ١٤١٠ هـ - ١٢ و ١٣/٦/١٩٩٠ م]

هل تكون الدعوة للإبراهيمية الوجه الجديد للماسونية؟

لقد طرح على الساحة الفكرية ولا يزال كثير من الدعوات والمصطلحات التي حاولت مطاردة المسلمين وإخراجهم عن عقيدة التوحيد تحت شعارات الإنسانية والعدل والسلام بين الأمم والشعوب والأديان..
وليست قضية الدعوة إلى الحوار بين الحضارات أو الحوار بين الأديان، أو إحياء الإبراهيمية اليوم، أو تكوين جبهة إيمان ضد الكفر والإلحاد والشيوعية، بدعوة أن دين الله واحد ولا بد أن يلتقي المؤمنون مهما كانت طبيعة إيمانهم بالأمر الجديد ولا المستحدث ويبقى المطلوب دائماً توظيف الإسلام لمحاربة الشيوعية فقط.

ولقد سبقت هذه الدعوات في عالم المسلمين.. دعوات إلى إسقاط، الإيمان والأديان، لأن الدين في زعمهم أداة للتعصب، وتفريق الشعوب والأمم، ولا بد من إيجاد البديل الذي يقوم على المحبة والأخوة والسلام بين الشعوب، ومحاصرة الدين وفصله عن الحياة ليبقى علاقة سلبية بين الفرد وربه.. فالدين لله والوطن للجميع، ولا شك أن الأيدي الخفية والسياسات العالمية والمحافل السرية وضحاياها في العالم الإسلامي من الساسة والكتّاب أصبحت غير خافية إلا على البسطاء من الناس..

واليوم يتجدد العدوان على عقيدة التوحيد وتستبدل الدعوة إلى الإبراهيمية بعد أن انكشفت أوراق الماسونية تماماً لتأخذ شكلاً أكثر جاذبية وخفاء. تستبدل بالدعوة الماسونية فالدعوة إلى الإبراهيمية وهي الماسونية

بثوبها الجديد تطلب اليوم عقد حوار بين الأديان الثلاثة اليهودية والنصرانية والإسلام..

والأمر الذي نحب أن نوضحه هنا أن العلاقة مع أهل الكتاب من يهود ونصارى كانت على مدى التاريخ الإسلامي علاقة حوار ومجادلة بالتي هي أحسن: قال تعالى:

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن...﴾ (العنكبوت: ٤٦) لا علاقة قتال ومواجهة، ولقد شرع هذا الحوار القرآن الكريم حيث عرض لمعتقداتهم وناقشها، ونهاهم عن لي ألسنتهم وإخفائهم لكثير من الكتاب ابتغاء العوج والالتواء والقول على الله غير الحق، وأغراهم بالإيمان بالدين الجديد.. وباشر الرسول ﷺ هذا الحوار بنفسه فأرسل الكتب إلى المقوقس في مصر وهرقل عظيم الروم واستقبل وفودهم ودعاهم إلى كلمة سواء: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران: ٦٤) يلتقي عليها الجميع.. ومن ثم طلب إليهم المباهلة.. وأرسل المهاجرين الأوائل إلى الحبشة وكان أن أسلم النجاشي ومعه كثير من القساوسة والرهبان.. ونزل في شأنهم قرآن يتلى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ (المائدة: ٨٢).

إن الإسلام قبل النصارى واليهود في مجتمعه مواطنين واعترف لهم بحقوقهم على الرغم من كفرهم بعقيدته ودينه. وأقام لهم من الحقوق ما يوازي حقوق المسلمين: حتى ليمكننا القول بأن حفظ حقوقهم في بعض فترات التاريخ الإسلامي كان مقدماً على حفظ حقوق المسلمين: فهم ذمة الله وذمة رسوله، في الوقت الذي نرى فيه اليوم أن كثيراً من «العقائديين» التقدميين الذين يروجون للانسلاخ من الدين لا يطيقون مجرد الوجود لغيرهم ويسعون إلى التصفيات الجسدية في ذات الوقت الذي يهاجمون الإسلام ويتهمونه بأنه يغمط حقوق الآخرين، أليس قبولهم في مجتمع المسلمين يعني الاعتراف بهم

واستمرار الحوار معهم؟ خاصة وأن الإسلام دين إنساني لا يخص جنساً أو لوناً أو قوماً، وأن خطابه كان للناس عامة، فليس أمر الانغلاق وعدم الحوار والتوقف عن الدعوة والبلاغ للناس من طبيعته.

فالدعوة إلى الحوار ليست جديدة ولا مبتدعة لكن المشكلة اليوم أنها تتم على حساب الإسلام.. والمسلمون وحدهم هم الخاسرون.. كما كانت دائماً الدعوات الإقليمية والقومية والوطنية أقنعة مارستها بعض الأقليات لإقصاء الإسلام عن الساحة. إن المشكلة اليوم في إسقاط ذلك الرصيد التاريخي في الحوار مع أهل الكتاب..

فالدعوة إلى إحياء الإبراهيمية يخشى أن تكون الصورة الحديثة للماسونية التي تهدف إلى إسقاط الإسلام خاصة وأن سيدنا إبراهيم أول من أسس بنيانه على التقوى وأصل عقيدة التوحيد وأقام عليها القواعد من البيت الذي يحج إليه المسلم ويستمر في موالاته قال تعالى:

﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ (آل عمران: ٦٧)، وإن الإبراهيمية هي الإسلام والدعوة إليها دعوة إلى الالتزام بالإسلام، فالرسول ﷺ جاء بالحنيفية السمحة كما أسلفنا وعرف دعوته بأنها **﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل...﴾** (الحج: ٧٨).

فالحوار دائم ومطلوب، لكنه يجب أن يتم من خلال المواقع الإسلامية الصلبة وليس على حساب الإسلام كما هو الشأن اليوم.

[١٠ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ - ٢٠/١٠/١٩٨٨ م]

الإعلام من أقوى أسلحة العصر

إن عملية البلاغ والقيام بمهمة الأنبياء ليست من السهولة بالقدر الذي يتراءى لبعض الناس خاصة في هذا الوقت الذي أصبح فيه الإعلام أقوى الأسلحة التي تمتلكها الدول وتحرص عليها وتتسابق في ميدانها، والتي يمكن أن تكون أشد فتكاً من أسلحة الدمار والتدمير كافة، ذلك أن الإعلام لم يكتف بعمليات التضليل وقلب الحقائق إلى أباطيل وإنما تجاوز ذلك إلى مرحلة زرع الاهتمامات وإعادة صياغة الإنسان.

لقد أصبح فناً خطيراً وظف الكثير من العلوم لخدمته سواء في ذلك العلوم والدراسات الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع.. أو العلوم والدراسات التجريبية حيث أصبحت التكنولوجيا كلها في خدمته تقريباً.. ونحن لا نزال نرى عملية البلاغ المبين بوسائلها البسيطة والساذجة وأنها من الأمور السهلة التي لا يميل إليها إلا من يؤثرون الراحة ويفرون من المسؤولية والتضحية.. وقد يفهمها بعض المسلمين فهماً ساذجاً بسيطاً لا تزيد أبعاده عن ارتداء لباس معين والخروج والنوم في العراء في هذا العصر الإعلامي المعقد.

فإذا عرفنا أن علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من العلوم جاءت تاريخياً ثمرة لعمليات التنصير، حيث كان لا بد للمنصرين من المعرفة المسبقة بعادات ونفسيات الأمم التي يمارسون عليها عملية التنصير، وعرفنا

الخلفية الحقيقية لعمليات الاستشراق التي كانت تدرس مكونات الشعوب وثقافتها وعقائدها وتراثها ومسارها الحضاري ذلك أن المستشرقين ينتجون المواد والمنصرين يسوقونها ويمارسون عملهم على أساسها وحسبنا أن نقول: إن كثيراً من دراساتهم لا تزال إلى الآن مرجعاً لكثير من باحثينا لفقر المكتبة الإسلامية إلى أبحاث ناضجة في هذا المجال ومع ذلك لا نزال نعتقد أن عملية البلاغ التي ابتعث من أجلها الرسل عليهم الصلاة والسلام عملية بسيطة.. وكثير منا لا يقدر عليها ويحاول القفز من فوق السنن ويظن أن عملية التغلب على الخصم إنما تتم بشدخ رأسه والقضاء عليه، بينما منهج النبوة والدنيا من حولنا تمارس تغييره من الداخل.

أين يمكننا أن نصنف صورة واقع عملية البلاغ اليوم التي ابتعث من أجلها الرسل، ونيطت بمن يسيرون على دربهم من المسلمين من صورة الإعلام العالمي بكل طاغوته وطغيانه والمراحل التي قطعها صوب الإنسان حتى أوقعه في أسره والوسائل المتخلفة التي نمارسها نحن المسلمين ويحلو لبعضنا أن يطلق عليه تسمية «الإعلام الإسلامي» وكأن هذه الصورة الهزيلة والبدائية المتخلفة هي الإعلام الإسلامي والبلاغ المبين التي أرادها الله للسائرين على طريقه وقد تكون الخطوة كبيرة والآثار خطيرة أن نأتي لصور من تخلفنا ونفصل عليها أثواباً ونرفع فوقها عناوين وشعارات لتصبح هي الإسلام.

والحقيقة إننا لا نزال دون سوية خطاب التكليف في قضية البلاغ المبين التي مضى على التكليف بها أربعة عشر قرناً وتخلفنا فيها لا يغتفر وإن الكثير منا عدل عنها أو هون من شأنها ظناً منه أن بإمكانه القفز من فوقها..

[١ شوال ١٤٠٩ هـ - ٦/٥/١٩٨٩ م]

صناعة التطرف

لا نأتي بجديد عندما نقول: بأن الإسلام دين الرحمة بالعالمين وأن الرحمة هي الغاية التي من أجلها جاء ابتعاث الرسول ﷺ، يقول تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ومن مقتضيات ذلك إدانة التطرف والتعصب والحقد وكل مسالك التشدد والضيق والحرج ومباركة أخلاق اليسر والسماحة والرسول ﷺ يقول: «**إنما بعثت بالحنيفية السمحة**» ويقول: «بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا» حتى أنه أسمى من يطيل الصلاة حتى يلحق المشقة بالناس منفراً وفتاناً، فالمشقة في الإسلام تجلب التيسير وإن مع العسر يسرا، ولن يغلب عسر يسرين والمسلم الحق هو الذي يحتمل الأذى في سبيل الله ويغلب عليه خلق الهداية والاحتساب على مسالك الجباية والاكتساب، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما عليها، والتدين كله مبني على الاختيار لذلك لا يمكن بحال من الأحوال أن تبني وسائل التشدد والقهر والإكراه ديناً وهذه حقائق ما أظنها تغيب عن بسطاء المسلمين ولنا في حياة الرسول القدوة ﷺ الأسوة الحسنة.

فقد أوذي من قومه أشد الأذى ومع ذلك لم يرض بإلحاق العذاب والعقاب بهم بل قال: عسى أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً ويوم فتح مكة حيث الانتصار الكبير عندما دانت مكة والجزيرة العربية للإسلام وأراد بعض الصحابة معاقبة رؤوس الكفر الذين وقفوا في وجه الدعوة وقال اليوم يوم الملحمة، أعاد الرسول ﷺ الأمور إلى نصابها

ومنطلقها الإسلامي بقوله: اليوم يوم المرحمة ذلك أن النبوة شيء والملك شيء آخر وهذه أخلاق النبوة.

نقول هذا الكلام في الوقت الذي نقرر فيه أن التطرف والتشدد ليس من الإسلام وأنه في أحيان كثيرة بل في الأحيان كلها من صناعة أعداء الإسلام وأنه سوف يصب في مصلحتهم في نهاية المطاف وأن من وسائلهم أن يحرضوا بعضاً من المسلمين ليخرجوهم عن جادة الصواب وموازين العدل والحق. ولا بد من الاعتراف بأن أعداء الإسلام استطاعوا إلى حدٍ ما تشويه الصورة الإسلامية وذلك بصناعة نماذج تشكل لهم وسائل إيضاح للتنفير من الصورة الإسلامية.

وإن الإعلام المعادي استطاع أن يزرع مصطلح التطرف في عالم المسلمين ويجعل منه سلاحاً يشهر وقت اللزوم يدمغ به كل مظهر أو سلوك أو توجه نحو الإسلام لشل حركة الدعوة إلى الله ومحاصرتها وتحنيط الدعاة وإقامة الحواجز النفسية بينهم وبين الناس وإشاعة جو من الرعب والتخويف من الانتماء إلى أي نشاط إسلامي إلى درجة استقر معها هذا المصطلح في شعور كثير من بسطاء المسلمين الذين وقعوا ضحايا الإعلام المعادي للإسلام واقتصر دورهم على قراءة وترداد ما يكتب لهم ويعرض عليهم فأصبحوا ينظرون بارتياب إلى كل من يدعو إلى الله دون الرغبة في مناقشة ما يدعو إليه وعرضه على ميزان الإسلام لمعرفة الحق من الباطل.

ونحن لا نريد الدفاع عن الخطأ ولا حماية الخطأ بل نجمع على إدانته، فشريعة الله واضحة بينة وميزانه قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والرسول ﷺ يقول: «كل شيء ليس عليه أمرنا فهو رد» لكن على طريق نشر الدعوة والحكم على الأعمال والتصرفات لا بد من عملية الوعي والتصنيف في الحوار والمواجهة واتخاذ المواقف، وممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد يكون هناك خطأ من بعض العاملين للإسلام لسبب أو لآخر والوقوع في الخطأ والتشدد والغلو محتمل منذ فجر الدعوة والتصويب دائم ومستمر منذ فجر الدعوة كذلك والرسول ﷺ قال للشباب الذين أخذوا أنفسهم بأكثر من الاعتدال ظناً منهم فعل الخير أو الاستزادة منه: «من رغب عن سنتي فليس

مني»، لكن الخطورة كل الخطورة أن نسوي بين الخطأ والانحراف فهناك عاملون مخطئون وهنا أعداء منحرفون ديدنهم مطاردة الشباب المسلم وتضخيم أخطائه والإغراء به والتخويف منه لقتل روح الفاعلية الإسلامية في نفسه وهم أبعد ما يكونون عن الإسلام والشباب المسلم من أنظف الناس سلوكاً وأعلاهم أخلاقاً وأكثرهم وطنية وأشدهم على أعداء الدين والوطن ومواجهة الاستعمار هم المصلون في المساجد القارئون لكتاب الله حماة القيم عدة السلم وعتاد الحرب.

وكثير من الذين يتهمون الشباب بالتطرف من أصحاب الانتماءات الأخرى وراءهم تاريخ أسود لا يشرف من القمع والاضطهاد ومطاردة الخصوم وإلغاء المخالفين لهم بوجهات النظر، إنهم مصابون بالعور العقلي لا يذكرون ما فعل رفاقهم في المذابح الكثيرة. ولا بد من أن نذكر بأن مصطلحات التطرف والتزمت والتعصب التي تشاع في مجتمعات المسلمين هي أشبه بالألغام التي زرعت في أرض الصحوة الإسلامية لتفجر بكل سائر على الطريق.

لقد أصبح من التطرف اليوم أن نسمي الإنسان باسم إسلامي وأن يمارس الوالد لولده عملية الختان وأن يقيم الإنسان الصلاة وأن يتجنب الحرام وأن يلتزم بإسلامه ويحن إليه. ومن التطرف أن يكون للشاب لحية اقتداء برسول الله ﷺ ومن التطرف والرجعية أن تلتزم المرأة باللباس الساتر في الجامعة ولو بلغت أرقى المستويات العلمية. إنها مشكلة العور العقلي التي تمنع من رؤية الخير التي أصيب بها أعداء هذا الدين.

وقد تكون القضية الهامة أن الكثير من الكتاب والصحفيين الذين يدندنون بالأمر يحاولون تخريب المجتمعات الإسلامية وذلك بنقل المشكلة وتعميمها على المجتمعات كلها وعلى العاملين كلهم والكثير من المجتمعات لا تعاني من هذه المشكلات أصلاً إنهم يستوردون المشكلة ليزرعوها في أرض بعيدة عنها ليثيروا البلبلة في أوساط الأمة الآمنة المتماسكة ويخربوها من الداخل. إنها صناعة أصبحت لا بد منها للأكل على موائد أعداء هذا الدين.

[١٦ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٦/٣٠ م]

﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾

لقد حمل القرآن بين دفتيه الشهود التاريخي، بما قص من أخبار الأمم السابقة، والشهود الحضاري بما تجسد من سيرة الرسول ﷺ وتمثل من خير القرون، والشهود المستقبلي بما أصل من قواعد ووضع من معالم، وكلف من نظر وتدبر في سنن الله في الأنفس والآفاق التي هي السبيل للتمكين في الأرض والقيام بالشهادة على الناس والقيادة لهم.. قال تعالى:

﴿**ولتعلمن نبأه بعد حين**﴾ (ص: ٨٨). لكن واقع معظم المسلمين اليوم مع القرآن مؤرق وعلاقتهم به يحكمها الهجر والعقوق إلى درجة نخشى معها أن نقول: إن علل الأمم السابقة التي حذر منها القرآن، ونبه إليها الرسول ﷺ، تسربت إلى العقل المسلم: ﴿**ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني**﴾ (البقرة: ٧٨) أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلاً. قال ابن تيمية رحمه الله، عن ابن عباس وقتادة في قوله: ﴿**ومنهم أميون**﴾ أي: غير عارفين بمعاني الكتاب، يعلمونها حفظاً وقراءة بلا فهم، لا يدرون ما فيه.. وقوله: ﴿**إلا أماني**﴾ أي: تلاوة، لا يعلمون فقه الكتاب، إنما يقتصرون على ما يسمعون يتلى عليهم.

والأمية العقلية هذه تسود الأمة في حال التقليد، والغياب الحضاري، والعجز عن تدبر القرآن الكريم، والتعامل مع الأحداث، واتخاذ المواقف، واكتشاف سنن الله في الأنفس والآفاق، وحسن تسخيرها، ومعرفة كيفية

التعامل معها، والنفاذ من منطوق النص وظاهره إلى مقصده ومرماه، والتدخل حين يعلم السنة وأنها تتكرر ولا تتبدل، فنستطيع توجيهها إلى حيث نريد ونفيد، فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله، أو نفر من قدر الله إلى قدر الله كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول ابن القيم رحمه الله: ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله . . . «مدارج السالكين». ج. ا.

إنها الأمية العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن الكريم، والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة، ووسائل النشر، وتقنيات التسجيل. . ولعل فيما يذكره ابن كثير رحمه الله عند تفسير الآية الثالثة والستين في سورة المائدة، في الجدال الذي وقع بين الرسول ﷺ وصاحبه زياد بن لبيد، مؤشر دقيق على الأمية العقلية التي صرنا إليها مع كتاب الله، فعن الإمام أحمد رحمه الله، قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال: «وذاك عند ذهاب العلم» قلنا يا رسول الله: كيف يذهب العلم ونحن قرأنا القرآن الكريم ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟ فقال: «ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء»؟.

وقد تكون مشكلة المسلمين كلها اليوم، في منهج الفهم الموصل إلى التدبر، وكسر الأقفال من على العقول والقلوب، وتجديد الاستجابة، وتحديد وسيلتها، ليكونوا في مستوى القرآن الكريم، ومستوى العصر، ويحققوا الشهود الحضاري، ويتخلصوا من الحال التي استنكرها القرآن الكريم: **﴿أفلا يتدبرون القرآن، أم على قلوب أقفالها﴾** (محمد: ٢٤)، **﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولوا الألباب﴾** (صٓ: ٢٩). وهنا قضية، أعتقد أنه من المفيد التوقف عندها ولو قليلاً، ذلك أن كثيراً من العاملين في حقول الفكر والمعرفة، يظنون أن معادلة المسلمين الصعبة اليوم وأزمتهم الفكرية تتمثل في فقدان المنهج، ويجهدون أنفسهم بالبحث والدرس، وتقليب الأمر على وجوه كثيرة، وقد يكون من ذلك التطلع إلى ما عند الآخرين.

وفي تصوري: إن الأزمة التي لا نزال نعاني منها، ليس في افتقاد المنهج

فالمنهج «مصدر المعرفة» موجود، ومعصوم، ومختبر تاريخياً. . لكن، المشكلة في وسائل الفهم، وأدوات التوصيل، وكيفية التعامل مع المنهج. . أي: منهج فهم القرآن الكريم والسنة، فالله سبحانه وتعالى يقول: **﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾** (المائدة: ٤٨) ويقول: **﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾** (الأنعام: ١٥٣). والرسول ﷺ يقول: «لو كان موسى حياً لما وسعه إلا اتباعي»، وذلك عندما تطلع بعض الصحابة إلى تحصيل معرفة مما في التوراة. ونخشى عند التساهل والقبول بأن الأزمة التي نعاني منها أزمة منهج، وليست أزمة فهم للقرآن، الذي هو مصدر للمعرفة، عندها أن ينأى بنا السير إلى السقوط في التعامل مع مناهج أخرى، والافتتان عما نزل إلينا، أو بعضه **﴿واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾** (المائدة: ٤٩).

لذلك، لا بد أن نقرر بأن الأزمة أزمة فهم، وأزمة تعامل، وأزمة أمية عقلية صرنا إليها بذهاب العلم «مناهج الفهم، ووسائل المعرفة». والجهود، فيما نرى اليوم، يجب أن تنصب على منهج الفهم، وإعادة فحص واختبار المناهج القائمة التي أورثتنا ما نحن عليه، والتحرر من الأبنية الفكرية، الاجتهادية السابقة التي انحدرت إلينا من موروثات الآباء والأجداد والمناخ الثقافي الذي يحيط بنا منذ الطفولة ويتسرب إلى عقولنا فيشكلها بطريقة التفاعل الاجتماعي، الأمر الذي أدى إلى انكماش الفكر والرؤية القرآنية في واقع حياتنا وتحول القرآن من مراكز الحضارة وصناعة الحياة، إلى الركود والتحنط في بطون التاريخ التي تشكلت في عصور التخلف والتقليد والتي حالت دون إدراك أبعاد النص القرآني، والقدرة على تعديته للزمان والمكان. ذلك أن الصورة التي طبعت في أذهاننا، في مراحل الطفولة، للقرآن الكريم، أنه لا يستدعى للحضور إلا في حالات الاحتضار والنزع، والوفاة، أو عند زيارة المقابر، أو نلجأ لقراءته عند أصحاب الأمراض المستعصية، وهي قراءات لا تتجاوز الشفاه.

ولذلك اقترنت الصورة الموروثة للقراءة، بحالات من الخوف والاكتئاب، ينفر منها الإنسان، ويستعيذ بالله من سماعها. . فإذا تجاوزنا

مؤسسات الأمية والعامية التي تشكلت من خلالها تلك الصور المفزعة للقرآن الكريم، إلى مراكز ودروس تعليم القرآن الكريم، رأينا أن الطريق التي يُعلم بها، يصعب معها استحضار واصطحاب التدبر والتذكر والنظر، إن لم يكن مستحيلاً.. فالجهد كله ينصرف إلى ضوابط الشكل من أحكام التجويد ومخارج الحروف، وكأننا نعيش المنهج التربوي والتعليم المعكوس.. فالإنسان، في الدنيا كلها، يقرأ ليتعلم، أما نحن فنتعلم لنقرأ لأن الهم كله، ينصرف إلى حسن الأداء.. وقد لا يجد الإنسان أثناء القراءة فرصة للانصراف إلى التدبر والتأمل وغاية جهده إتقان الشكل.. وقد لا يعيب الناس عليه عدم إدراك المعنى قدر عيبهم عدم إتقان اللفظ!! ولا أزال أذكر أننا وبعد عدة سنوات من التعليم، كان مدرس القرآن الكريم، يراجع بعضنا في تحسين النطق بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم مفتتح القراءة.

ونحن هنا، لا نهون من أهمية ضبط الشكل، وحُسن الأداء، وسلامة المشافهة، لكننا ندعو إلى إعادة النظر في الطريقة حتى نصل إلى مرحلة التأمل والتفكر والتدبر التي تترافق مع القراءة، وقد يكون ذلك بأن نبدأ التلقين بالأداء الحسن، ابتداء مع التوجه اللافت للنظر صوب المعنى ولا نلتفت إلى ضبط الشكل إلا في حالات التصويب، ولتكن حالات الاستثناء.

[١٤ جمادى الآخرة ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠/١/١١ م]

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾

لقد ميّز الله الإنسان عن سائر المخلوقات بالعقل وجعله بالعقل أهلاً للتكليف، وحمل الأمانة، قال تعالى: **﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان...﴾** (الأحزاب: ٧٢).. والأمانة هذه التي تعني فيما تعني المسؤولية هي في حقيقتها تكليف من وجه، وتشريف من وجه آخر إذ لا يمكن أن تناط المسؤولية بغير المؤهلين عقلاً واختياراً. لذلك اعتبرت المسؤولية ثمرة للحرية وفرعاً عنها.. فكيف يكون مسؤولاً من لا يكون حراً قادراً على القيام بالمهمة المكلف بها؟ وكيف يحاسب الإنسان على أعمال لا يملك فعلها وتركها؟.. من هنا كانت المسؤولية تكليفاً أولاً وتشريفاً ثانياً.

واستشعار المسؤولية هو الموجه الصحيح لسلوك الإنسان السوي لذلك كان الإيمان بيوم الدين حيث توضع الموازين الحق هو رأس دعوة الأنبياء جميعاً.. لأن الإنسان بدون هذا الإيمان يفقد توازنه وقدرته على الاستمرار السليم وتحمله لأعباء الحياة.

ولا نرى أنفسنا بحاجة إلى التأكيد بأن المسؤولية المفروضة من خارج النفس، بعيداً عن قناعة الإنسان مهما بلغت من الدقة قادرة وحدها على صياغة السلوك المستقيم، وحمل الإنسان على الانضباط في سره وعلانيته.

ولعل أخطر المسؤوليات تاريخياً، كانت ولا تزال مسؤولية الكلمة.. وهي

اليـوم، بما توفر لها من وسـائل الاتصـال والتقنيـات الحـديثـة، من أخـطر المسؤوليات وأدقها، سواء كانت مقروءة أو مسموعة أو مكتوبة أو مصورة.. يقول تعالى: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ (قٓ: ١٨).. إنها البـــذرة التي قـد تــرمى ولا نلقي لهـا بـــالاً، ثم لا تلبث أن تنبت خيراً أو شـــراً.. ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة.. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة.. ولقـد جعـل الله الاهتداء إلى الـطيب من القـول والانضبـاط بـه، رأس الهـدايـة وثمرتها.. ﴿وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد﴾ (الحج: ٢٤).

من هنا نقول: إن مسؤولية الكلمة كبيرة في ميزان الله، وإن مساحـة تلك المسؤولية أكبر بالنسبة للقائمين بأمر التثقيف والتعليم والإعلام.. وتأتي مسؤولية وسائل الإعلام على رأس هذه المسؤوليات جميعاً ويأتي التلفزيون في مقدمة ذلك، لأنه أصبح في الحقيقة الجهاز الذي يحتجز مساحة مكانية وزمانية في حياة كل أسرة.

إنه النافذة التي تفتح على بيوتنا من داخلها، وبدون استئذان، والتي تشكل عقولنا من خلال ما تقدمه من مواد إعلامية متنوعة عبر الأوعية البشرية التي تحمل هذه المادة إلينا والتي تشكل على المدى البعيد أيضاً رموزاً يقلدها الأبناء والبنات والنساء.. ولا بد أن نسأل أنفسنا: ماذا نقدم؟ ولماذا نقـدم هذا دون غيره وكيف..؟ إنها أسئلة كثيرة وخطيرة، ومسؤوليتها مخيفة..

وكما أن التلفزيون يشكل النافذة المفتوحة داخل بيوتنا فهو من وجه آخر نافذتنا على المسؤولين الذين يقفون وراء برامجه صباح مساء.

فهل يستشعر المسؤولون عن التثقيف حجم المهمة وخطورتها ويرقبون الله فيما يقدمون، ويعلمون أن الإسلام الذي جاء به محمد بن عبدالله ﷺ ليس هو الفقرات الخاصة التي تسمى «دينية» والتي تحتجز لها مساحات زمنية في أوقـات معينة فقط قـد يحسن من يتولاهـا، وقد لا يحسن وإنمـا هو القيم الضابطة الهادية التي ترشد المسار العام لـرحلة الكلمة والصـورة مهما كـان نوعها؟.

لذلك نرى أنه لا بد من مراعاة الضوابط الإسلامية في ما يعرضه التلفزيون التي لا تعني إطلاقاً التعصب والانحياز ضد أحد - لأنها تهم الجميع - بقدر ما تعني الوصول إلى الوضع الطبيعي لمجتمع مسلم حريص على عقيدته، وتقاليده الحضارية، وميراثه الثقافي، حتى يكون التلفزيون ثمرة طبيعية لمجتمعه وأمته، ولا يكون في خدمة مجتمع غريب مغترب.. إنه الشعور قبل كل شيء بالمسؤولية أمام الله الذي يقول: ﴿**وقفوهم إنهم مسؤولون**﴾ (الصافات: ٢٤)..

[١١ صفر ١٤٠٩ هـ - ٢٢/٩/١٩٨٨ م]

صناعة الكلمة وفقدان الحكمة

يعرف العلماء البلاغة: بأنها موافقة الكلام لمقتضى الحال. وأعتقد أن البلاغة في ضوء هذا التعريف، ليست القدرة على صناعة الكلمة، ورصف اللفظ المزوق بلا طعم ولا معنى. ونعترف أن الكثير منا نحن العرب، أحسن صناعة الكلام، وأتقن فن الضجيج حتى كادت انفعالاتنا الطبيعية تصبح مصنوعة.. انتقل عقلنا إلى ألسنتنا وآذاننا، وكثيراً ما يصدق فينا المثل العربي الذي نردده ولا نتأدب به: أسمع جعجعة ولا أرى طحناً.

والذي يحاول اليوم أن يقوم جدوى صناعة الكلام في كثير من الصحف والكتب والخطب.. ويقارن ذلك بالجهود التي تبذل، والأموال التي تنفق، يشعر بخطورة الحال، وسوء المآل. وقد يرى أن حصيلة ذلك كله بدل أن يعالج مشكلة، أو يبصر بطريق، أو يسدد مسيرة، أو يضيف جديداً، أو يشرح غامضاً، أو ينير عقلاً، أو يبين شرعاً غائب المعنى عن الناس يصبح عبئاً ثقيلاً يكبل العقل بدل أن يطلقه، وينهك الأمة، ويساهم في تكريس وتأكيد التخلف على مختلف الأصعدة، لأنه يلغي الهدف ويغيب الحكمة.

والحكمة وضع الأمور في مواضعها، ووزن الأشياء بموازينها، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم، وتوخي الصواب في القول والعمل، والله يقول: **﴿لا خير في كثير من نجواهم، إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾** (النساء: ١١٤). ويجعل من صفات المؤمنين، وسبب فلاحهم،

الابتعاد عن اللغو، فيقول: ﴿**والذين هم عن اللغو معرضون**﴾ (المؤمنون: ٣). ومن يحرم الحكمة في القول والفعل، فقد حرم خيراً كثيراً.

ومن المأثور: خاطبوا الناس على قدر عقولهم. أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!. ومن المؤسف حقاً، أن كثيراً من الخطباء، والكتّاب، والوعّاظ، وأصحاب صناعة الكلام أو حرفة القول، يظنون أن البلاغة تتحصل بتزويق الكلام وزخرفته، وحسن صناعته، ويغيب عنهم ما يحققه من فائدة للواقع المعاش، وأهمية ربطه به، ومدى ملاءمته للحال التي عليها الناس. ودراسة حاجاتهم الحقيقية، ومشكلاتهم الأساسية، وحسن معالجتها، ومن ثم اختبار دقة المعالجة، وصوابها. ذلك أن المعرفة الدقيقة والشاملة بحال المخاطبين، والقارئين، والسامعين، من الشروط الضرورية، والمطالب الأولى لعملية الكتابة، والخطابة والدعوة، والبلاغ المبين، إلى جانب شروط أخرى كثيرة ليس الآن محل بحثها.

فكثيراً ما نرى داعية يخرج من عالم متخلف، أو مستعمر، له مشكلاته، وله همومه، من الجهل والأمية التي تقتضي لوناً من المعالجة، ليخاطب بالثقافة والأسلوب نفسه الإنسان الأوروبي والأمريكي، أو يترجم بعض الكتب التي صدرت في العالم الإسلامي، لتعبئته، واستنفاره لاسترداد حقوقه المسلوبة، وتأصيل معاني الشورى المفقودة. ومحاربة الاستبداد السياسي المتفشي، ليخاطب به مجتمعات لا علاقة لها بتلك القضايا، وإنما لها مشكلاتها وأمراضها، وحاجاتها الأخرى، فيكون كلامه في واد، والناس في واد آخر. بل قد يسيء إلى القضية الإسلامية أكثر من أن يحسن لها، وليست المؤسسات الثقافية والمؤتمرات الطلابية والمراكز الإسلامية في بلاد الغرب وأمريكا، أحسن حالاً من المجالات العامة الأخرى فقد تتحكم بمن يختار للكلام عن الإسلام مقاييس كثيرة تصلح لعالمنا الإسلامي لكنها بعيدة كل البعد عن المطلوب لحاجات الطلاب في دراساتهم، وثقافاتهم، وتعرضهم للغزو الفكري، والتضليل الثقافي، وتبصيرهم بمفاتيح العقل الغربي، وثقافاته، وتاريخه، ومداخل التعامل معه. إلى جانب أن مؤهلات الكثيرين لا تخرج عن كونها مؤهلات تحكم عليها الأمزجة والعلاقات الشخصية.

وكذلك حال كثير من وعاظ الأمة، وخطباء الجمعة، حيث تراهم في واد وجمهور المصلين في واد آخر، بل قد تبدأ الخطبة وتنهى ولا علاقة لها بحاجات الناس وكيفية معالجتها، وحل مشكلاتهم، وهمومهم، ومعرفة قضاياهم التي يعانون منها. ويظن كثير من الخطباء والوعاظ أن حسن الصناعة للكلام يغني في البلاغة، ويعفي من معرفة أحوال الناس، وحسن معالجتها. ولقد استمعت كما استمع غيري إلى خطب كثيرة بمناسبة شهر ربيع الأول، حيث وجد فيه بعض الخطباء والوعاظ مناسبة المولد، فرصة للكلام في السيرة والشمائل. ولم ير الكثير منهم في سيرة النبي العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام، إلا: السباق مع عائشة رضي الله عنها، وكيف سبقته في الأولى وسبقها في الثانية بعد أن تشحمت وتلحمت أو كسر أطباق الطعام المرسلة من إحدى زوجاته عليه السلام كدليل على الغيرة النسائية، أو ممازحة المرأة العجوز عندما قال لها عليه الصلاة والسلام: «لا تدخل الجنة عجوز» أو اشتداد عائشة رضي الله عنها على الرسول وجذب ثوبه بصورة استنفرت أباها أبا بكر الصديق رضي الله عنه، فاستنكر وهم بتأديبها. فقال له الرسول ﷺ: «ماذا لو تعلم ما يحصل بغيابك؟».

هذه هي الأبعاد التي طرحها كثير من الخطباء والوعاظ في إطار السيرة، ولم يروا غيرها، مما يمكن أن يشكل علاجاً لمشكلات الأمة، ويربيها بالأسوة والاقتداء، وهكذا نتكلم عن خلود الرسالة الإسلامية وقدرتها على معالجة مشكلات الأمة كشعارات مرفوعة لكن في الحقيقة نبقى عاجزين عن أية معالجة، وقد لا ندري من مشكلات الأمة شيئاً. فلا ندرك المطلوب ولا نبصر الأبعاد، وننتقي المواقف التي تشكل علاجاً فعلياً لمشكلات الناس. وقد لا نكلف أنفسنا التفكير قبل الصعود على المنبر بما نقول للناس وفائدة الذي نقول لهذه الظروف، ومدى ملاءمته للحال، خاصة إذا أصبحنا نحسن حرفة الكلام.

ونعتقد أن الصعود على منبر رسول الله ﷺ يقتضي مسؤولية، وخوفاً، وتحضيراً لخطاب الناس في ضوء مشكلاتهم، بذلك وحده يمكن أن يكون المنبر أداة تغيير للواقع وربط للخطبة بالحياة ووسيلة للنهوض بالأمة والارتقاء بها إلى مستوى الإسلام والعصر. والله من وراء القصد.

[٩ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/١٢/٧ م]

نَحْوَ اسْتِرْدَادِ
إنسَانيَّةَ الإنسَان

مقاصد الشريعة وحقوق الإنسان

نحن المسلمين على قناعة يؤيدها العقل ويؤكدها الواقع وتقتضيها العقيدة أن الله الذي خلق الإنسان هو أعلم بالمنهج الذي يحقق له السعادة والصلاح في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة، يقول تعالى: **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾**؟ (الملك: ١٤).

وعلى ضوء ذلك فإن منهج الله وشرعه دون سواه هو الذي يحقق مصالح العباد ويحفظ حقوقهم ويكرم آدميتهم حيث لا يقبل عقلاً أن يتجاهل حقيقة من حقائق خلقهم وتكوينهم أو يتنكر لحاجة من حاجاتهم الأصلية.

الإنسان كائناً من كان بعلمه المحدود، وعمره المحدود وتقلبه بين العسر واليسر، وخضوعه لشتى المؤثرات من جنس أو قوم أو عشيرة أو طبقة أو حزب أو شهوة يبقى عاجزاً عن وضع المنهج السليم الثابت لغيره أو لنفسه الذي يحقق مصلحة أو يدرأ مفسدة، ولا أدل على ذلك من أن الكثير من التشريعات خاضعة باستمرار للتغيير والتبديل لعجزها عن تحقيق مصالح الناس وأن الكثير من التشريعات الاستثنائية التي نراها اليوم هي في الحقيقة ستار ومبرر لتسلط طبقة على أخرى أو حزب على آخر أو حكم على معارضة إلخ. ولعل العادات الضارة الكثيرة التي يمارسها الإنسان نفسه وهو قانع بضررها ولكنه يضعف أمام شهوته من مثل الخمر والتدخين وغيرها. دليل ذلك أيضاً.

ولا شك أن مصدر الشر كامن دائماً في تسلط الإنسان على الإنسان وغياب

حق المساواة والعدل وأن هذا التسلط أخذ في التاريخ أشكالاً متعددة ومبررات شتى ابتداء من التحكم بأقنان الأرض من ملاكها إلى تحكم رجل الدين الذي أعطى نفسه حق التحريم والتحليل وإصدار صكوك الغفران، وأله نفسه على الناس يقبل اعترافهم ويغفر خطاياهم ليبتز أموالهم وقد يتطاول إلى التحكم بمصائرهم، إلى صور أخرى من التحكم تمثلت في الطبقة أو الحزب الواحد الذي يعطي نفسه حق التصرف بمصائر الناس وحكم حياتهم وأنه هو قدر الأمة وصاحب الحق في حكمها. إن هذا الشر لا يمكن أن ينقطع من العالم إلا بإيقاف هذا التسلط الذي أخذ صوراً شتى، وكلما اكتشفت صورة للظلم استبدلها المتسلطون بأخرى.

ولا يمكن أن يوقف هذا التسلط وتتحقق العدالة والمساواة إلا بأن تسود العبودية لله وحده وأن يكون وضع المنهج والتشريع بيد الله سبحانه وتعالى دون سواه. فمن لم يكن عبداً لله فسوف يكون حتماً عبداً لسواه ولا أدري حقاً كيف يعطي إنسان كائناً من كان نفسه الحق في التشريع والتصرف والتسلط على إنسان مثله؟.

ونقطة أخرى لا بد من إيضاحها وهي أن القوانين المفروضة على الإنسان من خارج النفس تبقى لا قيمة لها ولا فائدة فيها ولا تأثير حقيقياً لها في صياغة سلوك الناس الذين يتربصون بها الدوائر لينقضوا عليها ويستبدلونها بغيرها وهكذا أما القوانين والحقوق التي هي من وضع الخالق سبحانه وتعالى فهي في حقيقتها قيم اعتقادية عبادية ثابتة بعيدة عن التلاعب والأهواء والعبث، يستوي أمامها الناس جميعاً فهي ليست من وضع فئة لأخرى لتكون فرصة للتسلط والتحكم والتمييز وإنما هي من خالق الناس جميعاً، نقول هذا الكلام بمناسبة احتفال العالم باليوم العالمي لحقوق الإنسان تلك الحقوق التي ما تزال حبراً على ورق في كثير من المواقع على خارطة العالم فعالم الأقوياء لا يفهم الحرية إلا بأن يكون حراً في فعل ما يريد.

إن وسائل الإيضاح على فساد التشريع الإنساني وخضوعه للأهواء ونزوة الأقوياء تملأ علينا أسماعنا وأبصارنا، والعدوان على حقوق الإنسان في فلسطين وأفغانستان والفلبين وجنوب أفريقيا وأريتريا وغيرها كثير شاهد إدانة على تدليس

الإنسان وفساد أهليته للتشريع ولا عجب في ذلك إذا رأينا انتهاك حقوق الإنسان تمارس في هيئة الأمم المتحدة نفسها التي أعلنت وثيقة حقوقه حيث لا يزال يمتلك الكبار حق الفيتو «النقض» الذي يعني فيما يعني التسلط والاستبداد الدولي وتحكم الأقوياء بالضعفاء.

وقد لا يتسع المجال للإتيان بأمثلة من التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية التي كانت روحها المساواة والعدالة وحرية الاعتقاد وتحقيق إنسانية الإنسان وتأكيد كرامته على مستوى الحاكم والمحكوم سواء كان مواطناً مؤمناً بعقيدة الدولة أو كان من غير المسلمين. حيث شعار الدولة المسلمة قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦) ولا بد أن نذكر بهذه المناسبة موقف الرسول ﷺ من أبي ذر عندما تلاحىٰ مع خادمه وعيره بأمه فقال له: «يا ابن السوداء» فلما سمع الرسول ﷺ بذلك أعاده إلى صوابه وصحح فهمه للإسلام ولمسيرة الحياة الإسلامية بقوله: «إنك امرؤ فيك جاهلية، لا فضل لابن السوداء على ابن البيضاء إلا بالتقوى» متفق عليه، فكان أن وضع أبو ذر خده على الأرض وأصر على غلامه أن يدوس بنعله على خده الآخر ليقتلع الجاهلية من نفسه. وحادثة القبطي المصري - الرجل العادي - مع ابن والي مصر عمرو بن العاص معروفة للقاصي والداني، وحكاية جبلة الأمير الغساني مع الأعرابي عندما كان يطوف في البيت الحرام، وأصابت قدم أحد الأعراب طرف ثوبه فالتفت إليه وضربه ضربة هشم فيها وجهه فشكا الأعرابي أمره إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاستدعى عمر الأمير الغساني وطلب من الأعرابي أن يقتص منه فقال له جبلة: كيف يا أمير المؤمنين وأنا أمير وهو سوقة؟ فيقول عمر: لقد سوى الإسلام بينكما.

إن حق الإنسان يضمنه هنا القانون الإلهي الذي يعني الالتزام به وتقديسه وتطبيقه عبادة من العبادات وليست شعاراً للابتزاز السياسي الرخيص.

وحقيقة أخرى لا بد أن نعرض لها وهي أن الاستقراء لأوامر الشريعة في الأمر والنهي يبين أن الشريعة إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد في معاشهم وحفظ حقوقهم وأن مصالحهم لا تتحقق إلا بحماية الكليات الخمس التي تمثل المرتكزات الأساسية لحقوق الإنسان وهي العقل، والدين، والنفس، والعرض، والمال. التي

تعني مدلولاتها حقوق الإنسان الأساسية ذلك أن الإسلام لم يدع أمر الاعتداء على هذه الكليات وعقوبته للاجتهاد والنظر وعبث الأهواء وإنما جعل العدوان عليها جريمة يعاقب صاحبها بعقوبات منصوص عليها تسمى الحدود، ومعروف أن الحدود من العقوبات التي لا مجال فيها لرأي أو اجتهاد. فحق الحياة مقدس و﴿**من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً**﴾ (المائدة: ٣٢) لذلك كان القصاص حياة، وحق الاعتقاد يقرره الله تعالى بقوله: ﴿**لا إكراه في الدين**﴾. وميزان الكرامة يشرعه الله تعالى بقوله: ﴿**ولقد كرمنا بني آدم**﴾ (الإسراء: ٧٠) و﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ (الحجرات: ١٣). وحق التملك يحميه الإسلام بتشريع ويعاقب المعتدي عليه بحد الحرابة وحد القطع. وحق التفكير والتعبير «العقل» يصونه الإسلام بتحريم الخمر والمخدرات وعقوبة حد الشرب وحق النسل شرعه الإسلام بالزواج وصانه بحد الزنا وحد القذف.

إنها مقاصد الشريعة التي تجعل حقوق الإنسان أمراً فطرياً بأصل الخلق من خالق الخلق وتجعل الالتزام بها عبادة من العبادات سواء وجدت رقابة القانون أم غابت وعلى الرغم من اشتراط الإسلام رقابة السلطان وعدم ترك الناس لضمائرهم فقط ومع ذلك فإن لم توجد رقابة السلطان فرقابة الله هي الضمان.

[٦ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٥/١٢/١٩٨٨]

تسلط الإنسان على الإنسان
مصدر الشر في العالم

لا شك أن غياب الإنسان النموذج المتجسد في المسلم ـ كما جاءت به النبوة ـ عن ساحة الشهود الحضاري وقعوده عن أداء رسالته ساهم بشكل سلبي في عملية الضياع عن الحق الذي تعاني منه البشرية والضلال عن الهدف والغاية التي من أجلها خلق الإنسان، إن هذا الغياب مكن للأرباب ـ الطواغيت ـ الظهور من جديد والتحكم برقاب البشر تحت شتى العناوين والمسوغات والفلسفات ذلك أن مصدر الشر تاريخياً وإلغاء إنسانية الإنسان وإسقاط حقوقه وإهدار آدميته وكرامته كان دائماً كامناً في تسلط الإنسان على الإنسان. وإن هذا التسلط أخذ أشكالاً متعددة وتطور تاريخياً مع رحلة الإنسان الطويلة ليظهر بمظاهر شتى وكلما اكتشف لون من ألوان التسلط استبدل به الطواغيت لوناً آخر يظن الناس بـادي الرأي أن فيه الخلاص فيسعون إليه ويصفقون له ثم لا يلبث أن تتكشف نواياه وتكوي جلودهم وجباههم ممارساته فيحاولوا مواجهته في الوقت الذي يحضر الطواغيت لوناً جديداً، وهكذا فالتسلط هو التسلط مهما اختلفت أشكاله وتغيرت شعاراته ورجاله وعناوينه.

لقد أخذ التسلط في مرحلة من مراحل التاريخ شكل مالك الأرض لمن يعمل فيها وهو ما يعرف بعهود الاقطاع أو عهود الأسياد وأقنان الأرض في أوروبا حيث كان الإنسان الرقيق أهون من تراب الأرض يباع ويشترى دون أن يكون له أدنى رأي كأدوات الزراعة وكان ذلك ثمرة لفلسفات تقول: بأن الناس ـ بأصل الخلق ـ طبقتان: أسياد وعبيد وأن الله خلق العبيد لخدمة الأسياد لذلك فلا أمل

في التغيير ولا مجال للاعتراض على خلق الله أو الرفض لقانونه ولا يخرج كتاب جمهورية أفلاطون الفاضلة الذي حاول فيه وضع ملامح الصورة المثلى للمجتمع والإنسان من وجهة نظره عن تقرير هذه الطبقية وفلسفتها ومحاولة إقناع الناس بها. والمعروف أن الميراث الثقافي اليوناني والروماني هو أصل الحضارة الأوروبية الحديثة بشقيها: الرأسمالي والماركسي على حد سواء وإن اختلفت اليوم صورة الإخراج بين الرأسمالية والماركسية في لون العبودية لكن الحقيقة واحدة.

كما أخذ التسلط في مرحلة من مراحل الرحلة البشرية شكل صاحب العمل أو رب العمل الذي لم يكن يهمه إلا زيادة وجودة الإنتاج ولو على حساب صحة العامل وسنه وحتى حياته دون أية ضمانات أو حقوق أو تشريعات تأمين. ولما حلت الآلة محل العامل في الثورة الصناعية لم يمنع ذلك أرباب العمل من طرد جميع العمال، والإلقاء بهم خارج المعامل نهباً للفقر والعوز والجهل والمرض وكان رد الفعل لهذا الظلم الاجتماعي تكتل العمال وثوراتهم وتظاهراتهم ومن ثم تشكيل النقابات واستصدار تشريعات التأمين الاجتماعي التي تحدد ساعات العمل وتؤمن ضد إصاباته وتضمن المرض والشيخوخة ولقد كانت رحلة معاناة شاقة دفع الإنسان في طريقها الأثمان الباهظة.

وأخذ التسلط شكلاً آخر استطاع فيه الأرباب الجدد من دون الله أن يحركوا أحقاد العمال ويجمعوها ويكتلوها ويتداحوا بها باتجاه الأرباب القدامى من القياصرة ليحلوا محلهم فجاء التسلط الجديد هذه المرة باسم: الطبقة العاملة صاحبة المصلحة الحقيقية في الثورة وإذ بالعمال بعد وصول المتسلطين الجدد إلى السلطة على أكتافهم يسامون أشد الخسف ويذوقون أعتى ألوان الظلم والاضطهاد لقد كان العامل قبل الثورة التي قامت باسمه إنساناً مسلوب الحقوق فألغى الأرباب الجدد الإنسان أصلاً ولم يكتفوا بإلغاء إنسانيته وإسقاطها وعاشوا بذخ وترف القياصرة لكن هذه المرة باسم العدل الاجتماعي والاشتراكية العلمية وإلغاء التملك الفردي الذي كان بنظرهم سبب البلاء كله والظلم والصراع الاجتماعي وإذ بملكياتهم تفوق كل تصور فجاء ظلمهم الاجتماعي واستبدادهم السياسي أشد

وأنكى من الرأسمالي الذي قاموا على أنقاضه فكانوا أكثر امتداداً في فترات الحكم من ملوك القرون الوسطى وكانوا أكثر فسوقاً من الأباطرة.

كما عانى الإنسان لوناً آخر من التسلط كان أدهى وأعتى حيث ابتلي بمن يتسلط على دنياه وأخراه معاً وذلك عندما أخذ التسلط شكل طبقة رجال الدين التي أعطت نفسها من الامتيازات ما يجعلها تمارس عملية التحليل والتحريم والتحكم بسلوك البشر ونواياهم والحكم على مصائرهم فهي محل العفو والغفران والحرمان. وخطورة التسلط الجديد أنه يمارس باسم الله من المتحدثين باسمه المحتكرين لدينه وفهم كتابه فهم وحدهم حملة الكتاب المقدس الذين يتصرفون في ملك الله في الدنيا والآخرة ويمتلكون بزعمهم المغفرة لمن يعترف لهم بفعاله ويبيعون قطعاً من أرض الجنة بصكوك الغفران في محاولة لابتزاز أموال الناس بالباطل ﴿**إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل**﴾ (التوبة: ٣٤) فاستعبد الإنسان بشعارات الدين حيث أعطى رجل الدين نفسه وهو مخلوق مثل الآخرين له خطؤه وصوابه وشذوذه وانحرافه الحق في أن يتصرف في دنياهم وآخرتهم فكان لا بد للإنسان بعد هذه المعاناة من إسقاط هؤلاء الأرباب الدينيين بثورات الرفض التي أثمرت البروتستانتية قديماً ولاهوت التحرير حديثاً ومن ثم يبدأ التفتيش عن ملجأ آخر يجد فيه الخلاص.

ويمكن أن نعتبر الحكم الديني «الثيوقراطي» الذي ساد أوروبا فترة من الزمن لوناً آخر من ألوان التسلط أيضاً.. حيث يعتبر الحاكم نفسه ظل الله على الأرض يتصرف بالناس كيف يشاء بأموالهم وأعراضهم وأنفسهم وتعتبر أية معارضة أو مناصحة لوناً من المروق من الدين والاعتراض على أوامر الله.

ومن العذابات التي عانى منها الإنسان في رحلته التاريخية ولا يزال صور التميز اللوني فلا تزال توجد في العالم حتى اليوم صور لتعالي الرجل الأبيض.. وسيادة الرجل الأبيض وحضارة الرجل الأبيض وحتى لاهوت الرجل الأبيض وقد تكون بعض الحيوانات كالقطط والكلاب أكثر كرامة وحقوقاً من الإنسان الملون في حضارة الرجل الأبيض.

وليست نظريات التمييز العرقي والقبلي والقومي والتعصبي والطائفي بأقل

هدراً وإلغاء لحقوق الإنسان وكرامته من التميز اللوني والحكم الطبقي والاقطاعي والثيوقراطي وتحكم رجال الدين.

فكم ذاق العالم من ويلات الحروب والشرور بسبب من النظرة القومية المتعصبة التي احتلت بعض العقول كنظرية صفاء العرق الجرمني التي كان شعارها: «ألمانيا فوق الجميع» والدعاوي الفاشية التي دمرت الكثير من الجنس البشري باسم القومية العنصرية أيضاً ولا تزال آثار الصراع القومي وضحاياه تملأ تاريخ البشرية وتتسرب إلى بعض حاضرها ولعل منابع التميز في الحقوق إنما جاءت من التراث اليهودي حيث نظرية الشعب المختار وصبت في المصلحة اليهودية حيث استطاع اليهود توظيف الإقليميات والطائفيات والتمكين لها خاصة في عالم المسلمين.

[٨ و ٩ شوال ١٤١٠ هـ - ٣ و ٤/٥/١٩٩٠ م]

النبوة تحرير من الاستعباد والاستغلال

بإمكاننا القول: أن مهمة النبوة تاريخياً إنما كانت لاستنقاذ الإنسان من تسلط الإنسان وتقرير إنسانية الإنسان وكرامته وحقوقه وإيقاف عملية اتخاذ الأرباب من دون الله والعودة بالبشرية إلى خالقها الواحد وأسرتها الإنسانية الواحدة وتقرير مبـدأ المساواة أو حق المساواة الذي لا علاج لمشكلة الإنسان بدونه وتخليص الإنسان بالإيمان من أسباب الذل والعبودية عندما كفل له الرزق وحدد له الأجل ذلك أن معظم آيات القرآن الكريم تؤكد حقيقة أن الرزق والأجل مقسومـان فقد كفل الله الرزق وكتب الأجل يقول تعالى: ﴿**وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً**﴾ (آل عمران: ١٤٥).

ويقول: ﴿**وفي السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون**﴾ (الذاريات: ٢٢ - ٢٣) وهما أي الرزق والأجل سبيل الطغاة لاستذلال الشعوب واستعبادها فلو أدرك المؤمن ذلك يقيناً وتربى عليه عملياً يستحيل إذلاله فكثير من المسلمين اليوم هم من خوف الذل في ذل ومن خوف الموت في موت! فكيف والحالة هذه يثيرون الاقتداء بهم والإيمان بدينهم؟ فإذا كانت الوجهة في الإسلام واحدة والمصدر واحداً والخالق واحداً فلا يبقى مجال للتسلط والتعالي.

إن صراع النبوة مع الأرباب الذين يحاولون دائماً انتزاع سلطان الله في الأرض ونصب أنفسهم آلهة تتحكم بالعباد هي قصة التاريخ الحقيقية بل هي قصة

صراع الخير والشر.. الصراع بين سلطان الله وشرعه الذي يسوي بين الناس والطاغوت الذي يريد تعبيد الناس له. فالمشكلة كانت ولا تزال في اتخاذ هؤلاء الأرباب ولو أن الناس استجابوا لدعوة الأنبياء التي أعلنوها منذ فجر البشرية لعاشوا جميعاً في حرية وكرامة ومساواة وسعادة: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾** (آل عمران: ٦٤).. **﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلـه غيره﴾** (الأعراف: ٦٥).

تلك هي خلاصة دعوة الرسل التي أول ما تعني: إلغاء الأرباب من دون الله وتحرير البشرية من تأله الإنسان على الإنسان يشرع له ويتصرف به كما يشاء حتى أن عتبة الدخول إلى الإسلام تبـدأ بشهادة أن لا إله إلا الله والانخلاع من سائر الألوهيات والأرباب التي تشكل مشكلة البشرية تاريخياً حيث لا تلبث أن تحول الزعامات إلى أرباب وأوثان تمارس السيطرة على الناس وتهدر آدميتهم وتتحكم بمصائرهم وعندها تبـدأ العبودية المتبادلة بحيث لا يكاد ينجو منها أحد فطالب الزعامة والعلو في الأرض هو في الحقيقة عبد لمن يعينه عليها ويدعم وجوده واستمراره فيها وإن كان في الظاهر هو الزعيم والقائد المطاع فهو في الحقيقة عبد لمن يستمد منه التأييد والحماية لذلك نراه يبذل له الأموال ويغدق عليه المناصب والهبات من أموال الأمة ولا يتجرأ على معاقبته على جرائمه وشيئاً فشيئاً يصبح لبعض البشر مصلحة في تأييد ومساندة هذا الزعيم المتأله أو ذاك لأنهم يتوهمون أنهم أصحاب المصلحة الحقيقية بوجوده فيغيب الحق والعدل، وتصبح العبودية متبادلة ويصير الذل حاسة من حواس الإنسان ويبقى سبيل التحرير هو طريق النبوة وذلك بأن يكون الله هو المولى والمستعان ومن هنا نكتشف شدة المواجهة بين طريق النبوة وطريق الطغاة.

فالنبوة في حقيقتها حركة تحرير ودعوة رحمة وميثاق خلاص وإن الذين يحاولون إلغاء النبوة وتحريف النـص الـديني والتعسف في تطبيقه فمحاولاتهم في الحقيقـة هي اعتداء على حقوق الإنسان فالنبوة تعني التحرير وتعني المساواة التي هي روح الحقوق الإنسانية ومنطلق الحضارات وعمارة الأرض فالحرية هي التي تجعل الإنسان كريماً يأخذ امتداده الطبيعي بخصائصه الذاتية على أوسع مدى

موجهاً بضوابط الشرع والأرباب يحاولون دائماً إلغاء النبوة أو إبعاد رسالتها عن الحياة لأن النبوة أقل ما يقال فيها: أنها تسويهم بغيرهم وهم يريدون أن يكونوا آلهة للعصر.

وقد يكون من المفيد الإتيان على بعض النماذج من الإدراك العميق لمعاني النبوة في ميدان حقوق الإنسان وبعض التطبيقات العملية.

ولعل من أبرز النماذج الدالة على إدراك دور النبوة في تحرير الإنسان موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما سأله رستم عن دوافع الفتح والمجيء إلى بلاد فارس فقال ربعي: (جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) إنه الإدراك الكامل لمدلول النبوة في تحرير الإنسان لا يحتاج إلى كثير شرح وتعليق.. جاء المسلمون لإخراج العباد في فارس من عبادة وتسلط العباد أمثالهم ـ الأكاسرة وطبقة الحكم ـ وإخراج الناس من الجور إلى العدل والمساواة ومن تحكم الدنيا وأسرها إلى رحابة الدنيا والآخرة.

ولعل في حادثة أبي ذر الغفاري مع بلال الحبشي رضي الله عنهما خير أنموذج لمدلول النبوة في الواقع العملي وإعادة صياغة الإنسان واسترداد حقوقه المهدورة: **فقد تلاحى أبو ذر الغفاري مع بلال الحبشي فنهر أبو ذر بلالاً قائلاً: مه يا بن السوداء (ومه اسم فعل أمر بمعنى: اكفف) فشكا بلال أبا ذر إلى رسول الله ﷺ فاستدعى الرسول أبا ذر وقال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية لا فضل لابن البيضاء على ابن السوداء إلا بالتقوى إخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من الأمر فوق طاقته وإذا كلفه فليعنه..» فأقسم أبو ذر أن يضع خده على الأرض ويدوس بلال بقدمه على الخد الآخر ليقتلع ما في نفسه من آثار الجاهلية ونظرة التمييز ومنذ ذلك الوقت لم يعرف أبو ذر من غلامه.**

هذه هي النبوة وتلك هي الجاهلية.

وحادثة عمر بن الخطاب مع ابن عمرو بن العاص والقبطي وقولته الشهيرة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

وحادثة جبلة بن الأيهم الأمير الغساني مع الأعرابي عندما ضربه فهشم وجهه وحكم عمر للأعرابي بالاقتصاص من جبلة وكيف رفض جبلة ذلك قائلاً: كيف يا أمير المؤمنين وأنا أمير وهو سوقة فكانت قولة عمر الخالدة: «لقد سوى الإسلام بينكما».

وأعتقد أن النماذج في مرحلة النبوة والخلافة الراشدة أكثر من أن تحصى وإن كان العالم الإسلامي اليوم تعيش فيه أبشع صور انتهاكات إنسانية الإنسان بسبب حيدته عن الإسلام وإخراجه عن طريق النبوة وفصل الدين عن الحياة بأقدار متفاوتة بين بلد وآخر ذلك أنه لا سبيل إلى استعباد إنسان العالم الإسلامي الذي يتمتع بهذا الميراث الحضاري في حقوق الإنسان إلا بإخراجه ورده عن دينه **﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾** (البقرة: ٢١٧).

[١٥ و١٦ شوال ١٤١٠ هـ - ١٠ و١١/٥/١٩٩٠ م]

حق الله على البشر

حقوق الإنسان في الإسلام هي دين من الدين، شرعها الله، وبينها الرسول ﷺ، ولم يأت إقرارها نتيجة لمطالبات ومظاهرات، وعذابات وتضحيات. هي دين كما أسلفنا، الذي يتجاوزه، أو يساعد على انتهاكه ويكون ظهيراً للمجرمين، يعاقب في الدنيا، ويحاسب في الآخرة، وهذا لا يعني أن المسلمين لم يدفعوا الثمن الباهظ لإقرارها وتحقيقها، فلقد كانت الفتوحات، والتضحيات، وشرعية الجهاد من أجلها.

إن حماية إنسانية الإنسان، هي مقصد الشريعة وغايتها، وذلك أن الشريعة، إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، وأن مصالحهم لا تتحقق إلا بحماية الكليات الخمس (الضروريات الخمس)، وهذه الضروريات هي: (العقل، والدين، والنفس، والعرض، والمال). وهي في الحقيقة، حقوق الإنسان الأساسية التي لا تتحقق إنسانيته، وتحفظ كرامته، إلا بتوفيرها، وحمايتها، كحق الحياة، وحق حرية التدين والاختيار، وحق التملك والتصرف، وحق بناء الحياة الاجتماعية والنسل، وحق التفكير والتعبير.

والإسلام لم يكتف بتقرير هذه الحقوق، وإغراء الناس بها، والتدليل على فائدتها وأهميتها، بل اعتبر انتهاكها، والاعتداء عليها جريمة، وجعل عقوبتها نصية غير قابلة للاجتهاد وتقدير القضاة والحكام. وما شرعية الحدود، وهي العقوبات

المحـددة المنصوص عليها من الله سبحانه وتعالى، والتي يعتبر تنفيذها عبادة، إذا تأملنا فيها، إلا حماية لهذه الحقوق، أو هذه الكليات.

فحد القصاص شرع لحماية حق الحياة.

وحد الحرابة لحماية حق الأمن الاجتماعي.

وحد السرقة لحماية حق التملك.

وحد الزنى لحماية حق النسل، وبناء الحياة الاجتماعية.

وحد القذف لحماية حق الإنسان بسلامة السمعة والعرض.

وحد الشرب لحماية حق الفكر والإرادة، وحماية العقل مما يغتاله من الخمر والمخدرات.

فالحقوق دين، والاعتداء عليها جريمة، وعقوبة المعتدي حدية لا مجال فيها للاجتهاد.

وأكثر من ذلك حيث يعتبر كثير من الفقهاء أن هذه الحقوق هي في حقيقتها حقوق لله سبحانه وتعالى، تشريفاً لها وتعظيماً، وحدود شرعيـة لا يجوز تعديها أو انتهاكها، لأن انتهاكها عدوان على دين الله.

ذلك أن بعض الحقوق، وإن تنازل أصحابها عن حقهم في العقوبة، في حالة الاعتداء عليها، فإن هذا التنازل لا يسقط العقوبة، فكل تكليف حكم لله، وكل حكم شرعي مصلحة وحق للعبد، وقولنا: إن حقوق الإنسان في الإسلام دين، فمعنى ذلك أنه لا يغني فيها التظاهر، والشعار، عن الحقيقة، لأن الله يعلم السر وأخفى، وقد نهي المسلمون أن يقولوا ما لا يفعلون قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾** (الصف: ٢ ـ ٣).

حيث رفض الإسلام فكرة الشعارات التي لا نصيب لها من الواقع، واعتبرها من التضليل الثقافي، والزيف الاجتماعي، الذي لا يغني عن صاحبه شيئاً، بل يؤثم صاحبه. فمن خالف قوله فعله، فكأنما يوبخ نفسه، فلا بد إذن من اقتران الإيمان بالعمل، والعلم بالحكمة والهدف.

وطالما قررنا أن هذه الحقوق دين وعقيدة بالنسبة للمسلم، يحرم انتهاكها، وأنها حقوق الله، وحدوده الشرعية، لها ما لها في حياة الإنسان لذلك لم يدع الإسلام أمر تحديدها وتقريرها للإنسان، لأن الإنسان مدفوع غالباً بتحقيق مصالحه، ومصالح قومه، وقبيلته، وحزبه، وطبقته، وجنسه، وطائفته، وأحياناً لونه، لذلك لا بد أن تأتي تشريعاته متأثرة بذلك كله، وقد يتقلب رأيه من زمن لآخر بحسب ظروفه. وقد يرى من الحقوق وهو في مقاعد المعارضة، ما لا يراه وهو في مواقع الحكم، وكثير من الذين يعملون في مواقع السياسة والحكم اليوم، كانوا ينتصرون للحرية والديمقراطية، قبل الوصول إلى السلطة، ومن ثم أصبحوا بعد الحكم من سدنة الاستبداد السياسي وطواغيته، مارسوا ألواناً من التعسف والقمع الديمقراطي! ما لا يعلم مداه إلا الله، إضافة إلى أن الإنسان: علمه محدود برؤيته، ومواهبه، وكسبه، وعمره محدود، يمنعه من الإحاطة بالماضي والحاضر والمستقبل حتى لو افترضنا فيه الموضوعية. لذلك نقول هنا: إن الله الذي خلق الإنسان هو أعلم بالحقوق والتشريعات، التي تحقق له السعادة، والمصلحة، قال تعالى: ﴿**ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير**﴾؟ (الملك: ١٤).

إضافة إلى أن موضوع تشريع الحقوق، لو أوكل للإنسان لشرع من الحقوق ما يناسبه، وقد يأتي تشريعه تسلطاً على الآخرين، هذا من جانب، ومن جانب آخر لا توجد الضمانات، التي تحمل الآخرين، على قبول رأيه وتشريعه للحقوق، وهو إنسان مثلهم، علاوة عن أن مثل هذه التشريعات تأتي عادة وسيلة للتحكم بالآخرين.

أما عندما تكون من عند الله، يتساوى أمامها الجميع، وتبرأ من الغرض والهوى، وتحقق الاستقرار، وتنسخ فكرة أن يتخذ الناس بعضهم أرباباً من دون الله، إلى جانب ما يمتاز به الحق الذي شرعه الله، ومنحه من القدسية، الأمر الذي يجعل الإنسان متحمساً للالتزام به في السر والعلن، لما يترتب على ذلك من ثواب وعقاب، وبهذا نقول: إن الإسلام اعتبر الحقوق الإنسانية حقوقاً وواجبات معاً، فهو لم يكتف بإقرار الحق، وإنما أوجب الحفاظ عليه، ولم يكتف بإقرار حق التعبير والتفكير، وحرية القول، وإنما أوجب على المسلم الصدع بقول الحق والتضحية في سبيله، واعتبره في بعض المراحل من أعلى أنواع الجهاد: (إن من

أعظم الجهاد قولة حق عند سلطان جائر)، كما أن الإسلام منح حق الحياة، وأوجب الحفاظ عليه، واعتبر الاعتداء عليه اعتداء على الناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿**من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً**﴾ (المائدة: ٣٢)، ورتب عقوبة القصاص حماية للحق فقال تعالى: ﴿**ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب**﴾ (البقرة: ١٧٩)، وحرم على الإنسان التصرف غير الشرعي في هذه الحقوق، فحرم عليه الانتحار، وتناول السم، وعدم استعمال الدواء، ورخص في العبادة التي قد تصل إلى مرحلة تهديد الحياة.

ويحسن أن نشير هنا إلى أن الإسلام ربى الإنسان على الحس بالواجب، لأن الإنسان بطبعه يخف للمطالبة بحقه، ويتثاقل عن القيام بواجبه، لذلك كان لا بد من علاج للبناء الإنساني في هذه النقطة، فلعلنا نقول: إن إنسان الحق هو أقرب بطبعه للأخذ والاستهلاك، أما إنسان الواجب الذي رباه الإسلام فهو إنسان العطاء والإنتاج، هو الإنسان الذي يبني ويعمر الأرض، ويحمي البناء، ويستشعر مسؤوليته تجاه الآخرين، أما الإكثار من الكلام عن الحق دون التنبه إلى قضية الواجب، فيمكن أن يبني الإنسان، الذي لا يستشعر إلا ذاته ومصلحته، ولا يبحر إلا باتجاه نفسه، وكأن المطلوب للعالم اليوم: وجود رواد ونماذج يحسون بواجباتهم، أكثر من إحساسهم بحقوقهم. لأن معظم الناس في الساحة الإسلامية ـ مع الأسف ـ وغيرها من الذين يعملون بحسب الظاهر لمبادئهم، ودعواتهم، إنما يعملون في الحقيقة لأنفسهم، يحسون بحقوقهم، وينسون واجباتهم.

[٢٢ و٢٣ شوال ١٤١٠ هـ ـ ١٧ و١٨/٥/١٩٩٠ م]

إهدار إنسانية الإنسان في العالم الإسلامي

لا بد أن نعترف أن الإنسان في معظم أنحاء العالم الإسلامي اليوم، يعيش وضعاً مأساوياً يفتقد معه إنسانيته، ويطارد في طعامه، وشرابه، وحياته، وعرضه، وأمنه، والمؤسف أن تتم هذه المآسي تحت شعارات الحرية والديمقراطية، والعدل الاجتماعي، ولعل ذلك من أشد الفتن التي يعيشها المسلم اليوم، صاحب ذلك الميراث الثقافي، في الحضارة وحقوق الإنسان، ولولا أن المبادىء الإسلامية في الإطار العام وإطار حقوق الإنسان خاصة، أثبتت نجاحها وصوابها التاريخي، لقادت كثيراً من الناس إلى التشكك فيها، لأن الممارسات التي يعيشها العالم الإسلامي تزلزل كل عقل، وتقضي على كل أمل، خاصة وأن حقوق الإنسان العامة، مكفولة بالغرب بأقدار لا تقاس بواقع العالم الإسلامي اليوم إلا من رحم الله.

لقد أقيمت لها المؤسسات، ووضعت لها التشريعات، وشكلت لها اللجان، والمنظمات، إلى درجة ـ وهذا مزيد فتنة ـ قد يجد معها المسلم أن كرامته وحقوقه محفوظة في الغرب غير المسلم أكثر منها في بلده! ولا ندري، فلعل إشاعة أنظمة الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي في معظم أنحاء العالم الإسلامي، ومحاولة إخراجه عن الإسلام، وإسقاط الإسلام من نفوس أبنائه بوسيلة، أو بأخرى، هو المخطط الذي بدأ يؤتي أكله اليوم، لتسهل عملية السيطرة عليه والتحكم به. فقد تجد بعض لجان حقوق الإنسان، ومنظمات العفو الدولية، تتقدم لتدافع عن الحقوق المهدورة، والإنسان المطارد

في العالم الإسلامي، فكيف والحالة هذه اليوم، نستطيع أن نرتقي بالفرد المسلم، ليتجاوز الصورة إلى الحقيقة، ويفرق بين المبادىء التي درسها، والتطبيقات التي يراها؟ لذلك قد لا يكون غريباً ما نراه من الهروب إلى التاريخ، والالتجاء والاعتصام به، لأن واقعنا تصدق فيه قولة: (اقرأ تفرح، جرب تحزن).

ولا شك أن التجربة الحضارية الإسلامية، في إطار الحقوق الإنسانية، كتبت في التاريخ وحفرت في الواقع، صفحات لا تنسى، مما يؤكد أن الإدانة اليوم لا بد أن تنصرف إلى الممارسة السيئة التي لا يمكن أن تنال من المبدأ الذي أثبت جدارته عندما كانت الممارسة صحيحة في مرحلة النبوة والخلافة الراشدة، وفي فترات التاريخ المتعددة كلما صوب المسار.

وبذلك يختلف الإسلام عن جميع المبادىء والنظريات المطروحة، والتي يحاول أصحابها الإلقاء بتبعة فشلها على التطبيق، وليس على النظرية، ذلك أن تلك النظريات لم تؤكد صلاحيتها، إطلاقاً في أية مرحلة تطبيقية من مراحل التاريخ، بل جاء الفساد من النظرية والتطبيق معاً.

لقد كان شعار الإسلام العالمي في إطار حقوق الإنسان قوله تعالى: **﴿لا إكراه في الدين﴾** (البقرة: ٢٥٦)، و **﴿لست عليهم بمسيطر﴾** (الغاشية: ٢٢)، و **﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** (يونس: ٩٩). وجاء الواقع العملي ليؤكد الالتزام بهذا الشعار، والانضباط به، فلقد وصلت الدولة الإسلامية إلى مرحلة لا يمكن لأحد إلا الله أن يحاسبها على مسالكها، ومع ذلك احتفظت بمواطنين لا يؤمنون بعقيدتها، لهم ما للمؤمنين وعليهم ما على المؤمنين، لهم حق الأمن والحرية والاستجارة **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه﴾** (التوبة: ٦). بهذا خلد الإسلام، لأنه احتفظ بإنسانية الإنسان، وكرامته عندما اعترف باختياره فالإنسان في خلاصة القول: هو المخلوق المختار، ذلك أن عمليات القسر والإكراه، على عقيدة ما، لا تصنع قناعة، وإنما تضع أقنعة يعيش الإنسان معها معذباً، مزدوج الشخصية، بين قناعاته، وما يفرض عليه، وعندها إما أن يسقط الإنسان، وإما أن يسقط النظام الذي يمارس الإكراه، وإما أن

تستمر رحلة العذاب والشقاء البشري. ومن خلال استقراء التاريخ، وقراءة الواقع، يصل الإنسان إلى حقيقة لا بد من التأكيد عليها، وهي: أن قناعة الإنسان وإيمانه، أقوى من كل وسائل الإكراه. ولعل ما حدث في دول المعسكر الشرقي، حيث نشهد اليوم سقوط الدكتاتوريات العسكرية، والدكتاتوريات الحزبية، التي حاولت على مدى سبعين سنة حراسة المبادىء بالحراب، وحمايتها بالأسوار، وإلغاء الإنسان، بعقيدته وعبادته، وتربى جيلان على فلسفاتها، خير دليل على أن الإيمان أقوى وأمضى، فالأمم أقوى من الحكومات، والعقائد أبقى من الفلسفات، وأن الأرباب المزيفة لا تلبث أن تنكشف حقيقتها، ويفتضح مخبوؤها. وهنا ندرك قيمة الإيمان بالله، وما يمنحه للإنسان من وقاية من اليأس، وصمود أمام الظلم، وصبر على تقلب الابتلاءات.

والحقيقة التي لا بد من ذكرها هنا أيضاً هي أن العقد الأخير من القرن العشرين يمكن أن يسمى بحق: عقد حقوق الإنسان، إلى درجة أصبح معها الدفاع عن حقوق الإنسان هو الصوت المسموع عالمياً، ويحق لنا أن نتساءل هنا: أين موقع الخطاب الإسلامي الذي يستطيع تجاوز الواقع البئيس في العالم الإسلامي ليطرح فلسفة حقوق الإنسان في الإسلام، ويقدم الصور النقية للمجتمع الفاضل، من خير القرون، التي تغري الناس، بعد أن أفلست الفلسفات، وسقطت التجارب، والممارسات؟ وقد يكون المطروح اليوم: كيف يمكن أن نعيد للخطاب الإسلامي بعده العالمي والإنساني، ونرتفع به على مستوى الاهتمامات الصغيرة والمحلية، التي نشغل بها، لنهتم بقضايا الإنسان أينما كان، في العدل، والحرية، والسلام، والمساواة، والتنمية، والأمن الغذائي، ونعيد الإسلام إلى مرحلة الشهود الحضاري، ونرتقي به، لنكون بمستوى الخطاب الإسلامي، ومستوى العصر في وقت واحد.

إننا نشكو اليوم في كتاباتنا، ومؤلفاتنا، وخطبنا، ووعظنا، من هذا السيل الإعلامي الذي يحاصرنا، والبث المباشر الذي يقترب منا يحمل إلينا ثقافات ومبادىء الأمم الأخرى، ويعبد أمتنا لتلك الثقافات، وذلك بسبب

تقدم وسائل الاتصال، وإلغاء المسافات وتطور وسائل النقل، وإلغاء الحدود والسدود، ودخول العالم في مرحلة الدولة الإعلامية الواحدة، وما ذلك إلا لأننا لا نرى إلا الوجه السلبي للموضوع، وذلك لعدم قدرتنا، وعجزنا عن التعامل الإيجابي المطلوب. لماذا لا نعتبر أن هذه التسهيلات تمنحنا فرصة للوصول بالخطاب الإسلامي إلى العالم، وتمكننا من عملية البلاغ المبين لإبراز صورة حقوق الإنسان في الإسلام، وما يتمتع به المجتمع الذي يلتزم الإسلام من إنسانية سعيدة، وبذلك ننقذ الإنسان من مأساته التي يعيشها؟.

[٢٩ - ٣٠ شوال ١٤١٠ هـ - ٢٤ - ٢٥/٥/١٩٩٠ م]

لقد سوى الإسلام بينكما

من الأمور الأساسية التي مكنت الإسلام من الانتصار والانتشار مسألة المساواة التي جاءت ثمرة للإيمان بالإله الواحد، مصدر الخلق جميعاً وبأن الناس جميعاً منحدرون من أصل واحد.

فإذا كان ربهم واحداً، وإذا كان أبوهم واحداً، فإن ذلك يعني أول ما يعني المساواة، وإلغاء التمايز وجميع الفوارق العنصرية، كاللون والقوم والعنصر، وجعل ميزان الكرامة منوطاً بكسب الإنسان ومرتبطاً باختياره.

يقول تعالى: **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾** (الحجرات: ١٣) ويقول الرسول ﷺ: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى».

فقضية المساواة هي روح الحضارة الإسلامية التي أغرت الكثير أن يدخل دين الله بعد مشاهد ونماذج من المساوة كان العالم محتاجاً للاستضاءة بها في ليله الدامس من أثر التمييز والتسلط بكل ألوانه.

وحتى اليوم وعلى الرغم من مرور أربعة عشر قرناً على بدء الوحي الإسلامي مع ذلك لم يتخلص العالم من ألوان العنصرية والتمييز التي تأخذ أشكالاً متعددة حتى في المؤسسات التي يفترض أنها إنما أنشئت لتقرير العدالة

والمساواة فلا تزال هيئة الأمم المتحدة تعاني إلى هذه الساعة من حق بعض الدول في التسلط والتميز على غيرها بما أعطت لنفسها من حق النقض (الفيتو).

حتى أن كثيراً من الأمم التي تنادي بالمساواة وحقوق الإنسان صعب عليها أن يكون النداء عالمياً لكل الناس فهي لا تزال تميز في انتصاراتها وتأييدها بين شعب وآخر فحقوق الإنسان الأمريكي والأوروبي أو الإسرائيلي يجب أن يدافع عنها أما حق الشعب المسلم في فلسطين وأريتريا وأفغانستان والفلبين وغيرها من الدول الإسلامية الكثيرة التي يسود فيها القمع والسجون والاستبداد السياسي فلا تأخذ القدر نفسه من الاهتمام ولا شيئاً منه، بل قد تكون تلك الدول وراء هذا القمع.

ولا بد أن نعترف أن واقع المسلمين اليوم يتنكر للتعاليم الإسلامية في العدالة والمساواة إنه واقع محزن وكأننا الوليد غير الشرعي للحضارة الإسلامية لقد غابت العدالة والمساواة بغياب الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً وعادت الجاهلية تذر بقرنها بين المسلمين.

فواقعنا اليوم لا يغري أحداً بالإسلام ولا يثير الاقتداء بل قد ينفر سلوك بعض المسلمين من الإسلام.

وليت تلك الإصابات اقتصرت على المؤسسات التي لا تلتزم بالإسلام فلو اقتصرت عليها لهان الأمر لكن المشكلة أن الإصابة لحقت ببعض المؤسسات الإسلامية التي لم تستطع الانفلات من مناخ الظلم والاستبداد فأصبحت الأمة معها كالغاص بالماء وأصبحت هي عاجزة عن تقديم أي دليل عملي على الإسلام بل لعلها دليل على الهروب من الإسلام.

وفي اعتقادي أن مناخ الحرية والمساواة هو المناخ الذي لا بد من توفيره لنمو الإسلام وانتصاره وانتشاره فالإسلام اختيار ولا اختيار مع الظلم والإكراه وإنه لا بديل لدعاة الإسلام من الانتصار لقضايا الإنسان من الحرية والكرامة والمساواة والتضحية في سبيل تلك القيم والابتعاد عن التعامل مع مؤسسات الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والتميز العنصري أو اللوني أو القومي لأنها من نخوة الجاهلية التي حرمها الإسلام.

وما لم ينتصر دعاة الإسلام للحرية والعدالة والمساواة يكونون في دعوتهم الناس إلى الإسلام كمن يستنبت البذور في الهواء. ويصير عملهم إلى هواء.

وفي النصوص الإسلامية رصيد لهذه القيم لا ينفد، وفي العطاء الحضاري للشخصية الحضارية الإسلامية تطبيقات لا تزال معالم هادية لم تستطع البشرية تجاوزها على الرغم من كسبها المقدور في هذا المجال. بل لعلنا نقول: إن إخفاق الكثير من القيم والمبادىء الغريبة عن الإنجاز في عالم المسلمين كان بسبب عجزها وقصورها عن محاكاة الشخصية الحضارية الإسلامية.

فالمسلمون اليوم لا ينطلقون من فراغ في موضوع الحرية والعدالة والمساواة كبقية الشعوب وإنما لهم شخصية تاريخية إما أن تعود إلى حياتهم، وإما أن يكون التخبط والصراع وعدم الاستقرار، كما هو الحال لأنهم لا يرضون بما دونها من القيم والمبادىء المطروحة عليهم، خاصة وأن التطبيقات التي يرونها صباح مساء تعني النكوص والسقوط الحضاري مهما زينها الشيطان ويبقى حنينهم إلى شخصيتهم التاريخية ومجدهم المفقود، فما طرح لم يستطع أن يكون البديل.

نقول هذا الكلام بمناسبة موسم الحج ذلك الموسم الذي يعود بالإنسان إلى كثير من الذكريات التاريخية التي تنتصب في كل عام شاهد إدانة على تفريط المسلمين حكاماً ومحكومين في أمر دينهم.

لقد كان آخر كلام الرسول ﷺ للناس في حجة الوداع: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء إن مآثر الجاهلية تحت قدمي».

والنداء الإلهي المميز لتربية من كانوا يريدون ديناً خاصاً بهم ومجتمعاً خاصاً لهم وحجاً خاصاً أيضاً وإفاضة خاصة بهم: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس.

إن هذا البيت الذي يشهد اليوم تطبيقات للمساواة في الشكل والمضمون معاً في اللباس والشعار والمنسك قد شهد تاريخاً مشرقاً من المساواة خالدة خلود الإسلام نفسه لا تبلى جدتها على الزمن.

فكان مما شهد البيت الحرام في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن جبلة بن الأيهم الأمير الغساني اعتنق الإسلام ولكن والله أعلم جاء إلى الإسلام بكل أحماله وأثقاله وأبعاده الجاهلية فلما قدم البيت الحرام ليطوف حول الكعبة وبسبب من الزحام داس أعرابي بسيط على طرف ثوبه أثناء الطواف، فالتفت إليه جبلة وضربه فهشم وجهه، فما كان من الأعرابي إلا أن شكا أمره إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث ينتصف عنده المظلوم من الظالم فاستدعى عمر رضي الله عنه جبلة ولما سمع منه القضية، قال له عمر: لا بد أن يقتص منك الأعرابي ويضربك كما ضربته فقال جبلة: كيف يا أمير المؤمنين وأنا أمير وهو سوقة؟ قال: لقد سوى الإسلام بينكما فقال جبلة أمهلني فأمهله فتنصر وهرب ولحق بالروم.

إن جبلة لم يطق المساواة في المجتمع الإسلامي فذهب ليعيش في مجتمع الروم.

وعمر رضي الله عنه لم يساوم على قيم الإسلام ولم يقبل وهو الخليفة، بدون الموقف المبدئي وإن خسر عمر بهذا الموقف جبلة وبعض قومه الذين كانوا معه، لو أن عمر تساهل وكان موقفه سياسياً ولم يكن مبدئياً. إلا أن عمر أصل للمبدأ ورسخه للتاريخ والمستقبل. وإن خسر جبلة، وبقيت قولته: لقد سوى الإسلام بينكما معلم هداية يتجدد مع تجدد الزمن.

فهل يشعر المسلمون بشكل عام ودعاة الإسلام بشكل خاص أن العدل والمساواة والحرية هي دعائم الإسلام ومناخه الطبيعي وبدونها لا يقوم وتتجدد تلك المعاني في النفوس في رحلة الحج فتعزم عزيمة الرشد بمناسبة الطواف حول الكعبة والتوجه إلى المسجد الحرام كل يوم خمس مرات وهل ندرك معنى الطواف ومعنى التوجه أم هي أشباح بلا أرواح تتحرك دون جدوى؟.

[٣ ذو الحجة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٧/٦ م]

الشورى عقيدة إسلامية

لئن كانت الشورى أو ما يسمى بالديمقراطية تمثل خياراً سياسياً في الحضارات الحديثة والأمم المتقدمة انتهت إليه بعد رحلة طويلة من المعاناة والظلم والاستبداد السياسي فهي بالنسبة للمسلمين عقيدة ودين يترتب على التزامها الخير والعدل والمساواة في الدنيا والثواب في الآخرة..

وعلى الرغم من أن الرسول ﷺ مستغن عن الشورى بالوحي لأنه مؤيد ومسدد به فإذا اجتهد وأخطأ صوب له الوحي وإذا اجتهد وأصاب أيده الوحي وأقره، ومع ذلك أمره الله سبحانه وتعالى باستشارة المسلمين فقال: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ (آل عمران: ١٥٩) لتتأصل الشورى وتصبح قيمة من قيم الحياة لا يجوز العدول عنها تحت أي ظرف من الظروف أو مسوغ من المسوغات.

ولئن أمر الرسول ﷺ بالمشاورة وهو من هو فهي بالنسبة لغيره ألزم وغيره من حكام ومحكومين لها أحوج.

فالشورى هي اجتهاد جماعي مفروض لإدارة أمور الأمة وتصريف شؤونها فهي استفادة من جميع الآراء والأفكار، إلى جانب ما تمنحه من عنصر الاطمئنان الذي تكسبه للإنسان بسبب حق المشاركة في اتخاذ القرار الذي يحكم الناس ويرسم سياستهم ويحدد مستقبل حياتهم وأهم فوائدها القضاء على التسلط والتحكم الفردي والاستبدادي الذي يهلك الحرث والنسل ويدمر

الأفراد والجماعات وينتهي بأصحابه إلى السقوط الحضاري والتآكل الاقتصادي والانهيار الاجتماعي.

ومن الحقائق التي أصبحت مسلمات لا تقبل الجدل يؤيدها استقراء التاريخ وقراءة الواقع المتردي على أكثر من موقع من مواقع الظلم والاستبداد في العالم أن لا عصمة لأحد بعد الأنبياء.

فإذا كان الأنبياء المعصومون قد أمروا بالشورى والأمر يقتضي الوجوب فما بال بعض المفسدين والظالمين من الذين تسول لهم أنفسهم أنهم فوق مرتبة النبوة.

والعصمة بعد محمد ﷺ ليست لأحد وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا الرسول ﷺ كما يقول الإمام مالك.

لكن جعل الله من خصائص هذه الأمة صاحبة الرسالة الخالدة ألا تجتمع على ضلالة ولا تجتمع على خطأ كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

والاجتماع على الخطأ والضلال ليس المقصود به هنا فقط الإجماع التشريعي الذي عرفه علماء الأصول وعرضوا لأنواعه وتاريخه وإمكانية تحققه فقط.

وإنما هو أيضاً الإجماع في سائر أمور الحياة السياسية والإدارية والدستورية. ولا أرى وسيلة يمكن أن تحقق الإفادة واستطلاع جميع الآراء من الشورى لذلك اعتبرها الله قيمة هامة في البناء الإسلامي فأمر الرسول ﷺ بها كما أمره بإبلاغ الدعوة والصدع بها. فالشورى والحوار والنقد والمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبادل وجهات النظر هي الأقنية الطبيعية للوصول إلى عصمة الأمة والحصول على الصواب ومجانبة الخطأ.

ولا بد من الاعتراف بأن الشورى بشكل عام والشورى السياسية بشكل خاص قد غابت عن واقع المسلمين غياباً مبكراً. وأصبحت الشورى لوناً من الصورة التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

فهي غائبة على كل المستويات في الأسر والإدارات والمؤسسات والمنظمات والدول والحكومات والتدريب عليها مفقود في مناهج التربية ووسائل التعليم.

والإصابة الأبلغ تسلل هذه المعصية إلى بعض التجمعات الإسلامية التي كان يفترض فيها أن تكون رائدة في تأصيل الشورى وإغراء الناس بها لكن البلاء عم ولحقت ببعض العاملين في المؤسسات والمنظمات الإسلامية أدواء مجتمعهم فأصبحنا كالغاص بالماء.

وقد لا نستغرب بعض المشاهدات التي باتت مألوفة في عالم المسلمين اليوم من التوقف عند مندوب أو مسنون أو نافلة والاختلاف حولها وصرف الجهود والطاقات والأقوال والأوقات لإثبات الوجود فقط. في الوقت الذي لا تأخذ قضية الشورى والعدل والمساواة وهي ما هي من الخطورة من اهتمامنا أقل القليل.

هل ذلك بسبب حواس الذل التي زرعت فينا أم هو مناخ التخلف الذي يستدعي مزيداً من التخلف والارتكاس؟.

[١٨ رمضان ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٤/٢٣ م]

ديمقراطية.. لكن
لغير المسلمين

من مأساة جيلنا وفتنته أنه جاء إلى هذه الدنيا ـ وكل شيء بقدر ـ في الوقت الذي بلغ فيه العالم العربي والإسلامي أسوأ حالات السقوط الحضاري، والتمزق السياسي، والتبعثر الفكري، والاستبداد السياسي والغزو الإسرائيلي، وسيطرة الحضارة الغربية بمقولاتها السياسية ومناهجها الفكرية، ومنتجاتها الاقتصادية، على كل شيء الأمر الذي أصاب كثيراً من الناس بالانبهار والعجز عن إدراك أبعاد الشخصية الحضارية التاريخية الإسلامية.

بل لعل كثيراً من الناس قرر الالتحاق الكامل بركب الحضارة الغربية وهذا قد يكون نتيجة طبيعية من بعض الوجوه، ذلك أن صياغة الإنسان في التعليم والإعلام والثقافة والصناعة والاقتصاد تتم على الطريقة الغربية وفي مناخها الثقافي.

ولا شك أن الواقع في العالم الإسلامي أو بعضه على الأقل يشكل فتنة مزلزلة فعلاً حيث تلغى إنسانية الإنسان، وتطارد ملكاته وتحاصر مواهبه وقد لا يجد نفسه إلا في أحضان الحضارة الغربية وبلادها حيث يتمتع الإنسان هناك بالحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة وتصان حقوق الإنسان، لذلك يخدع إنسان العالم العربي وتأسره الصورة قبل أن يدرك الحقيقة، وقد ينقضي عمره وهو يعيش على سطوح الحضارة الغربية قبل أن يبصر أعماقها التي لا تزال تمثل الحضارة الغازية والمتحدية التي تعاني من الروح الصليبية ولم تستطع أن تنفك عنها وإن تغيرت اليوم وسائلها وممارساتها، إنها تنطلق من أن الرجل

الأوروبي هو صانع الحضارة وسيد العالم وحضارته هي المقياس، وأن غيره من الأمم والشعوب يجب أن تنقاد له وتبقى دائماً سوقاً لمنتجاته وفي موقع المتلقي لأفكاره وحتى لا نقع ضحايا الأسر الحضاري الأوروبي والغزو الثقافي كما وقع الآخرون كان بعض أساتذتنا يرحمهم الله يحاول كلما سنحت له الفرصة أن يفتح أبصارنا على الحقائق ليخلصنا من خداع البصر فالبصر لا يغني عن البصيرة.

وكانوا يقولون لنا: إن المبادىء الإنسانية التي تغزو بها الحضارة الغربية الأسواق العالمية لتكسب زبائنها إنما شرعت في الحقيقة للإنسان الأوروبي والأوروبي فقط في بلاده الأوروبية فإذا خرج إلى آسيا وإفريقيا انقلب إلى إنسان آخر تماماً إنسان مستعمر مستغل عنصري، وكانوا يقلبون لنا بعض صفحات التاريخ القديم والحديث لنرى العنصرية التي يمثلها إنسان الحضارة الغربية على حقيقتها فلا نخدع بكل المظاهر التي تسحر أعين الناس، ولا تزال تسحر عيوناً كثيرة على الرغم من كل شواهد الإدانة في أفريقيا وآسيا، وعلى الرغم من كل الخلفيات والمعطيات التي وفرتها لنا الغزوة الإسرائيلية والدولة العنصرية التي زرعت في أرضنا فلسطين متجاوزة كل حق وعدل وخلق ودين وتكفي هذه القضية معرة للحضارة الغربية إن لم تقترف غيرها، ولعل التبصر بالقضية الفلسطينية وما تتضمنه من الصراع الحضاري والغزو العسكري والاستعمار الاستيطاني والتشكيل العنصري لا يدع استزادة لمستزيد.

فالحرية والديمقراطية والمساواة والعدالة وحقوق الإنسان هي في أوروبا وأمريكا قيم وأرباب تعبد من دون الله فإذا تغيرت ساحات التطبيق من أوروبا وأمريكا إلى غيرها يجد الإنسان العجب العجاب فالإنسان الذي يقاتل عن الحرية هناك هو الذي يئد الحرية هنا وكأن مفهوم الحرية يعني عنده أن يصبح حراً في أن يفعل في الناس ما يشاء دون حسيب ولا رقيب.

وقد لا نستغرب كثيراً إذا رأينا دعاة الحرية وأنظمتها ومؤسساتها في أوروبا وأمريكا يساندون ويدعمون الاستبداد السياسي والنزعات الطائفية والإقليمية المتعصبة غير المسلمة في العالم الإسلامي لتزيد من تمزيقه وإنهاكه وإخراجه من الحاضر والمستقبل معاً.

٨/ ١٦٧٣

ولجان منظمات العفو الدولية وحقوق الإنسان لا يقلقها قتل مئات الألوف ولا تزعجها المقابر الجماعية في العالم الثالث إلا من باب ذر الرماد في العيون وتقيم الدنيا ولا تقعدها من أجل انتهاك قضية فردية قد تكون تافهة إذا كان صاحبها إنساناً أوروبياً، ودعاة الديمقراطية ومؤسساتها لا مانع عندهم من إلغائها والتنكر لها والكلام عن فسادها إذا كانت نتائجها لا تروق لهم، وينسون كل مبادئهم وينقلبون في لحظة حقد صليبي إلى دعاة للقمع والمحاصرة والتخويف والإغراء بالاستبداد السياسي لأن نتائج الديمقراطية تشكل حسب زعمهم خطورة عليهم وعلى مصالحهم ونستطيع أن نقول: إن أنظمة الاستبداد السياسي لا تتمكن من الاستمرار لحظة واحدة لأنها تفتقد كل مقوماته لولا الدعم والمساندة من الأنظمة التي تدعي الحرية والديمقراطية إنها الحرية والديمقراطية المصابة بالعور العقلي والعمى اللوني.

ولو فكر بعضها في التحول إلى قيم الحرية والديمقراطية وإتاحة قيم الحرية في عالم المسلمين فلا بد أن يلقى جزاءه بشكل أو بآخر.

لقد قامت الدنيا ولم تقعد بعد، ولن تقعد، عندما نجح الاتجاه الإسلامي في بعض البلاد الإسلامية في الانتخابات الديمقراطية على مستوى الجامعات والنقابات والمؤسسات السياسية وأتيح للشعب أن يعبر عن رأيه بحرية وأطلقت صفارات الإنذار هنا وهناك للتحذير من الأصولية والسلفية والإرهاب والتطرف والخطر القادم لاغتيال الحضارة والمنجزات الإنسانية، حتى ولو كانت الديمقراطية هي التي جاءت بالنتيجة فلتلغ الديمقراطية إذا كانت نتيجتها لصالح الاتجاه الإسلامي.

وتكرس صحف ووسائل إعلام الأنظمة الديمقراطية في العالم الغربي كل إمكاناتها وأقلامها للتحذير من ظاهرة المد الإسلامي وتغري أصحاب الشأن بالقضاء عليها بشتى الوسائل وتنقلب بلحظة إلى العصر الهمجي الميكيافيلي الذي يرى أن الغاية تبرر الوسيلة.

في هذا الوقت بالذات الذي تدق فيه نواقيس الخطر والتخويف من الإسلاميين القادمين في الجزائر وغيرها التي كانت فرنسا أم الحرية تعتبرها

قطعة منها وكان ثمن خروجها مليون شهيد يقرأ الإنسان تحت عنوان: رحلة استكشافية في صحراء الجزائر ما يلي:

حملة استكشافية اشترك فيها مائة وخمستون شخصاً أساتذة جامعات وطلبة ومهنيون ومتطوعون من مختلف بلدان أوروبا وأمريكا اخترقت الصحراء الجزائرية متتبعة الطريق الذي سار عليه الراهب شارل دو فوكو إلى موقع اسكريم المطل على جبل هوجار حيث أقام الراهب صومعة يتعبد فيها.. (إنهم يريدون الوصول إلى الصومعة) والرحلة تكلف مليون فرنك جاءت في معظمها من تبرعات تقدمت بها مؤسسات وجامعات ودور بحث وقد استغرق الاستعداد لها ستة أشهر كاملة.. وقد جرى تعريف المتطوعين بجو الصحراء وإعدادهم لتقبل أشياء كثيرة عن الصحراء والحر الشديد..، ونكتفي بالخبر عن التعليق..

واليوم حيث الرياح الديمقراطية تهب على الدنيا كلها، تمنع عن العالم الإسلامي لقد أجبرت أوروبا وأمريكا ألبانيا على الخيار الديمقراطي وفتحت سفاراتها لاستقبال اللاجئين إليها ومن ثم ترحيلهم إلى بلادها، أما في العالم الإسلامي فالديمقراطية سوف تكون فرصة للتعبير الصحيح عن رغبات الأمة في الخيار الإسلامي التي لا يرغب فيها أصحاب الديمقراطية الغربية ولا تلامذتها في المشرق الإسلامي لذلك لا مانع عندهم أن يكونوا من سدنة الظلم والاستبداد والأنظمة الدكتاتورية.

وأعتقد أن الحرية والديمقراطية اليوم هي فرصة العاملين للإسلام الأساسية التي تخلي بينهم وبين الناس والتي يجب أن ينحازوا إليها ويدافعوا عنها حيث لم يكن للرسول ﷺ مطلب غيرها: «خلوا بيني وبين الناس» فهي تتيح المناخ المناسب لدعوة الله فالدين الإسلامي في حقيقته إقرار لحرية الاختيار في العالم وإلغاء العبوديات والظلم مهما حاول أعداء الإسلام أن يشوهوا صورته ومهما كانت أخطاء أتباعه وخطيئاتهم.

[ذو الحجة ١٤١٠ هـ - ١٩ و ١٩٩٠/٦/٢٠ م]

وحدة القبلة وفرقة الأمة!

يقول تعالى: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾. (البقرة: ١٤٤ و ١٥٠).

قد لا نكون بحاجة للتذكير بالواقع الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، من تمزق وتفرق وشتات، والحال الذي صاروا إليه بعد أن تخلى كثير منهم عن الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة، فلهذا الحال حضوره المستمر، وإصاباته المتعددة على مختلف جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والخلقية.

لقد أصبحت الدولة الواحدة دويلات، والأمة الواحدة أميات ووضعت الحدود، وأقيمت الحواجز والسدود بين أبناء الأمة الواحدة والقبلة الواحدة وأصبح لها دفاعات وفلسفات تضمن لها الحماية والاستمرار وتراخت في النفوس عقيدة التوحيد، إلى درجة انحسرت معها كل المعاني الإيجابية، ورسمت لها مساحات شكلية محدودة الألفاظ والأشكال لا تسمن ولا تغني من جوع، وبهتت المعاني الكبيرة للقبلة الواحدة التي يتوجه إليها المسلمون كل يوم خمس مرات، إلى درجة غلبت عليها الآلية والتكرار وكاد الواقع الممزق الذي نعيشه اليوم يستعصي على وحدة المورد «العقيدة» ووحدة الهدف، «القبلة» ووحدة الصف «العبادة» ولا أدري كيف يفهم كثير من المسلمين عقيدة التوحيد؟ ولا يؤرقهم واقع الفرقة، ويتوجهون شطر المسجد الحرام ولا تؤرقهم فرقة القلوب وكثرة الحدود، علماً بأن الرسول ﷺ قضى معظم الوقت

في بناء عقيدة التوحيد، ثلاثة عشر عاماً في مكة، تمحور الخطاب الإسلامي فيها حول عقيدة التوحيد، وبيان أبعادها المختلفة.

واستصحب ذلك المعنى عشر سنوات أخرى في الفترة المدنية، واعتبرت الاستجابة للخطاب في مجال السياسة والاجتماع والأخلاق ثمرة لعقيدة التوحيد، فكانت التكليفات الشرعية ثمرة لنداء: يا أيها الذين آمنوا..

وهي القضية الأساس، التي لم تقبل أية مساومة، أو اجتهاد، أو تأجيل، أو استثناء وكان الإقدام عليها يعني الإسلام بكل أبعاده، والتزاماته، من الأخوة والحقوق والواجبات، والعدول عنها يعني الكفر والارتداد، لأن عقيدة التوحيد هي الكلمة الطيبة الموحدة من شتات والبذرة الطيبة للشجرة التي سوف تمتد شعابها لتظلل جميع جوانب الحياة.

فإن لم تسلم البذرة فسوف تأتي النتائج رديئة، وعقيدة التوحيد التي تتجدد في رحلة الحج ليست ألفاظاً يسهل تداولها، في المجالس وكتابتها، وخطابتها، وليست أشكالاً ومظاهر سلوكية، قد تقع على هامش الحياة، تستهلك الطاقة في تجريدات ذهنية بعيدة عن صناعة الحياة بنمطها السليم، وإنما هي قناعة عقلية، ويقين قلبي وروح تسري في النفس، والفعل، والمجتمع، تزود الإنسان بعزيمة الرشد على مواجهة الإشراك النفسي، والسياسي، والاقتصادي لتتوحد الموارد ويتوحد الاتجاه صوب القبلة الواحدة، البيت الحرام.

وعلى ذلك فوحدة الأمة عندنا ليست شعاراً سياسياً يرفع في المناسبات لابتزاز الجماهير، ثم يغتال بالممارسات، وإنما هي دين وعقيدة. وليست خياراً نقدم عليه متى شئنا، ونعدل عنه متى رغبنا، وإنما هي قدر وهوية وكيان يقول تعالى: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إن الله مع الصابرين﴾**. (الأنفال: ٤٦).

ويأتي في مقدمة عواصم الوحدة.. وحدة المورد، ووحدة القبلة استمرار الحذر والتحذير من الفرقة والإصابة بعلل الأمم السابقة **﴿ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات﴾** (آل عمران: ١٠٥). ولعل من

أهم عواصم الوحدة في الإسلام المساواة التي هي في الحقيقة روح الوحدة وروح الحضارة الإسلامية على حد سواء، وإسقاط كل ألوان التمييز التي هي الألغام المزروعة في جسم الأمة. والتي يمثل الحج أحد ميادينها التطبيقية البارزة على مستوى الشكل. فاللباس واحد، والحركة واحدة، والعبادة واحدة، والمكان واحد، والمحور والقبلة واحدة، بدون حواجز أو امتيازات وعلى مستوى المضمون أيضاً، فالصوت النبوي الخالد لا بد أن يسمعه الحاج في ربى مكة: «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء» وقوله تعالى: **﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾** (البقرة: ١٩٩).

إن القبلة التي نتجه إليها كل يوم خمس مرات في لحظات من التذلل لله متخلين فيها عن كل الحواجز الزمانية والمكانية لها مدلول يجب أن يدرك.

ولعل رحلة الحج من بعض الوجوه هي إسقاط للحواجز المكانية والزمانية بين الأمة الواحدة، والقبلة الواحدة واقتراب أكثر عمقاً من الهدف، والتصميم على اختراق الحواجز لمعايشة الهدف الذي يتجه إليه الجميع **﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾**. حتى جعل النظر إلى الكعبة وإدراك المعاني الكبيرة لإقامتها وطهارتها يعتبر عبادة.

إن أي عدول عن سلامة التوجه أو صد عنه موقع في الإلحاد **﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾** (الحج: ٢٥). إن عقيدة التوحيد ليست شعاراً أو نظرية فلسفية إنما هي قضية تتطلب معاناة وأبعاد تتطلب إدراكاً وعقيدة تتطلب عملاً يبتدىء من التوحيد مع النفس وينتهي بالتوحيد مع الأمة والإنسانية على قيم الحق والعدل والخير.

وقبلة التوحيد «الكعبة» ليست رمزاً مجرداً لعقيدة التوحيد وإنما هي عنوان مفعم بالمعاني الكبيرة في رحلة النبوة التاريخية ابتداء من النبوة الأولى **﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً﴾** (الحج: ٢٦) وانتهاء بالنبوة الآخرة **﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾** (آل عمران: ٩٧). «والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع لولا أن رسول الله ﷺ قبلك ما قبلتك» إنها وحدة المورد ووحدة التوجه. والأمة

المسلمة اليوم لا يعوزها الجدل النظري حول عقيدة التوحيد وهي تعيش الفرقة بكل أبعادها وصورها ذلك أن كثيراً من المسلمين اليوم انشغلوا بالجدل حول القضية عن ممارستها إلى درجة انقلبت عقيدة التوحيد على أيديهم إلى وسيلة تفريق وتمزيق لوحدة الأمة، وليس حال بعض دعاة الإسلام الذين يحملون شعارات عقيدة التوحيد ومقولاتها ويتجهون إلى قبلة التوحيد بأحسن حالاً من أمتهم، ولو جئنا نعد فرقهم وجماعاتهم وفصائلهم ومشاحناتهم ونستحضر خلافاتهم لحق لنا القول مع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: من خالف فعله قوله فكأنما يوبخ نفسه.

فكيف يحق لنا أن ننعي على الأمة فرقتها وشتاتها ونحن الذين ندعي الصلاح والصلاحية نعاني من الإصابات البالغة في هذا المجال التي قد تتجاوز إصابات الأمة في بعض الأحيان. فهل يدرك النافرون إلى الحج معاني القبلة الواحدة؟ فيعودون وقد أشبعوا بعزائم التغيير والتجديد والتصميم على وحدة الأمة أم أنها مسافات تقطعها مراكبنا وطواف حول أنفسنا وعودة إلى مواقعنا.

[٢٦ ذو القعدة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٦/٢٩ م]

دعوة للمراجعة

لن نتكلم عن مكانة المرأة وحقوقها في الإسلام، لأننا نعتقد أنه من حيث المبدأ أن الله الذي خلق الإنسان من ذكر وأنثى، أعلم بمن خلق وبالتالي بالمنهج الذي يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، **﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾** (الملك: ١٤)، ولأن الكتابة في هذا الموضوع ـ موضوع حقوق المرأة ـ لم تدع استزادة لمستزيد. بل لعل قضية المرأة وحقوقها في الإسلام، لا تزال من أكثر المواضيع حيوية وإثارة وطرحاً ومناقشة منذ بدأ التراجع والتخلف لعالم المسلمين. ومنذ بدأت موجات الاستعمار الأوروبي الذي أعقبه التغريب والعمالة الثقافية لعالم المسلمين.

فالمرأة من الثغور الإسلامية التي لا يزال الهجوم عليها مستمراً على الرغم من الدفاعات الكثيرة والمستمرة وقد يكون بإمكاننا القول: بأن الجهود التي بذلت في سبيل الدفاع عن المرأة ومكانتها في الإسلام أكبر بكثير من الجهود التي بذلت وتبذل لتربية المرأة على قيم الإسلام وإحلالها المكانة التي يجب أن تبلغها إسلامياً، والمركز الذي يجب أن تحتله في الحياة الإسلامية في ضوء هداية الوحي، وتطبيقات النبوة، وخير القرون.

ونخشى أن نقول: إن صورة المرأة المسلمة كما رسمها الإسلام غائبة غياباً يكاد يكون كاملاً في واقع المسلمين، وإن الدفاعات التي نقوم بها عن المرأة، كانت في كثير من الأحيان على حساب المرأة المسلمة نفسها التي نعود

من معاركنا الدفاعية فلا نجدها في بيوتنا ومدارسنا، ومساجدنا، ومشافينا، ومعاركنا الثقافية والأدبية والعلمية والفكرية والتربوية، وقد لا نستغرب أنه لا يزال كثير منا حتى اليوم، يعتقد أن العلم مفسدة للمرأة.

أما واقع المرأة في مجتمعاتنا اليوم، فهو واقع بئيس تتحكم فيه التقاليد والعادات على حساب القيم والمبادىء. والمشكلة أن هذه العادات والتقاليد والمظالم الاجتماعية، تمارس على المرأة باسم الدين وباسم الإسلام وليست من الإسلام في شيء. الأمر الذي جعل المرأة في واقع المسلمين ثغراً مفتوحاً أمكن ويمكن النفاذ إليه والنفوذ من خلاله إلى البناء الإسلامي، ذلك أن الحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها: أن المرأة على منابرنا، وفي مؤلفاتنا، ومواعظنا، ودروسنا، ومؤتمراتنا شيء، وفي واقعنا شيء آخر. نفاخر بأن الله منحها حق التملك، واعتبرها أهلاً له، ونمنعها من التصرف وممارسة حق التملك حيث لا قيمة للتملك بدون حق التصرف ونفاخر بأن الله منحها حق التعلم وجعله فريضة، ويعتقد بعضنا أن الجهل أفضل من العلم بالنسبة للمرأة، وأن العلم مفسدة لها، ويعلل ذلك بعلل فاسدة، ويعتبر جهلها من باب سد الذرائع..

ونفاخر بأن الله حرم الوأد، وضمن للمرأة حياتها الكريمة، ونمارس في الواقع الوأد النفسي عليها، ونميز الذكور عن الإناث، ونحضر لذلك من قبل الولادة بإشاعة التخوف من أن يكون المولود أنثى فإذا جاء المولود ذكراً، كان البشر، والاحتفال، والسعادة والاتصالات، والتهاني، والأفراح. وإذا كان المولود أنثى كان الهم، والغم والكآبة، والإعراض عن الأم الوالدة، وغمط حقوقها.

ونفاخر بأن الله سبحانه وتعالى سوى بين الذكر والأنثى في الحقوق الإنسانية، وفي التحريم والتحليل، وفي الجريمة والعقوبة، فالزنى عقوبة واحدة بالنسبة للذكر والأنثى ولكن الواقع زنى المرأة ولو كانت بكراً، جريمة موصلة إلى القتل وزنى الرجل دليل رجولته، وإن عوقب فطيش شباب. ونفاخر بأن الله اعتبر شهادة المرأة، ونحرمها من شهود كل شيء فعلى ماذا تشهد ونفاخر بأن رسول الله ﷺ نهى عن منع النساء من المساجد، وفي الواقع نمنعهم من العلم والخير. ونقرأ في السيرة أن المرأة شاركت في بيعة العقبة،

وأن هناك بيعة خاصة بالنساء كما شاركت في الهجرة ونزعم أننا أغير عليها من الذي خلقها.

ونقرأ أنها شاركت في معارك المسلمين بما يتناسب مع طبيعتها، وهاجرت* إلى المدينة والحبشة، وكانت طبيبة، وشاعرة، وراوية حديث، وأديبة، ومع ذلك يضيق صدرنا بإعطائها ما أعطاها الله.. ونزعم أن وظيفتها الأولى تربية أولادها، ولا ندري كيف تمارس العملية التربوية، وتعد أبناءها لحياة تحجب عن معرفتها، وكيفية التعامل معها. من هنا نقول: بأن المرأة في الإسلام غير المرأة في الواقع الإسلامي الذي تتحكم به التقاليد والعادات والظلم الاجتماعي باسم الدين، فنكون بذلك أشد اعتداء عليها من أعداء الدين الذين لا يمتدون إلا في فراغنا، ولا يؤثرون إلا على مواقعنا الضعيفة.

إن السبيل إلى المعالجة، ليس فقط بمهاجمة الأعداء، وكشف مخططاتهم، ونواياهم، وإنما المعالجة الأهم إنما تكون في تحصين المرأة، وإعطائها ما أعطاها الإسلام من حقوق في التملك، والتصرف، والتعلم، والتزوج باختيارها، والخلع، والإرث، والموالاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتفقه، وحرية الرأي، والمشاركة في الحياة في ضوء القيم الإسلامية.

فإذا أمكننا إعطاء المرأة ما أعطاها الإسلام فعلاً، بعيداً عن التسلط الجاهلي، والرجولة الكاذبة، وأحسنا بناء المرأة التي تعرف ما لها وما عليها حتى تتمكن من القول: أيعطينا الله ويمنعنا البشر، إذا وصلنا إلى هذه المرحلة، فلنطمئن على حصن المرأة من الاقتحام. أما إذا لم نعط المرأة ما أعطاها الله، فسوف تكون دفاعاتنا لا قيمة لها، لأن عدونا من أنفسنا وفي أنفسنا، وسوف يجد أعداء الدين الآذان التي تستمع لهم.. لذلك ندعو إلى المراجعة باستمرار، لتأخذ المرأة مكانها ومكانتها في الواقع إذ لا عبرة بالدعوى النظرية بلا دليل لأننا بذلك نكون كالذي يوبخ نفسه، لأن أقوالنا تخالف أعمالنا.

[٣٠ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/١٢/٢٨ م]

قوامة الرجل على المرأة
تكليف وليست تشريفاً

من الأمور التي حسمها الإسلام، أن ميزان الكرامة إنما هو التقوى والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣)، والتقوى والعمل الصالح أمر كسبي ومجال تنافس، يستوي فيه الخلق جميعاً، من ذكر وأنثى وعربي وأعجمي وأبيض وأسود، فالذكورة والأنوثة والبياض والسواد وتنوع الأجناس البشرية أمور خلقية قسرية لا يد للإنسان فيها وبالتالي فلا يمكن عقلاً وديناً أن تكون مجالاً للتفاضل والكرامة والتكريم بين الناس وهذه هي العدالة التي لا يليق بشرع الله غيرها. فليس الأكرم الذكر، وليست الأكرم الأنثى، وليس الأكرم العربي أو الأعجمي أو الأبيض أو الأسود فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول:

«لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

من هنا لا بد لنا عندما نريد أن نعرف موقع المرأة في الحياة الإسلامية من النظر في القيم والحقائق ونتجاوز الصور والأشكال التي يفرزها الواقع بموروثاته وتقاليده التي قد لا تمت للإسلام بصلة ولو ادعى بعضنا أو توهم أنها من الإسلام أو هي الإسلام ولعل المرأة اليوم هي أشد حاجة إلى معرفة موقعها الحقيقي في الحياة الإسلامية لتدرك أهميتها ورسالتها والموقع الذي يجب أن تحتله وتتعافى من الإحباط الذي تعاني منه اجتماعياً وتتخلص من النظرة الدونية التي شكلتها لها العادات والتقاليد المنحدرة من الجاهلية الأولى. باسم الإسلام.

فالله سبحانه وتعالى يقول: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى﴾** (النحل: ٩٧)، ويقول: **﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾** (التوبة: ٧١). وإذا حاولنا الاستهداء بالسيرة النبوية فترة القدوة المعصومة نرى أن المرأة شاركت في الجهاد حتى وصلت مشاركة بعضهن إلى سبع غزوات أو تسع.

وغزوات الرسول لم تزد على بضع عشرة غزوة وكأن المرأة احترفت الغزو، وهاجرت وفارقت زوجها ومالها في سبيل الله، وبايعت الرسول ﷺ في العقبة، وقدمت أولادها شهداء في سبيل الله، وكانت أديبة وعالمة وشاعرة وراوية حديث ولم تشعر في يوم من الأيام أنها دون الرجل في العلم أو الدعوة أو الهجرة أو البيعة أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. لكن الصورة التي نراها اليوم أن المرأة المسلمة بسبب من الغزو الثقافي والواقع الذي يحكمه التقليد باسم الدين أبعدت عن الحياة الإسلامية باسم التدين وعطلت رسالتها وألغي دورها وحجبت عن المسجد ودور العلم وبعض الوظائف الحياتية التي لا بد لها منها لتقوم بوظيفتها الأصلية في المجتمع الإسلامي، إنها حرمت من الحياة التي شرعها لها الإسلام باسم التفرغ للتربية في المنزل ولا ندري كيف يمكن أن تمارس عملية التربية لأولادها وهي أمية في العلم والعبادة وكيف تعد أولادها لحياة لا تعرف هي عنها شيئاً.

وقد تكون المشكلة اليوم بالنسبة للتعامل مع المرأة في العبث الذي يمارسه البعض في فهم بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، على مزاجه فيحاول أن يتجاهل الحقائق الإسلامية ويتجاوز ميزان الكرامة والتفضيل الذي وضعه الدين ليجعل الفضل للذكر في الإسلام مستشهداً بقوله تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض﴾** (النساء: ٣٤)، فيظن أن القوامة هنا درجة تشريف وأن التفضيل هو بسبب الجنس مع أن القوامة هنا تعني التكليف والإشراف والمسؤولية وأن الفضل لكل منهما فيما تخصص فيه.. فالمرأة أفضل من الرجل في اختصاصها والرجل أفضل من المرأة في اختصاصه ويبقى بالنسبة لدين الله أن الأكرم هو الأتقى فالمرأة التقية أفضل عند الله من مائة رجل فاسق فاجر والرجل التقي أكرم عند الله من

جملة نساء فاسقات فاجرات كاسيات عاريات وميزان الكرامة التقوى والعمل الصالح، لذلك تبقى المشكلة في طرح المقدمات المغلوطة التي تقود حتماً إلى النتائج المغلوطة فليس الرجل أفضل من المرأة وليست المرأة أفضل من الرجل بل الأفضل والأكرم هو الأتقى، وهما في الحقوق الإنسانية سواء.

أما في الوظائف التخصصية والاجتماعية فكل منهما أفضل في اختصاصه وهذا مصداق قوله تعالى: **﴿بما فضل الله بعضهم على بعض﴾**. وقوله: **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾** (النساء: ٣٢). فهل تصحح المعادلة في عالم المسلمين وتعود المرأة لممارسة دورها كما شرعه الله وتتجاوز التقاليد التي حبستها عنه. وهل تطرح السؤال الكبير دائماً: كيف يعطينا الله ويمنعنا الناس؟.

[١٤ صفر ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٩/١٤ م]

الطفولة بين الأم الوالدة
والمربية المستوردة

يحتفل العالم العربي هذه الأيام بيوم الطفل العربي.. وسوف لا نضيف جديداً على معارف جمهور المسلمين عندما نتكلم عن الطفولة. وموقعها، ومسؤوليتها، والأسس التربوية التي شرعها الله وبينها رسوله ﷺ وحققها مجتمع القدوة (جيل الصحابة رضوان الله عليهم) فكانت هناك نماذج من الطفولة لا تزال معالم مضيئة على الرغم من التقدم الكبير في العملية التعليمية والتربوية بنظرياتها المختلفة، وتقنياتها المتعددة.

ولا شك أن الطفل كان وسيبقى هو الهاجس الدائم للآباء والأمهات والمربين والمعلمين والمصلحين، وكل الذين يفكرون بالمستقبل، ويحاولون وضع المقدمات السليمة لبلوغه بشكل مأمون، وتشكيله على نحو أفضل ذلك أن النتائج المنظورة والملموسة للنظريات التربوية سواء منها النظرية المادية، أو الاجتماعية أو الطبيعية، أو مدرسة التحليل النفسي التي سادت المؤسسات التربوية فترة من الزمن، خيبت الأمال، وبددت الجهود وأدت إلى الإحباط.

فالطفل إلى هذه اللحظة لا يزال محل تجارب واختبارات واجتهادات يحكمها الكثير من الخطأ، والقليل من الصواب، هذا على الرغم من التقدم الكبير في الدراسات النفسية والسيكولوجية إلى درجة جعلت علم النفس التربوي محصوراً في دائرة الطفل، أما ما وراءه من علم نفس فهو أقرب بطبيعته إلى الدائرة العلاجية منه إلى الدائرة التربوية ومن نعم الله علينا نحن

المسلمين أن ركائز الحياة الطيبة السعيدة، حددها الوحي بشكل حاسم ولم تترك لعبث الأهواء وتضارب الآراء فالإسلام نظر إلى العملية التربوية نظرة شمولية ووضع لها الأسس والمعايير الثابتة من بداياتها وحتى نهاياتها.

فالعملية التربوية في الإسلام تبدأ من قبل الزواج وذلك بإيجاد المقدمات الصحيحة التي تصير إلى النتائج الصحيحة والسليمة. وأعتقد أن ما شرعه الإسلام من معايير للزواج من الحض على النكاح في الحجر الصالح، والتخير للنطف، وضرورة الظفر بذات الدين، وذي الدين، كلها مقدمات راعت الجانب الوراثي والجانب الاكتسابي معاً للوصول إلى مجتمع المودة والرحمة ﴿وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ (الروم: ٢١)، الذي يشكل المحضن النظيف والمناخ الصحيح للتنشئة والناشئة، ولا أظن أن أية نظرية تربوية اليوم، تبدأ عندها تربية الطفل من قبل وجوده وولادته إلا ما شرعه الإسلام.

وقد لا يتسع المجال هنا للكلام عن آداب الإسلام في الزفاف وبيان أهداف الزواج وأدعية الاتصال بين الرجل والمرأة وأحكام الجنين ونحسب أن ذلك معروف ومشهور. فالمسؤولية عن الطفل تبدأ من قبل الزواج، وتتركز على وسائل الاختيار وكل التدابير الوقائية الأخرى وتبقى مستمرة استمرار الحياة وقد لا تتوقف بالموت، فإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة، أحداها ولد صالح يدعو له.. فلعل المسؤولية عن تربية الصلاح للولد تستمر بعد الموت وذلك باستمرار الثواب والتواصل والامتداد الذي يحمله الولد لأبيه وإما الشر والإثم والمسؤولية التقصيرية إذا كان العكس كما يفيد مفهوم المخالفة.. فهو إما صالح يضمن استمرار الثواب وامتداد الأجر الذي يعني من بعض الوجوه امتداد العمر، وإما فاسد (والعياذ بالله) والكلام على أثره وتأثيره على الأحياء والأموات خطير جداً.

والتربية الكسبية أيضاً تبدأ عند المسلمين منذ لحظة الولادة، بالأذان في أذن الطفل اليمنى وتلقينه عقيدة التوحيد واختيار الاسم الذي له منه نصيب، وما إلى ذلك حتى أن علماء التربية أجمعوا حديثاً على أن الاكتساب والاختزان المعرفي يبدأ عند الطفل منذ اللحظة الأولى وأن أية غفلة عن هذه الحقيقة

تشكل تراكمات ومكتسبات سيئة تظهر على سلوك الطفل عندما يبدأ بالتعبير عنها بعد مرحلة الكمون.

إنه يكتسب تربية وثقافة من نظراته لكل من حوله، وسماعه لكل الأصوات ورصده لكل الحركات التي تحيط به وليس أدل على ذلك من قدرته على استعمال بكائه سلاحه الأوحد في التعبير في هذه المرحلة في استدعاء أمه حسب ما عودته منذ اللحظات الأولى.. أليس التعويد هو التربية؟.

لذلك لا بد أن تدرك الأم، ويدرك الأب خطورة التعامل مع هذه الصفحة البيضاء القابلة لكل نقش وصورة لأنهم سوف يقرأون في المستقبل ما يكتبون عليها ويرون ما يرسمون فيها.

فالمسؤولية كلها تكاد تقع على مصادر التربية الأولى ذلك أن المولود يولد على الفطرة وأبواه هما محور التشكيل والصياغة ونحن بذلك لا نغض من طرف المؤسسات الأخرى لكن نقول: إن مستقبل الحياة السلوكية تزرع بذوره في الطفولة.. والعملية التربوية فيما بعد عملية تنمية لا نملكها بغير البذور كما أننا لا نمتلك تغيير ثمرات البذور.

ولا شك أن الأم بطبيعتها وتكوينها ولصوقها بالطفل (وطفولته طويلة المدى) هي محور التربية ومرتكزها.. فهي راعية في بيت زوجها.. ومسؤولة عن رعيتها.. بل أكثر من ذلك نقول: إن الرسول الكريم ﷺ قرن رعويتها برعوية الإمام الأعظم المسؤول عن الأمة جميعاً وقد تكون مسؤوليتها أدق وأخطر ذلك أن مسؤولية الإمام تنتهي إدارية في حقيقتها أما مسؤوليتها هي فتربوية وتشكل الأساس السليم لمسؤولية الإمام وأعتقد أن أي استهتار بقيمة هذه المسؤولية أو دورها أو التخلي عنها إلى امرأة أخرى أو عمل آخر بدون ضرورة هو إصابة عضوية وعلة نفسية ونقص عقلي واختلال في الشخصية ذلك أن الولد يبدأ بالامتصاص اللغوي النفسي الثقافي وتتكون خصائصه العامة كلها في مرحلة الطفولة الأولى كما أسلفنا والتخلي عن هذا الأمر يمكن أن يكون من أكبر الجرائم التي لا ندرك الآن نتائجها، ومن الألغام الموقوتة التي تنفجر بنا وبذرارينا ومهما تكن المسوغات والأعذار ومهما يكن مورد

التفرغ لأعمال أخرى على حساب العملية التربوية.. فما الذي نستفيد من كل كسبنا إذا خسرنا أنفسنا؟.

والمأساة التي وقعنا فيها اليوم أو وقع فيها بعضنا هي في استيراد المربيات المغايرات في الدين واللغة والثقافة والبيئة لأولادنا الأمر الذي سوف يحمل لنا الكارثة ذلك أن النتائج الكاملة لم تظهر بعد.. إنها سوف تظهر في الجيل القادم.. والفرق بيننا وبين أسلافنا كبير جداً أولئك الذين كانوا يرسلون أبناءهم إلى البوادي لنقاء عودهم وسلامة لغتهم أما نحن فنعمل على تعجيم أبنائنا باختيارنا.

إن أعداءنا لا يسرقون أطفالنا من المخيمات وأماكن الكوارث والمجاعة والحروب ويعدونهم كما يريدون فقط إن السراق الحقيقيين يعيشون في بيوتنا وتحت حمايتنا، ويعبثون في مستقبلنا.. وندفع لهم أجر ذلك وكثير من نسائنا اللواتي يعشن عقدة المظاهر والتفاخر لا يعلمن أنهن أول من يدفع الثمن من دينهن وعرضهن وأمنهن.

لقد ذكرت بعض الصحف مؤخراً أن أعداء الإسلام من اليهود والمنصرين، يحاولون في أحدث صورة للغزو الفكري التسلل إلى مكاتب الاستخدام في الفلبين وتايلاند وغيرهما من مصادر الاستخدام للوصول من جديد إلى العالم الإسلامي تحت عناوين العمالة والخدمات والمربيات خاصة وإن مجال المربية المستوردة سوف يمكن من التعرف على البيوت من داخلها وينقل أخبارها وأسرارها ويستأثر بصناعة جيل المستقبل، الذي يمكن أن يصب في مصلحة أعداء الدين ويفتن بهم وبحضارتهم خاصة وأن البيوت التي تستورد الخادمات والمربيات هي غالباً بيوت ذات أثر وتأثير في الحياة العامة والاجتماعية..

فهل يستشعر الآباء والأمهات المسؤولية ويلتزمون بشرع الله، وآداب الإسلام حتى لا تقع الكارثة وحتى يحموا أطفالهم من التمزق والضياع بين الأم الوالدة والمربية المستوردة!!.

[٣ ربيع الأول ١٤٠٩هـ - ١٣/١٠/١٩٨٨م]

المساعدات الإنسانية هل هي إنسانية حقاً؟

الكوارث والمجاعات والجهل والفقر والمرض كانت ولا تزال هي المناخ المناسب المهيأ لتلقي المساعدات من المؤسسات العالمية التي تأخذ أشكالاً شتى، وتعمل تحت عناوين مختلفة لتحقيق أغراضها في التبشير والاستعمار والاستلاب الحضاري والغزو الفكري. وتقضي تلك الأهداف والمخاطر، التي تحول الكوارث الطارئة إلى أزمات دائمة، على وحدة الأمة، وتبعثر جهودها، وتمزق تفكيرها، وتمسخ شخصيتها، وتضعها في معاناة مستمرة، ومشكلات دائمة يصعب التغلب عليها بسهولة.

إنها تدفع على المدى البعيد من كرامتها، وثقافتها وعقيدتها، أكثر بكثير مما تأخذ، وليس غريباً أن تعجز الأمة المنكوبة عن التمييز، وإدراك الحقيقة، وهي في قمة المعاناة لأن الحاجات الملحة التي تقوم عليها الحياة. تحول دون إبصار أية مخاطرة يمكن أن تترتب على تلك المساعدات الملغومة والتي سوف تنفجر بعد حين.

ولو حاولنا إلقاء نظرة سريعة على خارطة الكوارث في العالم، واستقرأنا الكثير من المشكلات التي نعاني منها، لرأينا أن الكثير من المساعدات التي قدمت تحت شعارات إنسانية، حولت الكوارث الموقوتة إلى دائمة تستنزف الأمة، وتستهدف وحدتها وسوف لا نتحدث عن التقاط الأطفال من قلب المأساة في لبنان، والسفر بهم إلى الأديرة والمؤسسات الكنسية والمستشفيات

ذات الأغراض المشبوهة داخل البلد أو خارجها، ولا عن أطفال حروب المخيمات المأساوية، ورواج تجارة الطفل، ولا عن مؤسسات الإغاثة والمواساة التي تعمل في معسكرات اللاجئين في أفغانستان، وما يمكن أن تحمل من مخاطر مستقبلية.. ولعل في مشكلات السودان الشقيق، المزمنة، ما يشكل وسيلة إيضاح كافية للدرس والاعتبار.

إن الكثير مما يعانيه السودان من المشكلات وعلى رأسها الحركات الانفصالية جميعاً في الجنوب، والتجمعات والنزعات الإقليمية، جاءت نتيجة طبيعية لنشاط المؤسسات التنصيرية التي دخلته تحت شعارات إنسانية ومساعدات طبية، ووكالات إغاثة، حيث يدفع ثمنها اليوم وحدته وكرامته واستقراره السياسي والاقتصادي.

وليس غريباً، والسودان اليوم يعيش أسوأ الظروف وتشتد حاجته إلى مواد الإغاثة ووسائل الإسعاف والإنقاذ، أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك يتراجع مستوى المساعدات التي تتقدم بها المؤسسات الغربية بشكل عام.

ذلك أن السودان ومنذ مدة أدرك مخاطر ودوافع تلك المساعدات، واكتشف أهدافها المشبوهة، فعمل على إقامة منظمات ووكالات إغاثة وطنية إسلامية، واستنفر لها القادرين في العالم الإسلامي، في محاولة لحماية المجتمع وقطع الطريق على المؤسسات التنصيرية الاستعمارية، وإغلاق تلك الثغور المفتوحة في الجسم السوداني والتي يتسلل منها أعداء عقيدته ووحدته وحضارته، ويحول دون تلك الألغام الموقتة التي تفجر في الوقت المناسب ومشكلة الجنوب هي شاهد الإدانة الدائم على إنسانية تلك المؤسسات وتجردها؟؟!!.

ولا نريد هنا التقليل من أهمية المساعدات العالمية وضرورتها في تلك الظروف الصعبة التي يمر بها السودان، ولكن نريد التنبيه إلى إدراك دوافع تلك المساعدات، والأثمان الباهظة التي نسددها في مقابل ذلك ومسؤولية العالم الإسلامي التكافلية مع السودان لاجتياز محنته.

وقد يكون السبب الرئيس في أن المساعدات الأوروبية بشكل عام لم

تحقق المستوى المطلوب المتناسب مع حجم الكوارث التي يتعرض لها السودان وجود المنظمات ووكالات الإغاثة الإسلامية التي باتت تحول دون تحقيق الأهداف والدوافع الخفية للمساعدات الأجنبية التي لم تكن في يوم من الأيام خالصة لوجه الله.

[٢٧ محرم ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/٩/٨ م]

عندما تتحول النعم
إلى نقم

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالتسوية فهم مني وأنا منهم». رواه مسلم.

ليس غريباً على تاريخ هذه الأمة أن تكون قادرة في الظروف كلها على تجاوز الأزمات، ومواجهة التحدي، وتقديم نماذج مضيئة من التكافل الاجتماعي، في أوقات الشدائد والمحن التي هي من بعض الوجوه نعم، على الرغم مما تحمل من الأسى والألم والخسائر المادية لأنها تعيد صياغة الأمة وتقضي على الجوانب الشائحة في جسمها، وتجدد معاني الإيمان في نفسها والأخوة في حياتها وتكشف معدنها الأصيل، وتزيل عنه كل الركام الذي أصابه نتيجة للتفريط في حقوق الأخوة، وظهور نزعات الأنانية على مستوى الفرد والإقليمية والطائفية على مستوى الوطن والشعوبية على مستوى الأمة.

لذلك تأتي الكوارث والإصابات كعقوبات على المعاصي السياسية والاجتماعية والوطنية، فتستيقظ الأمة من غفلتها ويعود إليها وعيها، وتكون تلك القوارع نواقيس الخطر وصوت النذير الذي يعيدها إلى صوابها ويحملها على الاستمساك بعقيدتها.

ولا شك أن الأمة الإسلامية التي تحمل اليوم الرسالة الخاتمة إلى العالم

التي قـد تقصر في أداء الأمانـة أحيانـاً لم ولن تموت لكنهـا تمرض وتعـافى وتعصي وتعاقب، ويصيب الانحراف بعض جـوانبها فتتـوب وتستقيم عـلى الـطريق لتستأنف دورها ورسالتها وهكذا.

إن الخير بعمومه لا ينقطع عن هذه الأمة لأنها معصـومة عن الخـطأ والانحراف بعمومها وإن انحرفت فيها جماعات وفئات، فالأمة تبقى معصومة بعامتها خيرة في عطائها.

والحقيقة التي رأيناها ولا نزال نراها ونعيشها اليوم من تدفق المساعدات على الإخوة في السودان الشقيق والوقوف إلى جانبهم لتجاوز المحنة والتغلب على الأزمة شيء يثلج الصدر ويطمئن إلى مستقبل هذه الأمة ويوقـد جذوة الإيمان في قلبها ويدرك الإنسان أن الخير جزء من تكوينها فكم من فاعل خير قدم الكثير الذي يحتسبه عند الله وتجاوز بذلك المظاهر الدنيوية التي يحرص عليها كثير من الناس وأبى أن يذكر اسمه ويعرف مبلغه وكم من فقير ساهم بمبلغ قليل ليشارك إخوانه في درء الكارثة، والتخفيف من وطأتها وقليله في ميزان الله كثير ودرهمه سبق ألف درهم كما يقول الرسول ﷺ : «إنها نعمة الإسلام وحقوق الأخوة» ﴿فأصبحتم بنعمته إخوانـاً﴾ (آل عمران: ١٠٣) «والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه». فكيف يكون مسلماً من يسلم إخوانه للفقر والجوع والتشرد والكوارث والاستعمار والاحتـلال؟؟ يفعل بهم فعله.

إن الوقفة الإسلامية الرائعة مع السودان الشقيق من الأفراد والمؤسسات والدول، من الأغنياء والفقراء لهي مؤشر خير على قدرة هذه الأمة الكامنة، إننا والحمد لله وإن كنا نعاني أزمة نخبة وقيادة في بعض الظروف فإننا لا نعاني أزمة أمة، فالأمة موجودة والخير كامن في نفوسها ويبقى المطلوب دائماً إيجاد الثقة المفقودة والقدرة على تفجير هذا الخير وتوجيهـه في الاتجاه الصحيـح. فالأمة لم تمت ولن تموت.

إن تاريخها يحمل لها من المعاني ما إن تمثلتها لاستطاعت فعل المعجزات كيف لا وقد حباها الله بكل وسائل الحياة ومواثيق الإخاء وعصمها من الزيغ والضلال والتواطؤ على المعصية.

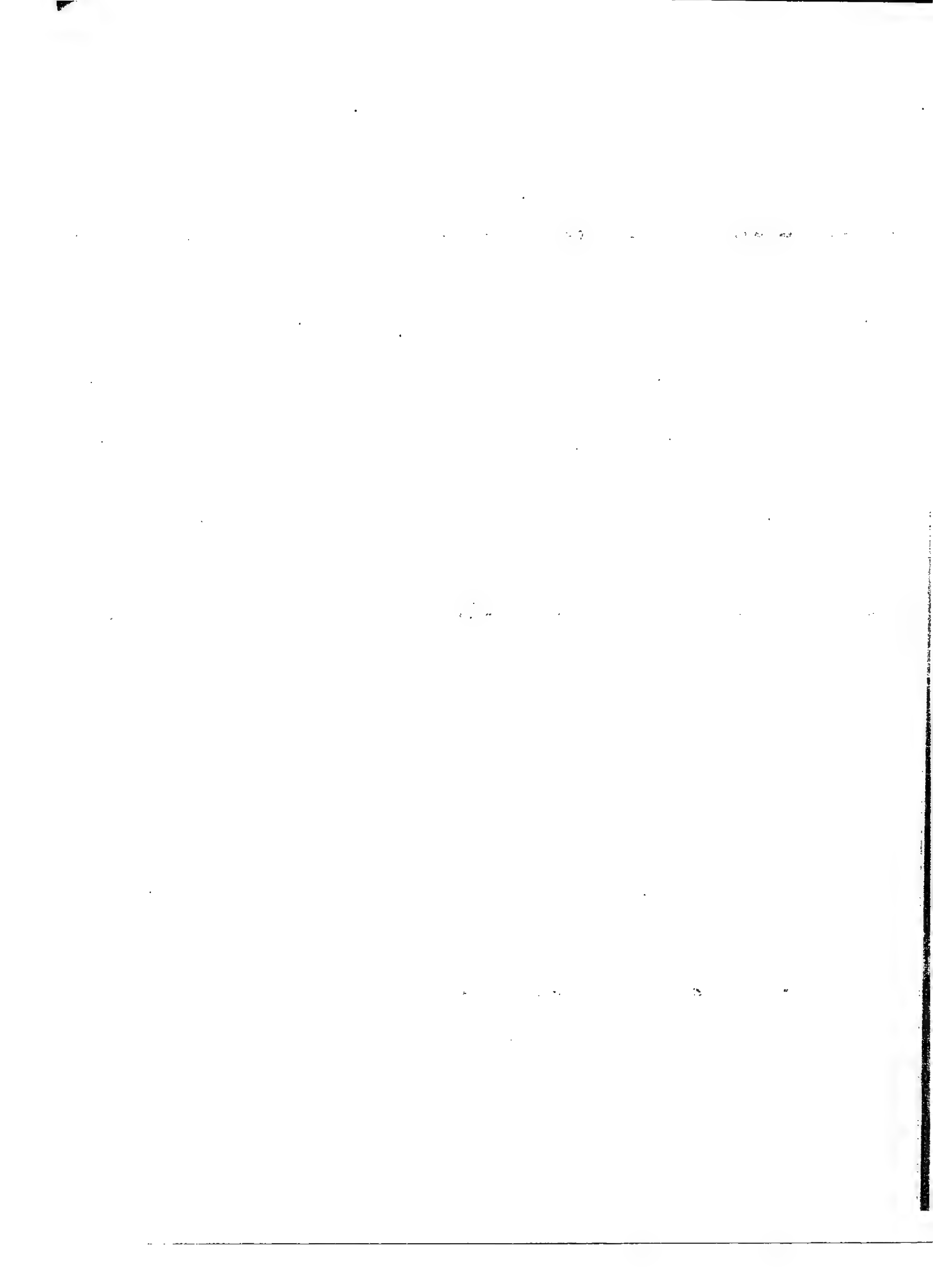
لذلك نرى أن التكافل مع السودان صورة تجديدية لوحدة الأمة التاريخية التي اشترك العشرة من مجاهديها من السلف الصالح في معركة تبوك في امتصاص التمرة الواحدة نظراً لنفاد الزّاد وتعاقب الثلاثة فيها على الراحلة الواحدة، وتبرع بعض الصحابة بكل ماله وأفتى بعض فقهائها بأنه إذا مات إنسان من الجوع في بلد وأهله يعلمون يُقتل به أهل البلد جميعاً لأنهم متسببون.

لقد كان شعارهم دائماً قول الله: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ (الحشر: ٩)، وكانت الاستجابة دائماً على قدر التحدي وعمق الجرح.

إنها الآلام التي ترشد الأمة إلى أوجاعها لتداويها ولا تسمح باستمرارها لئلا تقضي عليها يقول تعالى: ﴿**الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم**﴾ (آل عمران: ١٧٢). فهل نحول النقم إلى نعم.. أم نتنكب الطريق فتنقلب النعم التي حبانا الله بها من المال والسلطان إلى نقم نحاسب عليها ونعذب بها؟.

[٢٠ محرم ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/٩/١ م]

الشّهُودُ التّاريخيّ
شَرط الشهُود الحضَاريّ



مواقف من غزوة الفتح

هناك مجموعة حقائق لا بد أن تكون واضحة قبل أن نعرض لما أسميناه مـواقف في غزوة الفتـح التي بدأت في العـاشر من رمضان السنـة الثامنـة للهجرة.

● الحقيقة الأول:

إن السيرة النبوية على الرغم من أنها تشكل حلقة ومرحلة في مسيرة التاريخ الإسلامي من بعض الوجوه إلا أنها تتميز عن التاريخ لأنها تمثل فترة القـدوة والأسوة المعصومة ووسيلة الإيضاح المعينة على تنزيل نصوص الوحي على الواقع وتجسيدها في حياة الناس لأن قيادة الأمة كانت منوطة بالرسول ﷺ وهو المسدد بالوحي المؤيد به فهي بهذا تعتبر مصدراً للتشريع ملزماً للمسلم ويقتصر دورنا إزاءها على التحقق من ثبات وصحة وقائعها ومن ثم الاجتهاد ضمن إطار الواقعة لإدراك أبعادها. بينما التاريخ هو فعل بشر معرض للخطأ والصواب وهو لهذا لا يعتبر مصدراً للتشريع حتى ولو تأكدنا من صحة وقائعه وإنما هو مخبر للتجارب البشرية السابقة، تحقق لنا العبرة والدرس.

● الحقيقة الثانية:

إن السيرة مصدر هام للتربية الإسلامية والتربية بالقدوة بشكل خاص ولا يتحقق الاقتداء بالرسول ﷺ إلا بمعرفة سيرته بدقة حتى تتشكل شخصية الجيل في ضوء المعاني المتجسدة في مرحلة القدوة ومن ثم نكون قادرين على الاهتداء بالسيرة والإفادة منها لحاضرنا ومستقبلنا.

١٦٩٩/٨

لذلك نرى الصحابة رضي الله عنهم وهم خير القرون كانـوا يعلمون أولادهم السير والمغازي كما يعلمونهم السورة من القرآن وإلا فكيف نكون مسلمين نهدف السير على قدم النبوة ونحن نجهل السيرة؟ يقول تعالى: ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ (المؤمنون: ٦٩).

● الحقيقة الثالثة:

إنه لا بد من تحقيق الرؤية الشاملة أثناء النظر في السيرة بكل مراحلها لإدراك التطور المرحلي والتدرج في البناء الذي سارت عليه الدعوة الإسلامية يسددها وحي الله وتحرسها النبوة.

وتجنب التجزيء والتقطيع والانتقاء والإسقاط مع الأخذ بعين الاعتبار أن الصحابة الذين تشكلت منهم وبهم وقائع السيرة هم بشر يخطئون ويصيبون ويضعفون ويقوون ويجتهدون بمقدار وسعهم وما حادثة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه التي سبقت فتح مكة إلا دليل على بشرية الصحابة وتعرضهم للخطأ ليكون ذلك دليل العمل والامتداد الإسلامي في المستقبل ذلك أن الإسلام يتعامل مع مجتمع بشر لهم صفاتهم وخصائصهم وخطؤهم وصوابهم وليس مع مجتمع الملائكة.

● الحقيقة الرابعة:

إن معظم المفسرين والمؤرخين وكتاب السير يرون أن مدلول قوله تعالى: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ (الفتح: ١) هو صلح الحديبية الذي وقع سنة ست هجرية ومهد لفتح مكة.

وأن فتح مكة يعتبر مرحلة كبرى في المسيرة الإسلامية حيث بدأت دولة الجزيرة العربية التي مهدت لسائر الفتوح بعد أن كانت المرحلة السابقة مرحلة دولة المدينة.

● الحقيقة الخامسة:

إن الإسلام ينتشر ويمتد وينمو دائماً في الأوقات التي يسودها السلم والعدل والحرية أكثر بكثير من امتداده بسبب الحرب والقتال يؤيد هذا الواقع والتاريخ وما نحن بصدده من غزوة الفتح.. فمن المعروف أن معظم أنحاء

العالم الإسلامي اليوم دخل الإسلام بدون فتح وقتال وأن نسبة البلاد المفتوحة إلى بقية العالم الإسلامي لا تتجاوز الخمس تقريباً وأن السلم الذي ساد بعد صلح الحديبية الذي لم يدم أكثر من سنتين تقريباً دخل في الإسلام خلق كثير حتى كان من دخل مع رسول الله ﷺ مكة يزيد على عشرة آلاف مسلم.

وإن شعارنا الأبدي يجب أن يكون قولة الرسول ﷺ: «خلوا بيني وبين الناس» وإن الانتصار للحرية هو في الحقيقة انتصار للإسلام وإن بعض الدعاة إن صحت التسمية الذين يشغلون أنفسهم بالهجوم على الآخرين ومطاردتهم واتهامهم ويشيعون جواً من الإرهاب والتسلط على الناس باسم الدين يخطئون طريق النبوة ويتنكرون لما يدعون إليه من تحقيق الحرية للناس.

● الحقيقة الأخيرة:

لا بد أن نقرر أن المواقف البسيطة التي نعرض لها هنا ما هي إلا نوافذ وإضاءات وإشارات بسيطة وملامح بسيطة لا تغني أبداً عن ضرورة الرجوع إلى كتب السيرة الموثوقة لاستكمال الصورة عن هذه الغزوة التي بدأت أحداثها في العاشر من رمضان في السنة الثامنة للهجرة عندما خان حلفاء قريش عهد الحديبية الذي وقع في السنة السادسة.

وسوف نحاول أن نتوقف قليلاً عند المواقف المتميزة والملامح الرئيسية مع اعترافنا بأن الكثير من المواقف الضرورية لا تتسع له هذه المساحة تلك المواقف التي تشكل محطات كبرى قائمة بذاتها وإن اشتركت مع غيرها في نسق الإطار العام علنا نفيد من ذلك ويثير الرغبة في العودة لقراءة الأصل ومن ثم نمتلك القدرة على النقل الثقافي وتنزيل الإسلام على الواقع اليوم ونحدد الموقع الملائم والفاعل لنشاطنا الإسلامي في حقل الدعوة.

● أم حبيبة وأبو سفيان:

لا شك أن الإسلام أعاد بناء الإنسان وفق منظور عقيدي لأن العقيدة المختارة تعني كرامة الإنسان وكسبه الحر والرابطة النسبية أمر قسري لا يد للإنسان فيه، بالعقيدة يتميز الإنسان ويحقق ذاته ويدلل على سمو اختياره وهذا لا يعني أبداً أن الإسلام أسقط الروابط النسبية من أدبه وشرعه وإنما كرمها

وقواها بالمعتقد وجعلها في خدمته فهذه أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ بنت أبي سفيان دخل عليها أبوها أبو سفيان عندما جاء إلى المدينة ليفاوض المسلمين حتى لا يغزوا مكة بعد أن نقض حلفاء قريش صلح الحديبية: دخل أبو سفيان على ابنته أم حبيبة فلما جلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه فقال: يا بنيه، ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله قال: والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر قالت: لا.. هداني الله للإسلام وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها وأنت تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر قال: يا عجباه وهذا منك أيضاً؟.

● **عائشة وأبو بكر وخبر الغزوة:**

من المعروف أن رسول الله ﷺ كان يوري في الحرب ليعمي أخباره عن أعدائه حتى لا يحبطوا خططه وهو القائل: «الحرب خدعة» لذلك كثيراً ما كان يعلن عن جهة ويحارب في جهة أخرى إلا في غزوة تبوك ـ وقد حدثت في رمضان أيضاً ـ لبعد الشقة وضرورة التزود للسفر وكان بيت رسول الله ﷺ على مستوى النبوة ورسالتها كما كان أصحابه محل سره تماماً!.

قال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «جهزينا وأخفي أمرك..» دخل أبو بكر على عائشة رضي الله عنها وهي تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً فقال: يا عائشة أهم رسول الله ﷺ بغزوة؟ قالت: ما أدري قال: إن كان هم بغزوة فآذنينا نتهيأ له قالت: ما أدري لعله يريد بني سليم لعله يريد ثقيفاً لعله يريد هوازن فاستعجمت عليه وهو من هو قرباً من الرسول ﷺ لكنها الأمانة حتى علم ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم.

● **النبوة والملك:**

لا شك أن للنبوة رسالتها وخصائصها وصفاتها وغايتها من إلحاق الرحمة بالناس ولها ضوابطها الشرعية ومقوماتها في الحكم وقيامها على العدل والسلم والمساواة التي أصلها الوحي وجعلها ديناً والتواضع والتسامح بعيداً عن الأثرة والظلم الاجتماعي والاستبداد السياسي كالقيصرية والكسروية وكم كان الصحابة يخافون أن ينقلب الحكم الإسلامي قيصرياً أو كسروياً ويمكن أن

يكون سؤال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسلمان الفارسي: أملك أنا أم خليفة؟ فيجيب سلمان: إن أنت جبيت من أموال المسلمين درهماً أو أكثر ثم وضعته في غير محله فأنت ملك غير خليفة مشيراً إلى الفارق بين النبوة والملك.

أبو سفيان لم ير من فتح مكة عندما نظر إلى الكتائب الإسلامية تدخلها إلا امتداد السلطان واتساع الملك والسيطرة على الناس والزعامة فيهم لذلك قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً فقال له العباس: يا أبا سفيان ليس بملك ولكنه النبوة.

● يوم المرحمة:

لسنا بحاجة إلى التذكير بكل ألوان العذاب التي ألحقها أهل مكة بالرسول ﷺ وصحبه المؤمنين قبل الهجرة ولو كان الأمر أمر ملك وسلطان واستعلاء في الأرض فقد آن الأوان للثأر والقصاص والإذلال والانتقام ولكننا نرى في مسيرة الفتح العكس تماماً فعندما تمكن المسلمون من رقاب أهل مكة قال سعد رضي الله عنه: اليوم يوم الملحمة يريد أن يقتص من المشركين على ما فعلوا فيعيد الرسول ﷺ الأمور إلى نصابها ويصوب اتجاه سعد وغيره ويقول: «اليوم يوم المرحمة حيث جعلت البيوت والمسجد الحرام ودار أبي سفيان وبيت أم هانىء المرأة المسلمة مكاناً آمناً لمن يدخلها» واعتبر الفتح فرصة لصلة الرحم والبر والعفو والصفح.

● تأدية الأمانة إلى أهلها:

النبوة أمانة ومسؤولية والرسول ﷺ يقول: «لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» وهكذا نرى مواقف النبوة لم تتغير في السلم والحرب والشدة والرخاء والضعف والقوة إنها المواقف التي تمثل المعاني الحقيقية التي كانت وراء انتشار الإسلام وخلود الرسالة.. فعلى الرغم من أن رسول الله ﷺ أصبح صاحب الأمر كله في مكة وله كامل التصرف فقد كان رسولاً قبل أن يكون حاكماً تروي صفية بنت شيبة: أن رسول الله ﷺ لما نزل مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في

يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية فقال رسول الله: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعي له فقال: «هاك مفتاحك.. يا علي اليوم يوم بر ووفاء وما زال المفتاح فيهم حتى اليوم» وفيه نزل قوله تعالى: **﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾** (النساء: ٥٨).

● التسامح والتواضع:

التسامح من صفات القيادة الرشيدة ومؤهلاتها والتواضع من خصائص النبوة وسماتها ولقد كان موقف الرسول ﷺ بعد أن دانت له مكة في غاية التسامح والتواضع لم تأخذه نشوة الظفر وصلف المنتصرين.

(دخل رسول الله مكة يوم الفتح على راحلته ويكاد رأسه يلامس سرج راحلته شكراً وعبودية لله أن فتح له مكة).

وقام على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

«يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب» ثم قال: «يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟» قالوا: أخ كريم وابن أخ كريم قال: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين اذهبوا فأنتم الطلقاء».

هذه بعض المواقف السريعة التي لا تغني أبداً عن إدامة النظر في السيرة بوجه عام وبهذه الغزوة بشكل خاص في هذا الشهر المبارك الذي كان وعاء النصر بالقرآن والمعارك الفاصلة في تاريخ المسلمين.

[١٠ رمضان ١٤١٠ هـ - ٥/٤/١٩٩٠ م]

ملامح من غزوة
بدر الكبرى

من الأمور التي لا بد أن نلفت النظر إليها قبل أن نعرض لبعض الملامح السريعة من غزوة بدر التي وقعت صبيحة الجمعة في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية للهجرة.

● أن غزوات الرسول ﷺ في أُحد والخندق والحديبية والفتح وتبوك وحنين ومؤتة ومعارك الفتح الإسلامي في فترة الخلافة الراشدة وما بعدها على الرغم من كثرة الضحايا وعظيم التضحيات لم تأخذ البعد المستقبلي ولم يتبوأ حضورها والذين استشهدوا فيها المكانة والمنزلة التي احتلتها غزوة بدر والبدريون.. ولعل هذا كان بسبب أن هذه الغزوة هي التي مكنت للإسلام.. وحمت أجنة الدعوة الأوائل. ووضعت حداً لغطرسة الشرك وسلطانه في الجزيرة العربية.

وطرحت الإسلام وتربيته المتميزة طرحاً جديداً.. وقلبت الموازين.. وهزت القناعات المترسبة في النفوس وبدأ معها أفول الجاهلية.

ولقد بين الرسول ﷺ موقع الغزوة من المسيرة الإسلامية بقوله أثناء ابتهاله وتوجهه إلى ربه: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض» وكان التمكين للدين الخاتم الخالد مرهون بنصر البدريين.. وأن هزيمتهم كانت تعني انطفاء النور الجديد.

ولهذا فلا غرابة بعد ذلك أن نلمح مكانة البدريين ـ الذين غفر الله لهم

تقدم من ذنبهم وما تأخر ـ في قصة حاطب بن أبي بلتعة عندما لحقت به حالة من الضعف فأرسل إلى قريش يعلمها بخبر الرسول ﷺ في غزوة الفتح مع إحدى النساء وافتضاح الأمر وكيف هم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقتله.. وكيف حال الرسول ﷺ بين عمر وما أراد وألزمه حده بقوله: «وما أدراك يا عمر فلعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ولذلك فيكفي للتدليل على مكانة أحد الصحابة بأنه شهد بدراً وكان عدم شهود بدر حسرة في نفوس الكثير ممن فاتهم حضورها وأرادوا أن يعوضوا عنها بمعارك ومبايعات كثيرة.

● والأمر الآخر الذي لا بد منه ونحن نعرض لبعض الملامح السريعة من غزوة بدر التي حدثت في شهر القرآن وكانت سبباً لكثير من تشريعات القتال ومفاهيمه وأبعاده والذي نزل فيها القرآن الذي يتلى على الزمن. إن الله سبحانه وتعالى أسمى بدراً معركة الفرقان وتسميتها بالفرقان وهو الاسم نفسه الذي أطلق على القرآن بقوله تعالى: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً**﴾ (الفرقان: ١) يعطي الغزوة بعداً يوازي من بعض الوجوه بعد القرآن نفسه وإن كانت الغزوة من بعض عطاء القرآن لكن تأتي أهميتها من أنها الدرس الأول العملي والجماعي للمعاني الفرقانية على أرض الواقع حيث لا بد من الفرقان الفكري والعقيدي والفرقان الميداني والعملي حتى يقترن القول بالعمل والفكر بالفعل والدعوة بالصدق.. فلا نزال نقرأ منذ أربعة عشر قرناً قوله تعالى: ﴿**إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير**﴾ (الأنفال: ٤١) إنه يوم متميز عن سائر الأيام التي سبقته ولحقته لأنه يوم الفرقان العملي.

ولعل ما نشير إليه من الملامح يساهم ولو بشكل بسيط في إلقاء الضوء على بعض المعاني الكبيرة والأساسية في البناء الإسلامي التي أصلتها هذه الغزوة.

● إن الرسول ﷺ وصحابته الكرام في معركة بدر تعاملوا مع الأسباب والسنن المادية التي كانت بمقدورهم أبلغ ما يكون التعامل لدرجة قد يعتقد

الفاضل عن التوازن بين الأسباب الإيمانية والأسباب المادية، أنهم أوكلوا أمر نصرهم إليها لشدة ما بلغوا من التعامل معها والالتزام بها.

لقد سبقت معركة الفرقان مرحلة بناء المسلم في مكة على الظروف القاسية حتى صلب عوده وتعامل مع المجتمع الوثني في مكة من خلال الوسائل الممكنة ولم يتعاون معه ويذوب فيه ولم يأذن الرسول للمسلمين أن يقاتلوا أو يخوضوا معركة الفرقان قبل أوانها واستكمال الاستعداد لها ولما أذن الله بالهجرة إلى المدينة المنورة جاءت فريضة الصيام في شعبان من السنة الثانية للهجرة وجاء الإذن بالقتال وكانت معركة الفرقان «بدر» ثمرة لأول رمضان يصومه المسلمون.

● ولسنا الآن بسبيل أن نفصل في أخبار المعركة فأمرها معروف في كتب السيرة والمغازي ولكن نريد أن نلفت النظر إلى تعامل الرسول ﷺ مع السنة الناظمة للحياة ابتداءً من التوقيت للمعركة والتفكير بالاستيلاء على قافلة قريش التجارية لاسترداد بعض حقوق المسلمين التي اغتصبت في مكة وما رافق ذلك من الشورى في بدء المعركة للتعرف على وجهات النظر، وصياغة القلوب والعقول باتجاه رأي عام واحد والرسول مستغن بالوحي عن الشورى وما كان بعد الشورى من عزم وتوكل على الله وقوله عليه الصلاة والسلام: «سيروا وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

● في الطريق إلى بدر وقف مع الصديق على شيخ من العرب فسأله عن قريش ومحمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما.

قال النبي: إذا أخبرتنا أخبرناك وعلم النبي منه أن عير قريش قريبة من بدر فقال لشيخ العرب: «نحن من ماء» «مستخدما التورية».

وفي الطريق أراد الصحابة إعفاء النبي ﷺ من المشي وإيثاره بالركوب فقال: «لست أقل منكم قوة ولا أقل منكم طلباً للأجر».

لم يغفل الرسول ﷺ عن إرسال دوريات استطلاع لأوضاع العدو والحصول على المعلومات ومعروف ما كان من أمر الغلامين القرشيين اللذين

عادت بها إحدى الدوريتين وعلم منها الرسول ﷺ أن قريشاً وراء الكثيب بالعدوة القصوى وما جاءت به الدورية الثانية من أن العير تأتي غداً أو بعد غد.

بعد الوصول إلى موقع بدر وقف الحباب بن المنذر ليناقش الرسول ﷺ في الخطة العسكرية بقوله: أمنزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال الحباب: فهذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ثم نغور ما وراءه ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فما كان من الرسول ﷺ إلا الاستجابة والتحول إلى الموقع الآخر وليس أمر الشورى في بدء المعركة إلا لتأكيد دور الشورى.

ونحن في هذه العجالة لا نستطيع أن نأتي على ذكر كل الأسباب والسنن المادية التي تعامل معها رسول الله ﷺ وإنما هي نوافذ ليطل منها مسلم اليوم فيرى الفاعلية ويرى الإيجابية عله يضع حداً لعطالته.

● وأما الارتباط بالأمور الإيمانية التي أهلتهم للنصر بعد استكمال الشروط المادية فالحديث عنها يطول وحسبنا في ذلك وقفة تأمل مع دعاء الرسول ﷺ بقوله: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض، اللهم انجز لي ما وعدتني اللهم نصرك» ويرفع يديه إلى السماء حتى يسقط الرداء عن منكبيه وأبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوي عليه رداءه ويقول مشفقاً: «يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك» وكان الرسول ﷺ دائم الضراعة والدعاء وكان يقول لأصحابه: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا دخل الجنة».

● أما مجتمع المشركين فكان عنوانه قولتهم: سنرد ماء بدر نشرب الخمور ونذبح الجزور وتضرب علينا القيان إنه مجتمع الإباحية الذي تسيطر عليه شهوتا البطن والفرج فهو غير مؤهل للنصر ثم كان ما كان من عوامل النصر

المعنوية من الربط على القلوب ونزول المطر لتثبيت الأقدام وتغشية النعاس وإذهاب رجس الشيطان والإمداد بالملائكة وجاء النصر في نهاية المعاناة وتراءى لبعض المسلمين أن النصر كان بفعلهم فنزل قوله تعالى ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾ (الأنفال: ١٧).

لا شك أن مجتمع الصحابة هو مجتمع البشر الذين يخطئون ويصيبون فبعد المعركة التي بلغت تلك الأبعاد جميعاً اختلف الصحابة رضي الله عنهم في قسمة الغنائم إلى درجة كادت تفسد ذات بينهم ولعل الله أذن بهذا ليكون وسيلة إيضاح للأجيال من بعدهم ليعرفوا كيف يتعاملون مع النصر والغنيمة والهزيمة والخلاف.

لقد بلغ من خلافهم حول الغنيمة أن قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: لقد اختلفنا في غنائم بدر حتى كادت تسوء أخلاقنا فنزعها الله منا وجعل أمر قسمتها لله والرسول.. وأنزل الله في هذا قرآناً يتلى يقول تعالى: ﴿يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم﴾ (الأنفال: ١) وكان لا بد في ذلك من درس عملي قاس في أحد حيث كان النزول لأخذ الغنيمة سبباً هاماً من أسباب الهزيمة.

وبعد فهذه بعض الملامح العامة عن معركة الفرقان في شهر الفرقان وقد مضى عليها أربعة عشر قرناً كما أسلفنا.. والمسلمون ما زال حظهم من المعارك الإسلامية قراءة أخبارها والاعتزاز بها دون أن يتلمسوا عوامل النصر المادية والمعنوية التي شرعها الله عز وجل في قرآنه وبينها الرسول ﷺ في سنته وأن يحاولوا محاكاتها والتأسي بها وعدم الاكتفاء بالفخر والاعتزاز بالمجد التاريخي الذي لا يتجاوز المنابر إلى حياتهم العملية.

والمسلمون مدعوون دائماً أن يعيدوا قراءة المعارك الإسلامية ببصيرة واعية وأن لا يسقطوا وقائع السيرة على بعض تصرفاتهم المزيلة يفصلون حوادث السيرة عليها وشيئاً فشيئاً تصبح تصرفاتهم هي المقياس وبذلك تكون الإساءة ويكون إجهاض القيم وإنهاء الثقة بها في نفوس الجيل المسلم.

كما أنهم مدعوون أن يعيشوا شهر رمضان شهر عبادة وتلاوة وتدبر

للقرآن وتبصر بالوسائل المشروعة يترسمون من خلالها منهج النبوة وطريق النبوة وأن يكون رمضان من كل عام فرصة المسلم للمراجعة والاعتراف الجريء بالأخطاء والتوبة منها وعدم الاستكبار بغير الحق والتدريب على المعاني الإسلامية لتأخذ طريقها إلى حياتنا.

[١٧ رمضان ١٤١٠ هـ - ١٢/٤/١٩٩٠ م]

النصر في أجواء الهزيمة

تاريخنا حافل بالشواهد التي تؤكد أن النصر يمكن أن يتحقق من خلال استشعار الهزيمة بأبعادها الحقيقية، وبالأجيال التي تنشأ وتترعرع في أجواء الهزيمة طالما كان هناك صبر ووضوح هدف، وسلامة وسائل، والتزام أوامر القائد المصلح، والتحصن بالعقيدة الصحيحة.. ففي السيرة قبسات مضيئة لكيفية التعامل مع الهزيمة والإفادة منها وتحويلها إلى نصر.

ففي «أُحد» وفي صباح اليوم التالي للمعركة التي توهم المشركون أنهم كسبوها وانتصروا فيها، وما أن أذن الرسول في الناس للخروج مرة أخرى لطلب العدو في «حمراء الأسد» حتى تجمع المجاهدون وهم الذين كانوا معه بالأمس، متجاوزين الظروف القاسية ومستعلين بالإيمان.

وخرج القوم الذين شهدوا هزيمة الأمس وهم ـ كما يقول أصحاب السير ـ ما بين مجروح وموهون ومشجوج حتى عسكروا «بحمراء الأسد»، يبتغون العدو، ولا يتطلعون إلا إلى إحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة.. وتحقق النصر، ولم يجرؤ الأعداء على حضور المعركة لأنهم تيقنوا أن انتصارهم في «أُحد» كان بسبب الخلل في الصف الإسلامي وليس بسبب قوة الكافرين.. لقد قذف الله الرعب في قلوب الأعداء، وهبوا عائدين إلى مكة من بعد ما كانوا يعدون العدة لدخول المدينة والقضاء على من بقي من المسلمين.. ولا يزال المسلم يتلو حتى هذا اليوم ويستحضر استعلاء الإيمان وتحويل الهزيمة إلى نصر في قوله تعالى: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد

ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم، فاخشوهم، فزادهم إيماناً وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم، إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين﴾ (آل عمران: ١٧٢ - ١٧٥).

إن ما حدث في «أُحد» يؤكد أن نشوة الظفر لم تربط على قلوب المشركين ليتمموا نصرهم ويقضوا على خصومهم.. كما تؤكد أن وقع الهزيمة وآلام الجروح الكثيفة في المسلمين لم تحل دون المتابعة والاستعلاء بالإيمان والإقدام ومن ثَمَّ الانتصار.

ولقد تكرر الدرس المستفاد من «أُحد» في «حطين» عام ١١٨٧ م، وغيرها من المعارك الإسلامية الكثيرة ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ (آل عمران: ١٤٠).. فصلاح الدين الأيوبي رحمه الله إنما انتصر في «حطين»، التي كسرت شوكة الصليبيين وأوقفت المد الصليبي في الشرق الإسلامي، بالجيل الذي نشأ في أجواء الهزيمة التي أعقبت الاحتلال الصليبي لبيت المقدس عام ١٠٩٩ م.

وما أشبه اليوم بالبارحة.

إن ما يحدث اليوم في الأراضي المحتلة عام ١٩٤٨ و١٩٦٧ م، من انتفاضة إسلامية إنما تخطط له وتقوده وتنفذه الأجيال التي عاصرت الهزيمة وشبت في إطارها، واكتوت بنارها، وذاقت مرارتها.. ويحدث ذلك بعد أن ظن كثيرون أن التهويد قد استحكم، وأن الأمور حسمت لصالح يهود.

وإذا كان المراقبون يرون أن مرحلة جديدة من المواجهة قد بدأت في الأراضي المحتلة، وأن «الظاهرة الإسلامية» كما أسموها، أصبحت هاجساً حقيقياً يؤرق الكيان الصهيوني، فإننا نعتقد أن النصر الذي تحقق لأمتنا أكثر من مرة في ظل الهزيمة التي نعيشها في وقتنا الحاضر، سوف يتحقق مرات ومرات، هذا إذا اكتملت شروط النصر، وقُرئت الهزيمة على حقيقتها، ولم يحاول بعض المتخاذلين أن يجعل منها نصراً، تغريراً بالجيل.. والله الموفق..

[١٢ ربيع الآخر ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧/١٢/٣ م]

لا هجرة بعد الفتح

قضية الهجرة رافقت الدعوة الإسلامية منذ خطواتها الأولى، ابتداء بالهجرة النفسية الداخلية على مستوى الفرد وذلك بهجر ما نهى الله عنه، أو الهجرة المادية بالتحول من مكان يغلب على الظن أن الإنسان فيه أصبح محاصراً وعاجزاً عن أن يمارس أي قناعة من قناعاته إلى مكان آخر يتمتع فيه بقدر من الحرية المفقودة في موطنه الأول.

وقد تكون الهجرة فردية وقد تكون جماعية وقد هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة لأن فيها ملكاً لا يظلم الناس عنده، ومن ثم كانت الهجرة الكبرى في التحول من مكة إلى المدينة وبدء مرحلة الدولة والمجتمع الإسلامي.

وكأن الهجرات قانون طبيعي لم يتوقف عبر التاريخ، وأغراض الهجرة متنوعة ونوايا الهجرة متعددة فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

ولا شك أن الهجرة تشرف بشرف هدفها ومقصدها فقد تكون من أرقى أنواع الجهاد وأظن أن المساحة القرآنية التي تكلمت عن ثواب المهاجرين ودورهم في البناء الإسلامي لم تدع استزادة لمستزيد وقد توعد الله القاعدين عن الهجرة لنصرة الإسلام بأشد مما توعد به القاعدين عن الجهاد فقال تعالى

متوعداً الذين آثروا الدنيا وزينتها من بيوت وصلات وقرابات على الهجرة إلى المدينة: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي الفاسقين﴾. (التوبة: ٢٤).

إنه وعيد خطير لمن انشد إلى الروابط الأرضية فحالت بينه وبين نصرة الدين بالهجرة وقبل بمعايشة الكفر والكافرين.

والآيات القرآنية الخالدة المجردة عن حدود الزمان والمكان اعتبرت الهجرة لوناً من الجهاد ومواجهة الظلم، ونوعاً من التحرف للقتال والتحيز إلى فئة لأن الإنجاز للعقيدة في الموقع الحالي أصبح صفراً أو يكاد قال تعالى: ﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً﴾ (النساء: ٩٧).

﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون﴾ (العنكبوت: ٥٦)، وهكذا نرى مشروعية الهجرة للتخلص من الظلم والتمتع بالعدل والحرية وممارسة العبادة والتجمع مع إخوة العقيدة والدين.

وليست الهجرة عملية سلبية هروبية وتخلياً عن الموقع وإيثاراً للسلامة والراحة هذا هو المفهوم الإسلامي للهجرة وهذه مقاصدها إلى حد بعيد.

ولقد أطال الفقهاء والمفسرون والمحدثون في بيان أحكام الهجرة وحرمة الإقامة في دار الكفر وفرضية الهجرة إلى دار الإسلام حتى لا يتعرض المسلم لفتنة في دينه ودنياه وحتى لا ينشأ أطفاله في مناخ الكفر والإلحاد.

ولا شك أن لكل حكم شرعي ظروفه وشروطه التي لا بد من توافرها حتى يمكن تطبيق الحكم كما أن لكل مجتمع ظروفه وشروطه أيضاً ومحاولة تطبيق الحكم الشرعي دون التبصر بمقاصده وشروطه قد يوصل إلى مضاعفات ومضار خطيرة على الواقع الإسلامي فتصبح الهجرة مساهمة سلبية في الإساءة إلى الإسلام.

من هنا نقول: إن أحكام الهجرة إذا أخذت هكذا ودون تبصر بالحال التي انتهت إليها مجتمعات اليوم أمر قد يحمل الكثير من الخطورة فمواصفات المجتمعات تغيرت كثيراً والتحكم بتحولات وأنواع الهجرات أصبح طبقاً لخطط مدروسة وإذا لم ندرك الأبعاد المتعددة للواقع اليوم سوف تكون الهجرات وبالاً علينا.

فالعالم المتقدم يمتص الأدمغة والسواعد على حد سواء وذلك بما يقدمه من فرص للحرية وإغراء بالأجر وما يفرضه في العالم الإسلامي من صور الاستبداد السياسي ليدفع الناس إلى الهجرة إليه حتى يبقى العالم الإسلامي متخلفاً وعاجزاً وواقعاً في دائرة التحكم للدول الكبرى.

فهل والحالة هذه تجوز الهجرة خاصة عندما تؤدي إلى تخلف المسلمين وتقدم غيرهم حيث يصبح المهاجر الجديد عامل قوة لغير عالم المسلمين بسبب الاستبداد.

لقد تغيرت معادلة الهجرة اليوم حيث يمارس الضغط من هنا والجذب من هناك لمناخ الحرية واليد الضاغطة والجاذبة قد تكون واحدة فهل تبقى أحكام الهجرة بمعادلاتها السابقة.

وقضية أخرى: لقد حملت الهجرات الإسلامية في العصور المتأخرة النكبات على عالم المسلمين فماذا سوف تكون النتيجة لو تشبث الفلسطينيون بأرضهم أليست عمليات المقاومة والانتفاضة في معظمها جاءت من سكان الأراضي المحتلة الذين لم يغادروا أرض المعركة وأين تضحياتهم من تضحيات الذين أصبحوا خارج المعركة لسبب أو لآخر.

أليست الهجرة العربية الإسلامية من فلسطين كانت تخلية أمام الهجرات الاستيطانية اليهودية وحملت البلاء السياسي والاقتصادي والاجتماعي للعالم الإسلامي كله؟ وقبل فلسطين هناك بلاد كثيرة كانت الهجرات سبباً في الانتكاس الإسلامي فيها. فلو صمد المسلمون في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي ومارسوا من تكاليفهم الشرعية الأقدار التي يستطيعونها **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** (البقرة: ٢٨٦) **﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾**

(التغابن: ١٦) ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ (النحل: ١٠٦) وبقيت قلوبهم عامرة بالإيمان بانتظار الفرج وفرصة الظهور والتغيير لربما كانت النتائج أفضل فكيف سيكون الحال لو لم تبق تلك الخمائر في تلك البلاد التي احتفظت بالإسلام وعادت إلى الظهور من جديد.

وحقيقة أخرى لا بد من إيرادها وهي أن الفقهاء عرضوا لأحكام الهجرة على ضوء الظروف الدولية التي كانت سائدة في زمانهم فهناك دار إسلام يطبق فيها الحكم الإسلامي ويتمتع المسلم القادم إليها من أي بلد في الدنيا بالحقوق نفسها التي يتمتع فيها كل مسلم في دار الإسلام التي يسودها العدل والحرية فهل هذه الدار موجودة اليوم بأحكامها كلها ليبقى الحكم على حاله وهل فرص الحرية والإقامة متوافرة وهل أرض الله ما زالت واسعة أم ضيقها الظالمون والمستبدون وإن بعض بلاد المسلمين انتهت إلى صور مأساوية في مجال الحرية والعدالة والمحاصرة.

وأين دار الحرب اليوم بحدودها ومواصفاتها وشروطها التي ذكرها الفقهاء والتي يفتن فيها المسلم ويطارد ولا يسمح له بممارسة شعائره.

وقد تكون الفتنة اليوم في أن المسلم يتمتع بحرية وحقوق في غير بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد العالم الإسلامي فهل والحال هذه تبقى الأحكام كما كانت أم لا بد من فقه جديد للهجرة على ضوء المستجدات اليوم.

فقد تكون الهجرة حراماً إذا كانت هروباً من الموقع وتمكيناً لأعداء الإسلام وقد تكون حراماً إذا كان المهاجر عنصراً فعالاً في تخصصه وحاجة المجتمع إليه فيذهب ليكون مزيد قوة لأعداء الإسلام وتكون حراماً بلا شك إذا مكنت غير المسلمين من احتلال أرض المسلمين ولعل أحكام الهجرة قبل فتح مكة حيث الجهاد والتجمع والتساند لحماية أجنة الدعوة والانطلاق بالإسلام من موقع جديد بعد أن استعصت مكة عن الاستجابة أما اليوم وبعد أن مكن الله للإسلام ويئس منه الأعداء ووجدت أقليات ومراكز إسلامية في العالم كله وتحقيق الحرية في ممارسة العقيدة والعبادات فلا بد أن تتغير أحكام الهجرة بحسب مقاصدها إن نداء الرسول التاريخي يقول

للمسلمين: «لا هجرة بعد الفتح، لكن جهاد ونية» متفق عليه. فالثبات في الموقع والجهاد ولو أدى ذلك إلى الموت لأن الموت لا يعني بعد فتح مكة انطفاء الإسلام بعد أن عز وانتصر وبدأ ينتشر.

فقد تكون الهجرة محرمة في حال ومشروعة في حال أخرى وواجبة في حال ثالثة، ولا تخرج الهجرة في مدلولها الإسلامي عن معاني الجهاد التي لا يجوز فيها تولية الدبر والتولي عن الموقع إلا إذا كان هذا التولي تحرفاً لقتال أو تحيزاً إلى فئة. والله هو المطلع على دخائل النفوس التي لا تفيد معها فلسفات الهزيمة والهروب من الموقع ولو استطعنا إقناع الناس بغير الحق.

[٢ محرم ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٨/٣ م]

.. ولكن جهاد ونية

كلما رأيت مشهداً من مشاهد الصراع الدامي وسمعت من أخباره بين المحتلين اليهود سواء من عناصر الجيش الإسرائيلي أو المستوطنين وبين أهالي الأرض المحتلة الذي يحتمون بالمساجد وينطلقون منها للدفاع عن الأرض والعرض ومواجهة الهجرة الصهيونية بالإيمان الكبير والوسائل البسيطة من الطوب والحجارة وقارنت بين حالة الذعر والترقب التي تتحكم بالوجه الإسرائيلي وبين الصمود والتصميم والبشر الذي يعلو وجه المرأة والطفل والشيخ من عناصر الانتفاضة استذكرت حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» وأدركت بشكل عملي خلود الرسالة وتحررها عن حدود الزمان والمكان والأبعاد المتعددة والمستقبلية التي أشار إليها الرسول ﷺ وغياب هذه الأبعاد عن كثير من المواقع الجهادية التي تعرض لها المسلمون تاريخياً.

فالهجرة من فلسطين عام ١٩٤٨ م والنزوح من الضفة الغربية والقدس عام ١٩٦٧ م جاء في مصلحة إسرائيل بدون شك بل لعله من لوازم قيام إسرائيل وعوامل التمكين لها.

فالضغط على السكان الأصليين ومحاصرتهم واضطرارهم للهجرة وفتح

الحدود العربية لاستقبالهم وتخليص إسرائيل من وجودهم كان مخططاً مرسوماً مسبقاً لصالح يهود.

وأعتقد أنه لو تشبث المسلمون بأرضهم في المواقع المختلفة التي هجروا عنها وأشعروا بإثم الهجرة وأنها معصية دينية ومخالفة لأمر الرسول ﷺ لشكلوا مشكلة لسلطات الاحتلال يصعب حلها وتجاوزها والتغلب عليها.

ومشاهد الانتفاضة والمواجهات اليومية بين السكان الأصليين وبين يهود وارتباك الجيش الإسرائيلي والاستنزاف الاقتصادي اليومي دليل واضح على أن الهجرات السابقة كانت في مصلحة يهود.

وهذا الكلام لا يصدق على فلسطين وحدها وإنما هو صدق النبوة على معظم الأراضي الإسلامية التي انتهت إلى سلطات الاحتلال والاستعمار وأنظمة الظلم والاستبداد بسبب من هجرة المسلمين من عليها.

إن الهجرة هي التي مكنت الأعداء من الاحتلال والتحكم وإسرائيل لا تزال تفتش حتى اليوم عن وسائل لتهجير السكان وإبعادهم ويؤرقها هاجس الغلبة السكانية وتجعل توطين الفلسطينيين في العالم العربي مطلباً من مطالب الحل.

واليهود اليوم هم أحفاد يهود الأمس الذين أورد القرآن قولتهم الخالدة لنبيهم موسى عليه السلام: **﴿قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾** (المائدة: ٢٢).

فهم لم يدخلوها ولن يستقروا فيها حتى يخرج أهلها منها، فالهجرة والخروج من الأرض المحتلة في مصلحتهم وقولتهم لا تزال مستمرة وخالدة.

لقد أخلينا لهم الأرض بفلسفات مهزومة ولو كنا في مستوى إسلامنا وأدركنا معاصينا السياسية والعسكرية في الأندلس وفلسطين وألبانيا ويوغسلافيا وهنجاريا وكل البلاد التي هجرها المسلمون مخلين الساحة لأعدائهم وأدركنا مغزى قولة الرسول ﷺ: **«لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»** فتشبثنا بأرضنا وكافحنا بمقدار الاستطاعة و **﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾** (البقرة:

٢٨٦) وانتظرنا الفرصة السانحة للمواجهة وتغيير الحال ونلنا شرف التضحية والفداء والاستشهاد لما كان الحال على ما هو عليه لكن المشكلة في فلسفة الهزائم وإماتة روح الجهاد وإضاعة المعالم الأساسية للتربية الجهادية في حياتنا.

صحيح أن بعض شراح الحديث قالوا: لا هجرة بعد الفتح أي لا هجرة من مكة إلى المدينة أما الحكم فيما وراء ذلك فيبقى على حاله وبعضهم الآخر قال: لا هجرة بعد الفتح أي لا ثواب للهجرة بعد الفتح كثوابها قبل فتح مكة إلخ.

لكن شراحاً للحديث آخرين رأوا: أنه بعد أن مكن الله للإسلام في الأرض وحمى أجنة الدعوة في غزوة بدر ويئس الذين كفروا من القضاء على الدين أصبحت النية والجهاد والتشبث بالأرض مهما كانت التضحيات: هي الحكم الشرعي حتى لو أدى ذلك إلى استشهاد العدد الكبير في سبيل الله.

فإصابة المسلمين في منطقة لا تعني القضاء على الإسلام، لقد تغير الحكم الشرعي بعد فتح مكة وبعد معركة بدر التي قال الرسول ﷺ عن أصحابها: «اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض».

فالإسلام بعد بدرٍ تقرر وانتصر وبدأ بالانتشار، والإصابات والهزائم لن تلغي الإسلام وتطفىء نوره.

والتداول الحضاري يعني النصر كما يعني الهزيمة فلا هجرة بعد الفتح لكن جهاد ونية.

لقد سادت في عالمنا العربي منذ نصف قرن تقريباً فلسفات للهزائم كانت كلها في مصلحة يهود.

واعتقد أننا لو تركنا الهزيمة تأخذ أبعادها والجراحات تبلغ مداها.

والهزيمة في كثير من الحالات ضرورة حضارية لتجديد شباب الأمة وإشعارها بمعاصيها وتقصيرها والقضاء على العناصر الشائخة في حياتها لاستنفارها واستفزازها لكانت الاستجابة وكان الرد على التحدي بغير هذا

الشكل والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح..﴾. (آل عمران: ١٧٢).

لكن المشكلة في التستر على الهزيمة وعدم الإفادة منها بل واعتبارها نصراً وإنجازاً وذلك مساهمة في تضليل الأمة وضياعها.

واليوم وعلى الرغم من التحدي الإسرائيلي الذي بلغ مداه في تدنيس المقدسات والاعتداءات على الحرمات وتمزيق القرآن الكريم واستخدام أوراقه في دورات المياه ـ الأمر الذي يعني في الحقيقة استخدام المسلمين في دورات المياه وليس القرآن.

وظهور الشباب اليهودي بكل تعصب وغطرسة واستخدامه لكل مظاهر التحدي ومع ذلك نرى الحواجز التي أقيمت بين الأمة المسلمة وقضيتها في فلسطين كان أقوى من التحدي بل هي التحدي الحقيقي.

وبدل أن نرشد الشباب المسلم ونعبئه ونجهزه للجهاد فإننا ندمره ونقضي عليه باسم التطرف والتعصب فمن ذا الذي يصدق إلا أنها الذراع اليهودية التي تفعل فعلها وإن إماتة روح الجهاد ومحاصرة الشباب هي من لوازم الصورة.

لقد استطاعت إسرائيل أن تميت روح الجهاد بسواعد العرب أنفسهم ودفعت بمئات المهاجرين إلى ترك المواجهة وإخلاء الجبهة والتمكين للعدو دون الشعور بأي تأثم أو ذنب.

فهلا نستمع من جديد إلى الرسول ﷺ يقول: «لا هجرة بعد الفتح لكن جهاد ونية» ونجدد إسلامنا ونعدل عن التفسيرات الانهزامية التي يروج لها اليوم في عالمنا لمصلحة العدو وبذلك ننقذ قرآننا ومقدساتنا.. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

[٥ ذو القعدة ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩/٦/٨ م]

دعوة لقراءة
صحيفة المدينة

من المعروف أن اليهود التجأوا إلى الجزيرة العربية بعد أن أصابهم النفي والتشريد حوالي سنة ٧٠ ميلادية ومكن لهم ذلك الطبيعة التي جبل عليها العرب من الكرم والنجدة وحب الضيف وإغاثة الملهوف وحماية من ينزل بجوارهم وهذا الإيواء وتلك الحماية لم يقتصرا على عصر دون آخر بل بقيا مستمرين حتى بعد الإسلام، ولنا في بلاد الأندلس أثناء الحكم الإسلامي وبلاد الشام واليمن الشواهد الكثيرة على ذلك حيث كانت بلاد المسلمين دائماً هي المأوى والملجأ والتمتع بالحرية الدينية عقيدة وعبادة والحرية الاقتصادية صناعة وتجارة واحترافاً وقد وصل بعضهم إلى مواقع مؤثرة في الدولة الإسلامية نفسها، وليس المجال الآن متسعاً للشواهد والأدلة وأظن أن الأمر من الوضوح ما لا يحتاج معه إلى دليل. ذلك أن الشعار الدائم للمسلمين قوله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ (البقرة: ٢٥٦) وقول الرسول ﷺ: «من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه يوم القيامة ومن آذى ذمياً فقد آذاني». ولولا هذه القيم وهذه الشعارات والشعائر لما وجد في الدولة المسلمة مواطنون لا يؤمنون بدينها وقد بلغت من القوة ما لا يستطيع أحد أن يحاسبها إلا الله سبحانه وتعالى لكن هذا التعامل التاريخي هل غير من طبيعة يهود وأهلهم للتعايش مع المسلمين وانتزع من قلوبهم الحقد والتآمر والكيد المستمر الذي لم يتوقف لحظة واحدة وكان يظهر كلما أتيحت الفرصة؟.

أعتقد أن الاستقراء التاريخي يحمل لنا الجواب المملوء بالمرارة وخيبة

الظن وقد يكون من المناسب ونحن نعاني ما نعاني وقد بلغت سطوة يهود العالمية ما لا يخفى على أحد ووصلت الذراع الإسرائيلية إلى معظم بلاد العالم بمافي ذلك بلاد العالم الإسلامي بشكل مباشر وغير مباشر حتى أوقعته في حفر الطائفية والإقليمية والعنصرية والاستبداد السياسي على يد نفر من أبنائه ـ قد يكون من المناسب أن نعرض لموقف يهود من الرسالة والرسول عندما وصل إلى المدينة مهاجراً منذ ألف وأربعمائة وعشر سنوات، لعل ذلك يبصر بالطريق ويعيد الذين يحاولون اليوم القفز من فوق العقيدة والسيرة والتاريخ والواقع إلى رشدهم ودينهم حتى لا ينتهوا إلى صفوف العدو الإسرائيلي من حيث أرادوا أو لم يريدوا.

كان في المدينة المنورة إلى جانب الأوس والخزرج قبائل يهودية من بني النضير، وبني قريظة وبني قينقاع، الذين سكنوا المدينة حوالي سنة ٧٠ ميلادية هرباً من التنكيل كما أسلفنا، وكانت لهم السيطرة على الواقع الاقتصادي في المدينة حيث كانوا يتعاملون بالربا وإقراض أهل المدينة ومعظمهم من الزراع المال مقابل زيادة فاحشة في موسم القطاف وكانوا دائماً يحرضون الأوس والخزرج على الاقتتال ويثيرون بينهم الفتن والمؤامرات ليستمر تحكمهم، وما خبر يوم بعاث ببعيد فجاء الرسول ﷺ مهاجراً وحال المدينة بهذا الشكل فكان ما كان من المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حيث حلت الأخوة الإسلامية محل العصبيات بين الأوس والخزرج وحل مفهوم الجهاد في سبيل الله محل الثأر والعدوان وأعيدت صياغة المجتمع المدني في ضوء الإسلام.

وكان أن وقع الرسول ﷺ الصحيفة التي تعتبر دستوراً وميثاق عمل بين سكان المدينة بما فيهم يهود، ولعل الرجوع إلى قراءة نصوص الصحيفة وما أعطي يهود من حقوق وما أعطوا من عهود ثم نقضوها يلقي أضواء ضرورية على طبيعتهم ومصير معاهداتهم ومؤامراتهم وفي هذه المرحلة الدقيقة من حياة الأمة ومن أهم البنود التي تتعلق بيهود كما رويت في الصحيفة:

إن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وآثر.

إن بطانة يهود كأنفسهم.

إن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم.

إن بينهم ـ بين المسلمين واليهود ـ النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وإن بينهم النصح والتضحية والبر دون الإثم وإن بينهم النصر على من دهم يثرب.

إنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم.

هذه تقريباً مجمل النصوص التي وردت في عهد النبي ﷺ لهم عندما جاء إلى المدينة فماذا كان بعد ذلك؟ لم يتوقف التآمر على الرسالة والرسول ﷺ ولا لحظة واحدة ابتداء من صناعة النفاق والمنافقين ضمن الصف المسلم وانتهاء بالتآمر المباشر والصريح مع المشركين (تحالف بني قريظة مع الكفار في غزوة الخندق) وتوهينا للأخلاق والمبادىء الإسلامية (موقف بني النضير من المرأة المسلمة التي دخلت سوقهم) إلخ وإغراء الكفار بقتال المسلمين والشهادة لهم بأن أصنامهم أهدى من إله محمد صلى الله عليه وسلم.

وليس أمراً مستغرباً بعد هذه المواقف الكثيرة أن تكون المساحة التعبيرية التي وردت في القرآن عن أخلاق يهود وتاريخهم المملوء بالمكر والخداع والتآمر حتى على الأنبياء بهذا الحجم فلم يذكر القرآن تاريخ أمة من الأمم ولا شعب من الشعوب ويفصل فيه كما ذكر عن بني إسرائيل وعلى الرغم من أن المسؤولية في الإسلام فردية **﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾** (الأنعام: ١٦٤. الإسراء: ١٥. فاطر: ١٨. الزمر: ٧). مع ذلك خاطب القرآن يهود الذين كانوا في عصر الرسول ﷺ بجرائم آبائهم وأجدادهم وكأن الجريمة متأصلة عندهم متوارثة فيهم. ولم يقتصر القرآن على رصد جرائمهم ونكولهم وتحريفهم لكلام الله وعدم صدق عهودهم مع أنبيائهم وإنما نشر طوايا نفوسهم ليأخذ المسلمون حذرهم ولعل من أعظم خياناتهم خيانة عهد الله وتحريف كلامه واتهام أنبيائه فكيف يسوغ لنا بعد ما ذكر القرآن

والسنة والسيرة وما وقع في التاريخ القريب والبعيد أن نقفز من فوق ذلك كله ونحسن الظن ونفكر بعهود ونتوهم أننا أكثر ذكاء وخبرة من التاريخ، ويغيب عنا أن دراسة أية أمة من الأمم لبناء التعاهد معها لا بد لها من معرفة كاملة بتاريخها وعقيدتها وواقعها فالعقيدة والتاريخ والواقع تقول لنا: احذروا يهود، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

[٩ محرم ١٤١٠ هـ - ١٠/٨/١٩٨٩ م]

في ذكرى الإسراء..
درس وعبرة

.. إن الكثير من المسلمين يمرون بحادثة الإسراء والمعراج مروراً عابراً يحاولون قراءاتها بصورة ساذجة وبسيطة، وقد يقعون في جدل حول بعض الأحاديث والرؤى، لما ينتهي بعد، حول كيفية الإسراء، وهل حصل بالروح أم بالجسد، ويعرضون الحادثة على عقولهم، فتستحيل عندهم كما استحالت في عقول من سبقهم فأنكرها أو أوَّلها في الوقت الذي يتابع فيه اليهود اعتداءاتهم على الأقصى وبرامجهم في التهويد، وأقل ما يقال في الموضوع: إن القضية لها علاقة بالسنة الخارقة التي لا تخضع لقانون العقل، وإن الله تعالى قال: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ (الإسراء: ١) ولا تطلق كلمة «عبده» في اللغة العربية إلا على الجسم والروح، ونرى أنه لا بد من تجاوز الجدل حول الحادثة إلى المعاني الكبيرة التي سبقت حادثة الإسراء ورافقتها، إنها جاءت بعد مواجهات مريرة مع المشركين في مكة، على كل المستويات بما في ذلك المقاطعة الجماعية في الشعب، ورحلة الاضطهاد في الهجرة إلى الطائف والعودة منها، وفي الاغتيال النفسي بموت العم الحامي والزوجة الحانية..

إنها المعاني الكبيرة والآفاق الواسعة التي رسمتها الحادثة للخروج بالدعوة الإسلامية المحاصرة في مكة، والتي خرجت منهكة من الشعب ومحبطة من رحلة الطائف، عن مستوى الزمان والمكان، فالدعوة ليست وقفاً على زمن معين، أو جيل بذاته، أو أي مكان إنها قضية الإنسان حيثما كان وإلى أي جنس انتمى.. إنها بدأت في مكة مركز النبوة الأولى وانطلقت إلى القدس

أرض النبوات ثم شملت العالم، قال تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً﴾ (آل عمران: ٩٦)، والذي بنى البيت وأصل التوحيد هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والذي جاءت رسالته خاتمة، وجاء كتابه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه هو الرسول محمد ﷺ الذي صلى بالأنبياء إماماً هناك في بيت المقدس الذي بارك الله حوله، والذي يشكل الاعتداء عليه اليوم اعتداء على النبوة بأصلها وختمها..

إن كثيراً من المسلمين يمرون أمام حادثة الإسراء والمعراج ويعجزون عن وضعها في مكانها المناسب من المسؤولية الإسلامية والتكاليف الشرعية: إن حادثة الإسراء والمعراج على الرغم من أنها تعطي المدد النفسي للمسلم، لكنها في الوقت نفسه مناسبة مؤدبة للمسلمين اليوم الضائعين عن إسلامهم ومستلزمات عقيدتهم..

وقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت، وقد مضى على احتلال يهود لأرض النبوات أكثر من أربعين عاماً، العودة إلى التاريخ ودراسة الحملات الصليبية، ومن ثم الحقبة الاستعمارية للعالم الإسلامي التي تشكل حلقة غير منفصلة عن الجذور الصليبية، ومن ثم الانتهاء إلى الصورة الأخيرة للغارة على العالم الإسلامي، صورة الصهيونية التي تعتبر امتداداً طبيعياً للحملات الصليبية وتحاول الاستفادة من دروسها، والتي تقف النصرانية بوجهيها الشرقي والغربي على حد سواء في صفها.. فالتحالفات اليهودية الوثنية الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ليست جديدة فقد بدأت في غزوة الخندق عندما حزبت يهود الأحزاب ضد المسلمين وشهدت لقريش الكافرة المشركة وقتئذ أن أصنامها أهدى من دين محمد ﷺ ولم تتوقف إلى هذه اللحظة.

وترجع أهمية الحروب الصليبية في أنها تشكل تجربة غنية في تاريخ المسلمين. وهذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج وإنما هي تجربة كبرى خطيرة مملوءة بالدروس والعظات، الأمر الذي يتطلب أن نتأملها ونبحثها في كل وقت ونراجع حساباتنا معها على ضوء المستجدات في معركة المواجهة السياسية والحضارية والعسكرية لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها. ونواجه أخطار وتحديات الحاضر ونتغلب عليها..

إن ذيول الحروب الصليبية لما تنته بعد، وسواء قلنا: إن التاريخ يعاد بنفسه أو لا، فإن هناك سنناً تحكم قيام الأمم وسقوطها وتتكرر النتائج كلما تحصلت الأسباب.. إن من الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلى الوضع الذي سبق الحملة الصليبية الأولى منذ ثمانية قرون. الأمر الذي يتطلب دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة، وتحديد عوامل النهوض التي قادت الأمة إلى النصر، وشروط النصر التي تحققت بعد أن كادت تطمس الهوية الإسلامية لهذه البلاد خلال ثمانية أجيال، أي ما يقارب القرنين من الزمان، غاب فيها الإسلام، وأقيمت الجيوب الطائفية، ودعمت وأثيرت الأقليات الدينية واستيقظت النزعات الإقليمية والباطنية التي ما نزال نعاني من آثارها حتى اليوم، والتي ما تزال الصهيونية تغذيها وتقف إلى جوارها بشكل ظاهر أو خفي.

لقد مرت بالأمة المسلمة فترات ضعف مكنت العدو من التغلب عليها والسيطرة على أرضها، لكن بقاء الانتماء للإسلام حال دون ذوبانها في فترات ضعفها، كما أسلفنا، والأمة المسلمة تاريخياً: كلما حققت الالتزام بالإسلام مع الانتماء إليه أمكنها من رد عدوها ونشر حضارتها، وقد أدرك خصومها ذلك، فكان لا بد من سلخها عن إسلامها لضمان استمرار غلبة الأعداء عليها. والأمر الذي أصبح واضحاً: أن عملية الاسترداد للأراضي الإسلامية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بعد القضاء على واقع التجزئة والتمزق والتناحر والدويلات التي كانت تملأ عالم المسلمين، سبقها بناء جيل هو جيل التحرير، استطاع بواسطته صلاح الدين أن يحرر القدس وغيرها من بلاد المسلمين من الصليبيين، وأننا مهما حاولنا استدعاء صلاح الدين دون إمكانية تربية جيل التحرير فلن نظفر بنتيجة.

لقد كان لعودة القدس إلى المسلمين بعد ما يقارب القرن من الزمان الذي أسكت فيه صوت التوحيد، دوي هائل في الساحة الإسلامية ومحاولات مستميتة من جانب الغرب النصراني.

وقد تختلف الهجمة اليهودية عن الحملة الصليبية أنها لم تقتصر على الجيوش، وإقامة القلاع والحصون والقواعد العسكرية، كما كانت الحملات

الصليبية، وإنما أريد لها أن تزرع شعباً غريباً مكان الشعب المسلم، وبهذا تسيطر بقوة الجيش وبقوة سكان مجتمع استيطاني له دولته، وهو كيان معاد دينياً وحضارياً للمنطقة حيث إنه امتداد حضاري وبشري لليهودية العالمية كنسب جنسي وللغرب النصراني كنسب حضاري وتكنولوجي واستراتيجي.

إن صلاح الدين رحمه الله بدأ بنفسه فغيرها. واستشعر المسؤولية أمام الله عز وجل، فأنهى واقع العطالة والفساد والتجزئة في عالم المسلمين، وبنى جيل التحرير، وكذلك قام الفقهاء والعلماء والأمراء والقادة بمسؤولياتهم فكان نصر الله وكان تحرير المقدسات، ذلك أن المجتمع المفكك الفاقد لثقافته لا يمكن أن ينتج قوة عسكرية قادرة ومتماسكة.

ومهما ارتفعت أصواتنا في استدعاء «صلاح الدين» جديد واشتدت معارك الشعارات على أرضنا فلا سبيل إلى التحرير واسترداد بيت المقدس دون العزم على إعداد جيل التحرر الذي يمثل الوليد الشرعي لعقيدة الأمة ووجودها التاريخي، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

[٢٩ رجب ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٣/١٧ م]

معجزة الإسراء
وخلود الرسالة

عرف العلماء المعجزة بأنها: الأمر الخارق للعادة، ذلك أن الكون تحكمه سنن وقوانين تنتظم حركته وتسير أموره، هي بمثابة المقدمات التي توصل إلى النتائج والأسباب التي لا بد منها للوصول إلى المسببات. وعادة ما يكون بمقدور الناس التماس الأسباب وفعل المقدمات للوصول إلى النتائج وفقاً لسنن الله في الوجود.

وهذه الأسباب وتلك النتائج هي من خلق الله وإبداعه وبالتالي فلا يمكن أن يتصور أحد أن الذي خلق الأسباب إنما خلقها ليحكم نفسه بها بل خلقها ليحكم بها خلقه ويكلفهم ويحاسبهم في ضوئها.

فالمعجزة هي خرق للأسباب والمقدمات وحصول للمسببات والنتائج على خلاف النظام المألوف للناس، الأمر الذي يحمل الناس على الإيمان بمن وراء القوة الخارقة للقوانين وهو الله سبحانه.

لذلك يسمي العلماء المعجزة: السنة الخارقة بينما يسمون القوانين والأسباب التي تحكم الحياة: السنة الجارية. والذي يستقرىء تاريخ النبوات يجد أن المعجزات تنقسم إلى قسمين: معجزات مادية: وهي أمور محسوسة مجسدة مادية ملموسة تقع تحت الحواس.

ومعجزات معنوية: وهي أمور مجردة معنوية تدركها الحواس غير محكومة بظروف وشروط معينة وزمن معين.

فعصا موسى عليه السلام معجزة مادية مجسدة كانت في زمن معين وبيد نبي مكرم وجدت بوجوده وانتهت بانتهائه ونحن اليوم نؤمن بها إيمان غيب لورودها عن طريق الخبر الصادق إلا أننا لم نشهدها ولم نر نبي الله موسى عليه السلام.

وكذلك معجزات عيسى عليه السلام هي معجزات مادية وجدت بوجود عيسى وانتهت بانتهائه وإيماننا بها هو إيمان بالغيب أيضاً وهكذا سائر الأنبياء عليهم السلام.

وللرسول محمد ﷺ معجزات مادية كثيرة نذكر منها نبع الماء من أصابعه وحنين الجذع الذي كان يستند إليه في الخطبة.. إلخ.

وكذلك الإسراء بالروح والجسد من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، وهذه المعجزات المادية هي بالنسبة لنا اليوم غير مشهودة وإنما نؤمن بها إيماننا بالغيب بشروطه المعروفة من السند الصادق والمتن السليم من العلة القادحة.

إلا أن هذه المعجزات المادية ليست هي المعجزة الكبرى التي جاء بها رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

إنما المعجزة الكبرى هي القرآن الكريم الذي تحدى الله به البشر أن يأتوا بسورة من مثله، وهو معجزة مجردة عن الزمان والمكان خالدة خلود الزمان.

فالقرآن تحدى العرب في جزيرتهم وهو اليوم لا يزال يتحدى ومن أراد التعرف إلى الإسلام فمعجزته حاضرة باقية ومستمرة لكل جيل. لم تنقض بوفاة الرسول ﷺ كما انقضت معجزات الأنبياء بوفاتهم.

من هنا نلمح أن الإسلام دين خالد، وأن خلود الرسالة وعدم انقضائها من لوازم خلود الدين واستمرار الخطاب القرآني للناس في كل زمان ومكان وأن طبيعة المعجزات السابقة على الإسلام وكونها مرتبطة بوجود الأنبياء ومنقضية بوفاتهم دليل واضح على أن تلك الأديان كانت لفترات معينة وأقوام بأعيانهم وأن الإسلام دين الخلود والشمول.

ومن أراد معجزته فهي موجودة فما عليه إلا أن يعمل عقله ليقوده إلى الإيمان وصدق الشاعر إذ يقول:

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكم غير منصرم

وعلى الرغم من أن الإسراء معجزة تحمل أكثر من مغزى ولعل أهمها الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وإمامة الأنبياء حيث انتهت رسالاتهم إلى الإسلام وأن المؤمن بالإسلام مؤمن بشكل طبيعي بالأديان السابقة كلها إلا أن المعجزة الكبرى تبقى القرآن الكريم، إنه المعجزة التي تتناسب مع العقل الإنساني في مرحلة الرشد.

[٢٤ رجب ١٤٠٩ هـ - ٢/٣/١٩٨٩ م]

محنة الأقصى
وهوان المسلمين

«أيها المسلمون في جميع أنحاء العالم إن الأقصى في خطر» هذه الصرخة وجهها الشيخ سعد الدين العلمي والدموع تنهمر من عينيه. ودعا للحذر من المحاولات الصهيونية المتكررة لبناء ما يسمى بالهيكل الثالث في ساحات الحرم القدسي. وطالب المسلمين بالاستنفار دفاعاً عن دينهم.

وكان الشيخ العلمي قد دعا المسلمين في الأرض المحتلة للتوافد من كافة مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة إلى القدس من أجل الرد بحزم على المحاولات والدفاع عن المقدسات ومنع اليهود من تدنيسها.

نعترف منذ البداية بأننا لم نكن راغبين في الكتابة عن هذا الموضوع لاعتقادنا بأن ما كتب فيه منذ عام ١٩٦٧ م إلى الآن لو جمع مداده لأغرق إسرائيل.. ولو حسبت الأوقات والأوراق والأموال التي أنفقت عليه، لكانت كفيلة بحسمه.. لكن الكتابة والخطابة والكلام اليوم، أصبح تزجية للوقت، وملأً للفراغ، وتغطية للأحداث والمناسبات، وفرصة للابتزاز والكسب السياسي.

أما قضايا الأمة الأساسية فهي في تراجع وتقهقر مستمر على الرغم من البطولات والزعامات التي تصنع في الفراغ، في الوقت الذي تعجز فيه أن تقدم لقضايا الأمة شيئاً مذكوراً، هذا إن لم تكن بعض البطولات والزعامات اليوم، مرهونة بالعجز والتواطؤ على قضية الأمة الكبرى في فلسطين ومحكومة بالفراغ والتفريغ حيث نسمع جعجعة ولا نرى طحناً.

إنها صور الزيف والتضليل الثقافي الذي يمارس على الأمة، ويعيد تشكيل إنسانها في هذا المناخ المسموم من تربية لحواس الذل والهوان، والخنوع، واليأس، والاستسلام بل لعلنا نقول:

بأن حجراً في يد طفل الأرض المحتلة يمكن أن يعدل أو يفوق كل ما نعد من كتب وكتابات، لأننا نعتقد أن هذا الحجر الذي يُوجه ليهود في الظاهر، إنما هو في الحقيقة رجم لكل الآثمين في حق أمتهم، وإعلان لرفضهم بكل زعاماتهم، وبياناتهم، وطروحاتهم الاستسلامية.

فمحنة الأقصى اليوم، لا تعالج بالكتابة والخطابة والندوات السياسية حيث إننا لا نزال نخطىء قراءة المعادلة المطلوبة.

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى   مضر كوضع السيف في موضع الندى

فعلى الرغم من الجراحات الموجعة التي تخلفها الضربات الحضارية والثقافية والسياسية والدينية على جسم الأمة، وعقلها، وضميرها من قبل يهود، فإننا نقابل ذلك بالخنوع والذل والهوان، تلك الحواس البديلة التي زرعت فينا.

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

واليهود أدركوا ذلك واختبروه في أكثر من موقع، على المستوى الثقافي والسياسي والعسكري.. إنها الأوضاع والأشكال السياسية، والزعامية التي صنعت وحضرت على مدى سنين طويلة لصالح العدو، ولتصبح من لوازم الصورة وضرورتها.

لذلك، لا تجد نداءات واستغاثات الشيخ سعد الدين العلمي آذاناً صاغية، ولا قلباً واعياً، ولا حمية إسلامية.. ذلك أن المساجد مراكز التوعية وصناعة الحمية الإسلامية، تحاصر اليوم في العالم الإسلامي، وتعطل رسالتها ووظيفتها، ويحارب دعاتها وأتباعها بذراع إسرائيلية.

من هنا، نعتقد أن إصابة الأقصى كانت نتيجة طبيعية لواقع المسجد في العالم الإسلامي إلا إذا كنا نعتقد أن سلامة المساجد بزخارفها، وبنائها،

وأشكالها، وليس برسالتها وعطائها وإدراك دورها في العلم والجهاد على حد سواء.

فأين العطاء الحضاري والثقافي والجهادي اليوم للمساجد التي كانت ربط الدعوة، والعلم، والجهاد في الإسلام؟.

أين جامع القرويين ودوره على المستوى الإسلامي والعالمي؟ وأين جامع الزيتونة ودوره في الجهاد ونشر العلم والدعوة، حيث المحاولات مستمرة لتنصير القارة الإفريقية؟.

أين مسجد عقبة بن نافع في القيروان؟.

أين جامع الأمويين وعطاؤه العلمي والحضاري؟.

أين الموقع المؤثر اليوم للجامع الأزهر الذي كان من أوائل الجامعات العالمية، والجامعة الأولى في مصر والعالم الإسلامي؟.

فإذا كانت المساجد ببنائها وزخارفها يمكن أن نقول أن هذه المساجد، والحمد لله، قائمة، سليمة، ترمم وتهيأ لتكون مواقع أثرية وسياحية لافتة للنظر.. أما إذا كانت المساجد برسالتها، ومدى عطائها، فليس الكثير من مساجدنا التاريخية اليوم، بأحسن حالاً من الأقصى.

بل لعلنا نقول: إن محنة الأقصى إنما جاءت ثمرة ونتيجة طبيعية للحال التي صرنا إليها في العالم الإسلامي.

لقد بدأت قضية فلسطين، قضية المسلمين جميعاً.. لذلك كان الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين السابق رحمه الله، الذي شكل المؤتمر الإسلامي العام لبيت المقدس، وحرص على دفن الكثير من الزعماء المسلمين في القدس، يدرك المعنى الذي لا بد من الحفاظ عليه من الناحية التاريخية والحضارية والسياسية، وهو: إسلامية القضية وجعلها مسؤولية المسلمين جميعاً ولكن الأمور سارت بطريق آخر.

لقد بدأ تهميش القضية شيئاً فشيئاً على يد الزعامات المصنوعة، لتصبح قضية العرب القومية، وهو شعار مثير ومغر صدقه بعض البسطاء، ومن ثم

انتهت لتكون قضية الفلسطينيين فقط! ويستمر التردي، لتصبح قضية سكان الأرض المحتلة الذين يقفون اليوم وحدهم ليدافعوا عن شرف الأمة الإسلامية ودينها دون معين إلا الله.

وقد لا يسلمون من إصابات وضربات تأتيهم من الخارج، على حد قول الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضر..

إن الاعتداءات المادية والمعنوية، مستمرة على المسجد في كثير من أنحاء العالم الإسلامي.. فلماذا لا يعتدي يهود على الأقصى ويحاولون حرقه وهدمه لإقامة الهيكل الثالث؟ إنه الوضع الصحيح لطبيعة الصراع.. والأمة التي تسمح بهدم مؤسساتها الحضارية والعلمية والدينية، أو تفريغها من الداخل، وتسمح بالاستبداد السياسي يذيقها الهوان أمة ليست جديرة بالاحترام، ولا بشرف الجهاد والاستشهاد.

[٢٥ محرم ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٨/٢٦ م]

هل ندرك حجم التحدي؟!

أثارت أنباء الإهانة التي ألحقها جنود الاحتلال الإسرائيلي بالشيخ سعد الدين العلمي إمام المسجد الأقصى رئيس الهيئة العلمية الإسلامية العليا في القدس، والاعتداء عليه بالضرب عقب صلاة الجمعة الماضية، موجة عارمة من الغضب في الأوساط الإسلامية داخل وخارج فلسطين المحتلة.

ولا شك أن حدود الإصابة وأبعادها، لا يمكن أن تكون محصورة بشخصية الشيخ العلمي، وإنما هي الإصابة التي تلحق بأفراد الأمة جميعهم.

ونحن هنا قد تكون قراءتنا لهذه الإهانة مختلفة.. فلقد استبشرنا كثيراً، وذلك من باب أن مثل هذا الاعتداء على رموز المسلمين، هو مما يدفع بالتحدي ليبلغ مداه.. وفي الوقت نفسه، يساعد في إشعار الناس جميعاً بمختلف مستوياتهم، أن لكل واحد منهم نصيباً من هذه اللطمة، ومن هذا الاعتداء الذي هو في الواقع علامة بارزة على سقوط محاولات التطبيع والاستسلام وتجميل الوجه اليهودي الغادر، والسقوط في مناخ التهويد بشكل أو بآخر.

إننا نرى أن الاعتداء على إمام المسجد الأقصى، بل وكل اعتداء يصيب الأمة في مواجعها، سوف يكون شاهداً يؤكد من جديد أن الضرب على المواجع هو الذي يبصرنا بعدونا، ويحفزنا لتجميع طاقاتنا ومواجهة العدو في

معركة المصير الواحد، ويسقط عن كاهلنا فلسفات الهزائم ودعوات الاستسلام باسم السلم والتصالح والمهادنة.

ألم يكن الذي أثار حفيظة المسلمين على يهود بني قينقاع، برغم ما كان بينهم من عهود، هو نزع يهود لحجاب امرأة مسلمة دخلت سوقهم لأمر يهمها، ولم تهدأ ثورة المسلمين حتى خرجت بنو قينقاع من المدينة المنورة؟!.

ألم يكن الذي أثار نخوة المعتصم، وانتهى به إلى فتح «عمورية» ـ أعظم مدن الروم في آسيا الصغرى ـ هو صرخة امرأة مسلمة اعتدي عليها؟.

ألم يكن من أهم الأسباب الرئيسية التي حركت الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وحركته تجاه «حطين» واسترداد بيت المقدس، هو ما بلغه من اعتداء أمير الكرك أرناط أو «رينو دي شاتيون» الذي يوصف بأنه أشد الأمراء الصليبيين تعصباً وغدراً، على قوافل الحجاج؟!.

ولذلك نعتقد أن الاعتداء على الشيخ العلمي وهو أعزل إلا من كلمة الحق، وبيان معالم الهدى، هو وقود جديد للحركة الجهادية في فلسطين المحتلة، يضمن لها الاستمرار حتى تحقق أهدافها، بإذن الله.

ويبقى الاعتداء في النهاية، اعتداءً حضارياً وثقافياً ومادياً، وشخصياً دنيئاً، يدلل على ما فيه يهود من خسة، وجبن، وحقد وغدر، وهي الأمور التي طبعوا عليها من خلال تاريخهم الطويل في النفاق والمكر والكيد لهذه الأمة منذ الخطوات الأولى للنبوة.

فهل تستطيع الأمة اليوم توظيف هذا الغضب ليبلغ مداه ويحقق هدفه، أم أن عمليات التنفيس والإجهاض وخداع الأمة سوف تعمل على الجانب الآخر لتقضي عليه؟؟!!.

[٢٠ شعبان ١٤٠٨ هـ ـ ٧/٤/١٩٨٨ م]

عشرون عاماً على حريق الأقصى

الكتابة للمناسبات تبقى بطبيعتها أقرب إلى تأدية الواجب منها إلى المعاناة، والهاجس المؤرق، والحس المتنامي، الذي تتطلبه الكتابة عادة. وإن كان هذا لا يصدق ولا ينطبق على نكبة المسلمين بفلسطين لأننا في معاناة دائمة لم تتوقف ولن تتوقف طالما يستمر الظلم والتسلط والغدر والأسر والقمع والقتل من جانب يهود، ويستمر التواطؤ والتآمر والاستسلام والمتاجرة بالقضية والابتزاز باسمها من بعض من يحسبون عليها.

إنها المعاناة المستمرة التي قد تضيق وتكمن وقد تتسع وتتعاظم لكنها لم تتوقف لحظة واحدة، ومنذ أن وطئت أقدام يهود أرض فلسطين والممارسات اليومية تذكي هذه المعاناة والمسجد يمدها بروح منه على الرغم من الحرق والأسر والحصار، ومع الأسف فبدل أن تمثل هذه المواسم والمناسبات تحديات تشحذ الفاعلية وتجدد العزيمة وتبصر بالعدو وتقضي على العناصر الشائخة والفلسفات الانهزامية وتلفظ الحلول الاستسلامية كلها التي لم تزد القضية تاريخياً إلا خبالاً والمأساة إلا تكرساً وإزماناً انقلبت إلى فرص ومواسم للابتزاز وحديث للمنتديات ومادة للكتابات نحتفل فيها بذهنيات باردة بعيدة عن أي استشعار للتحدي أو أي استفزاز للأمة. لقد انقلبت هذه المناسبات عند كثير منا إلى جثث محنطة أضرحة يتكسب بها ويعيش على مواردها وصدقاتها. وهذه الصورة المرضية التي انتهى إليها العالم الإسلامي بحسب المخططات المرسومة له على يد بعض أبنائه وكل أعدائه مغايرة تماماً لواقع الحال في الأرض المحتلة

على الرغم من التهميش الذي يرسم للانتفاضة، والتضليل الإعلامي لمنطلقاتها وأهدافها والتعتيم الكامل على بطولاتها الحقيقية والمحاولات الدائبة للانتقال بالاهتمام العالمي والإعلامي إلى مواقع أخرى وجعلها أكثر سخونة وإثارة.

عشرون عاماً على حريق الأقصى تعني فيما تعني نشوء جيل كامل في مناخ الحرق والأسر للمسجد. هذا الجيل يمارس عليه في المدرسة والشارع ووسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة مناخ التهويد وطمس الهوية وقطع الجذور، والترغيب والإغراء بالجنس والمال والترهيب بالسجون والمعتقلات والعذابات المتعددة، إلى جانب الإحباطات الكثيرة التي يعيش مشاهدها ويسمع أخبارها في الدول العربية التي كانت في يوم من الأيام أمله في الإنقاذ وملاذه في الشدة ومع ذلك وعلى الرغم من كل الظروف السيئة والإحباطات المستمرة ومناخات التهويد استطاع المسجد ـ وكان هذا دائماً هو دوره التاريخي ـ أن يبقي على خميرة التحرير وينشر ثقافة التحرير ويغرس روح المقاومة المستمرة، ومهما يحاول أعداء الإسلام طمس دور المسجد وعزله عن حياة المسلمين فإن ذلك لم يغير من الواقع شيئاً.

لقد بدأت الانتفاضة في المسجد وخرجت من المسجد إلى درجة جعلت المراسلين ووكالات الأنباء يطلقون عليها «ثورة المساجد» ولا يزال المسجد والمسجد الأقصى بالذات هو محور الصراع ومؤجج الانتفاضة. ولا تزال رائحة الدماء الذكية التي أريقت في سبيل الدفاع عنه في حقبة الحروب الصليبية شاهد إدانة للعدوان وشاهد حق في التصميم على التحرير. إن تغييب دور المسجد وتهميش رسالته يعني القضاء على المعنى الكبير الذي من أجله جاءت الانتفاضة، فإذا تخلى الإخوة في الأرض المحتلة عن مبادئهم وهويتهم وثقافتهم ومسجدهم فسوف يصبح جهادهم بلا معنى وسوف تخبو مقاومتهم. بل قد تنشأ عندهم فلسفة التعاون والتعامل والتعاهد مع يهود شأنهم في ذلك شأن كثير ممن غادروا عقيدتهم وثقافتهم الأصيلة وأصبحوا جنوداً في جيش العدو سواء عن قصد منهم أو عن غير قصد.

والحقيقة التي لا بد من إبرازها أن جرأة يهود على حرق الأقصى

ومحاولات هدمه والعدوان عليه لإقامة الهيكل واستبدال حضارة بأخرى إنما جاء ثمرة طبيعية لحالة الضياع والذهول والتخبط التي يعيشها العالم الإسلامي ونتيجة لتهميش دور المسجد في بلاد المسلمين ومحاولات إلغاء رسالته أو تعطيلها، أو تحنيطها بعد أن استحال إلغاؤها. ولا شك أن تعطيل رسالة المسجد ومحاصرة رواده وشل حركتهم إنما جاءت لمصلحة يهود. لقد همش المسجد وعطل دوره في العالم الإسلامي. فكان ذلك المقدمة التي لا بد منها لحرق الأقصى وانتهاك حرمته، لقد كان حريق الأقصى نوعاً من استطلاع الواقع الإسلامي ومدى قبوله للتحدي فجاءت النتائج مغرية ليهود باستمرار الاحتلال والتهويد والطمس حتى كانت الانتفاضة.

ولولا انتهاك حرمة المسجد والاجتراء عليه في بعض بلاد المسلمين لما تجرأ اليهود على فعلتهم ولكان جيل المسجد بالمرصاد للمواجهة والجهاد لكن الحال البئيس الذي صار إليه المسجد في العالم الإسلامي هو السبب وراء تلك المآسي كلها.

لقد وصل الأمر ببعض أبناء المسلمين إلى اعتبار المسجد المعطل عن أداء دوره والذي يرونه اليوم عبئاً لا بد من طرح مدى جدواه إذا قيس ذلك بمقدار ما ينفق عليه. وليست العبرة بكثرة المساجد ولا بناء المساجد وتزيينها فالأرض كلها بالنسبة للمسلم مسجد وإنما العبرة بأداء المسجد لدوره وقيامه برسالته في العلم والجهاد والبناء الخلقي للأمة. وأعتقد أن امتهان الأقصى من قبل يهود لا ينتهي ما لم يقم المسجد في كل مكان من العالم الإسلامي بدوره في فك هذا الارتهان، ولعل طلائع الانتفاضة تثير في المسلمين الهمة وتبعث العزيمة وتشكل ناقوس الخطر وبشارة الخير لاسترداد دور المسجد المفقود وبذلك يكون العلم والجهاد والحضارة ونكون خير أمة أخرجت للناس.

فعشرون عاماً لا قيمة لها في حساب الزمن إذا استطاعت الأمة العودة إلى دينها وعقيدتها ومسجدها فلقد كان الليل الصليبي أكثر طولاً لكنه لم يمنع الفجر الإسلامي والفجر قادم بإذن الله.

[٢٣ محرم ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٨/٢٤ م]

قانون تطوير القدس

أصدر الكنيست الإسرائيلي قانوناً جديدا أسماه قانون تطوير القدس ليعطي أعمال التهويد للمدينة المقدسة الصفة الشرعية والصبغة القانونية. والحقيقة أن ممارسات التهويد والحفريات وفتح الأنفاق تحت المسجد الأقصى بحثاً عن الهيكل المزعوم والعبث بالأحياء السكانية الإسلامية والأوقاف الإسلامية. لم يتوقف لحظة واحدة منذ احتلال اليهود عام ١٩٦٧ م وكانت هذه الممارسات تأخذ أشكالاً شتى وتشارك فيها سائر الفئات في المجتمع اليهودي وكانت في كثير من الأحيان أشبه ببالونات لاختبار صمود المقاومة الإسلامية وقدرتها، وتصميمها على الدفاع عن مقدساتها.

ولا شك أن صمود المقاومة الإسلامية العزلاء، كان صموداً مشرفاً وتاريخياً استطاع أن يحفظ للمدينة طابعها الإسلامي وللمسجد طهره واستمرار أداء رسالته في إمداد الانتفاضة بطاقات معنوية جاءت أقوى من سلاح العدو، مدة تزيد على واحد وعشرين عاماً حيث لم يتوقف اليهود عن اعتداءاتهم لحظة واحدة..

واليوم، تأخذ عملية تهويد المدينة وتغيير معالمها الإسلامية شكلاً رسمياً، ذلك أن وسائل محاصرة الانتفاضة والقضاء عليها أصبح هو الهاجس الدائم لإسرائيل خاصة وأن المسجد الأقصى - أبو المساجد جميعاً - والمدينة المقدسة هما المعين الذي لا ينضب في دعم الصمود والحيلولة دون التطبيع والتهويد.

لذلك كان لا بد أن تأخذ عمليات إعادة تشكيل المدينة طابعاً رسمياً أملاً في أن إسكات صوت القدس سوف يكون الحل الأجدى في محاصرة الانتفاضة والقضاء عليها إضافة إلى شحن المشاعر الدينية عند اليهود ومن وراءهم وإعادة تعبئتها ضد المسلمين.

ويأتي هذا القانون في الوقت نفسه الذي تقرر فيه أمريكا نقل سفارتها من تل أبيب إلى القدس معترفة بذلك رسمياً، إلى جانب اعترافها الفعلي: إن القدس عاصمة إسرائيل وبذلك تبارك الاحتلال والعدوان والاغتصاب الذي لم يكن في يوم من الأيام بعيداً عنها.. وتقوم قيامة بعض العرب وإعلامهم ولا تقعد، ويجهدون أنفسهم ليكتشفوا أو ليكشفوا سراً خفياً ويقعوا على دليل جديد أن أمريكا منحازة إلى إسرائيل وينصح الكثير منهم أمريكا أن لا تغامر بمصالحها في المنطقة، وكأن أمريكا لا تعرف مصالحها وتجهلها وتنتظر من يذكرها بها، ولا تعرف أن معظم عرب الهزيمة مدينون بوجودهم لدعمها ومساندتها وأن مهاجمتها لا تخرج عن كونها مسرحية متفقاً عليها للاستهلاك الداخلي، وأن سرعة بعض العرب في القبول بإسرائيل اليوم تفوق سرعة أمريكا نفسها.

وحسبنا أن نعلم أن ما كان يعتبر خيانة للأمة والقضية بالأمس أصبح القبول به اليوم أمراً طبيعياً.. والذي يراقب تطور الأحداث في المنطقة لا يعوزه البصر وإن عازته البصيرة لرؤية العد التنازلي على مختلف الأصعدة.

إن ارتباط أمريكا بإسرائيل والتحالف معها وإقامتها في قلب العالم الإسلامي للقضاء على أي أمل في النهوض وامتصاص كل إمكانية للحركة بات أمراً لا يقبل النقاش وله مبرراته الدينية والسياسية والاقتصادية.. ولا نرى أنفسنا بحاجة للتذكير بمواقف الكثير من الزعماء والقادة في أمريكا الذين يؤمنون بالعهد القديم (التوراة) وينطلقون في تأييدهم لإسرائيل من رؤية دينية لكن الذكرى تنفع المؤمنين على كل حال.

يقول ريجان: «إن الكتاب المقدس يضم كل الإجابات عن قضايا العصر وعلى كل الأسئلة الحائرة إذا ما قرأنا وآمنا: إن الأموال التي ننفقها في

محاربة المخدرات والمسكرات والأمراض الاجتماعية يمكن توفيرها لو حاولنا جميعنا أن نعيش وفق الوصايا العشر»، وما قاله لأحد أعضاء اللوبي اليهودي: «إنني أعود إلى نبوءاتكم القديمة في التوراة حيث تخبرني الإشارات بأن المعركة الفاصلة بين الخير والشر مقبلة وأجد نفسي أتساءل: إذا ما كنا نحن الجيل الذي سيشهد وقوع ذلك.. إنني لا أعرف إذا ما كنت أنت قد لاحظت هذه النبوءات مؤخراً، ولكن صدقني أنها تصف الأوقات التي نجتازها الآن».

والشيء المؤلم حقاً، أن القضية الفلسطينية في عالمنا لا تزال تهمش.. لقد انتزعت من محيطها الإسلامي لتطرح على المستوى القومي العربي وعلى الرغم من أن المستوى القومي لم يستطع أن يقدم لها شيئاً يذكر مع ذلك تنزع اليوم من محيطها العربي أيضاً لتصبح قضية الفلسطينيين بل لتصبح قضية جهة من الفلسطينيين ومع تسليمنا بأن تنظيم العمل للقضية الفلسطينية وتوحيد قيادته أمر ضروري، ولا بد منه وأن أهل القضية أحرص عليها إلا أننا نعتقد أن القضية أكبر من أن يتصرف بها نظام أو منظمة أو جيل يعطي نفسه حق التصرف بها أو الوصاية عليها وإنما هي ملك للأمة بعقيدتها وحضارتها وتاريخها الطويل، ولا يمتلك المسلم إزاء ذلك اختياراً.. إنها بالنسبة له دين وعقيدة ووجود فالأمم أقوى من الحكومات والعقائد أبقى من السياسات..

وسوف يأتي الجيل القادر على التحرير حيث لا يمكن هزيمة التاريخ وإن أمكن هزيمة الواقع وما الانتفاضة التي تعم الأرض المحتلة اليوم إلا مبشرات على انبثاق الجيل القادم إلى ساحة التحرير، طال الزمن أو قصر.

[٢١ ذو الحجة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٨/٤ م]

المسجد في مواجهة التهويد

عملية تهويد الجيل العربي المسلم، وتغيير معالم المؤسسات الإسلامية المقدسة، وتغيير المسميات وإعادة التشكيل الاجتماعي والتركيب السكاني، في محاولة لطمس شخصية أصحاب الأرض المحتلة. وتحويل ولائهم، وتغيير انتمائهم، تسير بخطوات حثيثة، وعلى أكثر من مستوى.

والناظر في الواقع العربي الإسلامي بعد هذه الحال التي انتهى إليها يصعب عليه أن يقبل أو يصدق أي جدية في مواجهة القضية والإعداد لها، بل على العكس من ذلك، فالواقع يدل، وكأنما نعد ونحضر لتصفيتها شيئاً فشيئاً، وتحضر الجماهير المسلمة لابتلاع الطعم على مراحل، واللغز الذي لا يزال محيراً على مستوى العالم العربي، وإن لم يكن كذلك على مستوى العالم أن تطرح اليهودية وتقبل ويحضر للتفاوض معها كعقيدة معتدية مغتصبة محتلة، ويرفض ويحارب الإسلام، ويتهم شبابه بالتطرف والتعصب وهو في موقع الدفاع، وقد يكون في ذلك مندوحة لغير العرب والمسلمين، أما أن تنتقل العدوى للمسلمين ويوظف بعض الكتاب من الداخل الإسلامي - باسم الإسلام - والترويج لها وتضليل الجماهير المسلمة عن رؤية المسار، فهذا هو الأمر العجيب.. ويغيب عن كثير منا أن المعاقل الحقيقية التي احتفظت بالقضية حية في نفوس المسلمين، واختصت بحماية الجيل في الأرض المحتلة وفي غيرها من الذوبان هي المساجد وروادها وفي مقدمتها المسجد الأقصى..

إن المواجهات الحقيقية كانت ولا تزال مع المسجد، ذلك أن المقاومة

الحقيقية إنما تربى في المساجد، وتنطلق منها، لذلك كانت المساجد في العالم الإسلامي هي خطوط الدفاع والمواجهة الأولى وكانت على تاريخها الطويل موئلاً للعلم ومعقلاً للجهاد ومورداً للثورات ضد المحتل والمستعمر، وإن أي إذلال للمساجد، أو محاولة لإلغاء رسالتها أو طمس لدورها، أو مطاردة لروادها كان دائماً مؤشراً واضحاً على الخيانة والتبعية الفكرية عبر التاريخ، والذين يمارسون ذلك هم رصيد العدو المتقدم في العالم الإسلامي، علموا ذلك أم جهلوا.. والخطير في الأمر اليوم هو محاولة القضاء على المسجد وإجهاض دوره وتهديمه من الداخل، فالذين يحاربون المسجد، ويعطلون رسالته، ويحنطون دوره ليصبح مبنى بلا معنى لا يمكن أن يدافعوا عن المسجد الأقصى، والذين يزعجهم الآذان ويحاولون إسكات صوت المؤذن لأنهم يرون في ذلك إقلاق راحتهم، وتعطيل نومهم لا يمكن أن يكونوا محلاً للدفاع عن الأقصى والذين يهدمون معاني الجهاد في الأمة لا يمكن أن تصدق دعواهم بالعمل على تحرير المسجد الأقصى، والذين يدعون إلى إقليمية وعصبية طائفية يستبدلونها بالإسلام لا يطمأن إلى صدقهم وحسن نواياهم لأنهم جنود في جيش العدو، ولا يمكن أن يكونوا رجال التحرير، والذين يدعون إلى رفع سلاح الإسلام من المعركة، ويخدعون بطروحات العلمانية على حساب الإسلام ليسوا مؤهلين لقيادة الأمة، والذين يطاردون المصلحين، ويحاصرون العقيدة الإسلامية ويحولون دون عملية البلاغ المبين لا يمكن أن يقبلوا حماة للأوطان..

إن مواجهة يهود قد لا تتحقق في هذا الجيل لسبب أو لآخر، فلا أقل من أن نكون أمناء على القضية عندما نورثها إلى الجيل القادم، فلا نورثهم فلسفة الهزيمة ومسوغات الواقع، وصورة البطولات التي تصنع من فراغ، ولا نربي فيهم حواس الذل والهوان والتضليل الثقافي.. ولا بأس أن يتم التحرير في جيل قادم أو في أجيال قادمة تستشعر التحدي، وتصدق المواجهة..

وقد تكون المشكلة اليوم: تطبيع الهزيمة في نفوس الأبناء والأحفاد، والاستكبار وعدم الاعتراف بها وإعداد العدة الصحيحة لها ومحاربة الانتماء للإسلام، وعدم تحدد الولاء بشكل حاسم..

[١ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ - ١٠/١١/١٩٨٨ م]

العدوان على المسجد

لسنا بحاجة إلى التأكيد على أن المسجد كان دائماً هو الحصن الذي يلجأ إليه المسلمون في أوقات الشدائد، والرباط الذي ينطلق منه قادة الفتح وكتائب التحرير وجيوش الجهاد، والجامعة التي تنبثق منها أنوار الهداية والعلم . .

وهو مركز الثقافة الجماهيرية التي حفظت وحدة المسلمين الثقافية واللغوية، ورعى إخوتهم في الدين، واحتفظ بشرعية واقعية لوحدتهم السياسية، وضمن الاستمرار والتواصل لميراثهم الثقافي.

ولذلك كان طبيعياً أن يكون بناء المسجد من الركائز الأساسية في بناء أول دولة في الإسلام، في المدينة المنورة بعد الهجرة، حيث كان بناء المسجد في مقدمة المؤسسات الاجتماعية والعلمية والدستورية والقضائية التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولم يكن مستغرباً أن يستهدف المسجد ورسالته تاريخياً من أعداء الإسلام كلهم، من مشركين وكفار ومنافقين . . ولم يكن مستغرباً أيضاً أن تدور أعنف معارك الاستعمار والاستيطان حول المسجد. ويكفي هنا أن نذكر بأن أشد المعارك الصليبية وأكثر ضحاياها، دارت في رحاب الأقصى، حيث تذكر بعض الروايات أن الصليبيين قتلوا من المسلمين هناك سبعين ألفاً حتى وصلت أنهار الدماء إلى ركاب الخيول.

١٧٤٧/٨

ولنا أن نتصور هذا الرقم من خلال طبيعة الأسلحة وفاعليتها في ذلك الوقت، لذلك فليس مستغرباً أن تتركز عداوة يهود على المسجد الأقصى وأن يكون الاعتداء عليه بمختلف الوسائل والأشكال من: هدم، وحرق، وتدنيس لحرمته، واعتداء على شيوخه ومصليه، وحفريات تحاصره من كل جانب، فإلغاؤه هو في الحقيقة إلغاء لحضارة وتاريخ أمة..

والمؤسف أن الذراع اليهودية لا تطول الأقصى فقط في هذه السنوات العجاف، وإنما يتجاوز تأثيرها ليصيب كل المساجد في العالم الإسلامي بقدر ما من المحاصرة والعداوة والتعطيل لرسالة المسجد، حتى يمكن القول: إن إصابة المسجد ومحاصرته وتعطيل رسالته وعدم الإفادة منه بالشكل المطلوب، كان هو المقدمة لعربدة اليهود وعدوانهم على المسجد الأقصى.

وكثيرون اليوم في عالمنا العربي، يحاولون تزييف الحقيقة، ويمارسون التضليل الثقافي. فعلى الرغم من الرؤية الدينية التي تنطلق منها إسرائيل، والواقع الذي يؤكد ذلك، فهم يجهدون أنفسهم للتفريق بين إسرائيل والصهيونية كفكرة استعمارية وبين الرؤية الدينية اليهودية التوراتية، وذلك لتمويت روح الجهاد الإسلامي، وعدم استشعار التحدي وحصول المواجهة المؤثرة.

ولعل محاولة تفسير الانتفاضة التي تعم الأرض المحتلة اليوم، والتضحيات الكبيرة التي تقدمها، بكل التفسيرات عدا التفسير الإسلامي، هو الوجه الآخر للحقيقة نفسها: التفريق بين الصهيونية واليهودية. وذلك على الرغم من أن الانتفاضة تنطلق من المسجد وتتزود منه، وتحتمي به، وأن خطب الجمعة أسبوعياً هي التي تشحذ الهمم، وتحمي الشخصية المسلمة في فلسطين من الذوبان، وتضمن لها الاستمرار.

ومن أعجب ما قرأت في مفكرة بعض كتابنا «النجوم» نصحه لأمريكا عندما زارها، وألقى بعض المحاضرات في جامعاتها، أن تقنع إسرائيل بعدم التعصب وإبراز الرؤية الدينية، لأن ذلك سوف يستفز المسلمين، ويبعث فيهم روح الجهاد والمواجهة على حد تعبيره وبذلك يستحيل السلام في الشرق الأوسط.

هكذا يمارس من نطلق عليهم اسم: المفكر والكاتب الكبير، تمويت روح الجهاد الإسلامية التي كانت الوسيلة التاريخية للتحرير، واسترداد الأرض، والعرض، وطرد الغاصب المحتل.. إنه يخاف على يهود المستعمرين من عودة روح التعصب إلى المسلمين المستعمرين!! ولو كلف نفسه شيئاً من البحث لعلم أن الجهاد الإسلامي إنما شرع لمحاربة التعصب والاستعمار والعدوان.

لقد اعتدت إسرائيل على المسجد الأقصى بالحرق في مثل هذه الأيام من عام ١٩٦٩ م، ولا يزال عدوانها مستمراً بمختلف الأشكال.. وسوف لا تكون المواجهة الحقيقية إلا بإطلاق رسالة المسجد، واستعادة دوره في حياة المسلمين.. ويبقى العدوان على المسجد ورسالته مؤشراً كافياً للعداوات التاريخية ضد الإسلام والمسلمين، مهما ادعى المعتدون عليه الوطنية، والصمود، والتحرير.

[١٣ محرم ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/٨/٢٥ م]

انتفاضة المساجد
مرة ثانية

المهزومون نفسياً وحضارياً هم الذين يقولون أن الانتفاضة التي تشهدها الأراضي المحتلة حالياً ، لن تحرر فلسطين ، وأن جيل المسجد لن يصمد طويلاً أمام أدوات القهر الإسرائيلية فهم في الحقيقة لم يحسنوا قراءة الأحداث ومجريات الأمور.

صحيح أن الدبابة أقوى من الحجر. . والطائرة أكثر فعالية من الحصباء. . والقنابل الفسفورية والعنقودية أمضى من قنابل «المولوتوف».

لكن ألا يكفي جيل ثورة المساجد الذي نشأ في ظل الاحتلال بثقافته وإعلامه ومدارسه ومناهجه وعايش كثيراً من صور الاستخذاء العربي، أنه استطاع أن يحتفظ بالقضية ويحافظ عليها ويواصل المواجهة حتى يأتي جيل التحرير المنشود وأبطال النصر الموعود؟ . . ألا يكفيه أنه استطاع بالحجارة أن يسقط صور التزييف والتطبيع والتهويد الثقافي؟ ويلغي التوجه إلى الحلول الاستسلامية.

لقد أثبت جيل ثورة المساجد أنه الأقوى من كل الصور المزيفة. . وأنه الأقدر على استلهام مخزونه التاريخي ورصيده الإيماني. . وما كان له ذلك لولا حرصه على الارتباط بالمسجد وأخذ المدد منه. . فالتظاهرات الغاضبة تنطلق الآن من الأقصى الذي أصبح يشكل محور الارتكاز الحقيقي للانتفاضة

ويمدها كل يوم جمعة بالمعاني الكثيرة التي تبعث على الصمود وتستشعر التحدي وتقتضي التضحية.

إن انتفاضة الأراضي المحتلة وإن كانت تثير الإعجاب، إلا أن اعتبارها من الأمور المستغربة، فيه كثير من التقليل من حقيقتها وأبعادها.. فما يحدث الآن ليس مستغرباً عن أمتنا التي لا يجوز أصلاً أن ينظر إليها من خلال فترة زمنية معينة، أو من خلال حاكم أو زعيم أو موقف أو معاهدة. وإنما لا بد من استحضار البعد التاريخي الذي يضيء مجرى حركة الأمة العام.. فالحروب الصليبية مثلاً دامت حوالي قرنين من الزمان (١٠٩٠ - ١٢٨٧م) ومع ذلك فإن الذين كتب لهم شرف تحرير بيت المقدس وما حوله، كانوا من الأجيال التي نشأت في ظل الاحتلال، وظن الصليبيون أنهم روضوها وطبعوها كما يشاؤون.. وما يحدث الآن في الأراضي المحتلة ليس بعيداً جداً عما كان يحدث في الفترة التي سبقت معركة حطين إنها تصحيح للمفاهيم وعودة إلى استلهام روح المسجد واستئناف رسالته من جديد وإسقاط لكل الوسائل غير المجدية التي أفرزتها فلسفة الهزائم وإسقاط لكل الشعارات البديلة عن الإسلام والزعامات البديلة التي رفعتها لتكون هدفاً للتحرير فكانت اغتيالاً لروح الأمة وتمويتاً لمقاومتها.

[١١ شوال ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٥/٢٦م]

العقيدة والمواجهة

الانتفاضة الشعبية التي تشهدها الأراضي الفلسطينية المحتلة، تحمل في طياتها كثيراً من المعاني العميقة والمكاسب الكبيرة التي يصعب طمسها، أو تجاوزها، أو تشويهها.. فهي إلى جانب كونها تجدد ذاكرة الأمة تجاه عدوها، وتنبه الجيل الحاضر والقادم إلى حقيقة العدوان، وترسم له طريق التحرير والنصر، وتعلن سقوط الحلول الاستسلامية، والمخططات العدوانية للتطبيع والتهويد، وتحفظ له ذاتيته وهويته من أن تنالها محاولات التذويب، إلى جانب ذلك كله، فإن انتفاضة الأراضي المحتلة تؤكد أمراً أساسياً لا مجال لإنكاره أو إهماله، وهو أن العقيدة الإسلامية كانت وستبقى، هي المحرك والدافع والوسيلة الفاعلة للصمود والنهوض والمقاومة.

وهذا المعنى الذي إن غاب عن بعضنا، فهو لا يغيب لحظة عن العدو ومخططاته في المواجهة، كما أنه يفسر لنا العنف والقسوة التي واجهت بها قوات الاحتلال ثورة المساجد، وثورة طلاب الجامعة الإسلامية، ومحاصرتها للمساجد أيام الجمع وإطلاق النار على المصلين واعتقال العلماء والخطباء وإبعادهم عن أهلهم وأراضيهم..

إن لون الثورة في الأراضي المحتلة وانتماءاتها وشعاراتها يؤكد أن النصر على يهود سوف لا يأتي من خارج التاريخ كما توهم بعضهم وإنما سيأتي متسقاً مع حركة الأمة التاريخية ومتوازياً مع شخصيتها الحضارية لذلك كان لا بد

من استرداد التحصن بالعقيدة المقاتلة واستشعار التحدي الحضاري بأبعاده الدينية والقومية والثقافية جميعها.

ولعل من الأمور الهامة التي لا بد من الإشارة إليها في هذا الإطار، هي أن سلطات الاحتلال الصهيوني قد تستطيع أن تحاصر وأن تتغلب على هذه الثورة وذلك بالنظر إلى ما تمتلك من قوة عسكرية، ومناخ دولي منحاز، وتواطؤ عالمي ملموس، إلا أن ذلك لا يعني انتصاراً، كما لا يعني انتهاء المواجهة والمقاومة والمجاهدة فليس صحيحاً أن الإحباط والهزيمة يولد مزيداً من الإحباط وإنما الأمر المؤكد أن الهزيمة هي الوسيلة التي تضغط دائماً على ضمير الأمة حتى تستعيد قوتها وتتجه للثورة والتغيير وصناعة الانتصار.

ومن المعاني الهامة أيضاً، أن الحجارة الصماء التي لم تكن تعني شيئاً أصبحت الآن في أيدي أبناء الأراضي المحتلة من أخطر وأبرز وسائل المواجهة وأدوات التحرير. بالإمكان القول: إن هذه الحجارة ليست موجهة فقط إلى المحتلين ولكنها موجهة أيضاً إلى الضمير العربي المسلم لتعيد إليه يقظته من بعد ما أصابه في فترات الضعف والهوان والانكسار والهزيمة والسقوط في الحلول الاستسلامية، كما أنها ضرورة بين الحين والآخر لحفظ صورة العدوان والتحدي في نفوس الجيل الجديد الأمر الذي لا بد منه لتواصل الجهاد وإبقاء القضية حية في واقع الناس.

إن بروز الاتجاه الإسلامي الذي يقود ويجدد الثورة في الأراضي المحتلة حالياً، صار كما تقول صحيفة القبس الكويتية بعددها رقم ٥٥٩٦ نقلاً عن بعض وكالات الأنباء «سلاحاً موجهاً ضد سلطات الاحتلال، وما من فلسطيني واحد إلا ويؤيد هذا التوجه الديني الجهادي».. ونضيف إنه ما من مسلم واحد يلتزم بإسلامه إلا ويجد نفسه مدعواً للقيام بما افترضه الله عليه من الجهاد بالمال والنفس ودعم الثورة في الأراضي المحتلة، فذلك هو سبيل التحرير والنصر الوحيد.. فهل نعمل على استكمال شروط النصر حتى نكون مؤهلين لنصر الله، ونستفيد من درس التاريخ؟ ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (الحج: ٤٠).

[٤ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧/١٢/٢٤ م]

الانتفاضة.. والقراءة المخطئة

في الوقت الذي يسقط فيه الأطفال والصبية والنساء والشيوخ والشباب صرعى رصاص الغدر الصهيوني، يروون بدمائهم الزكية أرض النبوات والرسالات، يفاجأ المرء بمحاولات كثيرة تسعى لقراءة الانتفاضة الفلسطينية في الأراضي المحتلة، بأبجدية مخطئة، وتفسيرها تفسيراً سطحياً بعيداً عن العمق التاريخي والحضاري والثقافي لهذه الأمة الذي تتحرك في إطاره الجماهير المسلمة، ولا تلقي بالاً للسبب الحقيقي الذي حال دون الذوبان في مناخ التهويد الثقافي الذي ظن كثيرون أن أطفال الحجارة قد تأقلموا معه أو انتهوا إليه.. إنه التحدي العقائدي.. الذي ولدت المشكلة في إطاره..

ولا نحسب أن من يقرأ الانتفاضة على أنها ثورة لمواجهة الظلم، يجانبه الصواب في كثير من جوانب قراءته.. بل هو مخطىء في نظرته التي اعتمدها ابتداء، وعاجز عن التفسير الحقيقي لمنحى الأحداث انتهاءاً.. ذلك أن القدر من الحرية الذي قد تتمتع به جماهير الانتفاضة ربما لا يتمتع بمثله كثير من الجماهير المسلمة في معظم البلاد الإسلامية.

كما لا نحسب أن من يقرأ الانتفاضة على أنها ثورة لتحرير الأرض المغتصبة، موفق كل التوفيق في قراءته.. فالقضية ليست قضية أرض.. ولكنها قضية عقيدة بالدرجة الأولى تعيش على هذه الأرض، وتتخذها وطناً منذ مئات السنين.. وأن تكون قضية عقيدة، فهذا لا يعني إسقاطاً لصورة الأرض والوطن، فالعقيدة ـ أية عقيدة لا بد لها من أرض تقوم عليها..

والصراع العقائدي هو في نهاية المطاف، تطهير للأرض، وصون للعرض، وحفظ للأمة والإنسان، وتحقيق لحريته.

وهذه القراءة المخطئة هي التي تحمل الكثيرين اليوم على محاولات توظيف الانتفاضة لبعض المكاسب وصنع الأمجاد الشخصية أو الحزبية أو الفكرية التي كانت سبباً في استمرار الهزيمة، كما تحمل بعضهم الآخر على الادعاء بأنهم هم وراءها.. هذا في الوقت الذي تدل فيه المؤشرات كلها على أن المسجد، بعمقه التاريخي والثقافي والحضاري والجهادي، وقف ويقف وراء هذه الانتفاضة المباركة التي تشكل في حقيقتها، حلقة من حلقات الصراع حول الأقصى الذي بدأه الصليبيون ومن ثم المستعمرون ويتابعه اليوم يهود بدعم الصليبيين، بل قد يعتبر الصليبيون اليوم أن ما يقوم به يهود يشكل معركة الثأر من المسلمين.

ولا نظن أن ما يعرض عبر شاشات التلفاز يومياً، وما نسمعه عبرها من صيحات تكبر وتهلل الله، وما تتناقله وكالات الأنباء والصحف والمجلات العربية والأجنبية، ترك استزادة لمستزيد لتشويه صورة الانتفاضة وحركة جماهيرها.. فالدعوات والطروحات كلها التي تسود أجزاء كبيرة من العالم العربي، وواقع تطبيقها، أعجز من أن يحرك ولو فئة قليلة من الجماهير المسلمة.. ونخشى أن يوكل الأمر مستقبلاً لمثل هذه الطروحات والدعوات، وفي هذه الحال قد ترى جماهير الأرض المحتلة أن مصلحتها القريبة تقتضي القبول بالحكم الإسرائيلي والتعايش معه.. ولكنها حركة الإيمان، وحركة العقيدة التي لا تترك خياراً للمسلم أمام أعداء العقيدة والوطن والتاريخ إلا خيار المجاهدة والمقاومة.

ويكفي الانتفاضة أنها استطاعت أن تجدد صورة التاريخ وصور البطولات الإسلامية. لقد جددت وجه عمر الفاروق رضي الله عنه.. وخالد بن الوليد.. وصلاح الدين الأيوبي.. وعز الدين القسام.. وأمين الحسيني.. وغيرهم.. يرحمهم الله جميعاً.

ويكفيها أيضاً أنها أعطت الحجر قيمة وبعداً لم يكن يحسب له حساباً، وأسقطت عقدة الخوف التي صنعها فلاسفة الهزيمة في عالمنا.. فالحجارة التي

قذف بها الأطفال على الأعداء، لا تقتصر إصابتها على الجندي الإسرائيلي، والسيارة الإسرائيلية، والمبنى الإسرائيلي، وغير ذلك ولكنها تصيب بالدرجة الأولى صور التخاذل والاستسلام، ودعوات التطبيع التي يحميها الاستبداد السياسي الذي يسود كثيراً من بقاع العالم الإسلامي ويحاول تزييف الصورة وإبعاد الأمة عن أهدافها.

إن ما نراه ونرقبه الآن من تحركات غربية أو شرقية، وطروحات لحل القضية، لا تخرج عن كونها محاولات لمحاصرة الانتفاضة وإجهاضها والحيلولة دون بلوغها مداها الحقيقي.. ولكننا نعتقد ـ رغم كل هذه التحركات والمحاولات وصور التخاذل والاستسلام العربي حيناً ـ أن الانتفاضة بلغت مداها، بل ستبلغ مستقبلاً ـ بإذن الله ـ مدى وأبعاداً أخرى.. فالصراع العقائدي والحضاري لا يقاس بجيل معين أو زمن محدد، ولكنه قد يمتد لأجيال وأجيال، حتى يكون التحرير.

ومرة أخرى نقول: إن الانتفاضة قد جددت شباب وذاكرة هذه الأمة، وفضحت كثيراً من صور التخاذل والعمالة الحضارية في هذه المنطقة، وقلبت المعادلات، وغيرت الحسابات التي أريد بها وظن معها أن شوكة الأمة قد كسرت.. وذلك حسبها..

[٢٢ رجب ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨/٣/١٠ م]

حجر الحق وقمر الباطل

بعد أن أطلقت إسرائيل قمر التجسس في سماء العالم العربي والإسلامي انتعشت فلسفة الهزيمة من جديد، وكثر المساهمون بالترويج للسقوط والانكسار والإحباط.. فإسرائيل أسطورة في القوة والتقدم العلمي والتقني إلى درجة يجب أن تسقط معها كل الخيارات المطروحة إلا القبول بها والتعامل معها بعد استحالة الانتصار عليها واسترداد الأرض وحماية العرض.. وفي الحقيقية أن هذا الطرح الذي يستدعي بالضرورة سلسلة من التنازلات لا يختلف كثيراً عن فلسفة المزايدات السياسية، التي نشأت في الفراغ وعلى صفحات الجرائد والمجلات وكانت كل مهمتها تضليل الجماهير العربية المسلمة وصرفها عن التفكير المجدي في قضاياها، تلك المزايدات التي صورت إسرائيل على أنها كيان هزيل مصطنع لا يقتضي كثيراً من الإعداد والاستعداد ويمكن الإلقاء بها في البحر في أي وقت.. حتى كانت حرب ١٩٦٧ م التي جعلت من إسرائيل أسطورة في القوة وجعلت الجندي الإسرائيلي إنساناً خارقاً للعادة وأنه فعلاً الفرد المختار.. ومنذ ذلك الوقت والحرب النفسية لا تتوقف لحظة واحدة وتسريب الكلام عن قوة إسرائيل النووية، وقدرة سلاح الجو الإسرائيلي، وتطويره المستمر والمشاركة اليهودية في التقنية الغربية لا تخلو منها صحيفة عربية أو أجنبية يومياً، يترافق هذا كله مع مزيد من الانتكاس والهزائم والقهر والاضطهاد والإذلال للإنسان العربي المسلم..

وفي اعتقادنا أن جريمة الذين هونوا من أمر إسرائيل وضللوا الجماهير

عن الحقيقة الموضوعية لا تقل عن جريمة الذين يروجون فلسفات الهزائم ويضخمون من قوة إسرائيل، ويطرحون الحلول الاستسلامية إنهما وجهان لجريمة واحدة.

وفي وسط هذا الضلال العقائدي والتضليل السياسي، تغيب مجموعة حقائق لا بد من التذكير بها لتبقى ماثلة للجماهير المسلمة والأجيال القادمة وتشكل في الوقت نفسه محاور الارتكاز النفسي للأمة في هذه المرحلة من الإحباط والانكسار الحضاري..

إن إسرائيل وإن تفوقت في المجال التكنولوجي لأسباب معروفة ليس أقلها محاصرة الإنسان العربي المسلم ومصادرة حريته وإنسانيته والحيلولة بينه وبين كل إبداع أو إنتاج بضروب من الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي والحرمان الثقافي، فإن التفوق الاستراتيجي، وهو الأهم ما يزال ملكاً للمسلمين.. ومعادلة القوى لا يكفي فيها التقدم التكنولوجي بعيداً عن الواقع الاستراتيجي.. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن التفوق السكاني الذي يتمتع به العرب والمسلمون لا يجوز أن يسقط من الحساب، خاصة في عصر التكتلات الدولية إضافة إلى ما يتمتع به الإنسان العربي المسلم من عقيدة جهادية متفوقة لا تزال حتى الآن مستبعدة عن ساحة الصراع وما يمتلك العالم الإسلامي من مقومات الصمود والانتصار.

ونعتقد ونحن نعيش هذا الزمن الرديء، والأوضاع المغشوشة، والظروف السياسية والعسكرية المكشوفة، أن قمر التجسس الإسرائيلي سوف لا يضيف جديداً لمعارف العدو عنا.. فأوضاعنا أكثر من معروفة، وإصاباتنا، وهزائمنا المتكررة، دليل ذلك فالأثر سوف يكون نفسياً أكثر منه عملياً فهم أعرف بنا منا..

ومن الأمور التي تدعو للاطمئنان أن المعلومات التي يحصل عليها العدو والحسابات والدراسات التي أجراها ويجريها أعداء الإسلام لم تتحقق نتائجها ولم تكن صادقة، وبقي العالم الإسلامي عصياً عليهم وعلى دراساتهم ومعلوماتهم ذلك أن هذا العالم تاريخياً له مفاجآته التي لا تخضع لحساب الحاسبين.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه ذهب إلى بيت أخته عدواً للإسلام وأهله عاد مسلماً متحدياً الكفر وأهله. وخالد رضي الله عنه الذي كان سبب هزيمة المسلمين في أحد هو الذي كان وراء انتصاراتهم التي شكلت منعطفات تاريخية وإن الكثير من الأوضاع التي رتبت في العالم الإسلامي وظن لها الاستمرار تغيرت رأساً على عقب، وما الانتفاضة الفلسطينية اليوم إلا دليل فشل حسابات اليهود الطويلة في التهويد والتطبيع، والانتصار دائماً ليس بالتقدم التكنولوجي فقط، فهزيمة أمريكا في فيتنام، وروسيا في أفغانستان شاهد ذلك.

وفي تاريخنا القديم والحديث عبر ودروس فما دخلنا معركة وكنا فيها أكثر عدداً وعدة.. ومع ذلك انتصرنا بالحق.. ولا نعني بذلك عدم الإعداد والاستعداد ولكن نعني عدم الانكسار والسقوط في فلسفات الهزائم التي يروج لها.

ولعل الحجر الفلسطيني اليوم الذي ترمي به الأيدي المتوضئة من المساجد يفعل فعله أكثر مما فعلت الجيوش النظامية بأسلحتها ولسوف يبقى حجر الحق أقوى من قمر الباطل.

[٢٥ صفر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/١٠/٦ م]

فتوى دينية توراتية
لتكريس الاحتلال

جاء في خبر نشرته جريدة هتسوفيه مع جرائد إسرائيلية أخرى: إن مجلس الحاخامات الأعلى، صادق على صيغة القرار، الذي قدمه الحاخامان الأكبران فيما يتعلق بالنضال من أجل «أرض إسرائيل».. الكاملة. يقول القرار: إن المبرر القائل بضرورة الانسحاب من الضفة الغربية للحفاظ على الحياة، ولأن العرب يقتلون اليهود هو المبرر نفسه الذي تبناه بعض الحاخامات عام ١٩٤٨ م لمعارضة قيام دولة إسرائيل لأنهم كانوا يدركون أن قيام دولة إسرائيل رغم أنف العرب، سيؤدي إلى سقوط ضحايا خارج أرض إسرائيل وداخلها.

غير أن الحاخامية العليا ومعها غالبية حاخامات أرض إسرائيل اتخذوا قراراً يقول: «نظراً لأن أوامر التوراة وتعاليمها تنص على احتلال أرض إسرائيل والسكن فيها كما جاء في الفقرة القائلة «والتعاليم تقضي بالمحاربة من أجلها» فإنه لا ينبغي علينا الانسحاب أو التراجع عن هذا الأمر خشية سفك الدماء وبسبب بعض المجرمين العرب، لأن هذا الطريق الذي نخوضه هو طريق التعاليم الإلهية. لقد ضحى اليهود بحياتهم من أجل هذه البلاد منذ عهد يوشع بن نون والحشرتئيم وحتى إقامة المستوطنات خلال العهد الأخير في الشمال والجنوب دون أن يخشوا على حياتهم من القتلة العرب. ومكانة الضفة الغربية الآن هي تماماً كمكانة الجليل خلال حرب ١٩٤٨ م والتبرير الذي

تذرع به بعضهم، لا قيمة له في الوقت الحالي كما لم تكن له قيمة في السابق.

لقد أكد جميع الذين ناقشوا هذه القضيّة تقريباً على عدم صحة تبرير الخشية على حياة الإنسان إذا ما استخدم كذريعة لتسليم قسم من أرض إسرائيل، ونقله من السيطرة الإسرائيلية إلى سيطرة الغرباء وذلك بالتوجيه البسيط الذي وضعناه كأساس لثقافتنا والقائل: إن كل حرب مقدسة ترتبط بالتضحيات لأن الحروب عادة ما تتطلب تضحيات والتوراة أمرتنا أن نحارب حرباً مقدسة وإننا نتوسل إلى الله أن لا تتوصل إسرائيل إلى هذا الوضع، وأن لا يسقط أي إسرائيلي في الحروب كما قال قادة الجيش للنبي موسى: لم يسقط منا شخص.

إن الحاخامية العليا تعرب عن دهشتها البالغة وأسفها الجم لقيام بعض اليهود بطرح هذا التبرير أمام حاكم غير يهودي والقول له إن تعاليمنا الدينية تلزمنا بالاحتفاظ بالضفة الغربية لكن ونظراً لأنكم على استعداد لقتل اليهود إذا لم ينسحبوا منها فإنه يتوجب علينا الانسحاب كي نصون حياة اليهود الذين ترغبون في قتلهم.

والحقيقة هي أن العرب يرغبون أيضاً في قتل يهود القدس وتل أبيب والجليل والخوف على الحياة في الضفة هو نفسه الخوف عليها في هذه الأماكن. إننا نرى الحفاظ على حياة اليهود لا يتطلب منا الانسحاب من الحدود التي نسيطر عليها الآن فحسب بل يلزمنا أيضاً بالتمسك بها بكل قوتنا لأن الأماكن التي يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي الآن هي الضمانة الوحيدة لانخفاض قتل الأنفس اليهودية وانسحابه منها يصعد ويزيد الأخطار التي تتعرض لها هذه الأنفس في المناطق التي ستخليها».

هذه هي الفتوى الحاخامية الأخيرة، وقد لا تحتاج إلى كثير تأمل وتحليل وتعليق، لأن إسرائيل أصلاً قامت على الرؤية الدينية التوراتية التي كانت ولا تزال تحاكم العالم من خلالها، وهي منسجمة مع نفسها ودعوتها وطروحاتها ومسالكها. وهي تشحن بهذه الرؤية أبناءها وتستعديهم ضد العرب سكان

البلاد الأصليين وتصنع لهم إرادة القتال وحب التضحية. ولو علمنا أن العدد الأكبر من الساعات الدراسية في العام الدراسي هو من نصيب التربية التوراتية وأن الطالب لا يمكن أن يحقق النجاح إلا بإتقانها وكذلك الحال بالنسبة لساعات التدريب العسكري، أدركنا أمام أي عدو نحن. لكن الأمر الذي يدعو للتأمل فعلاً هو الواقع العربي والحال التي صار إليها من الضياع، والإحباط والاستسلام والعد التنازلي الذي بدأنا نلحظ آثاره.

إسرائيل تصدر الفتاوى وتشحن أبناءها بالرؤية الدينية العنصرية الاحتلالية، ونحن نفرغ أبناءنا ومواطنينا من معاني العقيدة والجهاد، ويومياً تحمل الصحف والمجلات والإذاعات أخبار مطاردة الأصوليين والمتشددين «!» نحاصرهم ونطاردهم دون أن تكون عندنا القدرة على حسن تعبئتهم بمعاني الجهاد.. والمحصلة النهائية إنهاك الجيل لمصلحة يهود الذين يبذلون جهدهم لإبعاد روح الجهاد عن المعركة.

والعالم يقبل الرؤية الدينية التوراتية العنصرية كعقيدة محتلة مستعمرة، ولا يقبل الإسلام عقيدة إنسانية في مجال الدفاع عن الأرض والعرض. لكن المشكلة ليست في العالم الذي يتحكم فيه يهود، وإنما المشكلة في بعضنا حيث أصيب بعمى الألوان فحال ذلك بينه وبين رؤية الأمور على حقيقتها، فما زال تبادل الأدوار الذي أتقنه يهود، يخدعنا.

لقد بدأت قضية فلسطين إسلامية، ثم أصبحت عربية، ثم انتهت إلى قضية فلسطينية، ويخشى أن تنتهي لتكون قضية سكان الأرض المحتلة أهل الانتفاضة إذا استمر الضياع العربي والتخلي عن الواجب الشرعي والحق التاريخي.

[٣٠ محرم ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٨/٣١ م]

القفز فوق العقيدة
والتاريخ والواقع

الذي يعرف شيئاً عن عقيدة اليهود العنصرية والرؤية الدينية التوراتية التي يدعون فيها أنهم شعب الله المختار والمميز، وأن بقية الشعوب والأمم إنما خلقت من أجلهم، ولخدمتهم، كما خلق الله الحيوانات مسخرة للإنسان، ويقرأ شيئاً من تاريخهم الحافل بالمكر والخداع والكيد، ونقض العهود والمواثيق، وقتل الأنبياء، ويسترجع بعضاً من سيرتهم وعهودهم مع المسلمين على اختلاف فصائلهم وقبائلهم من بني قريظة الذين تواطؤوا مع المشركين، وحزبوا الأحزاب، ونقضوا معاهدتهم مع الرسول ﷺ ووقفوا مع كفار قريش في غزوة الخندق وشهدوا للكفار بأنهم أهدى من محمد ﷺ إلى بني النضير الذين تآمروا على الرسول ﷺ وحاولوا الغدر به في حيهم فأوحى الله إليه بفعلتهم ونجا منهم، إلى بني قينقاع الذين استهانوا بالمسلمين ونزعوا حجاب المرأة المسلمة التي دخلت سوقهم، وهددوا المسلمين بشكل صريح بعد غزوة بدر حيث قالوا: لقد لاقى محمد في بدر قوماً أغماراً «لا علم لهم بفنون القتال» لو نازلنا لأريناه كيف يكون القتال! إلى صناعاتهم للنفاق والباطنية التي كانت ولا تزال تفتك في الصف المسلم على الرغم من كل المعاهدات التي وقعوها مع الرسول ﷺ والمواثيق السلمية التي قطعوها على أنفسهم وكان لهم فيها ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين ذلك أن جميع المحاولات للتفاهم والتسالم والتعاون باءت بالفشل فجاء قوله تعالى: **﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود﴾** (المائدة: ٨٢) وكانت هذه الحقيقة ثمرة لتاريخ طويل من الاختبارات والخيانات، والممارسات..

ولعلنا لا نستغرب بعد هذا أو لعلنا ندرك بعد هذا التاريخ الطويل لماذا كانت قصة بني إسرائيل وتاريخ بني إسرائيل يحتل المساحة التعبيرية القصوى من آيات القرآن الكريم، ويعاد طرح هذا التاريخ بأكثر من أسلوب وأكثر من مناسبة؟.

ولا شك عندنا أن ذلك لا بد أن يتناسب مع الخطر الكبير الذي يشكلونه على الإنسانية التي يحمل المسلمون رسالتها وعلى الدين الجديد وأهله ليأخذ المسلمون حذرهم ولا يغفلون عن أسلحتهم الفكرية، والسياسية والاقتصادية والخلقية لحظة واحدة.. فإذا كانت الغفلة خطيرة بالنسبة للأعداء بشكل عام فكيف تكون بالنسبة لأشد الناس عداوة؟ ولا تنقصنا في ذلك الشواهد والأدلة المعاصرة والمستمرة التي تتكرر كلما غفلنا عن أسلحتنا وخاصة منها سلاح العقيدة، درع الصمود وسلاح المقاومة الذي أدركت إسرائيل حفيدة التاريخ اليهودي خطورته وأهميته فركزت همها على إخراج الأمة منه.

والذي نحب أن نؤكده أن القرآن الكريم هو كتاب الله الخالد المجرد عن الزمان والمكان وأن السيرة والسنة بيان للقرآن ووسيلة معينة على الفهم لآياته وهي خالدة أيضاً بخلود القرآن وأن الكتاب والسنة بذلك ليسا كتابي تاريخ أو قصصاً شعبية يسجلان الأحداث لفترة زمنية معينة يقرأها الناس للتسلية والمتعة ولو كان ذلك كذلك لكان الإسلام عقيدة تخص الماضي فقط وحقبة زمنية تاريخية انقضى أجلها.

وإنما الرؤية القرآنية هي خالدة خلود الزمان وما جاء فيها: عطاء للزمان كله خارج عن نطاق الزمان والمكان الذي نزل فيه القرآن والذي يعتقد غير ذلك فعليه أن يجدد إيمانه.

من هنا نقول: إن الخصائص والصفات والتاريخ الذي عرض له القرآن لبني إسرائيل يحمل صفة الخلود والدوام والاستمرار.

وقد يتأكد هذا عندما نعلم أن القرآن خاطب اليهود في عصر النبوة بجرائم آبائهم وأجدادهم واعتبرهم ثمرة لهذا التاريخ الرهيب، وكأن المكر

والخداع والتآمر جبلة في طبعهم من عهد موسى عليه السلام وإرث يتوارثه الأبناء والأحفاد عن الآباء والأجداد.

وعلى الرغم من أن المسؤولية في الإسلام فردية ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾ إلا أن هذا لم ينطبق على يهود وكأنهم أنموذج خارج عن الإطار البشري لذلك خوطب الأبناء بجرائم الآباء وحملوها ولا بد أن نتمثل هذا التاريخ، ولا بد أن تمتد الرؤية القرآنية وندرك أبعادها حتى نعرف أين نضع قدمنا وكيف نرسم سياساتنا ونقرر مواقفنا.. وبدون ذلك سوف يستمر التردي الذي نعيشه على يد الذين يقفزون من فوق العقيدة والتاريخ والواقع.. ويحسبون أنهم أكثر خبرة من الرسول ﷺ وأصدق دعوة للتسالم من النبوة وأعظم معرفة من التاريخ المختبر الحقيقي للأمم! وأصدق شاهداً من الواقع الدامي! وأدق حساً وتقديراً من الجماهير التي ترفض الاحتلال وتثور في وجهه.

والذي يتابع شيئاً من تاريخ اليهود الحديث ويقابله بشيء من تاريخ العمل للقضية الفلسطينية بقراراتها وسياساتها وفلسفاتها وتطوراتها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه مما كان يعتبر في ظرف من الظروف خيانة عظمى للدين، والوطن، والقوم، يدرك تماماً أننا نحن العرب المسلمين نسقط في هذه الحفر نتيجة لقفزنا من فوق العقيدة والتاريخ والواقع وأننا نعاني من فقدان الذاكرة وفقد الذكاء معاً.

فإذا رجعنا إلى العقيدة والتاريخ نرى الواقع ثمرة لهذا كله ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود..**﴾ فالجرائم والمجازر المستمرة ليست خارجة عن طبيعة يهود وعقيدتهم وفلسفتهم وحزب الليكود وحزب العمل والأحزاب الأخرى المتبادلة للأدوار ليست غير قريظة وبني النضير وبني قينقاع أما المشكلة ففينا نحن.. في الذين لا يشكلون الأبناء والأحفاد الشرعيين لعقيدتهم وتاريخهم وحضارتهم.

وجرائم اليهود اليوم لا تخرج عن جرائمهم في دير ياسين وقبية والتاريخ الأسود كله.. لقد طرح اليهود مشكلة اللاسامية وجعلوا منها قضية عالمية وطاردوا فيها كل خصومهم ووصلت الأمور إلى حد أن هذه التهمة أصبحت

شبحاً مخيفاً يكفي إطلاقه لإسقاط أي شخص مهما كانت منزلته السياسية والاجتماعية.

ثم طرحوا مشكلة الإرهاب واعتبروا أهل الحق الذين يدافعون عن أرضهم وعرضهم ومن يساندهم إرهابيين حتى غيروا عقل العالم بما في ذلك عقل بعض أصحاب الحق أنفسهم فأصبحوا يترامون على أقدام يهود ويلقون بأسلحتهم ويطلبون حسن السلوك من يهود وممن وراءهم فالمعتدي هو المسالم، والحضاري، والمعتدى عليه هو الإرهابي والخطر! وبذلك أسقطوا السلاح الفلسطيني ومن قبل أسقطوا السلاح العربي حتى لا نكون إرهابيين.

وخوفاً من استيقاظ الشعور الإسلامي الجهادي الذي يقتضيه رد الفعل السوي طرحت إسرائيل بشكل مبكر جداً موضوع التطرف والتشدد الذي يشكل المرحلة الجديدة للإرهابيين الفلسطينيين التي لا بد من مواجهتها وكان الإعلام العالمي في خدمة ترويج هذه المصطلحات التي بدأت في إسرائيل وعممت لتشل حركة اليقظة الإسلامية والتخويف من الانتماء الإسلامي في كل أنحاء العالم.. فالمشكلة العالمية اليوم هي التطرف والأصولية والتحذيرات يومية حيث بلغت إسرائيل في ذلك البعد المطلوب وتجاوزت في تأثيرها الحدود الجغرافية لإسرائيل الكبرى.

وليست الانتفاضة في الأرض المحتلة اليوم إلا نوعاً من التطرف والأصولية وقد بدأ يتسرب هذا إلى بعض أجهزة الإعلام العربية ويحتل نصيباً من الخطاب اليومي لبعض المسؤولين العرب والفلسطينيين، وحتى بدأ بعض المسؤولين العرب يخاف على إسرائيل ويخوفها إذا لم تقبل الحلول الاستسلامية المطروحة من موجة الأصولية القادمة وأخشى ما نخشاه أن نحكم على الانتفاضة مستقبلاً بأحكام يهودية بأنها حركة أصولية لا بد من إجهاضها بدل دعمها وأن يعتقد بعضنا أنها تشكل خطراً عليه كخطرها على يهود وتستمر رحلة التضليل والخداع والقفز من فوق العقيدة والتاريخ والواقع ويصدق في سياستنا قول الشاعر: يرضى القتيل وليس يرضى القاتل.. وهمنا اليوم كله: كيف نسترضي القاتل؟.

[٧ و ٨ ذو القعدة ١٤١٠ هـ - ٥/٣١ و ١٩٩٠/٦/١ م]

الهجرات اليهودية لم تتوقف
لكننا أمة لا تعتبر

الاعتبار والملاحظة وقياس الحاضر على الماضي. والإفادة من الماضي والحاضر لصنع المستقبل دليل رشد وعلامة صحة ومعافاة وإمارة نهوض وبناء حضاري، ولقد كان لأمتنا في هذا قصب السبق والقدح المعلى، فبعد أن كنا في الماضي أمة تعتبر من تجارب غيرها وتجاربها أصبحت اليوم عبرة لغيرها. والعاقل من يعتبر بغيره، والأحمق من يكون عبرة لغيره، فلماذا تتسع في حياتنا دوائر الحماقة ونكون عبراً لغيرنا ونغادر بهذه السهولة قيمنا الإسلامية ومواريثنا الثقافية والحضارية التي جاء بها الوحي المعصوم وصدقتها التجربة العملية؟!.

فالعبرة عندنا مصدر من مصادر الدين والتشريع قبل أن تكون وسيلة نهوض وأداة بناء، وليس الاجتهاد الذي هو أحد مصادر التشريع الأربعة الأصلية إلا ثمرة لعبرة أولي الأبصار حتى أن علماء الأصول جميعاً تقريباً اعتمدوا قوله تعالى الذي ختم به قصة يهود بني النضير وما حل بهم: ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ (الحشر: ٢) دليل مشروعية القياس.. ولقد ورد مصطلح العبرة والاعتبار في كثير من آيات القرآن، فجاء الاعتبار ليكون وسيلة من يخشى، ومن كان له قلب، وأولي الأبصار حتى أن الاعتبار لم يقتصر على تجارب الأمة المسلمة الذاتية وإنما امتد وامتد حتى يشمل قصص الأمم السابقة عليها ﴿لقد كان في قصصهم عبرة﴾ (يوسف: ١١١) والأمم اللاحقة أيضاً وكان الأمر بالسير في الأرض والنظر في الأحوال والعواقب دين،

ودليل تصديق لا بد منه لثبات حقائق الوحي ﴿**قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل**﴾ (الروم: ٤٢).

والرؤية المتجددة مع الزمن في الأنفس والآفاق، دليل تبين ويقين عملي على حقائق الوحي المجردة: ﴿**سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**﴾ (فصلت: ٥٣).

لقد احتلت قصص بني إسرائيل مساحة كبيرة في آيات القرآن الكريم فعرضت لعقائدهم ووسائلهم في المكر والخداع، وخياناتهم للعهود وتآمرهم على المجتمع، وقتلهم للأنبياء ونكولهم عما التزموا، إلى درجة يمكننا معها القول: بأن القرآن لم يكتف برصد ظواهر سلوكهم، وإنما تجاوزها إلى نشر خصائصهم وصفاتهم ودخائل نفوسهم ولهذا معناه ومغزاه.

ولعل من أوائل تلك المغازي والمعاني والعبر: أن تكون الأمة المسلمة على حذر شديد، وتأخذ العبرة على المستوى الداخلي فلا تتسرب لها علل يهود وخصائصهم فيحل بها ما حل بهم، وعلى المستوى الخارجي بالتنبه الدائم لمؤامراتهم ومكائدهم.

ولا شك أن هذه الصفات وتلك الخصائص التي ذكرها القرآن لم تخص جيلاً بعينه منهم. ولو كان ذلك كذلك، لكانت تلك الصفات والخصائص، أحق بكتاب للتاريخ والسير الشعبية ـ وليس بكتاب الله الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان ـ وإنما هي خالدة ممتدة من الأجداد إلى الأحفاد ومن الآباء إلى الأبناء وأن الحذر المطلوب لا يخص مسلمي القرون الأولى فقط وقد تكون حاجتهم إلى الحذر أقل منا، حيث رعاية الوحي وتسديد النبوة وإنما نحن الأشد حاجة إلى هذا الحذر وهذا الاعتبار من أسلافنا، خاصة وأننا اليوم أمة مستهدفة على أكثر من مستوى، ونحن في موطن العجز عن الإفادة من تاريخنا ومن حاضرنا ولا تزال النكبات والنكسات والهزائم تتوالى علينا حتى كادت تضيع علينا الجهات.

فلماذا لا نعتبر من كل ذلك، ونفضل العمى على الهدى والعطالة على الفاعلية والغفلة على اليقظة والخيبة على الحذر والفطانة والتقليد الأعمى على الاجتهاد المبدع؟.

ونستطيع أن نقول: إن جولاتنا مع يهود منذ قرن تقريباً ـ وقد حذرنا القرآن الكريم منهم بمساحات كبيرة كما أسلفنا ـ جاءت كلها خاسرة وكنا في كل مرة نراهن في نزالنا معهم على الجواد الخاسر وبدل أن نعتبر ونأخذ الدرس والعبرة تستغرقنا فلسفات الهزائم وتأخذنا العزة بالإثم، وقد يصل بنا الأمر إلى المفاخرة بالهزيمة دون التفتيش عن أسبابها ومعالجة آثارها.

والقضية الفلسطينية ابتداء من مؤتمر بال في سويسرا، ومروراً بمساومات دولة الخلافة وإغراء سلطانها بالمال، ومحاولات تفجيرها من الداخل، ومن ثم إسقاطها، لأنها كانت تشكل العقبة الرئيسة في طريق اليهود إلى فلسطين ومن ثم الإتيان بالعسكر الأتاتوركي إلى الحكم واختبار التجربة ومدى نجاحها ومن ثم البدء بتعميمها على معظم أنحاء العالم الإسلامي الفاعلة حيث تقام الكيانات الأتاتوركية، وتدعم لتحاصر كل عقل وعلم، ودرس وعبرة وخبرة وتميت روح الجهاد، ويبقى لعسكرها المبرر الظاهري أمام البسطاء وهو تحرير فلسطين، وما حقيقتها إلا الحيلولة بين الأمة وبين تحرير مقدساتها وإماتة روح الجهاد فيها.

ولعل القضية الفلسطينية هي المختبر الحقيقي في العصر الحديث لكل العقائد والأفكار والاتجاهات والأحزاب والطروحات السياسية، والأشكال، والأنظمة.. إلخ.

وتبقى القضية بكل مداخلاتها وتطوراتها ومراحلها التاريخية محتاجة إلى تأمل وتدبر واعتبار بعيداً عن المزايدات والابتزاز السياسي فلعل الجيل القادم إن صدقنا له النصح يكون قادراً على الإفادة من التجربة، فلا يسقط في الحفر التي نصبت لنا في هذا الجيل، وعصبت عيوننا عمداً عن رؤيتها فكان ما كان.

فاليهود هم اليهود: ﴿والله أعلم بأعدائكم﴾ (النساء: ٤٥) وإن ادعى بعضنا أنهم أعلم بمداخلات القضية من الله، فغادر وقيمه وشرعه إلى الوقوع في مخطط الأعداء، ليصبح جندياً في جيش العدو علم بذلك أم جهله. ذلك أن الموقف من الأمة المسلمة لم يتغير في القديم والحديث.

في الحقبة الوثنية، شهد اليهود للمشركين بأنهم أهدى من محمد ﷺ وأصحابه، وكان الدرس الأول في التحالف الوثني القبلي اليهودي في غزوة الأحزاب. حيث جاءت الأحزاب المسلمين من فوقهم ومن أسفل.

وفي العصر الوسيط والحديث لم تختلف أوروبا الصليبية بشقيها الشرقي والغربي عن أوروبا الديمقراطية ابتداءً من الحملات الصليبية إلى الجيوش الاستعمارية إلى قوافل التبشير في العالم الإسلامي كما لم يتغير الأمر من روسيا القيصرية التي كانت تتدخل في دولة الخلافة باسم حماية الأقلية الأرثوذكسية وضرورة الحصول على امتيازات إلى روسيا الماركسية التي لم يتوقف تدخلها باسم مساندة الفئات والطبقات والاتجاهات التقدمية، ولم تتوقف الهجرات اليهودية من روسيا القيصرية وأوروبا الشرقية، إلى روسيا الماركسية لم تتوقف لحظة واحدة، لكنها قد تتسع وتضيق بحسب مقتضيات مرحلة الضلال والضياع، ومع ذلك يفاجأ اليوم بعضنا بهذه الهجرات متناسين التاريخ الطويل ولعل ذلك مرده دائماً رغبتنا في أن ندين غيرنا ونبرىء أنفسنا.

حوالي قرن تقريباً ونحن نعيش مرحلة الضياع، متجاوزين قيمنا الدينية وعبرنا التاريخية ودروسنا الواقعية. والتاريخ يبقى شاهد إدانة لأنه يعلم ويعلم أن مساهمة روسيا وأوروبا الشرقية في إقامة إسرائيل لم تكن بأقل من مساهمة أمريكا وأوروبا الغربية على الرغم من محاولة إسقاط ذلك من التاريخ، ومن ذاكرة الأجيال، فالتاريخ لا يزال يحفظ لنا أن روسيا سبقت أمريكا بالاعتراف بإسرائيل على الرغم من قيام إسرائيل على الرؤية الدينية التي تعتبرها الماركسية أفيون، والنزعة العنصرية التي ادعت الماركسية أنها جاءت لمواجهتها وتخليص الإنسانية منها.

ومعظم قادة إسرائيل الفاعلين تاريخياً جاؤوا من أوروبا الشرقية وروسيا، ولقد مدت روسيا إسرائيل بالعنصر الاستعماري الأهم وهو العنصري البشري، الذي يشكل الاستعمار الاستيطاني، ولعل الهجرات الكثيفة اليوم المقدر لها أن تصل إلى حدود المليون ونصف المليون، سوف تكون العامل الأكبر تأثيراً في استمرار احتلال الضفة وقيام إسرائيل الكبرى

وما ندري ماذا سيكون مواقف أصحاب العمالة الثقافية اليوم وكيف ستتجه فلسفاتهم.

إن إسرائيل استفادت من الصراع الدولي كما تستفيد اليوم من الوفاق الدولي استفادت من كل الظروف الدولية، ونحن خسرنا بجدارة كل الظروف الدولية ولا يزال أحفاد أتاتورك الذي اعتمد لتقويض دولة الخلافة موجودين على معظم خريطة العالم الإسلامي السياسية يقيمون الدويلات والأميات ويفتتون وحدة الأمة ويثيرون العنصريات والطائفيات والحروب المدمرة لكنها اليوم تحت شعار الوحدة.

لقد تغيرت الصورة كثيراً من عام ١٩٤٨ م حتى الآن، لكن الحقيقة لم تتغير هجّرنا العرب من فلسطين لنخلي الأرض لليهود، ونلغي كل مقاومة محتملة في المستقبل في الوقت الذي كان اليهود مهاجرين إليها.

ولعل الانتفاضة اليوم على الرغم من كل ظروفها ووسائلها المحدودة أكثر تأثيراً وأبعد أثراً من كل الجيوش العربية مجتمعة فماذا سيكون الحال لو كان أهل فلسطين جميعهم باقون فيها استجابة لحديث رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» إنها العقوبات الشديدة على معاصينا الفكرية والدينية.

لقد نسينا إخوة لنا في العقيدة والدين في أوروبا الشرقية، وماذا فُعِل بهم وقفزنا من فوق العقيدة والتاريخ والدروس والعبر، وركنا إلى أعدائنا، وساد الاستبداد السياسي أجواءنا، فعمي علينا الأمر، وحال بيننا وبين الإفادة من جو الحرية الذي ينمي الحواس ويفجر الطاقات ويسهل تبادل الخبرات وييسر الإفادة من الدرس والعبرة، فأصبحنا عبرة لغيرنا، وبدل أن نعتبر بيهود وتاريخهم أصبحنا عبرة لهم يحسنون دراستنا ويعرفون كيف يتعاملون معنا. فهل لأننا نسينا الله حقاً فأنسانا أنفسنا والعياذ بالله؟ فلا يحق لنا أن نلوم أعداءنا «فالكفر ملة واحدة» بل نلوم أنفسنا ولله الأمر من قبل ومن بعد..

[١٣ رجب ١٤١٠ هـ - ٨/٢/١٩٩٠ م]

الهجرات اليهودية
عود على بدء

كنا قد أشرنا تحت عنوان «الهجرات اليهودية لم تتوقف ولكننا أمة لا تعتبر» أن تلك الهجرات إلى الأرض المحتلة، لم تتوقف لحظة واحدة، وأن الاتحاد السوفييتي الذي راهن عليه بعضنا ردحاً من الزمن، واتخذه بعضنا الآخر قبلة، واعتمد عقيدته منهجاً، كان أسبق إلى الاعتراف بإسرائيل من أمريكا والدول الأخرى، وأنه أمد الكيان المحتل بالعنصر الأهم في العملية الاستعمارية وهو العنصر البشري رغم قيام إسرائيل على الرؤية الدينية التي يتنكر لها ويعتبرها ـ سابقاً ـ أفيوناً، والنزعة العنصرية التي ادعى القيام لمحاربتها وأن قادة إسرائيل الفاعلين تاريخياً جاء معظمهم من أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي اعتباراً من مؤسس الحركة الصهيونية «تيودور هرتزل» الذي ولد في بودابست، إلى سيىء الذكر «إسحٰق شامير» رئيس الوزراء الحالي، الذي ولد في مدينة روزينوي البولندية، وكان والده رئيس الجالية اليهودية في بولندا، وكان من بين زملائه مناحيم بيجن.

وقد يكون من الضروري في هذه الظروف الإتيان على ذكر بعض هؤلاء القادة الذين جاء معظمهم من الاتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية لعله يكون في ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. فكما ذكرنا أن مؤسس الحركة «تيودور هرتزل» ولد في بودابيست.

● وأن «ناحوم كولدمان» رئيس المؤتمر اليهودي العالمي، وأحد الآباء العالميين للدولة اليهودية، ولد في روسيا.

- وديفيد بن جوريون، صاحب الدور الكبير في إقامة الدولة الذي شغل أول منصب رئيس وزراء فيها ولد في بلدة بنسك على الحدود البولندية.

- ومناحيم بيجن، رئيس الوزراء السليق الذي وقع معاهدة كامب ديفيد، ولد في مدينة برست ليوفيسك البولندية.

- وجولدا مائير رئيسة الوزراء قبل بيجن، ولدت في روسيا أيضاً.

- وكذلك موشيه شاريت.

- أما «شيمون بيريز» رئيس حزب العمل الحالي، فولد أيضاً في بولونيا ويقال في روسيا، هذا في الماضي قبل الهجرات الجديدة التي تصل يومياً إلى إسرائيل.

والقرار اليهودي الآن، هو الإمساك بأوروبا الشرقية مع أن اليهود هناك لا يشكلون سوى أقلية محدودة لكنهم ينخرطون في النخبة المثقفة، ويسارعون إلى القيام بدور الوسيط بين الحكومات الجديدة والمؤسسات الغربية المالية لاجتذاب الاستثمارات. إنهم يحسنون الاستفادة من الأوضاع الجديدة في أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي كما استفادوا من الأوضاع القديمة وليست الهجرات التي قد تصل إلى مليون ونصف المليون والتي سوف تمد إسرائيل بالعنصر البشري المطلوب في هذه المرحلة للامتداد في الضفة الغربية، هي آخر الفوائد.

أما نحن، فقد فكر بعض مسؤولينا بالوقوف إلى جانب أنظمة الاستبداد السياسي المنهارة في أوروبا الشرقية لأنهم شعروا بأنها من جملة الأسوار التي لا بد منها لهم ونعود إلى القول إننا أمة لا تعتبر لا بتاريخها، ولا بالتاريخ العام بعد أن أصبحنا اليوم عبرة لغيرنا، ومحلًا لتجارب الأمم بأسلحتها، وأفكارها، وعقائدها. لقد كانت معاركنا أو هزائمنا إن صح التعبير وسيلة لاختبار السلاح، حيث لم نجد نحن من هذه الأسلحة التي استنفدت طاقاتنا إلا الخيبة. وكانت العقائد والمبادىء التي صدرت إلينا، واتخذناها آلهة من دون الله، نرجو نصرها، وسيلة لتمزيق رقعة تفكيرنا، وإنهاك وحدة أمتنا وتحضيرنا للهزائم المتتالية. وإن الكثير من السواعد المسلمة، استخدمت

وتستخدم اليوم حراباً للأعداء ليصفوا حساباتهم بدمائها ولولا أن الرسولﷺ يقول: «إنما الأعمال بالنيات». لخشينا أن نكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

لقد أصبحنا كنتيجة للتشكيل الثقافي المراد لنا والغياب الحضاري عن قيمنا، نقرأ بأبجدية خاطئة فالهزائم في فلسفتنا اليوم انتصارات، والتمزق والإغراق في الإقليمية والطائفية، وحدة أو اتحاد، والعمليات الجهادية والفدائية تطرف وخيانات، والصمود وعدم المساومة ليهود والاستسلام لهم عودة إلى الأصولية، وبعد عن الواقعية، وسياسة التكتيك، وأكثر ما يعنينا اليوم من الانتفاضة أن نكلف أنفسنا النظر إلى أجهزة الإعلام لرؤية مآسيها ومعاناتها التي لم تعد تؤرقنا بل قد يصل بعض بني جلدتنا إلى الخوف على نفسه منها لأنها إن انتصرت سوف لا تقف عند حدود فلسطين. وعلى أحسن الأحوال فنحن لا نزال نحسن الاحتجاج أو البكاء في الوقت الذي تدرس إسرائيل فيه كيفية التعامل مع الصورة الجديدة في العالم كله. وتفكر كيف يمكن أن تفيد من هذه الهجرات لحاضرها ومستقبلها، وتعمل على تأمينها.

اليهود يدفعون الملايين ونحن نبخل بالملاليم لأن الله طمس على أموالنا كما طمس على قلوبنا، وأكتفي بمثال لعل فيه العبرة والدرس:

«مارلين ليندا» رئيس جمعية النداء اليهودي الموحد في الولايات المتحدة، ورئيس اللجنة اليهودية الدولية لمساعدة المهاجرين اليهود السوفييت إلى إسرائيل، قال: إن في إمكانهم جمع ٣ بلايين «مليارات» دولار خلال السنوات الخمس القادمة لصالح عملية الخروج وتوقع أن تجمع في الولايات المتحدة تبرعات تقارب نصف بليون دولار خلال السنة الأولى وقال: استراتيجيتنا ستكون ذات ثلاثة أجزاء التركيز على الأثرياء اليهود ليقدموا تبرعات أكثر مما قدموا في الماضي، وجمع التبرعات من بقية اليهود، والبحث عن الذين لم يتبرعوا من قبل، وأضاف: سنقول للجميع إن هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل لا تقل أهمية عن تأسيس إسرائيل نفسها قبل أكثر من أربعين سنة.

أما نحن اليوم، فإننا نبكي ونستبكي ونحتج ونطالب ونكتب عن مخاطر

الهجرات اليهودية الجديدة، ودورها في تشكيل الحقبة الإسرائيلية الجديدة. في الوقت الذي ندعم الانتفاضة بالنظر إلى مآسيها، ومعاناتها، وشيئاً فشيئاً تتسلل إلى وسائل إعلامنا وألسنة بعض المسؤولين في دول المواجهة عن التحرير (!) بأنها انتفاضة الأصوليين الذين سوف يشكلون خطراً لا على إسرائيل وحدها بل على منطقة الشرق الأوسط والعالم ونبتلع الطعم مرات ومرات. وما ذلك إلا لبعدنا عن وحي ربنا وهدي نبينا الذي يقول: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» فهل نلدغ مرات، ومرات، لضعف إيماننا؟!.

[٢٠ رجب ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠/٢/١٥ م]

متى ندرك الحقيقة؟
ونعرف كيف نتعامل معها؟

كشفت مصادر مطلعة أن جسراً جوياً يقوم بنقل ما يقارب ألف يهودي سوفييتي يومياً من الاتحاد السوفييتي إلى إسرائيل، فيما يعتبر جانباً من الصفقة التي تدفع موسكو ثمنها لتطبيع علاقاتها وعلاقات الكتلة الشرقية مع الغرب.

وأضافت هذه المصادر أن طائرات إسرائيلية وغربية يتراوح عددها بين ٥ و٨ رحلات يومياً تقوم بالفعل عبر مطار بوخارست.

كما أعلن راديو إسرائيل في مطلع الأسبوع الماضي أن الاتحاد السوفييتي وافق على افتتاح مركز ثقافي يهودي في موسكو بالتعاون مع الجالية اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا شك أن الهجرة إلى الأرض المحتلة لم تتوقف لحظة واحدة على الرغم من الضباب الذي يثار حول الموضوع لحجب الرؤية وتضليل الجماهير العربية المسلمة.

والحقيقة أن قضية فلسطين التي يطلق عليها عادة القضية المركزية للأمة العربية كانت ولا تزال ساحة الاختبار الحقيقي لصدق المبادىء وسلامة السياسات والانتماءات الحزبية والتجمعات الطائفية والمواقف الدولية والشعارات الوطنية وسائر أنواع التعامل مع القضية أو التآمر عليها باسم العمل لها.

ولسوف تبقى الطروحات المتعددة التي ملأت الساحة العربية بشكل عام والفلسطينية بشكل خاص، والمراحل التي رسمت لها حتى صارت إلى ما هي عليه اليوم، رصيداً هاماً لا بد من استحضاره لعقود طويلة مستقبلية قادمة.

ولا شك أن ضمير الشعب المسلم في كل مكان يعيش مأساة ولا يرى حدودها تقتصر على الأرض الفلسطينية وحدها، وإنما تمتد حتى تشمل الوطن العربي كله، وتتجاوز المؤسسات لتستهدف الفرد، وتزلزل ثوابته، وتهز قناعته، إنه يعيش المأساة لأنه مدرك للحقيقة على الرغم من كل العناوين المخادعة التي تعلن والشعارات المزيفة التي ترفع إنه يتجرع كأس الهزيمة ويقرأ فلسفتها ومسوغاتها الواقعية، ويعرف تجارها وأعلامها وكتابها وصحفها ومن وراءهم، وكل المروجين لها الذين يحضرون الأمة على مختلف الأصعدة للقبول بهذا الأمر الذي أصبح في ظنهم واقعاً لا يملك أحد الخروج عليه إلا إذا كان غير سوي حيث بات المنكر معروفاً والمعروف منكراً، وانقلب العدو صديقاً والصديق عدواً.

إن الجماهير العربية المسلمة اليوم تعيش مأساة الهزائم المتتابعة وتزداد مرارتها وتتعاظم شكوكها عندما ترى المحاولات المستميتة لإبعاد الإسلام عن المعركة ويوظف لها بعض من يتحدثون باسم الإسلام لأنها تدرك بحسها السليم وتجربتها التاريخية وميراثها الحضاري أن الإسلام كان ولا يزال هو درع المقاومة وروح الانتفاضة وموقد جذوتها.. هو المحرك الوحيد للجماهير المسلمة والدافع لها على الاستشهاد والتضحية والأقدر على الصمود والمواجهة والتحرير.

إن الإسلام هو العدو الحقيقي لإسرائيل وإن الغفلة عن هذا السلاح تعني الهزائم المتتابعة والسقوط والتراجع المستمر. يقول تعالى: ﴿**ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم، وخذوا حذركم، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً**﴾ (النساء: ١٠٢).

لكن مع الأسف اليوم أن أعداءنا أعرف بمواطن القوة في حياتنا منا، يعملون بشتى الوسائل على إقصائنا عنها، فكثيرة هي الأيدي الآثمة والأقلام المضللة التي تمتد لتدمير القضية وتتصافح في ذلك الأيدي الموصولة بالشرق والأيدي الموصولة بالغرب على حد سواء في الأرض المحتلة.

إنها الحقائق المرة التي لا يزال كثير منا يحاول التستر عليها أو تجاهلها أو قراءتها بأبجدية مغلوطة غريبة عنها، أو يمارس لوناً من التضليل الثقافي أو التعصب الحزبي، أو النزوع الطائفي أو العمى السياسي.

ولعلنا لا نأتي بجديد إذا قلنا بأن الشرق والغرب كانا وراء التحضير لزرع إسرائيل في جسم الأمة لاستنزاف طاقاتها وقتل طموحاتها ومحاصرة إنسانها والحيلولة دون أي نهوض أو استعادة لموقعها الحضاري وأن الشرق والغرب كانا أول المعترفين بها والمدافعين عنها. .

وإذا كان الغرب الرأسمالي بزعامة أمريكا يقدم لها المال والسلاح ويقف معها في خطوط المواجهة الأولى، ويشاركها الخبرة التقنية والاكتشافات العلمية، ويتعهد بحمايتها من خلال التحكم بالظروف السياسية التي تحيط بها، وتمكن لها ، فإن الشرق الماركسي كان المنجم الدائم الذي يمدها بالعنصر البشري الذي يشكل العنصر الأهم في الاستعمار الاستيطاني على الرغم من شعاراته التي ساهمت بتضليل المنطقة من خلال عملائه.

وعلى الرغم من أن إسرائيل دولة دينية وأن شعارها الذي قامت عليه هو الرؤية الدينية التوراتية، فالغريب أن يتفق هذا والتنكر الماركسي لفكرة الدين أصلاً ومحاربته للدولة الدينية. ومن ثم، كان الشرق الماركسي أول المعترفين بها.

وعلى الرغم من أن دولة إسرائيل دولة عنصرية بكل ما في الكلمة من معنى، إلا أن ذلك أيضاً لم يمنع الشرق الماركسي الذي يدعي مناهضة العنصرية من أن يكون أول المعترفين بها.

إننا نحن المساكين الذين يبتلعون الطعم بسهولة لقد راهن اليهود على

الشرق والغرب معاً، أما نحن فقد راهن علينا الشرق والغرب ولا يزالان وقد تعودنا على ابتلاع الطعم حتى أصبح طعامنا الدائم وقوتنا الوحيد.

واليوم نبتلع طعم حزب العمل الإسرائيلي ونراهن على فوزه وننسى براعة اليهود في لعبة تبادل الأدوار وأن الثوابت الإسرائيلية لا يختلف حولها لا شامير ولا بيريز ولا غيرهما وإنهما وجهان لعملة واحدة.

ويبقى الأمل في الجماهير العربية المسلمة التي تعيش حقيقة القضية الفلسطينية في ضميرها بعيداً عن كل صور الزيف والتضليل أن تكون قادرة على الاحتفاظ بنقاء وطهارة القضية ريثما يتاح لها فرصة التعبير والتغيير. ونحن هنا لا ندعو إلى المواجهة مع العالم كله، ولكن ندعو إلى فهم القضية وحسن التعامل معها والإفادة من السنّة خلال المدافعة التي شرعها الله لنا.

[٢٤ ربيع الأول ١٤٠٩ هـ - ٣/١١/١٩٨٨ م]

الجهاد الإسلامي..
وجيل الاحتلال

أبعدت سلطات الاحتلال الإسرائيلي، الأسبوع الماضي، الشيخ عبدالعزيز عودة المحاضر بالجامعة الإسلامية في مدينة «غزة» بتهمة قيادة تنظيم «الجهاد الإسلامي» والدعوة إلى قيام حملة إسلامية تعتمد الحرب «المقدسة» طريقاً لتحرير فلسطين.

وقد أدى قرار الإبعاد إلى زيادة حجم المظاهرات والاشتباكات بين الشباب الفلسطيني وجنود الاحتلال، حيث استخدم الفلسطينيون الحجارة لرجم سيارات الجنود الذين ردوا بإطلاق نيران أسلحتهم الأتوماتيكية.

كما كشف قرار الإبعاد عن قلق الحكومة الإسرائيلية من حركة «الجهاد الإسلامي» التي يعتبرها محللون غربيون بأنها تمثل «تغييراً نوعياً في طبيعة المقاومة الفلسطينية في الأرض المحتلة، وذلك بعد فترة من الهدوء المحلي».. وقد وصفها أحد الضباط الإسرائيليين بأنها: «قوة نامية متزايدة لا بد من احتوائها».

وبالرغم من اعتقاد «إسحاق رابين» وزير حرب العدو بأن هذه الحركة التي تتخذ من غزة بشكل عام والجامعة الإسلامية بشكل خاص معقلاً لها، ما هي إلا «موجة سوف تختفي بعد فترة» إلا أن المحللين الإسرائيليين يعتقدون أن الحركة امتدت لتغرس جذوراً عميقة لها في مدينة «القدس»، وغيرها من



المناطق التي احتلت قبل عام ١٩٦٧ م وهي المناطق التي ظن اليهود أنهم أحكموا قبضة التهويد عليها.

ويقول مراقبون إسرائيليون إن ما يجعل «الجهاد الإسلامي» أكثر خطراً من أية مقاومة واجهتها «إسرائيل» في الماضي هو: «رغبة أتباعها واندفاعهم للموت من أجل القضية».

وقد وصفت «الفاينانشيال تايمز» في مقال نشرت «القبس» الكويتية ترجمة له - ١٩٨٧/١١/١٢ م - حركة «الجهاد الإسلامي» بأنها: «حركة ناشئة متطورة، تمتزج فيها الوطنية بالالتزام الإسلامي ليتكون من ذلك مزيج كان بعض الاستراتيجيين يخشونه منذ فترة طويلة».

وترى الصحيفة البريطانية أن من بين أسباب نشوء الحركة: «الاتجاه الإسلامي العام في المنطقة، والإحباط الناجم عن التنازلات التي بدأت المنظمات الفلسطينية تقديمها لإسرائيل منذ ١٩٨٢ م، والطريقة التي استطاع بها الانتحاريون اللبنانيون إجبار إسرائيل على الخروج من أجزاء من لبنان عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥ م».

وأبرزت الصحيفة قولاً للأستاذ «عودة» الذي أصبح رمزاً للحركة وتجسيداً لتوجه جديد في الصراع مع اليهود: «إنني فلسطيني مسلم، وأعتبر فلسطين أهم أرض في العالم العربي.. وآمل أن تقوم فيها دولة إسلامية.. إننا نحلم بهذه الدولة، ونأمل من الله تحقيق ذلك».

والأمر المهم الذي لا بد من إيضاحه، هو أن حركة «الجهاد الإسلامي» الفلسطينية منظمة تمتد داخل الأراضي المحتلة وليس لها أية صلة تنظيمية بمنظمة «الجهاد الإسلامي» اللبنانية أو غيرها من المنظمات الأخرى. وهذا ما يعترف به الإسرائيليون أنفسهم.. تقول «الفاينانشيال تايمز»: «يتفق المراقبون الإسرائيليون للشؤون العربية مع بعض الفعاليات الفلسطينية على نقطتين مهمتين.. الأولى: أنه ليس هناك علاقة سوى الاسم بين المنظمة اللبنانية الخفية التي تطلق على نفسها «الجهاد الإسلامي» ونظيرتها الفلسطينية.

وأما النقطة الثانية.. فهي أن حركة «الجهاد الإسلامي» الفلسطينية

ليست كمثيلتها اللبنانية من حيث أنها ليست منظمة ذات سلسلة قيادات وهيكل تنظيمي صارم، ولكنها حركة منتشرة ذات مظاهر وسمات عديدة».

وتضيف: «.. إن البعض يذهبون إلى أكثر من هذا، يقولون: إنها مجرد أيديولوجية أو نظرية، ولو أنها أيديولوجية تكتسب درجة عالية من الولاء من قبل أتباعها الذين هم في معظمهم من الجيل الذي نشأ في ظل الاحتلال الإسرائيلي خلال العشرين سنة الماضية».

[٥ ربيع الأول ١٤٠٨ هـ - ٢٦/١١/١٩٨٧ م]

تَضْحِيَاتُ المسْلِمين
مَتى نحسِنُ الإفَادَة مِنهَا ؟



دروس من المعلم الأفغاني

نستطيع القول: بأن الشعب الأفغاني يستحق اليوم وبعد أكثر من تسع سنوات من الصبر والمصابرة وتقوى الله لقب معلم الجهاد ومجدد معانيه في العصر الحديث هذا الشعب الذي دافع عن شرف الأمة المسلمة وأعاد إليها الثقة بنفسها بعد أن كاد الكثير من أبنائها يفتقدها وبعد أن علا صوت الغربان الحمر والسود الساحة واصفاً الحركة الجهادية في أفغانستان بالتشدد والتعصب والأصولية والتطرف والرجعية تارة والعمالة والتمرد تارة أخرى.

فما كان من صبر هذا الشعب إلا أن أسقط هذه المصطلحات التي زرعت في الأرض الإسلامية لشل حركة الدعوة الإسلامية واقتلاع معاني الجهاد من النفوس دفعة واحدة وإن كنا نعتقد أن إشاعة هذه المصطلحات والتخويف منها ما يزال يجد آذاناً صاغية في بعض مناطق العالم العربي حيث يُجعل الحق باطلاً والباطل حقاً، فالذين يتمسكون بالكتاب والسنة ويدفعون أرواحهم وأموالهم في سبيل الدفاع عن العقيدة الإسلامية وحماية الأرض والعرض هم المتطرفون، والذين يبيعون أرض المسلمين وثقافتهم بأبخس الأثمان ويمزقون وحدتهم الجامعة ويتنازلون عن أرضهم وعقيدتهم وتاريخهم هم المعتدلون والجديرون بالرئاسات والسياسات. إنه المنطق المعكوس الذي تجيء به هذه الأيام حيث تُغتال القيم العليا وتفتقد المقاييس الصحيحة، من هنا نقول: كم نحن بحاجة وفي أكثر من مكان وعلى أكثر من صعيد في بلاد المسلمين إلى المعلم الأفغاني يعيدنا إلى عقيدتنا الجهادية، درع صمودنا وعدة

كفاحنا، أو يعيد عقيدتنا إلينا بعد التضليل والضلال والغثاء الفكري الزائف الذي يملأ علينا حياتنا.

نحن بحاجة إلى الدرس الأفغاني بكل أبعاده، وإلى المعلم الأفغاني بكل مواصفاته، نحن بحاجة إليه على مستوى الأفراد والجماعات والمؤسسات والمعاهد العسكرية. نحن بحاجة إلى دراسته وتدريسه في كلياتنا الحربية ومعاهدنا وأنديتنا السياسية ومحافلنا الدبلوماسية، نحن بحاجة إلى الصابون الأفغاني لنغسل نفوسنا ونصقل سيوفنا ونعرف عدونا ونبصر من جديد طريق الجهاد وثواب الاستشهاد ونستحضر الميادين الجديدة التي تشهد مصداق قوله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (محمد: ٧) بعد أن كادت هذه المعاني أن تضمحل في النفوس تحت مطارق وضغوط أصحاب الثقافات والمبادىء الدخيلة والمغشوشة.

نحن بحاجة إلى هذه الدروس الأفغانية لتقضي على حياة الدعة والرخاوة والترف والسفه والاستسلام لليأس.. نحن بحاجة إلى المعلم الأفغاني للقضاء على فلسفات الهزائم التي تعم عالمنا وتزيف أجيالنا القادمة.

والشعوب المستعمرة والمستضعفة كلها بحاجة إلى المعلم الأفغاني.. أيضاً لتأخذ زادها ووقودها في الصبر والمصابرة والاستمساك بحقها ولتعرف بأن النصر آتٍ مهما طال الزمن.. لقد أعاد إليها المعلم الأفغاني الأمل في النصر والظفر بعد الصبر والتضحية.

والدول الكبرى بحاجة إلى المعلم الأفغاني، للتنازل عن استكبارها وصلفها وجبروتها وتألهها على خلق الله، لعلها تعيد حساباتها فتكف عن طغيانها وتعلم أن القوة والجبروت ليسا كل شيء وأن الشعوب المستمسكة بحقها لا تقهر مهما طال الزمن وعظمت التضحيات.

وندرك أن الشعوب أقوى من الحكومات وأن العقائد أقوى من السياسات وأن الإنسان هو الذي يحمل السلاح وليس السلاح هو الذي يحمل الإنسان.

والعملاء أيضاً بحاجة إلى المعلم الأفغاني ليعيدوا حساباتهم ويدركوا أن

العمالة لا تغني عنهم من الله شيئاً وأن الله يمهل ولا يهمل، وأن أسيادهم سوف يبيعونهم بأبخس الأثمان في الوقت المناسب وأنه لا اعتزاز لإنسان إلا بقيمه ووطنه وحضارته وأن عليهم أن يتعلموا الدرس الأول في الإسلام من قوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ (المائدة: ٥١) بعد أن أحاطت بهم خطيئتهم من كل جانب واقترب مصيرهم.

لقد انسحبت روسيا مدحورة مذعورة من أرض الأفغان وكان كل همها في الأيام الأخيرة أن تأمن الجهاد الأفغاني من أن يتعرض لقواتها المنسحبة..

ولسوف تلحقها اللعنات التاريخية لا تغني عنها قولة زعيمها: إن دخول أفغانستان كان غلطة.

هكذا بكل بساطة ولم يعلم أنها الغلطة التي كلفت الشعب الأفغاني أكثر من مليون ونصف مليون شهيد عدا المهجرين والمشردين والمصابين، ولا يسعنا إلا أن نقول هنا: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار. نار الدنيا بتجرع الهزيمة والعار ونار الآخرة بالعذاب الأشد.

فشكراً لله أن أعاد لنا اعتبارنا على يد المعلم الأفغاني ثم شكراً للمعلم الأفغاني الذي احتل الخندق الأول ليجدد لنا معاني الجهاد ويعيد إلينا الثقة بعد أن كدنا نفقدها ويبرهن لنا أن العقيدة هي السلاح وأنه لا بديل عن استعلاء الإيمان فإما الإيمان وإما الهوان.

ويبقى المطلوب من المعلم الأفغاني أن يعطينا الدرس الثاني وهو درس ما بعد الجهاد والتحرير وذلك بالقدرة على الاضطلاع بأعباء النصر بعد الاضطلاع بأعباء الجهاد واضعاً نصب عينيه قوله تعالى:

﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ (الأنفال: ٤٦).

ذلك أن أعباء النصر وابتلاءات النصر ومحنة النصر لا تقل عن ابتلاءات الجهاد إنه جهاد لكن في موقع آخر فهل ننتصر على أنفسنا؟

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

[١٠ رجب ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٢/١٦ م].

ما أشبه الليلة بالبارحة..

قد يكون من المفيد في هذه الظروف التي تمر بها حركة الجهاد الأفغاني، وحتى تدرك الأبعاد الكاملة للواقع الذي انتهت إليه، من خلال التواطؤ الدولي والارتباطات الإقليمية، أن نعرض لآخر التصريحات التي أدلى بها المهندس قلب الدين حكمتيار عضو الاتحاد الإسلامي للمجاهدين وزعيم الحزب الإسلامي كبرى الحركات الجهادية، عبر كلمة ألقاها مساء الأربعاء ١٩٨٨/٢/٢٤ م أمام حشد جماهيري كبير في إسلام أباد، مشيراً إلى المخططات التي يجري تنفيذها في غمرة الأحداث والمفاوضات والمشاورات والتحركات العالمية والإقليمية لاحتواء الحركة الجهادية ومحاصرتها واغتيال عطائها ومن ثم القضاء عليها كما هو الحال فيما انتهت إليه كثير من الحركات الجهادية في العالم الإسلامي.

فقد اتهم القوى الكبرى في عقد صفقة فيما بينها حول القضية الأفغانية.. وأوضح أن ترحيب بعض الدول بتصريحات «جورباتشوف» حول القضية أكبر دليل عنده، على وجود اتفاق سوفييتي ـ أميركي بشأن القضية.

وقال إنه لن يسمح لأحد بفرض حل لا يقبله المجاهدون.

وأضاف: إن رد الفعل الفاتر الذي أبدته الولايات المتحدة تجاه الموقف الباكستاني المتمثل في رفض التوقيع على اتفاق جنيف مع نظام الرئيس نجيب الله يعتبر سبباً كافياً للاعتقاد بأن حكومة واشنطن لا تقف إلى جانب المجاهدين ولا تأخذ موقفهم بعين الاعتبار.





وقال: إن باكستان تتعرض لضغط كبير من أمريكا للتوقيع على اتفاقية جنيف.

وأشار إلى أن الثغرة الرئيسة في اتفاق جنيف المقترح هي أنه يعطي الشرعية لنظام الحكم في كابول بقيادة الرئيس نجيب الله.

ودعا إلى استثناء حكومة نجيب الله من أي وضع، وعدم الموافقة على توقيعها على الاتفاق.

وأضاف: إن محمد ظاهر شاه ملك أفغانستان السابق هو أيضاً شخص غير مقبول من المجاهدين كرئيس لحكومة مؤقتة، مشيراً إلى أنه يبدو أن الاتحاد السوفييتي وأمريكا اتفقتا على وضع ظاهر شاه الذي وصفه «بالفاسق» رئيساً لحكومة ائتلافية عريضة في كابول.

وأضاف: إن حكومة يشكلها المجاهدون لا تناسب الأمريكان ولا السوفييت على حد سواء «والسبب هو أنها ستكون حكومة إسلامية حقة».

وعندما سئل عما إذا كان المجاهدون سيستجيبون إذا ما دعاهم الوسيط الدولي حول أفغانستان «دييجو كوردوفيز» إلى جنيف لتشكيل حكومة مؤقتة، قال:

«سننظر في جدول الأعمال أولاً، ثم في تركيبة العناصر الأفغانية.. فإذا تمت دعوة طرف نجيب الله، أيضاً فسنرفض دعوة كوردوفيز.. وتساءل: «كيف نقبل شيوعيين شركاء لنا؟».

وعندما سئل حكمتيار عن المصدر الذي سيحصلون منه على السلاح إذا بدأ المجاهدون في توجيه الاتهامات لأمريكا، قال: «إن المجاهدين شنوا حربهم في البداية بموارد محلية».

وحذر من ممارسة الضغط على باكستان لتوقيع اتفاقية جنيف.. وهدد بنقل مقر قيادة المجاهدين من باكستان إذا تعرضت لمزيد من الحصار والمضايقة.

[١٥ رجب ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٣/٣ م].

حتى لا يغتال الجهاد.. في أفغانستان

تمر الحركة الجهادية في أفغانستان حالياً بمرحلة تعد من أحرج وأدق وأخطر مراحلها على الإطلاق.. فقد كثرت الأطراف، وتعددت الجهات، وتداعت القوى الإقليمية والعالمية لإجهاض الحركة، وقطف ثمارها، وتوظيفها لغير الروح التي حركتها والأهداف التي تفجرت لأجلها وقدمت أكثر من مليون شهيد، وهجرت ما يزيد عن ثلاثة ملايين طفل وأرملة وشيخ ومعاق..

فبعد أكثر من ثماني سنوات من الغزو العسكري السوفييتي أو الفشل العسكري السوفييتي في إخضاع أفغانستان للسيطرة السوفييتية الكاملة، أعلنت موسكو ـ بالاتفاق مع واشنطن ـ عن استعدادها لسحب أكثر من مائة ألف عسكري سوفييتي من أفغانستان كخطوة على طريق حل «القضية» الأفغانية!.

ويعتبر هذا الإعلان أو الوعد السوفييتي بالانسحاب، أهم دليل على عجز واحدة من أكبر القوى العسكرية في عالم اليوم، عن الاستمرار في المواجهة.. بل هو دليل على هزيمة السوفييت وانتصار المجاهدين.. ووصفته مجلة «نيوزويك» الأمريكية بأنه «أول هزيمة للسوفييت في التاريخ».

وفي الحقيقة، فإن هزيمة السوفييت كانت منذ اللحظات الأولى للغزو حيث عجزوا عن إخضاع أفغانستان خلال ساعات لم يكونوا يحسبون أنها قد



تـزيد طـويلاً عن السـاعات الثـمانية التي مكنتهم عـام ١٩٦٨م من فرض سيطرتهم الكاملة على تشيكوسلوفاكيا

ولعل من أهم الأسباب التي جعلتهم يشتطـون كثيـراً في تصـوراتهم لسهولة إخضاع أفغانستان، هو أنهم سبق أن مهدوا للغزو بوضع شخصيات شيوعية في السلطة الأفغانية، بأسماء ومظاهر إسلامية.. فجاؤوا ابتداء بنور تراقي الذي اغتصب السلطة في ١٩٧٨/٤/٢٧م إثر الإطاحة بمحمد داود الذي وصل بدوره إلى الحكم بمساعدة الشيوعيين أنفسهم.. كما جاؤوا بعد تراقي، بحفيظ الله أمين فبابراك كارميل، وأخيـراً الدكتـور محمد نجيب الله الذي يرى المـراقبون ـ وفقاً لتصريحات أدلى بهـا وزير الخـارجية السـوفييتي مؤخراً ـ أن بقاءه في السلطة لن يدوم طويلاً، فقد «استنفد الرجل أغراضه».

وقد لجأ السوفييت بعد أن فشلوا عسكرياً، إلى محاولة اختراق صفوف المجاهدين بوسائل عديدة أشرف على تدبيرها وتنفيذها رجل المخابرات العتيق «أنـدروبوف» فشرعـوا في إثارة الفتنـة ضمن صفوف الشعب الأفغـاني، وسعـوا لإقامة واجهات إسلاميـة بديلة لإجهـاض الحركـة الجهاديـة، وأشاروا عـلى حكومة «كابل» بتشكيل بعض الجمعيات الدينية والاحتفـال ببعض المظاهـر الإسلامية، وبناء بعض المساجد.

ولمـا فشلت خـطة «أنـدروبـوف» عـادوا مـرة أخرى لاعتـماد الحـل العسكري.. وبلغ الأمر مداه على أيام خليفة «أندروبوف» «تشيرنينكو» الذي يقال أنه واحد من الذين ساهموا في اتخاذ قرار غزو أفغانستات عسكرياً.

وفشل «تشيرنينكو» صاحب «سياسة الأرض المحروقة» كما فشل أسلافه في إخضاع شعب وبلد استعصى تاريخياً على الغزاة والمستعمرين..

يقول «نيكسون» الرئيس الأمريكي الأسبق معلقاً على غزو السوفييت أفغانستان:

«.. القبائل الأفغانية، أظهرت شجاعة مدهشة.. ولا شك أن موسكو ستدرك أن هضم أفغانستان عملية صعبة.. وقد سبق للأفغان أن ألحقـوا الهزيمة بالبريطانيين ثلاث مرات في القرن التاسع عشـر في وقت كانت فيه

بريطانيا أقوى دول العالم. . ولن يتمكن السوفييت أبداً من السيطرة على هذه القبائل بشكل عام. . . وستظل هناك معارضة دائمة».

وصدق نيكسون. . وفشل السوفييت في هضم أفغانستان. . ومثلما فشلت بريطانيا العظمى التي خسرت على أرض أفغانستان جيشاً كاملاً قوامه ١٦ ألف مقاتل، واضطرت على أثر ذلك للاعتراف لأفغانستان بالاستقلال، تفشل اليوم روسيا ـ إحدى القوتين الأعظم، كما تطلق عليهما القواميس السياسية ـ وتضطر للانسحاب، وتدعو للمفاوضات وتشكيل حكومة وطنية ائتلافية يشارك فيها المجاهدون أنفسهم.

وعلى الرغم من أن استعداد السوفييت للانسحاب يعتبر ـ كما أسلفنا ـ هزيمة لهم أو محاولة لترتيب الخروج «المشرف» من الهزيمة، كما يعني في الوقت نفسه الاعتراف بانتصار المجاهدين، إلا أنه لا يجوز مطلقاً أن نلغي من حسباننا أن طرح عملية الانسحاب، قد تكون لوناً جديداً من ألوان الخداع الشيوعي للشعب الأفغاني بشكل خاص، والشعوب الإسلامية بشكل عام. . والوثيقة التي وقعها جوزيف ستالين وفلادمير لينين، وما وقع بعدها من أحداث بحق المسلمين في الاتحاد السوفييتي، تكفي لعدم الاطمئنان تماماً لكل ما يطرحه السوفييت من حلول خادعة ووعود كاذبة (انظر نص الوثيقة في ص ٣١٨).

ومن ناحية أخرى، لا بد من الإشارة إلى أن إسراع السوفييت بطرح عملية الانسحاب والتفاوض، بعدما تبين لهم العجز عن المضي في المواجهة، ما هو إلا محاولة جديدة لضرب الحركة الجهادية وتفويت الفرصة عليها لتحقيق النصر، وإدخالها في مراحل جديدة، والسعي لاحتوائها وإحداث شقوق في صفها، والإتيان بقيادات وأشخاص من خارجها، كما حدث تماماً في مناطق أخرى من العالم الإسلامي حيث يزاح أصحاب القضية ويؤتى بآخرين من خارجها. . فتتكرر المأساة نفسها، لا سمح الله.

وإذا كنا لا نريد أن نجزم تماماً بأن المفاوضات التي يدعو لها السوفييت لا تعدو أن تكون خطوة «نحو السراب السياسي» ـ على حد تعبير الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله ـ إلا أننا نجزم بأن المفاوضات كانت دائماً أول الوهن

وطريق الهزيمة بينها بقي الجهاد وسيلة النصر وطريق الخلود، ولا شك أن المعنى الذي أجبر السوفييت على اختيار الانسحاب كحل «لورطتهم» هو المعنى نفسه الذي يجب أن يستمسك به المجاهدون لتحقيق الهدف.

إن المجاهدين والمسلمين بشكل عام، غير مسؤولين عن نتائج جهادهم ومجاهداتهم بعد أن يستكملوا الإعداد، فالنتائج موكولة إلى الله سبحانه وتعالى. ولكنهم مكلفون بإتقان المقدمات من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة.

ولسنا نعتقد أن الشعب الأفغاني الذي عاش أكثر من مرة خداع السوفييت يمكن أن ينسى وعد «لينين» له بالاعتراف باستقلال «خيوة وبخارى» بشرط أن يخرج الأفغان من ساحة الجهاد لتحرير الجمهوريات الإسلامية آنذاك.. فلما كان له ما أراد، انقلب وعده حبراً على ورق!!

ولا بد أن نذكر أخيراً بأن انتصار المجاهدين سوف يشكل خطورة على أعداء الله كلهم، من شرقيين، وغربيين ومن يدورون في فلكهم.. فلا غرابة إذن أن نرى أصابع جديدة تبرز على السطح لتساهم بترتيب عملية التفاوض والانسحاب وتشكيل ما يسمى بحكومة وحدة وطنية.. فهل يحقق الحل التفاوضي بأطرافه المتعددة وضغوطه المتنوعة، ما عجز عنه الحل العسكري؟؟!

[١ رجب ١٤٠٨ هـ - ١٨/٢/١٩٨٨].

في أفغانستان:
العجز عن اغتيال الجهاد

حين غزت القوات السوفييتية في مثل هذا الشهر من عام ١٩٧٩ م أرض أفغانستان كانت تعتقد أن الغزو هو أسهل الطرق للانتصار في ساحة من ساحات الصراع الإقليمي واقتسام مناطق النفوذ بين الدول «العظمى».. وخلال الأسابيع الأولى للغزو، بدت أفغانستان، وكأنها انتهت تماماً إلى السيطرة السوفييتية كما انتهت من قبل أوزبكستان وكازاخستان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية في جنوبي الاتحاد السوفييتي.

غير أن الأمر لم يكن كما ظن السوفييت وغيرهم.. والآن وبعد ثماني سنوات من الغزو يمكن القول بأن الغزو لم يكن لتحقيق انتصار في ساحات الصراع بين الدول الكبرى فقط بقدر ما كان محاولة لاستئصال شأفة الإسلام في أفغانستان التي تعتبر البلد المسلم الوحيد تقريباً الذي لم يستقر فيه الاستعمار تاريخياً ودفع الثمن الباهظ ولذلك لم يكن مستغرباً على تاريخ هذا البلد أن تنطلق المقاومة الأفغانية للغزو من مواقع العقيدة التي يُراد استئصالها..

فكان الجهاد والاستشهاد.. وقدمت أفغانستان أكثر من مليون شهيد، دفاعاً عن العقيدة أولاً والأرض ثانياً.. وخلال ذلك بلغ عدد القتلى والجرحى من القوات الغازية عشرات الألوف.. وفقدت موسكو عدداً من خبرائها، وطائراتها، ودباباتها، وأسلحتها المختلفة التي تحول كثير منها لأيدي

المجاهدين.. يقول قلب الدين حكمتيار أحد أبـرز قادة المجـاهدين: (إن ٨٠٪ من أسلحتنـا نحصل عليهـا من العدو في سـاحات المعـارك داخـل أفغانسـتـان).. «نيوزويك ـ ديسمبر ١٩٨٥ م».

لقد أدرك السوفييت، من خلال ساحات المعارك أنهم في «ورطة» وأن أفغانستان ليست تشيكوسلوفاكيا التي أحكموا قبضتهم عليها خلال ساعات معـدودات من عام ١٩٦٨ م.. وبـدأوا يتجهون إلى إيجـاد مخرج من هـذه «الورطة» وطرحت المشكلة في أكثر من لقـاء قمة بـين الزعيمـين السوفييتي والأميركي.. وتدخلت الأمم المتحـدة، وبدأ أمينهـا العام يشرف منـذ عام ١٩٨٢ م عـلى مفاوضـات غير مبـاشرة، ومباشرة بـين الحكومتـين الأفغانيـة والباكستانيـة بهدف الـوصول إلى حـل للمشكلة.. إلا أن المشكلة لا تزال قائمة..

وفي مطلع العام التاسع للغزو، أعلن الرئيس الأفغاني «نجيب الله» أن القوات السوفييتية ستنسحب خلال عام.. وتزامن هذا الإعلان مع تصريحات أخرى تشير إلى وجود محاولات تشكيـل حكومـة انتقاليـة ائتلافيـة تضم في عضويتها ممثلين لفصائل من المجاهدين.

ومهـما يكن من أمر جـدية السـوفييت في الانسحـاب أو في تشكيـل الحكومة التي قد يؤتى إليها بأشخاص وأسماء لا صلة لهم بالقضيـة إلا أن الجهاد يبقى هو الوسيلة التي كانت تقف سداً منيعاً وراء عدم سقوط البلد في القبضـة السوفييتية ولا تزال تسقط القنـاع عن وجوه المستعمـرين وتضمن الصمود واستمرار المقاومة للشعوب الإسلامية.

ولعل في عودة روح الجهـاد والتحقق بمفهومـاته إلى صفـوف المقاومـة الفلسطينية في الأراضي المحتلة، مؤشر آخر إلى قدرة الشعوب الإسلامية وعدم انطفاء فاعليتها مهما كانت شراسة المحتل، ومهما كان لونه وشعاراته.

[١١ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧/١٢/٣١ م].

استعمار على الطريقة التقدمية

مما لا شك فيه أن المجاهدين الأفغان أدموا أنف الجيش السوفييتي واضطروه إلى الانسحاب على الرغم من التضحيات الكبيرة والخسائر الجسيمة التي منيت بها أفغانستان.. ولم يكن نصيب الاتحاد السوفييتي في أفغانستان بأقل من نصيب إنجلترا قبله، مهما حاول السوفييت أن يفلسفوا الهزيمة ويسوغوا الانسحاب.

ولقد صرح كبار العسكريين السوفييت ـ بدون تحفظ ـ أن الجيش السوفييتي استفاد من الغزو في التدريب على القتال في بلاد لها طبيعتها الصعبة، وكان دخول أفغانستان فرصة لاختبار جدوى الكثير من الأسلحة السوفييتية.. فبلاد العالم الإسلامي ـ في نظرهم ـ لا تزال ميداناً لتجربة الأفكار، واختبار السلاح، وتصفية الحسابات الدولية، ولا شك أن هذا كله وارد، إلا أن حسابات السوفييت وغيرهم لم تكن دقيقة تماماً عن بلاد المسلمين.

لقد ظن السوفييت أن دخولهم أفغانستان شبيه بدخولهم لأوروبا الشرقية من قبل وقتل خصومهم في ساعات قليلة.. إنهم لم يدركوا تماماً طبيعة الشعب المسلم في أفغانستان ولم يدركوا طبيعة الفرد الأفغاني الذي وصفه أمير البيان «شكيب أرسلان» رحمه الله، بأنه: «.. لا ينام على الثأر، ولا يقبل أن يطأ الأجنبي وطنه، ولا يواطىء العدو على استغلال بلده.. فمع أن بعض

القبائل الأفغانية المجاورة للهند كانت شديدة الاختلاط بأحوال الإنجليز، فإنها لم تواطىء الإنجليز على بلادها ولم تمكن لهم في أرضها كما صنع كثير غيرها. . ».

كما أن السوفييت لم يستفيدوا أيضاً من الدرس التاريخي في الجمهوريات الإسلامية التي يحتلونها ولا تزال تشكل ألغاماً موقوتة في جسم الأمبراطورية السوفييتية.

وليس مستبعداً أن يكون أعداء السوفييت وراء هذه الورطة، في إدخالهم أفغانستان.

وعملاء الشيوعية في العالم الإسلامي اليوم في حال لا يحسدون عليها. . لقد سارعوا لتبرير الغزو السوفييتي، وأجهدوا أنفسهم في الترويج له والتبشير بنتائجه وهم اليوم لا حيلة لهم إلا أن يجهدوا أنفسهم في رسم طريق التراجع بعد أن أعلن السوفييت أنفسهم عن خطأ الزعامة التي قررت الغزو.

وقد يكون ما عرضنا له، لم يعد خافياً على أحد، لكن الأمر اللافت للنظر حقاً ظن بعض الناس أن انسحاب الجيش السوفييتي من أفغانستان ـ إن صدقت النوايا ـ سوف يؤدي إلى خفض النفقات العسكرية للسوفييت. . إلا أنه في الحقيقة سيعني خسارة مالية كبيرة للسوفييت الذين كانوا ولا يزالون حتى الآن يجنون الأموال الطائلة من استغلالهم لثروات أفغانستان الطبيعية مما يؤكد أن الانسحاب هزيمة ليس إلا.

لقد كان السوفييت ـ منذ أوائل الستينات ـ يساهمون في شتى مشاريع التطوير الاقتصادي في أفغانستان. . وكانوا يتلقون مقابل المساعدات الفنية والأدوات التي يقدمونها لتلك المشاريع تخفيضات في أسعار الغاز والنحاس وغير ذلك من المواد الخام، إلى جانب تكوين العملاء وهو الأمر الأهم الذي مهد لغزوهم. . إلا أن هذه المساهمة تحولت في أعقاب الغزو «ديسمبر ١٩٧٩ م» إلى ما يعتقد بعض المراقبين أنه نوع من الاستغلال المكشوف إذ لم يمض عام على عملية الغزو فترة بسيطة حتى كان المهندسون السوفييت قد رفعوا الانتاج السنوي لحقل الغاز الطبيعي في «جار قودوك» المكتشف حديثاً،

إلى ٧٠ بليون قدم مكعب و ١٥ ألف طن من المواد البتروكيميائية. . ويقدر المحللون أن تكون كمية الإنتاج قد تضاعفت ثلاث مرات في الفترة الأخيرة.

ولقد جرى عبر سنين الغزو، ربط حقول الغاز الأخرى شمالي غرب أفغانستان عن طريق محطة ضغط ضخمة، وشبكة من الأنابيب تنقل الغاز الطبيعي الأفغاني إلى الاتحاد السوفييتي الذي يقوم بدوره ببيع الجزء الأكبر منه إلى أوروبا الغربية عن طريق شبكة الأنابيب. . ولقد قدر بعض الخبراء «باتريك كلوصون» ما يربحه السوفييت سنوياً بحوالي ٥٠٠ مليون دولار على الأقل.

وبالإضافة إلى النفط والغاز، فإن أفغانستان غنية بالنحاس أيضاً. ولقد طور السوفييت ما يمكن أن يكون أكبر منجم نحاسي سطحي في العالم، وذلك في مقاطعة «لوجار» التي تبعد ١١٠ كيلو مترات إلى الجنوب من كابل. كما أنشأوا مصنعاً لصهر النحاس. . ومن المؤكد أنه أنتج ما لا يقل عن بليون دولار من النحاس سنوياً.

إن استغلال ثروات أفغانستان قد غطى موازنة النفقات العسكرية للغزو السوفييتي. . وإذا ما حدث وانسحب السوفييت حقاً، فإن أفغانستان ستكون قد دفعت ثمناً مضاعفاً لقاء حصولها على السلام؛ حوالي مليون من الشهداء، وكميات لا تحصى من الثروات الطبيعية استحوذ عليها السوفييت.

وهكذا تتطور أشكال الاستعمار وتبقى حقيقته.

[٩ ذو القعدة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٦/٢٣ م].

﴿جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾

تحت شعار: جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً. احتفل المسلمون في تركستان الغربية خلال الأيام القريبة الماضية بمرور ألف ومائة عام على دخول الإسلام للاتحاد السوفييتي، ويكاد يكون هذا الاحتفال هو الاحتفال الوحيد المعلن، منذ أكثر من سبعين سنة، من الحكم الماركسي، الذي حاصر الناس وطاردهم في عقائدهم ومعابدهم وعباداتهم، وحرم عليهم كل ما يمت إلى دينهم بصلة.

ثلاثة أجيال ـ تقريباً ـ ولدوا وتعلموا في ظل حكم يفرض عليهم عقيدة وثقافة وسياسة وتربية وأحوالاً شخصية واجتماعية، تقوم على إلغاء الدين، ومحو آثاره في النفس والمجتمع، كل ذلك يتم بحماية حراب السلطان، وما تقتضيه من تهجير وتشريد ونفي واعتقال، وشواهد الإدانة لا تزال قائمة في بلغاريا وغيرها من دول النظام الماركسي.. ومع ذلك وبعد أن سقطت بعض حراب السلطان نرى المسلمين في تركستان الغربية يعودون ليعلنوا انتماءهم للإسلام، والتزامهم به، ويحتفلون بمرور مائة وألف عام على دخوله بلادهم ويسقطون المبادىء والشعارات التي لما يمض عليها بعد أكثر من سبعين عاماً، على الرغم من أن بقايا حراب السلطة ما زالت في حمايتها، فالإسلام كان خيارهم والماركسية فرضت عليهم، وليس المجال متسعاً للحديث عن الفوارق الكبيرة بين دين الله الذي يكفل الحرية والمساواة ومبادىء البشر وما خلفته من ظلم واستغلال واضطهاد.

وظاهرة العودة للإسلام وإعلان الانتماء إليه والالتزام به التي نلاحظها اليوم في الاتحاد السوفييتي ليست الوحيدة في التاريخ الإسلامي أو التاريخ الإنساني، فلقد كان الغزو الصليبي الذي دام أكثر من قرنين كاسحاً، والإعصار المغولي على المسلمين مدمراً، ومع ذلك بقي الإسلام في القلوب وبقي المسلمون يجاهدون بمقدار وسعهم، بانتظار نصر الله.

ورحل الصليبيون إلى غير عودة، وأسلم المغول، ونشروا الإسلام، وأقاموا له دولة وما استطاع الصليبيون ولا المغول ولا الغزوات الاستعمارية أن تطفىء نور الله. إنه النور الذي لا يطفأ ولا ينطفىء. وبقي الإيمان في القلوب هو خميرة النهوض، يقول تعالى: **﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** (آل عمران: ١٤٠). وللظاهرة التي نراها اليوم في أكثر من موقع على خريطة العالم، وبشكل خاص في الاتحاد السوفييتي حيث ظن كثير من الناس أن الإسلام تودع من هناك، والتي نقلت بعض أخبارها وصورها وسائل الإعلام أكثر من بعد، الأمر الذي لا يتسع المجال للحديث عنه، لكن لا بد من التوقف قليلاً عند قضية نعتبرها أساسية في الموضوع وهي قضية الحرية التي بها تتحقق إنسانية الإنسان، وبها يتميز عن الحيوان. ومن أجل تأكيدها وتحقيقها كانت النبوات والأديان وإن أي عدول عنها يعني - أول ما يعني - إلغاء الإنسان، ولا قيمة بعد إلغائها لكل ما يسمى مكتسبات وما يطرح من شعارات.

ولعل قضية الحرية والمساواة والعدالة هي التي ميزت الإسلام وضمنت له الامتداد والاستمرار والانتشار والانتصار، فالتدين في الأصل هو التزام واختيار وليس إلزاماً وإكراهاً، ولعل من أبجديات الإسلام الأولى قوله تعالى: **﴿لا إكراه في الدين﴾** (البقرة: ٢٥٦)، وأمره الرسول ﷺ ولكل مسلم من بعده بقوله: **﴿لست عليهم بمسيطر﴾** (الغاشية: ٢٢)، وقوله على سبيل الإنكار: **﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾** (يونس: ٩٩).

ولا يمكن أن يتحقق الاختيار الذي هو ركن الإيمان إلا بتوافر شروط

تأتي الحرية على رأسها. حتى أن مسألة الثواب والعقاب أو ما نسميه «الجزاء الأوفى» الذي هو محور الدين لا يمكن أن يترتب بدون حرية، لذلك فالحرية شرط المسئولية والتكليف. والتدين الذي هو الإيمان بقيم ومبادىء تنظم الحياة وتحكم السلوك محله وعي الإنسان «عقله وقلبه» ولا سلطان لأحد على العقل إلا سلطان الدليل والحجة والبرهان، أما الإكراه والسلطان فقد يصنع قناعاً لكنه لا يحقق قناعة. ويعيش الإنسان في ظل السلطان القاهر حياة معذبة، ومعاناة قاسية وشخصية مزدوجة، قلقة، لا تحسن شيئاً، يعيش صراعاً داخلياً بين قناعاته الداخلية وما يفرض عليه من خارج نفسه، ويستمر هذا الصراع إلى أن يسقط الإنسان أو يسقط النظام والسلطان المستبد. لذلك فالصور الكثيرة التي نراها في بلدان الاستبداد السياسي هي غير الحقيقة التي يعيشها الناس.

والظاهرة التي شاهدنا صورها، وسمعنا أخبارها في بلاد التتار في الاتحاد السوفييتي بعد أن سقطت بعض حراب السلطان ليست جديدة ولا متفردة، وإنما هي سنة ماضية في حياة الأمم والشعوب. فالإسلام دين الحرية، ولا دين ولا تدين بدون حرية، وحرية الإنسان هي القيمة التي شرع القتال من أجلها في الإسلام، قال تعالى: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله﴾** (البقرة: ١٩٣) فالقتال يبقى مشروعاً حتى تتقرر الحرية ويرفع الإكراه والإجبار العقائدي عن الإنسان، ليكون حراً في اختياره بدون عوائق والإسلام دين الفطرة والفطرة لا تكون صحيحة وسليمة دون حرية.

والمناخ الذي لا بد من توفيره لانتشار الدين وإيمان الناس به وتمكنه من قلوبهم هو مناخ الحرية ونستطيع أن نقول باطمئنان: إن ما يمارس من ظلم وتسلط باسم الإسلام، الدين منه براء. والمستغرب أن يخاف بعض الإسلاميين من الحرية على الإسلام وتطاول أعدائه عليه ولا يخافون عليه من الظلم والاستبداد السياسي، فالدفاع عن الحرية دفاع عن المناخ المناسب لانتشار الإسلام والدفاع عن الإسلام دفاع عن الحرية وتأصيل لها ولا خيار للمسلم في الدفاع عن قضايا الإنسان. لقد اختارت شعوب كثيرة الإسلام بمحض اختيارها فالتزمت به ودافعت عنه واحتضنته، وكثيرة هي المبادىء التي

حملتها حراب المستعمر وأنظمة الاستبداد السياسي لعالم المسلمين فعاشت على هوامش الحياة الإسلامية وسقطت مع سقوط أصحابها وكانت سبباً في صحوة المسلمين وتجديد انتمائهم للإسلام، ورب ضارة نافعة وشتان بين ما يختـاره الإنسان وما يفرض عليه من قبل السلطان. قال تعالى: ﴿**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق**﴾ (الأنبياء: ١٨).

[٧ صفر ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٩/٧ م].

الدماء المسلمة هي الرخيصة

التآمر العالمي على الإسلام والمسلمين، ليس جديداً، ولا مبتدعاً.. وفي تاريخنا ـ لو أحسنا قراءته ووعيه كما يجب ـ الكثير من الشواهد والوقائع، وقد بدأ هذا التآمر مع الخطوات الأولى للدعوة الإسلامية . فقد اجتمعت القبائل، على ما بينها من الحروب والتناحر والاختلاف، على قتل الرسول ﷺ في مكة، والمكر به، وما أظن القبائل اجتمعت على شيء في تاريخها كما اجتمعت على المكر بالرسول ﷺ، واشتراكها في قتله، وتوزيع دمه.. وحتى لا يصبح هذا تاريخاً مغيباً عن ذاكرة المسلمين، أنزل الله فيه قرآناً يحفظ، ويتلى، ويتعبد به، ليبقى حاضراً في الذاكرة.. ولحضوره دلالة بلا شك، وإلا لما كان أي معنى لخلود القرآن، وعطائه لكل زمان ومكان، قال تعالى يحكي قصة التآمر القبلي: **﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾** (الأنفال: ٣٠).

ثم لما تطور أمر الإسلام، وخرج من نطاق الدعوة المستضعفة في مكة إلى إطار الدولة المنظمة والقادرة في المدينة، جاء التآمر الجديد المتناسب مع الصورة التي صار إليها أمر الإسلام، جاء التآمر الوثني القبلي اليهودي الباطني على ما بينهم من تناقض ـ بحسب الظاهر ـ ليكيدوا للإسلام والمسلمين، فكانت غزوة الأحزاب التي شارك فيها اليهود ، والقبائليون، والمنافقون، والوثنيون، وجاؤوا المسلمين من فوقهم، ومن أسفل منهم، حتى زلزل

المسلمون زلزالاً شديداً، حيث بلغ الرعب مداه، وبلغت القلوب الحناجر، وكان ثمرة لهذه المعاناة، وهذه التجارب المريرة، أن تشكلت حقائق أنتجها التاريخ، وأكدتها العقيدة: أن الكفر كله ملة واحدة، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يأمنوا إلا لمن تبع دينهم، ونهوا عن موالاة اليهود والنصارى، واعتبرت موالاتهم ردة وطلب إليهم أن يأخذوا حذرهم، وأن يعدوا ما استطاعوا من قوة، لأن معاركهم سوف تبقى مستمرة والتآمر عليهم دائباً طالما هم مسلمون: ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ (البقرة: ٢١٧) وكانت مواثيق الله لهذه الأمة، ألا يسلط عليها عدوها تسليط استئصال، وأن الأعداء لا يضرونها إلا أذى، وأنها إن صبرت، واتقت، لا يضرها الكيد والتآمر العالمي المستمر شيئاً..

لكن المشكلة دائماً، عندما نغفل عن أسلحتنا الفكرية، والثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والعسكرية، ونفتقد الصبر، والتقوى، سلاح الصمود والتصدي ويجردنا الأعداء من أسلحتنا، وينازلوننا في المعارك، وتكون المآسي والهزائم والدماء. ونستمر نحن بعدم التقوى، وعدم البصيرة، ونقرر أن كل بلائنا من هذا الكيد، وقد حذرنا الله منه، ودلنا على طريق المواجهة.

والكيد هو الكيد، لكن الإصابة تأتي دائماً من تقصيرنا، وعدم استشعار مسؤوليتنا، وإعداد عدتنا: ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ (التوبة: ٤٦).

فكل إصاباتنا اليوم، وكل يوم، هي من عند أنفسنا التي ضلت عقيدتها، ونسيت تاريخها.

نقول هذا الكلام، ومآسي المسلمين ومذابحهم تملأ علينا حياتنا، والمعادلة الصعبة اليوم: أن الكثير ممن يملكون الفعل لا يملكون البصيرة، والذين يمكلون البصيرة لا يملكون الفعل، فنزداد أسى على أسى، وتردياً على تردٍ.

فدماء المسلمين تسيل أنهاراً في فلسطين، ومذابح يهود للمسلمين مستمرة، ولا نمتلك معها إلا اختزان الحزن والألم، ونصيبنا منها المشاهدة

فقط، ونخشى أن نظهر حزننا وألمنا، ونذكر بني قومنا بواجبهم، وتقصيرهم، فنتهم بالتطرف، والأصولية، والتشدد في عصر الهزيمة والاستسلام، الذي أصبح معه قبول إسرائيل والانتصار لها، هو دليل الاعتدال والروية، والفهم السياسي، والتقدير الواقعي، ورفضها وإدانة ممارستها، واحتلالها، هو دليل التطرف والأصولية، والرفض والخروج، وما إلى ذلك. . أصبح قبول إسرائيل هو المقياس. . لقد ألفنا مناظر الدماء فأصبحت لا تحرك لنا شعوراً، ولا تثير فينا نخوة.

ودماء المسلمين في كشمير، تسيل أنهاراً على أيدي الوثنية المدعومة من العالم، ولا مانع أن يوصف المسلمون المدافعون عن حقوقهم ـ وهم يشكلون ٨٠ ٪ من عدد السكان، ويحتلون من قبل ٢٠ ٪ يتحكمون فيهم ـ بأنهم متطرفون، ومتعصبون، وأن قتلتهم من دعاة الديمقراطية وحماتها.

وأخيراً وليس آخراً، ما تناقلته الأخبار، وأعلنه الأمين العام للجنة مسلمي أفريقيا أن أكثر من ألفي مسلم في ليبيريا استشهدوا خلال الأشهر القليلة الماضية على أيدي أفراد المعارضة التي وجهت كل جهودها، وسلاحها ضد المسلمين، وكان مما قال: (إن قوات المعارضة التي دخلت من ساحل العاج، والتي وزعت منشورات في ليبيريا باسم الكنيسة، تدعو لطرد المسلمين، والقضاء على مؤسساتهم التي تشمل المساجد، ودور الأيتام، وحفر الآبار.

وأضاف: إن أول عمل يقوم به أفراد المعارضة لدى دخولهم أي قرية هو البحث عن إمام المسجد، ومعلم القرآن، وتقوم بذبحهما ثم يتخذون من الكنائس مقار لهم، والعالم يسمع ويرى، ومؤسسات حقوق الإنسان والأمم المتحدة وكل الكتاب والمفكرين الذين يدعون الوقوف إلى جانب الحقوق الإنسانية، يخرسون عندما يكون الانتهاك للدماء المسلمة، فكم من مذبحة في العالم الإسلامي، كان المسلمون ضحيتها ولم يكتب عنها أنصار حقوق الإنسان، ولا كلمة واحدة. ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها لمعاقبة مجرم منحرف أو خائن عميل أو متآمر على بلده إن كان من الخارجين عن الدين.

وقد تكون المشكلة اليوم: أن الدماء المسلمة أصبحت رخيصة في العالم الإسلامي الذي يسود معظم بلاده الاستبداد السياسي، والأنظمة الديكتاتورية التي تعمل عملها في المعتقلات، والسجون، والمقابر الجماعية حيث تحرق قرى بأكملها، وتدك مدن بكل من فيها إلى درجة يمكن معها أن نقول: إن ما تفعله إسرائيل، من تاريخ قيامها وحتى اليوم، وما يفعل في كشمير وليبيريا لا يعدل الدماء التي سالت على أيد عربية في مذبحة واحدة.. فكيف يكون للمسلم كرامة، وحقوق، واحترام، ولدمه حرمة عند الآخرين، وحقوقه مهدورة، وكرامته مسلوبة، وحياته مهددة في بلده، وبين قومه؟.

[١٤ و ١٥ ذو القعدة ١٤١٠ هـ ـ ٧ و ١٩٩٠/٦/٨ م].

هل يتوقف فعلاً نزيف الدم المسلم؟

لعل من أهم المعاني والمرتكزات التي أكد عليها وأشار إليها الرسول ﷺ في خطبة حجة الوداع: حرمة الدم المسلم.. فقال صلى الله عليه وسلم:

«إن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا في بلدكم هذا..» متفق عليه.

كما أن من أهم توجيهاته وإشاراته التحذيرية مما قد يقع فيه المسلمون فيودي بهم وبمجتمعهم، قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض..» متفق عليه. وكأنه ﷺ ـ وهو الموحى إليه من ربه ـ كان يلمح ما يمكن أن يصيب الواقع الإسلامي في قابلات الأيام.

فالدماء المسلمة التي تسيل يومياً، كالأنهار في أكثر من بلد، وأكثر من موقع، على يد المسلمين أنفسهم ـ مهما كانت الشعارات، وكيفما كانت المسوغات ـ قضية لا تخدم إلا أعداء الإسلام في نهاية المطاف.. ولذلك كان تحذيره الدائم ﷺ من الوقوع في هذا المحذور.. «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار».

«لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل امرىء مسلم».

وإذا حاولنا هنا أن نستقرىء المعاني التي حققتها الحروب المشتعلة في عدد من بقاع العالم الإسلامي بشكل عام، والحرب التي اصطلح على تسميتها

بحرب العراق وإيران بشكل خاص، وهي الحرب التي طال عليها الأمد وساهمت بقسوة القلوب، فلن نجد غير أنهار من الدم المسفوك، ومليارات من الأموال المهدرة، والاقتصاديات المدمرة، وكلها لن تجير في النهاية إلا لمصلحة العدو.

إن حرب العراق وإيران لم تحقق بعد هذه السنوات المريرة، سوى مزيد من عمليات تقتيل المسلمين، وإنهاك قوتهم، ومحاصرة وإجهاض حركة الصحوة الإسلامية في نفوسهم وعقولهم.

وحري بنا هنا أن نتساءل: هل الأيدي المسلمة هي التي صنعت هذه الحرب المدمرة، أم أن المخططات الاستعمارية هي التي فكرت ودبرت وصنعت ونفذت لتصفية حساباتها الدولية بدماء المسلمين؟!

وقد أعلنت إيران قبول قرار مجلس الأمن ووافقت على إيقاف الحرب، والأمل معقود أن يكون القرار صادراً عن رغبة صادقة بوقف نزيف الدم المسلم، وأن يثوب الجميع إلى رشدهم ويدركوا مسؤوليتهم تجاه أمتهم، وأن تكون هذه الحرب درساً لا ينسى لشعوب الأمة المسلمة.. والرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل.

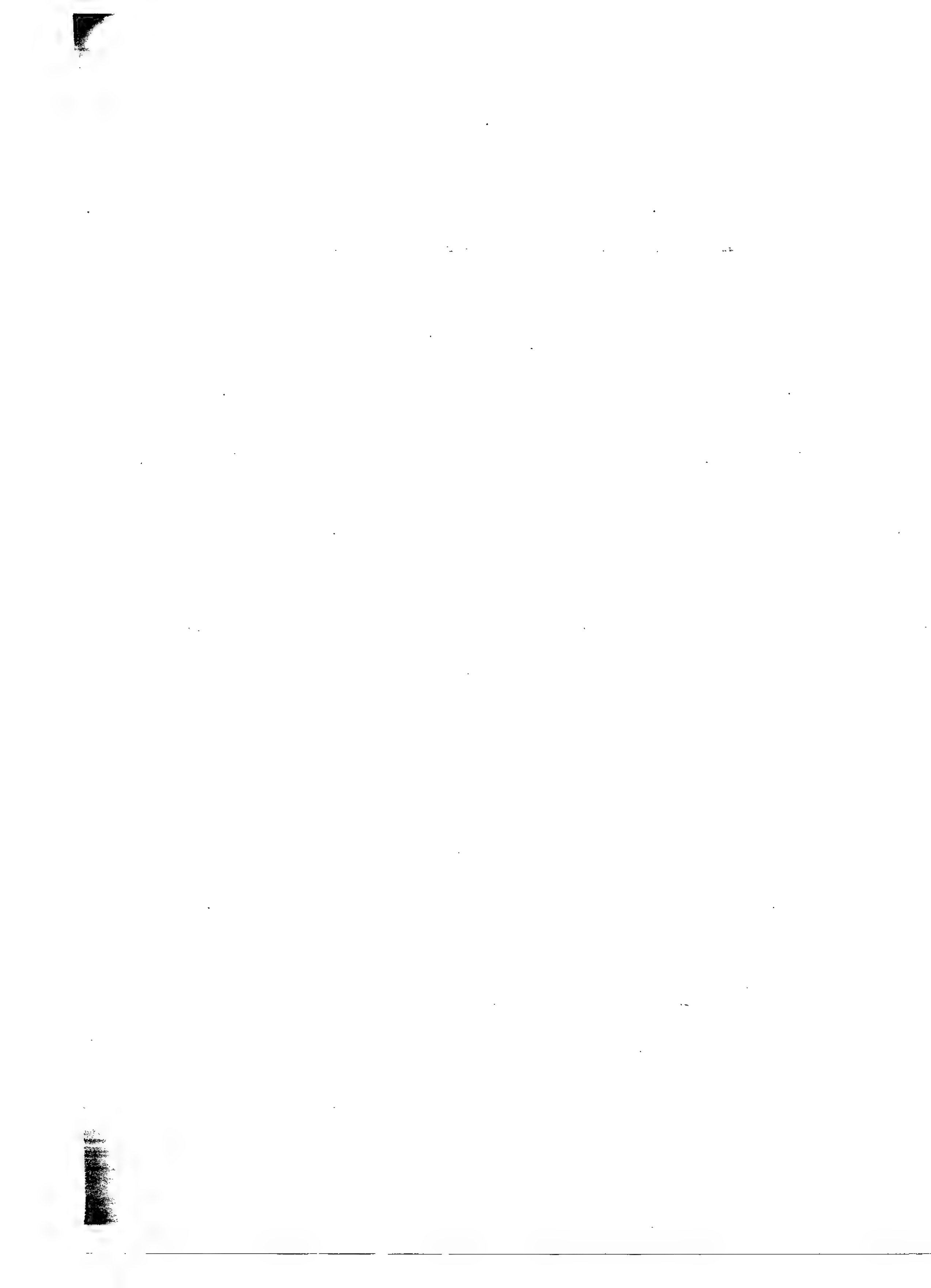
وتبقى القضية التي لا تعدم شواهد من التاريخ دائماً: إن العدول عن الاعتصام بكتاب وسنة نبيه ﷺ موقع في الاختلاف، ومذهب للريح ومؤد إلى التآكل الداخلي.

يقول تعالى: **﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا، إن الله مع الصابرين﴾** (الأنفال: ٤٦).

[٧ ذو الحجة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٧/٢١ م].

ألغامٌ موقوتةٌ
في الجسمِ الإسلاميّ

١٨٠٩/٨



أفريقيا المسلمة
التحديات والدور المطلوب

يطلق على قارة أفريقيا القارة المسلمة.. فتاريخ انتشار الإسلام فيها مترافق مع تاريخ الإسلام في الجزيرة العربية تقريباً، حيث تمتد جذوره إلى القرن الهجري الأول، بل إلى السنوات الأولى للدعوة.

وقد وجد الإسلام قبولاً كبيراً وانتشر انتشاراً واسعاً في هذه القارة التي كانت في معظمها وثنية، لا تدين بدين سماوي معين.. ولعل السبب الحقيقي الذي يكمن وراء هذا القبول والانتشار هو روح المساواة التي جاء بها الإسلام ـ وعاشها المسلمون عملياً ـ ورفضه للتفرقة والتمييز بين الناس بسبب الجنس أو اللون، واتخاذه التقوى معياراً وحيداً للمفاضلة.

لقد تميزت الحضارة الإسلامية بروح المساواة.. وأصبح ذلك ما يميزها عن الحضارات الأخرى، البائدة أو السائدة.. ولم تستطع أي من الحضارات الحديثة التي انبثقت عن عدد من الديانات المعمول بها اليوم، أن تحقق عملياً أي لون من ألوان المساواة التي دعا لها الإسلام وأمر بها.. بل إن الحضارات كلها سقطت في حمأة التمييز وترافقت مع الاستعمار ولم تستطع التخلص من النظرة الدونية للآخرين.. وتلك في الحقيقة قضية حساسة جداً في القارة السوداء بل هي محور الصراع والصدام الدائر حالياً في جنوب أفريقيا بشكل خاص، وفي أصقاعها الأخرى بشكل عام.

وإذا كان الصراع الدائر يبدو في ظاهره وكأنه صراع بين الرجل الأسود

صاحب الأرض والرجل الأبيض المستعمر وصاحب النفوذ، إلا أنه في حقيقته صراع حضاري، أو هو كذلك من وجهة نظرنا نحن، على الأقل.. ذلك أن قارة أفريقيا بشكل عام التي لم يعد ممكناً بقاؤها على ما هي عليه، تدخل الآن مرحلة جديدة من البروز والتشكل، حيث بدأت أكثر من حضارة أو جهة تتسابق لكسبها.

وعلى ضوء هذه الحقيقة يمكن تفسير زيارات البابا الأخيرة لأفريقيا، ومحاولة الكنائس - من جديد - القبول ببعض العادات الإفريقية بالرغم من تعارضها وتناقضها مع التعاليم الكنسية هذا إلى جانب محاولات توطين اللاهوت في أفريقيا، وإبراز دور الكهنة السود في المجالات كلها، لا سيما في المجال الوطني حيث مواجهة الاستعمار والتمييز العنصري، الأمر الذي يظهر بوضوح شديد في جنوبي أفريقيا.. فعلى الرغم من أن للمسلمين دوراً بارزاً وهاماً في مقاومة التمييز العنصري وأنهم قدموا عدداً من الشهداء، إلا أن أجهزة الإعلام الغربية تتعمد، وهي تغطي يوميات أحداث المقاومة، تغييب الدور الإسلامي، ولا ترى من الأحداث سوى وجهها الكنسي الذي يمثله القس الأسود «دزموند توتو» وصليبه الذي يتربع على صدره.

وما ذلك كله إلا للحيلولة بين الإسلام وبين أفريقيا.. وفي الوقت نفسه كمحاولة فك الارتباط بين الاستعمار والتبشير الصليبي وتجاوز الرصيد النفسي التاريخي الذي يحول بين الأفارقة المستعمرين وبين الصليبي المستعمر، وللتحكم بالصورة المستقبلية بعد رحيل الاستعمار.

لقد ارتبطت الحضارة الأوروبية التي تمثل واجهة الصراع حالياً في جنوبي أفريقيا، بالاستعمار والرق والنظرة الدونية للأفريقي، بينما ارتبطت الحضارة الإسلامية بالمساواة والبعد عن التسلط والاستعمار، كما ارتبطت بالجهاد والتحرير وهذا ما يدركه الأفريقي.. وهو ما يجعل الإسلام هو الأبقى والأقوى..

ولذلك وبالرغم من أن عالمنا الإسلامي الذي شغل بجراحات ومشكلات كثيرة تستنزف طاقاته وتستهلك موارده، إلا أنه لا يجوز أن تحول

تلك المشكلات دون تنبهنا إلى دورنا تجاه هذه القارة التي تشكل امتداداً جغرافياً ورصيداً بشرياً واقتصادياً هاماً لنا..

إن أخشى ما نخشاه، أن نغفل عن أفريقيا، فنخسرها.. ونخسر معها جولة هامة في ساحة الصراع الحضاري.. ويكفي أن نشير هنا إلى أن إسرائيل التي لم تخرج في حقيقتها عن جيب لحضارة الأوروبي، قد عادت إلى أفريقيا بخبراتها الفنية والعسكرية ونفوذها الصهيوني واليهودي، حينما كنا في العالم الإسلامي غافلين عن أفريقيا.

[٢٥ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/١/١٤ م].

مشكلة المسلمين القادمة
من جنوبي السودان

في الوقت الذي كانت فيه القوات السوفييتية تعد العدة لاستقبال العام التاسع لغزوها أرض أفغانستان (ديسمبر ١٩٧٩ م)، كانت قوات المتمردين في جنوبي السودان ، بقيادة العقيد جون قرنق والمدعومة بقوى ذات صلة بالاستراتيجية السوفييتية، قد استولت على مدينة «الكرمك» على الحدود الأثيوبية في شرقي السودان. . ولم تمض أيام على ذلك، حتى أعلن تغيير اسم حركة المتمردين من «الحركة الشعبية لتحرير السودان» إلى «الحركة الشعبية الاشتراكية السودانية الأثيوبية لتحرير السودان».

ومشكلة جنوبي السودان أو الحرب الدائرة في جنوبي السودان، كانت حتى وقت قريب تصنف في إطار المشكلات الداخلية الناتجة عن خلل ما في النظم السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في السودان. . ثم اتسعت دائرة التصنيف قليلاً، حيث أصبح ينظر إلى حركة قرنق كحركة انفصالية، ومن ثم حركة تحرير أفريقية كما يطلق عليها أصحابها.

والواقع أن ما طرأ من تطورات، وما برز من ملامح أيديولوجية وعسكرية لحركة قرنق خرج بالمشكلة من إطار المشكلات الداخلية أو الحركات الانفصالية، إلى إطار أكثر اتساعاً. . فحركة قرنق لم تعد انفصالية. . بل إن القول بأنها حركة انفصالية قول فيه تبسيط وتسطيح خادع، وتقليل كبير من حجمها ودوافعها ونتائجها المستقبلية. . لقد اتضح الآن، ومن خلال

ما كشف النقاب عنه إبان احتلال «الكرمك» أن حركة قرنق ما هي إلا مظهر من مظاهر الصراع الدولي، وامتداد له، وذلك بالرغم من أن القوى الدولية الكبرى المتصارعة على اقتسام مناطق النفوذ في العالم، التقت مصالحها جميعاً عند الحركة، واتفقت على ضرورة الوقوف في وجه المد الإسلامي في أفريقيا.. ولذلك حرص الجميع على تقديم مساعداته المباشرة وغير المباشرة.. فمجلس الكنائس العالمي الذي يمثل الوجه الديني للاستعمار الأوروبي والأميركي الحديث، يقدم مساعداته للحركة عن طريق كينيا، والمعسكر الاشتراكي الذي يتبنى الحركة في المرحلة الراهنة يقدمها عن طريق أثيوبيا.. وفي الشهور الأخيرة قدم لها أسلحة متطورة جداً - مدفعية ثقيلة عيار ٢٢٢ ملم و ١٧٥ ملم وصواريخ مضادة للطائرات والدبابات وهاونات عيار ٨١ ملم و ٨٢ ملم وغيرها - وفتحت أثيوبيا وكوبا اللتان تدوران في فلك المعسكر الاشتراكي، أراضيها لتدريب وإعداد المتمردين.

وقد لا يكون مستغرباً تواطؤ الشرق والغرب الذي نلمحه على أكثر من بقعة على الأرض الإسلامية.. كما لا يكون مستغرباً بل يعد أمراً طبيعياً أن يكون لإسرائيل دور في دعم التمرد، فهي التي هيأت الفرص من قبل لجون قرنق كي يتلقى بها دورات عسكرية واستخبارية.. وهي أشد حرصاً الآن على أن تقدم له كثيراً مما يحتاجه من أسلحة وخبراء عسكريين.

وهذا ما يجعلنا نقول بأن مشكلة جنوبي السودان هي من بعض الوجوه فرع وامتداد للمشكلة الفلسطينية، مشكلة المسلمين والعرب المركزية.. بل قد نذهب إلى القول: بأن مشكلة المسلمين والعرب القادمة قد تكون في جنوبي السودان.. والخوف ألا يقل حجم المأساة القادمة في جنوبي السودان عن حجم المأساة الحالية في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وذلك إذا لم يتدارك العرب والمسلمون جميعاً الموقف في جنوبي السودان ويعالجونه بشكل سليم، وإذا لم تحقق لنا مشكلة فلسطين الدرس والعبرة.

إن الحرب الدائرة في جنوبي السودان الذي يعتبر معبر الحضارة الإسلامية العربية إلى أفريقيا، يقصد من وراء إشعالها واستمراريتها إيقاف المد الإسلامي في أفريقيا - كما أشرنا إلى ذلك - خاصة وأن الصليبية العالمية تعمل

على تنصير معظم أفريقيا بحلول عام ٢٠٠٠ م.. ولا يغيب عنا رحلات البابا إلى أفريقيا ومحاولات توطين الكهنوت والقبول بالعادات الإفريقية ولو على حساب التعاليم النصرانية المعمول بها.

ومن جانب آخر يعمل السوفييت بعد أن أصبح لهم موطىء قدم في أكثر من منطقة في أفريقيا، على تحويل القارة السمراء كلها أو المواقع الاستراتيجية فيها إلى بقع حمراء تخضع مباشرة لسيطرة موسكو.. كما تعمل الصهيونية العالمية على عزل أفريقيا عن المحيط العربي وربطها بالدولة اليهودية.

فالإسلام الذي قال عنه شلومو أفنيري مدير وزارة الخارجية الإسرائيلية السابق في تصريحات صحفية، أنه هو «العدو المشترك لإسرائيل والاتحاد السوفييتي»، ويمكن أن نضيف نحن هنا أمريكا لتكتمل أبعاد المثلث المشؤوم، هو الذي دفع القوى العالمية الكبرى، على ما بينها من تناقضات أيديولوجية، لدعم حركة قرنق.. ويكفي أن أثيوبيا وبالرغم من تغير توجه الحكم فيها، إلا أنها لم تتغير على الدوام من موقفها الداعم لحركات التمرد في جنوبي السودان ومحاربة كل ما يمت إلى العروبة والإسلام، حيث لم يتغير الموقف من حركة التحرير الأريترية مثلاً عندما كان «هيلا سيلاسي» الذي أعلن عن نفسه كحامي النصرانية في أفريقيا، وعندما جاء «منغستو» بصورته الماركسية.

وإن كانت هناك من ملاحظة لا بد من الإشارة إليها، فهي أن حركة قرنق التي تطالب بإلغاء التشريعات الإسلامية التي وضعت في العهد السابق كشرط أساسي لأية مفاوضات أو مؤتمر للحوار، هذه الحركة تكونت وبدأت عملياتها قبل هذه التشريعات، واستمرت بعدها.. فالتشريعات ليست هي المشكلة.. وإبقاؤها أو إلغاؤها لا يحل المشكلة، ولكن ما يحل المشكلة ـ أو جانباً منها ـ أن تتفهم البلاد العربية والإسلامية حقيقة المشكلة.. وأن لا يترك السودان وحده في ساحة المواجهة ﴿ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز﴾ (الحج: ٤٠).

[٨ جمادى الأولى ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨/١/٧ م].

هل تسترد تونس وجهها العربي الإسلامي؟

يزور الدوحة حالياً السيد الهادي البكوش الوزير الأول للجمهورية التونسية، في إطار جولة خليجية تعتبر الأولى التي يقوم بها مسؤول عالي المستوى منذ التغيير الذي حدث صبيحة السابع من نوفمبر الماضي.

ولا نعتقد أنه من قبيل المصادفة السياسية أن تكون الجولة الخارجية الأولى لرئيس الوزراء التونسي لدول الخليج العربيه المسلمة.. فهي تأتي في إطار التوجه الحالي للقيادة السياسية الجديدة والخطوات العديدة التي اتخذتها مؤخراً بهدف إعادة الوجه العربي الإسلامي لتونس بعد سنوات من محاولات التغريب والتشويه الثقافي المنظم.

ولعل من أبرز المؤشرات على ذلك هو ما اتخذته القيادة السياسية الجديدة من القرارات التي تستعيد فيها الهوية العربية الإسلامية لتونس الشقيقة، ويأتي في مقدمتها القرار بأداء الأذان للصلوات الخمس من جهازي الإذاعة والتلفاز، وإيقاف الإرسال التلفازي أثناء فترة أداء الصلاة، ونقل شعائر صلاة الجمعة إذاعياً، والإكثار من الفقرات والبرامج الإسلامية.

يضاف إلى ذلك القرار الذي تم بموجبه تغيير يوم العطلة الأسبوعية، واعتماد يوم الجمعة، وإلغاء يوم الأحد، وهو ما كان معمولاً به خلال السنوات التي سبقت تغيير ٧ نوفمبر.

هذا إلى جانب المحاولات التي تدرس لإعادة كتابة تاريخ تونس،

والمناقشات التي تجري بوزارة التربية والتعليم العالي لتشكيل لجنة لدراسة إمكانية زيادة الدروس المخصصة للتربية الإسلامية في مناهج التعليم الخاصة بالمراحل التعليمية المختلفة، وينتظر أن توضع التوصيات التي تخرج بها اللجنة، بعد اعتمادها، موضع التنفيذ في العام الدراسي المقبل ١٩٨٨/١٩٨٩.

ولعل القرار الأكثر أهمية في هذا الإطار هو ما اتخذ لعودة الزيتونة ـ من كلية ـ إلى جامعة كما كانت من قبل، تمد الشمال الأفريقي والعالم الإسلامي بالعلماء والفقهاء والمجاهدين، وتأخذ دورها المؤثر في البناء العلمي والثقافي لعالم المسلمين.. ولا شك أن هذا القرار يعد بمثابة إعادة الاعتبار إلى هذه المؤسسة التي تعتبر أول جامعة في العالم (تأسست عام ١١٦ هـ)، وليس هناك من ينسى أو ينكر الدور البارز الذي اضطلعت به الزيتونة في الحياة السياسية ومواجهة المستعمر وإعداد الكوادر الوطنية التي قادت المقاومة ضد المحتلين.

وهناك من يعتقد أن القرار بإنشاء اللجنة الإسلامية العليا برئاسة الهادي البكوش والقرار بإلغاء محكمة أمن الدولة العليا ومنصب وكيل عام الجمهورية، هي من أهم القرارات التي اتخذت لتحقيق الديمقراطية في البلاد واحترام الدستور، وفتح المجال أمام حوار حول واقع الإسلام في تونس، لاسيما وأن الإسلام كان له الدور الرئيس في مواجهة التغريب والغزو الثقافي والاحتفاظ بالهوية العربية والتوجه الإسلامي. فهل تمضي تونس في استرداد وجهها العربي الإسلامي؟.

[٢ جمادى الآخرة ١٤٠٨ هـ ـ ٢١/١/١٩٨٨ م].

في المسألة الموريتانية السنغالية
«١»

الأحداث المؤلمة الأخيرة التي وقعت بين الشقيقين المسلمين والبلدين الجارين موريتانيا والسنغال ليست وليدة المصادفة بل جاءت نتيجة لمقدمات طويلة وألغام موقوتة. زرعتها المؤسسة الاستعمارية ورعتها وكرستها الإرساليات التنصيرية التي تعمل في إطارها لتنفجر في الوقت المناسب، فتدمر التاريخ والجغرافيا المشتركة بين البلدين وتقطع علائق الأخوة وتثير النعرات الطائفية والعرقية واللونية وتنسف كل عوامل التوحد وتثير كل أسباب الاختلاف.

وليس أقل تلك الألغام التاريخية ذات الحضور الدائم أن استعمار فرنسا لموريتانيا إنما تم على يد الفيلق السنغالي الذي كان يعمل في الجيش الفرنسي ليكون الإسفين الدائم في الجسم الواحد وتكريس العداوة بين أبناء الدين الواحد في الوقت نفسه أثار الاستعمار في بعض النفوس نزعة التميز والتعالي بسبب اللون والجنس مما جعل بعض أصحاب النفوس المريضة ينظرون إلى السود نظرة فيها شيء من الدونية لا يقرها الإسلام ومنذ زمن بعيد والتركيز على جنوبي موريتانيا من قبل الإرساليات التنصيرية والهجرات الجماعية للاستيطان هناك وإثارة النعرات اللونية يشكل مشكلة خطيرة لا تزيدها الأيام إلا نمواً وخطورة وليست مشكلة الجنوب في موريتانيا وما يبيت لها أقل خطورة وشأناً من التركيز على جنوبي السودان إذا لم يتنبه لها ويحسن التعامل معها قبل فوات الأوان.

١٨١٩/٨

ومشكلتنا نحن المسلمين أن اليقظة تأتي بعد زمن من الغفلة وزمن من التفريط أي بعد خراب البصرة كما يقولون وقد يكون من المناسب إلقاء الأضواء على بعض الخلفيات والمعاني في هذين البلدين الجارين لعلها تساهم بشيء من الفهم للمشكلة وتبصر بالحل المطلوب.

لا شك أن موريتانيا بتاريخها العلمي، وموقعها الجغرافي بين أفريقيا العربية وأفريقيا السوداء تكتسب أهمية خاصة، كما أنها كانت ـ ولا تزال ـ معبر العربية والإسلام إلى أفريقيا وأنها بوابة العالم العربي والإسلامي الغربية على أفريقيا وأن علماء شنقيط وتجارها هم غالباً الذين حملوا الإسلام إلى غربي أفريقيا. ولا تزال القبائل الموريتانية ممتدة في السنغال ومالي وغيرهما من دول غربي أفريقيا، ولا بديل عن استرداد موريتانيا لدورها العلمي والثقافي لأنها لا تزال المدخل الصحيح إلى غربي أفريقيا، ولا شك أن الاستعمار ركز كثيراً عليها حتى كاد يلغي وجودها العربي الإسلامي، ويقطعها عن جذورها ويضمها إلى مجموعة الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية ويحاول جعل الحاجز الرملي الكبير حداً فاصلاً بين أفريقيا العربية ـ المخزون الاحتياطي للعروبة والإسلام ـ وغربي أفريقيا خاصة وأفريقيا بشكل عام، ولعل هذا هو الذي دفع الاستعمار الفرنسي إلى تحييد موريتانيا ومحاولة إلغاء دورها التاريخي، وهنا تكمن الأهمية في ضرورة الالتفات العربي الإسلامي إليها، وشد أزرها لتستعيد دورها العلمي والحضاري في أفريقيا وبذلك نأتي البيوت من أبوابها..

ولعل من آثار الاستعمار التي لا تزال بادية للعيان أن اللغة الفرنسية ـ وإلى عهد قريب ـ كانت اللغة الرسمية في موريتانيا، وهي اللغة العملية في المؤسسات والدوائر الرسمية إلى الآن، وأن العربية بدأت تسترد أنفاسها وتأخذ موقعها من جديد، وقد يستغرب المرء عندما يستحضر التاريخ ويتعرف إلى دور شنقيط وعلمائها في الثقافة والعلوم الإسلامية والنهاية التي أراد لها الاستعمار انتقاماً من البلد الذي كان معبر الإسلام إلى غربي أفريقيا.

والأمر الذي لا بد من تقريره أن في موريتانيا اليوم صورة قد تكون من مخلفات الحقبة الاستعمارية، لكن المطمئن أن هناك حقيقة تختلف تماماً عن

الصورة البادية، ذلك أن الصحراء في الشمال بقيت المنطقة الحرام على المستعمر الفرنسي الذي استطاع اختراقها بآلياته وتجهيزاته إلا أنها استعصت عليه من الناحية الثقافية فقد احتفظت بالخصائص والصفات الذاتية للأمة، وحالت دون ذوبانها فيما أريد لها وحمت البذور القادرة على الإنبات إذا ما توافرت لها الشروط المطلوبة.

ولعل من أبرز الأمور التي تميزت وتفردت بها الصحراء الموريتانية إلى حد بعيد أن البداوة فيها لم تكن مرادفة للجهل والأمية وعدم الفقه في دين الله، والجفوة التي تورثها خشونة العيش وقسوة الظروف، وإنما استطاع أهل البادية في موريتانيا تاريخياً أن يطوروا أساليب التعليم بما يتناسب مع حياتهم المتنقلة، فكانت المحاضر السيارة وكانت الذاكرة الحافظة هي المرجع العلمي. وكانت المشافهة هي الوسيلة المستمرة في الحل والترحال، ولم يقتصر ذلك على توطين العلم في البادية وتطويع أساليبه وأدائه حسب ظروفها، وإنما تجاوز الأمر هذا البعد لتأتي مساهمة شنقيط ـ أكبر حواضر البادية ـ وعلمائها في المكتبة الإسلامية والبناء العلمي الإسلامي على مستوى العالم، ومن منا لا يذكر هؤلاء العلماء ومساهماتهم في الفقه والنحو والأدب وبقية العلوم الأصلية؟.

[٢٠ شوال ١٤٠٩ هـ ـ ٢٥/٥/١٩٨٩ م].

في المسألة الموريتانية السنغالية
«٢»

لا بد من الاعتراف أننا نحن العرب بشكل خاص والمسلمين بشكل عام لا نزال ومنذ زمن بعيد نمنى بالهزائم والتراجعات ونعاني من السقوط الحضاري والارتكاس السياسي على الرغم من كل الفلسفات التضليلية والضلالية التي تعمي الرؤية وتجعل الباطل حقاً والحق باطلاً.

ولا تزال أطرافنا تنتقص وحقوقنا تضيع ونفتقد مواقعنا المادية والمعنوية الواحد تلو الآخر ابتداءً من فلسطين (قضية المسلمين الأولى) قلب العالم الإسلامي والحال التي صارت إليه في مسلسل التراجعات والهزائم البطولية وانتهاء بالإصابات كلها التي تلحق بالجسم الإسلامي في أطرافه جميعاً.

ولعل إصاباتنا في أفريقيا التي كان يطلق عليها في الماضي (القارة المسلمة) والتي يعاد تشكيلها الآن ويكثف فيها النشاط الصهيوني والكنسي من أبلغ الإصابات وأخطرها شأناً في المستقبل بعد قضية فلسطين.

فالكنيسة تحتل كل يوم موقعاً جديداً وتحاول تفهم العادات الإفريقية وتطويع النصرانية للتلاؤم معها وترسم اللاهوت الزنجي الأسود بعد أن ترافق رجل الدين النصراني مع المستعمر وعجز أن ينفك عنه فحمل وزره مما جعل سداً نفسياً بين الأفارقة وبين المنصرين البيض الأمر الذي استدعى التفكير باللاهوت الأسود وإبراز دوره في القضايا الوطنية والحركات التحررية.

وإسرائيل تمد أفريقيا بالخبرة الفنية على مختلف المستويات كما تمدها

بالسلاح والمال، أما نحن العرب والمسلمين فلا نزال نعالج قضايانا بالاجتماعات الفندقية والافتراقات التي لا طائل تحتها ونحل مشكلاتها بالخطب الحماسية ونحاول التستر على الأوضاع الرديئة لنوهم أنفسنا بالعافية الكاذبة حتى إذا ما وقعت الواقعة بدأنا مرحلة التلاوم.

ولا أدري هل تشكل مشكلة السنغال مع موريتانيا ناقوس الخطر القادم من أفريقيا بعد أن سلمناها للتنصير وإسرائيل، وبعد أن لم تنفعنا النذر في جنوبي السودان وجاء الترويض الدولي لعملية الاستسلام مع المتمردين وليس بعض الدعاة والقائمين على أمر المؤسسات الإسلامية بأحسن حالاً من الآخرين، وذلك أن محاولاتنا للدعوة الإسلامية في أفريقيا تتم بصورة بدائية وبعقلية محزنة ووسائل مؤلمة.

لم نفهم تاريخ البلاد ولا طبيعة سكانها ولا تركيبها الثقافي وروابطها الاجتماعية ولا عرفنا طبيعة الصراع، فأرسلنا بعض الدعاة وكأننا أرسلناهم لتكون مهمتهم التنفير من الدين وإخراج الناس منه فكفروا بعض المنتسبين إلى الإسلام بسبب مسالكهم الصوفية وساهموا سلبياً بتنصير الآخرين.

ولا نعتقد أن الحادث البسيط الذي فجر الأوضاع بين موريتانيا والسنغال يمكن أن يعتبر سبباً وإنما هو في الحقيقة شرارة التفجير لكثير من المقدمات والتحضيرات التي سبقته، الأمر الذي يستدعي قراءة كل ما وراءه من العوامل والتي لا شك أننا نحن العرب ساهمنا بقسط كبير فيها.

إن عدونا يستفيد من كل ظاهرة يحللها ويدرسها ويعرف كيف يتصرف إزاءها ويتعامل معها.

لقد أدركت الدول الاستعمارية وعلى رأسها فرنسا أهمية السنغال وجاء التركيز عليه من أنه يعتبر المدخل الطبيعي لأفريقيا الوسطى والغربية بحكم موقعه الجغرافي الفريد فهو همزة الوصل بين الساحل والداخل وبين أفريقيا الصحراوية وأفريقيا المدارية والاستوائية، فمن العاصمة داكار يمكن الاتصال بمدينتي «باماكو» و «تمبكتو» في جمهورية مالي، وقد سلكت هذا الطريق تاريخياً القوافل التي كانت تتنقل ما بين الجزائر والشمال الأفريقي أو أفريقيا العربية

وبين غربي أفريقيا ووسطها من ناحية أخرى وعن هذا الطريق دخل الإسلام إلى أفريقيا السوداء، وقد تنبه الاستعمار الفرنسي لهذا، وأصبح السنغال إبان فترة الاستعمار الفرنسي مركزاً للحاكم الفرنسي لسائر بلدان أفريقيا الوسطى والغربية الخاضعة للسيطرة الفرنسية وكانت مدينة «سانت لويس» الواقعة في أقصى الشمال الغربي للسنغال مقراً دائماً للحاكم العسكري الفرنسي وللسنغال جبهة بحرية طولها حوالي ستمائة كيلومتر تطل على المحيط الأطلسي، وهو أقرب أجزاء الساحل الأفريقي بسواحل القارة الأمريكية الجنوبية والوسطى، لذلك اكتسب أهمية استراتيجية خاصة فيما يتعلق بخطوط النقل والمواصلات البحرية والجوية عبر الأطلسي: لقد حاول الاستعمار الفرنسي - ومن قبله المنصرون - الإفادة من موقع السنغال وركز عليه - على الرغم من أن (٩٥٪) من سكانه مسلمون - في مواجهة المد الإسلامي في أفريقيا ومحاولة اعتباره الحاجز بين أفريقيا البيضاء أو العربية وأفريقيا الزنجية السوداء ولعل من المفيد أن نذكر أن الفيلق الذي استخدمته فرنسا لاستعمارها موريتانيا العربية المسلمة المجاورة خرج من السنغال لتكريس العنصرية وزرع بذور التفرقة بين الزنوج والعرب والمسلمين، وركزت معظم المؤسسات التنصيرية أعمالها في جنوبي موريتانيا ومنه بدأ التسلل التنصيري إلى الداخل كما أن الدعوة إلى الزنجية والتمييز اللوني جاءت من السنغال وكان أول من حمل لواءها «ليو بولد سنجور» أول رئيس للسنغال بعد الاستقلال الذي درس في فرنسا وتزوج بنصرانية فرنسية وعاد ليقود حملة تدعو إلى الزنوجة كنواة دائمة من القيم والمفاهيم الأفريقية، واعتبر رسالة المفكرين السود هي الحفاظ على القيم الأفريقية، وإيقاظ إخوانهم من سباتهم، وكانت الدعوة إلى الزنوجة من بعض الوجوه فلسفة استعمارية فرنسية نشأت وترعرت في باريس بدأت كرد فعل على التمييز اللوني والنظرة الدونية وانتهت على يد سنجور إلى اختيار اللغة والثقافة الفرنسية أو الانحياز إليهما. ونستطيع القول بأن الدعوة إلى الزنوجة التي لقيت تجاوباً في بادىء الأمر كرد فعل لمواجهة استعمار الرجل الأبيض الذي جند الأفارقة لاكتساب مزيد من المستعمرات وسرق جهدهم وأموالهم لبناء أوروبا عامة، هذه المرارة هي التي ولدت ردة الفعل وها هو الشاعر النيجيري «دنيس أوسابادي» يقول: (أنا لا أملك بندقية ولا أملك قنبلة

أنا لم أصلح للحرب، جلبت لي صليبك ثم قذفت بي.. لقد أصبح قلبي مليئاً بالمرارة، أخبرتني أن أغمض عيني وأصلي لكنك كنت تسرق أرضي).

ونستمع إلى الشاعر ليون داماس يقول:

(لن يكون الأبيض زنجياً فقط لأن الجمال أسود والحكمة سوداء والشجاعة سوداء لأن الصبر أسود والحديد أسود..).

لقد كان من أهم أهداف الدعوة إلى الزنوجة سلخ أفريقيا عن الإسلام، فهي تارة تدعو إلى الإسلام الأسود وتارة أخرى تدعو إلى العودة للأديان والعادات واللهجات الأفريقية واعتبار الإسلام ديناً طارئاً على أفريقيا وتسويته بالنصرانية التي حملت البلاء الاستعماري للقارة الأفريقية.. إلا أن هذه الدعوة كظاهرة لم تشكل توجهاً جماهيرياً وإنما كان دعاتها والذين يصغون إليها هم فئة المثقفين ثقافة فرنسية، واعتبرها كثير من الأفارقة مدخلاً لمن أراد الاندماج في الثقافة الفرنسية وعلى رأسهم (سنجور) في السنغال.

والأمر المؤسف حقاً هو عدم التنبه إلى هذه المخاطر في الوقت المناسب فبدأت تنمو وتتكرس واتخذت في جنوبي موريتانيا على ضفاف نهر السنغال مناخاً مناسباً. والحقيقة التي لا بد من الاعتراف بها أن المشكلة لم تنشأ من فراغ وأن النظرة الدونية التي وقع فيها بعض العرب والمسلمين بدوافع عصبية جاهلة هيأت النفوس بشيء من رد الفعل والحقد والثأر، وعلى الرغم من وجود مؤسسات إسلامية دعوية وثقافية واحدة مشتركة بين موريتانيا والسنغال إلا أنها لم تستطع مع الأسف صهر العصبيات الجاهلة والنزعات اللونية والتغلب عليها ومع ذلك كله تبقى المؤسسات والجمعيات الإسلامية ثقافية كانت أم خيرية هي المرشحة للقيام باسترداد معنى الأخوة الإسلامية المفقود وإلغاء الفوارق وما يمكن أن يكون من تمايز وتصويب ما يحتمل من أخطاء والتحذير من السقوط في الحفر التي صنعها الاستعمار والتي لا نزال نعاني منها في جنوبي السودان، وليست القضية في غربي أفريقيا ببعيدة عنها في أسبابها ونتائجها.

[٢٧ شوال ١٤٠٩ هـ - ١/٦/١٩٨٩ م].



حَتّى لا نَقَعَ في الشِّرْك

١٨٢٧/٨

لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

المشكلة أننا في العالم الإسلامي اليوم لا نطيق أن نعترف بالخطأ أو التقصير أو الهزيمة ونحاول دائماً أن نقفز من فوق الأمور دون دراستها وبحثها وتحليلها، ونحجم في معظم الأحيان عن مكاشفة أنفسنا بالحقائق، ولا نخضع قضايانا للدراسة والاختبار والاستنتاج، لذلك تتكرر أخطاؤنا وتتكرس هزائمنا ويستمر عجزنا، وهذا ليس من الإسلام في شيء حيث لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، لكننا نصر على أن نلدغ دائماً مرات ومرات وليس مرتين فقط، ونحاول الهروب من بحث مشكلاتنا لأننا نتوهم أن مواجهتها تزيدنا إرباكاً وتشويشاً، واختلافاً وتمزقاً وخلخلة في الصفوف وبلبلة في الأفكار حتى نستطيع أن نقول: بأن خصومنا باتوا أكثر استفادة من تجاربنا منا وكأننا أصبحنا وسيلة إيضاح وميدان اختبار، فخصومنا أعلم بنا منا، وقد لا يكون مستغرباً والحالة هذه أن ننشد عبرة تجاربنا وحلول مشاكلنا ودراستها في أوعية الآخرين، لكن هذا الأخذ يأتي دوماً بعد فوات الأوان حيث لا يفرج عنها إلا بعد عمر معين.

فإذا كان المطلوب إسلامياً أن لا نقتصر في الاعتبار والدراسة والتحليل على تجاربنا الخاصة، وإنما لا بد من السير في الأرض والنظر في عوامل السقوط والنهوض واستقراء التاريخ العام وقراءة الواقع، فكيف يكون حالنا وصدق إسلامنا إذا عجزنا عن إبصار تجربتنا، والاعتبار بأخطائنا والإفادة من ماضينا لمستقبلنا؟

لقد أصبحت مراكز المعلومات والدراسات هي التي تمتلك صناعة القرار ورسم السياسات ودراسة الاحتمالات واستشراف المستقبليات على ضوء الدراسة المتأنية لعقائد الأمم ودور هذه العقائد في صناعة تاريخها ونصيب هذه العقائد من حاضرها ومن ثم رسم المداخل الحقيقية للتعامل معها على ضوء هذا الفهم ولم تعد القرارات والسياسات خاضعة لنزوة فرد كما لم يبق هناك محل للأغبياء والفوضويين والغوغائيين في عالم الأذكياء والمبصرين إنهم أشبه بالقطيع الذي افتقد اختياره.

ولسوف نرى أنفسنا في ساحة التحكم الدولي، شئنا أم أبينا، وكثير منا اليوم يسير وفق المخطط المرسوم وإن توهم أنه يمتلك شيئاً من الإرادة والحرية.

ومن المعروف أن إسرائيل التي نزعم مواجهتها وعلى أكثر من مستوى تقوم بدراسات خطيرة النتائج على المستوى الفكري والثقافي والعسكري وترصد حركات المقاومة ودوافعها وعوامل التأثير عليها، ومواقع الجهاد ومدافعة المستعمر، تدرس التاريخ الإسلامي ليكون دليلها لكيفية التعامل مع المنطقة ولقد تخصص بعض قادتها بدراسة التاريخ الإسلامي ليدرس حركات المقاومة من الداخل، ويحدد العوامل الفاعلة في معاركنا الطويلة وقامت جامعاتها ومراكز البحوث وكلية الأركان فيها بدراسة الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي وسبب إخفاقها بتفاصيل مثيرة، كما درست حركات المقاومة للحروب الصليبية وأقامت ندوة لدراسة معركة حطين ودعت إليها دارسين وباحثين ومفكرين من مختلف أنحاء العالم لتستفيد من دراساتهم في رسم خططهم للتعامل مع المنطقة.

والاستخبارات العسكرية الإسرائيلية اليوم كما ذكرت بعض الصحف مؤخراً تبذل جهوداً هائلة للحصول على المعلومات من جهات عالمية متعددة حول السر العراقي في احتواء الموجات البشرية الإيرانية.

ووزارة الدفاع، أدخلت مادة الحرب العراقية الإيرانية في المناهج الخاصة بدورات الأركان ولا يتم هذا على المستوى الخارجي فقط، وإنما

أصبحت القناعة أن الدراسة والتحليل والاستنتاج هي سر البقاء واستمرار الحياة على المستوى الداخلي والخارجي معاً.

لقد درست إسرائيل أسباب التقصير في حرب ١٩٧٣ م وأصدرت في ذلك كتباً وشكلت لجنة أغرانات لتحديد مواطن القصور وأسباب التقصير وتحديد المسؤولية عن ذلك كله، وكانت نتائج حرب ١٩٧٣ م دليلاً لإعادة الترتيب على المستوى العسكري والسياسي.

وفي أعقاب هزيمة العرب عام ١٩٦٧ م تخوفت إسرائيل ومن وراءها من عودة روح الجهاد الإسلامي إلى الجسم العربي ولذلك مخاطره ونتائجه عليها ولم تخف تخوفها من ذلك.

وبدأت زرع مجموعة من الألغام في العالم الإسلامي للإرهاب والتخويف من عودة روح الجهاد الإسلامي فأشاعت مصطلحات الأصوليين والمتطرفين والمتعصبين والمتشددين. وأغرت بمطاردتهم ومصادرتهم لشل حركة اليقظة الإسلامية التي كانت ولا تزال هاجس إسرائيل الدائم التي يجب أن تقضي عليها لكنها اليوم أدركت أنها لا تستطيع القضاء عليها بالذراع الإسرائيلي فلا بد إذن من جعل بأسنا بيننا شديداً ولا بد من وسائل وأيد ومبررات جديدة للقضاء عليها، بحيث تكون المحصلة النهائية في مصلحتها.

فهل نكون جزءاً من عصرنا وتأخذ الدراسات والبحوث والتحليلات، مكانها من حياتنا السياسية والثقافية والعسكرية أم نبقى نعيش خارج الزمن لا نملك من أمرنا شيئاً ونراوح في مكاننا نكرر أخطاءنا ونجتر هزائمنا؟

والرسول ﷺ يقول:

«لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» متفق عليه.

[١٧ رجب ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/٢/٢٣ م].

الوثيقة الستالينية - اللينينية

بعد شهر تقريباً من انتصار الشيوعيين على القياصرة في روسيا عام ١٩١٧ م، وجَّه «جوزيف ستالين» و «فلاديمير لينين» بياناً إلى مسلمي روسيا بشكل خاص، ومسلمي الشرق الإسلامي بشكل عام، يدعونهم فيه إلى مناصرة «الثورة» الشيوعية وتأييدها ومساندتها بحجة أنها تقوم لأجلهم، ومن أجل حريتهم الدينية والمدنية التي أهدرها القياصرة، ثم كان ما كان.

وإذا كنا نحرص على إعادة نشر البيان الذي يمكن اعتباره من أهم وأخطر الوثائق التي تكشف حقيقة الوعود الشيوعية فما ذلك إلا لكي لا يتكرر الخداع للذين آمنوا... في أفغانستان... وفي غيرها من بلاد المسلمين... ولسنا بحاجة إلى أن نعلق على الوثيقة أو نذكر بما لقيه المسلمون في روسيا على يد «الثورة» والثوار من ذبح وقتل واضطهاد واستعمار ومنع من ممارسة شعائرهم وأداء عباداتهم...

يقول البيان - الوثيقة:

«يا مسلمي روسيا.. يا مسلمي الشرق.. أيها الرفاق.. أيها الإخوة:

إن أحداثاً عظيمة تحدث الآن في روسيا.. إن العهد الدموي (الحرب العالمية الأولى) الذي بدأ بسبب أطماع الاستعماريين والأمبرياليين في أرضكم، قد قارب النهاية.. وتحت ضربات الثورة الروسية فإن النظام الاستعبادي

الاستبدادي يتقوض بناؤه الآن. . وإن حكم الطغاة والمستبدين ومصاصي دماء الشعوب، يقترب من أيامه الأخيرة الآن. . وإن عالماً جديداً يولد الآن. . عالم العمال والأحرار. . وعلى رأس ثورة الفلاحين والعمال، يقوم مجلس الشعب الممثل (بالقوميسار الروسي).

إن عهد الرأسماليين والإمبرياليين يتداعى. . وإن الأرض تميد من تحت أرجلهم. . وتشتعل الثورة من تحت أقدامهم. .

وفي خضم هذه الأحداث العظام نلتفت إليكم يا مسلمي روسيا والشرق الذين استرقكم الاستعمار واستلب أموالكم وأراضيكم. .

يا مسلمي روسيا، ويا تتار الفولجا والقرم ويا أيها القرغيس وسكان سيبيريا والتركستان، يا سكان القوقاز الأبطال، وقبائل الشاشان وسكان الجبال الأشداء. . أنتم يا من هُدمت مساجدكم، وحُطمت معابدكم. . ومزّق القياصرة الطغاة قرآنكم وحاربوا دينكم وأبادوا ثقافتكم وعاداتكم ولغاتكم. .

ثوروا من أجل دينكم وقرآنكم وحريتكم في العبادة!! إننا هنا نعلن احترامنا لدينكم ومساجدكم، وإن عاداتكم وتقاليدكم حرة لا يمكن المساس بها. .

ابنوا حياتكم الحرة الكريمة المستقلة دون أي معوقات. . ولكم كل الحق في ذلك. . واعلموا أن جميع حقوقكم الدينية والمدنية مصونة بقوة الثورة ورجالها والعمال والفلاحين والجنود وممثليهم.

لهذا نطلب منكم تأييد الثورة ومساندتها لأنها تقوم من أجلكم ومن أجل حريتكم الدينية والمدنية!!

يا مسلمي الشرق، يا مسلمي إيران وتركيا وبلاد العرب والهند. . أنتم يا من تاجر مصاصو الدماء الأوروبيون المستعمرون بحياتكم وأوطانكم وحرياتكم لعدة قرون من الزمان. . أنتم يا من يتآمر عليكم هؤلاء اللصوص الذين يتقاسمون أرضكم ويشعلون نار الحرب لتكونوا أتونها ثم يستلبون بعد ذلك أرضكم وثرواتكم.

أما نحن فنعلن بأعلى صوتنا أن الاتفاقيات السرية التي أبرمت بين روسيا القيصرية وبين فرنسا وبريطانيا الاستعماريتين والتي بموجبها اقتسموا أراضيكم أيها المسلمون، واستلبوا ثرواتكم ونهبوا خيراتكم.. نعلن:

إنها باطلة..

ونعلن أن خطط القيصر المخلوع وحكومة «كيرنسكي» التي أزاحها الشعب للاستيلاء على القسطنطينية «عاصمة الخلافة الإسلامية» باطلة ولاغية.

إن حكومة جمهورية روسيا الثورية ومجلس الشعب الأعلى فيها، يعلنون أنهم ضد احتلال أراضي الغير بالقوة.. ونعلن أن القسطنطينية ينبغي أن تبقى بيد المسلمين.. كما نعلن أن الاتفاقية السرية بين بريطانيا وروسيا القيصرية لاقتسام إيران بينهما، لاغية وباطلة.. ونعلن أننا سنسحب قواتنا من إيران بمجرد انتهاء العمليات العسكرية.. ونضمن استقلال إيران الكامل، وإننا نعلن أيضاً: إننا ضد اقتسام تركيا واقتطاع أرمينيا منها، وأن هذه الاتفاقيات السرية باطلة ولاغية.. ليس من روسيا، أيها المسلمون ـ سيأتي استعبادكم بل من الدول الأوروبية الاستعمارية.. من هؤلاء اللصوص مصاصي الدماء الذين استعمروا أرضكم واستلبوا ثرواتكم.. وزجوا بأبنائكم في أتون حرب لا يأتيكم منها إلا الدماء، وفي مقابل ذلك كله يقتسمون ما بقي من أرضكم وثرواتكم وكأنكم وبلادكم غنائم الحرب المنتظرة..

ثوروا ضد هؤلاء الطغاة الكفرة الذين سرقوا ثروات بلادكم واستعبدوا أوطانكم.. نعم.. ثوروا الآن في هذا الوقت الذي تشتعل فيه الثورة وينهدم فيه بنيان الطغيان والاستبداد ويتقوض فيه نظام الاستعمار.

ثوروا فإن أي شرارة الآن ستكون حريقاً يلتهم بنيان الطغيان والاستبداد والاستعمار.. إن الهنود المسلمين الذين ذاقوا الذل والاستعباد لقرون طويلة يثورون الآن ضد بريطانيا العظمى.. ويرفضون أن يبقوا حول أعناقهم الأغلال التي غلتهم بها بريطانيا لعدة قرون من الزمان..

اليوم لا يمكن السكوت عن هذا الظلم وعلى هذا الاستعباد.. إنه

وقت الثورة ضد المستعمرين الإنجليز الغاصبين لأوطانكم، المحاربين لدينكم، المستبيحين لمقدساتكم، الناهبين لثرواتكم.

الآن، يا أيها الرفاق والإخوة، هو الوقت المناسب للثورة ولصنع مستقبلكم الحر الباسم بأيديكم.

تقدموا أيها المسلمون لتحرير أوطانكم وارفعوا أعلام ثورتكم فإن أعلامنا وبنودنا قد رفعت من أجل حرية المستعبدين والمظلومين.

يا مسلمي روسيا ويا مسلمي الشرق هلموا إلينا.. إلى طريق الحرية والعدالة لنبني هذا العالم من جديد على أسس الحق والخير والعدل..

التوقيع:

جوزيف ستالين

فلاديمير لينين

[١ رجب ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٢/١٨ م].

الوجه الآخر للخداع

نشر البيان الذي وجهه «لينين» و «ستالين» إلى المسلمين، والذي أثبتنا نصه كان القصد منه كشف الغطاء عن تجربة تاريخية وصورة عن واقع المسلمين ومخادعتهم في مرحلة معينة ومن ثم الحال الذي انتهوا إليه على يد من قدموا لهم الوعود والعهود، من تهجير وتشريد وتقتيل وهدم للمساجد وتحويل بعضها إلى متاحف وملاعب، وما فرض عليهم من حرمانهم من لغاتهم وكتبهم ومخطوطاتهم التي تحمل تراثهم وتضمن لهم أصولهم وجذورهم، وما انتهى إليه الأمر من استعمارهم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان.

وعلى الجانب الآخر، لم يكن موقف الآخرين الذين يحملون صورة العداء الظاهر للشيوعية، بأفضل حالاً لا سيما أن العداء والوفاق إنما تحكمه المصالح وليس المبادىء.. ولعل مصلحة الفريقين معاً تلتقي عند سياستهم المشتركة تجاه العالم الإسلامي.

فالاستعمار الغربي، لم يعد دوره خافياً أو مختلفاً فيه في تمزيق وتفسيخ البلاد الإسلامية وصناعة المشكلات لها سواء بالهند أو أندونيسيا أو القرن الأفريقي أو جنوبي السودان وارتيريا وأفغانستان ولعل قضية فلسطين تمثل الصورة العملية والحديثة لتواطؤ الشرق والغرب، ابتداءً من الاعتراف، وانتهاءً بإمدادها بالعنصر البشري المهاجر من البلاد الماركسية، والمال والسلاح

القـادم بسخاء من الغـرب لتمكين هـذا العنصر البشري من قتـل العـرب والمسلمين.

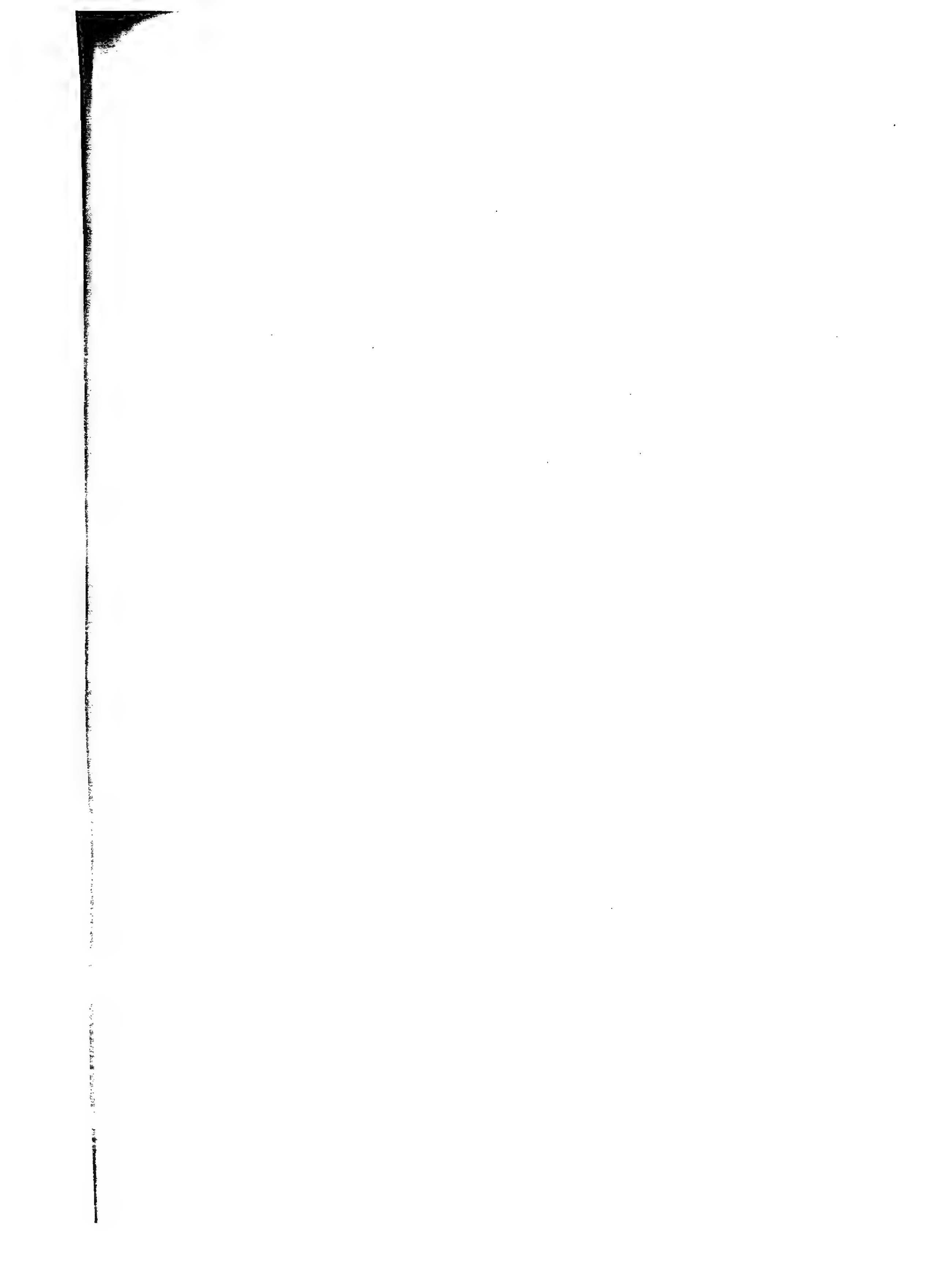
ومع اعتقادنا بأن الله سبحانه وتعالى لا يحكّم جباراً واحداً في الأرض، مصداقاً لقوله تعالى: **﴿ولولا دفـع الله الناس بعضهم ببعض لهـدمت صوامـع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً...﴾** (الحج: ٤٠). يبقى الأمل بالله كبيراً في أن يصل المسلمون إلى السوية التي يكونوا معها قادرين عـلى الاستفادة من سنن المدافعة هذه والقدرة على التعامل مع الصراعات الدولية والإقليمية في تحقيق أهدافهم.. هذا في الوقت الذي لا يجوز فيه أن تغيب عنهم حقائق عقائدية وتاريخية وواقعية تؤكد أن الكفر ملة واحدة، وما الصورة التي يجمع عليها «الكفرة» اليوم في أفغانستان لمحاصرة واغتيال وإنهاء الجهاد فيها والتحكم بثمراته إلا درساً جديداً يضاف إلى الدروس السابقة الكثيرة التي ما زلنا دون سوية الاعتبار بها.

والذي يخشاه المرء أن تكون دمـاء المسلمين هي أرخص الـدماء التي تستغل لتصفية الحسابات والخلافات الإقليمية والدولية في أكثر من موقع.. ولا نـدري إلى متى يبقى المسلمون عـاجزين عن الـرؤية الـدقيقة لـلأمـور والأحداث بأبعادها الإقليمية والدولية ومتى ينتقلون من الموقع الذي يكونون فيه أدوات لغيرهم إلى الموقع الذي يستطيعون فيه على الاستفادة لقضيتهم من خلال تناقضات الصراع الدولي؟

وقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت مضى القيام بمراجعة كاملة لـلأهداف التي أعلنت للجهـاد الأفغاني، ومـا تحقق منها والتنبـه إلى عمليـات الالتفـاف والاختراق المتعددة الأطراف التي تحيط اليوم بالقضية.. إن السوفيات يحاولون التغطية على آثار الهزيمة التي لحقت بهم، لكنهم في الـوقت نفسه يحـاولون جهدهم ألا تكون الهزيمة لمصلحة الإسلام والمسلمين ويلتقي معهم في ذلك أطراف إقليمية ودولية كانت تخدع المسلمين وتوهن من قضيتهم عندما كانت تعلن مناصرتهم.

[٨ رجب ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨/٢/٢٥ م].

رَصِيدُ الفِطْرَة



العقائد أبقى من الفلسفات

لفت نظري ما أوردته وكالة رويتر للأنباء من بكين: من أن أكثر من أربعة آلاف طالب مسلم، قاموا بمسيرة في شوارع بكين، وهم يرددون عبارات السخط والاحتجاج، على كتاب صيني يسيء إلى الإسلام..

وسلم الطلبة احتجاجاً إلى الرابطة الإسلامية الصينية، في المسجد الرئيس في بكين.

وردد الطلبة عبارة «الله أكبر» وهم يلوحون بلافتات باللغات الصينية والعربية ولغة المسلمين غرب الصين.

وتجمع حشد كبير من صينيين غير مسلمين، لمراقبة الطلبة المسلمين، الذين رددوا عبارات: احترموا حرية العقيدة.

ونقلت الوكالة صورة لفتيات مسلمات صينيات بلباسهن الشرعي وقد بدت علامات الاستنكار على وجوههن.

هذه المظاهر قامت بقلب العاصمة بكين بعد تلك السنوات العجاف الطويلة من القمع والاضطهاد والثورات العقائدية والثقافية التي حاولت عبثاً اقتلاع قناعات الناس وعقائدهم وإلزامهم بمبادىء وسياسات ونظريات لم تجد طريقها إلى عقولهم ونفوسهم رغم التهديد والتعذيب والوعد والوعيد.

وليست حال بلاد العالم الشيوعي الأخرى التي بدأت تتفجر فيها

القوميات والعقائد والانتماءات الوطنية بعد أكثر من سبعين سنة من محاولات إعادة تشكيل الإنسان بأحسن حال من الصين.

سبعون سنة تعني أن ثلاثة أجيال أو جيلين على الأقل تربت في ظل النظرية المفروضة، في النادي والمدرسة والمكتبة ومؤسسات الإعلام والتعليم ومؤسسات التثقيف الشعبي وعلى الرغم من جعل الإلحاد مادة دراسية جند لها مئات الآلاف من المفكرين والمدرسين والمنظرين في طول البلاد الشيوعية وعرضها.

ودخل الناس في حالة كمون وسكون حفاظاً على أرواحهم وأقواتهم ولكن بعد هذه السنوات الطويلة وبمجرد أن أتيحت لهم فرصة التعبير عن حقيقة ما في نفوسهم أعلنوا انتماءهم الحقيقي وانتصروا لقناعاتهم التي احتفظوا بها سبعين عاماً، الآباء يورثونها لأبنائهم والكبار لصغارهم وأسقطوا سبعين سنة أو يزيد من التاريخ السياسي الذي فرض عليهم، وحاول تشويه صورتهم وحقيقتهم.

واحتفلت روسيا بمرور ألف سنة على دخول الكنيسة إليها، وتبين أن السكان كانوا يمارسون طقوسهم وعقائدهم الدينية خفية، وثارت المظاهرات في أكثر من بلد تطالب بحرية العقيدة وديمقراطية السياسة ووطنية الانتماء، وأسقطت الأقنعة التي فرضت عليها حيناً من الدهر لكن لم يكن شيء منها مذكوراً.

ولا غرابة في ذلك إذ لا يمكن أن يحكم على الأمم من خلال فترة تاريخية معينة أو من خلال هزيمة لحقت بها لسبب أو لآخر، أو من خلال سنوات مرضها مهما طالت والأمم يلحق بها المرض كالأفراد. فالأفراد يمرضون عشرات السنوات.

والأمم قد تمرض سنوات وسنوات لكنها لا تلبث أن تستعيد عافيتها فالحملات الصليبية على العالم العربي والإسلام دامت أكثر من قرنين من الزمان ثمانية أجيال تقريباً تربت في ظل الصليبيين بصلبانها وثقافاتها وسياساتها وإغراءاتها لكنها بقيت فترة استثنائية تاريخياً لم تلبث أن انقضت وعادت الأمة

إلى عقيدتها وهويتها وانتمائها بعد أن ظن الكثير أنه قد تودع منها.

وهكذا نرى اليقين التاريخي يتكرر وتتأكد الحقيقة بأن العقائد أقوى من الفلسفات والمبادىء أقوى من السياسات والأمم والشعوب أقوى من الحكومات.

بعد خمسة وأربعين عاماً من الحكم الشيوعي في الصين يقف الطلبة المسلمون يعلنون انتماءهم ويدافعون عن دينهم ويتظاهرون ضد من يسيء إليهم ويطالبون بالديمقراطية.

فهل يشكل التاريخ عبرة لقادة الاستبداد السياسي فيستدركون أمرهم.

فالعاقل من اعتبر بغيره.

والأحمق هو الذي يكون عبرة لغيره.

[١٣ شوال ١٤٠٩ هـ - ١٨/٥/١٩٨٩ م].

العقائد هي المواقف

مهما يكن الإسلام عظيماً، ومهما تكن تعاليمه سامية، وأخلاقه فاضلة، لا يمكن أن يحقق الإيمان به والقناعة بمبادئه، ويثير الاقتداء لدى الآخرين ما لم يتمثل بصورة عملية حية تشكل أنموذجاً وقدوة.

أما إذا بقينا نوبخ أنفسنا، وتكذب أعمالنا أقوالنا، فتلك هي الكارثة التي تشوه صورة الإسلام وتقضي على قوة المسلمين، وتذهب بريحهم مهما حاولنا إقناع الناس بأن الإسلام شيء وواقع المسلمين شيء آخر.

ونستطيع أن نقول: بأن التاجر المسلم الملتزم بشريعة الله في معاملته المتمثل لأخلاق الإسلام في مسالكه وعلاقاته، كان هو الوسيلة الأقدر والأكثر نفعاً وتأثيراً في انتشار الإسلام وإقبال الشعوب عليه عن طواعية واختيار، ذلك أن معظم بلاد العالم الإسلامي لم يصلها الإسلام عن طريق الفتح الإسلامي وإنما عن طريق الخلق الإسلامي المتميز الذي حمله التاجر بسلوكه على الرغم من قلة بضاعته في العلم والفقه أحياناً.

وقد يكون من المفيد أن نعرض لحادثة ذات مغزى كبير في هذا المجال، ذلك أن صاحبها لا تعوزه القدرة على التفريق بين الإسلام كعقيدة متميزة وبين المسلمين كواقع متخلف وهو الذي كنا نتوقع له التأثر بالفكر والعقيدة قبل التأثر بالموقف والسلوك من خلال تاريخه الثقافي بل لعلنا نقول بأن الموقف الذي عاشه هو الذي قاده للتعرف على الفكر الإسلامي.. فالمواقف في نهاية

المطاف هي العقائد مهما حاولنا الالتفاف على الحقيقة لنبرىء أنفسنا من مسؤوليتنا.

يقول «جاوردي» وهو مفكر وفيلسوف فرنسي أسلم حديثاً:

اعتقلت عام ١٩٤٠م وبقيت رهن الاعتقال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية في معسكر بمنطقة حلفا بالصحراء الجزائرية.. وهناك وقع حادث عجيب فعلاً.. فقد تزعمت تمرداً في معسكر الاعتقال وأجرى الكوماندوز الفرنسي قائد المعسكر، محاكمة سريعة وأصدر حكماً بإعدامي رمياً بالرصاص، وأعطى أوامره بتنفيذ ذلك إلى الجنود الجزائريين المسلمين.. وكانت المفاجأة عندما رفض هؤلاء تنفيذ إطلاق النار، ولم أفهم السبب لأول وهلة لأني لا أعرف اللغة العربية، وبعد ذلك علمت من مساعد جزائري في الجيش الفرنسي كان يعمل في المعسكر أن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار على إنسان أعزل.. وكانت هذه أول مرة أتعرف فيها على الإسلام من خلال هذا الحادث الهام في حياتي الذي علمني أكثر من دراسة عشر سنوات في السوربون..

وعندما أطلق سراحي بقيت في الجزائر لمدة عام التقيت خلاله برجل عظيم كان له أكبر الأثر في نفسي.. إنه الشيخ البشير الإبراهيمي رئيس رابطة علماء المسلمين الجزائرية.

فهل يكون شهر رمضان فرصة نسترد من خلالها سلوكنا الإسلامي المفقود ونتحقق بالتقوى التي من أجلها شرع الصوم؟

[٥ رمضان ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨/٤/٢١].

﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ﴾

لسنا الآن بحاجة إلى التذكير بالمعاني الكبيرة، والانتصارات الكثيرة التي حققها الجهاد الأفغاني على مختلف الأصعدة لأن ذلك أصبح واضحاً ولا مجال فيه لمكابر مهما كانت نحلته، بعد أن أسقط المجاهدون ألوان الرهان كلها، ومجموعة الحلول بما فيها الحل العسكري، واستطاعوا إدماء أنف الجيش الأحمر، وانتزعوا اعترافه بالهزيمة السياسية والعسكرية.. وليس بعد اعتراف الاتحاد السوفييتي بالهزيمة، مجال لتفسير أو تبرير ويكفي دليلاً على ذلك، التفاوض مع قادة المجاهدين والجلوس إليهم.. وفي هذا ما فيه من الاعتراف بالهزيمة أولاً والاعتراف بشرعية المجاهدين واقعياً.

ولا شك أن روح الجهاد الإسلامي وما تقتضيه من الصبر والمصابرة والمجاهدة والتقوى كانت وراء هذا الانتصار العظيم الذي جدد أمل المسلمين في مواقع متعددة.. إنه انتصار العقيدة وما تمنحه من معاني الصمود والتضحية والقدرة على الانتصار على أكبر الجيوش من حيث العدد والعدة.. إن الزمن يكون باستمرار لصالح المسلمين إذا التزموا حدود الله وأعدوا ما استطاعوا من قوة.

والانتصار الجهادي الإسلامي على الجيش الأحمر الشيوعي سوف يكون له انعكاسات متعددة وإفرازات متنوعة، إسلامية وأفغانية وسوفييتية وعالمية.. وسوف يكون الجهاد الأفغاني مستقبلاً في مجال الأسوة والاقتداء.

ولكن أخشى ما نخشاه أن نكون ـ نحن المسلمين ـ قادرين على التضحية فقط، وعاجزين عن قطف الثمار خاصة وقد بدأت تلوح في الأفق اليوم محاولات ماكرة لتعميق الخلاف بين قادة الجهاد ليصل إلى مرحلة النزاع ويكون مدخلاً لأشكال من الحلول لا تتناسب مع دوافع الجهاد، ومقدماته وتضحياته الكثيرة.

والذي يدعونا إلى هذه الخشية ما نلمحه من ظهور بوادر النزاع وما نراه من التحرك التفاوضي مع بعض الشخصيات الأفغانية المستهلكة التي كانت ولا تزال بعيدة عن الساحة بل كانت سبباً ومقدمة للاحتلال السوفييتي.. لقد بدأ تحضيرها وتلميعها وإضفاء هالة من الإمكانية والوطنية واعتبارها الأنموذج المقبول للائتلاف في الوقت الذي يتم فيه تعميق النزاع بين فصائل الجهاد.

والذي يدعونا إلى التخوف أيضاً ما نستحضره من التاريخ القريب في أكثر من موقع على خارطة العمل الإسلامي حيث كان المسلمون هم وقود الثورات والانتصارات والتضحيات وتحقيق الاستقلال ثم أنهي دورهم أو انتهى ليأتي آخرون مجهزون لمرحلة ما بعد الاستعمار لا علاقة لهم بالموضوع ويختطفون الثمرات ويتنكرون للمبادىء والقيم التي خاض الشعب المسلم المواجهة من أجلها. وكأن دور المسلمين محدد ومرسوم مسبقاً ومقتصر على تقديم الضحايا فهل نحسن ـ نحن المسلمين ـ دائماً تقديم الضحايا والموت في سبيل الله فقط؟ ولا نزال عاجزين عن الحياة في سبيل الله؟

إن الاختلاف في وجهات النظر بين فصائل الجهاد، أمر طبيعي.. بل لعل الاختلاف في وجهات النظر إذا روعيت ضوابطه الشرعية وآدابه الخلقية يصبح ضرورة للتنوع والخصوبة والمزيد من العطاء فليس المطلوب ولا من طبيعة الخلق أن يكون الناس نسخة مكررة عن بعضهم ولكن للاختلاف آداب وأخلاق وللاتفاق قواسم مشتركة وقواعد منظمة لا يجوز أن تغيب عن أحد. ولولا هذه القواسم لما كان الاختلاف والائتلاف.

ويبقى الاختلاف لمصلحة القضية شيئاً والتنازع لمصلحة العدو شيئاً آخر.

ولا أعتقد أن أسباب الخلاف كلها ذاتية ذلك أن العدو يضغط على مواقع الخلاف ويفجرها لمصلحته.. وقد يظن بعضنا أنه يتحرك من ذات نفسه.

مرة أخرى نقول: قد يكون المطلوب أن نعرف كيف نحيا في سبيل الله بالقدر نفسه الذي نؤمن فيه بضرورة الاستشهاد في سبيله.

لقد أهدر النزاع كثيراً من الطاقات الإسلامية وأخرجها من المعركة.. وكان التنازع سبباً في سرقة جهود المسلمين في أكثر من موقع إلى درجة بدأ يفكر معها خصومنا أن يفسحوا لنا مجالات النفوذ لنقوم بمهمتهم في الإنهاك أو الإنهاء للقوة الإسلامية التي قد تصل إلى مرحلة التصفيات الجسدية ولا ندري إذا كانت المسلّمة التي تسيطر على العقول المسلمة بأنه علينا أن نعمل وليس علينا إدراك النتائج هي سبب الكثير من الإصابات.. ذلك أننا نعد العدة لفعل المقدمات ولا نفكر بالآفاق المستقبلية للنتائج وكيفية التعامل معها.. واكتشاف مواطن التقصير وجوانب الخلل.

فهل نعيد النظر في بعض المسلمات التي نظن أنها من الدين مع أنها محل نظر من الناحية الشرعية وهل نستمع إلى نداء الله: **﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾** (الأنفال: ٤٦) صدق الله العظيم.

وهل نكون قادرين على التحكم بنتائج الجهاد بشكل سليم حتى لا يسرق منا؟.. ولله الأمر من قبل ومن بعد..

[٢٧ جمادى الأولى ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩/١/٥ م].

نَمَاذج لِلاقتِدَاء



جائزة خدمة الإسلام

تكريم العلماء والأدباء والمبدعين في مختلف المجالات، وإحلالهم المكانة الأسمى في المجتمع، وإلقاء مزيد من الأضواء عليهم يحمل الكثير من المعاني التربوية، كما يساهم إلى حد بعيد برسم المسارات الثقافية للأمم، ذلك أن العلماء والأدباء والمفكرين هم الذين يشكلون قسمات الأمة، ويحددون ملامحها، ويساهمون بتغيير واقعها، والارتقاء بها، لأنهم في محل الأسوة والقدوة لأجيالها، وهم الرموز والنجوم المقامة في المواقع المتعددة ليحاكيها الناس، ويغترفوا من تجربتها، ويهتدوا بهديها، لتجاوز واقعهم، واختصار المسافة للوصول إلى أهدافهم. فهم مصابيح الاهتداء ومعالم الطريق.

من هنا نقول: إن تكريم الرواد، وإعطاءهم الجوائز هو في الحقيقة تكريم للقيم التي التزموا بها والمعاني التي أوصلوها إلى الآخرين، والحقائق التي اكتشفوها. وفي ذلك ما فيه من إثارة الاقتداء والارتقاء بالأمة وتحفيز الجيل، وشحذ فاعليته، ولفت نظره إلى الحقائق والأهداف التي يجب أن يرتبط بها، ويسعى باتجاهها. لذلك فإن أي اختلال أو خطأ، أو تجاوز أو تطفيف في موازين التكريم سوف يعني الكارثة الاجتماعية، والثقافية والتربوية على حد سواء، فكثيراً ما تتحكم نوازع الهوى ومسالك الانحراف والأهداف المشبوهة في أصحاب الجوائز، فيوحون إلى لجان التحكيم باختيارات معينة فتكون الجوائز وسيلة لرفع الشاذين والزائفين والمنحرفين والمروجين للعمالة الثقافية، وإن شئت فقل: الضالين، وتلميعهم، وإبرازهم في المجتمع لتكريس الزيغ،

والضلال والانحراف والضياع، وإغراء الأجيال وتشجيع الاتجاهات والانتماءات الخارجة عن مشروعية الأمة العليا وقيمها الأصلية ومع اعتقادنا بأن بعض الناس يشرفون بالجائزة وبعضهم الآخر يشرفونها إلا أن الجائزة مهما كانت سمعتها، والأضواء مهما كانت قوتها، تبقى عاجزة عن انتشال الساقطين والعاجزين وتحسين سمعة الضالين.

لذلك رأينا كثيراً من الفلاسفة والمفكرين، ترفعوا عنها، وتجاوزوها بأقدارهم. وقضية الجوائز والدوافع التي تتحكم بتشكيل لجان التحكيم والمعايير التي تعتمد في انتقاء الفائزين بالجائزة، في العالم بشكل عام، وعالمنا العربي بشكل خاص، قضية لا تخلو من المفارقات العجيبة، خاصة عندما يقزم العمالقة ويعملق الأقزام.

وسوف لا نعرض هنا للدوافع الحقيقية التي كانت وراء منح الجوائز لبعض الأشخاص دون سواهم ممن هم أكثر استحقاقاً وجدارة، وقد كفينا هذا الأمر وكتب عنه الكثير.

لكن الأمر الجدير بالتقدير والإعجاب حقاً، هو منح جائزة الملك فيصل الدولية في خدمة الإسلام للشيخ محمد الغزالي، أمد الله في عمره. وقد يكون للكتابة عن الشيخ الغزالي، كأحد شيوخ الدعوة الإسلامية ومعلم من معالمها مجال آخر قريب إن شاء الله.

لكن مبعث التقدير والإعجاب، لا لأن منح الجائزة للشيخ يزيده شيئاً، أو أن منعها يفقده قدراً. . وإنما لأن مواقف الشيخ الغزالي الجريئة مشهورة ومعروفة وهذا يدعو الكثيرين إلى التريث قبل إعطائه الجائزة حيث نذر نفسه لمحاربة الاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي، والغزو الثقافي، والاستعمار بكل أشكاله، ولم يسجل عليه موقف مداهنة لحاكم ظالم، أو تواطؤ على باطل، أو تملق لجمهور أو عمالة لجهة مشبوهة، مما يعتبر من مرجحات الفوز بالجوائز، ذلك أن الكثير من علمائنا اليوم قد يفلتون من قبضة الحكام الظلمة. . لكنهم يسقطون في أسر حب الزعامة الجماهيرية، أو الحزبية التي تحول بينهم وبين قولة الحق، وإنكار المنكر. . ونحن بذلك لا نريد أن ندعي

العصمة للشيخ من الخطأ، فلكل إنسان أخطاؤه.. وقد يكون فرحنا في اكتشاف الخطأ لا يقل عن فرحنا بالصواب حتى تلغى قداسة الأشخاص، ويوقف تطفيف الكيل في الميزان، وتبقى موازين العدل والحق هي القائمة لوزن أعمال الرجال وتقويمها، حيث لا يبخس الناس أشياءهم بسبب من تعصب لجنس، أو قوم، أو حزب، أو جماعة.

فتحية إعجاب وتقدير للمسؤولين عن جائزة الملك فيصل رحمه الله، الذين تجاوزوا الصور إلى الحقائق، وقدروا الرجل حق قدره، نيابة عن العاملين في الحقل الإسلامي الذين يحتل الشيخ جزءاً هاماً من مكوناتهم الثقافية.

وتحية لجامعة قطر التي كانت سبباً في الترشيح، ودعاء إلى الله أن يمد الشيخ بالصحة والثبات على الحق، والعطاء الدائم.

[١٢ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ - ١٩/١/١٩٨٩ م].

الدكتور عبدالله عزام
عالم مجاهد فقدناه

لما علمت بخبر استشهاد الأخ الدكتور عبدالله عزام، وولديه رحمهم الله، وأجزل ثوابهم في الآخرين، وقع في نفسي مباشرة، أن رحلة جهاده التي بدأت بفلسطين وانتهت باستشهاده في أفغانستان، جاءت مصداقاً لقوله تعالى: **﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً﴾** (الأحزاب: ٢٢ - ٢٤).

وأحسب، أنه كان صادق العهد مع الله - ولا نزكي على الله أحداً - وأن حياته وشهادته في سبيل الله، تمثل الأنموذج العملي، والرمز الذي كاد يصير غائباً في الواقع الإسلامي اليوم، والتربية بالقدوة التي تنكمش وتتضاءل باستمرار، حيث لا بد دائماً أن يتجسد الإسلام في حياة نماذج ورموز كبيرة، ويظهر في كل عصر أمثلة من الجماعة التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» وذلك لحماية الجيل المسلم الناشىء من الإحباط، والانكسار، والسقوط الحضاري برؤية نماذج للصورة الإسلامية المأمولة، ومشاهدة العطاء الإسلامي العملي المتجدد في كل عصر ومصر، وبعيداً عن عالم النظريات،

والفلسفات، والهزائم المتلاحقة ونحسب من هذه الرموز الشيخ «عبد الله عزام» رحمه الله.

فلقد ملأ عليه الجهاد كل نفسه، واستغرق كل نشاطه، وكان همه وهاجسه الدائم. جاهد باللسان خطيباً ومعلماً، ومحاضراً، وجاهد بالقلم كاتباً ومؤلفاً ينافح عن الإسلام، وجاهد بالسلاح مقاتلاً عن حياض الأمة المسلمة حيثما أتيحت فرصة الجهاد في فلسطين، أو في أفغانستان، أو في أية بقعة إسلامية ولم يكتف، وهو المدرس الجامعي، والدارس الشرعي بتقرير أحكام الجهاد على الطلبة في الجامعة، وتبليغها للناس في المسجد حيث يصبح الجهاد فرض عين على كل مسلم ومسلمة إذا احتلت أرض إسلامية، أو هددت بالاحتلال، استجابة لقوله تعالى: ﴿**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله**﴾ (التوبة: ٤١)، بل لا بد أن يخف لمواقع الجهاد، وهو الذي نشأ في فلسطين المحتلة، وانفتحت عيناه على جرائم العدو الصهيوني على الأرض والعرض وأول ما وعي جيش الاحتلال الإسرائيلي يقضم القرى العربية في فلسطين الواحدة تلو الأخرى، وكانت قريته إحدى هذه القرى، وأدرك أن القعود عن الجهاد، والتفريط في حدود الله، وأحكامه، هو الذي أورث المؤمنين الذل والهوان اللذين يعانون منهما على مختلف الأصعدة. فكان الجهاد ومواجهة اليهود، قدره المبكر وخياره المدروس. حيث تأكد له هذا الخيار أكثر فأكثر، وحسمه بشكل لا يقبل المناقشة والمساومة، بعد أن درس في كلية الشريعة بجامعة دمشق، وتابع دراسته العليا بالأزهر الشريف، ودرسه لطلابه، ولم يعد يطيق القعود عن تمثله في ميدان المعركة، لأن عقدة الذنب والإثم من القعود عن الجهاد كانت تطارده، خاصة بعد أن أبصر دربه تماماً، وعرف حكم الله فلم يعد جهاداً على غير بصيرة، وإنما الجهاد المقترن بالعلم.

والحقيقة التي لا بد من تسجيلها هنا، ولعلها من مآثر هذا العالم المجاهد والتي تعتبر بحق علامة مضيئة على درب الأجيال في هذا الزمن الصعب، حيث يمتد ظلام النفق الذي دخلته الأمة، وتضيع المعالم، ويمارس التضليل الثقافي والسياسي، تلك الحقيقة الحاضرة في الكتب، والدراسات، والندوات، والمؤتمرات، الغائبة في الواقع، ألا وهي: تجسيد مفهوم الأخوة

الإسلامية الشاملة والانطلاق من وحدة الأمة المسلمة، ووحدة الأرض المسلمة، ووحدة الحكم الشرعي، وعالمية الخطاب القرآني، فلقد قفز بهمته العالية من فوق السدود والحدود التي أقامها المستعمر بين أبناء الأمة الواحدة، ليفتت وحدتها، ويمزق شملها، وترك حراساً على تلك الحدود بعد رحيله يستميتون في الدفاع عنها، ويصطادون كل من يحاول نقبها، أو القفز من فوقها، باسم الوحدة والحرية والقومية والأمة الواحدة.

لقد استطاع «عبدالله عزام» رحمه الله، القفز من فوق هذه الحواجز جميعاً، وتجاوزها جميعاً، ليؤكد بشكل عملي، ويدفع روحه ثمناً لذلك، فالأمة المسلمة أمة واحدة، والأرض المسلمة أرض واحدة وأن الأخوة الإسلامية أخوة شاملة لا فرق فيها بين فلسطين، أو أفغانستان، أو كشمير أو أريتريا، أو غيرها فكلها جراحات تنزف في الجسم الإسلامي الواحد، وأن العدو هو في نهاية المطاف واحد أيضاً، وأن موجات العنصرية التي تجتاح العالم الإسلامي من صناعته.

وهذه الحقيقة عنده ليست بحاجة إلى تأكيد، وقد شهدها بنفسه على أرض مولده فلسطين التي تواطأ عليها العدو الخارجي على اختلاف مذاهبه السياسية، والاجتماعية، وعقائده الدينية، وسانده في ذلك عملاؤه في الداخل الإسلامي. لقد تواطأوا جميعاً على قضية فلسطين. وحقيقة أخرى في حياة «الشيخ» لا بد أن نعرض لها، والتي يعتبرها كثير من الناس ـ بسبب من العور العقلي ـ تنال من جهاده، إذ كيف يعقل ويجوز أن يغادر الشيخ المرابطة والجهاد حول الأقصى. وفي فلسطين العربية الإسلامية وينقل جهده وجهاده إلى بلاد الأفغان؟ ألم تكن فلسطين قضية المسلمين الأولى أحق بجهاده؟.

والأمر الذي لا بد من إيضاحه هنا أن هذا الكلام إن صح بالنسبة للناس جميعاً، فلا يصح بالنسبة له، ذلك أن جهاده في فلسطين وقيادته لكتائب الجهاد والفداء، شواهد إدانة لكل أولئك الذين آثروا السلامة، وحياة الدعة، والرفاه، عن ميدان المعركة، ومعاناة الخنادق أولئك الذين يصنعون بطولاتهم في الفراغ، ولا يقدمون شيئاً للقضية الفلسطينية إنهم يأكلون بها،

والتاريخ القريب والبعيد شاهد على ما قدمه «عبدالله عزام» وإخوانه على ربا فلسطين، إلى درجة اعتبرها الكثيرون أنها السبب الرئيس وراء إصاباتهم، ومطاردتهم، وحصارهم، والتنكيل بهم، على الرغم من أننا نعتبر ما قدم هو قليل في جنب الله، هذا في الوقت الذي كانَ فيه الّذين يتباكون على القضية الفلسطينية يجلسون في «صوفيا» تحت العلم الإسرائيلي، ويتعانقون مع يهود، ويمهدون لمشاريع الاستسلام.

لقد بدأ «الشيخ عبدالله» جهاده في فلسطين، وانتهى في أفغانستان. ولهذا من المعاني الكبيرة ما لا يتسع لها المجال الآن، لكن حسبنا أن نقول بأن التحول إلى أفغانستان لم يكن على حساب فلسطين.

أما الذين يتكلمون، فرأس مالهم الكلام لم يجاهدوا في فلسطين، ولا في غيرها من أرض الإسلام. وإن ننسى لا ننسى مواقفهم، وكلامهم، وكتاباتهم عن «جيفارا» و «هوشه منه» وكل الثورات خارج القضية العربية والإسلامية معاً ونحن لا نقبل، ولا نسوغ هذا النوع من المعارك الجدلية القائمة على وضع قضية أفغانستان مقابل قضية فلسطين، ونعتبرها معارك في غير عدو، ومحظورة شرعاً. فقضية فلسطين بالنسبة لنا قضية عقيدة ودين، لا نملك تجاهها «أي خيار» بل هي حياة ووجود ولا يجوز بحال من الأحوال أن يتحكم فينا رد الفعل من خلال بعض التصرفات والتصريحات التي تسيء للقضية، وتسيء للإسلام والمسلمين، فتحملنا تلك الممارسات أو التصريحات على مغادرتها إلى أي موقع آخر فكل المنغصات التي نشهدها، لا يجوز أن تعفينا من واجبنا الشرعي، ولا تغير من حكم الله شيئاً في الوقت نفسه، وأفغانستان أرض إسلامية، والدماء الشهيدة تصل بين الأرضين، وتعيد رسم خرائطها، والمحزن حقاً أن نشغل أنفسنا عن أعدائنا، بل لعل هذا الاشتغال من عمل أعدائنا.

وقضية أخرى من المفيد أن نذكر بها بمناسبة استشهاد «الشيخ» رحمه الله، كانت ولا تزال مطروحة في أكثر من موقع من المواقع الإسلامية، وهي إلى أي مدى ونحن نحسن تقديم التضحيات والضحايا، ونحسن الموت في سبيل الله، إلى أي مدى نستطيع توظيف هذه التضحيات، وتثميرها،

ووضعها في المكان المجدي لمصلحة الإسلام والمسلمين، وإلى أي مدى نحسن الحياة في سبيل الله كما نحسن الموت في سبيله، ونستطيع استشراف المستقبل، والتحكم بالنتائج؟ حتى لا تصفى الحسابات الإقليمية والدولية بالدماء المسلمة، ونبقى فقط نستعار لتقديم التضحيات ونبعد عن حصاد الثمرات.

وفي اعتقادنا أن القضية الأفغانية تدخل اليوم تلك المرحلة الصعبة التي ما تزال تسجل عجزاً واضحاً عند المسلمين، حيث تنقلب المواجهة لتكون، ليس مع روسيا فقط، وإنما مع كل الطامعين في قطاف الثمار، مع أصدقاء وحلفاء الأمس الذين لا يروق لهم الوصول الإسلامي إلى كابل، والذين يعتبرون أن الدور المطلوب انتهى، أو يجب أن ينتهي، لأن الوصول الإسلامي سوف يهدد المصالح الاستعمارية كلها، وقد نعين العدو على أنفسنا، وتكون من الإصابات البالغة الاختلاف في هذه المرحلة والأشد خطورة أن يصفى الخلاف الذي قد يكون طبيعياً إذا حل بالقنوات الشرعية - بالسلاح لصالح العدو المشترك، والتآكل الداخلي الذي يحضر له كل الأعداء على المستوى الإقليمي والدولي.

لقد بذل «الشيخ عبدالله» رحمه الله، جهده في رأب الصدوع، وتسوية الخلاف وتسديد مسيرة الجهاد. فقضى نحبه، وبلغ أمنيته في الشهادة.

وكل نفس ذائقة الموت، ويبقى المطلوب كيف نستجيب لقوله تعالى: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ (آل عمران: ١٠٢) بمعنى أننا لا نستطيع أن ندفع القدر، لكننا نستطيع أن نختار ساحة الموت التي نتمنى أن نموت فيها، وذلك بدخولها فوراً حتى لا يأتينا الموت إلا ونحن على استعداد، وأشرف ساحات الموت هي ساحات الجهاد الذي هو ذروة سنام الإسلام، ولله الأمر من قبل ومن بعد، وله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

[٢ جمادى الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/١١/٣٠ م]

الشيخ عبدالله كنون
الحسني رئيس رابطة علماء المغرب

يقول الرسول ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الصدور وإنما يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» متفق عليه. ولعل من أهم مصائب الأمم أن يقود مسيرتها العلمية الرؤوس الجاهلة ويفتيها في دينها من لا دراية لهم ولا فقه.

تلك الأزمة التي يحاصر فيها العلم ويشيع فيها الجهل وتنحسر الشخصيات الموسوعية يصبح فقد أمثال الشيخ كنون رحمه الله من المصاب الجلل الذي لا يقف عند حدود البلد الذي عاش فيه وإنما يتجاوزه ليصبح مصاب أمة وثلمة دين وخسارة علم. ولد الشيخ عبدالله كنون بمدينة فاس، مهد القرويين، والعاصمة العلمية، لبلاد المغرب العربي عام ١٣٢٦ هـ وظهر نبوغه بشكل مبكر في المجال العلمي والأدبي والسياسي، شارك في الحركة الوطنية شأن أبناء القرويين جميعاً التي كانت حصن العلم والجهاد وساهم في تأسيس الرابطة المغربية بالرباط في العشرينيات من هذا القرن التي كانت تعمل تحت اسم مستعار (أنصار الحقيقة) كان يسمي القضايا التي يعالجها (معارك) لذلك كان يخوضها بذاته كلها، من ميزاته رحمه الله الوعي الكامل بالأبعاد المختلفة للقضايا المطروحة والمرونة اللافتة للنظر في التحرك والمعالجة، الأمر الذي وفر له ديمومة الفعل وفتح أمامه طريق العمل في الظروف كلها سواء في فترة الاحتلال أو بعد الاستقلال. فظل منتمياً إلى مجتمعه منفتحاً على التيارات الفكرية والثقافية كلها، مسجلاً الحضور الفكري الدائم.

أصدر عدة مجلات عربية منها (لسان الدين) و (الإحياء) و (جريدة الميثاق)، وأثناء فترة الاحتلال الفرنسي والمحاصرة لم يتوقف وبدأ يكتب في الصحف التونسية مثل الزهراء والنهضة، والوزير التي كانت متخصصة بالنقد السياسي.

كما كتب في الصحف والمجلات المصرية مثل «الفتح» لمحب الدين الخطيب، والأهرام، والمقطم وغيرها كما كتب في صحيفة «الشهاب» التي أصدرها الشيخ عبدالحميد بن باديس رئيس جمعية علماء الجزائر وشارك في الكتابة بمجلة الرسالة الأدبية التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات.

وكان للشيخ كنون رحمه الله تواجد على الساحة العربية والإسلامية ويمكن اعتباره من أهم جسور التواصل العلمي والثقافي واللغوي بين المشرق العربي والمغرب العربي في الوقت الذي كان الاستعمار حريصاً على تقطيع أوصال الأمة المسلمة وإثارة العصبيات والإقليميات والنزعات العرقية. فقد كان عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد والأردن وعضو مجمع البحوث الإسلامية. وعضو رابطة العالم الإسلامي ورئيس رابطة علماء المغرب.

له أكثر من خمسين كتاباً في الدراسات الإسلامية والتاريخية والأدبية ولعل الوقوف على بعض أسماء مؤلفاته يعطي بعض الملامح عن اهتمام هذه الشخصية الموسوعية من مؤلفاته:

- التعاشيب - واحة الفكر - عصف وريحان - خل وبقل - مفاهيم إسلامية - أزهار برية - أحاديث عن الأدب المغربي - على درب الإسلام.

— ومن دواوينه (لوحات شعرية) وله قصة (حارث الكنيسة).

وهو باحث لا يشق له غبار في مجال الأندلسيات، منحته جامعة مدريد الدكتوراه له كتاب نفيس في أدب الفقهاء أبان فيه سمو الفكر ورقة التعبير عند الفقهاء ودفع عنهم التهم التي وجهت إليهم. كتب في الحرية والمرأة والاقتصاد ونظام الحكم في المغرب ودافع عن القرويين واللغة العربية. أحس بشكل مبكر بخطورة مناهج التعليم التي فرضتها الإدارة الفرنسية على

عقل الجيل وطمس الهوية العربية الإسلامية للمغرب وتعجيم لسان أبنائه فقرر إنشاء مدارس أهلية في فاس والدار البيضاء والرباط بمجهودات فردية استطاعت أن تحتفظ بعروبة وإسلام المغرب في مواجهة الغزو الفكري الفرنسي.

كان يرى أن اللغة وعاء الفكر والأداة المعبرة عن سسيولوجية الشعب الناطق بها لذلك لا بد أن تترك أثرها في نفس المتعلم وتطبع سلوكه. يعتبر أن أهم ما ألف كتاب النبوغ المغربي في الأدب العربي الذي صدر عام ١٩٣٧ م بعد أن أثاره ما صدر عن تاريخ الأدب في المشرق دون ذكر لإسهام أهل المغرب في الأدب العربي.

يقول: كنا نتوقع أن تتوقف الحرب على القرويين بعد الاستقلال وأن يعاد النظر في وضعها ومواصلة رسالتها لكن فوجئنا بعد الاستقلال بمشاهدة العناصر نفسها التي كانت تكيد للقرويين قبل الاستقلال عادت لتواصل كيدها. فكان مؤتمر الرباط الذي جمع أكثر من أربعمائة من علماء المغرب الذين يمثلون الأقاليم المغربية كافة الذي وقف بصلابة وجرأة لاستعادة القرويين لدورها.

ومحاربة القرويين التي حمت الإسلام والعربية في المغرب وأفريقيا ليس أمراً مستغرباً ذلك أن الفرنسيين كانوا يسمونها «البيت المظلم» لأن الانطلاقات الجهادية الكبرى كانت تخرج منها حيث التزود بالعلم والجهاد وتولى حربها بعدهم من تربوا على عينهم كما هو الحال في كثير من بلاد العالم الإسلامي.

ومواقف الشيخ ومعاركه لم تقتصر على المغرب بل كانت هموم العالم الإسلامي تأخذ بمجامع قلبه وميدان قلمه وتحكم صلاته وعلاقاته. كان يطالب بإسلامية القضية الفلسطينية مستوحياً التاريخ ومستهدياً العقيدة يقول: ترى ماذا كان يضر لو تصدى العرب وحدهم لمقاومة الصليبيين وقد جاؤوا من كل حدب وصوب بأعداد وعدد لا تحصى وأطبقوا على فلسطين وأهلها بوحشية ضارية لا تشبهها إلا وحشية الصهيونيين الآن؟ ويجيب: إذن لكانت فلسطين ضاعت من المسلمين إلى الأبد. وربما لم يقتصر الأمر على فلسطين بل

تعدى لما جاورها كما ينوي الإسرائيليون أن يفعلوا إذا تمكنوا من تنفيذ مخططهم في تأسيس إسرائيل الكبرى.

لقد كان رحمه الله شخصية مأنوسة؛ يصدق فيه قول الرسول ﷺ: «المؤمن يألف ويؤلف» وما أزال أذكر زيارتي له في بيته في مدينة طنجة عام ١٤٠٣ هـ، عندما حاولت التعرف والوصول إلى البيت أدركت أنه معلمة من معالم المدينة يعرفه الصغير والكبير والغني والفقير لأنه موئل الجميع، أحسست أني أمام رجل يمتاز بفطرية الذكاء، ورقة الطباع، وكرامة الخلق، وصفاء الضمير، والبساطة كل البساطة في متاع الدنيا. كانت عظمة الرجل في تواضعه ومهابته في صفاء نفسه وشجاعته في صدق يقينه. وعلى الرغم من تلك السماحة والرقة والمرونة كان فارساً مقاتلاً في سبيل الحق وحسبنا أن نعلم أن قضاياه كان يسميها «معارك» كما أسلفنا لم يهادن الاستعمار الفرنسي ولا الاستبداد السياسي ولا الغزو الثقافي. كان ابناً للقرويين بكل ما في الكلمة من معنى أسند إليه منصب محافظ طنجة بعد الاستقلال مكافأة لوطنيته فآثر الموقع العلمي على المناصب كلها.

خرجت من مقابلته وقد ملأ نفسي بحقيقة: أن التواضع ثمرة العلم والإيمان وأن الكبر والصلف والتعالي من موروثات الجهل والضلال. ولما سألته عن أهم عوامل نجاح العاملين للإسلام قال قبل أن أغادره: أهم شيء يجب أن يتنبه إليه العاملون في حقل الدعوة الإسلامية: جمع الشمل، وعدم الاشتغال بالقضايا الجزئية وتجنب الصدام فمسيرة الدعوة تتطلب الوحدة وترفض الفرقة وتتطلب التسامح وترفض الغلو والتشدد، ولا بد من الحذر والحيطة من أعداء الإسلام وإن تأثير العاملين للإسلام لا يتحقق ما لم يكونوا قدوة حسنة فرحم الله الشيخ عبدالله كنون وعوض الأمة خيراً ولا نقول إلا ما يرضي ربنا. إنا لله وإنا إليه راجعون.

[١٦ محرم ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩/٨/١٧].

الدكتور يوسف حامد العالم
إلى رحمة الله

أعترف ابتداء بأن الكثيرين ممن زاملوا وصاحبوا الدكتور يوسف رحمه الله، هم أحق بالكتابة مني. لأنهم يعرفون جوانب من شخصيته وخصائصه، تستحق الإبراز وإلقاء الأضواء الكاشفة لتكون أنموذجاً ومثالاً يحتذى للجيل القادم، وإن كنت أعتقد أيضاً أن شخصيته كذلك تتسم بالبساطة والوضوح وعدم التعقيد لدرجة تجعل من الانطباعات الأولى حقائق ليس من السهل تغييرها أو تجاوزها، وأن جليسه قد يتوهم أن هذه البساطة التي أصبحت اليوم غريبة عن العلماء والمثقفين بشكل عام في عالمنا، إنما هي ثمرة للسذاجة وقلة البضاعة في العلم، لكنه لا يلبث أن يدرك أن هذه البساطة تخفي وراءها علماً عميقاً ونظراً دقيقاً وبديهة حاضرة، وتواضعاً جماً يذكر بسيرة السلف الصالح.

والحقيقة التي لا بد من تسجيلها بهذه المناسبة، والتي يمكن أن تشكل سمة عامة للأخوة المثقفين في السودان الشقيق، وإن تفاوتت من إنسان إلى آخر هي عدم تميز النخبة المثقفة عن جماهير الأمة بشكل عام، وعدم الانفصال الاجتماعي عن روح الشعب ومعاناته وهمومه العامة، في الوقت الذي نرى فيه هذا الانفصال الرهيب بين المثقفين والجماهير في أغلب أنحاء العالم الإسلامي وقد يتجاوز الأمر الانفصال إلى ضرب من الترفع والتعالي الذي يحرم الجماهير من عطاء المثقفين، ويحرم المثقفين من ميدان عملهم الحقيقي.. والأخطر من هذا أن هذه الإصابة لحقت بعض العاملين في حقل

الدراسات الإسلامية. وقد يكون هـذا راجعاً إلى طبيعـة الثقافـة والمناهـج التربويـة، والغزو الفكـري الذي خلفـه المستعمر في بـلاد المسلمين، حيث يتشرب المثقف من حيث يدري أو لا يدري النظرة الدونية إلى جماهـير أمته وأهله، ومعتقداتهم وواقعهم الاجتماعي ليبقى كثير من المثقفين شريحة ملحقة بالمستعمر، وتبقى الأمة على جهلها وتخلفها، وعدم كسبها من مثقفيها الذين يشكل بعضهم جيباً أجنبياً على أرضها.

لذلك فظاهرة الجسور المقطوعة بين المثقف والجماهير في معـظم أنحاء العـالم الإسلامي، يبـدو أن الأخوة في السـودان قد تغلبـوا عليهـا بـأقـدار متفاوتة.. ولعل حياة الدكتور يوسف رحمه الله تعالى كانت من أبرز النماذج في هذا الميدان، ذلك أن هاجسه الدائم كان قضايا أمته الإسلامية ومعاناة شعبه السوداني.

لقد تلقى رحمه الله عـدة عروض للخـروج من السودان والعمـل في جامعات غنية في العالم الإسلامي، فأصر عـلى أن يبقى في ساحـة المعانـاة نفسها، وألا ينفصل عن مجتمعه، على الرغم من الفلسفات الكثيرة التي تروج للخروج وما يترتب عليه من مردود مادي يسـاهم إلى حد كبـير في انتشال بعض جوانب الحياة المتعبة في السودان. وكان إذا خرج رحمه الله، إنما يخرج لمهمة محدودة يحمل فيها هموم الفقراء والمرضى والأميين على كتفيه حتى يعود بشيء مما يسره الله.

لقد أدرك أن الخطب والمواعظ لا تجدي كثيراً إذا لم تقترن بـالحركـة والفعـل، فكان إلى جـانب عمله الأكاديمي كعميـد لكلية القـرآن الكريم، متحركاً في أكثر من موقع من مواقع التكافل الاجتماعي حيث قدم الكثير في إطار منظمة الدعوة الإسلامية، وأقام المؤسسات الكثيرة، والخلاوي القرآنية وبذل جهداً مقدوراً ليؤمن لها الموارد الثابتة، ويضمن استمرارها لأنه أدرك أن إصابات الأمة من مؤسسات التنصير كانت أكبر بكثير من الفوائد المادية التي حصلت عليها، وأن التنصير إنما تسلل إلى السودان، وأفريقيا بشكل عام من خلال الفراغ القائم والثغور المفتوحة في الجسم الإسلامي. وأن لقمة الغذاء ووجبة الدواء كانت مرهونة بالاستلاب الحضاري والثقافي.

لـذلك كـان يرى أنـه لا بد من النـزول إلى السـاحـة، والاستنفـار للمواجهة، فالمواعظ والخطب لا تشبع البطون الجائعة، ولا تشفي الأمراض السارية.. ولم ينسحب رحمه الله من الساحة إلا للقاء ربه.

لقد أدرك رحمه الله أهمية وصل جماهير الأمة ومثقفيها بالقرآن الكريم، فركز جهوده على إقامة خلاوي القرآن.. وكان وراء إقامـة دورات قرآنيـة منتظمة في كلية القرآن الكريم، تتلمذ فيهـا الكثير من الضبـاط والموظفـين والعاملين في القطاعات المختلفة. ومن الجدير بالذكر أن المشير عبدالرحمن سوار الذهب أحد تلاميذ هذه الدورات.

لقد جعل رحمه الله من القرآن مائدة عامة يقدم عليها الناس جميعاً لما أدرك من دور القرآن في صمود الأمـة ونهوضها.. وكـان وراء إنشاء كليـة القرآن الكريم بأم درمان بكل مستلزماتها على نفقة أهل الخير من المسلمين داخل وخارج السودان، حتى قامت وأصبحت تؤدي دورها كأنموذج للجامعة المرتبطة بالمجتمع.

ولا أزال أذكر رحلته الأخيرة لدولة قطر من أشهر قليلة على الرغم مما يعاني من المرض العضال الذي كان يحول بينه وبين تناول الطعام رغم إلحاح إخوانه عليـه، حيث كان يشـاركهم والبسمة تعلو وجهـه دون أن يشعرهم بأزمته.. المهم في نظره أن ينجز مهمته ويحمل إلى المساكين والفقراء في أفريقيا عامة ما يجعلهم يعتصمون ويستعصون على مؤسسات التنصير، ولو كان ذلك على حساب صحته وراحته.

رحم الله الأخ يوسف العالم الذي كان آخر ما فـارقنا منـه ابتسامتـه الدائمة.. لقد مات مبتسماً.. وكانت شخصيته راضية مرضية، يصدق فيها قول الرسول ﷺ: «المسلم يألف ويؤلف».

إن موت العالم يشكـل شرخاً كبيـراً في حياة الأمـة ليس من السـهل تعويضه، والرسول ﷺ يقـول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعـاً ينزعـه من الناس، وإنما يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ النـاس رؤوساً جهالاً، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا» متفق عليه.

ونسأل الله حسن المثوبة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

[٤ صفر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨/٩/١٥ م].

عبدالله إبراهيم الأنصاري
رحمه الله شيخ جليل فقدناه

يقول تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزي الشاكرين﴾ (آل عمران: ١٤٥).

ويقول الرسول ﷺ: «أشد الناس بلاءً: الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل». فلله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

كلما مات عالم عامل، أو داعية مجاهد، قفز إلى ذاكرتي قول الرسول ﷺ: «خير القرون قرني ثم الذين يلونهم...» لأني أحس عند فقد العالم، بتناقص نوعية الخيرية، وإن لم أحس بانتقاص مساحتها.. وإذا مات العالم، فقد ثلمت في الإسلام ثلمة.

فكثيرون هم العلماء والدعاة في العالم الإسلامي الذين لم ندرك موقعهم وبعدهم الحقيقي إلا بعد فقدهم، وهذا من البلاء الذي ابتلينا به؛ لا نتعرف إلى الفضائل والنعم إلا بفقدها، وبذلك لا نحسن الإفادة منها، وحسن استثمارها حال وجودها.. ولعل مرد ذلك أننا نتطلب من الذين في مقاعد العلم والدعوة، المثالية وعدم الخطأ، ونجري لهم المقايسة بالصورة المثالية المحفوظة في أذهاننا.. لكن، بعد فقدهم، ورؤية الحال الذي نصير إليه،

والنماذج الرديفة بعدهم، نشعر حقيقة بفقدهم الكبير، والفراغ الذي يتركونه في المجتمع.

ولا شك أن الشيخ عبدالله إبراهيم الأنصاري رحمه الله، من ذلك الرعيل الذين تملؤهم الغيرة على الإسلام وقضاياه، والحرقة الصادقة على واقع المسلمين ومآسيهم في أكثر من موقع.. ولعل من أبرز ما كان يتميز به ـ رحمه الله ـ تلك الحماسة الفياضة، والعاطفة المتأججة، والاستجابة السريعة للقضايا الإسلامية.

لقد كان ـ رحمه الله ـ يخف بحماسته المعروفة لمساعدة القاصي والداني، ولممارسة عمليات الإسعاف والإنقاذ والإغاثة..

وقد لا يفكر بوسائل الإنقاذ إلا وهو في الطريق إليه.. لقد كانت غيرته الدينية، وحماسته لقضايا المسلمين هي المحرك والدافع، حتى في الأوقات التي تقعد به همته، أو صحته، أو ظروفه، فقد كان، رغم سنه وشيخوخته، يسجل حضوراً في أكثر المناسبات، ويسافر إلى المواقع كلها.. ولا تزال آثاره في جنوب شرقي آسيا، في كوريا، وسنغافورة واليابان وغيرها، ومواقع القيادة والجهاد والإغاثة للمجاهدين الأفغان، شواهد صدق على جهده وجهاده.

وليس أمر المساهمة في المجال الإفريقي حيث التنصير يجتاح القارة، بأقل شأناً، فقد كان له حضوره الدائم في المواقع المختلفة، في المركز الإسلامي الإفريقي، ومنظمة الدعوة، والوكالة الإفريقية للإغاثة، وغير ذلك.

أما قضايا المسلمين العالمية، وجمعياتهم وهيئاتهم ومؤسساتهم الخيرية، والتحرك لتقديم وإيصال المساعدات من أهل الخير والبر والإحسان، فكان شغله الشاغل، وهمه الدائم..

لقد كان لا يمل الذهاب إلى كبار المسؤولين وأهل الخير يحثهم على البذل، ويغريهم بالثواب.. فكثيرة هي الأعمال التي تعهد بها، ثم بدأ يفتش على من يغطي نفقاتها، هذا على المستوى الإسلامي والعالمي.

أما على المستوى المحلي، فحسبنا شواهد لا يكاد يخلو منها بيت في قطر، من دارس وحافظ للقرآن بفضل جهود الشيخ رحمه الله ومتابعاته فما

من طفل يقرأ القرآن، بعد أن تعلمه في حلقات تحفيظ القرآن بالمساجد، إلا كان ذلك في حسنات من كان السبب، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول:

«من دل على خير كان له مثل أجر فاعله»، ولعل ذلك من الصدقات الجارية... وأي خير، وأية صدقة جارية، أفضل من قراءة القرآن وتدبره وحفظه، والتخلق بأخلاقه، وأي بيت من بيوت قطر لا يوجد فيه أطفال يحفظون أجزاء من القرآن؟.

يضاف إلى ذلك ما قدمه الشيخ من جهد في مجال نشر الكتاب الإسلامي، التراثي والحديث. ولم يقتصر في ذلك على المستوى المحلي فقط، فحيثما ذهبت إلى المراكز والمؤسسات والجمعيات الإسلامية في كل مكان فإنك واجد أثراً للشيخ الأنصاري رحمه الله، من كتاب أو مساعدة مالية، بل لقد وصل الكتاب الإسلامي بفضل الشيخ إلى جميع مكتبات العالم الإسلامي، وتجاوزها إلى أوروبا وأمريكا، وبإمكاننا القول بأنه رحمه الله كان لا يرد طالباً، مهما كان طلبه، يسعى جهده في تفريج كربته، وقضاء حاجته، وتيسير أمره، حتى كان أشبه بالواحة التي يفيء إليها أصحاب الحاجات من الفقراء والمساكين وفاعلي الخير.

وكانت بسمته العريضة، وحسن وفادته، وكريم ضيافته وحبه لعمل الخير وأهله، من أهم ما امتاز به رحمه الله، حتى إذا ما ذكرت قطر في مجال الخير اقترن اسمها بالشيخ عبدالله الأنصاري.

والكتب التي نشرها الشيخ رحمه الله، تكاد تشكل الحيز الأهم في مكتبات منازلنا، ومراكزنا الإسلامية ومدارسنا، وجامعاتنا.

والرسول ﷺ يقول: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»، وأحسب، ولا أزكي على الله أحداً أن الشيخ رحمه الله قدم من الصدقة الجارية الكثير، وأفنى حياته في تسهيل وخدمة العلم الشرعي، وأي انتفاع أفضل من الانتفاع بالعلوم الشرعية التي سهل دخولها لكل بيت، والله نسأل أن يسير أولاده على أثره في

الخير والصلاح، فيستمر ثوابه بالصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح جميعاً.

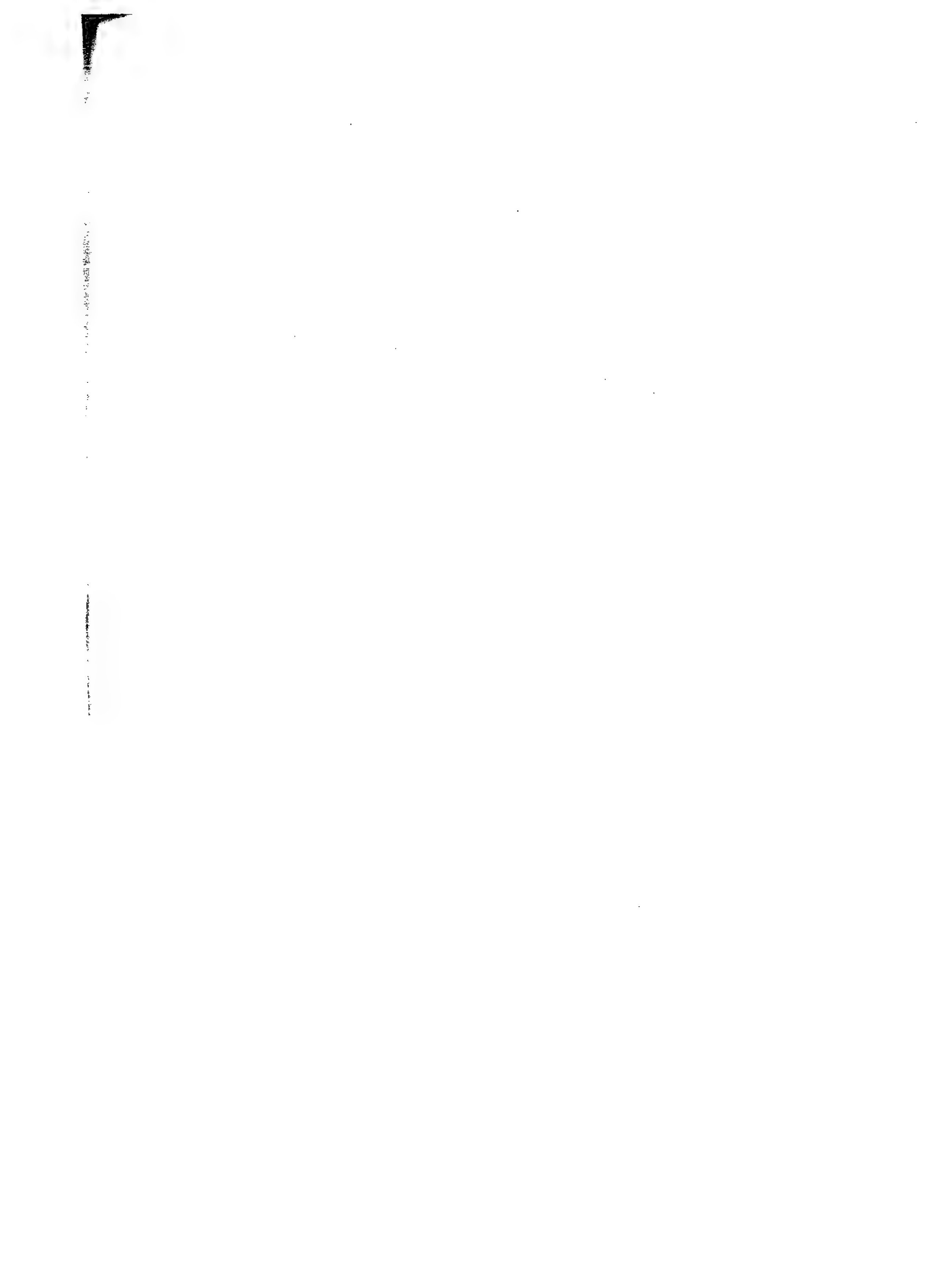
صحيح أني لم أكن قريباً من الشيخ رحمه الله بالقدر الذي يتيح لي المعرفة القريبة والكاملة لكن عطاءه في مجال خدمة الكتاب الإسلامي وتحفيظ القرآن لم يقتصر على معارفه والقريبين منه بل تجاوز كل الحواجز والظروف، ودخل كل المكتبات والبيوت.

ولا يبخس الشيخ حقه أن بعضاً ممن كانوا حوله لم يقوموا به حق القيام، إلا أن هذا لا يجوز أن يغمط للشيخ حقه، ولا يجوز أن يبخسه عطاءه للإسلام والمسلمين.

فرحم الله الشيخ عبدالله الأنصاري وعوض المسلمين خيراً، وألهم أبناءه وأحباءه السير على دربه، ومتابعة رسالته، ليكونوا ذخراً له وصدقة جارية بعد موته.

﴿وإنا لله وإنا اليه راجعون﴾.

[٢٠ ربيع الأول ١٤١٠ هـ - ١٩/١٠/١٩٨٩ م].



فهرس الموضوعات

١٨٧١/٨

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٨/ ١٨٧٣

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

٨/ ١٨٧٥



الأعمال الفكرية الكاملة

تتمحور حول:

-التأكيد أن عقيدة التوحيد هي ميثاق التحرير والخلاص؛ وأن الغاية الأساس للنبوة الخاتمة إلحاق الرحمة بالعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وتبيين الآثار المدمرة لتحالف الاستبداد السياسي والكهانة الدينية (الجبت والطاغوت).

- التأسيس لمنهج التقويم والمراجعة وبناء العقل الناقد؛ وتحديد مواطن الخلل، وكشف أسبابه، واقتراح سبل علاجه.

-التدريب على التفكير الاستراتيجي وبناء الرؤية المستقبلية، والإفادة من التراث لبناء الحاضر ورؤية المستقبل؛ والتشجيع على الاجتهاد وإعمال العقل، في ضوء هدايات الوحي وضوابط الشرع.

-إحياء المنهج السنني، وبيان أهمية السير في الأرض، والتوغل في تاريخ الأمم، والتبصر في العواقب والمآلات لتحقيق العبرة.

-المساهمة في بناء «الطائفة القائمة على الحق»، الأنموذج التطبيقي لقيم الدين في واقع الناس، ودليل خلود الإسلام.

- المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، ومعالجة أسباب الغلو والتشدد، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية، والتمييز بين قيم الدين المعصومة وصور التدين.

-اعتبار التشكيل الثقافي ومعاودة النظر في مواصفات الخطاب الإسلامي السبيل الأجدى للتغيير.

-التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، ووسائل تفعيلها.

-إحياء فكرة الفروض الكفائية، واستكمال الاختصاصات الغائبة، وإعادة بناء مفهوم «أهل الحل والعقد».

-بيان الدور الحضاري للأمة، ورسم معالم رسالة المسلم في حقبة العولمة، وتوسيع دائرة التفاهم، وتحويل الاختلاف إلى تنوع وتكامل.

-تحرير القول في إشكالية «الحاكمية»، وبيان أبعاد تطبيق الشريعة، وبيان أن التكليف منوط بالاستطاعة.

- التصويب لمنهجية الاقتداء، ووضع المشكلات المعاصرة في موقعها المناسب من مرحلة السيرة وفترة القدوة وجيل خير القرون.

-بيان أن عملية النهوض تتطلب فقه النص وفهم الواقع، والتعامل مع المشكلات من خلال الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة .

-صوابية الحل لمشكلات عصر معين، لا تعني بالضرورة قدرتها على معالجة مستجدات كل عصر.